التطور الأحيائي
بين الدين والفلسفة

تأليف

الأستاذ الدكتور

محمد حسيني موسى محمد الغزالي

رئيس قسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين والدعوة بالزقازيق

الطبعة الرابعة

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

دعـــاء ورجـــاء

إلهــي ...

إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك ، فإلى من يفزع المذنبون ؟

اللهم ...

آمــن روعاتـــي ، واستر عوراتي ،

وأقلني من عثراتي ، وسدد هفواتي ،

وأغفر لي زلاتي ،

وأكرم أهلي أولادي وبناتي ،

إنك نعم المولى ونعم النصير .

المقدمـــــة :

الحمـــد لله ، أنار قلوب عارفيه بأنوار محبته ، وجعل عقولهم تهفوا لجلاله وترجو رحمته، وأسبغ عليهم من جلابيب النعم وجزيل العطايا، فهاموا يرتشفون مـــن رحـــيق فضله ويتفيأون ظلال وارف رضوانه ، ويرفلون في مثارب هداه ونعمته ، وترك أهل الضلال لأهوائهم فاستحقوا غضبه ومذمته .

قـــال جـــل شأنه: "أَرَءَيتَ مَنْ اتَخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنت تَكُونُ عَلَيْه وكيلا أم تحْسبُ أَنَّ أَكْثرهُمْ يسْمعُون أَو يَعقِلُون إِن هُمْ كَالأَنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبيلاً"[١] وقال جـــل شـــأنه:"أَفرءيتَ مَنْ اتَخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وخَتَمَ عَلَى سمْعه وَقَلْبِه وجعَلَ عَلَى بَصَرِه غِشَاوةً فَمَن يَهْدِيه مِن بَعْدِ الله أَفَلا تَذَكَّرُون"[٢] .

وأشهد أن لا اله الا الله أنار الوجود بأنوار طلعة نبينا محمد صلى الله عليه وســلم ، وخلـــع عليه من حلل الجلال والجمال ما ملأ القلوب وأدهش الأفهام ، وجعله أمام حضرته ، عروس مملكته ، وشرفه على سائر الأنام ، ورفع ببركته قـــدر المنتمين اليه،ومنحهم من واسع فضله سوابغ الإنعام[٣]، فهو خاصة الملك العلام،حارت فى منزلته العقول والأفهام .

وأشهد أن سيدنا محمدا عبد الله ورسوله ، اصطفاه الله جل شأنه على سائر الأنبـــياء والمرسلين ، وفضل آل بيته على المخلوقات ، وأنزلهم بفضله وكرمه أعلى الدرجات ، فأحرزوا قصبات سبق فى الدنيا والآخرة ، واتصفوا بالكمالات الظاهرة والباطنة والمحاسن الفاخرة، فهم نور حدقة كل زمان،وحديقة كل عصر وأوان ، الممـــيزون بالفضل عمن سواهم،الخاذلون لمن أبغضهم وعاداهم [٤] ، وكيف لا وهم الذين عمتهم انوار النبوة الخاتمة .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٤٣ ، ٤٤ .
(٢) سورة الجاثية الآية ٢٣ .
(٣)الشيخ محمد الصبان - اسعاف الراغبين في سيرة المصطفي وفضائل أهل بيته الطاهرين صلى الله عليه وسلم ص٣ المطبعة المليجية ١٣٢٣هـ وهو من روائع ما كتب في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .
(٤)الشيخ الشبلنجي المدعو بمؤمن - نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار ص ٣ ، ط المليجية ١٣٢٣ هـ

اللهم صلى وسلم وبارك على نبيك محمد بن عبد الله المصطفى صلى الله علـــيه وســـلم ، صاحب الشفاعة العظمى والصفا ، وارحم آل بيته أهل العرفان والوفا،وأصحابه الذين بهم أسباب النجاة تقتفى، لقوله صلى الله عليه وسلم (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم)[1]

واحشرنا يارب مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.واجعلنا ممن تشملهم الشـــفاعة التى خصصتها لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وأكرمنا فى أهلنا وذرارينا والوالدين،إنك يا مولانا نعم المولى ونعم النصير .

---

(١)راجع شرح مسند ابي حنيفة (٨٠ - ١٥٠ هـ) للإمام القاري : ذكر في اسناده عن علقمة بن مرثد - حديث القدر في الهامش فقال: عن ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: أصحابي كالنجوم من اقتدى بشئ منها اهتدى . وفي صحيح مسلم - باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للامة ، حديث ٢٠٧ (٢٥٣١) ماروى عن مجمع بن يحيى عن سعيد بن ابي بردة عن ابي ردة عن أبيه قال: صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قلنا : لو جلسنا معه حتى نصلي العشاء ، قال فجلسنا فخرج علينا فقال : ما زلتم ههنا؟ قلنا: يارسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء فقال :"احسنتم أو أصبتم " ورفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء فقال:" النجوم آمنة للسماء ، فإذا ذهبت أتي السماء ما توعد ، وأنا آمنة لأصحابي فإذا ذهبت اتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي آمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي اتى أمتي ما يوعدون "، ومعنى الحديث أن النجوم ما دامت باقية فالسماء باقية فإذا انكدرت النجوم وتناثرت يوم القيامة ، وهنت السماء فانفطرت وانشقت وذهبت . (وأنا آمنة لأصحابي) من الفتن والحروب وارتداد من ارتد من الأعراب واختلاف القلوب ونحو ذلك مما أنذر به صريحا وقد وقع كل ذلك .(فإذا ذهب أصحابي اتى أمتي ما يوعدون) من ظهور البدع والحوادث في الدين والفتن فيه ، وطلوع قرن الشيطان وظهور الروم وغيرهم عليهم وانتهاك المدينة ومكة وغير ذلك ، وهذه كلها من معجزاته صلى الله عليه وسلم - أخرجه السيوطي في الجامع الصغير . والحديث (٤٦٠٣) عن رسول الله قال: سألت ربي فيما يختلف فيه أصحابي من بعدي فأوحى إليّ: يا محمد إن أصحابك عندي بمنزلة النجوم في السماء بعضها أضوا من بعض ، فمن أخذ بشئ مما هم عليه من اختلاف فهو عندي على هدى ، قال السيوطي: فاختلافهم رحمة وذلك لأن قتالهم لم يكن للدنيا بل للدين ، فهم وإن افترقوا من جهة حوز الدنيا فهم كنفس واحدة في التوحيد وكلهم نصروا الدين وأهله وقمعوا الشرك وأصله ، وفتحوا الأمصار وسلبوا الكفار ، وقمعوا الفجار ، ودعوا إلى كلمة التقوى ، جمعهم الدين وفرقتهم الدنيا ، فأذاقهم الله بأسهم فبأسهم الذي أذيقوه كفارة لما اجترحوه ." ولا يخفي أن الكثير منهم كان يعمل باجتهاده ، فالمصيب منهم له أجران والمخطئ له أجر ، وفي الحديث الشريف أيضاً :"احفظوني في أصحابي وأصهاري فمن حفظني فيهم حفظه الله في الدنيا والآخرة ، ومن لم يحفظني فيهم تخلى الله منه ومن تخلى الله منه أوشك أن يأخذه " ، وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :" اقتدوا بالذين من بعدي من أصحابي : أبي بكر وعمر ، اهتدوا بهدي عمار وتمسكوا بعهد ابن مسعود " أخرجه الترمذي عن ابن مسعود الروياني عن حذيفة بن عدي ، وفي الكامل عن أنس .

أما بعـــــــد ...

فان البحث العلمي الهادف لمعرفة الله تعالي ؛ لهو من أنعم الله جل جلاله ، يثيب عليه صاحبه، ويثبت قلبه على الإيمان ، ويرفعه الله به درجات عنده . قال تعـالى : **يـرْفَعِ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** (١) .

أمـا اذا كان البحث فى العلم غير هادف،أو انحصر هدفه فى بلوغ المنزلة لدى بعـض الـنفوس،أو معارضــة القواعـد الشرعية،أو التشكيك فى الاستدلالات الصـحيحة،علـى توحـيد علـى رب البرية – فانه يكون من أفعال الشياطين المغضوب عليهم من رب العالمين ، قال تعالى : " **وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِياً من دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً** " (٢)

والحـق أن الله تعالى قد خلق البشرية كما جعل فيها الأنبياء والنبوات ، وأرسل فيهم الرسل يحملون الرسالات،وقد ختمت بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (٣) وكـان كـل نبى يأخذ بأيدي من بعث فيهم،الى رضوان الله تعالى، حتى ينالوا أعلـى الدرجـات وتنقطع الحجج والأعذار والتمحلات ، قال تعالى : " **رُسُلا مُبَشِّـرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا** " (٤).

غير أن بعض الناس قد يتركون ما شرع الله تعالى زاعمين قصوره عن الوفاء

---

(١)سورة المجادلة الآية ١١

(٢)سورة النساء الآية ١١٩ .

(٣)قـال تعـالى: " مَـا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا" سورة الاحزاب الآية ٤٠ .

(٤)سورة النساء الآية ١٦٥ .

ببعض الاحتياجات ، أو منوهمين وقوعه عند بعض الغايات(١) أو ينحللون من الدين الإلهى بالكلية ، ويعتبرون الشيطان والهوى قواعد راسية مرعيه ، رافعين شـعار البحـث العلمى الحر ، وما هو الا بحث شيطانى متمرد وإن جاء تحت الأسماء التى لها بعض الوقع على نفوس الأغرار ، ومن تلك الأسماء التطور ، الحداثة ، والمعاصرة إلى غير ذلك مما يرتدى أصحابه ثوب العلم والحيدة ، وما هم ولا هو فى شىء من ذلك .

وفكـرة الـتطور الإحيائـي،أو النشوء والارتقاء،إنما هي مجرد افتراض تخمينـي خيالي،انتشر كالموجة الطاغية فى أرجاء الأرض، وتكاثر عدد أولئك الذيـن تقـبلوها كحقـيقة واقعية،ثم راحوا كالببغاوات يرددون بلا وعى أقوال دعاتها، مؤكدين أن الدين قد عفى عليه الزمن،وأنه مناف للعلم ، ويجب التخلى عن الدين،والتمسك بالعلم التجريبي ، مع إن الأمر على العكس من ذلك تماما ، لأن النشوئى نفسه هو الذى يتبنى موقفا غير علمى ، لانه يؤمن بنظرية لا تستند إلـى حقائق علمية ، وبالتالي فإن مهاجمة هده النظريه ليست مهاجمة للعلم .(٢) وإنمـا هـو واجب لبيان الخطأ الذى يعتقده أولئك السطحيون ، الذين يستغلون الظـروف حتى يركبوا الموجة،بحيث يكون لهم على متنها الوجود الفعلى كله ،

---

(١) وهـى مزاعم كاذبة يرددها العلمانيون ومن على شاكلتهم ، راجع فى هذا الشأن – وجها لوجه الاسلام والعلمانية – الدكتور/ يوسف القرضاوى – طبعة دار الصحوة

(٢) الأستاذة منيرة على الغاياتى – مذهب النشوء والإرتقاء فى مواجهة الدين ص٦ – مكتبة وهبة ١٩٧٦ م وهـى عـبارة عن رسالة صغيرة صفحاتها احدى وثلاثين صفحة من القطع المتوسط ، وفيها محاولة أم لإقناع ولـيدها الـذى اعتقد صحة تلك الأفكار فلما حاورته مرات عديدة وأبانت له فساد النشوئين أقلع عن تلك الأفكـار الشـيطانية ، فهى تمثل بجانب موضوعها تجربة ذاتية ، قامت بها أم فاضلة لترد ابنها الى صوابه وقد نجحت فى ذلك

ومـــا هـــم الا الدخـــان الذى لا فائدة منه ، ومع ذلك طفا على صفحات الماء، وضرره قائم وأخطاره على الجميع ، ومن الواجب الحذر منه والابتعاد عنه .
والثابـــت لـــدى الدارســـين المنصفين ، أنه لم يكد القرن الثامن عشر فى اوربا ينصرم حتى راحت الآلة تزحف الى المصانع زحفا كاملا وكذلك تسللت للمعامل ونظـــرا لســـهولة الحصـــول علـــيها، ورخصها فقد اندفعت لتحل فيها بدلا من الإنسان، الذى ربما ثار على القوانين التى يرسمها أصحاب الأعمال ويسيرون علـــيها ، ومـــن ثمّ راحت الآلة تقاسمه كد يمينه ، وعرق جبينه[1]. كما تقاسمه قـــوت أولاده بل كادت تفقده أحد أهم مصادر كسب قوته التى يعتمد عليها، فى مشوار حياته قصر أو طال .

وكلما ضاقت بالناس سبل المعيشة الكريمة،واختفى من نفوسهم نور الإيمان، هـــرع بعضـــهم الى مقاومة الأوضاع السائدة ، دون مراعاة لأصول عامة أو قواعد ثابتة ، بل ومن غير تفكير فى العواقب التى تأتى من جراء تلك المقاومة فليس – عندهم – بعد الجوع جريمة ، يمكن أن يعاقبوا عليها[2] بل ان المعاقبة علـــى الأفعال الناتجة عن الجوع أمر لا تقره أعرافهم ، ومن ثم فقد حذفوها من قواميس تعاملاتهم اليومية .

ومـــع مطلـــع القـــرن التاســـع عشر ، ظهرت فى اوربا حضارة أحيطت باتجاهات طافحة بعناصر المادية والإلحاد المتنوع [3] ، كما حفلت بأنواع القلق المختلفة التى ارتبطت هى الأخرى بالحضارة الصناعية،فصارت حبيسة ما نشأ

---

(١) الدكتور محمود السيد عبد العاطى – نظرات فى الفلسفة الحديثة ص ٣٧ ط ١ – ١٩٦٥ م .
(٢) الأســـتاذ زكـــى محمـــد سليمان – الإنسان والحضارة المعاصرة ط ٢ – ص ٥١ – ١٩٧١م – دار مختار للطباعة والتوزيع .
(٣) الأستاذ محمد أحمد باشميل – الإسلام ونظرية داروين – ص ٥ – ط ٣ ١٩٨٤م .

عـنها من أنماط جديدة للعيش،وطرائق مستحدثة للسلوك[١] لم تكن معروفة من قـبل ، وليس لها قبول فى أذهان الذين كان لهم وجود آنئذ ، كما ظهرت بعض الأفكـار الـتى تبـناها أصـحابها واعتـبروها نظريات علمية ، تحولت الى أيدولوجيات معينة لدى البعض[٢] أو عقائد عند البعض الأخر .

إذن الحضارة الأوربية ، لم تقدم للإنسانية ما يحقق لها الراحة والهدوء، أو الطمأنينة وبخاصة ما يتعلق بتلك الحضارة فى الجوانب المادية، التى انتشرت فى ميادين العلم التجريبى بأوربا أبان تلك الفترة ، حيث ظهرت لها أخطاء كثيرة ، بجانب ما فيها من بعض المنافع المادية ، ولم يقف ذلك عند الحضارة المادية وحدها ، وإنما شمل الثقافة القائمة فى أفهامهم أيضا .

غير أن تلك الأفكار السلبية قد غطت الجوانب الأخرى ، التى يظن أن فيها فوائد بعد أن أكد رجالاتها على ضرورة الإيمان بالمنهج التجريبى وحده ، القائم علـى الملاحظة والتجربة،واعتباره المنهج الأمثل،والطريق الصحيح الوحيد فى الوصول الى الحقائق العلمية[٣] مع استبعاد الجانب الإيمانى من النفوس ، وإبعاده عن قاموس التعاملات اليومية،باعتبار أنه جانب نظرى،غير قابل للتأكد منه عن طريق المنهج التجريبى ، حتى قال داعيهم : إن الدين ما هو الا انعكاس وهمى لا غير لتلك القوى الخارجية فى رؤوس الناس ، ويسـتحوذ عليـهم فى

---

(١)الدكتور رفقى زاهر – عصر القلق ص٣ – ط١ ١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨م – دار التضامن للطباعة .

(٢) الأستاذ شمس الدين أق بلوت ـ دارون ونظرية التطور ص ٦٢٥ ترجمة الأستاذ أورخان محمد على ـ ط دار الصحوة بالقاهرة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

(٣) سـيرغى توكـاريف – الأديان فى تاريخ شعوب العالم ص٣٠ – ترجمة د/أحمد فاضل ط١ – ١٩٩٨ م الاهالى للطباعة والتوزيع مكتبة الأسد بسورية .

حياتهم اليومية ، انعكاسا تأخذ فيه القوى الدنيوية شكلا غير دنيوى[١].

وهى مراعم كذوب ، لأن الدين الإلهى وحى الله تعالى،وهو ليس شيئا ماديا بحيث يمكن التجريب عليه ، كما أن غريزة التدين غريزة فطرية فى النفوس ، وهى ليست شيئا ماديا أيضا ، يقول الدكتور دراز : إن الحقيقة التى أجمع عليها مؤرخـو الأديـان ، هى أنه ليست هناك جماعة انسانية ، بل أمة كبيرة ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر فى مبدأ الإنسان ومصيره ، وفى تعليل ظواهر الكون وأحداثه، دون أن تتخذ لها فى هذه المسائل رأيا معينا حقا أو باطلا، يقينا أو ظنا ، تصور به القوة التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها ، والمآل الذى تصير اليه الكائنات بعد تحولها،الذى لابد منه فى المستقبل [٢] .

لكـن الوضع اختلف فى اوربا ، ونظرا لبعد أصحابها عن الدين الإلهى،فقد اتجه مفكروها الى المنهج التجريبى المادى وحده دون التفات لشىء أخر سواه ، حـتى لو كان هذه الشىء الاخر هو الدين نفسه ، بل أكثر من ذلك انهم اعتبروا المـادة وحدها هى القوة والأساس والقوة التى يجب الالتفات اليها، مع الاهتمام والعناية بها ، وأطلقوا على الدين اسم المسألة الدينية[٣] فصار الدين عندهم كأى مسألة تقبل الاعتراف بها أو الرفض لها . وراحوا يرددون أقوالا شمطاء منها : أنـه لا قـوة بلا مادة ولا مادة بلا قوة ، فكلاهما يكمل الآخر من غير اعتبار

---

(١) يراجع فى هذا الشأن وجها لوجه الإسلام والعلمانية للدكتور يوسف القرضاوى ، وكذلك الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى للدكتور محمد حسيف موسى الغزالى .

(٢)د / محمد عبد الله دراز – الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ص٣٤ – مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م ، وقد تعرض المؤلف للعديد من الجوانب التى البتت أن التدين غريزة فطرية وأنه أمر نفسى روحانى ولا يمكن أن يكون ماديا بحيث يتم التجريب عليه ، ومعرفة ما اذا كان يقبل التعامل معه عن طريق المعمل أم لا

(٣)د/ يوسف القرضاوى – وجها لوجه الاسلام والعلمانية ص٧ .

لشيء سوى المادة والقوة[١] وفى نفس الوقت فإن التكامل بين القوة والمادة لا يتم إلا فى حراسة المنهج التجريبى وحده مع إغفال أو إهمال أية جوانب أو مناهج اخـــرى ، حتى لو تعلقت بقضايا الدين نفسه أو نصوصه ما دامت قضايا الدين عندهم غير قابلة للتجريب عليها .

كان من نتائج ذلك الاعتقاد الفاسد ، الخروج على الدين الإلهي،والتزام المنهج المادى التجريبى وحده ، بجانب ظهور العديد من الاتجاهات الفكرية ،التى يزعم القـــائلون بهـــا ضـــرورة سيطرتها على كل ما هو قائم فى الحياة ، واخضاعه للمـــنهج التجريـــبى بحيـــث يكون هو مدار القبول أو الرفض ، ومعيار الصدق والكذب ، حتى لو كان ذلك متعلقا بالدين نفسه.(٣)

وقد تنامت تلك الاتجاهات المنحرفة كثيراً ، حتى فرضت نفسها على ساحة الفكر الأوربي كله،وفرضت ذاتها ونتائجها على مشاعرهم أيضا ، مستغلة بعض النجاحات التى حققها المنهج التجريبى ، فى بعض مراحله الأولى ، حتى أمكن القول بأنه فى القرن التاسع عشر فى أوربا غزت المادية مخـــتلف النشـــاطات الفكـــرية والعلمـــية ، وصارت تجول فى عقول الناس هناك ، باعتبارها المنقذ الوحيد لهم من الأزمات التى يعانون منها أو المخرج الوحيد من المشكلات التى

---

(١)الأستاذ/ رابوبورت – مبادىء الفلسفة ص١٥٢ – ترجمة أحمد أمين – طبعة بيروت ١٩٦٩م.

(٢)الأستاذ/ شمس الدين آق بلوت – دارون ونظرية التطور ص١٣٠ ، وراجع موقف العقل والعلم والعالم من رب العـــالمين وعـــباده المرسلين للشيخ مصطفى صبرى ، فقد تعرض للحديث عن أصحاب المنهج التجريبى ومحاولـــة تطبـــيقه على الدين وبين أن ذلك قول فاسد ، وكذلك صنع الدكتور سليمان دنيا فى كتابه التفكير الفلسفي الإسلامي وهى من الكتب المهمة فى مناقشة أصحاب المذهب المادى.

(٣)وفى ذلـــك خطورة على كل الأنظمة الفكرية والقيم الأخلاقية لأنها لا تخضع للمنهج التجريبى ، وليست الخطورة على الدين وحده ، وتلك مشكلة كبرى أوقعهم فيها خيالهم الجامح وكفرهم الطافح .

يعانون منه ، او يتوقعون وقوعها [١] وان الابتعاد عن المنهج التجريبي المادي يمثل الهلاك ذاته ، إن لم يكن مؤديا فقط إليه

ربما يقال: إن مفكرى اوربا لهم العذر فى ذلك،باعتبار أنهم لم يعرفوا دين الله المنزل على حقيقته الربانية ، وإنما عرفوا عنه صورة محرفة من صنع الكنيسة الأوربـــية ، لا صلة لها بالأصل المنزل ، وأن الجماهير الأوربية ظلت تستقى دينها من رجال الدين ، الذين يمثلهم البابوات والكرادلة ، ومن المجامع المقدسة وشـــراح الاناجيل المحرفة،وتعتبرهم مرجعا لا يرقى اليه الشك، ولا يجوز أن يناقش فاتخذوهم – على الحقيقة لا على المجاز – أربابا من دون الله [٢] لا يمكن أن يتطرق الى أقوالهم شىء من الشك أو ينسب اليهم أدنى قدر من الكذب .

غير أن ذلك العذر غير مقبول ، لأن أوربا تعاملت مع الفكر الإسلامى فى جانـــبه العلمى المادى[٣]وأنهم تعرفوا على الاسلام من خلال الفاتحين المسلمين الأوائل ، الذين حملوا الدين الاسلامى لكل مكان ، تنفيذا لتعاليم الله رب العالمين ولا يقبل العذر منهم أبدا إلا أن يكون صغيرا غير مميز أو بالغا لا عقل له .

على كل فقد كان من نتائج ذلك التمسك بالمنهج التجريبى وحده، والخروج على شرع الله ، أن ظهرت فى أوربا العديد من الاتجاهات الفكرية التى تبنـــت الإلحاد ، وتمسكت به ، كما دافعـــت عنه ، كالحـــال مع العلمـــانية(٤) وأيضـــاً

---

(١) دكتور/ رفقى زاهر – عصر القلق ص ١١ .

(٢) الأستاذ محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة ص٩ – ط ٨ – دار الشروق ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

(٣)يشهد لذلك ترجماتهم العديدة لفكري الإسلام ، ومنها مؤلفات ابن سينا ، وابن رشد ، وغيرهما فى العلوم الطبيعية

(٤)راجـــع فى هـــذا الشـــأن العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق – ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٦ للدكـــتور محمـــد البهى ، وكذلك وجها لوجه الإسلام والعلمانية للدكتور يوسف القرضاوى ، وكثير غيرهما كتبوا عن العلمانية وبينوا فسادها

الوجوديـــة[١] والماركســـية (٢) والداروينـــية والوضعية الطبيعية ، وغيرها من التيارات والاتجاهات الفكرية المنحرفة التى صاحبت نهاية القرن الثامن عشر ، واستغرقت القرن التاسع عشر ،بل والعشرين أيضا .

إذن تبنت تلك الاتجاهات المنحرفة الفكر العبثى ، كما ركزت على نزغات النفس الإنسانية الثلاثة [٣] وهى :

أولا : الميل الى التحلل من قيود الدين وإلزاماته .

ثانيا: الميل الى التمرد على النظام السياسى القائم .

ثالثا: الحقد الطبيعي على الأغنياء ، وتمنى زوال النعمة عنهم[٤] .

وقـــد كـــثر الحديـــث عن تلك الاتجاهات الفكرية المنحرفة ، وبخاصة من أصـــحابها الذين حاولوا إبراز ما يظنونه من الجمال وما فيه بشىء جميل أبداً ، بـــل فـــي ذات الأفكـــار الكثير من الرعونة [٥] ، والأكثر من الخضوع للتعبئة اللاشـــعورية ، التى يقوم بها الرافضون تعاليم المسيحية ، الواقفون ضد الكنيسة بشكل خاص ، والدين عندهم بشكل عام .

---

(١)راجـــع المذاهب الوجودية من كيحر كجورد الى جان بول سارتر – تأليف ريجيس جوليفية – ترجمة فؤاد كامل ، والوجوديون كافرون بالله رب العالمين لأنهم لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها .

(٢)وقـــد ظهرت مع مطالع القرن العشرين مصاحبة للثورة البلشفية فى روسيا، ولمزيد من التفاصيل : راجع مذاهب فكرية للأستاذ محمد قطب ، والماركسية والإسلام للإمام الأكبر الدكتور / عبد الحليم محمود

(٣) النزغـــات جمع نزغة ، وهى الفساد ، يقال نزغ بين القوم بمعنى أفسد ، وحمل بعضهم على البعض ، ونزغ فلان بمعنى طعنه بيد أو رمح ، ونزغه الشيطان معناه وسوس له ، راجع المعجم الوجيز باب النون ص ٦١٠ ط وزارة التربية والتعليم ١٩٩٢م .

(٤) دكتور / رفقي زاهر ـــ أوهام الماركسية ص ٢٩ وزارة التربية والتعليم ١٩٩٢م .

(٥) توبي أهاف ـــ فجر العلم الحديث ص ٢٢٧ ترجمة دكتور أحمد محمود صبحي .

وعلـــى الرغم من ان العالم قد دخل الألفية الثالثة كما يقولون(١)، ألا أنه ما تزال تلك الاتجاهات المنحرفة تجد من يتمسك بها ، ويحاول الدفاع عنها ، حتى تولدت عنها وبرزت بجوارها اتجاهات أخرى أيضا ، بعضها قائم على التجربة وبعـــض أخـــر قـــائم على مشكلات أخلاقية ، وبعض أخير يجرى فى ميادين يصـــعب التنبؤ بها على سبيل الحصر او اليقين والقطع ، وربما يحاول التعبير عن نفسه يوماً ما .

ومما لا شك فيه أن رصد كل الأفكار المنحرفة ،ليست مهمة سهلة يمكن أن يقـــوم بها باحث واحد ، أو باحثون على سبيل الحصر ، وإنما هى مهمة صعبة وشـــاقة أيضا ، ذلك أن ملاحقات تلك الاتجاهات أمر صعب ومن ثُمَّ فإن متابعة الأفكار التى ترد عنها أيضا صعبة ، متى أريد ضبط ذلك فى العالم كله .

غير أنى سأركز فى هذا الكتاب على فكرة التطور الإحيائى العضوي بين الدين والفلسفة ، وموقف الإسلام منها ابتداء من النشوء ، ثم التطور والإرتقاء وبقائها فى سلسلة التطور على سبيل الاستمرار(٢) باعتبار أنها تحمل أفكاراً ربما وافق بعضها التجربة ثم أخفقت فيما بعد ، أو عاندتها التجربة من أول أمرها ولم تقـــف معها حتى يومنا هذا رغم تكرار المحاولة (٣) وعدم انقطاعها من جانبهم وبيان موقف الفكر الإسلامى من تلك الأفكار الفاسدة المنحرفة.

ربمـــا يقال لماذا حكمت عليها بالانحراف وأنت لم تبدأ بعد فى عرضها ألا يعتـــبر ذلـــك مصـــادرة على المطلوب ؟ والجواب :أن حديثي السابق كان عن

---

(١) وهي الألفية الثالثة التي ابتدأت منذ فترة وجيزة .
(٢)الأستاذ/ محمود عبد الكريم الخطيب – التطور ودعاته ص٢٥ ط١ ١٩٥٧م .
(٣) حيث ثبت أن فكرة تطور الكائنات الحية العضوية التى قال بها أصحابها مجرد فرض لم تثبـــت صـــحته – راجـــع فى العقـــيدة الإسلامية والأخلاق للدكتور/ محمد عبد الستار نصار وآخرون ص٧ – دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

الأفكـــار المـــنحرفة فـــي جملتها ، وهو ذات العبارة بألفاظها ، أما حديثي هذا فســـيكون عن النظرية التطورية العضوية بذاتها ، وبالتالى فالحكم غير منصب عليها الآن، وإن كان سيأتيها فى المستقبل، فما ذلك إلا لقيامها على إنكار الخالق جل علاه .

يقـــول سير أرثر كيث إن نظرية النشوء لازالت حتى الآن بدون براهين وستظل كذلك ، والسبب الوحيد فى أننا نعترف بها هو أن البديل الوحيد الممكن لها ،هو الإيمان بالخلق المباشر ،وهذا أمر غير وارد على الاطلاق .

ويدلى واطسون بدلوه قائلا : إن علماء الحيوان يؤمنون بالنشوء،لا كنتيجة للملاحظـــة أو الاختيار أو الاستدلال المنطقي ، وإنما لأن فكرة الخلق المباشر بعيد عن التصور[١].

ومـــن المؤســـف له ، ما يزعمه البعض ممن يتعلقون بتلك الهلاوس ، أن الأفكـــار الـــتطورية الإحيائـــية العضوية تمثل بعض المراقبة المستمرة لتاريخ الكائنات الحية وليس التجريب وحده هو الذى يجب الاحتكام اليه[٢] بل إن ذلك الزعم قلل من أهميتها،وجعل أمر اعتقاد صحتها غير مقبول، سواء قصدوا ذلك المعـــنى أم لـــم يقصدوا اليه ، فهم بهذا الاعتراف قد أسقطوا أفكارهم بأنفسهم ، وأعلنوا عجزها عن الوفاء بما علقوه عليها من آمال .

لكن : لما كان لهذه الأفكار من الأخطار على العقيدة والشريعة والأخلاق،بجانب القـــيم الإيجابية ، فإن ذلك يجعل البحث فى تلك القضايا ، وإعادة النظر بالنسبة لمحتوياتها والشبهات التى تقوم عليها،والنتائج التى انتهت اليها،أمراً ضروريا ،

---

(١)الأستاذة/ منيرة على الغاياتى – مذهب النشوء والإرتقاء فى مواجهة الدين ص٦ – مكتبة وهبة بالقاهرة ١٩٧٦م.

(٢)الأستاذ/ عبد العاطى محمود عبد اللطيف – التطور العضوى ص١٣ ط٢ ١٩٤١م ويجب التفرقة بين مراقبة تاريخ الكائنات الحية والتجريب عليها لأن كلا منها يخالف الاخر

بل هو أيضا أمر شرعى بالنسبة للمسلم ، حتى يكشف الأخطاء التىقامت عليها تلك الأفكار ، ويقوم المعوج منها ، كما يطرحها بعيداً عن ميدان المفكر المسلم وكذلك التفكير السليم .

فـــى نفس الوقت ؛ فإن البعض قد يطلق عليها اسم فلسفة التطور الطبيعى(١) وغرضـــه من ذلك هو التأكيد على أنه فكر له قواعد وأصول وله كذلك نتائج وغايات ، أو هو قضايا لا حكم للدين عليها وهى مزاعم باطلة ، ودعوى كذوب لا رصيد لها،وكم أطلقها الطبيعيون فى الماضى ،ويرددها من على نفس الاتجاه يسيرون فى الوقت الحاضر أيضا(٢) .

ومصـــدر الخطر فيها قائم لا يمكن تجاهله أو التغاضى عن سلبياته ، متى ظن الأغرار أنها قضايا علمية صحيحة، وهى فى الأصل مزاعم كاذبة تناقض قواعد الشرع وأصول الدين الإسلامى الحنيف .

أما مظاهر الخطر التى تجئ مع تلك الأفكار المنحرفة ، فواضحة من حيث إنها تلغى من عقول القائمين عليها،عقيدة وجود الخالق العظيم رب العالمين جل علاه ، وقدرته على الخلق والإعدام، وتتمسك بفكرة المصادفة البحتة (٣)والحتمية القاهرة والسببية العقلية التى لا تنفك حتى نتج عنها من وجهة نظرهم الانتخاب الطبيعى .

ثم إن فكرة هذا التطور الإحيائي ـــ عند القائلين بها ـــ قد ركزت على أن

---

(١)فعـل ذلك سلامه موسى فى كتابه : نظرية التطور وأصل الأنواع ، كما سجل ذلك أيضا فى كتابه تطور الكائنات وكان يطلق عليها فى كتاباته (فلسفة التطور الطبيعى) .
(٢)الأستاذ/ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٣٩ .
(٣)المصـــادفة والحتمـــية مـــن توابع القول بالسببية العقلية التى لا تنفك فيها العلاقة بين السبب والمسبب - راجع فى هذا الشأن السببية العقلية ما لها وما عليها للأستاذ حنا نصر ص١٥ وما بعدها - ط دار المحبة ١٩٣٦م .

الكـــون نشـــأ خاليا من عوامل القصدية ، والانتظام العلوى ،ومجئ النتائج مع المقدمات ، وأنه هكذا نشأ بالمصادفة،ثم الحتمية،وذلك ما وصفه لهم زعماء تلك الأفكـــار[١] الذين استفادوا مما دونه السابقون فى اوربا ، على أنه وجهات نظر فقط ، وبخاصة ديكارت حيث سجل ذلك فى كتابه العالم الطبيعى (٢) وإن كانت تخالفهم فى بعض الطرائق .

ومن الثابت تاريخيا ، أن زعماء الفكر التطورى الإحيائى قد ارتضعوا البان الفكـــر المنحرف قديما ، واعتبروه عقيدة يجب التمسك بها ، فقالوا انعدام وجود الســـببية العادية فى خلق الكائنات ،وانما نسبوا ذلك للمصادفة أوالعشوائية ، أما حديثا فمنهم لامارك الفرنسى (٣) .

ثم ألفرد راسل والاس الانجليزى (٤) وأخيرا تسلمها تشارلز داروين الذى حاول أن يلتصـــق بها حتى انتشر بين الناس أمرها ، وما يزال أمرها بين القبول عند هـــواة الفكر الإلحادى ، والرفض الكامل عند أهل الإسلام ، لأنها تخالف قواعد الشرع الإسلامى الحنيف في مقدماتها ونتائجها .

إذن تشـــارلز دارويـــن وجد الأصول والقواعد للفكرة قائمة وموجودة فى أفكـــار سابقيه ، لكنها متناثرة فيما كتبه السابقون عليه ، وبالتالى فهى فى حاجة الـــى تجميع تلك الجزئيات ، وإعادة الصياغة لها من جديد ، حتى ذهب البعض الـــى أن التطور العضوي سنة الحياة ، وأن كل ذى عقل علمى فلسفى رشيد ،

---

(١)مـــن زعمـــاء هذه الفكرة لامارك ووالاس ثم تشارلز داروين وغيرهم راجع في الفصل الرابع من هذا الكتاب أبرز المقعدين لها .

(٢)وهو اتجاه تفق به جاليليو، وكان احد العوامل التى أدت الى العنف معه ، مما انتهى بالقضاء عليه ، وحوادثه في تاريخ الفلسفة الحديثة ظاهرة .

(٣) ولـــد لامـــارك في ١٧٤٤ م ، وهلك أخيرا في عام ١٨٢٩م عن عمر تجاوز الثمانين عاما ، ولم يقدم لنفسه عملاً صالحاً ومات كافراً

(٤) ولـــد ألفرد راسل والاس في ١٨٢٣م ، قبل موت لامارك بسنوات قليلة . وهلك عام ١٩١٣م فكانت ولادته في نهاية سابقه

يـدرك ـ هناك مراتب تصاعدية عامه في نمو المعرفة(١) وهو نوع من الخلط بين التصور الكوني والتطور الإحيائي، والمعارف العقلية ، وتلك مهمة لابد من بيانها ، أثناء تناول كل جزئية من جزئيات الفكرة الإحيائية العضوية ، على ما سيرد في صلب ذلك الكتاب إن شاء الله تعالى

على كل يمكن القول بأن دارون عكف على قراءة الأفكار التطورية ، التى تركها سابقوه ، ثم أعاد صياغة بعضها وقعّد لها ، وأعاد الصياغة لجزئياتها مرة أخرى فى أشكال اعتبرها علمية ، طبقا لقاعدة استفادة اللاحق من السابق ، مع الأخذ بعين الاعتبار حجم الإضافات التى تمت على يديه .

وخاصـــة أن جده أرازموس قد نبه لها (٢)،وكان يتبنى القول بها ، ويدعم الذاهبيـن إليها ، وكان ذلك الجد على علم بالأدب والطب ، كما كان لديه سعة إطلاع فيه ، فجمع الجد بين الخيال ، والعلم الظني

إذن داروين تبنى تلك الأفكار الإلحادية ، وقام بتغذيتها عن طريق مزاعم العلــم التجريبي الظني ، مستغلا وجود نوع من التشابه بين بعض الثدييات أو الفقاريـات ، مستشهداً بآراء ثانوية من الاثريات والحفريات ، محيلاً الى نفس الإستشـــهادات التى سبق القول بها من دعاة التطور الإحيائى قبله ، وتم رفضها من أهل العلم به (٣)، بل ورفضها علماء الدين الإسلامى على وجه الخصوص ، مع بيان الأدلة المتعددة على ما ذهبوا إليه .

---

(١) جورج سارتون ـــ تاريخ العلم ج ١ ص ٢٤ ط دار المعارف ترجمة مجموعة من العلماء ١٩٩١م

(٢)هذا الجد يدعى أرازموس داروين ، وقد هلك ١٨٠٢م / ويصفه البعض بأنه كانت لديه معارف خاصة فى ذلك المجال ،وأنه سجلها في قصائده التي ذاع أمرها بالنسبة له . راجع فــي هــذا الشــأن ج.ج.كراوثر – قصة العلم ص ١٧٣ / ١٧٤ – ترجمة د / يمنى طريف الخولى ، د / بدوى عبد الفتاح ط ١٩٩٩ م

(٣)الأستاذ / يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣٤٠

والذى يغلب عندى ، هو أن من قاموا بغرس تلك الأفكار المنحرفة، كانت تقودهـم توجهـات ذات طبيعة أيديولوجية معينة ، بعضهم استقرت رغبتهم فى مقاومة السلطان الكنسى ، وزعزعة ثقة الناس فى الكنيسة ورجالها، والدين الذى يدعـون الـيه، ومحاولة تحطيم كل ما يمكن اعتباره من أعمدتها ، أو سنداً من أسانيدها[١].

ولكن الفرق بين دين الكنيسة ورجالها ودين الإسلام ــ الذى هو دين الإله رب العالميـن ــ كبـير جـدا،لأن المسيحية دين وضعه القسس وأقرته بعض المجـامع ، يجـرى فـيها عقائد التثليث والأبوة والبنوة بجانب الصلب والفداء والشرك بكل مظاهره .

كما أن اليهودية السياسية، قد استغلت الأفكار التطورية العضوية بوجه عام ، والقائلين بها على ناحية خاصة،لصالح الدعاية اليهودية ، وضرب سلطة الكنيسة فى اوربا ، مع القضاء عليها إن أمكن ، من خلال الوقيعة المستمرة بين الكنيسة ومفكرى المسيحية ، حتى اذا سقط الاثنان من الساحة خلت لليهود وحدهم.

وبناء عليه انطلقت الأجهزة الدعائية لليهودية العالمية ، ضمن خطة مرسومة ثـم راحت تروج لهذه الأفكار الزائفة ، فى أسواق العلم وميادين الثقافة [٢] من خلال أجهزة الإعلام المختلفة ، حيث تمجد داروين المنتسـب للجنس اليهـودى

---

[١] مـن الواضـح أن ما فعله تنويريو أوربا كان بغرض مقاومة سلطات الكنيسة ، التى لا تتوقف عند حد – راجع للدكتورة نازلى إسماعيل- كانت مقدمة لكل ميتا فيزيقا مقبلة ص٧ وما بعدها، وكذلك راجع للمؤلف ؛ قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة ص١١/ ٦٦ – الطبعة الثانية ١٤١٨ ه / ١٩٧٧ م

(٢)الـيهود يقومون بذلك على الدوام ، والدليل عليه أنهم تمسكوا بفرويد وأمثاله ، وركزوا علـى كونهـم من اليهود ، حتى يظهروا للناس أن اليهود من سلالة عبقرية ، وما هم إلا الجنون ذاته مع البلاهة التى لا تنفصل عنهم .

وترفعه الى درجـــة غـــير عادية فى الأوســـاط الثقافيـــة حتى يكـــون مثـــالا يحتذى[١].

وكذلك الحال مع كل أصحاب الفكر المنحرف ، الذين يستخدمون لغة العلم التجريـــبى فى اصطياد النصوص اللاهوتية ،وبيان تناقضها مع قضايا العلم،وقد كان ذلك الغرض غير المعلن من أهم أغراض اليهود أيضا ، بحيث يندفع الناس الى اليهودية ، مادامت هى الممثل الوحيد للتقدم العلمى [٢] .

تقول البروتوكولات: لا تتصوروا أن تصريحاتنا كلمات جوفاء،ولا حظوا أن نجـــاح داروين وماركس ونيتشه قد رتبناه من قبل، وأن الأثر غير الأخلاقى لاتجاهـــات هذه العلوم فى الفكر الأممى[٣]سيكون واضحا لنا على التأكيد ، كما جاء فيها أيضا أن داروين ليس يهوديا ولكننا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واســـع ونســـتغلها فـــى تحطيم الدين [٤] إذن الغرض الأصلى من تبنى الأفكار التطورية الإحيائية قد صوروه مسبقا ، والهدف الذى يسعون اليه صار واضحا.

وفى تقديري : أن إعادة النظر في فكرة التطور الإحيائى العضوي ،وقراءتها من جديد ومتابعة لواحقها بالشكل الذى يتيح لشباب اليوم الوقوف على سلبياتها ، يعتـــبر خدمـــة علمـــية جديدة فى هذا الشأن ، لأن الهندسة الوراثية راحت هى

---

(١) الدكتور / أحمد طلعت الغنام – أضواء على نظرية النشوء والتطور والارتقاء ص٧ .

(٢)هذا كله من الأكاذيب التى نجحت الدعاية اليهودية فى الإعلان عنها بعض الوقت ، وما زالـــت تطـــن عنها فى غير حياء ، بينما الواقع المعاش والشواهد التاريخية تؤكد على أن اليهود ماهم إلا تجار عواطف زائفة وتجار جنس رخيص وأعمال عدوانية .

(٣)الأممـــى فـــى عرف اليهود وفى الكتاب المقدس ، يطلق على الشعوب غير العبرانية ، ويســـتخدم لدى الجماعات اليهودية للدلالة على غير اليهود – راجع قاموس الكتاب المقدس ص١١٧.

(٤)بـــروتوكولات حكماء صهيون ـــ الخطر اليهودي ص ١٢٣ ترجمة الأستاذ محمد خليفة التونسي .

الأخـــرى تلح على عقول أصحابها فى الظهور للسطح الخارجى[١] وتراودهم دائما عن نفسها تلتمس لها مثارب بين مشكلات الناس اليومية ، وتبحث لأفكارها القائمـــة فى رءوس أصحابها ، عن مخارج تكون معبرة عنها بشكل أكثر قوة ووضوحاً .

ومـــن ثم فقد كان من الضرورى علىَّ كباحث مسلم ، إعادة النظر فى تلك الأفكار التطورية ، وبحث مسائلها وموضوعاتها من جديد ، ثم تقييم النتائج التى نتجـــت عنها ، وبيان ما اذا كانت هذه النتائج فى صالح البشرية أو ضدها ، أو توافق النصوص الإسلامية أم تخالفها .[٢]

إذن غرضـــى مـــن هذه الدراسة ، هو بيان ما لهذه الأفكار التطورية وما عليها ، وموقف الاسلام منها ، ومن معتنقيها لأن ذلك سيكون بالتبع .

أما عندنا نحن المسلمين ، فمن وقف لها أول الأمر مؤيداً ، فقد كانت رغبته العلمية هى التى تقوده ، كما كانت تلك الرغبة عنده متطلعة الى تقديم جديد فى مجـــال العلوم البيولوجية ، أو على أحسن تقدير فقد كان أولئك المؤيدون لفكرة التطور يريدون القول ، بأن قضايا العلم الصحيح لا تناقض نصوص النقل السليم ، بل كلاهما يؤازر الأخر ويؤيده [٣] .

---

(١)تعـــرف الهندســـة الوراثـــية بأنها (الاسم الدارج لواحد من التطبيقات العلمية للبيولوجيا الجزئـــية) ، وهـــى فـــرع مـــن علم الحياة ، وهى تفترض أن الحياة هى النتيجة النهائية لخصائص المواد التى تكونها ، والحياة فى نظرهم كذلك ماكينة جزئية – راجع وليام بينز- الهندسة الوراثية للجميع ص١٧ – ترجمة د/ أحمد مستجير – الهيئة المصرية ١٩٩٦م .

(٢)راجع كتاب المؤلف – أوراق متناثرة فى التيارات المعاصره ص٢٧٠ – ط١ ١٩٩٧م – مطبعة شروق .

(٣)الأستاذ/ محمود زكى سليمان – الإنسان والحضارة المعاصرة ص٥٧ .

بـــناء علـــى أن ذلك كان من طرائق مفكرى المسلمين فى الماضى ، ولا مـــانع مـــن القيام به فى الوقت الحالى ايضا [(١)] ولما كان داروين ومن معه لا يعـــرفون الدين الإسلامي دين الله رب العالمين ، ولا يقرون به ، فلم يدر بخلد واحد منهم أمر مؤازرة الدين للعلم .

مـــن ثم فقد حاول بعض من أبناء الإسلام تفسير هذه الأفكار التطورية فى مراحلها الأولى على ناحية لغوية مرة [(٢)] أو على ناحية علم الأحياء وتطوراته العاديـــة ، وهـــو ما يعرف بالتطور الكونى العام [(٣)] تارة خرى ، لكن لم يتمكن واحـــد مـــنهم من مقاومة الانتقادات الموجهة الى الفكرة الإحيائية العضوية فى بنائها ، أو فى باقى أجزائها التى تعرضت لشرح النظرية .

وهـــذا فـــي حد ذاته ما يؤكد أنها مجرد أفكار لا تجد أسانيد لها ، أو أدلة تحمـــيها ، كمـــا أنهـــا فى جوهرها مخالفة لتعاليم الله تعالى ، متى أحالت خلق الكائنات إلى الطبيعة ذاتها مع أن هذه الطبيعة ذاتها مخلوقة وليست خالقة .

ولو أن دعاة التطور الإحيائى ظلوا بأبحاثهم بعيداً عن ميدان الميتافيزيقا ، والبحـــث فى الغيب الدينى ، أو أنهم أبعدوا أنفسهم وأبحاثهم عن إصدار أحكام تـــتعلق بـــأمور الغيب كخلق الكون ، وخلق الإنسان وغير ذلك مما لا يخضع

---

(١) الدكتور / فوزي محمد خضر ــ الإسلام وقضايا العلم ص ٦١ ط أولي ١٩٦٥م .

(٢) كالذى فعل الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره الجواهر فى تفسير القرآن جـــ١ ص١١٢ وما بعدها- ط الحلبى ١٣٥. هـــ .

(٣)كالحـــال مـــع الأستاذ/ عبد الكريم الخطيب فى كتابه التفسير القرآنى للقرآن - جـــ١ ، حيث قد سار فى الـــتطور من خلال مفهومه عن التطور الكونى العام ، لا التطور العضوى الأحيائى الذى قال به داروين ومن كان على شاكلته .

لمقـياس الـتجربة والمعمل - وربما كان لدى معظمهم من نزوع صوبى ممن بهذا الشكل وربما ظلت أبحاثهم فى ميدانها ، صادقها يقين وكاذبها يرد.

ولكنهم انطلقوا الى البحث والحكم فى ميدان الغيب الدينى وهاجموه بشدة . مـن ثـم لـزم الدفاع عن دين الله ، لأن تلك مهمتنا نحن أبناء الاسلام ، وفينا العلماء القادرون على القيام به . لذا سأعرض كل جزئية أو قاعدة عند أصحاب الـتطور الإحـيائى – حسـب توفيق الله تعالى – ثم أعمل على مناقشة الآراء المطروحة فى ذات الجزئية ، والحكم عليها من الناحية الاسلامية [١] القائمة على القـرآن الكـريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، باعتبار الأدلة وجهود أهل الإسـلام ، وهـو الفكر الإسلامى القائم على التوجهات العقلية الملتزمة بالنقل المنزل ، كما هو الشأن مع أهل الإسلام المخلصين .

ثم مناقشة تلك الآراء التطورية من خلال قضايا العلم التجريبى أيضا ، لأن البعض يعتبرها قاعدة عامة ثابتة فى هذا المجال [٢] وغرضى من ذلك أن أبين للقـارئ الكـريم تلـك الأفكار المنحرفة عن الشرع الألهى ، فى تضليل عقول الأغرار ، وخدمة أعداء دين الإسلام .

كمـا أبين أنها متى اتبعت على سبيل الاعتقاد فإنها تدمر الأخلاق والقيم ، بعد محاولة هدم قضايا الدين عقيدة وشريعة بجانب الأخلاق الفاضلة أيضا .

---

(١) الناحية الاسلامية أعنى بها جانبين :

• الأول : هـو الإسـلام ، وهـو دين الله تعالى رب العالمين ، جاء به كل الأنبياء وجميع المرسـلين ، بدأ من آدم –عليه السلام– حتى نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو يقوم على : أ– القرآن الكريم ب – السنة النبوية المطهرة ، وهما معاً النقل المنزل .

• الثانى : هو الفكر الاسلامى وأعنى به محاولة العقل السليم فى تفهم النصوص الإسلامية وهما القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(٢)وهـذا غـير صـحيح ؛ لأن العلم التجريبى قضاياه لا تعرف الكلمة الأخيرة ، بدليل أن الأبحاث العلمية حول كل مسألة من مسائله ما تزال قائمة لم تنقطع .

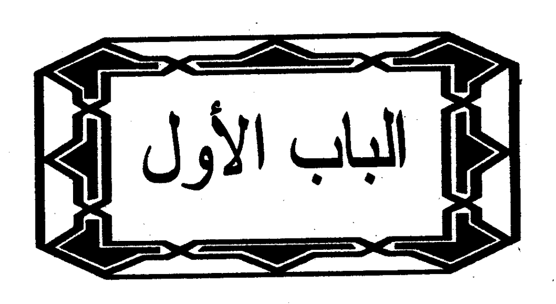
والله جل علاه أسأل التوفيق للحق والسداد فى الاتجاه ، والنجاة من الخطل أو الوقـــوع فى الزلل ، إنه جل شأنه نعم المولى ونعم النصير ، متوكلا فى ذلك كلــه علـــيه مرددا قوله جل شأنه :" **وَمَا لَنَا أَلا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَن عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُون**"(١) وهو حسبى ، أملا أن يجعله فى ميزان حسناتى ، وما ذلك على الله بعزيز .

الدكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالى

---

(١)ســـورة إبراهيم الآيــــة ١٢



التعريف بالتطور وأنواعه

الفصل الأول : التطـــور في اللغة والاصـــــطلاح .

الفصل الثاني : أنـــواع التطـــــور ....

الفصل الثالث : التعريف بالفكرة الإحيائية وتاريخ التطور.

الفصل الرابع : أبرز المقعَّـــدين لهـــا ....

مـــدخل :

مـــن المعروف لدى الدارسين أن التطور لفظ لغوى ، وله وجود فعلى فى مادتـــــه الأصـــلية (ط - و - ر) داخل المصادر العربية [١] وأن التطور فى اللغـــة العربية له معان ترجع إليه أو ينطلق فيها ، كما أن التطور على الناحية الاصطلاحية قد يكون تطوراً كونيا عاما ، يجرى فى الكون بجزئياته وكلياته ، باعتـــبار أن الكـــون كلـــه قد خلقه الله تعالى ابتدأ من نقطة واحدة ، أخذت فى الـــتطور المستمر من كل ناحية بفضل الله تعالى [٢] ، حتى صارت الكون الذى نعرفه الآن ، فى الأجرام العلوية والعوالم الفلكية .

أو كان ذلك فى مكونات العالم الأرضى الذى نعيش عليه [٣]ويرد فيه ،ع إتـــيان الكـــثرة من القلة مثلا ، كالحال مع سيدنا آدم - عليه السلام - فقد كان وزوجه ، ثم جاءت منهما المليارات البشرية ، التى يصعب حصرها فى وقت الحاضر [٤] .

وكذلـــك مـــا يتعلق بعناصر النبات والحيوان ، فهو تطور من القلة الى الكثرة ، وذلـــك مما تشهد به العقول السليمة ، وتعبر عنه الحياة المعيشية وتجئ مظاهره مع الأمور اليومية .

---

(١)هذا الوجود اللغوى لمادة الكلمة قائم فى اللغة ، أما الذى ينكره البعض من وجود الكلمة فى العربية ، فإنما هو قائم على المعنى الاصطلاحى لكلمة التطور - لا لمادتها - والفرق بين الكلمة الاصطلاحية والمادة اللغوية واضح لمن تأمله وسوف أذكره فيما بعد ان شاء الله تعالى .

(٢)وربما أستأنس لذلك بقوله تعالى : [والأرض بعد ذلك دحاها] سورة النازعات الآية ٣٠

(٣)الأستاذ/ عبد الباقى محمد خليل - نظرية السدم العلمية ص١٣- ط دار توفيق ١٩٤١م .

(٤)هذا باعتبار الحصر العددى أو الإحصائى يشمل المدن والقرى والنجوع ، أما أصحاب الصحارى وساكنو الغابات ، وغيرهم فهم لا يشملهم العد الإحصائى ، لأنه لا معرفة للحاصين بهم

وقد يكون تطورا عضويا يعرف بأنه : ما يتضمن الاعتقاد بأن الحيوان والنباتات تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجي مستمر[١] وأن ذلك التحول التدريجي قد استمر منذ بدايته ، حتى بلغ قمته ، وهذا التعريف هو الذى دفع أصحاب فكرة التطور الإحيائى الى القول به ، وإدخاله الميدان البيولوجى ، وهو فى ذات الوقت أحد موضوعات العلوم التطبيقية ، وهو الذى يجئ عليه الاختلاف بين المثبتين له والمكذبين لما يعبر عنه .

بيد أن كثرة الدارسين يذهبون الى أن التطور الكونى العام هو القائم فى الكون كله سواء كان ذلك متعلقا بالمادة وحدها أم بغيرها ، وسواء أكان ذلك التطور الكونى العام ملموسا أم غير ملموس ، وهو ما يعرف بأنه اتصال الأكوان ، وتحول الأشياء بعضها من بعض الى الأرقى دائما[٢] باعتبار أن الله تعالى قد ألهم كل كائن ما يعينه على الانتقال والارتقاء والتحول الى ما فيه الصالح العام ، حتى يتحقق التناسق الكامل مع الانسجام التام " **صنع الله الذى أتقن كل شئ إنه خبير بما تفعلون** ")[٣].

وسواء أكان التطور الكونى العام أم التطور الإحيائي هو القول الذى تجئ معه المسألة ، فإن الأمر يحتاج إعادة نظر فى تلك المقولات على ناحية اللغة والاصطلاح ، وكذلك ضرورة التعرض لبيان أقسام التطور ، وأنواع كل قسم حتى يكون ذلك حالا من الدارس محل القاعدة الثابتة ، التى يقيم فوق بنائها الثابت بحثه العلمى ، ويواجه دعاة الفكر المنحرف فى ذات المسألة وبخاصة أن بعضهم يذهب الى القول : بأنه من المستحيل على الشئ أن يكون خلاف

---

(١) الأستاذ / محمد شفيق غربال - الموسوعة العربية الميسرة ص ٢٩ ط القاهرة
(٢) الدكتور / زاهر عبد المعز الفرباوي - التطور العام ص ٩٥ ط ١ دمشق ١٩٦١م .
(٣) سورة النمل الآية ٨٨ .

مـ هــو علــيه [١] فصارت الأمور عندهم بعيدة عن الخلق المستمر ،والإرادة الإلهــية وداخلة فى مجال الحتمية والجبر ، وهو ما لا يكون مقبولا عند المفكر المسلم .

كمـــا أن البعض منهم قد يمهد لفكرة التطور الإحيائى بقوله : إنه فى بقاع شـــتى مـــن أرضنا هذه التى نعيش عليها ، كانت هناك دائما حفريات تشير الى وجود كائنات عاشت قبلنا بمليون سنة على الأقل ، وهى أسلاف الإنسان العاقل الـــيوم [٢] وأن تلك السلالات القديمة حدث فيها نوع من التطور ، حتى صارت الى ما عليه الكائنات الحية فى الوقت الحاضر كنتيجة حتمية للتطور ذاته وهى أقوال ان حملت على تطور الكائنات الحية لم تنل القبول .

من ثم فإن التطور على هذا النحو عندهم ،ليس أمرا طارئا عرضيا ، وإنما هــو أمر قائم مستمر لا ينقطع على الناحية الذاتية ، وتلك مسألة لها خطورتها علـــى عقيدة المسلم ، وبالتالي فمن الضروري تناول التطور وما يتعلق به من أفكـــار باعتـــبار الجزئـــيات والكليات ، أو المقدمات والنتائج التي اعتمد عليها القائلون به والداعون له .

كمـــا أنـــه لما كانت اللغة قد حملت مادة الكلمة (ط – و – ر) واللغة كما يقولـــون أثـــواب المعاني على ما ذهب إليه العلماء ، وبدونها لا يكون للمعاني أشـــكال تعرف بها فقد صار من الضروري الالتفات الى موقع الكلمة فى اللغة العربـــية ، والمعانـــي التى يمكن أن تجئ عليها ، لأن في ذلك خيرا للبحث من ناحية ، كما يقدم صورة للمعنى الاصطلاحي من ناحية ثانية .

---

(١) الدكـــتور/ زكى نجيب محمود – الجبر الذاتى ص٢٣٧– ترجمة الدكتور/ امام عبد الفتاح امام – النهضة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(٢)ج . ج كراوثـــر – قصة العلم ص١٥ – ترجمة الدكتور يمنى طريف الخولى ، دكتور بدوى عبد الفتاح – الهيئة المصرية العامة للكتاب١٩٩٩م

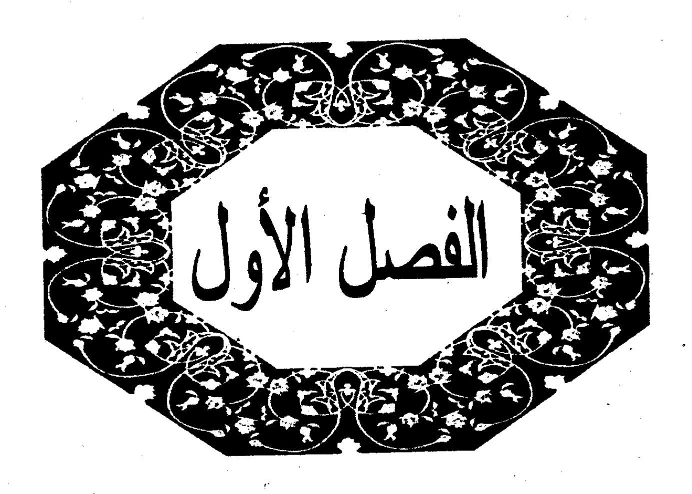
فما هو التطور في اللغة والاصطلاح ؟ ثم ما هي انواعه على وجه العموم ، من الناحية الاصطلاحية ؟[١]

ذلـــك ما سوف ألتفت اليه في الفصل الأول ثم الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى [٢]

---

[١] **باعتبار أن الفصل الأول من هذا الكتاب سيكون عن التطور في اللغة والاصطلاح.**

[٢] **سيكون الفصل الثاني من هذا الجزء ـــ إن شاء الله تعالى ـــ عن أنواع التطور**



التطور في اللغة والاصطلاح

تمـــهيد :

دكـــرت أن التطور لفظ لغوى، من الألفاظ التى ينطق بها اللسان، ويجرى بهـــا القلـــم فى الكتابة ، كما يمكن أن يعبر عنه بالإشارة لمن يتقنها ، وفى نفس الوقـــت فـــإن له دلالة معينة ، ولذا فهو يأتى على جهات متعددة ، كما يقال أنه لفظـــة تجـــىء فى مفاهيم كثيرة ، ولها العديد من المعانى التى تجرى فى العلوم المخـــتلفة ، كالبيولوجـــيا، والهندســـة الوراثية والهندسة البيوكيميائية (١) وعلم الأحياء، وغيرها من العلوم التى تأتى من هذه الناحية.

وفى ذات الوقت ، فإن الكلمة يمكن التعامل معها باعتبار الناحية التى ترد علـــيها مـــع الأخـــذ فـــى الاعتبار ذات الاصطلاح الوارد ، وطبقا لهذا ، فإن المتداولـــين لهـــا كـــل يـــتعامل معها فى حدود الاتجاهات التى ينطلق منها ، أو المنحى الذى يغلب عليه ، فالتطور ليس أمرا واحداً على ناحية اللغة ، وإنما هو اقســـام وأنواع عديدة (٢) كل قسم منها له أنواع، وكل نوع منها له اسمه وسماته الخاصة به ، وقواعده التى يقوم فيها .

ومـــن البين أن مادة (ط – و – ر) وردت فى القرآن الكريم إحدى عشرة مـــرة (٣) وذكـــر العلامـــة الأصفهانى فى مادة الكلمة ومشتقاتها :< إن الطور والطـــوار هو ما امتد فيقال : طوار الدار ما امتد منها من البناء ، ويأتى بمعنى الـــتجاوز فيقال : فلان عدا طوره ، ومعناه تجاوز حده .كما يأتى الطور بمعنى التتابع الممتد ، فيقال: هذا يأتى طورا بعد طور، ومعناه تارة بعد تارة أخرى>> (٤) فإذا انتهى طور أعقبه طور أخر وهكذا يتم الأمر على سبيل الاستمرار .

١- الدكتور / توماس كيلر – دراسات فى التطور البيولوجى ص٥ – ترجمة هاشم التنضورى ط كركوك ١٩٤١ م

٢. هذا التقسيم للأنواع التطورية هو الذى أميل اليه ، حسب تصورى لهذه الفكرة والمصادر التى أمكنتنى الوقوف عليها أو الوصول اليها ، فمن وصل لغير ذلك فهو من توفيق الله تعالى ، فليحمد الله عليه ويستغفر الله لى .

٣. الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . باب الطاء ص٤٢٩ . حيث ذكر مواضعها من السور والآيات القرآنية .

٤. العلامة أبو القاسم الحسين محمد المعروف بالراغب الأصفهانى - المفردات فى غريب القرآن - كتاب الطاء ص ٣٠٩ تحقيق محمد سيد كيلانى . ط دار المعرفة بيروت

قال الشيخ البروسوى : << خلق الله الآدمى أطوارا، من نطفة متماثلة الأجزاء ، ومن أشياء كثيرة مختلفة المراتب والدرجات من لحم ، وعظم ودم ، وجلد وشعر وغيرها ، ثم خص كل جزء منها بتركيب عجيب ، أو باختصاص غريب ، من السمع والبصر واللمس والمشى والذوق والشم وغيرها ، وهو أبلغ فى إظهار كمال الألهية والقدرة ، فتعالى الله أحسن الخالقين ([1]) لأنه وحده القادر على إنفاذ ما يريد من غير أسباب تباشر أو عناصر تتلائم ، وعلى هذا المعنى يجئ معنى التطور المشروع ، أو المقبول ولا يجئ أبدا معنى التطور المرفوض .

إذن وجود مادة كلمة (ط – و – ر) فى القرآن الكريم والحديث الشريف ولغة العرب باعتبار المصدر والمشتقات ، يدل على أن المصدر من كلمة طور هو التطور إلا أن البعض يتعجل حين يصدر حكما فيه الكثير من التسرع حيث ينتهى الى القول بأن : << مصطلح التطور من حيث معناه اللغوى ، يعد مصطلحا جديدا على المعاجم والقواميس العربية ، ويستشهد على ما ذهب اليه بأن ما ورد فى القرآن الكريم هو لفظ أطوار وليس لفظ التطور >> ([2]).

ولست معه ، لأن اللفظ الصريح لا يجئ إلا من مادته الأصلية وهى المكونة له ([3]) وما دام لمادة الكلمة وجود فى اللغة العربية على النحو الذى سلف ، فإن مصادرها تجئ منها أيضا ، وبخاصة أنها لفظة مشتقة وليست جامدة .

غير أنه لما وقع فى قبول هذا الحكم المتسرع بعض شباب الباحثين – مع أن لغة العرب أحد تخصصاتهم الدقيقة – حتى سلم بذات النقل ، وقرر هو

---

[1]- الشيخ إسماعيل حقى البروسوى – تنوير الأذهان من تفسير روح البيان – المجلد الثالث ص٢٠ – ط دار الصابونى – ط١ ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

[2]- الدكتور محفوظ على عزام – نظرية التطور عند مفكرى الإسلام ص١١ ج٢ – دار الهداية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .

[3]- الشيخ /محمد على الدين الطويل – الدرة البهية فى المفردات الصرفية ص١٣ – ط المكتبة الأهلية ١٩٢١م.

الأخر : أن مصطلح التطور لم يرد صريحا فى معظم ما خلفه لنا علماء الإسلام وما سطروه فى كتبهم ، وإن وجدت عندهم تعبيرات دالة على معنى التطور والتدرج (١) ومع ان الأخير يقدم نوعا من التراجع عن الحكم الصادر فى المسألة على وجه التسرع ، إلا أنه لم يؤكد عليه .

وفى تقديرى : أن الأخير حاول تقديم جديد فى المسألة ، حيث ذكر أنه : يمكن أن يكون التطور مأخوذا من اسم الطور وهى كلمة عربية خالصة أصيلة (٢) ومن ثم فإن التراجع الذى غلب عليه كان يمثل نوعا من غلبة الحياء الكامن فى داخله ، إذ كيف يسوغ له أن يقدم هو فى المسألة ما لم يسبقه إليه غيره ممن تقدموا عليه فى البحث وتطاول بهم العمر ، مع أن الحياء العلمى يفرض على صاحبه الإعلان عن الجديد الذى وفقه الله تعالى اليه دون خوف إلا من الله تعالى .

أولا : تعريفه :

(أ) فى اللغة :

جاءت مادة الكلمة فى اللغة العربية على معان كثيرة ، من أبرزها :

الأول : تجاوز الشئ ما هو عليه :

تقول العرب [طور الشئ حده] بمعنى تجاوزه وعدا عليه (٣) فلم يعد على الوضع الذى سبق وإنما فاته وزاد عليه ومجيء ذلك يكون على سبيل التجاوز الحسى لا المعنوى أو هما معا . وقال العلامة أبو بكر الرازى طور الشىء بمعنى : عدا طوره أى تجاوز حده والطور التارة وقوله تعالى (

١- الأستاذ / فتحى عبد الرحمن محمد عطية الحوفى – جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات ص ١٧٩ – رسالة ماجستير بكلية أصول الدين بطنطا – قسم العقيدة ٢٠٠٠م . وقد عزا النقل الى الدكتور / عبد المعبود مصطفى سالم – نظرية التطور فى ضوء الإسلام ص ٤/٢

٢- جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات ص ١٧٨ .

٣- العلامة الأزهرى – التهذيب باب الطاء (٢١١/٢) ، وراجع معجم مقاييس اللغة (١٩٧/٢) نفس المادة الصرفية .

وخلقـــناكم أطوارا) قال الأخفش : طور علقة وطور مضغة ، والناس أطوار أى أخياف على حالات شتى والطور الجبل > (١)

الثانى : الأخياف (٢) المتغيرة :

ذكـــرت العرب قولهم :الناس أطوار ومعناه أنهم أخياف على حالات شتى (٣) كـــل خـــيف منها يتمايز عن الآخر فى شئ ما ، سواء أكان ذلك على سبيل الإيجاب أم جاء على سبيل السلب ، وكل منهما يقع فيه التفاوت . وذكر العلامة ابن الأثير : << ورود كلمة (طور) : فى حديث سطيح (فإن ذا الدهر أطوار دهاريـــر) ، ثـــم قـــال أن : الأطوار هى : الحالات المختلفة والتارات والحدود واحدها طور : أى مرة ملك ومرة هلك ، ومرة بؤس ومرة نعيم .

ومـــنه حديـــث النبـــيذ ، تعدى طوره أى جاوز حده وحاله الذى يخصه ويحـــد فـــيه شاربه وفى حديث على رضى الله عنه [والله لا أطور به ما سمر ســـمير] أى لا أقـــربه ابداً (٤) والناس أطوار أى أخياف على حالات شتى ، قـــال تعـــالى : وقد خلقكم أطوارا ، معناه ضروبا وأحوالا مختلفة ، قال ثعلب : أطـــوارا أى خلقـــا مختلفة كل على حده ... وقال غيره : أراد إختلاف المناظر والأخلاق ، قال الشاعر (والمرء يخلق طورا بعد أطوار) ...

الثالث : الحد بين الشيئين :

ذكـــرت المصادر العربية : أن الطور هو الحد الفاصل بين شيئين أحدهما انتهى وثانيهما ابتدأ (٥) وكل ما كان من هذا القبيل فإن المرحلة الفاصلة بينهما تســـمى طوراً وتسمى التارة ايضا ، وقال العلامة ابن منظور : طور : الطور :

١- العلامة أبو بكر الرازى – مختار الصحاح باب الطاء – [ص٣٨٧/ ٤٠٣]
٢- وهو جمع مفرده خيف ، وهو من الناس الضروب المختلفة من الأخلاق والأشكال ، فالناس أمهم واحدة وآباؤهم شتى ، راجع المعجم الوجيز ص ٢١٧ .
٣- العلامة محمد بن أبى بكر الرازى – مختار الصحاح باب الطاء ص٣٢٩ ط الهيئة المصرية العربية للكتاب .
٤- الإمام ابن الأثير – النهاية فى غريب الحديث والأثر – باب الطاء والواو (٥٣٣/٢).
٥- المعلم بطرس البستانى – قطر المحيط باب الطاء ص٥٧٦ .

الــتارة تقــول : طــورا بعد طور أى تارة بعد تارة ، وقال الشاعر فى وصف السـليم تــراجعه طورا وطورا تطلق ، قال ابن برى : صوابه : تطلقه طورا وطورا تراجع والبيت للنابغة الذبيانى وهو بكامله هكذا :

فبت كأنى ســـاورتنى ضـئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع
تحاذرها الراقون من سوء سمها   تطلقه طـورا وطورا تراجـع ([1])

الرابع : بلوغ أول الشيء وأخره :

ذكــر الفيروز آبادى قول أهل العلم : بلغ فلان فى العلم أطوريه ، وم بلــغ فــى العلم أوله وأخره ([2]) لأنه عرف أوله وجاهد فى بلوغ أخره ، سواء تحقــق له ذلــك البلوغ فيه ، أم توقف عند حد ما وصل اليه ، ولكنه يطمع فيما بعده .

الخامس : الامتداد مع الاستمرار :

يقــال طور الشئ بمعنى امتد وظل امتداده قائما على سبيل الاستمرار ([3]) ، ومعناه التقدم الدائم مع الشئ ذاته ، فكلما كان الشئ قابلا للامتداد تم له ذلك ، كسور البيت الممتد مع الجار لا يفارقه بل ينتهيان معا .

السادس:اســـم مكان :

وهو الجبل المعروف فى سيناء ، كما يسمى به فناء الدار ويسمى به جبل قــرب أيلة أيضا ، يضاف الى سينا وسنين وجبل بالشام وجبل بالقدس عن يمين المســجد وأخــر عن شماله ، به هارون عليه السلام ، وجبل برأس العين وأخر

---

[1]- يقال أن النابغة بات من توعد النعمان على مثل هذه الحالة وكان النابغة قد حلف للنعمان أنه لم يعرض له بهجاء ولهذا قال بعد هذا

فإن كنت لا ذو الضغن عنى مكذب   ولا حلفى على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشئ أقوله   وأنت بأمر لا محالة واقع
فإنك كالليل الذى هو مدركى   إن خلت أن المنتأى عنك واسع .

راجع لسان العرب للعلامة ابن منظور – مادة (ط – و – ر) ط٤ ١٩٨٥ – دار المعارف .

[2]- العلامة الفيروز آبادى – القاموس المحيط – المجلد الثانى – باب الراء فصل الطاء ص ٧٨ .

[3]- المنجد فى اللغة والأعلام باب الطاء مع الواو .

مطـــل على طبرية وكورة بمصر القبلية ، وبنواحى نصيبين أيضا وغيرهما مما عرف اسم الطور فيها أو أطلق عليها .([1]).

وقيل فى قوله تعالى (والطور وكتاب مسطور) أقسم الله تعالى به : وهو الجـــبل الذى بمدين الذى كلم الله تعالى موسى ، عليه السلام عليه تكليما كأنهم نسبوا الى الطور وهو جبل بالشام ، ورجل طورى أى غريب ([2])

إذن الطـــور بناء على ذلك : هو الحال التى تبدأ ثم لا تلبث أن تزول آخذة فـــى الســـير نحو الأمام ، والتطور هو الحركة التى ترد على الطور فتنقله من حـــال الـــى أحســـن منه فى الكمال والتمام ، وربما يستأنس لهذا التعريف بقوله تعـــالى :[" مـــالَكُمْ لا تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا "] ([3]) يعنى حالا بعد حـــال ، طورا نطفة ، وطورا علقة ، وطورا مضغة ([4]) ، ثم المخلقة منها وغير المخلقة ، ثم يكسى الله العظام لحما ، حتى يصير خلقا أخر بعد نفخ الروح فيه .

ومن المعلوم شرعا ، أن الأطوار التى يمر بها الإنسان ، حتى يصير خلقا متكاملا قد جاءت فى القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : (" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْـــنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا * ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ") ([5]) وهو وحده القادر على ذلك كله ولا يمكن أن يشاركه احد من خلقه فى شىء ابدا .

ولا شـــك أن تلـــك المعـــانى اللغوية المنفردة يمكن أن تكون بحاجة الى تعـــريف شامل يجمعها على ناحية لغوية مجتمعة يمثل نوعا من جهود الباحث ، فما هو هذا التعريف ؟

---

[1]- العلامة الفيروز أبادى – القاموس المحيط – المجلد الثانى ص ٧٨ .
[2]- لسان العرب – العلامة ابن منظور – مادة (ط – و – ر) – ط٤ ١٩٨٥ – ط دار المعارف
[3]- سورة نوح الآيتان ١٣ / ١٤ .
[4]- الإمام الطبرى – مصحف الشروق المفسر الميسر ص٦٥٧ .
[5]- سورة المؤمنون الآيات ١١/١٤ .

والجـــواب : أن الطـــور هـــو التغير الفاصل بين شيئين على سبيل الامتداد المســتمر ، ابــتداء من أول الأمر الى منتهاه على سبيل المصاحبة له ، بغرض تقديـــم الأفضل ، والوصول الى ما هو أعلى من سابقه وأكمل فهو حركة للأمام ولا يرجع الى الخلف أبدا ([1]) .

إذن مـــادة الكلمـــة طور قائمة فى المصادر العربية ، وكذلك لفظ التطور موجود فى لغة العرب ايضا ، وليس وليد المصطلحات الحديثة ، كما ذهب اليه البعض ممن أشرت اليهم ، ثم إن علماء الصرف فى العربية ذهبوا الى أن الفعل الـــثلاثى الأجوف مثل : طور ، نوع ، خور ، بور ، سور ، وغيرها إن دخلت الـــتاء عليها يكون هكذا تطور تنوع وتخور وتبور تجوز وتسور ، وبالتالى فإن المصــــدر يـــأتى منها جميعا على وزن التفعل أوالتفعيل فيقال مثلا : فى كلمة طـــور التطور والتطوير ، وكلمة نوع التنوع والتنويع وقس على ذلك الحال فى باقى الأمثال ([2]) .

كمـــا أن الفعل طوّر فعل مزيد بالتضعيف ، وبالتالى يأتى مصدره قياسيا وســـماعيا ولأنه مضعف العين فإن وزنه فى المصدر يأتى على التفعيل ، متى كـــان صـــحيح الـــلام ، فنقول : طور تطورا ، ويأتى على وزن تفعل ، فنقول تطور مثل تقدم تقدما ، وتنوع تنوعا ([3]) .

بـــناء علـــى ما سلف ذكره تكون كلمة التطور ، وكذلك كلمة التطوير مما ورد ذكره فى اللغة العربية منذ التعرف عليها ووضع أصولها ، وليس كما ينقل الـــبعض أنهـــا لم ترد مصدراً فى اللغة العربية ([4]) لأن الأصل للكلمة هو مادة

---

[1] - ذلك ما يمكن الوقوف عليه من المعانى التى جاءت حولها مفاهيم الكلمة ، وهى وجهة نظر لى ، ربما لم تسلم عند غيرى ، فمن وفق الى الأفضل فذلك من أنعم الله تعالى .

[2] - الشيخ سعد الدين بن سعد بن حمزة الأزهرى المالكى المنياوى ـ الجواب الظريف عن السؤال فى فن التصريف ص ٢١/٢٠ مطبعة الجمالية بمصر ـ ط١ ١٣٣٢هـ .

[3] - الشيخ / محمد نصر الدين ـ الصرف العربى ص١٢ دار حكمت بتركيا ١٣٠٨ هـ .

[4] - الدكتور / محفوظ على عزام ـ نظرية التطور عند مفكرى الاسلام ص١٩، حيث يقول : إن مصطلح التطور جديد فى اللغة العربية ، وهو مشتق من طور التى تعنى الحال والضرب والتارة والخلق المختلفة ، وليس التطور

الفعـــل التى قامت عليها ، أما المصدر فهو أصل المشتقات وليس أصل الكلمه ، وتلك مسألة مهمة .

ومـــا أنـــا بالبارز فى اللغة أو المتميز الناهض بها ، وإنما محب لها لأنها لغـــة القران الكريم والحديث النبوى الشريف ومثلى متى رأى نوعا من محاولة الإنقاص لها ، همَّ بالدفاع عنها كأنى أتمثل قول ابن ميادة :

وما نلت منها محرما غير أننى   اقبل بساما من الثغـــر أفلجـــا[1]

وألثـــم فاهـــا تارة بعد تارة   وأترك حاجات النفوس تحرجـــا[2]

فلســـت إلا محبا للغة العرب ، لغة القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، لغـــة الفصاحة والبيان ، وهى لغة شاملة ، قل ان توجد لغة أخرى تماثلها فى العمـــوم والشـــمول بجانب الدقة والبيان ، فهى أكثر من شمس الضحى بيانا ، وأعـــلا مـــنها مقامـــا ، ومن ذاق عذوبتها لم يثنه عن الدفاع عنها مثن إنها لغة حفظـــت أداب العرب وفنونهم ، فلما أنزل الله القران الكريم حفظ لغة العرب ، فهـــى ظـــل نأوى اليه من حر الهجير ، وهى فى ذات الوقت أكثر وضوحا من الشمس ، وكأنى بالقائل :

قـــامت تظللنـــى من الشمس   نفـــس أعـــز على من نفســـى

قامت تظللنـــى ومن عجـــب   شمـــس تظللنـــى من الشمس[3]

كمـــا أن مـــن ذهب الي كون اللغة العربية لم تعرف مصطلح التطور إلا حديـــثا فقد تراجع وأكد أن لفظ طور يأتى من معانيه ، التدرج والتنوع والتناسق

---

[1] الأفلج من الأسنان هو تباعد ما بين الثنايا والرباعيات -راجع مختار الصحاح باب الفاء ص ٥١٠ .

[2] - القاضى أبو العباس أحمد بن محمد الجرجانى ٤٨٢هـ - المنتخب من كنايات الأدباء وإشارات البلغاء ص ١١، وبحاشيته كتاب الكناية والتعريض للشيخ أبى منصور عبد الملك الثعالبى المتوفى ٤٣٠ هـ - مطبعة السعادة ط١ ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

[3] العلامة أبو البركات السيد أحمد الدردير - شرح القطب على رسالته فى علم البيان مع حاشية العلامة الأنبابى ص٣٢ . ط فرج الكردى بمصر ١٢٧٥هـ .

والحـــد والغاية ، والانتقال من شئ الى أخر ، بل والظهور التدريجي وهى كلها مأخوذة عنده من الفعل طور ([1]) .

وبالـــتالى فـــإن المصدر المعبر عنه من ذات الفعل وهو التطور ، يكون موجوداً فى اللغة العربية منذ نشأتها ، وإن لم يمكن إلحاقه بالأبحاث النظرية إلا حديثاً ، ويكون العجز ليس قائما فى اللغة العربية ، وإنما قائما فى نوع المتعامل معها .

(ب) فـــي الاصـــطـــلا ح :

المعـــروف لدى الدارسين أن كل قوم أو أصحاب فن من الفنون ، أو علم مـــن العلـــوم أيـــا كـــان نوعه ، لهم اصطلاحات خاصة بهم ، يستعملون فيها المفردات التى تروق لهم ، ويتعاملون معها على ناحية خاصة تأتى من جهتهم ، ولذا يقال : لا مشاحة فى الاصطلاح ، من ثم فإني أميل الى تعريف الاصطلاح بأنه :

عـــبارة عـــن اتفاق طائفة معينة فى علم من العلوم أو فن من الفنون على اســـتعمال لفظ معين على معنى محدد ، سواء أكان اللفظ منقولا أم متفقا عليه أم موضـــوعا له بحيـــث يتمـــيز هذا اللفظ بذات المعنى فى ذاك العلم ، وعند تلك الطائفة بعينها ([2]).

فـــإذا اســـتعملت طائفـــة أخرى ذلك اللفظ فلا يمكن أن يراد منه المعنى الســـابق استعماله مع الطائفة الأولى ، لأنه غير مراد عندهم إلا إذا نصوا عليه أو نـــبهوا إلي شكل الاستخدام الذى فكروا فى التعامل به وذكروا أنهم سيقومون عليه فيه ([3]) .

---

[1]- الدكتور / محفوظ على عزام – نظرية التطور عند مفكرى الاسلام ص ١٩ .

[2]- براجع فى هذا كتابنا : حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد – جـ ٣ – الأفعال الإلهية ص٢٧ – مطبعة آل بسيونى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

[3]- هذا التعريف قد يكون معيبا على الناحية المنطقية ، لأنه مقسم ، ولكن لما كان لفظ التطور ليس له جنس ونوع ، فلا مانع من استعمال التعريف المقسم له ، وحينئذ لا يكون معيبا إنما المعيب متى كان للمعرف جنس أو فصل ع

ومـــثل ذلك الاختلاف واسع الانتشار فى استخدام كلمات بعينها ، ويوحى بـــتعدد مخـــتلف التفسيرات الممكنة ، وقد يكون كل منها صحيحا فى الواقع ولو بصـــورة جزئية ، ولما كانت اللغة من حيث الألفاظ المنطوقة شيئا حسيا متغيرا ومفـــرداتها مـــتعددة الوجـــوه وتتســـم بالمـــرونة ( ) ، فإن ذلك يمكن اعتباره خصيصـــة فنـــية مـــن خواصـــها ، وتنطبق على لفظ التطور أيضا من الناحية الاصطلاحية .

ولمـــا كان لفظ لتطور من الألفاظ التى تستخدم فى كثير من العلوم ، سواء أكـــان ذلـــك الاستخدام فى العلوم السلوكية أم العلوم التطبيقية والعلوم الطبيعية والهندســـة الوراثـــية بجانـــب كونـــه موجوداً فى بعض العلوم النظرية ، فمن المناســـب الإشارة إلي أن هذا اللفظ قد جاء فى بعض الاصطلاحات المختلفة ، حـــتى إذا اســـتعمل عند قوم بمعنى أو مفهوم مغاير، لا يظن آخرون أنه يخالف اتجاهاتهم طالما كان اصطلاحا خاصا وسيكون بيان ذلك على النحو التالى :-

١-مفهوم التطور في العلـــوم الطبيـــعيـــة :

عـــرف علماء الطبيعة التطور بأنه: أحد الظواهر الطبيعية التى تصاحبها تغيرات فى الكائنات الحية فقط من الجذور للفروع ، حتى تصير الفروع جذوراً ([٢])وهكـــذا ، فكل تطور لابد أن تكون له أصول سابقة بحيث يقوم عليها وعلى هـــذا فهـــو لا ينشأ من لا شئ فى العلوم الطبيعية ، وإنما يقوم على أصول ثابتة .قابلـــة للإنتقال من حال الى أخر ، ويصلح معها التغيير فى الصور الجزئية أو الكلية .

= براجع فى ذلك إيضاح المبهم فى معانى السلم للشيخ أحمد الدمنهورى ، وحاشية الإمام الباجوري على شرح السلم ، وكتابنا الغزاليات فى منطق التصورات –ط٢ ١٩٩٩ –طبعة آل بسيونى

[١]- د. جون ديكسون – العلم والمشتغلون بالبحث العلمى فى المجتمع الحديث ص٤٣ - ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو –سلسلة عالم المعرفة بالكويت – العدد ١١٢ شعبان ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

[٢]- أ. توملس كوللر – مظاهر التطور الطبيعى ص١٥ –ترجمة نهال رشاد –طبعة الموصل ١٩٥٧م .

كمـــا عرف أيضا بأنه : حركة للأمام فى داخل الكائن الحى تدفعه لتحقيق مـــآرب ذاتية أو منتظرة منه ، متخذة أشكالا مختلفة تنطق بها صور متباينة ([1]) وهو تعريف أقرب الى المفاهيم السلوكية من العلوم الطبيعية ، لأن الكائن الحى الـــذى تـــنعقد علـــيه المآرب الذاتية هو الإنسان العاقل المفكر ، لا الكائن غير المفكـــر كالحيوان والنبات مثلا وبالتالى فهو تعريف بحاجة الى نوع جديد من المعالجة حتى يكون أكثر قبولا ، أو لا تقع المنازعة فيه من أصحاب التخصص نفسه .

وقد يعرف كذلك بأنه : ظاهرة طبيعية تعنى وجود تغير مستمر فى صور الكائنات الحية وظهور أنواع وأشكال جديدة ناتجة عنها ([2]) لم تكن موجودة فيها مـــن قبل وهو تعريف قد يكون مقبولا عند أصحابه ، لكنه لا يكون مقبولا فى الدراســـات العقديـــة ولا يكـــون مقـــبولا كذلك متى اعتبرت الظاهرة الطبيعية منصرفة لذاتها .

إنما الذى أعتقده أنها سنة إلهية من سنن الله الكونية باعتبار أن كل ما فى الكـــون إنمـــا هو قائم على سنن الله تعالى ، كعلامة متميزة فى ذات الكائن دالة على وجود الله تعالى وتفرده جل شأنه بالخلق والإيجاد ، وما يستتبع ذلك .

قال تعالى :(*أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَـــرَّةً إِنَّ اللَّـــهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّـــهَ لَهُـــوَ الْغَنِـــيُّ الْحَمِيدُ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْـــرِي فِـــي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّـــهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ * وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ *) ([3]) .

---

[1] - الأستاذ/ عبد العاطى محمد طلعت - التطور قانون الطبيعة ص٢٣ - ط عبد الونيس - حلب سوريا .
[2] - الدكتور محمد عبد القادر عاشور ، والدكتور / فؤاد محمد كمال الدين - محاضرات فى علم النبات ص٦ .
[3] - سورة الحج الآيات ٦٣/٦٦ .

قـال العلامة الفخر الرازى ([1]) : لما دل على قدرته جل علاه بما سبق ذكره من ولوج الليل فى النهار ، ونبه على نعمه ، أتبعه بأنواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهى ستة ([2]) .

الأولـى ، أنـه جعل الأرض مخضرة بالماء النازل من السماء ، فالتقاء السماء بـالأرض فـيه حكمـة عظيمة ونعم كثيرة ، ويدفع العاقل الى تأمل ذلك على النواحى العديدة .

والثانـية ، إن كل ما فى السماوات والأرض منقاد له جل شأنه غير ممتنع عليه ، وهـو الغـنى عن الجميع .وفيه دلالة على أن الله تعالى موجود واحد له من صفات الجلال والجمال والكمال والاكرام أعلاها جميعا .

والثالثـة ، أن يقال ذلك لكل ما فى الأرض فلا أصلب من الحجر ولا احد من الحديـد ولا أكـثر هيبة من النار وقد سخرها لكم ، والحيوان أيضا حتى تنتفعوا بهـا ، دلـيل ذلـك قوله تعالى:" **وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وما فى الأرض جمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ([3])** ".

والـرابعة ، أنـه سـخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، ففيها تسخير الماء والرياح ايضا حتى يقع لكم منها الانتفاع بها .

---

[1]- الفخر الرازى هو صاحب التفسير الكبير والتصانيف الكثيرة ويعرف بابن خطيب الرى واسمه محمد بن عمر بن الحسين بن على القرشي التيمى البكرى أبو المعالى وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازى ويقال له ابن خطيب الرى أحد فقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار ، له نحو من مائتى مصنف منها التفسير الحافل والمطالب العالية والمباحث الشرقية والأربعين ، وله أصول الفقه والمحصول وغيره وصنف ترجمة الشافعى فى مجلد مفيد وفيه غرائب لا يوافق عليها وينسب إليه أشياء عجيبة .ولد رحمه الله سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد كان معظما عند ملوك خوارزم وغيرهم وبنيت له مدارس كثيرة فى بلدان شتى ، وقد وقع بينه وبين الكرامية خلافات فى أوقات كثيرة وكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغون فى الحط عليه ويبالغ هو ايضا فى ذمهم وقيل انهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات ففرحوا بموته ، وكانت وفاته فى ذى الحجة . راجع البداية والنهاية لابن كثير –ترجمة الفخر الرازى – ٣٧٧/١٠

[2]-هذا الحصر العدى هو الذى تبناه العلامة الفخر الرازى ، وقد نقلته عنه ، ولعله قصد ما وصل اليه فى هذه الأيات القرآنية بعينها .

[3]-سورة الجاثية الآية ١٣

والخامســـة ، إن الســـماء مســـكن الملائكة فوجب أن يكون صلبا وثقيلا ومثله يسقط ولكن الذى يمسكه عن ذلك السقوط هو الله تعالى.

والسادســـة ، أن من سخر له هذه الأمور وأنتم على علم بها فهو الذى أحياه ، فنـــبه بالإحياء الأول على أنعام الدنيا علينا بكل ما تقدم ونبه بالإماتة فى الإحياء الثانى على نعم الدين علينا( )، فدل ذلك على أن كل ما فى الكون من سنن الإله الواحد جل وعلا.

قـــال تعالى(* مَا يفْتحِ اللهُ للنَّاسِ من رَحْمَةٍ فلا مُمْسكَ لها ومَا يُمْسكْ فـــلا مُرْسِـــلَ لهُ منْ بعْدِهِ وهُو الْعَزِيزُ الْحكيمُ * يَاأيُّها النَّاسُ اذْكُرُوا نعْمت الله علـــيكُمْ هلْ منْ خالِقٍ غيْرُ الله يرزُقُكم مِّن السَّماءِ والأَرْضِ لآ إِله إِلا هُو فَأَنَّى تؤفكوْن *)([2]). قال العلامة القرطبى : (إن الرسل بعثوا رحمة للناس فلا يقدر علـــى إرسالهم غير الله ، وقيل ما يأتيهم به من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه وما يمسك من ذلك فلا يقدر أحد على أن يرسله) ([3]) .

وقـــال الإمـــام السيوطى : (عن أنس رضى الله عنه "' أن رسول الله – صـــلى الله عليه وسلم – قال : اطلبوا الخير دهركم ، وتعرضوا لنفحات رحمة الله تعـــالى ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، وسلوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم) ([4]) .

ذلـــك أنْ أنعم الله تعالى لا تحصى كثرة ، قال تعالى : (* وَآتَاكُم من كُلِّ مـــا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ *) ([5])

---

[1]- الإمام الفخر الرازى – مفاتيح الغيب - م ١١ – جـ ٢١ ص ٣١٩/٣١٧ بتصرف يسير ط١ دار الغد العربى ١٤١٢هـ/١٩٩٣م.

[2]- سورة فاطر الآيتان ٣/٢ .

[3]- الإمام القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن الكريم جـ ٢٢ ص ٧٦ ، ٧٧ .

[4]- الإمام جلال الدين السيوطى ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ص٣٧٦، دار الفكر، ط٢ ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ وللإمام أبى السعود ، إرشاد العقل السليم الى مزايا القرآن الكريم جـ٤ ص ٢٣٧.

[5]- سورة ابراهيم الآية ٣٤ ، وقال تعالى ايضا فى سورة النحل الآية ١٨ (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم)

فـــإذا فتح جل شأنه على عبد باب نعمة فلا يمكن لواحد - أيا ما كان شانه - أن يقـــيدها أو يغلقها لأن ذلك من سنته جل شأنه ، وما يقيده الله فلا يستطيع أحد أن يطلقه ، لأنه وحده الغنى القادر ، والكل محتاج إليه .

يقـــول العلامة الزمخشرى : ما يطلق الله من رحمة أى من نعمة رزق أو مطـــر أو صـــحة أو غـــير ذلـــك من صنوف نعمائه التى لا يحاط بعددها فى الأرض أو فـــى الســـماء فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ، وأى شئ يمسك الله فـــلا أحد يقدر على إطلاقه ([1]) وذلك كله مما جرى به أمر الله فى كونه ، لأنه الفاعل المختار جل شأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وقـــال الإمـــام الطـــبرى : (مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده فما يفتح الله للـــناس من خير فلا مغلق له ولا ممسك عنهم لأن ذلك أمره لا يستطيع أن يرد أمره أحد ، وكذلك ما يغلق من خير عنهم فلا يبسطه عليهم ولا يفتحه لهم ، فلا فاتح له سواه لأن الأمور كلها إليه وحده) ([2]) .

وقال تعالى : (* إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا *) ([3]) .

وقـــد جـــرت ســـنته جل شأنه أن يمسك السماوات والأرض على معنى يحفظهمـــا بقدرتـــه حتى لا تزولا عن أماكنهما ، وهو وحده القادر على ذلك ، ولئـــن زالتا عن أماكنهما ومقرهما بتخليتهما ، كما يكون يوم القيامة فلن يستطيع أحـــد إعادتهما إلي أماكنهما من بعد إمساكه جل شأنه ، وهو وحده القادر على الإمســـاك والإزالـــة ([4]) وذلك ثابت فى علمه الأزلى قائم فى قدرته جل شأنه ،

---

[1] - الإمام الزمخشرى – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل – م ٣ ص ٥٩٦/٥٩٧ .

[2] - العلامة أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ - جامع البيان عن تأويل آى القرآن جـ ٢٢ ص ٧٦ ، ٧٧ الطبعة المصرية (مطبعة مصطفى البابى الحلبى) ١٩٥٤م .

[3] - سورة فاطر الآية ٤١ .

[4] - الشيخ اسماعيل حقى البروسوى – تنوير الأذهان من تفسير روح البيان – جـ٣ ص٢٩٧ط دار الصابونى .

مرهون بإرادته وهو فى ذات الوقت مما جرت به مشيئته سبحانه وتعالى وقامت على تخصيصه إرادته ونفذته قدرته .

وقـــال تعـــالى . (* هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِـــيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيـــرِ * وَلَقَـــدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُـــمْ صَـــافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ * أَمَّنْ هَـــذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُم مِن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ *) ([1]) .

الـــذى تطمئـــن إليه النفس أن الطبيعة مخلوقة وليست خالقة وأنها عاجزة وليســـت قـــادرة وأنهـــا صـــماء بلهاء وليست سامعة ناطقة من جنس العقلاء ، وبالتالى فإن ما يجرى فى الكون إنما هو من سنن الله فى الكون ([2]) وأنه تعالى متى أراد إنفاذ أمره فى شيء منها أو كلها نفذ مراده ، قال تعالى : (* لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ *)([3]).

ومن ثم فإن التطور الكونى العام الجارى فى الطبيعة انما هو فى علم الله قـــائم ، ومقضـــى به منذ الأزل أما تنفيذه لوقته فهو من قدر الله تعالى طبقا لما جرت به حكمته .

(٢) في مجـــال العلوم الإحيـــائية :

عـــرف الـــتطور فـــي العلـــوم الإحيائية ،علم الحياة – علم التاريخ العام للكائـــنات الحـــية علـــم الأحـــياء – بأنه مفهوم يتضمن الإعتقاد بأن الحيوانات

---

[1] - سورة الملك الآيات ١٥ /٢١ .

[2] - كثير من العلماء يتناول ذلك الجانب الإعجازى فى القرآن الكريم ، تحت عنوان الإعجاز الكونى فى القرآن الكريم ، راجع فى هذا الشأن الإسلام فى عصر العلم للاستاذ/ محمد أحمد الغمراوى ، الإسلام فى عصر العلم للدكتور محمد فريد وجدى ، الإسلام يتحدى للأستاذ وحيد خان وغيرها من المؤلفات فى ذلك الشأن .

[3] - سورة الأنبياء الآية ٢٣ .

والتنبايات الموجودة تكونت من أشكال سبقتها نتيجة تحول تدريجي مستمر من البداية وحتى الآن (١) وإن ذلك التكون لم ينقطع كما أن عملية التطور ذاتها لم تتوقف خاصة في الكائنات الحية .

وهـو تعـريف يرجع الأصول والأشكال المتباينة إلى أصول متقاربة أو أصـل واحد وهو قد يكون مقبولا على الناحية الدراسة النظرية، متى أرجع ذلك الخلق كله في خلقه ونظامه الى الله تعالى .

كمـا عـرف أيضا بأنه افتراض قائم على أن الحياة الأولى قد نشأت في جمـيع الكائـنات من أصل واحد ، اتخذ هذا الأصل مراحل مختلفة ، حتى بلغ درجـة من الكمال ثم انطلق بعدها في ذلك الطريق حتى بلغ قمته (٢) وما يزال ماضيا فيه لم يتوقف ، وهو تعريف قريب جدا من سابقه .

وعـرف كذلك بأنه استنتاج قائم في أن الحياة في مظاهرها الأولى ابتدأت مـن جرثومة واحدة ، ثم أخذت في التغير والانتقال مع الكفاح المستمر حتى بلغ ما هو عليه وما يزال آخذا في التطور لن ينقطع عنه ، وإن لم تدركه تماما (٣) وهو تعريف لنتائج المرحلة التطورية الأولى – النشوء – لأن الجرثومة الواحدة التي تمثل تطورا متقدما أبعد بكثير من المادة الصماء الجامدة .

ويـبدو أن دعـاة الفكـر الإحـيائي العضوي يحاولون التركيز على ذلك المفهـوم ، بغض النظر عن أي شئ آخر وهذا الاتجاه لم ينقطع حتى الآن حيث عرضـت احـدى الصحف السيارة بعض نشاط أصحاب هذا الاتجاه فنشرت ما يلي :

تمكن علماء في جامعة هاواي لأول مرة من استخدام حيوان منوي مجفف بطـريقة التـبريد وثبـت مـن الناحية العلمية إمكانية تخليق فأر حي ، ويشرح

١- الأستاذ محمد شفيق غربال – الموسوعة العربية الميسرة ص٣٩ ط القاهرة .
٢- بارنتس هلود – التطور العلمي سمة الحياة ص١٣ – ترجمة هشام حيش ط دار الموصل بغداد ١٩٤٣م .
٣- توماس هولد – علم الكائنات الحية ص٩ الترجمة الدكتور فوزي أبو خليل دار الجيل ، بيروت ١٩٧٧ .

العلماء التجربة بأن التجفيف بطريقة التبريد يؤدى الى قتل الحيوانات المنوية إلا أن حمض DAN الوراثى يظل صالحا للاستخدام .

وهذا الحمض النووى DNA هو الجزيئات التى تحمل العناصر الوراثية([1]) ، وقد تم إجراء عملية التخصيب بحقن رأس الحيوان المنوى الميت مباشرة فى داخل البويضة ، وكانت النتيجة هى الحصول على فأر حى ([2]). وهم بهذا ينسبون هذا التخليق والتطور الى أفعال أنفسهم وهى العاجزة عن إحداث شيء ، متجاهلين القوى القادر جل شأنه الذى خلق ذات الحمض النووى وأودعه داخل تلك الكائن الحي ، ومن ثم فهم لم يخلقوه وانما عرفوا مظاهره ، كما عرفوا أسبابه التى يقوم عليها

وأيضا عرف التطور عندهم بأن جميع الكائنات الحية التى تعيش على الأرض قد نشأت من أصل واحد أو بضعة أصول متقاربة ، وأن التغيرات المختلفة التى حدثت قد جعلتها تتحول من كائنات بسيطة التركيب الى أخرى أكثر تعقيدا ([3]) دون حاجة الى شئ آخر يجرى عليه التحول .

وهو تعريف يتردد كثيرا فى أفهام أصحاب فكر التطور الإحيائى ، على المعنى الذى قال به تشارلز داروين ومن سبقه أو من جاء بعده ، ممن سأتعرض للحديث عنهم فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

والملاحظ على التعريفات السابقة التى يجاهر بها أصحابها أنهم يقيمون التطور على مفهوم التحول من الكائنات البسيطة التركيب التى تتكون من خلية أحادية التركيب حتى يكون مركبا فى عدد أكبر من الخلايا ، وهو المعروف

---

[1] ـ بناء على أن الجسم الطبيعى فى الانسان يتكون من ثلاثين تريليون خلية جسدية ، وكل خلية تحتوى على ستة وأربعين كروموسوما وكل كروموسوم منها يحتوى على مائة ألف جين وراثى ، وكل جين وراثى يحتوى على كلمات مكتوبة من الأحماض النووية الأمينية والبروتينية المسئولة عن كافة الصفات الوراثية للانسان مورد جينات ، وانما الجينات تتنوع فى صميم تركيبنا ووراثة الجينات هى علم الوراثة الذى يعتبر من أهم مجالات علوم الحياة كلها وأشملها ـ وليم بينز ـ الهندسة الوراثية ص ١٩/١٨ ترجمة الدكتور أحمد مستجير .

[2] ـ الأهرام القاهرية ٢١ /٧/ ١٩٩٨ ـ الصفحة الأولى عمود ٣ من المقال .

[3] ـ الدكتورة فاطمة محجوب ـ دائرة معارف الشباب ص ٢٦ ـ ط ١ القاهرة .

باســم الخلايــا المعقدة التركيب ،أو هكذا يطلقون عليه طبقا للخريطة التى تعين علــى تحديد هوية جين معين أوجينات الاستعداد الوراثى لمرض من الأمراض ([1])

والمعــروف علمــيا أن جسم الإنسان به ما يقرب من ٣٠ ترليليون خلية بشــرية كــل مــنها بداخلهــا نــواة تحتوى كل واحدة منها على ستة وأربعين كروموســوما ، يوجد بكل كروموسوم منها الحامض النووى أو البصمة الوراثية الجينــية ، الــتى تحتوى على الجينات الوراثية وهى تكسب الإنسان كل ما هو علــيه مــن صفات وشكل ولون وأمراض اذا كانت من النوع الذى يورث عن طريق الانتقال الوراثى ([2]) طبقا لقاعدة توارث الجينات أو السلالات المنتقلة

وكل خلية بشرية تحتوىعلى ١٠٠ ألف جين وراثى يعمل منها من ١٠-١٥% فقــط بيــنما تظــل باقى الجينات فى حالة كمون ، ويمكنها أن تعمل فى الأجــيال اللاحقــة ، أمــا الخلايــا الجنسية فى الإنسان فهى تحتوى على ثلاثة وعشــرين كروموســوما ([3]) ، أى نصف العدد فى الخلايا الجسدية ، مع أنهما فى ذات الإنسان ، وذلك كله من الدلائل على أن الصانع الواحد القادر لها جميعا هو الله تعالى جل شأنه .

كمــا إن هذا العدد الموجود فى الخلايا الجنسية هو عدد احادى فإذا انضم العدد المذكر مع العدد المؤنث وتم التلقيح ، فإن الخلية الجسدية تتكون منهما معا ،وتســمى الخلية ثنائية التركيب كما تسمى الخلية المتكاملة أو الخلية الاولى([4]).

---

[1]- دانيل كيفلس - ، ليروى هور - الجينوم البشرى - القضايا العلمية والاجتماعية ص ١٢٧ ، ترجمة الدكتور احمد مستجير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

[2]- الدكتور / عبد الهادى مصباح - الاستنساخ بين العلم والدين ص ٣٨/٢٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .

[3]- إن الخلايا الجنسية فى الحيوان تحتوى على ستة وعشرين كروموسوما ، بحيث يكون المجموع هو اثنان وخمسون كروموسوما فى الحيوان بزيادة ستة كروموسومات عن الإنسان .

[4]- الدكتور [illegible] علم الخلايا الحية ص ٧١ ترجمة دكتورة فوزية محسن عبد المقصود ١٩٦٤ م .



وذلك كله بفضل الله تعالى القائل : (* أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون* نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين)[1]

يقول الأستاذ/ سيد قطب هذه الحقيقة الهائلة المتكررة فى كل لحظة ، ينساها الانسان لتكرارها أمام عينيه ، وهى أعجب من كل عجيبة تبدعها شطحات الخيال ، نطفة تمنى وتراق ، وهى من افرازات هذا الجسد الانسانى الكثيرة ([2]) كالعرق والدمع والمخاط ، فاذا هى فترة من الزمن انسان سميع بصير ، اذا هذا الانسان ذكر أو أنثى كيف تمت هذه العجيبة ، التى لم تكن – لولا وقوعها – تخطر على الخيال ([3]).

أين كان هذا الانسان المتكامل كامنا بعظمه ولحمه وجلده ، وعروقه وشعره بل وأظافره وخلائقه وطباعه ؟ أى قلب بشرى يقف امام هذه الحقيقة الهائلة العجيبة ، ثم يتمالك أو يتماسك، فضلا عن أن يجحد أو يتبجح، ويقول انها وقعت هكذا والسلام ؟!([4]) إن دور البشر فى أمر هذا الخلق لا يزيد على أن يودع الرجل ما يمنى فى رحم امرأة ثم ينقطع عمله وعملها ، وتأخذ يد القدرة الالهية فى العمل وحدها فى هذا الماء المهين تعمل وحدها فى خلقه وتنميته ، وبناء هيكله ونفخ الروح فيه ، ومنذ اللحظة الأولى تتم المعجزة ، وتقع الخارقة التى لا يصنعها الا الله ([5]) وهذا القدر من التأمل يدركه كل انسان ، وهذا يكفى لتقرير ذات المعجزة والتأثر بها .

ولكن قصة هذه الخلية الواحدة منذ أن تمنى قصة أغرب من الخيال ، هذه الخلية الواحدة تبدأ فى الانقسام والتكاثر ، فإذا هى بعد فترة ملايين الملايين من

---

[1]- سورة الواقعة الآيات ٥٨ / ٦٠ .
[2]- وهى مع كثرتها الى هذا الحد تعمل فى انتظام واحكام هامسة فى عقول الغافلين والمتأملين أن خالقها هو الله رب العالمين .
[3]- ومع هذا يزعم الطبيعيون والماديون كما يزعم الوضعيون أن الطبيعة الصماء البلهاء هى التى صنعت هذا الانسان كما صنعت كافة المخلوقات أليس ذلك من الأدلة على خبالهم العقلى ؟!
[4]- ورغم التقدم العلمى المذهل ، فمازالت بعض العقول مصرة على اتباع سبيل الشيطان ، والكفر بالرحيم الرحمن
[5]- قال تعالى : هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه – سورة لقمان الآية ١١ .

الخلايا ، كل مجموعة من هذه الخلايا ذات خصائص عجيبة ، فهده خلايا عظام ، وهذه خلايا عضلات وهذه خلايا جلد ، وهده خلايا أعصاب .

ثـم هذه خلايا لعمل عين وهذه لعمل لسان ، وهذه لعمل أذن ، وكل منها تعـرف مكـان عملها ، فلا تخطئ خلايا العين مثلا فتطلع فى البطن أو القدم ، فسبحان العظيم القدير القائل أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ([1])

ولكـن هـذا الـتحول المستمر داخل الكائن العجيب من خلية احادية فى أفرادها وجزئياتها الى خلية متكاملة لا يكون ذاتيا ، وانما بقدرة الله تعالى التامة ، وعلمـه المحـيط الشـامل ، وارادته النافذة وهو الذى نعتقده نحن المسلمين ونؤكد عليه.

قـال تعـالى:(*هـذا خَلْقُ اللَّه فأرُونى مَاذا خلقَ الَّذِينَ منْ دُونه بَل الظَّـالمُون فـى ضـلالٍ مُبين *) ([2]) . وقال تعالى : (*فتبارك الله أحْسنُ الخالقيـن*)([3]) وقـال تعالى:(* للَّه مُلْكُ السمَاوَات وَالأرْض يَخْلُقُ مَا يَشاء يَهـبُ لمَـنْ يَشَـاء إنَاثًا وَيَهَبُ لمَن يَشاء الذُّكُور * أوْ يُزوّجُهُم ذُكْرانا وإناثا ويَجْعَلُ منْ يشاء عقيما إنَهُ عَليمٌ قَدِيرٌ *وما كانَ لبشر أن يُكلمهُ اللَّهُ إلا وحْيًا أوْ مِـن ورَاءِ حِجَـابٍ أو يُرْسِلَ رَسُولا فيُوحى بإذْنه ما يشاءُ إنَهُ عَلىٌ حكيمُ *)([4]) .

ولكـن ربمـا عرف التطور الاحيائى فوق ذلك بأنه عملية النمو المستمر لـنوع من الكائنات منذ بدء أطوار حياتها الأولى ([5]) وهو تعريف قد ركز علي أثـار الـتطور بوجـه عـام دون التفات لنوع معين من أنواعه ، ولا مانع من

---

[1]- الأستاذ / سيد قطب ، فى ظلال القرآن جـ ٧ ص ٢٩٥ ، ط الشعب .
[2]- سورة لقمان الآية ١١ .
[3]- سورة المؤمنون الآية ١٤ .
[4]- سورة الشورى الأيات ٤٩ /٥١ .
[5]- المعجم العلمى المصور ص ٢٢٢ – اصدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة .

اعتباره أحد العوامل المهمة فى المسألة ، على أن يراعى عند استعماله ضرورة نسبة الخلق والتقدير فى كل منها الى الله تعالى .

وقــد يعــرف أيضا بأنه نمو الكائنات عبر الزمن ، عن طريق التباين فى الــبقاء داخــل كــل جيل من أفراد النسل ذات الصفات المعينة ([1]) وهو تعريف يؤكــد التطور العام كما يدعم أفكار القائلين بالتطور العضوى أيضا بغض النظر عن كونه مقبولا عند الإحيائيين على تلك الناحية أم غير مقبول .

وقــد يعرف كذلك بأنه : استخلاص أنواع جديدة من الكائنات الحية كانت قائمــة فــى أنــواع كانت موجودة سابقا ([2]) وهذا التعريف بحاجة الى مناقشة مفصــلة وهــو مــا سأعرض له عند الحديث عن قواعد التطور الإحيائى لدى القائلين به .

(٣) فى عــلم الســلوك :

عــرف علمــاء السلوك الإنسانى التطور بتعريفات عدة ، هى فى الغالب راجعة الى طبيعة الموضوعات التى يبحثونها ، ومن أبرزها :-

** انــه عملية تواكب حياة الكائن الحى العاقل ، وتدفعه للتعديل المستمر فــى سلوكياته من الحسن فى السلوك للأحسن ومن الأدنى للأعلى مع ضرورة مراعاة البعد الاجتماعى والتكيف الأسرى ([3]) وهو بهذا يحاول اعتبار ما يصدر عــن الإنسان فى أنماط حياته المختلفة مجرد عملية تقوم فى ذاتها على الممارسة ، حــتى يعــرف الصواب من الخطأ فينصرف للصواب تاركاً الخطأ ، ومن ثم

---

[1]- أرمان وبيترا – وراثة وتطور السلوك ص٤٥٧ – ترجمة د/ احمد شوقى حسن نقلا عن الأستاذ / فتحى عبد الرحمن محمد عطية الحوفى – جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية ص١٧٩ – رسالة ماجستير بكلية أصول الدين طنطا ٢٠٠٠م .

[2]- الدكتور / ليث عبد الجليل جواد الحصّان ، دكتورة زينب ابراهيم الحسينى – علم التطور ص١١ – جامعة البصرة ١٩٨٥م نقلا عن الأستاذ / فتحى عبد الرحمن الحوفى – جهود الشيخ حسين الجسر ص١٧٩ رسالة ماجستير بكلية أصول الدين طنطا ٢٠٠٠ م .

[3]- الدكتور سبنسر كولز – النفس الإنسانية ص٣٧ ترجمة الأستاذ فوزى محمود نصر – ط١ ١٩٦١ م.

فالـــتطور عندهم مرتبط بالسلوك الإنسانى من الناحية النفسية والسلوكية،او من الناحية الذاتية لا من الناحية الشرعية .

** كمـــا عـــرف عند السلوكيين أيضا بأنه : اتجاه عام فى دراسة النفس الإنســـانية مـــنذ بدايتها الى قمتها ، مرورا بما يحدث لها فى أطوارها المختلفة حـــتى يمكـــن ضـــبط مـــا يصـــدر عنها وتعديله الى ما فيه الصالح العام للفرد والجماعـــة ([1]) ولا يخفـــى أن ذلـــك الـــتعريف قد حاول صاحبه مراقبة بعض الســـلوكيات الـــتى تـــبرز الـــنفس الإنسانية فيها بصورة أخرى كأثر من الآثار المترتبة عليها .

**ويذهـــب الـــبعض فى تعريفه الىأنه : اتجاه قام فى أعراف بعض المدارس السلوكية ابتداءا من القرن التاسع عشر ([2]) وهو غير سديد بالنسبة للتعريف لأن أهل الإسلام قد نبهوا اليه فى دراساتهم الأخلاقية كالأمام الغزالى ([3]).

وابن مسكويه ([4]) وفلاسفة الإسلام كالكندي ([5]) والفارابي ([6]) وابن سينا ([1]) ومـــن جـــاء من بعدهم من فلاسفة المغرب الاسلامى كأبن باجه ([2]) وابن

---

[1]- الدكتور/ محمد عبد العاطى – السلوك الإنسانى ص١٢١ – المطبعة العلمية ، بيروت ١٩٥٣ م

[2]- الدكتور / محمد سعد السيد – النفس الإنسانية فى الفكر المعاصر ص٩١ ط١ ١٩٥٨ م.

[3]- هو الإمام زين الدين حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى النيسابورى الفقيه الصوفى الأشعرى ولد علم ٤٥٠ هـ وقد امتد عمره حتى علم ٥٠٥ هـ ، وله من الألقاب الكثير منها : [حجة الإسلام ، زين الدين ، الغزالى ، الفقيه الشافعى ، وحيد عصره ، شيخ الإسلام ، علم العلماء ، شيخ العارفين ، وارث الأنبياء ، حسنة الدهور والأعوام ، تاج المجتهدين ، سراج المتهجدين ، سيد المحققين ، مقتدى الأمة ، مبين الحل والحرمة زين الملة والدين] وكنيته الإمام أبو حامد الغزالى ، وهناك العديد من الكنى التى لم تشتهر اشتهار الأولى وهى [أبو عكاز ، أبو مغزل] وفى مسقط رأسه روايات منها : [الأولى : أنه ولد فى طوس إحدى أعمال خراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ ولهذه نسب – والثانية : أنه ولد فى قرية غزالة التابعة لمدينة طوس ولهذا نسبه وكنيته] راجع كتابنا حصاد الاقتصاد فى الاعتقاد للدكتور / محمد الغزالى – هـ١ ص١٥/٢٣ ط١ علم ١٤١٩هـ/١٩٩٨م- ط آل بسيونى

[4]- راجع ابن مسكويه وفلسفته – الدكتور عبد العزيز عزت – رسالة دكتوراه بكلية الآداب جامعة عين شمس .

[5]- هو أبو يوسف بن اسحاق بن الصباح بن عمران بن محمد شعث بن قيس من قبيلة كندة العربية الأصيلة التى يمتد أمرها فى الجاهلية والإسلام ، إذ نسبه يمتد فى الماضى حتى يصل الى يعرب بن قحطان من العرب القدامى وكان أجداده ملوكا لذت القبيلة ، عرف بأنه فيلسوف العرب وأول فلاسفة الإسلام وكان متبحرا فى فنون الحكمة وسائر العلوم وكثير من الصناعات والمعارف ، ولد فى ١٨٥ هـ وتوفى ٢٥٧ هـ . راجع الفهرست لابن النديم ص ٢٥٥ ، وحكماء المشرق للدكتور سامى نصر ص٢٥ ، والكندى فيلسوف العرب للدكتور مصطفى عبد الرازق .

[6]- هو أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أورلغ ، نسب لفاراب إحدى الولايات الفارسية القريبة من الحدود التركية ، وكان أبوه فارسيا وأمه تركية ، وقد ولد غالبا فى ٢٥٩ هـ شغل أبوه منصبا قياديا فى الجيش التركى =

طفيل (٣) وابن رشد (٤). وغيرهم ومن يطالع التراث الإسلامى يجد أن مراقبة النفس الإنسانية نالت حظا كبيرا من دراساتهم العلمية فى جانبها العقلى والأخلاقى كما نالت منهم عناية أشد فى الجانب التطبيقى أو الناحية السلوكية ، يعرف ذلك من يرجع الى تراث أهل الإسلام فى التصوف والأخلاق ، فضلا عن المباحث الكلامية والفلسفية التى عنيت بذلك الجانب .

فالصوفية تحدثوا عن مقامات السالكين وأحوال العارفين ، مبينين أن السلوك هو ذات الطريق الذى يمارسه السالك حتى يبلغ مرتبة القرب ، يقول الشيخ الأنصارى : اعلم أن السالكين لمقامات المحبة ينقسمون الى ثلاثة أقسام : الأول قوم وصلوا اليها عن طريق الحس والخيال ولم يجاوزوهما ، والثانى قوم

= وحبب اليه السفر والترحال ، وكان ابنه على شاكلته ، غير أنه تميز بقدرات عقلية أوسع مكنته من التعرف على ثقافة عصره فى شتى جوانبها وأمكنه أن يشارك فيها بكل قوة ويترك آثارا متعددة فى كافة النواحى المعرفية وبخاصة العقلية بجانب الروحية ، وعرف بالمعلم الثانى ، توفى ٣٣٩ هـ بعد أن ترك رصيدا ضخما من العلوم والمعارف ، راجع فى ذلك وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ والتفكير الفلسفى للدكتور عبد الحليم محمود ، والفلسفة الإسلامية للدكتور ابراهيم مدكور ، والجانب الإلهى للدكتور محمد البهى .

[١] - هو الشيخ الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا (٣٧٥ - ٤٢٨ هـ) كان أبوه من أهل بلخ ثم انتقل الى بخارى ثم سكن بقرية خرمثين ، منحه الله القدرة على اكتساب المعارف والعلوم ، بل كان قوى القوى كلها كما يقول هو عن نفسه ، بز أقرانه وتفوق على الكبير منه ، فكانت له تصانيف كثيرة فى سائر الفنون العلمية والأدبية والموسيقية وكان فقيها متمكنا ، كما كان صوفيا راقيا وطبيبا متميزا وموسيقيا واعيا ، مات بهمذان ودفن بمسجدها وقبره تحت السور من جانب القبلة ، ويذهب البعض الى أن رفاته نقل الى أصفهان ، ودفن بها فى موضع باب كونكتين ، والله تعالى أعلى وأعلم . راجع لابن ابى أصيبعة عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ٢ وكذلك مقدمة الإشارات والتنبيهات - القسم الأول ، تحقيق المرحوم الدكتور سليما دينا ، ثم كتابنا أوراق منسية فى النصوص الفلسفية ص١٣٣/١٠٦ ، ط١ ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م .

[٢] -هو أبو بكر محمد بن يحى المعروف بابن الصائغ التجيبى السرقسطى ابن باجه ، أول فلاسفة الإسلام فى المغرب الإسلامى ، كان على قدر كبير من النباهة والذكاء ، أمكنه من التعرف على الأصول الإسلامية مبكرا جدا بالنسبة لسنه وكان طلعه وذلك أعانه على السبق فى العلوم والمعارف الشرعية والعلمية والفلسفية ، ولولا أن عمره كان قصيرا ، فربما ترك معارف كثيرة ، ومؤلفات متعددة عاش ما بين القرن الخامس ومطالع القرن السادس الهجرى . راجع فى هذا الشأن مقالات فى أصالة المفكر المسلم للدكتورة فوقية حسين محمود ، وكتابنا ابن باجه مفكرا ، فقد تعرضت فيه لبيان تلك الجوانب .

[٣] - هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ولد فى غرناطة فى أوائل القرن السادس ، وتمكن من العلوم العقلية والإسلامية ، وكانت له اتجاهات عديدة قام بها خدمة لدين الإسلام وللعلم والمباحث العقلية ، وكانت له علاقة بابن باجه ، وهو من أهم العلامات الفكرية المتميزة فى الفكر الإسلامى بالأندلس والمغرب - راجع المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى، وروضات الجنات للخوانسارى ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للعلامة أحمد بن محمد المقرى .

[٤] - هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥ هـ) ، قاضى قرطبة الأشهر وفيلسوفها الأغر من أشهر فلاسفة الإسلام فى المغرب الإسلامى ، وبين مولده ووفاته قصة كفاح طويلة . راجع نفح الطيب لابن المقرى وروضات الجنات للخوانسارى ، راجع كتابنا أوراق منسية فى النصوص الفلسفية ص ٨٧/٧١ .

وصـلوا الـيها من طريق الحس والعقل جميعا ، والثالث ، قوم وصلوا اليها من طريق العقل فقد متجاوزين لما قبله([1])

فالسلوك عند الصوفية مقام ومنزلة يقف عندها السالك ليعرف هل أخطأ أم أصاب وهى عملية ذاتية يقوم بها من داخله ولا تأتيه من خارج عنه وذلك مما يتمـيز بـه أهـل الإسلام عن غيرهم ([2])، لأن المقام عند المحققين هو الملكة الثابـتة لمـا ينازلـه السـالك من الصفات والحال عندهم عبارة عن تأثر القلب بـالواردات مـن المحـبوب ، الا أن ذلك سريع الزوال ولهذا قالوا ألف حال لا يحصـل منها مقام واحد والاعتماد فى السلوك على المقامات والملكات لا على الأحوال ([3]).

وفـى تقديرى أن التطور حركة فى اتجاه متقدم ، يهدف الى تقديم أفضل النـتائج الـتى يجب أن تكون فى اطار حماية النصوص الشرعية ، بحيث تنقل الفرد والمجتمع الى ما فيه الخير لذات الفرد والمجتمع ايضا فى الدنيا والآخرة فـإذا تحول مفهوم التطور من كونه حركة مطردة نحو الأمام الى حركة مضادة تسير فى اتجاه الخلف ، ومن تقديم النتائج المشروعة الى نتائج متسلقة لا حماية لهـا من الشرع ، أو تؤدى الى اهدار القيم والقفز فوق القواعد الصحيحة ، فإنه لا يكـون تطـورا ، وانمـا يمكن اطلاق الأسماء الأخرى التى تتوافق معه أو تنطبق عليه .

---

[1] الشيخ عبد الرحمن محمد الأنصارى ، المعروف بابن الدباغ ت ٦٩٦هـ - مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ص٥٩ تحقيق هـ . ريتر - ط دار صادر بيروت .

[2] - ولطالب المزيد يراجع احياء علوم الدين للإمام الغزالى ، والرسالة القشيرية للإمام القشيرى بجانب التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى وغيرها من المصادر التى عنيت بابراز هذا الجانب من الفكر الإسلامى

[3] - ابن الدباغ - مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب ص٦٧ .



أنواع التطور

الـــدارس للتطور كمادة لغوية او منطوق لفظى ، يراها تقبل – من حيث الحديـــث عـــنها – التنوع ، وبالتالى فيمكن القول بأن التطور أنواع من أبرزها تطـــور اللغـــة ، ثم التطور الاجتماعى ، وكذلك تطور الآلة والوسيلة ثم تطور العادة والسلوك وتطور المعارف والثقافات وتطور الزمان والأحداث .

وكذلـــك الـــتطور المادى الى جانب التطور الحضارى المتعلق بوسائل السلم والحرب ، أو الأمراض والعلاج ، وتطور الأحياء ثم التطور الكونى العام ، أو الـــتطور العضـــوى الى غير ذلك من الأنواع التى تعرض العلماء للحديث عنها فى مواطن متفرقة من العلوم المختلفة ([1]) ، وها آنذا أقدم لمحة عن أبرزها على النحو التالى :-

الأول : تـــطور اللـــــغة :

ومعـــناه : أن اللغة التى يتعاطاها الناس ويتعاملون بها ، تبدأ مفرداتها فى ألفـــاظ قليلة ، ثم تكثر تلك المفردات الاستعمالية ثم تتطور ، فالطفل حينما يولد لا يكون له شئ من المفردات اللغوية ، ثم تبدأ ملكاته فى التركيز الذهنى وحينئذ يلـــتقط بعـــض المفـــردات التى يمكنه ترديدها كأجزاء صغيرة لغوية ، أو مادة حرفـــية أو صوتية قليلة ، قابلة للزيادة والسلامة ([2]) متى كانت ملكاته العقلية ، وآلاتـــه النطقـــية ســـليمة ولعل هذا ما يمكن فهمه من قوله تعالى : (* وَاللَّهُ أَخْـــرَجَكُمْ مِـــنْ بُطُـــونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَ الأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *) ([3]) .

---

[1] - هذا ما يمكن التقاطه من العلوم المختلفة ، وكلما بحث الدارس فيها أمكنه بفضل الله التعرف على بعضها ومن ثم فهى نسب والله يقدر الخير .

[2] - أ . ب – هيلموث – الطفولة المبكرة ص ١٤ – ترجمة فوزى مصباح ١٩٥٣ م .

[3] - سورة النحل الآية ٧٨ . يقول الشيخ التهامى : والله أخرجكم من أرحام أمهاتكم بلا معارف أصلا سوى أنكم على الفطرة التى فطر الله الناس عليها وهى توحيده تعالى وتفرده بالخلق والايجاد بجانب تفرده سبحانه وتعالى بالاحكام والابداع ، ثم جعل لكم حواس وملكات تكتسبون بها معارفكم التى تقوم على الوسائل الحسية والعقلية أيضا حتى تشكروه على نعمه وتذكروا دائما الآءه. الشيخ محمود السيد التهامى – تفسير سورة النحل ص١٥٧ ط الدر العصرية ١٩٧٥م .

وشـيئا فشـيئا ، تظل مداركه العقلية آخذة فى النمو ، من القليل للأكثر، ومـن الخطـأ فى الاستعمال الى الصواب ، حتى ربما بلغ درجة العبقرية التى يمكـن تعريفها بأنها قوة فكرية فطرية من نمط رفيع ، كتلك التى تعزى الى من يعتـبرون أعظـم المشتغلين فى أى فرع من فروع الفن أو التأمل أو التطبيق ، وهـى طاقـة فطـرية غـير عادية مع الابداع التخيلى أو الفكر الأصيل ، أو الابـتكار والاكتشـاف ، وهـى تختلف كثيرا عن الموهبة ([1]) ولا يبلغ المرء درجـة العبقرية فجأة ، وإنما يجاهد فى سبيل الوصول اليها ، ثم الإعلان عنها على اساس ان ذلك منهج حياة ،وطريق عملى مضمون .

ومـتى أمكن توجيه تلك الطاقة العقلية فى الانسان وتنميتها ، فإن صاحبها تظهـر فيه العبقرية بشكل أسرع وأوسع ، ولا شك أن الخبرات الماضية للطفل تؤثـر على توقعاته كنتيجة قائمة فى فهمه ، بصورة واضحة ([2]) وتظهر عليه أثـناء الـتعامل معـه وتـتطور أيضا طبقا للاحتياجات الضرورية والظروف المحيطة به .

ومـن ثم تختلف اللغات واللهجات باختلاف الشعوب والأجناس وهو من الدلائـل علـى وجـود الله تعالى ووحدانيته لقوله تعالى : (* وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ *) ([3])

قـال الشيخ الصابونى : ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته ، خلق السـماوات فـى ارتفاعهـا واتساعها ، وخلق الأرض فى كثافتها وانخفاضها ، واخـتلاف اللغات من عربية وعجمية وتركية ورومية ، واختلاف الألوان من

---

[1] - بنيلوبى مترى – العبقرية تاريخ الفكرة ص١٤ – ترجمة محمد عبد الواحد محمد - عالم المعرفة بالكويت العدد ٢٠٨ – ذو القعدة ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦م .

[2] - الأستاذة دلال عبده عبد الحميد على خربية – توقع نتائج مهام معملية وعلاقته بزمن الرجع الأختيارى ص ٤٠ رسالة ماجستير بكلية التربية جامعة الزقازيق ١٩٩٦ م.

[3] - سورة الروم الآية ٢٢.

ـبيض وأسود وأحمر حتى لا يشتبه شخص بشخص ولا انسان بانسان( ) مع انهم جميعا من ذرية ادم عليه السلام

بيد ان اللغه كمفردات لغويه ، تبدا مراحلها الأولى ضعيفة الإبانة عاجزة الأداء محددة الكلمات ثم تنتقل من طور الطفولة الى طور الصبا ومن طور الصبا الى طور الشباب الفتى ([٢]) وقد يستمر شبابها فترة طويلة ، وربما تداخلت عوامل مختلفة فأدت الى التدهور فى اللغة كمفردات ،عن طريق الاستعمال السيئ حتى تصير مهملة بعد أن كانت مستعملة ، مهجورة بدل أن كانت مطروقة ، الىغير ذلك من الوجوه المتبادلة الواقعة بين الإيجاب والسلب.

فى نفس الوقت فإن التطور اللغوى يمكن مراقبته من خلال مفرداته اللغوية متى أمكن التعرف على كيفيه استعمال تلك المفردات وطرائق الوصول الي المادة الأصلية ، التى يتوقف عندها الفعل الذى قامت عليه بنية الكلمة .

فالفعل طَوَّر مثلا حدثت فيه عدة تطورات حتى جاء منه المصدر – التطور والتطوير – وجاء منه اسم الفاعل المطور والمتطور – واسم المفعول المطور والمتطور ([٣]) وهكذا فقد حدث فى المادة الأصلية للكلمة نوع من التطور اللغوي الاستعمالي على جهة الاشتقاق أو النحت أو النقل أو ما شابه ذلك

وهذا النوع يسمى التطور اللفظى أيضا من حيث أنه لفظ ينطق به ويسمى التطور اللغوى من حيث أنه وارد فى اللغة كمفرد من مفرداتها ، وله كذلك دلالة معينة قائمة فى جملة من المعانى المرادة من اللفظ ذاته ([٤]) ، سواء أكان

الشيخ محمد على الصابوني –صفوة التفاسير ج ١١ ص ٤٧٦

[٢] الأستاذ عباس حسن – اللغة والنحو بين القديم والحديث ص ١٤ ، دار المعارف ١٩٩٦ م .

[٣] لأننا اذا أردنا التعرف على كلمة التطور من حيث المعنى فى المعاجم العربية مثلا ، فلابد من الوقوف على مادتها الأصلية أولا وهي (ط و ر) ثم نحاول بعد ذلك الوصول الى المعانى ثانيا والألفاظ المتداولة ثالثا ، ثم كيفية الاستعمال كمرحلة أخيرة .

[٤] الدكتور / توفيق عبد الخالق السجان – مميزات النحو العربى ص٢١٧ – ط١ دار الرضوان ١٩٦٧ م .

ذلـــك مـــن طريق الاستعمال أم الاهمال على النحو الذى أفاض فى بيانه النحاة والصرفيون .

كمـــا تعرض له المناطقة ايضا فى مباحث الألفاظ وعلاقتها بالمعانى كما خصـــوه بالعـــناية أيضا فى مبحث الدلالة وشاركهم البلاغيون وعلماء الأصول والمحدثون كل على ناحيته ([1]) .

وهـــذا النوع من التطور القائم فى اللغة مما لا علاقة له بالتطور الإحيائى البـــيولوجى ، ولا مـــنازعة لهـــم فيه لأن اللغة من خصوصيات القائمين عليها وإطـــلاق ألفـــاظهم على مباحثهم فيها يمثل نوعا من الاصطلاحات الخاصة بهم ولـــيس مـــن شـــأن غيرهم منازعتهم فيما ذهبوا اليه لأن القاعدة القائمة هى لا مشاحة فى الاصطلاح .

ويذهـــب الـــبعض الى التأكيد على أن التطور اللغوى حقيقة واقعة مستدلا بـــأن أبا البشرية آدم عليه السلام ، علمه الله بعض الأسماء والأحداث ثم طرأت بعـــد ذلك على ما تعلمه آدم تطورات ، فكان اذا أراد الاخبار عن حصول حدث أو أمر معنوى لذات ما أقرن بين اسم الذات واسم الحدث نحو ماء برد أى بارد ، ثـــم طرأ وضع الأفعال والأوصاف بعد ذلك ، فقال الماء بارد أو برد الماء ، ممـــا يرجح أن أصل الاشتقاق هو المصادر لا الأفعال لأن المصدر صنف دقيق من نوع الأسماء ([2]) .

لكن ما هى اللغة قال ابن الحاجب : حد اللغة كل لفظ وضع لمعنى ([3]) ،

---

[1]- كم أتمنى أن يبحث موضوع الدلالة فى الفكر الاسلامى أو موضوع الدلالة بين المناطقة والمحدثين وعلماء الأصول - ففيه خير كثير إن شاء الله تعالى وآمل أن يقوم بذلك باحث من خلال رسالة جامعية .

[2]- الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير - جـ١ ص ٣٨٧ طبعة الحلبى ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

[3]- العلامة عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب - مختصر ابن الحاجب ص٣ .

وقـــال الاســـنوى : .. اللغات عبارة عن الألفاظ الموضوعة للمعانى ( ) وهل هى بالتوقيف عن الله تعالى أم بالاصطلاح والتواطؤ ؟ هناك رأيان..

الأول لابن فارس ومن معه: حيث يذهبون الى أن لغة العرب توقيف من الله تعالى ودليلهم قوله تعالى : وعلم آدم الأسماء كلها ، فكان ابن عباس يقول : علمـــه الأســـماء كلها ، وهى التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجمل وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ([٢]) .

اما الثانى فهو لابن جنى ومن معه حيث يذهبون الى ان اللغه قائمة على التواضع والاصطلاح وليس على التوقيف مستدلين بذات الآية وهى قوله تعالى: (وعلـــم آدم الأسماء كلها) ثم قال إن اللغة فيها أسماء وأفعال وحروف فلو كانت توقيفـــية لمـــا ذكـــر الاسم على وجه الخصوص ([٣]) وانما كان يقول وعلم آدم الأســـماء والأفعـــال والحـــروف ، فالتخصيص المنصوص عليه أثبت أن اللغة العربية اصطلاحية وليست توقيفية .

ولمـــا كانت قواعد اللغة تواضعية بالاتفاق بين المتناولين لمفرداتها ، فإن الواضـــعين لها يطورون فيها ([٤]) سواء أكان ذلك التطوير فى طرائق الاستعمال أم فى إضافة بناءات جديدة للمفردات ، أم فى كيفية التعامل معها والوسائل التى تعيـــن علـــى إتمام ذلك فى شئ من الدقة ، بحيث يمكن التوصل الى الأغراض المرتبطة بها فى سهولة ويسر ، كنوع من الخدمة الدائمة لها والرعاية المستمرة لأصولها والفروع التى ارتبطت بها .

كمـــا أن اللغـــة شـــديدة الاتصال بالفكر فلا كلام بغير فكر ، وينشأ الكلام عـــندما نحاول التعبير عن أفكارنا ، والفكر هو أصل الكلام اذا فكر الإنسان فيما

- العلامة الإسنوى – شرح منهاج الوصول ص٧ .
٢ - الإمام السيوطى – المزهر فى علوم اللغة حـ١ ص٨ .
٣ الامام السيوطى المزهر فى علوم اللغة جـ١ ص ١ تحقيق محمد جاد المولى وآخرين طبعة دار لتراث الدكتور منصور عبد الباقى رضوان النحو واللغة ص١٥ - دار الرضوان ١٩٥٦ م

يعــن له قام بنطقه ، ولا يعنى بالكلام التعبير عن الأفكار فقط ، بل يشمل جميع العواطف والرغبات والانفعالات ([1]) ولما كان الفكر قابلا للتطور فى ذاته ، فإن اللغــة المتصــلة به هى الأخرى يحدث فيها ذات التطور مع الأخذ فى الاعتبار سرعة حركة الفكر وبطئ حركة اللغه .

وما من لغة إلا وفيها شئ من التطور سواء أكانت لغة مكتوبة أم شفهية ، وأرقــى اللغات هى العربية ، لأن فيها الحقيقة والمجاز كما أن فيها البلاغة التى هــى : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، ولها طرفان أعلى وهو حد الاعجــاز وما يقرب منه ، وأسفل وهو ما التحق بما دونه ، كأصوات الحيوانات ، عند البلغاء ([2]) ، وتعرف بأنها بلاغة الكلام ([3]) ، لا بلاغة المتكلم والعلاقة بينهما لا تنفصل كثيرا .

كمــا أن بلاغة الكلام فيها الفصاحة وأوجه الجمال سواء أكان ذلك الجمال فــى انــتقاء المفــرد اللغــوى ذى الجرس العالى والنغم الراقى ، ام فى الجمل المــترابطة الــتى تــزدحم حولهــا المعانى بكثرة وتتلاقى فى نوع من التآخى المتواصــل والتعبير المؤدى للمطلوب ، مع الايجاز غير المخل ، الى غير ذلك من الأوجه التى تتميز بها اللغة العربية عن غيرها من باقى اللغات واللهجات . لكن من الممكن أن يتم فيها التطور اللغوى على النحو الذى أشرت اليه ، سواء أكــان فــى النطق بها أم فى الكتابة ، وليس ذلك تطورا على النحو الذى قال به الإحيائيون ولا علاقة له بشئ منه .

الثانــى : التطور الاجتمــاعــى

---

[1] - الإمام عبد القاهر الجرجانى - دلائل الإعجاز ص٢٣ من مقدمة المحقق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى - مطبعة الخانجى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.

[2] - العلامة الشيخ على صقر - شرك الآمل لصيد شوارد المسائل فى المعانى والبيان والبديع ص٥ - المطبعة العامرية الشرقية ١٣١١ هـ .

[3] لأن بلاغة المتكلم هى : ملكة يقتدر بها على تأليف كلام بليغ فبعلم البيان يعلم مطابقة الكلام لمقتضى الحال وبعلم المعانى يحترز عن التعقيد المعنوى ، وبعلم البديع تعرف وجوه التحسين ، وقد يسمى الجميع علم البيان ، وبعضهم يسمى الأخيرين علم البيان ، والثلاثة علم البديع ، راجع شرك الآمل ص٦/٥ .

المجتمع هو الذى يتكون من بنى الإنسان فى وجودهم ويقوم على التضامن بجانب التعاون المتبادل بين الأفراد والجماعات فى جلب المنافع ودفع المهالك، ومن المعروف لنا شرعا أن أبا البشر – آدم عليه السلام – قد خلقه الله تعالى من طين ثم نفخ فيه الروح فصار بإذن الله تعالى بشرا سويا ، قال تعالى : (* ذَلكَ عالمُ الغَيبِ والشَّهادةِ العَزيزُ الرَّحيمُ * الَّذى أَحسنَ كُلَّ شئ خَلقهُ وبدأ خلق الإنسان من طين*) (١) .

وقال تعالى: (* إذْ قالَ ربُّكَ للْملائكةِ إِنى خالِقٌ بشرا مِّن طينٍ * فإذا سوَّيْتُه ونفختُ فيهِ من رُّوحِى فقَعُوا لهُ ساجِدين *) (٢) . وقال أيضا : (* فاستَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشدُّ خلْقًا أم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزبٍ *) (٣) . وقال تعالى: (* هُوَ الَّذى خلقكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضى أجلا وأجلٌ مُسمًّى عِندهُ ثُم أَنْتُمْ تمترُونَ *) (٤) .

ومن المعلوم أيضا أن الله تعالى خلق من آدم حواء وجعلها زوجا له ، قال تعالى : (* يأيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربكُم الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَقَ مِنْها زوجها وبث مِنْهما رجالاً كثيرا ونِساءً واتَّقُوا الله الَّذى تسآلُون بِهِ والأَرْحام إِنَّ الله كان عَلَيْكُمْ رقِيبًا *) (٥) .

وأنه تعالى علمه إلهاما أو وحيا كيفية تكوين الأسرة من خلال زواج كل منهما بالأخر ،وأنه تعالى امتن عليهما فأسكنهما الجنة وكانا فردين ثم رزقهما الله تعالى الذرية حتى صارت العالم الأنسانى بأسره من نسلهما .

وذكر العلماء أن الله تعالى وائم فى حمل حواء حيث جاء كل حمل بولد وبنت ، واقتضت شريعة الله تعالى لآدم – عليه السلام – وبنيه فى النكاح أن

---

(١)- سورة السجدة الأيتان ٦/٧ .
(٢)- سورة ص الأيتان ٧١/٧٢ . وقال أيضا : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) سورة المؤمنون الآية ١٢
(٣)- سورة الصافات الآية ١١ .
(٤)- سورة الأنعام الآية ٢ .
(٥)- سورة النساء الآية ١ .

يـــتزوج الولد من الحمل الأول البنت من الحمل الثانى ، وان تتزوج البنت من الحمل الأول أخاها من الحمل الثانى أو العكس ، وهكذا مع كل حملين يأتى أمر النكاح،إذ لم تكن هناك ذرية أخرى غير ذرية ادم وحواء .

قـــال الإمام الخازن : (ذكر أهل العلم بالأخبار والسير ، أن حواء كانت تلد لآدم فى كل بطن غلاما وجارية ، فكان جميع ما ولدته أربعين ولدا [1] فى عشـــرين بطـــنا ، أولهم قابيل وتوأمته إقليما ، وأخرهم عبد المغيث وتوأمته أم المغيـــث ، ثم بارك الله تعالى فى نسل آدم ، قال ابن عباس لم يمت آدم حتى بلغ ولده وولد ولده أربعين ألفا) [2]

وكـــان إذا كبر الأبن زوج آدم غلام هذا البطن جارية بطن أخرى ، وكان الـــرجل منهم يتزوج أية أخواته شاء غير توأمته التى ولدت معه ، لأنه يومئذ لم يكن نساء إلا أخواتهم فكبر قابيل وأخوه هابيل ، وكان بينهما سنتان ، فلما بلغوا الولـــدان والبنـــتان مبلغ الزواج ، أمر الله آدم أن يزوج قابيل لبودا أخت هابيل ويـــزوج هابيل إقليما أخت قابيل ، ولما كانت إقليما أحسن من لبودا ، وذكر آدم لهما ما فرضه الله عليه فى هذا الشأن فرضى هابيل وسخط قابيل [3] .

---

[1] - وذهب العلامة الصاوى الى أن حواء ولد لآدم منها عشرون ولدا وتسع عشرة جارية وأنها ولدت فى البطن الأخير ولدا هو شيث ، حتى يكون عوضا عن هابيل فلو كان العدد أربعين وقد قتل هابيل لظلت لحدى البنات من غير زواج - راجع حاشية الصاوى جـ ١ ص ١٣٧.

[2] - الإمام علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الخازن الأشعرى - لباب التأويل فى معانى التنزيل - المجلد الأول ص ٥٩٦/ ٥٩٧ ، وبهامشه مدارك التنزيل وحقائق التأويل للإمام النسفى الماتريدى .

[3] - هذه الأسماء والأقوال التى صاحبتها ، ليس لدى دليل على إثباتها أو نفيها ، وكل ما فى الأمر أن أصحاب السير والتاريخ تحدثوا بها فحكيتها عنهم ، وقد وجدت فى قاموس الكتاب المقدس - العهد القديم - اسم قايين وهابيل ، والخلاف الذى حدث بينهما وفيه تفاصيل بعضها لم يتعرض له مفكرو الاسلام ، وبعضها الأخر تعرضوا له تعرضا خفيفا ، فالمسألة عندى من الغيب الذى لا يعلمه الا الله تعالى ومادام لم يثبت عندى خبر صحيح عن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فى هذا الأمر ، فالتفويض يكون أسلم على الناحية الشرعية ، أما من وقف على خبر صحت نسبته فى المسألة الى سيدنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فعليه الأخذ به وإرشادى اليه لأنى إجتهدت قدر طاقتى ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها .

وبقــى الحــال علــى ما حكاه اصحاب التاريخ والسير والقصاص حتى تسـعت البشرية ونسخت بعض الأحكام المتعلقة بالنكاح على النحو الذى بلغ به الانبياء والمرسلون فيما بعد.

ثم إن أولاد آدم وذرياتهم قد كثروا بعد ذلك فيما بعد فانطلقوا فى الأرض يعمــرونها ، وكلمــا ضــاقت بهم مساحة الأرض التى يقيمون فيها خرجوا عن نطاقها ، وتوسعوا فى العمران حاملين معهم وسائل المحافظة على ما تحقق لهم مــن ملامح ذلك العمران التى تعلموها ، وبلغوا حد الإتقان لها والإجادة ، وذلك يستلزم بحثهم عن وسائل جديدة مع تطوير الوسائل التى بأيديهم .

ولأن الإنســان مدنــى بطبعه ، فلابد له من علاقات اجتماعية تقوم عليها تلك المدنية ، سواء أكان ذلك فى المشاركات المستمرة داخل العمل الذى يتم به استمرار الحياة ، ام كان ذلك فى أعمال الرعى ، التى تتطلب جهدا كبيرا بجانب الخـبرة العلمــية والعملية ، أم كان ذلك التشارك فى جانب الحرف والمهن التى لابـد منها ( ) وتمثل البدايات للصناعات التى تعتبر ضرورة لحفظ الحياة على أصحابها فى ناحية من النواحى .

ومــن المؤكــد أن الــزراعة والصناعة والرعى حرف وصناعات ، لكن العلاقــات الــتى تــربط بين القائمين عليها هى الجانب الاجتماعى الذى يستلزم التشارك والتعاون ثم التآلف ، وهو ما يعرف باسم التطور المستمر فى العلاقات كمــا يستلزم إيجاد قواعد مشتركة وعادات ثابتة تكون بمثابة القواعد الآمرة أو القوانيــن التى يجب العمل بها فى هذا الجانب ، حتى لا يقع عدوان من البعض علــى الآخريــن فــى الواجبات ، أو غبن فى الحقوق ([2]) ، أو إهدار لشئ من الواجبات التى يقع فيها نوع من التبادل الأدائى .

---

[1]- تشارلز هانط بودج - علم الاجتماع والأنثروبولوجيا ص ٤٣ - ترجمة الأستاذ عبد العاطى نور الدين - مكتبة المعرفة ١٩٥١ م .

٢- الدكتور توفيق محمود نصر الله - تطورات المجتمع الانسانى ص ٧١ - ط ١ ١٩٦٣ .

ثــم إن القــاعدة الاجتماعــية لمــا كانت فى الماضي قليلة الأفراد ، فإن المشــاكل الــتى يمكن أن يتعرض لها هؤلاء الأفراد تكون هى الأخرى قليلة ، وكلمــا اتســعت قاعدة الأفراد المكونين للمجتمع وانفلت من بين أيديهم الالتزام بالشــرع الألهــى ، فــإن المشاكل تطل برأسها فيما بينهم وتندفع نحوهم اندفاع الســيل العرم على الوادى المنخفض ، وحينئذ تظهر الحاجات الملحة التى تدفع الــى ضرورة تطور المجتمع ككل بتطوير العلاقات أو تنمية السلوك والأخذ بيد أفــراد المجــتمع الى مراعاة الالتزام بالعادات الصحيحة والقيم الثابتة الأصيلة بجانــب ما تفرضه الفطرة المستقرة السليمة أو هو القانون الإنسانى ([1]) ، وقبل ذلــك كلــه ضرورة الأخذ بتوجيهات الشارع الحكيم لأنها هى القانون الألهى . الذى لا يقع فيه تعديل أو تطوير أبدا

إذن المجتمع الإنسانى ، يعمل أفراده على تطوير العلاقات بينهم كأفراد ، وتطويــر العلاقــات بيــنهم كمجتمعات صغيرة ، حتى تبلغ المسألة غايتها فى المجتمع الإنسانى الكبير ، الذى يشمل الإنسانية كلها ، وتعرف تلك بعلاقة الفرد بالمجموع كما تعرف بالنسق الاجتماعى ايضا ([2]) .

وهــى مســألة مهمــة لأنهــا تمثل البداية كما تمثل نقطة التقاء الأبحاث السوســيولوجية والى حد كبير يقاس مدى نجاح البحث الاجتماعى بما يقدمه من حــل لمشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع ([3]) بحيث يتاح للمجتمع أن يحقق أكبر قــدر مــن الــتطور فى كافة النواحى الممكنة ، وعلى كل الأصعدة التى يتوقع احتياجها الى شئ من التطوير .

---

[1]- الأستاذ / عبده محمد يوسف - المجتمع الإنسانى فى مراحله الأولى ص ١١٢ .

[2]- بوتومور - تمهيد فى علم الاجتماع ص ١٤١ وما بعدها ط ٥ - دار المعرفة ١٩٨١م - ترجمة الدكتور محمد الجوهرى وآخرين .

[3]- روبرت موريسون ماكيفر - المجتمع ص ٨٧ - ترجمة الدكتور على احمد عيسى - مكتبة النهضة المصرية .

غـــير أن التطور الاجتماعي يمثل أهمية كبرى في حياة الإنسان ، لأنه لا يســـتطيع أي فرد أن يعيش وحده مكتفيا بكل ما لديه من إمكانات ، بحيث يكون بعـــيدا عـــن أن يؤثر في البيئة التي يعيش داخلها والأفراد الذين يتعاملون معه، لأن قـــاعدة المعارضة[1] في الحرف والصناعات تفرض نفسها على كل الأفراد كما أن طبيعة المجتمعات الإنسانية بحاجة إليها ويستحيل أن تتخلى عنها .

في نفس الوقت فإن قاعدة المعاوضة يتحتم وجودها بين الأفراد أيضا[2] ، حيـــث يستخدم صاحب كل صناعة ما يحتاجه من صناعات الآخرين على سبيل الضـــرورة فـــي الوقت الذي يشعر فيه أنه بحاجة إليها ، وهو التشارك فيما هو فـــائض عن احتياجات صاحب الصناعة التي تميز بها ، لأنه لا يستطيع اختزانه [3] ، وكذلـــك الحـــال مـــع الجميع فلا الطبيب سيأكل طبا ولا الفقيه سيأكل أو يلـــبس الفقه ولا الحداد سيلبس ويأكل ويعالج بقطع الحديد التي يجيد صناعتها ، وإنمـــا يعـــتمد كل أصحاب حرفة أو صناعة أو فن على حرفة أو فن وصناعة الآخرين وهذا ما تشهد به العقول الصحيحة .

إذن فلابد من تعاملات مستمرة وعلاقات متبادلة بين أفراد المجتمع الواحد مهمـــا كـــان صـــغيرا ، بحيث يتم تطويرها من آن لآخر وحينئذ تتحقق رغبات هـــؤلاء الأفراد الذين يعيشون داخل ذات المجتمع الإنساني نفسه صغر أو كبر ، ضاق أو اتسع ، المهم أن تقع تلك المعاملات المستمرة والعلاقات التي لا تنقطع

---

[1] - المعارضة : هي التي تتم في الحرف والصناعات ، فهذا يعمل في الزراعة وذاك يعمل في الصناعة وثالث في العلم ورابع في غيرها ، وكل المجتمع الإنساني يقع في تلك المعارضة لأنه لا يمكن لواحد من بني البشر أن يقوم بذلك كله وحده ، والمعارضة من أدلة الفلاسفة في احتياج المجتمع الى النبي ، راجع شرح مقاصد الطالبين للعلامة السعد التفتازاني جـ٢ ص٢٧ ، وكتابنا الغزاليات في السمعيات ص ٣٩٨/٤٠٠ـ ط ١ ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

[2] - المعاوضة هي تبادل المنافع التي جاءت في المعارضة ، باعتبار أن كل منفعة لها قيمة وتحتاج الى تحديدها ، ولا يمكن أن يقوم بذلك الإنسان بنفسه ، وإنما لابد من مشرع حكم هو النبي ، راجع المصدر السابق ص٤٠٢/ ٤٠٣ .

[3] - الأستاذ عبد الباقي محمد حسن - النبوة ضرورة اجتماعية ص٤٥ - ط ١ ١٩٤٣ م .

، موقـــع القـــبول ، ويـــتم الـــتعامل معها على أنها ضروره اجتماعية ولو أنها وضعت فى الأصل كضرورة شرعية ما وقع الاختلاف حولها

ودلـــيل ذلـــك : أن الإنســـان الدى عاش فى الكهوف عصورا طويله . لا توجد لديه رغبة فى الرجوع إليها ثانية بعد أن خرج منها . وعرف حياة جديدة فـــى أســـاليبها وإمكانـــية تحقيق رغباته وطموحاته من خلالها ( ) رغم انه فى البداية تخوف من الحياة الجديدة عند دخوله إليها ، وربما ظهرت عليه علامات مخـــتلفة تدل مظاهرها على عدم التوافق بينه وبين البيئة الجديدة التى ادخل اليها بينما هو فى هذه اللحظات عضو مقيم فيها .

كمـــا أن البيـــئة الـــتى هى : الوسط أو المجال المكانى الدى يعيش فيه الإنســـان ، بمـــا تضـــم من ظواهر طبيعية وبشرية ، يتأثر بها ويؤثر فيها ([1]) قاضـــية بضـــرورة الحاجـــة الى ذلك التطور الاجتماعى ، باعتبار أنه سمة من سمات البيئة البشرية ([2]) التى يعتبر الفرد الإنساني بالنسبة لها قاعدتها الأولي ، والمجتمع الإنسانى هو صورتها المتكاملة غير المتجزئة .

ولا شـــك أن دراسة تطور الظواهر الاجتماعية على اختلافها – باختلاف الأزمـــنة والشـــعوب – وكذلك دراسة العلاقات التى تربط بين الظواهر والنظم الاجتماعـــية ، والوقوف على مدى التفاعل الذى يحدث بينها وما ينجم عن ذلك مـــن آثار ([4]) . بغرض البحث عن الأفضل وممارسته ، يعتبر هو ذاته صورة الـــتطور الاجتماعى ، وإن كانت تلك الصورة قائمة فى مصادرها الأولى إلا أن عملية التطور فيها لا تتوقف .

---

[1]- روبروت موريسون ماكيفر – المجتمع ص١٦٣ – ترجمة الدكتور على أحمد عيسى .
[2]- الأستاذ محمد عبد القادر الفقى – البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث ص١٤ – الهيئة المصريه العامة للكتاب ١٩٩٩م .
[3]- تعرف البيئة البشرية بأنها : الإطار الذى يعيش فيه الإنسان ، ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء وماء ، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر ، المصدر السابق ص٢٢ . وراجع البيئة ومشكلاتها للدكتور محمد سعيد صباريني ص٢٦ – عالم المعرفة بالكويت ١٩٧٩ م .
[4]- الدكتور / سيد عبد الحميد مرسي – الفرد والمجتمع فى الإسلام ص٣٣ – مكتبة وهبة .

يقــول أحد الباحثين :إن المجتمع يوجد حيث يرتضى الناس بإرادتهم إقامة علاقــات بيــن بعضــهم البعض أو يرتضون بإرادتهم الاحتفاظ بهذه العلاقات المقصــودة وهــى الحقائق الأولية ([1]) التى لا يوجد المجتمع بدونها وهى ليست علــى الدوام جامدة لا تتحرك ، بل على العكس من ذلك أنها فى حركة دائمة لا تعرف التوقف أو الجمود .

ثــم ان الحقــائق الاجتماعية الأولية تتطور داخل المجتمع نفسه من خلال أفــراده وربما بلغت التطورات المستمرة فى أفراد المجتمع مبلغ القانون الذى لا يجــوز القفــز فوقــه أو مخالفة قاعدة من قواعده ، وطالما كان أفراد المجتمع يتمــيزون باســتعمال العقل والروية فإن تطور المجتمع معهم يكون للأمام على الدوام بحيث يحقق المصالح التى يرجونها كأفراد داخل المجتمع .

ومــن ثم قال سقراط الحكيم اليونانى : (الإنسان روح وعقل يسيطر على الحس ويدبره ، والقوانين العادلة صادرة عن العقل ومطابقة للطبيعة الحقة وهو صــورة مــن قوانين غير مكتوبة رسمتها الآلهة فى قلوب البشر ، فمن يحترم القوانين العادلة يحترم العقل والنظام الألهى) ([2]) .

وســقراط لــم يكن مؤمنا موحدا وإنما كان على دين بنى جنسه من أهل اليونان ، الذين يؤمنون بالآلهة المتعددة المتجسدة ، ولست أوافقهم على عبادتهم الوثنــية واعتقاداتهم الفاسدة لأنها ديانات وضعية تحملها نصوص صنعتها أيديهم وهــم يدينون لها ويتمسكون بها ([3]) . قال الله تعالى : (﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ لَا

---

[1]- روبرت موريسون ماكيفر – الجماعة دراسة فى علم الاجتماع ص ٢٤ – ترجمة محمد أبو درة ، لويس اسكندر – طبعة دار الفكر العربى ١٩٦٨ م .

[2]- الدكتور محمد عبد الرازق شفشق ، منير عطا الله سليمان – تاريخ التربية ص٥٦ – دار النهضة المصرية ١٩٦٨ م

[3]- وتسمى ديانات من باب أن أصحابها يتمسكون بها حتى تبلغ فيهم مبلغ الدين فى القيام بأعبائه والتمسك بما تفرضه قواعده ، والله سبحانه وتعالى سماه دينا ونعت به الكافرين .

اعــبد مـــا تعبدون * ولا انتم عابدون ما اعبد * ولا انا عابد ما عبدتم * ولا انْتُمْ عابِدُون ما أعْبُدْ * لَكُمْ دِينُكُمْ ولِى دِين *) .

ثــم إن الأفــراد الذين يمثلون المجتمع إنما وجدوا فى الحياة الاجتماعية مــنذ نشأتهم الأولى وهم فى كل حال يحاولون تطوير تلك الحياة الاجتماعية الى الأفضل حتى تكون مسايرة للمجتمعات الأخرى ، أما لماذا ؟

فــلأن حياة الجماعة تنشأ تلقائيا من اجتماع الأفراد نظرا لإنطواء الطبائع الإنســانية علــى الألفة وتكوين المجتمع لتحقيق الغاية من الاجتماع الإنسانى ، وهــى حب البقاء وضمان الحصول على معومات الحياة ماديه ومعنويه فالإنسان نشــا فــى حياة جمعية أيا كان نطاقها وأيا كانت الأهداف التى يسعى اليها ( ) . وسوف يبذل قصارى جهده فى تحقيق تلك الأهداف أخذا بالأمثل ، وهو التطور الــذى يجــرى فــى المجــتمعات الإنسانية ككل والتطور الذى يراد به الجانب الاجــتماعى علــى ناحية خاصة ويسمى التطور الخاص أيضا لانه يمثل جانبا واحدا من جوانب التطور المختلفة.

ويدلــل كثــير مــن الدارسين على وجود مظاهر التطور الاجتماعى فى المجــتمع الإنســانى ، بتطور العلاقات القائمة فيها والطقوس والعادات ، سواء أكانــت تلــك العــادات مشروعة من ناحية الله سبحانه وتعالى وهو الدين ، أم مشــروعة من ناحية العقل الإنسانى فى المجتمعات التى لايؤمن أصحابها بالدين الألهى أم كانت مشروعة من جهة أخرى كالزواج ، باعتبار أن الإنسان يقع بين أحداث ثلاثة هى : الميلاد ، والزواج ، والموت .

---

[1] - الدكتور / مصطفى الخشاب - علم الاجتماع ومدارسه - الكتاب الثانى المدخل الى علم الاجتماع ص١١٤ - مكتبة الأنجلو المصرية .

ولمـــا لم يكن له دخل فى الميلاد أو الموت ، فإن الزواج هو العملية التى حدثـــت فى الماضى وتحدث فى الحاضر وستحدث فى المستقبل أيضا ، ويمثل فى حد ذاته سلوكيا( ) اجتماعيا على نا حية فيها شئ من الخصوصية والتفرد .

ورغـــم أن المجـــتمع الإنسانى قد شرع الله لأفراده معايير الزواج إلا أن افراد المجتمع هم الأخرون قد وضعوا بعض المعايير للزواج ([٢])، ومع هذا فإن بعـــض أفراده أخذوا فى القيام بأدوار تؤدى الى وجود تطورات مستمرة ، سواء أكانت متعلقة بالمنزل أو الجهاز أم بنوع اشتغال المرأة فى وقتنا الحاضر.

حـــتى قالوا : إن الأغلبية الساحقة من الأبناء الحضريين يفضلون الزواج بموظفة وذلك بنسبة ٩٠% من جملتهم ، ولا يفضل إلا نسبة شديدة الضآلة منهم الـــزواج من ربة بيت فقط ، وهىتبلغ ٨ % من مجموعهم وهو ما يمثل تطورا ملحوظا فى اختيار شريكة العمر([٣]) أو شريك العمر على النحو الذى سلف .

وربمـــا يتســـآل المـــرء عـــن أسباب ذلك فيراها راجعة الى تعقد الحيَاة الحضـــرية ([٤]) وكـــثرة أعباء الحياة فيها وفى نفس الوقت فإنه يعود المرأة على مواجهـــة الصعاب ، وقد يمثل مظهرا من مظاهر التعاون بين الزوجين كما يملأ الفراغ الذى تشعر([٥]) به وهى مشكلات متوقعة فى الوقت الحاضر ولم يكن لها ذات الوجود فى الماضى .

---

[١]- الأستاذ/ نصر الدين محمد عبد اللطيف – الزواج ضرورة اجتماعية ص٧٥ ط ١ دار التوفيق .

[٢]- معايير المجتمع ليست واحدة فى كل المجتمعات الإنسانية بخصوص مسألة الزواج ، إذ البعض يدفع الزوج الى اختيار زوجته وأن يبدأ هو بذلك الاختيار كما هو الشائع المعروف ، بينما تذهب بعض المجتمعات الى أن الزوجة هى التى يجب أن تبدأ بالاختيار وأن تتقدم الى الشاب طالبة الزواج منه متخذة الوسائل التى تمكنها من ذلك ، واختيارها لهذا الزوج بعينه باعتبار أنها تراه الأقدر على الوقوف بجانبها ومقاومة العوادى من حولها ، كأنها تضمن بذلك لنفسها الحياة المستقرة ، وبهذا لا تكون المرأة هى الطرف السالب فى عملية الزواج وإنما تكون طرفا موجبا ومبادئا أيضا .راجع نظرية الشريك المثالى لأرنست هوريان ص١٤٥ – ترجمة منال خاطر .

[٣]- الدكتورة سامية حسن الساعاتى – الاختيار للزواج والتغير الاجتماعى ص ٣٦٠ – مكتبة سعيد رأفت بالقاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

[٤]. لأن أوضاع المجتمع البدوى ما تزال تطوراتها بطيئة ، أما المجتمع الحضرى المستقر فإن تلك التطورات تتم فيه بشكل أوسع وأسرع ، وفوق ذلك فإن المجتمع الحضرى يتقبل التغيرات المستمرة ويساهم فيها بعكس المجتمع البدوى .

[٥]. الدكتورة / سامية حسن الساعاتى – الاختيار للزواج و التغير الاجتماعى ص ٣٦٠ .

وذلـــك ممـــا يمثل ظاهرة اجتماعية يقع فيها التطور الاجتماعى ، سواء أكان مقبولا على الناحية الشرعية عندنا نحن المسلمين ، أم جاء عليه الكثير من الاعتراضات أو القليل من التحفظات التى نبه اليها أهل الاختصاص ولكنه يوجد فى صورة من الصور داخل المجتمعات الأخرى .

وفـــى تقديـــرى : أن تطور العلاقات الاجتماعية لم ينقطع مند خلق الله تعالى أبانـــا آدم عليه السلام وأسكنه الأرض . حتى يومنا هذا ، وكذلك تطور العادات والســلوك ، فالأرتـــباط بيـــنها قائم ومظاهره لا يمكن انكارها ، والقرآن الكريم والحديـــث الشريف قد وضعا أسس ذلك التطور على ناحية صحيحة كما أشارا الى ذات الأصول والقواعد التى يقوم عليها ذات النوع من التطور (١).

وإن كانـــت التفاصـــيل الدقـــيقة فـــى المســـألة بحاجة الى الرجوع لأهل التخصـــص ،لكـــن ذلـــك لا يمـــنع من القول بوجود تطور مستمر فى الناحية الاجتماعـــية ســـواء أكان ذلك مما عرضت طرفا عنه أم أشرت اليه أم جاء فى كتابات متخصصة يقوم بها أصحاب كل فن بذاته .

الثالث : تطـــور الآلـــة والوسيلة :

المعروف أن الإنسان أرقى المخلوقات الأرضية ، وقد سخر الله تعالى لـــه كل أسباب الحياة ليعمر الأرض ويصلحها ويقوم على ذلك الاصلاح ، بكل مـــا أمكن له من وسائل قال تعالى: (* اللهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *) (٢) .

١- راجع فى هذا الشأن : منهج القرآن فى تطوير المجتمع للدكتور / محمد البهى -مكتبة وهبه ١٩٧٩م. ومفهوم إسلامى جديد لعلم الاجتماع للأستاذ محمد علوان ، والاسلام عقيدة وشريعة لشيخ الإسلام الشيخ محمود شلتوت - دار الشروق ١٩٧٥م.

٢- سورة الجاثية الأيتان ١٣/١٢ .الإمام الفخر الرازى - مفاتيح الغيب جـ٢٧ ص٢٦٢

قـــال العلامـــة الرازى : خلق الله وجه الماء على الملامسة التى تجرى عليها السفن ، وخلق الخشبة على وجه تبقى معه طافية على وجه الماء دون أن تغـوص فيه وذلك لا يقدر عليه احد الا الله فالله سبحانه وتعالى هو الذى سخر بقدرتـــه وحكمـــته الـــبحر مع ضخامته وعظمه فجعله مذللا يحمل السفن على ســطحه دون أن تغوص فى أعماقه وكل ذلك بارادته جل وعلا ، كما جعل ما فـــى الـــبحر مقـــدورا علـــيه من اسماك ولؤلؤ وغير ذلك مما هو قائم فيه من فضـــله(١) ويحصل عليه الإنسان بفضل الله الذى علمه كيفية الغوص وهداه الى ذات الأشياء .

ولمـــا كان الأمر كذلك فإن الإنسان يستخدم آلات متعددة ، بعضها متعلق بالأرض التى يفلحها ، وبعضها الآخر متعلق بوسائل إنتقاله من مكان لآخر كما يتعلق بعض ثالث بوسائل علاجه ، وقس على ذلك سائر الأمور التى تحقق ذات الإصـــلاح – وقد جعلها الله للإنسان حتى يعيش عليها ناعما فيها شقيا أو سعيدا فـــى أخـــراه بالعمل الذى يقدمه بين يدي الله جل علاه ، وكما قيل الدنيا بالحيلة والآخرة بالعمل .

فالإنســـان البدائى كانت حاجاته المعيشية تدفعه الى انتقاء وسائل تحصيل تلك الضروريات وسد ذات الاحتياجات وبالتالى فهو يعمل على استخدام الوسائل المـــتاحة له فـــى تـــنقلاته ، يستوى فى ذلك الحيوان الأليف الذى رباه ودربه ، والمفترس الذى كان يتربص به ، فإذا أمكنه الانقضاض عليه لم ينتظر الفرصة الـــتى تجيئه بحيث تفلت منه (٢) وربما لا تعود ثانية اليه ولكن الإنسان استطاع ترويضه والسيطرة عليه بناء على تسخير الله تعالى له .

---

١ ـالشيخ محمد خيرى نجم – وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ص١٣٥ ط الدار الجديدة ١٩٦٤م.
٢ ـالأستاذ/ نور الدين محمد جودت – الإنسان البدائى والحضارة ص٢٥ – ط١ ١٩٥٥ م .

ولذا فالبدائي استخدم العصا مرة والحجر اخرى ، بغية السيطرة على ذات الحـيوان ثم تطورت تلك الآلة معه حتى صارت في الوقت الحاضر الهليوكوبتر والوسائل التي تهاجم الحيوان المفترس والأليف ، وتعمل على التمكن منه سواء أكـان بالاصـطياد المباشـر أم بالـتخدير والسيطرة على مراكز الاحساس في المخ[1] ، الى غير ذلك مما هو من ابتكارات العلم في العصر الحديث .

ونعرف كلها باسم تطور الآلة وجميع اسبابه قائمة في معنى قوله تعالى:(**وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**)[2] يقول الإمام القرطبي : ذكر تعالى كمال قدرته ، وتمام نعمته على عـباده وبيـن أنه خلق ماخلق لمنافعهم ، وكل ذلك من فعله وخلقه واحسان منه وإنعـام [3] ، فكل ما في الكون من أرض وسماء ونبات وحيوانات إنما هي من فضـل الله تعالى واحسانه وكلها مسخرة من عنده جل وعلا لمن يتفكر ويعتبر ، أو يـتأمل فـي بدائع صنع الله ومن ثم يستدل على وحدانية الله تعالى ، ويعمل على الإيمان به والتزام طاعته .

بـيد أننا إذا رجعنا للإنسان البدائي نتأمله حينما راح يطهو طعامه ،لم يجد أمامه سوى النار التي كان يستخرجها عن طريق ضرب حجرين من نوع معين علـى طـريقة معينة ، فإذا أمكنه استخراج النار من تلك الطريقة استخدمها[4] علـى نطاق واسع أو ضيق ، سواء استطاع نقل تلك النار معه في حله وترحاله أم عجز عن ذلك ، لكنه استخدمها ليحل بها مشكلته التي راحت تقلق مضجعه ، في كيفية تجهيز طعامه وتهيئته حتى يكون على ما يطيب له .

1- الدكتور/عبد العاطي لطفي السيد – الحضارة و مظاهرها المتقدمة ص ٤١
2- سورة الجاثية الاية ١٣
3- الإمام القرطبي – الجامع لأحكام القرآن جـ١٦ ص ١٦٠ .
4- الأستاذ ناصر محمود عيد – البدائية في مظاهرها الأولى ص٤٣ ط٢ ١٩٥٧م – دار نصار .

وهم فى الأزمنة القديمة قد عرفوا حجر الصوان لقدح الشرر وتوليد النار منه ، إلا أنه بعد ذلك لم تعد الحجارة صالحة كأدوات لاستخدام النار وحدها ، وإنما تنوعت مصادر الاستخدام لها ايضا ([1]) . وظل حاله فترة طويلة على ذلك.

ثم تعرف على نباتى المرخ ([2]) والعفار ([3]) ورغم انهما نباتان خضراوان إلا أن الله تعالى جعل احتكاك أحدهما بالأخر يتولد عنه النار ودل ذلك على وجود الله تعالى وتوحيده وكمال علمه وإرادته بل وقدرته على بعث الخلائق ثم حسابهم يومَ القيامة ، لأن من قدر على إخراج الأضداد من بعضها قادر على اعادة الأفراد الى ما كانوا عليه قبل ذلك .

قال تعالى(* الَّذى جعل لكُم مِّنَ الشَّجرِ الأَخْضرِ نَارًا فإذا أنْتُم مِّنْهُ تُوقِدُون *) ([4]) بحيث يقطع طالب النار منهما – المرخ والعفار – غصنين مثل السواكين وهما خضراوان يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ وهو ذكر ، على العفار وهو أنثى ، فتنقدح النار بإذن الله تعالى ، فتقع الفائدة المرجوة ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ليس من شجرة إلا وفيها النار إلا العناب ([5]) .

إذن : الدابة التى كانت الوسيلة الانتقالية الأساسية فى الماضى بالنسبة للإنسان البدائى مثلا ، تطور التفكير فى أمرها حتى تم إيجاد بدائل لها سريعة وكبيرة برا وبحرا وجوا مثل الأساطيل البحرية ، والسيارات السريعة وكذلك

---

[1] - ج . ج . كراوثر – قصة العلم ص١٥ ترجمة د. يمنى طريف الخولى ، د. بدوى عبد الفتاح الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

[2] - المرخ : نبات شجرى من العضاة من الفصيلة العشارية ، ينفرش فى الأرض ويطول ليس له ورق ولا شوك وهو مذكر فإذا حدث احتكاك بينها وبين نبات العفار تشتعل النار – راجع قطر المحيط باب الميم .

[3] - العفار : هو شجر من العضاة من الفصيلة العشارية ويطول فى السماء ليس له ورق ولا شوك ، وهو انثى سريع الاشتعال ، يقتدح به وفى أمثالهم فى كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ، راجع المعجم الوجيز باب العين ص ٥٧٧ ط وزارة التربية والتعليم ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[4] - سورة يس الآية ٨٠ .

[5] - العلامة الإمام محمود بن عمر الزمخشرى – الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل – المجلد الرابع ص٣١ ط دار الريان وبهامشه الانتصاف ، وثلاثة كتب أخرى –ط٣ ١٤٠٧هـ /١٩٨٧م.

ظهـور وسـائل نقل عالية التقنية ، وها هى تستطيع ـ بإذن الله تعالى ـ قطع المسافات الطويلة فى فترة زمنية قصيرة ([١]) .

وذلك أمر واقع لا يستطيع أن ينكره أحد ، وهو فى ذات الوقت دال على التطور المنوط بالآلة والوسيلة وقد ابرزت طرفا منه وأفاضت فى الحديث عنه المؤلفات التى عقدها أصحابها له .

ونظـرا لوجـود الإنسان مع نوازعه المختلفة التى تدفع بعض أفراده الى القفـز فـوق حقوق الآخرين ، أو محاولة فرض سيطرتهم على حريات الغير ، ومنازعتهم فيما هو من خصوصياتهم ، فإن ذلك يدفع أيضا الى المقاتلة والتنازع المفضـيين الى الحروب المستمرة أو المنقطعة سواء أكانت هذه الحروب داخل نطـاق الأسـرة وتعـرف بالعنف الأسرى أم داخل مجتمع بعينه وتعرف باسم الحروب الأهلية.

أم تجـئ مع دول وجماعات مختلفة وتعرف باسم الحروب الدولية ، وكل فـريق مـنهما يحـاول هزيمة الآخر ، أو على الأقل رد سطوته وكسر قوته ، بحيث يطمئن على حياته واستقرار نفسه ، وذلك شأن المجتمعات الإنسانية التى تحتكم الى الرغبات والغرائز وتبتعد عن شريعة الله رب العالمين أو التى اهتدت بأهوائها ولم تستفد من هدى ربنا جل وعلا .

وحينئذ يحاول كل فريق البحث عن الآلة القوية التى تحقق مآربه والوسيلة السـريعة التى تمكنه من فرض رأيه وإذا كان الأفراد فى الماضى يستخدمون العصا والحجر كوسيلة لذلك فإنهم قد طوروا فى المسألة ، حتى إستأنسوا بعض الحـيوانات كالفيلة بحيث تكون وسائل نقل أو جر للآلات الحربية ، واستخدموا غـيرها مـن الحيوانات المستأنسة للقيام بتلك المهمات([٢]) ،حتى صارت وسائل

---

[١]- باتور ب - براريس - تكنولوجيا الانتقال فى المكان ص١٥٣ - ترجمة امل مرسى ١٩٨٤م
[٢]- أ . ب بنتيامين - تطورات فى تقنية معاصرة ص١٤١ - ترجمة عادل محمد ١٩٥١ م .

نقل ومظاهر استعراض القوة ، وتمكين فريق من السيطرة على الأخر بالحق أو الباطل ([1]) دون إعتبار لشئ اخر .

ثـــم تطـــور التفكير فى الآلة والوسيلة التى يظن الناس الغلبة معها ، حتى صـــارت فـــى الوقـــت الحاضـــر القنابل الجرثومية والبيولوجية والانشطارية ، وغـــيرها مما تعتبره المؤسسات العسكرية أسرارا خاصة بها ، وربما لم يعلنوا عنه فى الوقت الحاضر .

كمـــا تطـــورت الوسيلة فصارت أقمار التجسس تجوب الكرة الأرضية ، وكذلـــك الطائـــرات الحربـــية الـــتى تطـــير بأسرع من الصوت ، والطائرات الإلكترونـــية الـــتى يـــتم توجيهها من خلال قواعد إلكترونية ، سواء أكانت تلك القواعد محمولة فى الجو أم فى البحر ، ام ثابتة فى مواقعها البرية ([2]) .

فـــى نفـــس الوقـــت ظهرت الدبابة البرمائية التى تعمل فى البر ويمكنها التعامل مع الخصم فى البحر وهى حاملة الجنود وأدوات التدمير بجانب ما يلزم لأفـــرادها مـــن وسائل المعيشة بجانب الوقاية ، وكذلك ظهرت الغواصات التى تعمـــل فى البحر تحت الماء والفرقاطات التى تنقل الدمار ، وغيرها من وسائل نقل الآلات الحربية المدمرة ([3]).

إلـــى غير ذلك مما فاهت به وسائل الإعلام فى العصر الحديث ، فضلا عن المدافـــع المخـــتلفة الأحجـــام والأغراض ووسائل القتال الشخصي ، وكلها مما

---

[1] - وقصة ابرهة مع فيله التى جاء الحديث عنها فى القرآن الكريم ، من ابرز الأمثلة على ذلك ، قال تعالى (الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، الم يجعل كيدهم فى تضليل ، وارسل عليهم طيرا ابابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ماكول) سورة الفيل بتمامها .

[2] - مهندس : محمد رفعت – معالم الحرب القادمة ص٥٣ ط دار فايز ١٩٨٣م .

[3] - أ . ب بنتيامن – تطورات فى تقنية معاصرة ص١٧٣ ، وهو كتاب جيد فى بابه ، لأنه تعرض للمظاهر من البداية الى الثورة العلمية ، ثم التطورات التى صاحبت الهندسة الوراثية ، وما تزال تعلن عن نفسها يوما بعد يوم

عرف بعضها الرأى العام ويحتفظ بباقى أسرارها أصحاب التخصص العسكرى ([1])

كمـــا أن هذا التطور الوسيلى الآلى قد نبه اليه الشرع الشريف وأمر به ، طالما كـــان ذلـــك التطور للآلة أو الوسيلة فى حدود الالتزام الشرعى لصالح البشرية التى جعل الله تعالى مهمة إعمار الأرض أمرا منوطا بها ، بل ونبه الى أن ذلك واجب الإنسانية كلها فرادى وجماعات .

وقـــد صاحب ذلك النوع من التطور فى الآلة والوسيلة ، ظهور العديد من المظاهـــر التى يجئ بعضها فى تطور وسائل الإبلاغ والإتصال والإعلان ، وما كان من هذا القبيل ، الذى يطلق عليه اسم الأنظمة المعلوماتية ، حيث كانت فى الماضى يقوم بها الإنسان مستخدما قدميه حينا ، أو الوسائل البدائية ، أو الحمام الـــزاجل بعـــد تدريبه ، او وسائل البريد التى كانت معروفة ، ويتم فيها التطور المســـتمر ، وكانت فى بدايتها بطيئة قليلة الجدوى غير آمنة ، بجانب أنها كانت تســـتنفذ العمر ويتكلف أصحابها الجهد الذى يستغرق زمنا ليس قصيرا ، وجهدا غير قليل . ([2])

ثـــم تطورت تلك الوسائل فى الوقت الحاضر بصورة مذهلة حتى صارت توجـــد الآن شبكات الاتصال التى تستخدم سرعة الصوت والضوء بأعلى تقنية تكنولوجـــية ، فـــتقطع المســـافات الطويلـــة فى وقت قصير ، ناقلة المعلومات بالصـــوت والصـــورة والكتابة وغيرها كالأنترنت والبريد الألكترونى ([3]) ، مما هـــو معـــروف الآن ، وقـــد يكشف الغد عن أمور أكثر منها حداثة وأسرع نقلا وأقوى إمكانية .

---

[1]- راجع فى هذا الشأن : مجتمع المصنع للدكتور محمد على محمد - الهيئة العامة للكتاب بالأسكندرية ١٩٧٢م . ، وراجع ايضا ، التحليل السوسيولوجى لنسق السلطة العسكرية للدكتور أحمد خضر - دار المعارف - ١٩٨٠ م .

[2]- مهندس عبد اللطيف محمود صالح - الإنترنت إعجاز علمى ص٩١ جـ ١ ١٩٩٦ م .

[3]- مهندس أحمد عبد العظيم - المعلوماتية الحديثة ص٨٣ - مطبعة دار حسان ١٩٩٣ م.

ولا شك أن ذلك الاتصال صار اليوم أمراً معتاداً يمارسه إنسان اليوم ، وكان في الماضي أمراً مستحيلاً بالنسبة لإنسان العصر الماضي الذي لم يكن يتصور وقوع ذلك أبداً ، وهذا التطور الوسائلي لم يتوقف عند الحد الذي عرفناه لأن بحور العلم لم تجف ، كما أن رحمه لم يصبها العقم ، وهم يقولون : العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة .

بل ظهرت وسائل الإنترنت والفاكس وأنظمة المعلومات المختلفة (١) ، وكلها تقدم وسائل إتصال عالية التقنية في مجالات الاتصال بسرعة فائقة وجودة عالية ، مع التمكن من استخدام الفيزياء والميكروفيزياء والهندسة الميكانيكية (٢) ، التي راحت تقطع مسافات طويلة في طريق ذلك اللون من التطور الآلي الوسائلي بشكل آمن وسريع ايضا .

ومن المؤكد أن ما كان من ذلك القبيل ويخدم الإنسانية ، فإن الإسلام يدفع إليه ويحث العلماء على القيام به طالما كان ذلك في خدمة بني الإنسان ويحقق مصالح العالم الذي نعيش فيه ، سواء أحمل اسم تطور الآلة أم حمل اسم تطور الوسيلة ، أم حمل غير ذلك من الأسماء التي ترد مع ذات الغرض .

في نفس الوقت فإنه يكون تطوراً مباحاً طالما كان في حدود ما شرع الله تعالى ، ويحرم إذا تعلق بما هو منهي عنه شرعاً ، فإذا أمكن تطوير تلك الآلة حتى صارت تنتزع أسرار البيوت من أصحابها ثم تعلنها على الملأ ، أو تعرضها للعلنية دون إذن أو معرفة أصحابها فإن ذلك التطور يكون حراماً (٣)

١- مهندس فاضل شوقي - التكنولوجيا ونظم المعلومات ص١٤٥ ط١ ١٩٩٥ م .

٢- روبرت توفسكي - قياسات الزمن المتطورة ص ٧٤ - ترجمة شوقي خليل .

٣- طيرت بعض وسائل الإعلام أن الهندسة الميكانيكية بصدد إنتاج جهاز تليفون يعرض على شاشة المتلقي ما يكون قائماً في منزل المرسل والعكس ، لأنه سيكون مزوداً بجهاز كمبيوتر مبرمجاً يتحرك في المكان كجهاز الفيديو ، وسوف ينقل الصورة القريبة منه ، سواء أكانت للأشخاص أم للكائنات الأخرى ، راجع التكنولوجيا ونظم المعلومات ص١٦٧ وما بعدها .

، لمـــا يـــتعلق بـــه من كشف الأستار أو التعرض للأسرار ( ) ، كما سيساعد أصـــحاب الضـــمائر الخـــربة والنفوس المريضة على القفز فوق أسرار البيوت الآمنة ، وهو غير مباح شرعا .

الرابع : تطور العادة والسلوك

يعتـــبر تطـــور الحركة والسلوك أحد مظاهر الحركة فى الإلف والعادة ، وبالـــتالى فهـــو نـــوع انتقال من مجرد الفكرة الى مجال التطبيق العملى بغرض إحداث شئ جديد ، مع ملاحظة أن ذلك التطور قائم فى ظروف الفرد ، باعتباره عضوا فى الجماعة التى هو أحد أفرادها ، وهى تمثله باعتبارها أكبر منه ، كما أن الـــتوافق الـــتام فى إمكانياته ــ كفرد ــ وظروف المجتمع الذى يعيش فيه ، والرغبات التى يحاول تحقيقها لابد أن يكون قائما ([2]) .

فمـــتى حصـــل له تكـــيف ذاتى وإندماج فى المجتمع الذى يحيط به ، أو يـــتعامل معـــه ، فإنه يطور فى عاداته وسلوكه نحو الأفضل ([3]) ، بل إنه ربما يكون أسرع فى استحداث طرائق جديدة تعينه على تحقيق ما يهدف اليه وذلك ما يتميز به الكائن الحى العاقل عن غيره .

فمثلا الإنسان الذى اعتاد السير نحو هدفه ، سواء أكان ذلك على قدميه أم باســـتخدام وســـيلة، كلمـــا انتحى بنفسه جانبا فإنه يفكر جديا فى كيفية اختصار الوقـــت أو اختصـــار الطـــريق ، وتوفير الطاقة المبذولة ، وحينئذ سيعمل على استحداث طرائق جديدة فى تمطياته التى هى عادة راسخة عنده ، فتراه يلجأ الى

---

[1]- الأحكام الشرعية فى الإسلام هى : ١- الحلال ٢- المباح ٣- المندوب ٤ - المكروه ٥ - الحرام ، وقد فاضت كتب أصول الفقه فى بيانها وتعريفاتها ، راجع الإحكام فى أصول الأحكام للعلامة ابن حزم ، والكافية فى الجدل لإمام الحرمين الجوينى ، وبداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد وغيرها ، والإحكام فى الأحكام للإمام الايجى .

[2]- ب . بونسكى ، الكائن الحى والتطور السلوكى - ص ٢٧٥ - ترجمة وفاء صبحى .

[3]- الدكتورة أميرة المصرى - الفرد والجماعة - ص ٢١٣ . ١٩٦١ .

رصـــيده الذهنى حتى يوفر على نفسه الكثير من العناء ، ويحقق ذات الهدف فى شئ من الهدوء والسكينة .

كذلــك الذى اعتاد تناول طعامه مثلا على مرأى ومسمع من الناس ، مثل ما يفعل عند الباعة المتجولين ( ) ، او المحلات العامة التى لا يوجد بها ستائر تفصــل بين المتناولين لتلك الأطعمة ـ وتصير تلك الفعلة له عادة ، ومتى وجد فـــى تلك العادة ما يشين ، أو ادرك وجه الخطر فيها ، فإنه يلجأ الى إحداث شئ من التطور فيها ، حيث يقوم بها فى منزله،أو فى مكان يحصل له فيه الاستتار ، او يعرض فكرته على اصحاب المحلات العامة حتى يقوموا هم بذلك الدور([2]) .

وقد يساعد هؤلاء فى تطويرها، على النحو الذى يحفظ للمترددين عليها ما ينشـــدونه من أمان أدبى أو أخلاقى وصحى ودينى معا([3])وذلك كله مما يقع فيه الـــتطور باعتـــبار العادة والسلوك ولا يرفضه إلا من فقدوا القدرة على التفكير الصحيح ..

وقد أشار القرآن الكريم ، وألمحت السنة النبوية المطهرة الصحيحة ، الى تطويـــر العادة إن كانت سلبية ، بحيث تتحول الى إيجابية أو على الأقل لا تزدد بصـــاحبها انغماســـا فى السلبية ، ففى الحديث الشريف (الأكل والنوم عورتان فاســـتروهما)([4]) ، فالحديث الشريف قرن الأكل بالنوم فى الوصف العام ، وأكد علـــى ضــــرورة ســـترهما معا ، وذلك لا يحدث الا بالاستتار الذى هو ضرورة شرعية بل وصحية واجتماعية .

---

[1] ـ مع أن وزارة الصحة والمسئولين عن شئون البيئة ايضا بجانب وسائل الإعلام ، قد حذروا من ممارسة تلك العادة ، باعتبار أن أصحاب تلك المواقع التى تعد الطعام أو تقدمه لراغبيه غير مرخص لهم بمزاولة تلك المهنة ، كما أن بعضهم قد يكون غير صالح للقيام بها صحيا باعتباره من حاملى نوع من الأمراض الذى يمكن أن ينتقل الى المتعاملين معه . كما أنه لا يحمل رخصة مزاولة ، ولا توجد معه شهادة صحية . الى غير ذلك من المحظورات الطبية

[2] . الدكتورة / علياء شكرى ـ عادات الطعام فى الوطن العربى ـ ص١٩ ط ١ ١٩٨٢

[3] الدكتورة سمية مصطفى العادات المتغيرة وأثرها فى المجتمع ص ١٣٥

الشيخ محمد عبد النبى هدية من أنوار السنة ص٧٣ ط الدار المليجية ١٣٢٧هـ.

والقـــران الكريم بين أن موضع النوم عورة ، حتى وإن لم يكن القائم فيها نائما على سبيل الاستغراق ، وأمر بالاستئذان فيها جميعا ، حيث قال تعالى: (﴿ يـــا أيُّها الَّذين آمنُوا ليستَأْذنكمْ الَّذينَ ملكتْ أيْمانُكمْ والَّذين لمْ يبلُغوا الحُلمَ منْكمْ ثَـــلاثَ مـــرَّاتٍ مّن قبْلِ صلاةِ الْفجْرِ وحين تضعُون ثيابكم من الظَّهيرة ومن بعْد صـــلاةِ العشاءِ ، ثلاثُ عوراتٍ لكمْ ليْس عليْكمْ ولا عليْهمْ جُناحٌ بعْدهُن طوَّافُون عليْكمْ بعْضُكمْ على بعْضٍ كذلك يُبيِّنُ اللَّه لكمْ الآيات والله عليمٌ حكيمٌ ﴾) (١) .

وروى عـــن عكرمة أن رجلين من أهل العراق سألا ابن عباس رضى الله عـــنهما عن هذه الآية ، فقال (إن الله ستير يحب الستر ،وكان الناس لم يكن لهم ســـتور على أبوابهم ، فربما فاجأ الرجل ولده أو خادمه ، فيرى منه ما لا يحبه ، فأمـــرهم الله أن يســـتأذنوا الـــثلاث ساعات التى سماها . ثم جاء بالخير وبسط الرزق عليهم ، فاتخذوا الستور والحجال . (٢)

فرأى الناس أن ذلك قد كفاهم عن الاستئذان الذى أمروا به (٣) ، وهو فى ذات الوقـــت حجـــاب لـــيس من حق أحد الدخول إليه إلا بالاستئذان المأمور به شرعا .

ولمـــا كان أمر النوم بهذه الخصوصية ، وأن النائم كالميت لا تكليف عليه أثناء نومه فقد كانت رعاية الإسلام له ،حتى لا تنفضح اسراره ، لقوله ــ صلى

١- سورة النور الآية ٥٨ .

٢- الحجال جمع حجل [ح ج ل : وهو بفتح الحاء وكسرها القيد والخلخال ايضا والتحجيل بياض فى قوائم الفرس أو فى ثلاثة منها أو فى رجليه قل أو كثر بعد أن يجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين والعرقوبين لأنها مواضع الأحجال وهى الخلاخيل والقيود ، يقال فرس محجل وقد حُجلت قوائمه والحجلان بفتح الجيم المقيد يقال حجل الطائر يحجل بالضم والكسر حجلانا وكذا اذا نزا فى مشيته كما يحجل البعير على ثلاث والغلام على رجل واحدة أو على رجلين والحجلة بفتحتين واحدة حجال العروس وهى بيت يزين بالثياب والأسرة والستور وفى الحديث الشريف " إنكم تدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، فمن أراد أن يطيل غرته فليفعل من هدى السنة ص ١٩٥ .راجع مختار الصحاح باب الحاء ص١١٩ / ١٦٧ وقطر المحيط .

٣- الشيخ / اسماعيل حقى البروسوى . تنوير الأذهان من تفسير روح البيان . مجلد ٣ ص ٦٩ . اختصار وتحقيق الشيخ / محمد على الصابونى . دار الصابونى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨ م .

الله علـــيه وسلم ـــ فيما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه - ( ) انه قـــال : قال رسول الله ـــ صلى الله عليه وســــلم ـــ : (رفع القلم عن ثلاث : عن الصبى حتى يبلغ وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن المجنون حتى يفيق) ([1])

وفى رواية أخرى عن عائشة ([2]) رضى الله عنها أن رسول الله ـــ صلى الله علـــيه وســـلم ـــ قال :(رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن

على بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو الحسن أول الناس من الشباب إسلاما فى قول كثير من أهل العلم ، ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربى فى حجر النبى صلى الله عليه وسلم - ولم يفارقه وشهد معه المشاهد عدا غزوة تبوك فقال له بسبب تأخيره له في المدينة ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى وزوجه النبى - صلى الله عليه وسلم - بينته فاطمة وكان اللواء بيده فى أكثر المشاهد ، ولما آخى النبى صلى الله عليه وسلم بين أصحابه قال له أنت أخى ، ومناقبه كثيرة حتى قال الإمام أحمد لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلى وقال غيره وربما كان سبب ذلك بغض بنى أمية له فكان كل من عنده علم من شئ من مناقبه من الصحابة يثبته ، وكلما أرادوا إخماده وهددوا من يحدث بمناقبه ازداد انتشارا وقد وضع له الرافضة مناقب موضوعة هو غنى عنها وتتبع النسائى ما خص به من دون الصحابة فجمع من ذلك شيئا كثيرا بأسانيد أكثرها جياد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم - وروى عنه من الصحابة ولداه الحسن والحسين وابن مسعود وأبو موسى وابن عباس وأبو رافع وابن عمر وأبو سعيد وصهيب وزيد بن الأرقم وجرير وأبو أمامة ، وقد اشتهر بالفروسية والشجاعة والإقدام ، راجع الإصابة لابن حجر - العين عدها اللام ٥٦٩٢ - ص ٥٦٦/٥٦٥

[1] - أخرجه أبو داود فى كتاب الحدود باب المجنون يسرق أو يصيب حدا - ١٤٠/٤ حديث رقم ٤٤٠١ - المكتبة العصرية - بيروت لبنان - بدون تاريخ ، وأخرجه الإمام البغوى فى شرح السنة ٢٢٠/٩ ، ٢٢١ - المكتب الإسلامى بالإحالة الى الحاكم فى المستدرك ٢٥٨/١ ، وسنن الدارمى ١٧١/٢ ، ومسند الإمام أحمد ١٠٠/٦/ ١٤٤/١٠١ وسنن النسائى ١٥٦/٦ فى كتاب الطلاق - باب من لا يقع طلاقه ، وجاء ذكر الحديث فى نصب الراية للزيلعى الذى رواه عن أبى داود جـ٢ ص ٢٤٨ ، ورواه عن النسائى فى الطلاق - متى يقع طلاق الصبى جـ ٢ ص١٠٣ ، وفى المستدرك فى الصلاة جـ ١ ص٢٥٨ ، وفى البيوع جـ٢ ص ٥٩ ، وفى الحدود جـ ٤ ص ٣٨٩ .

[2]) عائشة بنت أبى بكر الصديق : أم المؤمنين (زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم) : أبوها عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي التيمي (أبو بكر الصديق بن أبى قحافة) رضى الله عنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، ولدت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس ، فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم عقد عليها وهى بنت ست سنين ، قيل سبع ، ويجمع بأنها كانت أكملت السادسة ودخلت فى السابعة ، ودخل بها وهى بنت تسع ، وكان دخوله بها في شوال فى السنة الأولى من الهجرة ، ففى صحيح البخارى عن عبد الملك بن عمير أن عائشة قالت : أعطيت خلالا ما أعطيتها امرأة ملكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بنت سبع وأتاه الملك بصورتى فى كفه لينظر اليها وبنى بى لتسع ورأيت جبريل وكنت أحب نسائه إليه ومرضته فقبض ولم يشهده غيرى والملائكة ، وأورد من وجه آخر فيه عيسى بن ميمون وهو واه ، وفى الصحيح أيضا من رواية الأعمش عن ابراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا بنت ست سنين وبنى بى وأنا بنت تسع وقبض وأنا بنت ثمان عشر ، وفى الصحيح أيضا لم ينكح بكرا غيرها ، وهو متفق عليه بين أهل النقل ، وكانت تكنى أم عبد الله ، فقيل انها ولدت من النبى ولدا فمات طفلا ولم يثبت هذا ، وقيل كناها بابن أختها عبد الله بن الزبير ، وهذا الثابت ورد عنها ، وكانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العمة وقال هشام بن عروة عن أبيه ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة ، وقال أبو بردة بن أبى موسى عن أبيهما أشكل علينا أمرا فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه علما.

وفى الصحيح عن أبى موسى الأشعرى مرفوعا فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ، وقال الأزهري لو جمع علم عائشة الى علم جميع أمهات المؤمنين وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل . وهى من زوجاته صلى الله عليه وسلم فى الجنة لما ورد بالسنة النبوية ، فعن مرسل مسلم البطين قال : قال ء

المبتلى حتى يبرأ ، وعن الصبى حتى يكبر ( ) ، ومن ثم كان النوم فى الأماكن التى يتردد عليها الناس ويغشونها من غير استئذان ، أو التى لا تمثل سترا لعورة صاحبها ، عادة سلبية غير مقبولة، على الناحية الشرعية ، نظرا للظروف التى تحيط بالآكل والنائم ([٢]) ، وتفرض نفسها على سلوكيات المارين بأى منهما .

ومن المؤكد أن هذا التطور للعادة والسلوك يعتبر مقبولا على الناحية الشرعية ، ما دام محكوما بالشرع وفى حدود الالتزام به وفى دائرة الأحكام الشرعية القائمة يتم ، لأنه يكون سلوكا إسلاميا ، أما إذا خرج عن دائرة المأمورات الشرعية ودخل الى غيرها ، فإنه يكون منهيا عنه ، وفى ذات الوقت يكون محرما فى وسيلته واستعماله معا ويسمى حينئذ بتطور العادة المحرم .

أما إذا كان فى المباحات الشرعية فإنه يسمى تطور العادة المباح على الناحية الشرعية ، كالحال مع متناولى الطعام ، سواء أكان ذلك التناول بالأيدى مباشرة أم بوسيلة أخرى كالملعقة والمدية والشوكة وغيرها ([٣]) ، فإنها مباحات

= رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة زوجتى فى الجنة ، وعن أبى محمد مولى الغفاريين أن عائشة قالت يا رسول الله من أزواجك فى الجنة قال أنت منهن ، وروت عائشة - رضى الله عنها - عن النبى صلى الله عليه وسلم الكثير الطيب وروت أيضا عن أبيها وعن عمر وفاطمة وسعد بن أبى وقاص وأسيد بن حضير وجذامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو وروى عنها من الصحابة عمر وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى ، وآخرون كثيرون ، وماتت - رحمها الله - سنة ثمانٍ وخمسين فى ليلة الثلاثاء لسبع خلت من رمضان عند الأكثر ، وقيل سنة سبع ذكره على بن المدينى عن ابن عيينة عن هشام بن عروة ودفنت بالبقيع عن عمر تجاوز الخامسة والستين . راجع الإصابة لابن حجر العسقلانى - جـ ٨ - كتاب النساء - العين المهملة ، القسم الأول [ذكر من لها صحبة وبيان ذلك] رقم ١١٤٥٧ ص١٩/١٧ .

[١]- سنن أبى داود (الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى ٢٧٥هـ) -١٦٠- ت/١٧م باب فى المجنون يسرق أو يصيب حدا - الحديث رقم ٤٣٩٨ - مركز الأبحاث والخدمات الثقافية ، وفى رواية أخرى : عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : مر على على بن أبى طالب رضى الله عنه بمنى عثمان قال : أوما تذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رفع القلم عن ثلاثة ، عن المجنون المغلوب على عقله حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم . قال : صدقت فخلى عنها الحديث رقم ٤٤٠١ .

[٢]- لا شك أن الاستتار عند النوم حتى لا تنكشف العورة ، وكذلك عند تناول الطعام ، حتى لا يظهر لغير القادرين عليه لهو من الآداب الإسلامية ، التى حث عليها الشرع الشريف ، فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وقد حرص على التمسك بتلك الآداب أهل الإسلام على الدوام .

[٣]- الدكتورة / سمية مصطفى - العادات المتغيرة وأثرها فى المجتمع - ص١٤٣ .

طالمـــا لـــم تدفـــع الـــى ارتكاب محرم ، كما لم تقع فى دائرة المحرم من حيث الاستعمال عن طريق السرف والمخيلة .

وكذلـــك قـــد يفكر إنسان ما فى أن ينغلق على نفسه اجتماعيا ،حتى تكون نفســـه هـــى وحدها مملكته وعالمه المثالى ، وحينئذ يبتعد عن جميع المشاركات الاجتماعـــية ، حـــتى لـــو كـــان ذلك مع المقربين منه ، فهو ينعزل بإرادته عن المشـــاركات القائمـــة فى كافة أنماط الحياة التى لابد فيها من مشاركتة الآخرين باعتباره واحدا منهم ، ويظل أمره على ذلك فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر وهو يظن أنه على صواب فيما يقوم به . ([1])

فـــإذا حدثت له ظروف طارئة ، أو ألمت به عوارض لم يكن قد وضعها فـــى حسبانه ، ورأى أن انعزاله عن الناس قد أضر به ، وأن انعزاله بهذا الشكل كـــان عـــادة غير سليمة ، وسلوكيات لم يكن سيره فيها على بصيرة ، أو راجع حســـاباته مـــع نفســـه ، مـــن خلال وقفة ذاتية أو اضطرته الظروف المعيشية الاحتياجـــية للتعامل مع الآخرين ، وحاول الاحتكاك بهم والانتصار على ظرفه الطـــارئ ، فلـــم يجد منهم آذانا تسمع له ، أو عقولا تصغى لشكواه أو مساعدة جـــادة تمـــتد إلـــيه ، حـــتى تأخذ بيديه ، نظرا لعزلته التى فرضها على نفسه ، وتجاهله أنواع المساهمات الضرورية معهم ، فإنه حتما سيلجأ الى تعديل مواقفه ، بحيث يطور فى عاداته وسلوكه على النحو الذى يتجه اليه ، ويحقق المصلحة التى يرجوها ([2]) أو يظل على انعزاله فيتحول الى مريض نفسى أو عقلى يلفظه المجتمع ويعمل على التخلص منه .

---

[1] - كما يفعل بعض الفلاسفة فى بلاد الهند - الأستاذ خيري عبد العظيم - فلاسفة المشرق ص ١٢٥ .

[2] - الأستاذ/ خالد محمد عبد العال - الفرد والمجتمع - ص ٧٢ - دار وفاء ١٩٦١ .

فـــى نفس الوقت ، فإن صاحب تلك العادة الانعزالية ، السلبية ( ) ، متى أمكـــنه أن يطـــور فـــيها ، ويعدل بها الى الايجابية ، بحيث يقع له التشارك مع الآخريـــن ويحـــاول المســـاهمة معهم فى أمورهم الاجتماعية ، بغية الانخراط الاجـــتماعى والتكيف الأسرى والتوافق البيئى ، فإن أمره حينئذ يكون قائما على تعديـــل وتطور فى عادة وسلوك لم يكن أحدهما مقبولا ، وبهذا التعديل والتطور يـــتحول كل منهما الى عادة صحيحة وسلوك مستقيم ([2]) ، ومن ثم يمكن النظر فيه والاعتماد عليه .

وبـــناء علـــى ذلـــك ، فإن هذا التطور للعادة والسلوك ، لابد أن يخضع لأحكـــام الشرع الشريف الألهى ، ودين الإسلام وحده هو القادر على ضبط ذلك كلـــه ، دون اعتـــبار لشـــئ أخر سواه ولا قيمة لأحكام تعلنها العادة الفاسدة أو العـــرف المختلط ، إنما المعول عليه هو الشرع الإسلامي ، فما كان مباحا على ناحـــية الشـــرع فهـــو مقبول ، .. وما كان حراما على ناحية الشرع فهو حرام مرذول ([3]).

كمـــا أن تطـــور العـــادة والسلوك الايجابي يدخل فى إطار التطور نحو الأفضـــل وهو مباح شرعا ، طالما كان ذلك فى حدود القواعد الشرعية ، وقس على ذلك ما كان من هذا القبيل ، ويقع فى دائرة تلك الأحكام .

وقـــد نـــال عـــناية متميزة لدى علماء المسلمين حيث برزت مظاهرة فى الدراســـات الفقهية والاجتماعية ، بل والدراسات النفسية والأخلاقية أيضا ، على

---

[1] - هناك إنعزال ايجابى ، وهو ابتعاد الفرد عن مشاركة الآخرين فى الأمور المنهى عنها شرعا ، ولعل عزلة فيلسوف الأندلس - ابن باجه - هى من أبرز مظاهر ذلك النوع ، لأنه لم يشارك خصومه فى مهاجمتهم كما هاجموه ولم يسئ اليهم كما أساءوا اليه ، وانما اعتزل عنهم وانصرف بعيدا عن ميدان العنف والخصومة معهم . راجع مقالات فى أصالة المفكر المسلم للدكتورة فوقية حسين محمود - مكتب زريق ، وكذلك نشرت المقالات فى مجلة الأزهر .

[2] الدكتورة / آمال محمد فاروق - علم النفس والتكيف الاجتماعي - ص ١٢٧ - ١٩٦٢ .

[3] - يمكن الرجوع فى ذلك كله ، وتفاصيله الى أصول التشريع الإسلامي للدكتور / على حسب الله - دار المعارف ، وكذلك الإحكام لإبن حزم ، والأحكام للآمدى ، والموافقات للشاطبى ، وغيرها من كتب الفقه والأصول .

النحو الذى أفاضت فيه تلك الدراسات ، وصارت تنشره المطابع حينا بعد آخر على القاصى والدانى ، وكم تمنيت أن يستفيد الناس جميعا من أحكام الشريعة الإسلامية ففيها الخير كله للمسلم أولا ولغيره تبعا له .

الخامس : التطور التاريخي للزمان والأحداث (١)

ويعرف بأنه ما تتم فيه ملاحقة الحوادث والوقائع التاريخية مقيدة بالفترة الزمنية التى جاءت فيها ، والأحداث التى جرت داخل تلك الفترة أو الظروف التى صاحبتها (٢) باعتبار أن التاريخ حلقات زمانية متواصلة ، يتم الحد ث فيها وهى متواصلة يكمل بعضها البعض الآخر ويأخذ به ، فلا ينفصلان ــ الحدث والزمان ــ فى الحقيقة والواقع من هذه الناحية ، وإن أمكن فصل احدهما عن الآخر فى المفهوم .

وهذه الفترة الزمنية المتلاحقة التى تجئ فيها أحداث بعينها ، تكون محكومة بالزمان والمكان الذى تمت فيه ، إن كانت الأحداث مادية ، كما تكون محكومة بالحركة ايضا التى هى أحد المعبرات عن وقوع الحدث ، طالما كان ذلك فى صورة من صور الأحداث الغير مادية كالحب والبغض مثلا ، فإنها لا تكون فى حاجة الى وعاء مادي (٣) ويكون الزمان بالنسبة لها غير مادي أيضا ، لأنها مفاهيم ومعان لها دلالات بعينها.

وربما يقال : ما الدليل على أن هذا القسم يعتبر نوعا من التطور للزمان والأحداث، مع أنها أمور عادية متعانقة ، لا يستغنى أحدها عن الآخرين؟

١- وهو غير التطور التاريخي المادى ،الذى ينادى به الماركسيون ، وأتباع العلمانية ويعرف فى ذات الوقت بأنه يمثل أحد جوانب التطور الجدلى ، وسوف أعرض له إن شاء الله تعالى فى حينه ، متى كانت الحاجة داعية اليه .

٢- أ . ب . فالروست . التطور التاريخي . ص ١٤٥ . ترجمة صبحي نقولا . بيروت ١٩٦٢

٣- وقد انفرد أهل الفكر الإسلامي بالحديث عن هذا النوع من الأحداث ، وبخاصة علماء الكلام ، وسموها " الأمور العامة " ، راجع فى هذا الشأن : المواقف للإمام الأيجى ، والمقاصد للعلامة التفتازانى ، ومطالع الأنظار للعلامة للأصفهانى ، وطوالع الأنوار للبيضاوى . وغيرها من المؤلفات الكلامية .

والجـــواب: ان التاريخ يمثل حكاية ما وقع من احداث، فى حدود كل فترة علـــى ســـبيل الاســـتقلال، وليس من المعقول أن تكون بداية حدث ما هى نفسها نهايـــته ، من حيث الوقت الذى وقع فيه ، وإنما لابد أن تكون بدايته داخل اطار زمـــانى ، ونهايـــته فـــى اطار زمانى آخر ، وحينئذ يكون الأول بالنسبة للثانى ماضيا ، وما سيجئ يعتبر مستقبلا ([1]) ، وما هو قائم يمثل الحال والحاضر ([2])

فالـــنقل المـــنزل- القـــرآن الكـــريم والسنة المطهرة الصحيحة - والفكر الإسلامى مع التاريخ الصحيح يخبر ذلك كله عن مولد سيدنا محمد ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ([3]) وتحدثت كتب السيرة المطهرة عن مولده صلى الله عليه وسلم ونـــبوته ومـــا فتح الله عليه به ، ثم انتقاله للرفيق الأعلى وهى أحداث تاريخية وقعت فى أزمان متعاقبة جاءت فيها الحركة المتطورة .

مـــن ذلك ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (ولد نبيكم فى يوم الاثنين ، ونبئ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنيـــن ، وفـــتح مكـــة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين) . ([4])

---

[1]- الدكتور شاخت - الزمان المتحرك ص١٣٧ ترجمة أحمد عبد البديع ط ٢ ١٩٧١ م بيروت .

[2]- ولعل تقسيم الزمان باعتبار الماضى والحاضر والمستقبل ، قامت عليه اتجاهاته باعتبار ما يجرى فيه من أحداث ، واستخدم نحاة اللغة العربية صور الفعل الماضى والحاضر والمستقبل ، وهى صور ذهنية راقية ، لفكرة الزمان وكيفية التعرف عليها من خلال الحدث الذى يتم فيها ،وذلك يمثل لونا من ألوان الجدة والابتكار .

[3]- ولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، فى عام الفيل ، يوم الاثنين ، لعشر خلون من ربيع الأول ، وكان قدوم أصحاب الفيل قبل ذلك فى النصف من المحرم ، راجع للعلامة المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى - تاريخ الإسلام وطبقات الأعلام - جـ ٢ السيرة النبوية ص٧ وهو الموافق ٢٠ أغسطس عام ٥٧٠ م ، وعليه عمل أهل مكة قديما وحديثا فى زياراتهم موضع مولده صلى الله عليه وسلم ، فى ذلك الوقت من كل عام ، وراجع للدكتور محمود محمد زيادة - العرب وظهور الإسلام والسيرة النبوية ص ١٤١ ط ١ المطبعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢ م ، وغيرهم على أنه صلى الله عليه وسلم ولد ليلة الثانى عشر من ربيع الأول وكان ذلك يوم الاثنين ، راجع سيرة النبى للعلامة ابن هشام والروض الأنف للعلامة السهيلى وغيرها .

[4]- الإمام أحمد بن حنبل - مسند الإمام أحمد - وأخرجه العلامة الذهبى فى تاريخه - راجع تاريخ الإسلام - وطبقات المشاهير والأعلام جـ٣ ص٧ ، وهذا الجزء خاص بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وسماه المؤلف السيرة النبوية .

وبالتالى ، فيوم مولده صلى الله عليه وسلم ، ليس هو يوم بعثه الله سبحانه وتعـــالى نبيا ، كما أنه ليس يوم هجرته صلى الله عليه وسلم ، وإنما كل واحد مـــنها دل على وقوع حدث معين فى زمان معين ، وأن الزمان الأول لم ينفصل عن الثانى انفصالا يؤدى الى الانقطاع ، إلا فى التعبير عن كل منهما بما يناسبه ، وهو معنى التطور التاريخى للأحداث من وجهة نظرى .

كما أننا ــ نحن المسلمين ــ نعرف متى ولد الحبيب المصطفى صلى الله علـــيه وسلم ، ومتى شق صدره عن طريق ملائكة الرحمن ([1])، ومتى عاد الى أمه من ديار بنى سعد بعد فترة رضاعته ، وكذلك نعلم متى بعث صلى الله عليه وســـلم الى العالمين ([2]) ، ومتى انتقل من الدعوة الخاصة أو السرية الى الدعوة العامة أو الجهرية حيث راح يدعو الناس جميعا الى الله .

وكـــيف كـــان الناس يواجهون دعوته ، ومتى هاجر وكيف والى أين ([3]) وكذلـــك الغزوات والسرايا بجانب ما يسر الله له من فتح مكة ([4]) ، وكيف حج رســـول الله ومتى وأين ([5]) وأخيرا ، متى لحق بالرفيق الأعلى ، وكيف تم ذلك

---

[1]- شق الصدر من معجزاته صلى الله عليه وسلم عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، وعدها غيره من الإرهاصات التى تمهد للنبوة ، راجع للإمام القرطبى الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام جـ ٣ ص ٨٧ تحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا .

[2]- المشهور وعليه العمل ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث فى العام العاشر من مطالع القرن السابع الميلادي ٦١٠ م ، بعد أن تم له أربعون عاما ، وابتدأ بالرؤيا الصالحة ، ثم نزل عليه الوحى يوم الاثنين ، السابع عشر من رمضان ، الموافق السادس من أغسطس ٦١٠م فظهر له جبريل وقال : إقرأ .... راجع العرب وظهور الإسلام ص ١٥٢ ط١ .

[3]- هاجر صلى الله عليه وسلم عام ٦٢٣ م الى المدينة المنورة ، وكانت هجرته صلى الله عليه وسلم المباركة الى المدينة المنورة التى كانت تسمى يثرب ، كما سميت طيبة ، ثم سميت بالمدينة المنورة .

[4]- تم فتح مكة فى رمضان للعام الثامن الهجرى ، وقد أسلم فى ذلك الوقت ممن أسلم هند ، وأبو سفيان ، - زوجها - العلامة أبو الحسن البكرى - الدرة المكللة فى فتح مكة المبجلة - ص٦٧ المطبعة العامرية الشرقية ١٣٠٠ هـ .

[5]- حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وأحرم من ميقات ذى الحليفة - راجع العرب وظهور الإسلام - ص ٢٤٨/٣٤٦ .

كله ([1]) ، الى غير ذلك من المسائل الدقيقة مما يتعلق بشخص سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ودعوته التامة العامة الكاملة الخالدة .

إذن لــيس من الصواب ، كما لا يكون معقولا القول بأن يوم مولده صلى الله علــيه وســلم هو نفس يوم بعثته ومهجره وجهاده وحجه وانتقاله ، لأنها أيام مــتعددة ، وأحــداث قائمة فيها البركة التى صاحبت رسول الله صلى الله عليه وســلم ، ومــراحل متلاحقة فى حدود المعايير الثلاثة المتفق عليها : الزمان ، والمكان ، والحركة .

كمــا أنها فترات متلاحقة ، باعتبار أن بعضها يأتى خلف البعض الاخر اخــذا بعــناقه ، وهو ما يمكن فهمه من قوله تعالى: (*وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بيْنَ النَّاسِ ولِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِين آمَنُوا ويتَّخِذَ منكُم شُهداء واللهُ لا يحبُ الظَّالمين*)([2])
ويفهم من لفظ التداول الوارد فى الآيةالكريمة معنى التلاحق والتبادل أيضا وهو أمر قائم فى ذات المفاهيم التى يمكن التعامل معها على ناحية من النواحى .

علــى أن هــذا المفهوم للتطور التاريخى ، بخصوص الزمان والأحداث ، الذى يغلب عندى قد لا يتفق مع بعض المفاهيم التى تجئ على ناحية أخرى ، أو اصــطلاحات عكــف عليها أصحابها ، وبخاصة لدى الرياضيين الذين يفسرون الــزمان على ناحية رياضية ، وكذلك علماء التاريخ ، فكل شئ عندهم يجب أن يخضــع للمفاهيم الرياضية ، حيث يذهب برتراند راسل الى أن المكان والزمان ليسا جوهرا قائما بذاته ولكنه نظام قائم فى علاقات رياضية لا ينفصل عنها ([3])

وهــو اتجــاه عــندهم يركزون عليه ، ويردده الماديون أيضا حتى ذهب بعضــهم الى أن تطور الأشياء ينبغى النظر اليه باعتباره حركتها الذاتية الداخلية

---

[1] - فاضت روح الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وانتقل ضحوة ١٢ من ربيع الأول ، عام ١١ هـ الموافق ٨ يونيو ٦٣٢م - راجع للدكتور محمود زيادة تاريخ الأمم والملوك للعلامة الطبرى جـ٣ ص١١٧ ، ونور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، للشيخ محمد الخضرى ، ص ٢٩٠ وتاريخ الإسلام جـ ٢

[2] - سورة آل عمران - الآية ١٤٠ .

[3] - برتراند راسل - فلسفتى وكيف تطورت ص ١١/١٠

والضـــرورية ، وأن الشـــئ فـــي حركته ، والأشياء من حوله ينبغى النظر اليها باعتبارها متداخلة ومتفاعلة ، حدهما مع الآخر ، والسبب الأساسى لنمو الأشياء لا يكمن خارجها وإنما يبقى داخلها فى تناقضاتها الداخلية [1] . دون حاجة الى شئ آخر وراء ذلك .

وفـــى تقديـــرى : ان اتجاه برتراند راسل ومن معه من الرياضيين و الماديين، يكشـــف عن اتجاه مادى يخالف القواعد الثابتة ، لأن التاريخ ليس مرحلة منتهية عـــند نقطـــة بعيـــنها ، كما أنه ليس حالة ثابتة أو غير مكون من أجزاء بسيطة متسلســـلة فـــى أحداثهـــا ، وإلا مـــا كنا الآن مع مطلع القرن الحادى والعشرين الميلادى ، ومطالع الحقبة الثالثة من القرن الخامس عشر الهجرى [2] .

بجانـــب ادراك كـــل عاقل منا أن اليوم الذى ولد فيه ، ليس هو ذات اليوم الـــذى لحـــق بالمدرسة فيه ، أو التحق بالجامعة فيه ، كما أنه ليس اليوم الذى انتهت الدراسة فيه ، وإنما هى مراحل زمانية متلاحقة على سبيل التتابع الذى لا ينقطع ، وتتم فيه أحداث زمانية متلاحقة هى الأخرى ، ولها سمات معينة ، وهو الذى أعنيه بالتطور التاريخى حسب المفهوم الذى أسلفناه [3] ،

تجـــدر الملاحظـــة الى أن أصحاب هذا الاتجاه قد نظروا الى الدين الذى تمارســـه الكنيســـة ، فظـــنوا ممارسات أصحابه دينية ، ومن ثم اتخذوا لأنفسهم مواقـــف مضادة لما تدعوله الكنيسة ورجالها ، بزعم استرداد الهيبة التى سلبتها مـــنهم والتخفـــيف من سطوة رجال الدين المسيحى عندهم ، والتى طالما بطشت

---

[1]- جون كولر - الفكر الشرقى القديم - ص ٤٤٤ - ترجمة كامل يوسف حسن - ط عالم المعرفة - العدد ١٩٩ صفر ١٤١٦ هـ ترجمة رمسيس شحاته .

[2]- ١٤٢٣هـ/٢٠٠١ م ، فالقرن الحادى والعشرون الميلادى ، جاء مع بداية العقد الثالث من القرن الخامس عشر الهجرى . إذن ليس الزمان مفهوما رياضيا ، وإنما هو أحداث متعاقبة موجودة خلال فترات زمنية تجرى فيها .

[3]- لويس دى بروليه - الفيزياء والميكروفيزياء ص ٢٦٧ - ترجمة رمسيس شحاته - الإدارة العامة للثقافة الألف كتاب ٦٣٤- ١٩٦٧ م .

بالفلاسفة والعلماء وجعلت الفلسفة ورجالها يلاقيان الاضطهاد على أيدى رجال الدين ([1]) .

أنواع الزمان :

الزمان أنواع وهناك فروق كثيرة ومتعددة بين هذه الأنواع ، وليست جميعها شأنا واحدا ، حتى يكون الحكم على واحد منها شاملا لكل الأنواع، باعتبار أن التنوعات تأتى فيها تبادلات وهذه الأنواع هى :

(١) الزمان المطلق .

ويعرف بأنه : الزمان الرياضى الحقيقي القائم بذاته وبمضمونه ، دون اية علاقة بأي شئ خارجي وهو يسير بانتظام ، ويسمى ايضا الطول الزمنى ، وهو لا يمكن أن يتغير فى سريانه ، فالطول الزمنى الواحد والحالة الواحدة ، تناظر تواجد كل الأشياء بدون تفرقة ،سواء أكانت الحركة سريعة أم بطيئة أم مساوية للصفر([2]) .

وهذا النوع هو الذى ركز عليه رياضيو المسلمين الأوائل ، كما أعلن عنه نيوتن فى أبحاثه العلمية والرياضية ، وتمسك به من ساروا على نفس الطريق . والمنازعة فيه من حيث المفهوم والدلالة أو طريقة الأستعمال لا من حيث المنطوق .

(٢) الزمان النسبي الظاهرى ([3]) :

وهو المعيار الذى يستخدم فى الحياة العادية بدلا من الزمان الرياضي

---

[1]- انطونى دى كرسبنى - وكينيث منوج - أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة ص ٦٠ - ترجمة الدكتور نصار عبد الله ، الهيئة المصرية ١٩٨٨م .

[2]- زافيلسكى ف . س - الزمن وقياسه ص ١٦٠ - ترجمة د. مهندس إبراهيم محمود شوشه - الهيئة المصرية العامة ١٩٨٨ م .

[3]- وهذا اتجاه جديد فى المسألة ، لأن المطلق غير النسبي في المفهوم والدلالة أيضا ، كما أن المطلق هو الآخر له معان متعددة ، بعضها راجع لما يجرى فى أعراف الفلاسفة ، وبعضها راجع لما استقر فى افهام الرياضيين . وبعضها عبر عنه غيرهما ، ولكل وجهة قد تكون مقبولة أو مرفوضه .

الحقيقـــي ، وهو يمثل الساعة واليوم والشهر والسنة ([1]) وهو ظاهري من ناحية وقوعـــه تحت قواعد عامة وثابتة ، سواء أكان من تلك القواعد الشمس والقمر أم اللــيل والنهار ، فالنسبية سارية فيه كأجزاء يمكن التعبير عنها بالطرق الرياضية أيضا بجانب الطرق العملية فى ذات الوقت طبقا لما هو ثابت فى أفهام أصحاب الشأن .

(٣) الزمن الفلكـــي :

وهـــو الـــزمان الذى يضبط الناس عليه أمور حياتهم ، ويقسم الى قرون وسنين وشـــهور وأيام وساعات وثوان ، ويدل على ذلك قوله تعالي : (* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ والـــنَّهار آيَتَيـــن فَمحوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَبِكُـــمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً *) ([2]) ، وهو زمـــان فلكـــي كوني أيضا ، لأنه يقاس بحركات الأجرام السماوية ([3]) ، وعرفه ابـــن سينا ، بأنه مقدار الحركة من جهة المتقدم والمتأخر ([4]) ، وهو نوع متميز عن النوعين السابقين باعتبار المفاهيم والدلالات ، وليس واحدا منها رغم وجود بعض من مظاهر التشابه بينها جميعا .

(٤) الزمان البيولوجي الخلوي :

وهـــو الـــزمان المختص بعلم الأحياء ، ويسير فى بطء بالنسبة للأطفال ، علـــى حين يسير بسرعة فائقة بالنسبة لكبار السن ، ويطلق عليه الزمان العمري ، كما يطلق عليه الزمان الخلوي أيضا ، لأنه يتعلق بالخلية الحية وامكانية بقائها حية فترات قد تطول أو تقصر ، وكذلك طرائق المحافظة عليها ([5]) .

---

[1]- زاليلسكي - الزمن وقياسه ص ١٦٠ .

[2]- سورة الإسراء الآية ١٢ .

[3]- كريسي موريسون - العلم يدعو للإيمان - ص ١٧١ - ترجمة الأستاذ محمود الفلكي - ط النهضة الحديثة .

[4]- الشيخ الرئيس ابن سينا - تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص ٩٣ - ط ٣ دار العرب للبستاني .

[5]- كريسي موريسون - العلم يدعو للإيمان ص ١٧٠ ، وراجع أيضا الأحياء تفسير الحياة لتوني بايفور ص ٩٥ ترجمة وفاء صبري ، وكتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي .

وهــذا الزمان الخلوى تحسب عليه مدة بقاء الخليه الحيويه حيه ، باعتبار ان الخلية لها مراحل عمريه : الأولى مرحلة التكوين ، ثم تليها مرحلة الطفولة ، وتأتــي بعدهــا مــرحلة النمو والنشاط ، ثم مرحلة الثبات ، وأخيرا الكهولة أو التلاشــى ([1]) ، ولعل ذلك مما يستشهد له بقوله تعالى : (* اللهُ الَّذى خلقكُمْ من ضــعْفٍ ثُم جعل مِن بعْدِ ضعْفٍ قُوةً ثُم جعل من بعْدِ قُوة ضعفا وشيْبةً يخْلُقُ ما يشَــاءُ وهُــو الْعليمْ الْقَديرِ*)([2]) ، وهوغير الزمان المطلق والزمان النسبي بل وغير الفلكى من حيث طبيعة نوعه .

(٥) الزمان المقدر فى علم الله الأزلى :

وهــو أمر غير معلوم للخلائق ، كما أنه غير محدد ولا يتجزأ، وهو غيب مطلــق لا يعلمه إلا الله جل شأنه ، وعلى بابه تأتى كافة الأحاديث عن الغيوبات الســابقة علـــى خلق الكون ، وكذلك تأتى عليه الغيوبات الزمانية فى الآخرة ولا طــريق للعقل وحده فى معرفته ،ولكنا نعرفه من دلالات الشرع الإسلامى وحده ([3]) ، وقد دل عليه القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة ، بالاشارة المفهمة حينا والعبارة الواضحة حينا آخر .

فمــن دلالات القرآن الكريم عليه : قوله تعالى : (* وإِنَ يَوْما عِنْد ربِّكَ كألْفِ سنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ *) ([4]) ، وقوله تعالى : (* يُدَبِرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إلَى الأَرْضِ ثُــمَ يعْــرُجُ إلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ *) ([5]) ، وقولــه تعــالى : (* تَعْــرُجُ المَلائِكَــةُ وَالرُّوحُ إلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِين أَلْفَ سنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً *) ([6]) ، الى غير ذلك من الآيات

---

[1] - الأستاذ محمد نصر عبد الغفار - الخلية الحيوية وتطوراتها ص١٩ ط ١ ١٩٥٧ م .
[2] - سورة الروم الآية ٥٤ .
[3] - يراجع فى هذا الشأن كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى ط ٦ ص ١١٩/١١٧ .
[4] سورة الحج الآية ٤٧ .
[5] ة السجدة الآية ٥ .
[6] سو. المعارج الآيتان ٤/٥

القرآنية التى صرحت به أو ألمحت اليه ، وما زال العلماء من أهل الاسلام يجتهدون فى التعرف على تلك الإشارات القرآنية ، وسيظل حالهم قائما نحو خدمة النقل المنزل .

ومن السنة المطهرة الصحيحة المباركة ، ما جاء عن يوم القيامة والأهوال التى تصاحبه من الوان العذاب للعاصين ([1]) ، وأنواع النعيم للطائعين ([2]) وذلك كثير يدركه من يطالع السنة النبوية الصحيحة .-

إذن ليس التطور التاريخي للزمان والأحدث فكرة مقبولة على النحو الذى ينادى به الماديون ([3]) ، والماركسيون ([4]) ، كما أنه ليس فكرة مقبولة أيضا على النحو الذى تمسك به العلمانيون ([5]) ، ودعاة الوضعية ([6]) .

---

[1]- فمن ذلك ما رواه البخارى بصحيحه فى باب : من كذب فى حلمه - فى الحديث رقم : ٦٦٣٥ - عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من تحلم بحلم لم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ولن يفعل ، ومن استمع الى حديث قوم وهم له كارهون أو يفرون منه ، صب فى أذنه الآنك يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب وكلف أن ينفخ فيها وليس بنافخ) ، والمراد بـ [تحلم بحلم [تكلف الحلم أو ادعى أنه رأى حلما ، (كلف) يوم القيامة وذلك التكليف نوع من العذاب ، (يعقد) يوصل ، (لن يفعل) لن يقدر على ذلك ، وهو كناية عن استمرار العذاب عليه (كارهون) لا يريدون سماعه (الآنك) الرصاص المذاب ، (ينفخ فيها) الروح ، (ليس بنافخ) ليس بقادر على النفخ ، (قوله) يعنى موقوفا على ابن عباس رضى الله عنهما ، من قوله] ، وروى البخارى نفس الباب رقم : ٦١٩٤ ، ومسلم (فى الإيمان ، باب أهون أل النار عذابا ، رقم : ٢١٣ ، عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة رجل على أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل بالقمقم) ، والمراد (أخمص قدميه) المتجافى عن الأرض من الرجل عند المشى ، (جمرة) قطعة من النار ملتهبة ، (المرجل) قدر من النحاس ، (القمقم) إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء ، يكون من النحاس وغيره .

[2]- فمن ذلك ما رواه البخارى بصحيحه - باب فضل من ترك الفواحش - الحديث ٦٤٢١ - عن أبى هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل ذكر الله فى خلاء ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد ، ورجلان تحابا فى الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال الى نفسها فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه) .

[3]- هم الذين لا يؤمنون إلا بوجود الماديات فقط ، ويطلق عليهم ابن سينا لفظ الحسيين ، وقد يعرفون بأنهم الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس ، وقد ناقشهم الشيخ الرئيس - ابن سينا - فى كتابه : الإشارات والتنبيهات ، وبين فساد مزاعمهم - راجع فى ذلك الشأن النمط الرابع الخاص بالوجود وعلله .

[4]- هم أتباع ماركس الذين يؤمنون بأن التاريخ حركة الحياة ، والإلحاد جزء طبيعى من الماركسية راجع للدكتور عبد الحليم محمود - الإسلام والشيوعية ص٢٩ - دار التراث العربى ط ١ ١٩٧٥ .

[5]- هم الذين لا دين لهم ، لأن العلمانية هى اللادينية ، وكل جماعة لا صلة لها بالدين ، أو كانت علاقتها بالدين علاقة تضاد ، راجع للدكتور يوسف القرضاوى ، - الإسلام والعلمانية وجها لوجه - ص٤٨ ط١ ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .

[6]- الوضعية أنواع منها : ١ - الوضعية المنطقية ، ٢- الوضعية الطبيعية، ٣- الوضعية الأنثروبولوجية ، ٤- الوضعية الاجتماعية ، راجع فى هذا الشأن : أنماط الوضعية ص٧٣ لأنتونى مارك - ترجمة يوسف ميخائيل .

ومـــن كان على شاكلتهم ممن يقول بقدم المادة وأزليتها ( ) ، لأنهم لما لم يفلحـــوا فــى دعـــاواهم الباطلة ، لجأوا الى القول بقدم الحركة آملين أن يحققوا بعـــض النجاحات فى عالم الفكر المادي ، فلما انهارت أوهامهم عادوا الى عبادة المادة مرة أخري ، وهم فى كل حالاتهم للمادة يهرعون وفى العي واقعون .

وفى تقديرى : أن أصحاب هذه الأقوال فيهم دناءة عقلية وسقوط فكري ، بجانب الرغبة الملحة فى تتبع طرائق التخبط العقلى ، وقد أوقعهم فى ذلك تبنّيهم الدائـــم لفكـــرة الميتافيزيقا النقدية وكفرهم بالميتافيزيقا التأملية ([2]) ، معتقدين أن الـــنقدية ذات طـــابع حـــركى آلى حر فيه ميكانيكية دائمة ، معتبرين إياه المعبر الحقيقـــي عن كافة الحقائق العلمية الثابتة ، متجاهلين أن الميتافيزيقا التأملية هى الأصـــل ، لأنهـــا تجمـــع بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، بينما النقدية خاضعة للبحث فى بعض الجوانب المشاهدة فقط ، وينتهي الأمر بها وأصحابها الى إنكار الغيب جملة وتفصيلا وهو كفر صريح .

السادس : التطور المعرفـــى

لا شـــك أن المعـــرفة ([3]) ، نقيض الجهل ، ولما كانت تحمل بين طياتها مفاهـــيم عديدة ، فقد جاءت هى الأخرى فى صيغ وأشكال متآلفة حينا داعية الى الممارســـة وتطبَـــيق الجانـــب النظري فى الواقع العملى حينا آخر ، بل اسرف الدارســـون حـــتى عدوها نظرية من نظريات الفلسفة ، إن لم تكن أهم النظريات الفلســـفية الثلاثة ([4]) ، الوجود ، المعرفة ، القيم ، عناية واستقلالا ، حتى ظهرت

---

[1]- القول بأزلية المادة قاسم مشترك بين الطبيعيين الأولين من أهل اليونان ، والمتأخرين فى الغرب الملحد ، وهو أحد العناصر القائمة لدى أصحاب التطور الإحيائى ، وسوف أعرض له وأناقشه فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى

[2]- الميتافيزيقا التأملية هى المتعلقة بالغيبيات ، ومنها الله جل جلاله ، والروح والخلود ، والماديون ومن على شاكلتهم يؤمنون بالنقدية فقط ، على أساس أنها التى يمكن التحكم فيها ، والاحتكام اليها ونتائجها يمكن التأكد منها عن طريق التجربة ، راجع الميتافيزيقا النقدية والتأملية للدكتور ناصر عبد الجليل - دار عباد الرحمن بتونس ١٩٧٧م.

[3]- وردت مادة الكلمة (ع ر ف) فى القرآن الكريم ثنتين وسبعين مرة ، راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم باب العين ص ٤٥٨/٤٥٩ .

[4]- الدكتور صبرى حسن توفيق - النظريات الفلسفية قديما وحديثا ص ٧١ ط ١ ، ١٩٨٧.

بالنسبة لها أبحاث مستقلة ، ومؤلفات عديدة فى الغرب والشرق على السواء (١) ومـــع أنهـــا قـــد تـــأتى بمعنى العلم ، كما تأتى بمعنى الادراك أو غير ذلك من المعـــانى إلا أنهـــا فـــى كـــل مباحثها المتعلقة بها من حيث المصدر والوسيلة والدرجـــة ، باعتـــبار اليقين أو الظن قد كشفت ، عن وجود صورة من التطور المعـــرفى (٢) ، بدلـــيل أن الإنســـان منا يجهل طرائق البحث العلمي فإذا أمكنه الاســـتفادة مـــن أحد الطرائق وقام به من الناحية المنهجية فإنه يكون قد اكتسب معرفة جديدة فى جانب معرفى لم تكن له به دراية سالفة.

فـــى نفس الوقت فقد نجلس الى القصاص والاخباريين وأصحاب الملاحم والســـير ، فنقوم من عندهم وقد أضيفت الى أرصدتنا المعرفية أرصدة أخرى لم تكن لنا بها معرفة سابقة .

يســـتوى فى ذلك أن تكون هذه المعرفة ناتجة عن وسيلة حسية أو عقلية أو الهامـــية ، المهم أنه قد أضيفت الى الرصيد المعرفى معارف وأشياء جديدة ، أو أن ذلـــك الجديد يمثل معرفة أو نوعا من المعرفة لم يكن له وجود سابق على شكل متكامل أو صورة جزئية أيضا (٣) .

بـــل إن الواحد منا ربما كانت لديه بعض المعارف الحسية ونظرا لضعف آلاتـــه التى استقى بها ذات المعرفة ربما أصدر عليها حكما رآه مناسبا فى ذلك الوقت ، فلما وقف على ذات الجزئية أو إكتملت وسائله وكانت قوية جادة ، فإنه يصـــدر حكما جديدا قائما على خبرة أكثر نضجا وأوسع مكانا ، وأرقي من كل

١- من ذلك ما كتبه الدكتور محمد غلاب تحت عنوان نظرية المعرفة عند مفكرى المسلمين - دار المعارف .

٢- وسائل المعرفة ومصادرها هي : أ - الحواس الظاهرة وتسمى معرفة حسيه ، ب - القدرات العقلية وتسمي المعرفة العقلية ، جـ - الإلهامات الإلهية وتسمي المعرفة اللدنية كما تسمي الالهامية لنقل المنزل وتسمي المعرفة النقلية كما تسمي المعرفة الوحيية ، راجع تفاصيل ذلك - الفكر الفلسفي فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود ، نشأة الفكر الفلسفي للدكتور النشار ، والتفكير الفلسفي الإسلامي للدكتور سليمان دنيا ، بجانب نظرية المعرفة عند مفكري المسلمين للدكتور غلاب ، والبعد الرابع فى المعرفة للدكتور مصطفى غلوش .

٣- وشهادة العقل والحواس من أبرز الأدلة عليه فلا يصح انكاره كما لا يجدى .

الأحكـــام الســـــابقة فى هذا الخصوص ، وبالتالى يهرع صاحب المعرفة الضعيفة اليها عله يلتمس من نتائجها ، وتزدحم بها قدراته العقلية .

ولا شـــك أن زيادة كمية المعارف فى عقل ما ، والوصول بها الى درجة أكـــثر بقاءا وأعلىٰ أمانا ، إنما يمثل ذلك كله نوعا من التطور المعرفي فى ذاته أو فى الوسائل المؤدية اليه وقديما قيل :

من وعي التاريخ فى صدره　　فقد أضاف أعمارا الى عمره ([1])

ثم إن المعارف التى تحصل عليها فى جوانب العلم المختلفة ، لم تولد معنا أو لم نولد و نحن متمكنين منها ، وإنما تقع لنا بالاكتساب بعد توفيق الله تعالى ، وكـــل معرفة تقع بالاكتساب فإنها تضيف الى الرصيد الثابت ما تضيف بدليل أن كل فرد منا كان يجهل القراءة والكتابة أول أمرة ثم اكتسبهما سواء أكانت قدراته قد مكنته من أن يكون ماهرا بها أم ضيقت الظروف عليه فلم يكن متمكنا منها ، وهذ الاكتساب لا شك يمثل إضافة معرفية جديدة.

مـــن المؤكد أن هذا النوع من التطور ينال المعارف تأكيدا عليها وصيانة لهـــا ، أو تعديلا فى مناهج تحصيلها والحكم على قبول دخولها دائرة الصدق من عدمـــه ، وهذا ما يمثل انقلابا معرفيا ، وتأكيدا على أن العقلية المفكرة يجب أن تظل بمنأى عن أوجه الاختلاف وممارسة النقائص أيضا .

ربمـــا اكتســـب المـــرء معرفة من العلم اللدنى عن طريق الفيض الألهي والاستعداد الذهني ، ومن ثم فلا يمكن القول بعدم وجود نوع من المعارف التى أضـــيفت لأن إنكـــار هذه المعارف يهدم قضية أساسية وهى تواجد هذا الداعي للفعل .

ثـــم إن الطفـــل الصـــغير يظل يلح على أسرته ويسأل عن أشياء معهودة بالنســـبة لهم ، معهودة فى رؤيتها بالنسبة له ، ولكنه يلجأ الى السؤال عنها ، لا

---

[1]- الشيخ عبد العظيم الثروي - تاريخ العرب فى الإسلام جـ ١ ص ٢٣٥ .

حبا فيها لأنه لم يبلغ درجة التجريد للمفاهيم حتى يعرف قيمتها ، وإنما يفعل ذلك ليبنـــي معارفه ثم يؤكد عليها وفى النهاية يستخلص من جملة هذه المعارف ما يراه مناسبا بالنسبة له .

فـــوق ذلــك فـــإن التراكمات الذهنية التى هى حصيلة المعارف الإنسانية بجانـــب الخـــبرات الذاتية تسمح للإنسان بأن يصدر أحكاما معرفية عن طريق التوقع ، ولولا أن هذه المعارف تتطور ما استطاع الإنسان إصدار حكم فى أمر يتوقعه ، وهو ما يعرف بالفراسة العلمية ([1]) .

كمـــا أن الفكـــر هـــو جملـــة النشاط الذهني ، بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق ، على أسمي صور العمل الذهني ([2]) . ويعرف أيضا بأنه ترتيب أمور معلومـــة للتوصـــل بها الى أمر مجهول ([3]) . ومن ثم فهو فى كل الحالات يمثل اتجاها معرفيا متطورا.

على أساس أن الإنسان المفكر دائما يبحث عن ما يحقق له السعادة أولا ، وربمـــا طلـــب ذلك للمجتمع المحيط به ثانيا ، ومن ثم انصرف أمر التطور فى المعـــارف الى القبول ويدخل فى التطور المعرفي كافة المستجدات العلمية التى تجـــيء علـــى ذات الناحية ومنها تطور التشخيص للأمراض المختلفة من خلال التقنية العلمية الحديثة .

---

[1] - حيث تعرف الفراسة بأنها استدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن - الفخر الرازى - مفاتيح الغيب م ١ ص ٤٣ ، دار الغد العربى ، وهى أنواع ثلاثة : الأول وهى الفراسة الإيمانية وتعرف بأنها خاطر يهجم على القلب ينفي ما يضاده ، يثب على القلب وثوب الأسد على الفريسة ، ابن القيم مدارج السالكين جـ ٢ ص ٥٠٤ ، ونفس العبارة مع تصرف بسيط ، شرح الطحاوية ص ٤٤٦ ، والثانى الفراسة الرياضية ، وهى فراسة الجوع والسهر والتخلى ، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها ، وهى مشتركة بين المؤمن والكافر ولا تدل على إيمان ولا ولاية وكثير من الجهال يغتر بها ، مدارج السالكين جـ٢ ص ٥٧ ، والثالث ، الفراسة العلمية - الخلقية ، وهى التى صنف فيها الأطباء وغيرهم واستدلوا بالخلق على الخلق لما بينهما من الارتباط الذى ارتضته حكمة الله تعالى ، كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل ، وبكبره على كبره ، وسعة الصدر على سعة الخلق وضيقه على ضيقه ، راجع في ذلك ، الإمام على بن أبى العز الحنفي ، شرح الطحاوية ص ٤٤٧ ، وراجع مدارج السالكين جـ٢ ص ٥٧ /٥٨ .

[2] - الدكتور محمد منصور خيري - مناهج البحث العلمي ص٣٥ ، ١٩٥٧ .

[3] - شيخ الإسلام -الشيخ حسن درويش القويسنى - شرح القويسنى على متن السلم فى المنطق ص ٤ ، وعليه تقارير الشيخ خطاب عمر الدورى ط الحلبي ١٩٥٩/١٣٧٩ .

وكذلـــك التقدم الهائل الذى تم احرازه فى مجال العلاج واستحداث أنماط دوائية جديدة تقدم خدمات متميزة للبشرية ، بجانب الهندسة الوراثية التى تقدمت خطـــوات سريعة فى هذا الميدان المعرفى ، وظهرت شبكات الإنترنت والشبكات المعلوماتـــية ، كما ظهرت التقدمات الهائلة فى مجال البيولوجيا بأنواعها المختلفة كمظهر من مظاهر التطور المعرفي ، ولكن أى المعارف التى يقع لها التطور ، وأيها التى لا يقع عليها شئ منه ؟

والجـــواب أن المعارف الصحيحة هى التى يقع عليها التطور بما فيه من حـــركة للأمام وانطلاق نحو تقديم المنافع جلبا لها ، والوقوف فى وجه المضار دفعا ورفضا لها ومن ثم فقد برزت العمليات العقلية فى أثواب عملية تارة على ناحـــية تجريبية ، وأخرى على ناحية معيارية ، وربما جاءت على ناحية سلوكية وجدانية معا([1]) .

أمـــا المعـــارف الـــتى لا يقع لها التطور ، فهى التى لا يقع بها النفع ولا تحقـــق المصـــالح فـــى نتائجها ، لأن الأصول التى قامت عليها ليس فى وسعها تحقـــيق هذه الطفرات ، ولا مساندة ذات القفزات ، وبالتالى فالمعارف الايجابية هى التى تقبل التطور فى طرائق التعامل بها أو معها ، أو فى طرائق الاستدلال بهـــا أو علـــيها ، فضلا عن أن تكون غايتها هى الأخرى تعود الى ذات التطور المحكوم بالشرع الألهى .

أمـــا المعارف السلبية التى لا تجدى نفعا فى أصولها ، ولا تقدم جديدا فى معانـــيها ، فإنها تظل جامدة شاهدة على أنها غير قابلة لأن تحمل راية التطور ، أو تقفـــز بيـــن الناس تشاركهم آمالهم وأحلامهم ، أو تقاسمهم الأمانى والذكريات الجميلة ، أو تعينهم على اقتناص نتائج يمكن اعتبارها جديدة أو مفيدة ([2]) .

---

[1]- راجع لتوماس هايدرز - مناهج البحث العلمى المعاصرة ص١٠٣ ترجمة حنان زكى ١٩٦١ .
[2]- راجع كتابنا ، الحديث فى المنطق الحديث ص ٢١٠ وما بعدها .

ربما يقال وأين دور النقل المنزل منهما ؟ ، والجواب أنه افتراض مرفوض لأن النقل المنزل معانيه قائمة فى ألفاظه ، غير أن ألفاظه مقدسة لأنها كلام الله تعالى ، أما معانيه فمنها مفاهيم أهل الإسلام ، حول ذات الألفاظ [1] والعبرة بالأصل وهو الكلام الألهى ، ومن ثم فإن المعارف الآتية عن طريق النقل المنزل المعصوم تكون ايجابية صحيحة متى جاءت ذات المعانى فى حدود ذات الألفاظ المنزلة أو الموحى بها من قبل الله تعالى .

السابع : التطور الحضارى

ويعرف بأنه الذى تصاحبه الحركة الحياتية للكائن الحى فى الجانب المادى والعقلى معا [2] ، باعتبار أن الحضارة هى الحصيلة الشاملة للمدنية والثقافة ، وهى مجموعة الحياة فى صورها وأنماطها المادية والمعنوية [3] ، على النحو الذى يمكن تفهمه والتعرف عليه وقد تعرف الحضارة أيضا بأنها التقدم الروحى والمادى للأفراد والجماعات على السواء [4] .

وبالتالى فالحضارة تقوم على جانبين :

الأول : الثقافة :

وهى تثقيف العقل وتهذيبه بالمعارف والعلوم ، التى يظهر بها ، حتى تتكون لديه المعرفة الحقة والنتائج الصحيحة كما تقوم على مقدمات صحيحة أيضا وخالية من أوجه القصور والاهمال .

---

[1] - وعلى هذا الأساس يفرق فى المفهوم بين الإسلام والفكر الإسلامى ، أما الإسلام فهو النصوص ذاتها المنزلة من عند الله تعالى بألفاظها ومعانيها وهو القرآن الكريم ، أو معانيها وهى السنة المطهرة الصحيحة ، وأما الفكر الإسلامى فهو جهود أهل الإسلام حول فهم وخدمة النصوص الإسلامية ومن ثم فهو فكر إسلامى من هذه الناحية .

[2] - الدكتور فوزى محمد رزق - الحضارة الإنسانية ص ١٥ ط ١ ١٩٥٣ .

[3] - الأستاذ توفيق محمد سبع - قيم حضارية فى القرآن الكريم - جـ١ عالم ما قبل القرآن ص٢٢ ، دار المنار بالقاهرة .

[4] - البرت اشفيتسر - فلسفة الحضارة ص ٣٤ ترجمة وتقديم الدكتور عبد الرحمن بدوى - دار الأندلس ١٩٨٠ .

وهـــي تمثل الجانب المعنوى أو النظرى من الحضارة ، ولابد فى معارف العقل ،أن تكون على درجة عالية من اليقين ([1]).بحيث يمكن تطبيقها والاستفادة منها ، والا فما قيمة معرفة عاجزة أو منقوصة ؟

ولما كان العقل هو الذى يقوم بهذا النشاط الذهنى ويتأثر به، كما أنه الذى يؤثـــر فيه ، فإن الثقافة لابد لها من العقل الناضج الذى يستوعبها ، كما لابد أن تكـــون القضايا المطروحة مما تدعمها الوثائق والنصوص الثابتة ، بحيث تكون معطياتها هى الأخرى نتائج يمكن اقامة انساق فكرية جديدة عليها .

الثانـــى : المـــدنيـــة :

وتعـــرف بأنهـــا الجانب المادى من الحضارة ، وتبدو مظاهره من خلال الـــتقدم التكـــنولوجى فـــى وســـائل النقل السريع والأسرع والعمارات الشاهقة ، والعلاجـــات المـــتقدمة ومـــا كان من هذا القبيل الذى يعد الجانب التطبيقى من جانـــبى الحضارة ، وبه يمكن الحكم على صحة الثقافة من فسادها([2]) ، باعتبار أن الجانـــب التطبيقى فى الناحية المادية من الحضارة هو الذى يعتبر فاصلا فى المسألة من وجهة نظر القائلين به .

إذن هـــذا الـــتطور الحضـــارى يقوم به الإنسان من خلال قواعد ثابتة ، مضـــافا اليها خياله الذاتى ، ومنطقه الفكرى ، ومجهوده العقلى بجانب طموحاته المـــتزايدة ، وارتفاع نسبة ذكائه ، حيث يرفض عقله الانحباس داخل البيئة التى تحـــيط بـــه دون أن يؤثر فيها على ناحية ايجابية تبدو فيها المثابرة مع الارتكاز علـــى قضايا العلم الصحيح . ولذا فهو يحاول القيام بإحداث تغيرات متعددة فيها ([3]) .

---

[1]- الدكتورة تهانى محمد مصطفى ،الحضارة حركة مستمرة ص ١٣ ط ٢ ١٩٦١ ، دار الطاهر .

[2]- الدكتور فوزى محمد رزق - الحضارة الإنسانية ص ١٧ .

[3]- وهذا قائم على أن الحاجة هى أم الاختراع ، كما أنه كلما كانت الاحتياجات الضرورية قائمة ، فإن أصحاب العقول الذكية يؤثرون فى المجتمعات التى يعيشون فيها داخل حدود إمكانياتهم المتاحة

وتـــتم تلك الأحداث من خلال عمليات متوالية ، فيها الكثير من الابتكارات القائمـــة علـــى التأليف ، رغبة فى إعادة صياغة البيئة من جديد ، حتى تواكب العصر الذى يعيش فيه ، وتكون مستعدة للتعامل مع العصر الذى تستقبله ، وهو تطور حضارى فى جانب معين ، وليس تطورا بيولوجيا .

والملاحـــظ أن البعض يفضل تسمية هذا النوع باسم التطور الحضارى ، المتمثل فى ارتقاء الإنسان نفسه ([1]) ، من خلال الوسائل التى تقوم على خدمته ، أو تحقـــق له بعض طموحاته وأحلامه ، فهو يطور فى أنماط استعمالاته للأشياء ([2]) لا فـــى ذات الأشـــياء وبخاصة أن حقائق الأشياء ثابتة ، فلا يقع التغير فيها أبدا .

والحضـــارة الإنسانية فى مهـــدها تقوم على منهجين :

الأول : المنهج العقـــلى :

وهو المجهود الذى يقوم به العقل وحده ، وهو جانب نظرى من الحضارة الإنسانية ، باعتبار أن الفكر عملية عقلية ، قد يخرج الى نطاق التعاملات القائمة فـــى الممارسات المستمرة ، وقد يظل حبيس صدور أصحابه ، كما أنه نظرى ، باعتـــبار أنـــه ليس داخلا فى نطاق التجربة العملية ، وإنما هو أساس الاحتكاك العلمـــى ([3]) ، ولذا قد يسميه البعض بالجانب الثقافى من الحضارة الإنسانية على ما سلفت الإشارة اليه .

الثانى : المنهج التطبيقى :

وهـــو ما يمكن تطبيقه من مظاهر الجانب العقلى ذاته ، بحيث يظهر مع الـــتجربة العلمـــية ، فهو عملى فى جانب العمارة والإنشاء من حفر الترع وشق

---

[1] - جاكوب برونوفسكى - التطور الحضارى للإنسان - ارتقاء الإنسان ص ١٤ .

[2] - لأن التطور فى ذات الأشياء هو تطور الآلة والوسيلة ، أما هنا فهو تطور فى طرائق الاستعمال لذات الوسائل والفرق بينهما كبير لمن تأمله .

[3] - بل إن الحكماء المسلمين سموا هذا المجهود العقلى باسم الحكمة العلمية - راجع فى هذا الشأن للشيخ الرئيس ابن سينا - تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات ص ٣/٢.

الأنفاق ونعبيد الطرق ، بحيث يتم استخدام ذلك كله على النحو الأمثل ، وما جاء مـــن هــذا القبيل على الناحية العلمية والنظرية أيضا ، وقد عرضت له صورة موجزة ، فليرجع الى المطولات من أراد الزيادة .

ومـــن ثم فإن الحضارة الإنسانية يقوم الأمر فيها على الملكات الإنسانية ، والــتأملات الوجدانـــية ، والنوازع الفكرية والناتج عنها([1]) ، باعتبار أن الإنسان مخلــوق فـــريد ، لـــه من المواهب التى منحه الله اياها ، ما يجعله متفردا بين الحيوانات التى تقاسمه الحياة ، فهو ليس مجرد شكل جامد داخل صورة الطبيعة ، وإنما هو يشكل صورة الطبيعة ذاتها ، بما له من إمكانيات ، وما منحه الله من ملكات ([2]) . وما يستطيعه من توافقات هى فى الأصل إحدى خصوصياته .

وبـــناء علـــيه فـــإن الإنسان المتفاعل يؤثر فى صنع الحضارة وتطوراتها المتلاحقة ، أما لماذا ؟ فلأن الحضارة الانسانية تقوم على الملكات الإنسانية ذاتها الآن هذه الحضارة من صنع الانسان ، ولذا تنسب اليه – على ما سلف القول به – والإنســـان ذاته له جسم وعقل ، وروح ونفس ، وهو يحاول التعرف على كل واحـــد منها استقلالا ، من ثم يصير مستكشفا لها جميعا ، كما يتعرف على ذاته ممـــا يجعله حيوانا واسع القدرة العقلية ([3]) ، ومتميزا أيضا بهذه المساحة العقلية والفكرية ، بل والذهنية الترتيبية.

ثـــم هـــو فـــوق القـــدرة العقلـــية الواسعة ، قد زوده الله تعالى بإرادة لها انطلاقـــات ، تـــتحرك داخـــل فؤاده ، وتمثل له حرية مستقلة ، وذلك مما يمنحه القدرة على مواصلة الحركة العقلية فى أشكالها المتوالية ، سواء أكانت فى اتجاه

---

[1]- أ . ب بنتيلم - الإنسان والحضارة ص٢٣ - ترجمة فؤاد حسين ١٩٦١ م .

[2]- الملكات : جمع ملكة ، وهى الصنيع الذى يصدر عن صاحبه ، راجع مختار الصحاح للعلامة الرازى - باب الميم ص٦٣٣ ، وهى صفة راسخة فى النفس ، يقول العلامة الجرجانى ، وتحقيقه انه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من الأفعال ، ويقال لتلك الهيئة كيفية نفسانية ، وتسمى حالة مادامت سريعة الزوال ، فإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها ، وصارت بطيئة الزوال ، فإنها تصير ملكة ، وبالقياس الى ذلك الفعل عادة وخلقا ، راجع التعريفات - باب الميم ص٢٠٥ .

[3]-الأستاذ/ صابر محمد عبد المعطى - القدرات العقلية وأثرها فى الأفراد والمجتمعات ص٣٥ .

واحـد أم فى اتجاهات متعاكسة ، وهو بتلك الميزات التى جعلها الله تعالى له يستطيع الحركة والتأثير فيمن حوله حتى لو كان ذلك هو ذات البيئة التى يعيش داخلهـا ، فهو لم يوجد نفسه ، ولا موطنه ، وإنما هيأ لنفسه موطنا فى كل قارة (١) ، وحاول أن يطور فى ذلك الموطن بما يحقق لذلك الإنسان بعض طموحاته وأحلامه .

بـيد أن التطور الحضارى فى الغالب الأعم يعتبر مسألة خاصة بالإنسان وحـده ، باعتبار الملكات التى منحه الله تعالى إياها ، كما أن نور الوحى قد جاء فـى تعالـيم النبوات ابتداء من أبينا آدم – عليه السلام – حتى النبوة الخاتمة – نـبوة سـيدنا محمـد – صـلى الله عليه وسلم – دافعا للأخذ بما يحقق الرقي الحضـاري للإنسـان ويجعله سيدا على غيره من المخلوقات ، التى جعلها الله تعالى لخدمته ، وذلك من خلال تعريفه بالمنافع التى لا يستغني عنها ، والمضار التى تهلكه لو وقع فيها أو اقترب منها .

كما أن أغلب الأنبياء قد جاءوا الى أممهم حاملين معهم ـ بجانب الرسالة الألهـية بعـض أسـرار الصـناعات العملية ، حتى يأخذوا بأيدى أقوامهم الى الـتعرف علـيها ثم تطويرها على النحو الذى يتحقق معه أكبر قدر من الفائدة ، وبه يعم النفع .

فـآدم – عليه السلام – عرف ولديه – قابيل وهابيل – الرعى والزراعة (٢) ، وقـاد ولديـه اليهما ، وكل من المهنتين تحتاج التطور المستمر ، بجانب المـتابعة الدائمة للأساليب التى تحفظ وجود كل منهما ، وكذلك الأغراض التى لها نوع من التعلق بشئ منهما أو بكليهما .

١- جاكوب برونوفسكي- التطور الحضاري للإنسان – ارتقاء الانسان ص ١٣ .

٢- ويعلل أصحاب التفسير التطبيقى للكتاب المقدس ذلك بقولهم : بعد أن طرد آدم وحواء – عليهما السلام – من الجنة ، صار على آدم وأسرته أن يصارعوا ضد الطبيعة ، ليحصلوا على طعامهم ، وأن يغزلوا صوفا لثيابهم ، فأصبح قايين – الأبن الأكبر البكر – فلاحا ، بينما كان هابيل – الأبن الأصغر – راعيا للغنم ، فالفلاحة والرعى هما أقدم مهنتين على الأرض ، راجع التفسير التطبيقي للكتاب المقدس ص١٦ ، شركة ماستر .

وقد استمرت عملية التطور الحاجى هده فى الرعى والزراعة ، وما تحتاجان اليه ويقوم بها آدم – عليه السلام – وبنوه والأحفاد منذ البداية حتى وقتنا الحاضر ، وإن اختلفت درجات التطور الحاجى من حيث الكثرة والقلة ، أو تنوعت من حيث السرعة والبطء ، طبقا للضرورات الملحة ، والإمكانيات المتاحة والاحتياجات الفعلية ([1]) ، التى لا يكون هناك من بديل لتغطيتها سوى ذلك .

فى نفس الوقت ، فإن التطور الحضارى بالنسبة للإنسان يمثل واجبا لابد من القيام به على الناحية الشرعية ، سواء أجاء ذلك التطور فى الجوانب النظرية ، أم فى الجوانب التجريبية ، يعرف ذلك أهل العلم بالله رب العالمين، وهم شيوخنا الأجلاء علماء الإسلام .

لأن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، قد تعرضا لبيان ضرورة أن يعمل الإنسان عقله بكامل طاقاته ، ويوظف إمكانياته فى تلبية احتياجاته ، طبقا لما شرع الله تعالى ، داخل كل مجالات الحياة وأنواعها المختلفة ([2]) .

يبدو ذلك فى كل ما يحفظ حياة الانسان أو يحافظ عليها ، وما خلق لتحقيق منافعه أو دفع المضار عنه أو هما معا ، ففى الحديث الشريف : (تداووا عباد الله ، فإن الذى خلق الداء خلق الدواء ، فإذا أصاب الدواء الداء ، برأ بإذن الله) ([3]) ، أما إذا لم يصب الدواء الداء ، فإن الأمر سيظل قائما على الرغبة فى

---

[1] أ . ب بنتيام - الإنسان والحضارة ص٥٧ - ترجمة فؤاد حسين ١٩٦١م .

[2] - ولا شك أن حصر ذلك أو تناوله في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، يحتاج رسائل مستقلة ويمكن لطلاب العلم المخلصين أن ينهضوا الى ذلك وهم أهل فضل ، وفيهم رغبة للعلم .

[3] - أخرجه مسلم فى كتاب السلام باب لكل داء دواء واستحباب التداوى رقم ٢٢٠٤ ، عن جابر ، ورواه المتقى الهندى فى كنز العمال - الفصل الأول فى الترغيب وفيه ذكر الأدوية - الحديث رقم ٢٨٠٨٦ - ورواه أحمد فى مسنده ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير - باب اللام - الحديث ٧٣٠٦ .

الأخـــذ بالأسباب والتماس الوسائل للشفاء . مع الاعتقاد بأن كل شئ انما يجرى بقضاء الله تعالى وقدرته .

فعـــن اسامة بن شريك قال : (قالت الأعراب : يا رسول الله ألا نتداوى ؟ قـــال نعـــم يا عباد الله تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء أو دواء إلا داء واحـــدا فقـــالوا : يا رسول الله وما هو ؟ قال : الهرم) (١) ، وهو التقدم فى السـن ، إذ لا يوجد دواء يرجع بسن الإنسان للماضي حتى ولو لحظة واحدة ، لأن الزمان الذي ينقضي لا يعود وانما يستودع عند الله تعالى .

وعن أبى الدرداء (٢) ، .. قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعـــالى، أنـــزل الـــداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحـــرام) (٣) باعتـــبار أن الله لطيف بعباده ، فما دام قد حرم عليهم أمرا ، فلا يمكن أن يجعل دواء عباده فيه ، لأن ذلك مما يتنزه عنه البارئ جل علاه .

وعـــن اســـامة بن شريك أيضا قال : (قال : رسول الله تداووا عباد الله ، فـــإن الله تعـــالى لم يضع داء إلا وضع له دواء غير داء واحد هو الهرم) (٤) ،

١- سنن الترمذي (وشرح العلل) ، للإمام الترمذي - باب ما جاء في الدواء والحث عليه - الحديث ٢١٠٩ ، رواه عن بشر بن معاذ العقدى البصرى عن أبي عوانة عن زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك .

٢- هو الصحابي الجليل ، عويمر أبو الدرداء مشهور بكنيته وباسمه جميعا واختلف فى اسمه فقيل عامر وعويمر ، وبه جزم الأصمعي في رواية الكديمي عنه واختلف في اسم أبيه فقيل عامر أو مالك أو ثعلبة أو عبد الله أو زيد وأبوه بن قيس بن أمية بن عامر بن عدى بن كعب بن الخزرج الأنصاري الخزرجي ، أسلم يوم بدر وشهد أحدا وأبلى فيها قال صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد نعم الفارس عويمر وقال هو حكيم أمتى وقال الأعمش عن خيثمة عنه كنت تاجرا قبل البعثة ثم حاولت التجارة بعد الإسلام فلم يجتمعا وقال بن حبان ولاه معاوية قضاء دمشق فى خلافة عمر ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن زيد بن ثابت وعائشة وأبى أمامة وفضالة بن عبيد ، روى عنه ابنه بلال وزوجته أم الدرداء وأبو ادريس الخولانى وسويد بن غفلة وجبير بن نفير وزيد بن وهب وعلقمة بن قيس وآخرين ، مات أبو الدرداء وكعب الأحبار لسنتين بقيتا من خلافة عثمان وقال الواقدى وجماعة مات سنة اثنتين وثلاثين وقال بن عبد البر إنه مات بعد صفين والأصح عند أصحاب الحديث أنه مات فى خلافة عثمان ، راجع الاصابة فى تمييز الصحابة للعلامة شهاب الدين أحمد بن على بن حجر العسقلاني ت . ٨٥٢هـ - العين بعدها الواو رقم : ٦١٢١ - مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ .

٣- سنن أبى داود - الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ - دراسة وفهرسة كمال يوسف الحوت ، مركز الخدمات والأبحاث ١١ - ت/١١م باب فى الأدوية المكروهة - الحديث رقم : ٣٨٧٤ رواه عن محمد بن عبادة الواسطي ، عن يزيد بن هارون ، أخبرنا اسماعيل بن عياش ، عن ثعلبة بن مسلم ، عن أبى عمران الأنصارى ، عن أم الدرداء ، عن أبى الدرداء .

٤- كنز العمال للعلامة علاء الدين المتقى الهندى - ١٩٨٩ مؤسسة الرسالة ، دمشق ، تموز ١٩٩٣م الغية - الحديث رقم : ٨٠١٨ ، ورواه السيوطى فى الجامع الصغير باب التاء - الحديث رقم : ٣٢٧١ - ورواه أحمد فى

والــروايات فـــى مسألة إلا داء الهرم متعددة ويجئ فيها ذات اللفظ ، باعتبار أن الهـــرم لا عـــلاج له وإلا كان معناه إطالة عمر الإنسان الى مالا نهاية ، وذلك غير وارد .

وعـــن أبى سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله تعالى لم ينزل داء إلا أنزل له دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، إلا السام([1]) وهو الموت) فكلاهما لا علاج له ، وذلك مما اختص به البارئ جل علاه .

فالأحاديـــث الصـــحيحة الكثـــيرة لـــم تحدد نوع الدواء ، وإنما نبهت الى ضـــرورة معالجة الداء بما يناسبه من الدواء ما لم يكن حراما ، مع الأخذ بعين الاعتـــبار أن الشـــفاء لا يكون من الدواء ، وإنما من توفيق الله تعالى فى إصابة الـــدواء الهـــدف ، بحيث يمكن التعرف على أصل المرض ، وأعنى به امكانية تشـــخيص الـــداء ، وهما التشخيص والتداوى — من أنواع الطب ([2]). حسب ما ذكر أهل الاختصاص .

فـــإذا كـــان الإنسان البدائى فى الماضى قد حاول إيجاد علاج مرضه فى عصـــب رأســـه بعاصب مثلا ، أو بتر الجزء المريض بما يناسب ظرفه الراهن وطبـــيعة المـــرض ، فإن هذا العلاج البدائى المرهق قد تطور طبقا لضرورات الحياة حتى وصل الى الكى بالنار .

مسنده والأربعة [أبو داود ، الترمذى ، النسائى ، ابن ماجة] وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك عن أسامة بن شريك .

[1] - السام : من اسماء الموت ، السوم أصله:الذهاب فى ابتغاء الشئ فهو لفظ مركب من الذهاب والإبتغاء،وأجرى مجرى الذهاب،راجع معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهانى كتاب السين مادة سلم والجامع الصغير للسيوطى(تتمة باب حرف الميم) الحديث ١٧٨٣ ، ورواه الحاكم فى المستدرك.

[2] - الطب أنواع : الأول : التشخيصى ، والثانى الوقائى ، والثالث العلاجى أو الدوائى، وكل منها إما متعلق بالنفس ، وما هو من طبيعتها ، ويعرف بالطب النفسى أو متعلق بالأعصاب وما يتبعها ، وهو طب الأعصاب ، وأما ما يتعلق بالبدن وهو الهيكل الظاهرى ، ويسمى طب الأبدان ، والأخيرين تتبع فيهما العديد من أنواع العلاجات بالجراحة أو بالدواء دون جراحة ، أو هما معا ، أما الأول : وهو النفسى فلا علاج له بالجراحة وإنما بالتفريغ الشحنى ، وجلسات الاستماع ، أو التفريغ الكهربائى المخفف ، والدواء الكيميائى ، راجع الدكتور سبنسر كولز - الطب ومدارسه ونظرياته ص ٣ - ترجمة نهال حشمت ١٩٦٧م ، وتقسيمات ابن القيم للطب - أفضل من هذا - راجع الطب النبوى لابن القيم ص٧/٣ .

وفـــي وقتنا الحاضر تطورت أساليب العلاج فى الإنسان والحيوان ، بل والمنشــآت تطورا مذهلا ، يصعب على الباحث أو الكثيرين رصد مظاهره فى كل نوع منها ([1]) ، بحيث صار ذلك أمرا طبيعيا الآن ، ويعتبر من الأمور غير المألوفة بالنسبة لإنسان العصور الماضية ، الذى لم يكن قد عرف شيئا عن ذلك التقدم العلمى والتطور السريع .

وممـــا لا شك فيه أن الإنسان القديم قد عرف بعض أنواع الطب واستخدم لكل نوع منها اسما معينا كما استحدث له وسائل ، وكان ذلك فى حدود طاقته ، كمـــا عـــرف أنـــه ضرورة من ضرورات الإصلاح الحياتى معه ، وبخاصة ما يـــتعلق بالبدن ، بل ظل أمر الاصلاح معه ثابتا ، لكن طرائقه هى التى تغيرت ، وذلك التغير هو التطور الحضارى المقصود ، أما لماذا ؟ .

فلأن العرب ــ وهم من أقدم الأمم ، ذكروا أن طب الشئ هو اصلاحه من حـــاذق بـــه ، قادر عليه ([2]) ، وقالوا إن الطبيب هو العالم بالطب ، أما المستفيد منه وهو المتطبب به ، فهوالمتعاطي للفوائد التى يجمعها علم الطب ([3]) كما قـــالوا طـــب الحـــاذق المريض ، بمعنى داواه وعالجه ، فأحكم علاجه ومداواته باستوصـــاف الدواء الصالح له والعلاج النافع فيه ([4]) ، وكان ذلك من مفرداتهم الاستعمالية التى تعبر عن ثقافتهم الخالصة .

بـــل ذكـــرت مصـــادر العربية أن الطب هو علاج الجسم والنفس ، وعلم الطـــب هـــو الذى تدرس فيه مسائل هذه كلها ، اما الطبيب فهو من كانت حرفته الطب على سبيل الممارسة له فى التشخيص والعلاج وتصنيع الدواء لكونه عالما

---

[1] - الدكتور فوزى محمود أبو الحسن - التطور ضرورة الحياة ص ١٧ ، دار التوفيق ١٩٨٣ م.
[2] - المعلم بطرس البستانى - قطر المحيط - باب الطاء ، والمعجم الوجيز باب الطاء ، ولسان العرب لابن منظور .
[3] - العلامة الفخر الرازى - مختار الصحاح - باب الطاء ص٣٨٧ .
[4] - المنجد فى اللغة والأعلام - باب الطاء ، وكذلك معجم مقاييس اللغة للعلامة ابن فارس، وأساس البلاغة للزمخشرى .

به (١) . قادرا على ممارسته والقيام بأعبائه سواء أكان ذلك فى الناحية المعرفية أم على الطريقة العملية .

وإذا كـــان الأمر كذلك وأساليب التشخيص والعلاج قد تطورت على النحو الـــذى نلمســـه نحـــن الآن ، ويعرفه أهل التخصص الذين مازالوا يبحثون عن خـــباياه فـــإنهم قد أكدوا أنه سوف يستمر أمر التقدم فيه آخذا فى التطور السريع بغرض تحقيق أكبر فائدة للإنسان فى مواجهة الأمراض التى تهدد حياته .

من ثم فالتطور على هذا النحو أمر قائم ، ويمثل صورة للحضارة الراقية إذ بـــرقى الإنسان تعلو حضارته ، ولولا توفيق الله لذلك الإنسان العاقل النابه ما كانـــت حضـــارة ، لأنـــه العنصر الفعال فيها ، والمؤثر القوى الذى يحرك كل عناصرها الأساسية .

وقـــد أحســـن كثـــير من أهل الإسلام الذين بحثوا بعضا من جوانب هدى رســـول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد بن عبد الله فى فهم تلك النواحى ، باعتبار أن الإنسان مدفوع بفطرته الى تدبير أمور معاشه ، ورعاية مصالح بدنه وهـــى فطـــرة فطـــره الله علـــيها ، ليمضى الى ما يراد له من عمارة الكون ، وتطويـــر الحـــياة ، وأن الإنسان قد سلك الى ذلك دروبا مختلفة ، تبعا لحظه من الجهل والمعرفة والبداوة أوالحضارة (٢) ، وغير ذلك من الأمور التى يتعلق بها لب التقدم الحضارى .

وممـــا لا شك فيه ، أن العرب وغيرهم قد لجأوا فى الماضى الى التداوى بالأعشـــاب والعقاقير البسيطة ، التى وفقهم الله تعالى اليها ، ثم جاءت على نفس المـــنوال الـــتجارب المستمرة التى لم تنقطع مراحلها ، وأنهم ربما استخدموا فى

١- المعجم الوجيز - باب الطاء ص ٣٨٥ - ط وزارة التربية والتعليم ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م .

٢- الدكتور محمود محمد الطناحى - نبذة فى تاريخ الطب العربى ص ٣ - مقدمة كتاب الطب النبوى لابن القيم ، وهى مقدمة رائعة ، وفيها الكثير من الوفاء بالمقصود .

علاجاتهم إحماء شفرة على النار لتطهيرها وتعقيمها ، ثم قطعوا بها ذلك العضو المراد بتره .

بل إنهم استخدموا طرائق الحجر الصحى وعرفوه باسم العزل الإجبارى ([1]) ، كمـا عـرفوا العـزل الاختيارى عندما يراد تنظيم عمليات الإنجاب ، أو المحافظة على صحة الأم أو ضبط اقتصادياتهم على ناحية سليمة .

ومن المؤكد أن الطب النبوى قد وضع أصول ثابتة استفادها أهل الإسلام مـن النقل المنزل ، وأن غيرهم قد استفاد هو الآخر من ثقافة أهل الإسلام ، ثم جـربوا معها وتطورت بفضل الله تعالى معهم نتائج هذه الأصول الأولى ، فألفوا فى جميعها والتعريف بها ([2]) ، وكيفية استخدامها على سبيل التداوى والاستشفاء ثـم سـجلوا ذلـك فـى مؤلفات عديدة حملت سماتهم وراحت تعبر عن ثقافتهم الإسلامية الأصيلة .

ونحـن المسلمين لا ننكر هذا التطور الحضارى ، وإنما نؤكد وجوب أن يكـون خاضعا للأصول الشرعية ، نعم مصلحة الإنسان غرض أصيل ، وهدف قـائم وغايـة نبـيلة ، لكنها إذا خرجت عن الطريق الصحيح ، بحيث ينتفع بها الـبعض القلـيل ويتضـرر بها الجمع الكثير ، فإن الحال فيها من ناحية الحكم الشرعى يختلف طبقا للقاعدة الأصولية التى جاءت فى الحديث الشريف من قول سيدنا محمد المعصوم صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار) ([3]) .

---

[1] - الدكتور ماجد حسن - الطب عند العرب ص ٤٥ - وراجع مقدمة الطب النبوى ص ٧/٤ .

[2] - راجع فى ذلك الشأن - الطب النبوى لأبى بكر بن البستى ، وكذلك الطب النبوى لأبى نعيم الأصفهانى ، والطب والأمراض لابن عاصم ، والأحكام النبوية فى الصناعة الطبية لأبى الحسن على بن عبد الكريم الحموى ، والطب النبوى للحافظ شمس الدين أبو عبد الله الذهبى ، وزاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم ، ففيه أصول جميلة عن الطب النبوى ، والطب النبوى أيضا له الى غير ذلك من الكتب المتخصصة فى بيان ملامح ذلك الهدى النبوى ، والتى استفادها المسلمون منه وطوروا فى النتائج والمعطيات على النحو الذى حقق فوائد كثيرة شملتهم وغيرهم ممن استفاد بآثارهم .

[3] - أخرجه ابن ماجه فى الأحكام ص ١٧٠ - باب من بنى فى حقه ما يضر بجاره ، رواية يحيى بن الوليد بن عبادة عن جد أبيه عبادة بن الصامت ، وأخرجه الدار قطنى فى الأقضية ص٢٢٥ ، وروى الحاكم فى المستدرك فى البيوع جـ٢ ص ٥٧ : (عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : لا ضرر ولا ضرار ، من ضر ضره الله ، ومن شق شق الله عليه) وأخرجه مالك فى الموطأ فى باب القضاء فى المرافق ص ٣١١ ، وراجع =

وبـــناء علـــيه ، فإن الاستنساخ أو اللعب بالجينات الوراثية ، بحيث يؤدى الـــى اخـــتلال متوقع فى بعض وظائف الإنسان ـــ حتى ولو كان قليلا ـــ منهي عـــنه شرعا ، ولا يدخل فى نطاق التطور الحضارى المشروع ، وإنما يدخل فى دائرة العدوان على ما خلق الله تعالى ، بغرض الإفساد وهو من أعمال الشيطان ، وقد نهي الله تعالى عن إتيانها .

فقـــال تعالى : (* إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ *) (١) إذ المبادلة يجب أن تكون فى المثلية ومادام الشيطان قد سلك معكم طريق العداوة وكفر بالله فلم يعد يحرص علي مودته أحد ، بـــل بالأحـــرى يجـــب أن تقوم فى النفوس الصحيحة العداوة له لأن من يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا وهو من أهل النار .

وقـــس علـــى التطور الحضاري المشروع ما جاء مع نبى الله نوح عليه السلام من صناعةالسفن بكل ما فيها من دقة ومهارة فنية ، جعلت ظالمي أنفسهم فـــى عصره والكافرين به يرمونه بالسفه ، وهو مما رموه به برئ ، ويسخرون منه ولم ينقطع الأمر إلا بالطوفان ، قال تعالى (* وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ*)(٢) .

ب الراية للزيلعي ، باب ما يحدثه الرجل فى الطريق قال صلى الله عليه وسلم (لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام
راجع أيضا مجمع ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧ بتحرير
الفاضلين الجليلين : العراقى وابن حجر ـ دار الفكر ، بيروت ١٤١٢هـ/١٩٩٢م ـ ٦٥ ، باب لا ضرر ولا ضرار ـ
يث ٦٥٣٦ من رواية جابر بن عبد الله ، ورواه الطبرانى فى الأوسط ص ١٩٩ .
سورة فاطر الآية ٦ ، إن الشيطان قد أعلن عداوته لكم منذ اللحظة الأولى حين قال لله لأتخذن من عبادك نصيبا
يضا ، أو حين قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فعادوه واحرصوا من كيده وأذاه .الشيخ
د نجيب عبد العظيم ، تفسير سورة فاطر ص ٢٩ .
سورة هود الآيتان ٣٨/٣٩ ، وراجع فى ذلك الشأن تفسير الجواهر للشيخ طنطاوى جوهرى ، وكذلك مفاتيح
ب للفخر الرازى ، والتحرير والتنوير للشيخ طاهر بن عاشور ، وغيره مما عنى بالحديث عن وصف سفينة
ا نوح عليه السلام .

قــال الشيخ البروسوى : كان نوح عليه السلام نجارا ، فجاء جبريل عليه السلام وعلمه صنعة السفينة (١) ، التى ركب فيها وأخذ معه من آمن بالله ، بيانا لإنجــاء الله إياهم ، وتأكيدا على أن وعد الله لا يتخلف ، وأن نصره للمؤمنين لا يــنقطع وهزيمــته للكافريــن أمر حتمى ، قال الله تعالى :(* إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ *) (٢) .

ولا شــك أن صــناعة السفن قد تطورت منذ زمن سيدنا نوح عليه السلام الــى يومنا هذا تطورا سريعا وكبيرا وبخاصة في هذا العصر ، الذى نسمع فيه ونشاهد السفن العملاقة ، التى تستخدم فى الأغراض المختلفة سلما وحربا ، نقلا للبترول والصناعات القائمة عليه والحبوب والصناعات القائمة حولها .

بــل يمكــن القول بأنها بجانب نقل الركاب تنقل كل ما يخرج من باطن الأرض ، أو يوجــد على ظهرها أو يتم تصنيعه سلما وحربا ، وتقوم الآن بمهام مــا كانت فى ذهن أحد من البشر قبل ذلك ، ولكن عمليات التطور المستمر لها ســواء أكــان فــى جسمها أم فى طبيعة عملها — الى غير ذلك — لم تتوقف ، وأظــنها ســتظل آخــذة بعناق التطور الحضارى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وكذلــك الصناعات التى يسر الله تعالى لسيدنا داود عليه السلام أمرها (٣) مــن صــناعة الدروع وآلآت الحرب ، ووسائل إمداد الجنود بما يحتاجونه الى

١- العلامة الشيخ إسماعيل حقى البروسوى - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان، م٤ ، جـ٢٧ ص١٩١ .

٢- سورة غافر الآية ٥١ .

٣- هو داود بن ايشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن نحشون بن عوينانب بن ارم بن حصرون ابن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس، قال محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام قصيرا أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله فيما ذكر ابن عساكر عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو اسرائيل ومالوا اليه والى تمليكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان وصار الملك الى داود عليه السلام ، وجمع الله له بين الملك والنبوة بين خير الدنيا والآخرة ، وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فاجتمع لداود هذا وهذا الأمر قبله بحيث يكون كما قال الله تعالى وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين . أى لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم ولهذا جاء فى بعض الآثار السلطان ظل الله فى أرضه، وقال أمير المؤمنين عثمان بن =

غـير ذلـك ممـا ألمح إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : (* وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ *) ([1]) .

قال العلامة الفخر الرازى: فى الآية دلالة على أن أول من عمل الدروع هـو نـبى الله داود علـيه السـلام، ثم تعلم الناس منه ذلك، فتوارث الناس عنه صناعتها فعمت النعمة بها المحاربين من الخلق الى أخر الدهر، فلزمهم شكر الله تعـالى علـى النعمة التى يسرها عليهم، وكانت قبل داود صفائح، فهو أول من سـردها واتخذهـا حلقا، وأن الله تعالى ألان الحديد لداود، بحيث يعمل منه بغير نـار كأنـه طيـن ([2]) فيعمل منه ما يشاء دون الحاجة أن يلحق بداود شئ من العناء.

وقـال الإمام ابن كثير: قال الحسن البصرى وقتادة والأعمش: كان الله قد ألان الحديـد له حتى كان يفتله بيده لا يحتاج ذلك الى نار ولا مطرقة، قال قتادة فكـان أول من عمل الدروع من زرد ([3]). وإنما كانت قبل ذلك من صفائح، قال ابن شوذب كان يعمل كل يوم درعا ويبيعها بستة الآف درهم.

عفان إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن وقد ذكر بن جرير فى تاريخه أن جالوت لما بارز طالوت، فقال اخرج الى واخرج اليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت قال وهب بن منبه فمال الناس الى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود وقيل إن ذلك كان عن أمر شمويل حتى قال بعضهم أنه ولاه قبل الواقعة، قال ابن جرير والذى عليه الجمهور انه إنما ولى ذلك بعد قتل جالوت والله أعلم ، وروى ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم وأن النهر الذى هناك هو المذكور فى الآية فالله أعلم وقال تعالى ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد أن إعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير . وقال تعالى : وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون واعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء وارشده الى صنعتها وكيفيتها فقال وقدر فى السرد أى لا تدق المسمار فيقلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد وقتادة والحكم وعكرمة . راجع البداية والنهاية لابن كثير ـ ١١٢/٦ .

[1]- سورة الأنبياء الآية ٨٠ .

[2]-الإمام الفخر الرازى ـ مفاتيح الغيب ـ م ١١ جـ ٢١ ص ١٧٣ ـ دار الفكر العربى ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

[3]- زرد: الزرد والزردة: حلق المغفر والدرع، والزردة، حلقة الدرع والسرد ثقبها، والجمع زرود، والزراد صانعها وقيل: الزاى فى ذلك كله بدل السين فى السرد والسراد والزرد مثل السرد، وهو تداخل حلق الدرع بعضها فى بعض، والزرد، بالتحريك: الدرع المزرودة، وزرده: أخذ عنقه وزرده بالفتح يزرده زردا: خنقه فهو مزرود والزراد، خيط يخنق به البعير لئلا يدسع بجرته فيملأ ركبه.

وقد ثبت فى الحديث أن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده ([1]) فدل الأمر على أن نبى الله داود قد ضرب فى التطور الحضارى على جهة المنافع بسهم وافر، وأنه قدم خدمة كبيرة لبنى الإنسان، طبقا لتعاليم رب العالمين .

وقال تعالى: (* وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ * أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ *) ([2]).

قال العلامة الزمخشرى: وجعلنا من الحديد الصلب له كالطين اللين والعجين والشمع يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ولا ضرب بالمطرقة، وقد أعطى الله لداود الشدة والقوة فصار يصنع من الحديد الدروع الواسعة الضافية، حتى تقى صاحبها فى الحرب من بأسها، وكان يبيع الدرع منها بأربعة الآف فينفق منها على نفسه وعياله ويتصدق على الفقراء، وكانت الدروع التى يصنعها من غير نار مريحة للابسها، فلا مساميرها بارزة فتغلق ولا غليظة فتفصل الحلق عن بعضها وهو دلالة على جودة الصنعة والإتقان ([3]).

وقد تعلمها الناس فيما بعد وأضافوا اليها عن طريق التطور المستمر فيها، واستخدام الوسائل التى تعين على ذلك العمل إنتاجا وإتقانا، مع المزيد من الإضافة اليها طبقا لما هو معروف من أن اللاحق يضيف الى السابق ويطور فيه بقدر طاقته.

---

[1]- البداية والنهاية، الإمام ابن كثير - قصة داود وما كان فى أيامه ثم فضله وشمائله ودلائل نبوته واعلامه - دار الغد العربى.

[2]- سورة سبأ الآيتان ١٠/١١.

[3]- العلامة محمود بن عمر الزمخشرى - الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل - م ٣ ص ٥٧١ - دار الريان .

وقــد امتدت تلك الصناعات مع سيدنا سليمان ([1]) بن نبى الله داود عليهما السـلام، بـل أنهـا تطـورت عن تلك التى كانت مع أبيه داود، قال تعالى (* ولسُـلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَــنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ * يَعْمَلُــونَ لَــهُ مَا يَشَاءُ مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ *) ([2]).

قـال العلامة البروسوى: كانت الريح تجرى بأمره فى اليوم الواحد مسيرة شهرين للراكب وأذاب الله له عين القطر وهو النحاس، حيث سال من معدنه كما ألان الحديــد لداود، فنبع منه نبوع الماء من الينبوع ولذلك سمى عينا، كما سخر الله له الجن يشتغلون له مايشاء بجد واجتهاد، ومن يحاول التكاسل أو الميل عن الاسـتقامة مــنهم فــإن الله أعطــى نبيه سليمان سوطا من نار كان بيده، كلما استعصــى علـيه الجــنى ضربه من حيث لا يراه ضربة أحرقته بالنار، فكانوا يعملون له ما يشاء من محاريب ([3])، وهى القصور الحصينة .

---

[1] - هو سليمان بن داود بن ايشا بن عويد بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهودا بن يعقوب بن ابراهيم أبى الربيع نبى الله بن نبى الله ، جاء فى بعض الآثار أنه دخل دمشق قال ابن ماكولا فارص بالصاد المهملة وذكر نسبه قريبا مما ذكره ابن عساكر قال الله تعالى وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ إن هذا لهو الفضل المبين أى ورثه فى النبوة والملك وليس المراد ورثه فى المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخصه بالمال دونهم وأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه سلم قال لا نورث ما تركناه فهو صدقة وفى لفظ نحن معاشر الأنبياء لا نورث، فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل تكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحتاجين لا يخصون بها أقرباءهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير يعنى أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وإرادتها.

[2] - سورة سبأ الآيتان ١٢/١٣.

[3] - المحاريب جمع محراب ويطلق على الغرفة، وعلى صدر البيت وإكرام موضعه، كما يطلق على مقام الإمام من المسجد، ويطلق على الموضع الذى ينفرد به الملك فيتباعد عن الناس، راجع القاموس المحيط باب الباء فصل الحاء.

وتماثيل وهى صور الغير (١) ، من زجاج ونحاس ورخام وغيرها، كما يعملون له الجفان ، وهى القصاع العظيمة كالحياض الكبار، وهى كالجوابى التى تجتمع فـيها المـياه، وقدور ثابتات على الأثافى (٢)، بحيث يتم طبخ اللحم فيها لا تنزل عـنها لعظمتها ولا تتحرك من أماكنها(٣) وقد طور الناس فى ذلك كله بعد نبى الله سـليمان بـن داود عليهما وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم على النحو الذى يراه القاصى والدانى.

فالـزراعة والصـناعة وغيرهما من المهن والحرف، والعلوم والمعارف التى تعين على أن يعيش الإنسان فى رفاهية، قد جاءت بها إشارات صريحة مع الأنبياء والمرسلين، وربما قامت أصولها بين أيديهم على النحو الذى أشرت الى طـرف مـنه، ثـم أنهـا آخذة فى التطور المستمر، بحيث تستوعب احتياجات المخلوقين، وذلك أمر مقرر فى الشريعة الإلهية.

وبالـتالى، فما كان لصالح الإنسان وحثت عليه الشريعة الإسلامية الغراء وجـب الأخـذ بـه والتعاون فيه، طبقا لما شرع الله تعالى. وما كان منها لغير صـالح المخلوقات طبقا لما نهت عنه الشريعة الإسلامية فيجب الانصراف عنه،

١- وكانت التصاوير مباحة، وبالتالى فتحريمها شرع جديد إذ كان اتخاذ الصور قبل أمة الإسلام مباحا، فلما عبد الناس هذه التماثيل حرمها الله تعالى، اشتغالا بها واستخداما لها وعبادة، وفى الحديث الشريف: قال صلى الله عليه وسلم (من صور صورة فإن الله معذبه، حتى ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ أبدا) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى - راجع الفتح الكبير جـ٢ ص٢٠٩، وهذا يدل على أن تصوير ذى الروح حرام شرعا وأما ما لا روح فيه فرخص البعض فيه مع الكراهة على ناحية الاشتغال به لأنه لا فائدة من ورائه.

٢- قال ابن منظور: الأثافى: هى الحجارة التى تنصب وتجعل القدور عليها، والهمزة فيها زائدة، وثفى القدر وأثفاها، جعلها على الأثافى وثفيتها: وضعتها على الأثافى، وأثفت القدر أى جعلت لها أثافى...، والأثافى يعنى الجبل، لأنه يجعل صخرتان الى جانبه وينصب عليه وعليهما القدر، فمعناه رماه الله بما لا يقوم له.....قال أبو عبيدة: الأثافى القطعة من الجبل يجعل الى جانبيها اثنتان، فتكون القطعة متصلة بالجبل والأثفية حجر مثل رأس الإنسان وجمعها أثافى بالتشديد، قال: يجوز التخفيف وتنصب القدور عليها، وما كان من حديد ذى ثلاث قوائم فإنه يسمى المنصب ولا يسمى أثفية، ويقال: أثفيت القدر وثفيتها إذا وضعتها على الأثافى، والأثفية: أفعولة من ثفيت، كما يقال أدحية لمبيض النعام من دحيت، راجع لسان العرب لابن منظور، مادة ثفا، وقال ابن الأثير: أثف، فى حديث جابر (والبرمة بين الأثافى) وهى جمع أثفية وقد تخفف الياء فى الجمع، وهى الحجارة التى تنصب وتجعل القدر عليها ويقال إذا جعلت لها الأثافى وثفيتها إذا وضعتها عليها، والهمزة فيها زائدة، وقد تكررت فى الحديث، راجع النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير - م١ حرف الهمزة، باب الهزة مع الثاء .

٣- الشيخ إسماعيل حقى البروسوى - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان م٣ ص٢٦٥، اختصار الشيخ محمد على الصابونى - دار الصابونى .

وهو الاتجاه الذى أراه مقبولا فى المسألة، ولا ممانعة فيه، لورود ظواهر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية به، كما أن فقهاء المسلمين قد تمسكوا به شرحا وحرصوا عليه تنفيذا.

وهذا التطور الحضارى غير البيولوجى الذى يعتبر الإنسان ذاته أحد موضوعاته الهامة، ويعرف باسم التطور الحيوى، كما أن التطور الحضارى أعم من التطور العقلى ومن غيره، وبالتالى، فالتطور العقلى هو تطور فكرى لجانب منه، كما أن التطور الوجدانى العاطفى غير التطور الحضارى، الذى يجمع بين الثقافة والمدنية، ويتفرع عن كل منهما ما يتعلق به على وجه من الوجوه.

الثامن: التطور الأحيائى العضوى :

وهو يقوم على أن الكون كان مادة جامدة صماء عمياء ، وأن هذه المادة غير الحية قد نشأت عنها الحياة فى أبسط صورها باعتبار أنها مادة هولامية، ثم تطورت من نفسها الى كائنات بسيطة... ، ومنها اشتقت باقى أجزاء الحياة المختلفة ([1]) ، كما يعرف بأنه نمو الكائنات عبر الزمن من طريقة التباين فى البقاء داخل كل جيل من أفراد النسل ذات الصفات المعينة ([2]).

وربما عرف بأنه استخلاص أنواع جديدة من الكائنات الحية من أنواع كانت موجودة سابقا([3])، ويسمى التطور العضوى حيث اقتصر الحديث فيه بعد ذلك على عالم الكائنات العضوية، التى تشمل النبات والحيوان والإنسان، ولا

---

[1]- إدوار دونس - التطور عمليته ونتائجه ص ١٣٧، ترجمة حنان رزق والترجمة الثانية الدكتور أحمد مستجير، ودكتور جوهان دوشلر- الحياة فى الكون كيف نشأت وأين توجد ؟ ص٧٥ - ترجمة الدكتور عيسى على عيسى- الهيئة المصريه العامة ١٩٨٨م.

[2]- لرمان وبيترلى، بارسونز - وراثة وتطور السلوك ص٤٥٧ ترجمة دكتور أحمد شوقى حسن والدكتور رمزى على العدوى - دار ماكجرو هيل للنشر ، ط العربية ١٩٨٣.

[3]- الدكتور ليث عبد الجليل والدكتورة زينب ابراهيم الحسينى، علم التطور ص١١، ط البصرة١٩٨٥، وراجع وراثة وتطور السلوك ص٤٥٩، ولإدوار دونس التطور وعمليته ونتائجه ص٥.

يشـــمل الموجودات غير العضوية، ويسمى التطور العضوى كما يسمى التطور الإحيائى. وربما سمى التطور الخاص فى مقابلة الآخر وهو التطور العام .

وهــذا الــنوع مــن التطور يركز على أنه كان هناك مادة هولامية غير محمــددة المعــالم لكــنها جامدة صماء لا حركة فيها ولا حياة ثم حدث أن خلية واحــدة ، انفصــلت عــن المادة الصماء الخرساء فصارت مادة حية عن طريق التلقائــية المفاجــئة ، ثم أخذت هذه الخلية فى التطور الذاتى، وقد نشأ عنها تولد حــركى داخــل الخلية ذاتها، وظلت هذه العملية التطورية في رقى مستمر حتى صارت ذلك الإنسان الذى نراه ونعرفه بعقله وعواطفه وفكره وثقافته، وذلك كله مــن خــلال التولد الذاتى أو المصادفة الناتجة عن طريق عمليات تطورية من الشرارة الأولى الأصلية للحياة .

وهــو الأساس الذى تقوم عليه فكرة التطور الداروينية كلها ([1])، وقد عنى بــذات الفكــرة كل من لامارك الفرنسى([2]) ، وأرنست هيكل([3]) ثم ألفرد راسل والاس الانجلــيزى([4])، وفــيهم جمع من أمثالهم الذين كان على رأسهم تشارلز دارون، وقد عرفت الفكرة به وانتسبت اليه أيضا.

حيث كان يقول: (إننى لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التحول وأن الأنــواع التى تلحق بما نسميه الأجناس اصطلاحا، إنما هى أعقاب متسلسلة عن أنــواع قــبلها، طواهــا الانقــراض الطبيعى على نفس الطريقة التى تعتبر بها

---

[1]- الأستاذ/ وحيد الدين خان - الدين فى مواجهة العلم، ص٩٧

[2]- عاش ما بين عامى ١٨٢٩/١٧٤٤، وكان باحثا فى العلوم الطبيعية وراجع له الاسلام يتحدى ص ١٤١ ونادى بفكرة التطور العضوى، ورغبة منه فى تكثيف تلك الجهود، ظهر له فى المسألة كتاب اسمه فلسفة الحيوان، يغذى الفكرة ويدعو الى التعرف عليها، عرض فيه الفكرة ودافع عن الاحتمالات التى تعارضها، وقد صدر هذا الكتاب عام ١٩٠٨، راجع مقدمة أصل الأنواع التى كتبها الأستاذ اسماعيل مظهر.

[3]- هو أرنست هيكل، من أبرز كتبه فى هذا المجال فصل المقال فى فلسفة النشوء والارتقاء - ط القاهرة ١٩٢٤م.

[4]- عاش ما بين ١٩١٣/١٨٢٣، وكان باحثا فى العلوم الطبيعية واستفاد من داروين وتعرف على أفكاره، وكان له فى دعم الفكرة جهد كبير، راجع تاريخ الفلسفة الحديثة للأستاذ يوسف كرم ص٣٥٢

الضروب التابعة لأى نوع أعقابا متسلسلة عن ذلك النوع ذاته ([1]) وأنها قد تمت فـــى مراحلها الأولى واستمرت فى نفس الطريق دون حاجة الى أمر خارج عن ذاتها فهى هكذا دون انقطاع.

والملاحـــظ إن زعمـــاء هـــذا النوع من التطور يذهبون الى القول بأن العمليـــات التطورية تجئ على قدر متسق سواء أكان ذلك فى مجال التطور العام أم التطور العضوى، وإن ذلك كله يتم من غير استناد الى أمر غيبى أو قوة غير مرئية يمكن أن ينسب اليها شئ من تلك الأحداث، حتى لو كان ذلك الأمر الغيبى هو الله نفسه ([2]).

ولا شـــك أن هـــذا الفهم الخاطىء والتعبير الساذج هو عين الضلال الذى ســـار فـــيه أصحاب هذا الفكر حتى بلغ الالحاد فيهم مداه. ولكنهم استخدموا اسم العلم فى هذا السبيل ،ومن ثم يمكن تصنيفهم تحت اسم أصحاب الالحاد العلمى .

أمـــا نحن المسلمين فنؤمن بأن كافةالمخلوقات إنما تتم على وجه الاحكام مـــع الإتقان لله تعالى رب العالمين، وتظهر فيها حكمة اللطيف الخبير الذى خلق كـــل شـــئ وقـــدره، كمـــا نعتقد بأن العناية الإلهية هى التى أوجدت الحياة بكل أطوارهـــا فـــى سلسلة من الخلق المستمر ولكها تمت بقدرة الله تعالى ([3]) التامة وإرادتـــه الشاملة وعلمه المحيط النافذ، قال تعالى: (*إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ* وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ*)([4])

قـــال الشـــيخ البروسوى: (إنا كل شئ من الأشياء الموجودة، خلقناه بقدر متعين اقتضته هذه الحكمة التى عليها يدور أمر التكوين ، لأن كلمة بقدر معناها الـــتقدير وهـــو تســـوية صورته وشكله وصفاته الظاهرة والباطنة، على مقدار

---

[1]- تشارلز داروين - أصل الأنواع ص١١٩ - ترجمة وتقديم الأستاذ اسماعيل مظهر ط القاهرة . وراجع ليرايل كاردينز ، هؤلاء درسوا الانسان ص ٧١/١٧ ، دار الثقافة العربية .

[2]- دى برولية، الفيزياء والميكروفيزياء ص١١٩.

[3]- كريسى موريسون - العلم يدعو للإيمان ص ١٠٩ ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكى ط٥.

[4]- سورة القمر الآيات ٤٩ / ٥٠ .

مخصـــوص اقتضـــته الحكمة، وترتبت عليه المنفعة المنوطة بخلقه، لأنه مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ قبل وقوعه فلا يتغير ولا يتبدل([1]) وذلك فعل اللطيف الخبير جل علاه.

ثـــم إن هذه الأفكار التى قال بها أصحاب التطور الإحيائى العضوى كان لهـــا التأثـــير السلبى المتساوى معها فى مجال العلوم البيولوجية، لا لأنها فتحت بـــاب البحث فى مجال كان مغلقا، وإنما لأنها أحدثت ثورة فىنفوس القائمين بها والمقلديـــن لهـــم فـــى ناحـــية الدين والقيم والأخلاق، بل هزت ثوابت كثير من الأنظمـــة الإحيائـــية على النحو الذى يدركه المعنيون بذلك النوع من الدراسات البحثـــية ، ومـــن ثـــم كان لها الكثير من الخصوم على الناحية العلمية والناحية الدينية ثم الناحية الأخلاقية أيضا ([2]).

ولمـــا كانـــت أنواع التطور متعددة، وكل نوع منها يحتاج دراسة مستقلة مـــتكاملة، فـــإنى خصصـــت هذه الدراسة للتطور الإحيائى البيولوجى وحده([3])، وســـأحاول عرض فكرة التطور الأحيائى من خلال الأفكار التى تقوم عليها، ثم أحـــاول مناقشـــتها علـــى الجوانب التى يوفقنى الله تعالى اليها وما ذلك على الله بعزيز.

فـــى نفس الوقت فإن فكرة التطور الإحيائى على الناحية البيولوجية تعتبر أحـــد المظاهـــر الفلسفية فى مجال العلوم الطبيعية وهو الميتافيزيقا النقدية، ولذا، اعتـــبرها الـــبعض احـــد معالم الفلسفة الحديثة فى القرن التاسع عشر([4])، بينما

---

[1] - الشيخ اسماعيل حقى البروسوى - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - م٤/جـ٢٧/ص١٩٨

[2] - سوف أتعرض لبعض الأنصار وشبهاتهم، والخصوم وأدلتهم، ذلك إذا يسر الله تعالى وأمد فى العمر وجعل الصحة على نحو ما أتمكن به من البحث والدراسة، فكل شئ عنده تعالى بمقدار.

[3] - لأن التطور الإحيائى يشمل كافة العوالم، كالنبات والحيوان والإنسان، أما البيولوجى: فإنه لا يشمل سوى الإنسان والحيوان، ولخطر هذا النوع من الاعتقادات الفاسدة على الدين والعقيدة والقيم والأخلاق كبيرة، وهو ما دفعنى الى تخصيصه وحده بالكتابة الآن، ولأنها أفكار شاذة ونتائج كاذبة قامت على مجرد التخمين والخيال.

[4] - يمكن مراجعة ذلك فى كتابنا خواطر حديثة فى الفلسفةالحديثة ص١٩٥، وأيضا كتابنا قضايا حبيسة فى الفلسفة الحديثة، فقد أشرت الى تلك الأقوال وناقشتها قدر طاقتى وتوفيق الله تعالى لى.

اعتـــبرها آخرون فتحا علميا فى مجال البيولوجيا والهندسة الوراثية يكشف عن نـــتائج إيجابـــية تخدم البشرية فى الأيام المقبلة[١] ، لأنه سيقدم خدمة علمية فى جانـــب فـــيزيائى [٢] مـــا زال بحاجـــة الىالمزيد من حرية البحث فى الكائنات المختلفة احيائيا ، وامكان النظر فى منشأ وجودها وتفسيره على ناحية علمية.

ويذهـــب أحد الباحثين [٣] الى أن التطور ينقسم باعتبارات مختلفة ومن ثم صـــار لكـــل نـــوع أو اعتبار موضوع مستقل ، كما صار للتطور فى كل منها تعريف مستقل أيضا ، وأبرز هده التقسيمات ما يلى :

التقسيم الأول : باعتبار الفردية والنوعية : -

أمـــا الفردى : فيعرف التطور بأنه النمو الحاصل لكل فرد على حده، وهو انتقال المبدأ الداخلى من حالة الكمون الى حالة الظهور بعد نهاية كماله بحيث لا يكـــون هناك كمال أعلى منه. وهو تعريف قريب جدا مما هو ثابت فى المصادر العربية.

وأمـــا النوعى : فهو القائم بالمجموع لا بالأفراد وبكيفية الطريق الذى تمر به الأنواع حتى تبلغه، وكل نوع منها يجئ على حده، ثم إن الفرق بين الفكرتين كبـــير، باعتـــبار أن الفكرة الأولى تعتبر نظرة جزئية، حيث تختص بالفرد وحده فـــى حيـــن أن أصحاب الفكرة الثانية يعتبرون نظرتهم شاملة للنوع بأكمله وذلك مـــن حيث تاريخه الطويل [٤].ولكن هذا التقسيم عليه انتقادات كثيرة ، بل هوجم بأنـــه مجرد تقسيم نظرى ، لا علاقة له بالواقع العملى ، فضلا عن أن يكون له وجـــود حقيقى داخل اطار الأفكار التطورية ، أو الأحيائية [٥] وما دام هذا النوع من التقسيم قد سقط اعتباره فلا عبرة به عند التطوريين على أقل تقدير .

١- جاكوب برونوفسكى- التطور الحضارى للإنسان - ارتقاء الإنسان ص١٣.
٢- أ. ب برونسكى- الكائن الحى والتطور البيولوجى ص١٩- ترجمة الأستاذ أنسى عبد الملك منصور .
٣- هو الزميل فتحى عبد الرحمن الحوفى جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الإلهيات ص ١٨٠
٤- الدكتور أنور العجمى - مقدمة فى علم الوراثة والتطور ص١١، كلية العلوم قسم الحيوان، جامعة الزقازيق.
٥- الدكتور فؤاد محمد طلبه ، التطور والفكر المعاصر ص ٥٧ ، دار الفؤاد ١٩٩٩.

الثانى : باعتبار العموم والخصوص :

والمـــراد بـــالعموم أو التطور العام ما يمكن تطبيقه على الكون كله، بما اشـــتمل عليه من مادة قوية أى كائنات حية وغير حية([1]) ويسمى التطور الكونى العـــام ، أمـــا المراد بالخصوص أو التطور الخاص: فهو التطور العضوى([2]) ، حيـــث يقتصـــر الحديث فيه على التطور فى عالم الكائنات العضوية التى تشمل النـــبات والحيوان والإنسان فقط ولا يدخل فيه غيره .([3]) بمعنى أنه صار خاصا بالتطور الأحيائى وحده ، دون اعتبار لشئ اخر .

أمـــا لماذا ؟ فلأن أنواع التطور المرتبطة باللغة والسلوك أو المعارف إنما تـــتم معالجتها من خلال المفاهيم التى تجئ فيها، ولا تعلق لها بالعقيدة الإسلامية إلا فـــى بعـــض الأشكال الظاهرة ذات التلاقى الدلالى فى بعض الأحيان فقط ، ومـــن ثـــم فقد تجد نوعا من القبول المشروط ، وقد يلاقيها الرفض المطلق وهو شـــأن كل القاضايا أو الأبحاث التى تكون اللغة صاحبة دور كبير فيها أو يكون للتعاقدات الاجتماعية وجود داخلها.

أمـــا ما يتعلق بالعقيدة الإلهية فالأمر مختلف تماما لأن العقيدة الصحيحة هـــى صـــلب حياة المرء وما يملك ، وإنسان بلا عقيدة صحيحة كالجسد الذى لا روح فـــيه، يـــتعامل الناس معه على ما فيه من أوجه القصور المتعددة ([4])، فلا يـــنظرون اليه على ناحية متكاملة أبدا، وفوق ذلك فإن الأمر متى تعلق بالعقيدة

---

[1]- فتحى عبد الرحمن جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية فى الالهيات ص ١٨٠

[2]- والعموم والخصوص فاصل كبير لكنه قد يكون من جهة العموم المطلق أو النسبى ، ومن ثم فلابد من النظر الى جانب هام ، وهو أن أصحاب القول بالتطور العضوى الأحيائى البيولوجى لا يعترفون بالتطور الكونى العام الا عند المجادلة فقط ، وبالتالى فالعلاقة بين التطور الكونى العام ، والتطور العضوى الأحيائى لدى التطوريين انما هى علاقة مباينة.

[3]-الأستاذ/ فتحى عبد الرحمن ، جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية وقد عزا الكلام الى الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه الانسان فى القرآن ص ١٨١، ص ٦٥.

[4]- هذا اذا تعامل الناس معه، اذ الغالب أن العقلاء يفرون من صاحب العقيدة الفاسدة فرارهم من الأجرب ، وصاحب المرض المعدى ، لأن العقيدة الألهية فطرة فطر الله الناس عليها ، قال تعالى " فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " سورة الروم الآية ٣٠ .

الإلهــية وحاول اصحابها تجاوز حدودهم فى التعبير عن هذه العقيدة، أو حاولوا القفز فوق ذات الموقع فإنها تكون محاولة خاسرة واتجاه أشد منها خسرانا.

بــناء عليه فإن المفكر المسلم يقف بالمرصاد لذات المحاولات التى تهدف الـــى النــيل مـــن العقــيدة الإلهــية تحت أى مسمى، ويعمل على مناقشتها فى موضـــوعية تامـــة ، ثم اذا انتهى الى اثبات قيامها على غير أدلة أو قيامها على شبهات لاتنهض أمام قضايا العلم الصحيحة القائمة على المعرفة السليمة والنتائج المقــبولة فإنه يعلن ذلك حتى لا يضل قارئ لها أو يشقى ناظر فيها ، أما لماذا ؟ فلأن التطور من حيث القبول والرفض ([1]) ينقسم الى قسمين :

الأول: التطور المقبول:

وهــو الــذى جاء من ناحية تفهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى ذكــرت خلــق الله تعالى الكائنات، فى أصولها الأولى، ثم جريان سنة الله تعالى واطــرادها فى تنامى هذه الكائنات الحية من بعضها طبقا لقدرة الله تعالى القادرة وارادتــه الــنافذة وعلمه الشامل المحيط، فآدم عليه السلام كان فردا ثم جاء منه بقدرة الله تعالى زوجه([2]) .

ثــم جــاء مــنهما الأعــداد الغفيرة التى تمثل بنى البشر الذين انقضت أعمــارهم والذين هم على قيد الحياة، كما أنهما الأصل لكل من يأتى فى الأزمنة المقبلة من نسل آدم عليه السلام ، قال تعالى : (يَــا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِى خَلَقَكُــم مِّــن نَّفْــسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)([3])

---

[1]- وبالتالى فإن أقسام التطور وجوانب الحديث عنه متعددة الى حد كبير ، يجاوز مجرد التقسيم الشائع بين كونى علم أو عضوى بيولوجى .

[2]- قال تعالى : ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . سورة الروم الآية ٢١ .

[3]- سورة النساء الآية ١

وكذلــك الحــال فــى عــالم الحيوان بانواعه المختلفة من المستأنس الى الوحشــى، ومــن الوديع الى المفترس ومن الزاحف على بطنه الى الماشى على رجليــن أو أربع، بل تشمل هذه الأحكام كافة الحيوانات ، حتى وإن كان الحيوان جزئيا لا يمثل إلا جزء خلية كالأميبا والجزئ الجينى وما كان من هذا القبيل فى عالم الحيوان اللاعاقل.

فــى نفس الوقت فإن عالم النبات هو الآخر يقع فيه التطور بمعنى الكثرة العدديــة، وما من نبات إلا وهو قائم فى أصله على مبدأ الذكر والأنثى، كما أن هــذه القاعدة ناهضة فى عالم الحيوان والإنسان والنبات ودليل ذلك قوله تعالى : (* ومــن كــل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون *)[1] وهذا التطور قائم على ســنن الله الكونــية، وواقع بقدرة الله تعالى وخاضع لإرادته وعلمه وحكمته ولا يجــادل فــيه أحــد من أهل الاسلام الذين يوثق بآرائهم ولا يشك أحد فى ناتج اجتهاداتهم .

الثانى: التطور المرفوض:

وهــو الذى جاء فى نتاج العقل القائم على أنكار وجود الله تعالى وتأثيره فــى الكائــنات وإحالة الخلق الى المخلوقات أنفسها عن طريق الحتمية أو انتهاء الأمر الى العشوائية والمصادفة، وبالتالى ينتهى ذلك كله الى انكار وجود الخالق العظــيم جل علاه، بحيث يترتب عليه اشاعة الفوضى فى الكون والدفع بالأفكار الإلحادية حتى تبلغ فى الناس مبلغ القول المرفوض .

وشــأن ذلك الفعل الحكم على صاحبه وعلى الفعل نفسه بالكفر والتكذيب بــالله تعــالى والتكذيب بالأنبياء والرسل وانكار سنن الله تعالى فى خلقه وانكار البعث والحشر وما يجئ فى اليوم الآخر ، وما تحدثت عنه النصوص الشرعية، ومن ثم فهو تطور مرفوض شرعا.

---

[1]- سورة الذاريات الآية ٤٩

أمـــا أنـــا كباحث مسلم: أحاول التزام الموضوعية، فأرى أن ذات الأفكار والنـــتائج التى انتهت اليها فكرة التطور الإحيائية العضوية على النحو الذى قال بـــه أصـــحابها، لـــيس سوى افتراضات متوهمة واستنتاجات لم تقم على أصول علمـــية مقبولة، كما أراها فى كثير من الأحيان تخالف النصوص الشرعية وتقفز فوق الغيبيات التى لا حيلة للإنسان فىالتعرف عليها إلامن خلال النقل المنزل ، ثـــم أن هـــذه الأفكار تنكر وجود الغيبيات جملة وتفصيلا([1]) ، مما يجعل رفض ذات القضايا الإحيائية على ذات النحو ضرورة شرعية.

من ثم، فإن تناول تلك الأفكار من ناحية عرضها ثم مناقشتها، يعتبر أمرا شـــرعيا لا يمكن السكوت عليه أو التنازل عنه، وبخاصة بعد أن روجت بعض الإتجاهـــات المـــنحرفة إلـــيها زاعمة اعتبارها مسألة علمية، وراحوا يدرسونها لطـــلاب المـــدارس علـــى أنها حقائق علمية أيضا، مما حدا ببعض الطلاب الى اعتقادها، فأدى ذلك الى اهتزاز ثقتهم فى اعتقاداتهم التى يؤمنون بها.

ربمـــا يقال إنك صادرت على المطلوب ، وحكمت مسبقا وأبنت عن عدم موضـــوعيتك ، ومن ثم فقدت حيدتك ، والجواب : أننى لم أصادر على مطلوبى ، ولـــم أخـــرج عـــن موضوعيتى ، وانما نبهت الى الأخطار ووضعت علامة حمراء على الطريق لعل من ينظر اليها يحتاط من جناياتها .

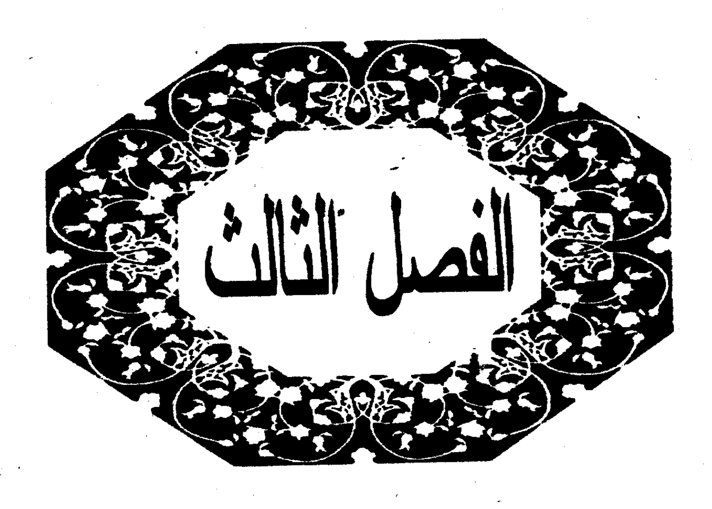
ولذا فإنى سأحاول بيانها ثم أقوم بمناقشتها وأبين ما فيها من اخطاء، حتى يحـــذر مـــن الاغترار بها أهل الإيمان بالله، على النحو الذى سيرد فى ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى ، وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب.

---

[1]- الغيبيات أنواع منها:

أ ـ الغيب الدينى: وهو ما يتعلق بأمور ما قبل خلق الدنيا وما يتعلق بالآخرة أيضا ، وكذلك ما يتعلق بالعالم العلوى والأرضى، مما لا حيلة للإنسان فى التعرف عليه على وجه يقينى سوى من النقل المنزل ، القرآن والسنة النبوية المطهرة الصحيحة .

ب ـ الغيب العلمى: وهو ما يتعلق بالقضايا التى وضعت أسبابها فى الأرض، ويبحث عنها العلماء سواء صرح بها النقل المنزل لم ألمح إليها، ويمكن مراجعة ذلك فى كتابنا : الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى ص ٧٠/ ٢١٩.



الفصل الثالث

التعريف بالفكرة الإحيائية وتاريخ التطور

تمهـــــــيد

الدارس لأية فكرة خاصة أو تيار فكرى مستقل، عليه أن يعرف الجزئيات التى سيقوم بدراستها أولا قبل الحديث عن جزئياته، ثم بيان الطرائق التى يجب التعبير عنه من خلالها، حتى يكون سيره فيها وتناوله لها بشكل مقبول، لأنه من غـــير المعقــول الدخول بالحديث الى تفاصيل الفكرة والتعرض لها من غير أن يقدم لها تعريفا على ناحية فنية مقبولة علميا.

كذلك فإن هناك ضرورة تقديم تعريف عام لها تتحدد به أبعادها وتخرجها عـــن مشـــاركتها فـــى بعض الأجزاء ([1]) ، وهو الذى حاولت القيام به فى هذه الدراســة الــتى أقوم بها أويكون لى شرف المساهمة فيها، وهو فى نفس الوقت مـــنهج الزمــت نفســـى به فى كل ما أتعرض له من دراسات، وهو أيضا منهج علمى أراه من جانبى مقبولا وفى ذات الوقت قويما.

ولا شك أن فكرة التطور الإحيائى على النحو الذى نادى به داروين ومن ســبقه أو لحقــه، تمــثل أحد المخططات التدميرية التى يقوم بها اليهود بغرض الســيطرة على العالم، فإنهم يحطمون القيم والمثل حتى لا يكون فى المجتمعات قــوة مـــن عقيدة أو خلق، ومن أجل ذلك فهم يتكاتفون على أن تكون لهم الكلمة الأولـــى فى الجامعات الأوربية، وبالذات فى علم الاجتماع ، وعلم النفس ومادة الأخلاق ، وتاريخ الأديان ([2]) .

---

[1] ـ لما هو معروف من أن هناك بعض المشاركات بين بعض المفاهيم ولو فى الاسم أو الإطلاق العام، وبالتالى فالتعريف هو الذى يحدد المراد.

[2] ـ الدكتور عبد الحليم محمود ـ موقف الإسلام من الفلسفة الحديثة ـ مقال بمجلة الأزهر ص٣٠٧ جـ٢ السنة ٥٠م عدد ربيع الآخر ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

بحيــث يكون لهم تأثيرهم القوى فى تلك الجوانب، وغايتهم من ذلك هى التمكــن من تحقيق أغراضهم الخبيثة بإخضاع عقول الآخرين إليهم وحينئذ تتم الســيطرة علــيهم حتى يكون الأخرونبالنسبة لهم كالأنعام التى تقاد للجازر يفعل بها ما يشاء .

كمــا أن اليهود من قديم الزمان وهم يحاولون امتلاك العالم ظلما وزورا، بغــض الــنظر عمن يظلمون ، أو عليه يزورن([1]) ، فهم كذبوا على الله ــ جل شأنه ــ حينما نسبوا له الولد والصاحبة([2]) فرد عليهم بقوله سبحانه وتعالى: (* بديــعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُو بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *) ([3]).

ونســبوا له جل شأنه البخل والشح وضيق ذات اليد ([4]) ، والفقر([5])، كما نســبوا اليه جل شأنه الجهل والتعصب ــ تعالى عن قولهم علوا كبيرا ــ وجاء ذلــك كلــه فــى العهد القديم([6]) ، وبخاصة فى الأسفار الخمسة الأولى([7])، التى يزعم البعض نسبتها الى نبى الله موسى بن عمران وهو منها براء .

بــيد أن الدارسين قد ذهبوا الى الاعلان عن حقيقة هامة هى تبنى اليهود لكــل فكــر شاذ، سواء أكان ذلك فى العلوم النظرية أم فى العلوم التجريبية، بل

---

[1]- الأستاذ رأفت محمد حسن - اليهود عبر التاريخ ص٣٥.

[2]- قال تعالى: (* وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير *) سورة المائدة الآية ١٨

[3]- سورة الأنعام الآية ١٠١.

[4]- قال تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين) سورة المائدة الآية ٦٤.

[5]- قال تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق) سورة آل عمران الآية ١٨١ .

[6]- هو أحد جزئى الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، والأول منه هو العهد القديم الذى يتمسك به اليهود، أما الثانى فهو العهد الجديد الذى يتمسك به النصارى وكلهم في المسألة على غير هدى.

[7]- هى التكوين، ثم الخروج، فسفر اللاويين ثم العدد وأخيرا سفر التثنية. وراجع دراسات فى اليهودية لسليمان والوروف ص ٧٣ ، موسكو ١٩٢٤م.

تمادوا فى ذلك الى أبعد مدى حيث ظهر فكرهم الشاذ فى كافة العلوم النفسية( )، والاجتماعية(٢) وكذلك لم تسلم منهم العلوم التجريبية أو التى تقوم بجوارها خدمة لها.

وكل ذلك قد تم لهم على سبيل العبث بها، وانتساب العابثين فيها اليهم فهم يتفاخرون بما فيه الفضائح وتجئ معه المؤلمات وكان التطور الأحيائى العضوى أحد الميادين التى مارسوا فيها هذه الأعمال العدوانية ، وسوف أحاول فى هذا الفصل – إن شاء الله تعالى – بحث مسألتين هما: تعريفها وتاريخها.

المسألة الأولى : تعريفها

حاول الدارسون لفكرة التطور الإحيائية تقديم تعاريف لها، بعضها مما قال به أنصار الفكرة ذاتها، وبعضها مما ذكره خصومها، وبعض ثالث ممن توافقوا فى الحكم عليها من ناحية القبول لها أو الرفض على الناحية الشرعية، وإن لم يتم ذلك لهم من الناحية العلمية، وسوف أعرض لبعض ذلك فيما يلى :

(أ) عند أنصارها

يقدم أنصار التطور كفكرة إحيائية عضوية تعريفات متعددة، وكل تعريف منها يحاول أصحابه إصلاح ما فى سابقه من عيوب ويدفعون ما على غيره من ملاحظات، ومن أبرز التعريفات التى جاءت فى هذا السياق :-

[١] أنها النظرية العلمية التى تفسر بها أسرار نشأة الحياة الأولى على الأرض فى الإنسان والحيوان والنبات(٣) باعتبار أن الحياة أول ما نشأت على الأرض

١- فهم الذين تبنوا سيجموند فرويد ونفخوا فيه، وزعموا أنه يهودى، بغية أن ينسب اليهم ما عنده من جرأة على الدين والقيم النبيلة والأخلاق الفاضلة، وكذلك صنعوا مع داروين راجع الدكتور فوزى محمد الطويل - فرويد والصهيونية ص١٣.

٢- كذلك حاولوا التأكيد على ما قام به أوجست كونت، ونسبوه لليهود حتى يظن الأغرار من الناس أن العنصر اليهودى متميز فى العلوم والمعارف، وما هم إلا عصابة ضالة لا تميز لها إلا فى الإنحراف ومحاربة شرع الله تعالى، لعنهم الله أينما كانوا الى يوم الدين .

٣- تشارلز داروين - أصل الأنواع ص١٧ - ترجمة خاطر مرسى - المطبعة العصرية - بيروت ١٩٣٧م.

كانـــت قد بدأت بجرثومةواحدة([1]) ، أحادية الخلية، ثم تحولت الى عدد قليل من الجرائيم الأحادية التركيب.

ثم تطورت تلك الجرائيم القليلة تطورا ذاتيا، وانتقلت من حال الى حال مع مصاحبة عوامل إضافية من الطبيعة ذاتها ، وظلت هذه الجرثومة أخذة في ذلك الـــتطور والترقى حتى بلغت ما عليه الكائنات الحية الآن ، وأنها ما زالت اخذة فى الاستمرار والتطور والترقى ولم تنقطع ([2]) .

[٢] أنهـــا الاتجاه العام: الذى يجب أن نفسر به الظواهر الإحيائية الموجودة فى هـــذا الوجود ([3]) ، وأن هذا الفهم ينطبق على الإنسان الذى بدأ بجرثومة واحدة صـــغيرة جدا حية، وأنها تحولت ذاتيا وآليا ــ من غير حاجة الى إله خالق قادر عليم ــ الى حيوان صغير، ثم تدرج هذا الحيوان فى التطور والإرتقاء حتى بلغ مـــرحلة الحياة الحيوانية البدائية، وكان ذلك أول امره، غير أنه ما لبث أن تحول الـــى حيوان أكبر من الأول فأكبر من الذى بعده حتى صارت ريشه أجنحة ، لها خواص آخذة فى التطور الطبيعى.([4]) .

غـــير أن تلك الريشة المجنحة لبثت على حالها فترة ثم تطور ــ بعضها ــ طبقا لما فيه من طاقات كامنة فتحولت الى ذات فقرات، أما التى لم تنجح فى هـــذا الـــتطور أو لـــم تدخـــل فى دائرة الترقى، باعتبار أن الترقى يمثل مظهرا

---

[1]- وردت الجرثومة فى اللغة بمعان عدة : جرثم : الجرثومة الأصل، وجرثومة كل شئ أصله ومجتمعه، قيل الجرثومة ما اجتمع من التراب فى أصول الشجر، عن اللحيانى، وجرثومة النمل، قريته، الليث،الجرثومة اصل شجرة يجتمع اليها التراب، والجرثومة التراب تسفيه الريح، وهى أيضا ما يجمع النمل من التراب، وفى حديث ابن الزبير : لما أراد أن يهدم الكعبة ويبنيها كانت فى المسجد جراثيم اى كان فيه أماكن مرتفعة عن الأرض مجتمعة من تراب أو طين، أراد أن أرض المسجد لم تكن مستوية..وفى الحديث : تميم برثمتها وجرثمتها، الجرثمة هى الجرثومة، وجمعها جراثيم وفى حديث على : من سره أن يتقحم جراثيم جهنم فليقض فى الجد، والجرثومة: القصمة، واجرنثم الرجل وتجرثم إذا سقط من علو الى اسفل، وتجرثم الشئ، أخذ معظمه وهذا منقول عن نصير، وجرثم موضع ، راجع لسان العرب للعلامة أبى الفضل جمال الدين بن منظور - مادة جرثم - دار المعارف .

[2]- هربرت شيللر - التطور الإحيائى ص ١٢ - ترجمة وفاء صادق - دار الجيل ١٩٦١م.

[3]- أ . ب سورز- تطور الكائنات الحية ص ٣٥ - ترجمة صالح مرسى- بيروت ١٩٧٥.

[4]- توهالف بنتيوم - النشوء والإرتقاء ص ١٧ - ترجمة محسن محمد أبو الحسن - دار نهاد ١٩٤٦م.

لمفعــول خــاص بالجينات، ثم أن التى لم تتمكن من التطور أصابها الضمور ثم الاضمحلال والتلاشى.

والإنســان باعتباره أحد تلك المظاهر الإحيائية، فإن هذه الجينات التى تقع فى المجتمع الإنسانى قد تم اختيارها بعينها أثناء التطور فى مراحله التى تمت له لأن مــا تحمله تلك الجينات من صفات ينتج عنه لياقة تكاثرية أعلى فى الأفراد الحاملين لها([1]) ، كنتيجة طبيعية أو ذاتية لعملية التطور نفسه.

بــل يدعمــون ذلــك الاتجاه قائلين: إن الإنسان جزء من الطبيعة وأنه قد تطــور ذاتــيا عــن جرثومة، بدليل أن الحفائر الجيولوجية وعلم الآثار فيما قبل الــتاريخ الطبــيعى بالنسبة للكائنات الحية ومنها الإنسان قد أكدوا ذات الفكرة، وفــوق ذلك فإن الأدلة ــ عندهم ــ تزداد باطراد على أن الإنسان الحالى جزء من الطبيعة ذاتها، وأن أقدم الوثائق المدونة تكشف عن ارتقائه المستمر حتى بلغ عهــد الوعــى الأخلاقى ([2]) الذى هو عليه الآن، بل وما ينتظره من وعى أرقى فى المستقبل المنتظر بالنسبة له.

ويذهــب أصحاب نفس الاتجاه الى أن هذا النوع من التطور قد فتح الباب أمــام الأبحاث العلمية، لتقوم المعامل بنفس الدور، وهو ما يعرف باسم الإنجاز العلمــى ومــن مظاهر ذلك ما نشر مؤخرا: أن العلماء فى جامعة هاواى،([3]) قد تمكنوا ولأول مرة من استخدام حيوان منوى مجفف بطريقة التبريد – وميت من الناحية العلمية ــ لتخليق فأر حى .

---

[1] - شيفان روز وآخرون - علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية ص٣٢٩ - عالم المعرفة.

[2] - جيمس هنرى برستيد - فجر الضمير ص٤١٨ - ترجمة الدكتور حسن سليم حسن ، الهيئة المصرية العامة.

[3] - وهى إحدى الجامعات الأمريكية ، وتقوم على دعم المراكز البحثية فيها بعض الشركات الصناعية عن طريق الانفاق عليها، وتدبير الأموال اللازمة لها، وقد كان الأمر - دعم المراكز العلمية من الناحية المالية - فى الماضى أمرا عاديا عندنا نحن المسلمين، وقد أخذه الغربيون كنظام إدارى ظهر فى الوقف الخيرى عندنا، غير أن أهل الإسلام لم يكونوا ليوقفوا أموالهم إلا على العمل المباح شرعا.

ويشـــرح هؤلاء العلماء التجربة بقولهم: إن التجفيف بطريقة التبريد يؤدى الى قتل الحيوانات المنوية، إلا إن حمض الـــ DNA يظل صالحا للاستخدام، وهـــذا الحمض هو الجزيئات التى تحمل العناصر الوراثية ، وقد تم إجراء عملية التخصـــيب علـــيه بحقـــن رأس الحيوان المنوى مباشرة داخل البويضة، وكانت النتـــيجة هـــى الحصول على فأر حى تم تصنيعه على سبيل النشوء ثم تطويره وترقيـــته، حـــتى بلغ القمة التى هو عليها ويمكن أن يبلغ قمة أخرى ([1]) ، وذلك مما يمكن ملاحظته مع تكرار التجربة عليه.

[٣] أنها تبديل تدريجى متواصل بغرض التغير والتركيب فى الوظيفة ثم العـــادات، إبـــتدءا من الماضى، وانتهاءا بالحاضر شاملا كافة الكائنات الحية فى أجـــيالها المتعاقـــبة، وأنه سيظل مستمرا الى ما لا نهاية([2]) ، وبالتالى فهو نشوء ذاتـــى وتطـــور طبيعى آلى وارتقاء متواصل لا ينقطع غير أن الإنسان قد يكون هـــو الـــنوع الـــراقى القـــائم علـــى قمة هذا التطور الإحيائى العضوى باعتبار الحاضر.

[٤] أنهـــا حـــركة مســـتمرة قائمة على أساس التوفيق بين البيئة والكائن الحى، وإيجاد نوع من الملائمة بينهما من خلال الضرورات والحاجات التى لابد مـــنها ([3]) ، حـــتى تستمر الحركة وتستقر العلاقة، فهو تطور ميكانيكى لا يقوم علـــى ارادة فاعلـــه وإنمـــا يتم من خلال الحتمية التى لابد منها، وهى كامنة فى البيـــئة ذاتهـــاوكذلك الكائـــن الحى نفسه، مع تبادل ذلك بينهما متى كان التبادل الموقعى ممكنا.

---

[1]- توكاريف - التطور الحديث ص١١٧ - ترجمة عبد الملاك صبرى ١٩٩٩م، وعرضت الأهرام المصرية قريبا من ذات الفكرة ، راجع الأهرام المصرية ص ١ عمود ٤ من أسفل بتاريخ ١ /٧ /١٩٩٨م

[2]- الدكتور جراهام كانون - نظرات فى تطور الكائنات الحية ص٧٥ - ترجمة د/ عبد الحافظ حلمى - مكتبة الأنجلو ١٩٦٩م.

[3]- أ . ب سورز - تطور الكائنات الحية ص ٣٧، وهى نفس الفكرة التى اعتنقها داروين، ولكنه أضاف اليها.

[٥] أنهـا تكـامل المــادة وما يصاحبها من تشتت الحركة، وخلال هذا الـتكامل وذلك التشتت تنتقل المادة من حال التجانس غير المتعين وغير المرتبط الـى تـنافر أو لا تجـانس متعيــن ومترابط، وفى أثناء ذلك يطرأ على المادة المحفوظـة نـوع من التحول مواز للتحول السابق ([1]) ويستمر هذا التحول قائما حتى يبلغ التكامل التام.

[٦] إنهــا التوفــيق والملائمــة بين الكائن الحى والبيئة التى يعيش فيها، والضرورات والحاجات التى تساعده على البقاء داخلها، وبحكم هذه الضرورات والحاجات تكونت أعضاء الحيوانات وحواسها، وعن هذا التطور نشأ العقل بكل مـا فيه من أفكار فطرية ([2]) ، باعتبار أن الغرائز ما هى إلا انعكاسات متراكمة وعــادات مستحكمة ومنها العقل، وأن الصور الفكرية الفطرية ما هى إلا طرائق غريــزية للتفكــير .اكتسبها الجنس فأصبحت على مر الزمان راسخة فيه رسوخ الفطرة ذاتها ، يستوى فى ذلك الأمر بالنسبة لكل من قانون العلية وصيغ الزمان والمكان.

وقــد أقــام داروين هذا التعريف بناء على إيمانه العميق بفكرة الانتخاب الطبــيعى، آخــذا فــى اعتباره ضرورة العناية بالعوامل الداخلية للكائن الحى، ورغبته المستمرة فى القفز للأمام، مع الاحتفاظ بالرغبات الكامنة من حب الحياة وتــنازع البقاء، بجانب الاختلاف والتكاثر ثم التكوين وكذلك ما تفرضه العوامل الخارجــية وبــالذات البيئية، التى تؤثر فى الأفراد والجماعة تأثيرا يتوازى مع العوامــل الطبيعــية ([3]) ولا يفترق عنها إلا عندما يجبر على ذلك، ولا تكون له حيلة فى تفاديها .

---

[1] ـ الدكتور/إمام عبد الفتاح إمام ـ المدخل الى الفلسفة ص ٢٣١ ـ القاهرة ، وهى نفس الفكرة التى رددها هربرت سبنسر عندما ذهب الى القول بأن التطور ما هو إلا عملية تحول من حال التجانس الى حال التنافر، وراجع حياة الروح فى ضوء العلم ص ٣٠.

[2] تشارلز داروين ـ أصل الأنواع ص١٣ ـ ترجمة الأستاذ اسماعيل مظهر ـ بيروت.

[3] ـ ألفرد جورهار ـ التطور الإحيائى ص ٤٥ـ ترجمة الأستاذ يسرى عبد الباقى ـ بغداد ١٩٦٢

ولا شــك أن داروين قد تأثر فى هذا الاتجاه بلامارك حيث زعم أن البيئة تؤثر فى الكائن الحى، وبخاصة من ناحية الشكل وتركيب الأعضاء بناء على أن الاســتعمال المســتمر أو المتكرر لأى عضو يزيد فى حجمه ويجعله قادرا على القــيام بأعمــال متنوعة فيتم له التطور الذى فرضته البيئة من خلال عمله على مواجهــة متطلــبات ضرورياته الحياتية، أما العضو الذى لا يستعمل كثيرا، فإنه يــنكمش ويصاب بالذبول وربما استمر الحال كذلك حتى يشمله التلاشى ويطويه النسيان ([1]).

وربما لا يظهر له أثر فيما بعد، كالحال مع أطراف بعض الحيوانات التى أهملــت لعدم استعمالها فذبلت ، بينما التى استعملت ظلت تتطور كالعنق بالنسبة للــزرافة([2]) فانهــا عملــية استمرت فى الطول حتى بلغت الحال التى هى عليه الآن.

وربمــا يقال: إن لامارك تبنى فكرة توارث الصفات المكتسبة، أما داروين فقد تبنى فكرة الانتخاب الطبيعى ، وبالتالى فتأثر داروين بلامارك لا وجود له !

---

[1]- أصحاب هذه الفكرة يزعمون أن العضو الذى لا يعمل يصاب بالذبول، وقد حاولوا تطبيقه فى كل أنماط الحياة، والمؤسف له: أن بعض الدارسين يرددونه، وربما دفعهم ذلك الى الاعتقاد بصحة القيام ببعض ممارسات مرفوضة شرعا، تتعلق بالجوانب البيولوجية، وبالذات الناحية الجنسية، فمن لا يتمكن من الزواج وتكاليفه يحاول ممارسة الزنا اعتقادا منه أنه إذا لم يستعمل ذلك العضو فإنه ينكمش ويتلاشى ويصاب بالاختفاء، فتنتهى حياته كرجل وهى مزاعم كاذبة وفيها قفز فوق حدود الشرع الإلهى الذى أمر بالعفاف عن طريق النكاح أو الصيام ، ففى الحديث الشريف توجيه الى الطريق المشروع من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء) رواه الامام البخارى - باب من لم يستطع الباءة فليصم - الحديث ٤٧٧٩، رواه عن عمر بن حفص بن غياث عن أبيه، عن الأعمش عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع علقمة الأسود على عبد الله، فقال عبد الله: كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم شبابا لا نجد فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم...ورواه البخارى فى الأحاديث (١٨٠٦، ٤٧٧٨) وأخرجه مسلم فى النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه اليه، رقم ١٤٠٠ والمراد (العزوبة) العزب من لا زوج له، والعزبة من لا زوج لها أى خاف أن يقع فى الزنا لعدم الزواج وبعده عنه، والباءة، هى فى اللغة الجماع والتقدير: من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤن النكاح،وقيل المراد بالباءة هنا مؤن الزواج، أغض للبصر، ادعى الى غض البصر، أحصن للفرج، ادعى الى احصان الفرج، أى حفظه من الزنا، وجاء قاطع للشهوة.

[2]-الأستاذ نور الدين محمد البدرشينى- التطور وقوانينه ص ١٧٣، دار الفؤاد ١٩٢١م.

والجـواب : ان الـتأثر هنا فى القول بإنزال الكائن الحى مع البيئة مرتبة واحـدة، بـل اعتـبر أن تأثير البيئة فى الكائن الحى أقوى من تأثيره فى البيئة المحـيطة[1] فصـار العاقل أقل عندهم منزلة من الجمادات، وهذا ما لم يقل به عاقل أبدا.

ثـم أنهم ذهبوا الى: أن الحياة فى جميع ظواهرها مبدأ خلاق، سواء أعمل هـذا المـبدأ فى محيط الجماد أم فى محيط العقل، وأن هذا المبدأ الخلاق هادف بدلـيل أنـه يخلق من غير الحى حيا أو جزء من حى ويتجلى فى محيط العقل، محـيط الفكـر والذاكـرة، ونشدان الهدف والتقويم الذاتى الذى يصلح به الكائن الحى[2]، وتلك طبيعة ثابتة لا تنفصل عن المبدأ الخلاق من وجهة نظرهم.

ثـم أن هذا المبدأ الهادف الخلاق لا يمكن أن يكون هناك مبدأ آخر سواه [3]، وبناء عليه يكون تأثر داروين بلامارك فى هذا الجانب مما يصعب إنكاره، بـل العكـس قائم على أن داروين نفسه نقل جملة أفكار لامارك ودافع عنها بعد تمسكه الشديد بها.

والملاحـظ أن دعـوى العلم عندهم قد جعلوها أعلى من تعاليم نصوص الديـن، كمـا أن مشـاهدات بعضهم فى الكائنات الحية جعلوها بمنزلة النتيجة العلمـية، لأن الدين عندهم اكتفى أصحابه بالتردد بين حنايا الضمير على الناحية الـنظرية[4]، أما العلم فإن الحقائق التجريبية والمشاهدات العلمية تشهد باطراده،

[1] راجع للدكتور فيصل محمد خالد - تطورات الكائنات الإحيائية أسطورة ص ٢٢١ وسوف أعرض للتأثر والتأثير فيما بعد إن شاء الله تعالى، باعتبار أن داروين تأثر بلامارك كما تأثر بمالتوس والفرد راسل والاس وغيرهم من أصحاب تلك الأفكار، وقد أثر هو الآخر فيمن أتى بعده ممن ساروا فى ذات الاتجاه.
[2] أدموند - و. سينوت ، حياة الروح فى ضوء العلم ص ٢ - ترجمة اسماعيل مظهر - الأنجلو المصرية ١٩٦٠م.
[3] - أدموند - و. سينوت ، الخلية - ترجمة اسماعيل مظهر - بيروت ١٩٥٦م.
[4] فى تقديرى: أن الدين المقصود عندهم هو دين الكنيسة حيث ألهاهم القائمون عليه بالخيالات وأدهشوهم بما أوهموهم أنه معجزات ، وحرموا على العقول التفكير فى الموجودات وسائر الكائنات، حتى لا تصل الى معرفة الله ، وذلك ما لا ينطبق على الدين الإسلامى، وبالتالى فإنكارهم للمسيحية لا ينصب على دين الاسلام.

ومــن ثــم فقد حل العلم عندهم فى العصر الحديث محل الدين قديما، أو أن ذلك أمر قائم الآن بحكم قانون التطور([1]) .

كما زعموا أن من يحاول معرفة العالم الذى نقضى فيه أعمارنا، لا يوجد لــه ســوى مــنهج واحــد وهو منهج العلم، الذى هو استجواب مباشر للطبيعة بالمشاهدة والتجربة([2])، ولا يمكن الاعتماد فى تلك المعرفة على شئ آخر سوى العلــم والــتجربة الــتى هى أساس المنهج العلمىالذى يجب الاعتقاد فيه وحده بالنسبة لهم.

ولا شــك أن هــذا كلــه يمثل نوعا من الالحاد فى الدين الذى اعتمد فيه أصــحابه على النتائج العلمية والتجريبية وحدها وهى التى لا تعرف الاستقرار، لأن، العلــم لا يعرف الكلمة الأخيرة، ولأن المواجهة المزعومة بين الدين والعلم لا أســاس لهــا فى الاسلام، وإنما يمكن قبولها فى المسيحية الكنسية([3])، وباقى الأديــان الــتى هى وضعية فى الأصل أو التى انحرفت عن الدين الإلهى، الى مــبادئ وقواعــد أو تعاليم صنعها الناس لأنفسهم وحاولوا دفع غيرهم اليها ([4])، وما هى من دين الله تعالى فى شئ.

ويعــبر أرنســت هيكل([5])، عن ذلك بقوله : إن الأديان تقوم على الوحى، والعلــم لا يعرف الا التجربة ولا قيمة فى نظر العلم لأى فكرة إذا لم تكن تعبيرا مباشــرا عــن وقــائع تجريبــية أو نتــيجة لاستنباط محدود، قائم على قوانين الطبيعة([6])، وهو ما نرفضه نحن أهل الإسلام ، لأنه لا وجود له بالنسبة للقواعد

---

[1] -اميل بروترو - العلم والدين ص ٣٩- ترجمة هناء عبد المعطى.
[2] -جيمس جينز - الفيزياء والفلسفة ص ٢٣٥ - ترجمة جعفر رجب - دار المعارف ١٩٨١م.
[3] -لأن المسيحية هى التى يعلن أتباعها أن الدين عدو العلم، وأنهما لا يلتقيان، وكانت محاكم التفتيش تقوم بدور القاضى والجلاد فيها ابان العصور المظلمة فى اوربا ، بينما لا يوجد شئ من ذلك فى دين الاسلام ابدا.
[4] -يراجع فى ذلك كتابنا : حقيقة الأقنان بين الملل والنحل والأديان ص ١٥ - ط٣.
[5] -هو أرنست هيكل (١٨٤٠/١٩١٩) وأحد الذين أقاموا التطور الاحيائى العضوى ، وكان له فيه دور كبير.
[6] -اميل بوترو - العلم والدين ص ١٠٦.

الشـــرعية ، بـل إن الوحى الإلهى هو الذى يجب الإيمان بما يأتى به لأنه يقينى النتائج صحيح فى كل ما يأتى به، أمرا أو نهيا وكيف لا وهو من عند الله تعالى

(ب) عند الخصـــــوم:

إذا كان هناك من راقت له فكرة التطور الإحيائى العضوى فتغنى بها، أو انخــدع بظاهــرها اللامـــع وبريقها الكاذب، وحاول اعتبارها قاعدة عامة يجب تطبــيقها والتمسك بها، ومن ثم، قدم لها من التعريفات ما عرضت بعضها على الــنحو الــذى سلف، فإن هناك من نظر اليها على أنها خرافات وأوهام لم يقدر لأصحابها شئ من النضج العقلى، ولا يوجد لديهم الحس الدينى أو الضمير الحى الــيقظ ، وبالـــتالى فقد عمل هؤلاء الخصوم على تقديم تعرفات للتطور الاحيائى من أشهرها:

[١] إنهـــا فكـــرة غير مدروسة، تقوم على مجرد التخمين أو الظنون ولا تخضـــع للـــتجربة، التى هى الأساس فى المسألة، فضلا عن المشاهدة التى تمثل الملاحظـــة الضرورية([١]) فالإنسان هو الإنسان من أن يوم خلقه الله تعالى متمثلا فـــى أبى البشر آدم عليه السلام، بكل ما فيه من هيئة وتكامل ، قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)([٢]).

وجعــل له تكريما على باقى الكائنات الحية الأخرى ،قال تعالى: (* وَلَقَدْ كَرَّمْـــنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِـــيرٍ مِمَّـــنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً*)([٣]) وما دام الأمر كذلك، فإن الأصول التى نشأت عـــنها الأنـــواع ، تجـــئ فيها تحولاتها طبقا لما قدره الله تعالى عليها ولا يحدث تخالط فى الأصول أبدا.

---

[١]- جوسيان كوفييه - الداروينية تحت البحث العلمى ص١٥ - ترجمة عبد العاطى خليل - دار التوفيق ١٩٦٢م.

٢- سورة التين الآية ٤

[٣]- سورة الاسراء الآية ٧٠

[٢] إنهـا فكرة ثوريـــة غير منضبطة فيها إندفاع يبتغى صاحبه نفض عقلـه من العقيدة الدينية التى يمكن أن يكون لها وجود فى ذاكرته، وبالتالى فهو يقوم بالضغط على عقله حتى يعلن رفض العقيدة الدينية بطريقة يحتمى فيها بعلم الأحـياء([١])، وبالـتالى فهـم فى الأغلب الأعم اعتبروها وسيلة لرفض العقيدة الدينـية، الـتى يفرضـها عليهم الآباء اللاهوتيون، أو تجئ فى أعطاف أسفار وإصحاحات الكتاب المقدس .

وقـد عـبر عن ذلك داروين نفسه حين قال: لست واثقا فى اعتقادى بالله ولكـنى واثق من اعتقادى بالإنسان فهو وحده الذى يمكن التعويل عليه([٢]) ومن هـنا فإن داروين يحاول الاعلان عن كونه مؤمنا لا كونه ملحدا ، ولكن بطريقة تخالف ما عليه اعتقادات الآخرين، إنه مؤمن بالماديات فقط وهى عقيدته العلمية والدينية معا.

بـل إنـه لا ينكر اعتقاده ذلك الالحاد حين يقرر أنه لا يرى دليلا مقبولا علـى حجة الوحى أو التصديق به، وأن الإيمان بالبعث متروك لكل من يشاء أن يـتخذ له معـتقدا بين الاحتمالات المتضاربة، وهو نفس الدليل على أنه لم يكن مؤمـنا، وإنمـا كان ميله العقدى الى الإلحاد وهو الغالب عليه ([٣]) ، وهو نفسه الذى دفعه الى القول بالتطور الإحيائى العضوى لا كمعرفة علمية، وإنما كعقيدة وجدانية يؤمن بها ويعتمد عليها.

ويذهـب أحد الباحثين الى أن داروين كان ازدواجيا متى أراد التعبير عن عقـيدته الدينية، فهو تارة ينفى عن نفسه الإلحاد، ثم تأتى مفرداته الكلامية دالة علـى ذات الإلحاد، بدليل أنه سئل عن الإيمان فقال: إنه يدين بمذهب اللاأدرى، ولا معـنى لمذهـب اللاأدرى فى مجال الإيمان بالله ، سوى عدم الإيمان بالله ،

---

[١]- الدكتور/ جوهار سنسير - التطور المعكوس ص ٤١ ترجمة وفاء صادق - كركوك ١٩٥٧م ط٢.
[٢]- جورج سلمتى - عباقرة العلم ص ٧٣ - ترجمة وليم مرقص ١٩٦٥م.
[٣]- الأستاذ خالد عبد العاطى - داروين وعقيدته الدينية ص ٦٧.

وأن داروين كان يستعمل الكلمات المتناقضة متى أراد أن يعبر عن عقيدته الدينية.([1])

بينما يذهب باحث آخر الى أن داروين كان مسيحيا شديد التعصيب لها ، ولكنه يفصل بين عمل القلب وعمل العقل ، ويرى أن التطور يمثل عقيدة علمية وقلبية أيضا ولكنه لم يكن ملحدا ، أو يدعو للالحاد ، لقد كان بالامكان أن يكون كاهنا ، فكيف يتحول الى ملحد ؟! ([2]) .

وبغض النظر عن موقف الطرفيين فإن العقيدة الدينية فى قلب داروين والتى عبرت عنها بعض مفرداته لم تخرج عن كونها اطروحات فكرية ، ومن ثم فلا هو مؤمن بالمسيحية ولا مؤمن بغيرها ، انه رافض لكل ديانة أيا كان نوعها ومهما كان لها من شأن .

[٣] إنها أفكار تتناقض مع نفسها ، لأنها تعتمد على افتراضات وتخمينات منها أن الصفات المكتسبة تقع بالتوارث القائم فى الذريات وهى متناقضة، لأن الصفات الوراثية لا تكتسب، كما أن الصفات المكتسبة لا تكون بالتوارث ابدا، وإلا فما معنى كونها مكتسبة.

وبناء عليه فإن لب النظرية خاطئ وأنها قامت على مجرد الاتجاه العقائدى الرافض سلطان الكهنوت ([3])، لا على أنه فرض علمى قابل للتثبت منه، أو التأكيد عليه، بجانب أنه غير قابل لتأكيد النتائج العلمية.

[٤] إنها نتائج منتزعة من مقدمات غير صحيحة، ولا تقبل التجربة عليها، حتى نتأكد من ذات النتائج ، كما أنها قامت على ملاحظة الاختلاف البادى فى أنواع الكائنات الحية وأفرادها وهى ملاحظة غير جديرة بالقبول،

---

[1] ـ الأستاذ محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ص١١٣، ط ٣ ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. والكتاب كان يطبع على نفقة المؤلف ويوزع مجانا لوجه الله .

[2]ـ الدكتور محمد السيد غريب ـ داروين فلسفته واعتقاداته ص ٣٩ ١٩٨١ .

[3] ـ جوسبان كوفييه ـ الداروينية تحت البحث العلمى ص ٢١ ـ ترجمة عبد المعطى خليل.

حـــتى تفسر بها نشأة الحياة فى الكائنات الحية، كما أنها لم تلتفت الى الاختلافات المـــتوارثة وهى مسألة ضرورية، لكل من تسول له نفسه بحث هذا الجانب على ناحـــية علمية (١) ، تنال شيئا من القبول أو تسمح لصاحبها بالإعلان عن النتائج والملاحظات التى توصل اليها.

مـــن ثـــم فـــإن خصوم تلك الأفكار يذكرون عوراتها على الناحية العلمية أيضـــا، وهم بذلك يواجهون موقفا علميا بموقف علمي، واذا انتهى الأمر بقضايا العلـــم الى تكذيب ذات الأفكار التى يزعم أصحابها انتسابها للعلم فقد صارت كل القواعـــد التى قامت عليها والنتائج التى انتهى الأمر فيها اليها مجرد قضايا يقع فـــيها التخمين والافتراض، ومثلها لا تنبنى عليها حقائق علمية، كما لا تثبت بها عقيدة دينية.

والذى يبدو لى هو أن أصحاب القول بالتطور الإحيائى، كانت لهم مواقف ثأريـــة بيـــنهم وبيـــن الكنيسة التى تفرض عقائد الآباء اللاهوتيين على الباحثين والـــناس أجمعيـــن، دون أن يكـــون لتلك العقائد الكنسية رصيد دينى مقبول، أو نصوص صحيحة تحميها كما لم يكن لتلك العقائد الكنسية من قبول لدى العلماء والباحثين. ،

ومثل تلك العقائد التى لا دليل عليها من نصوص الدين الصحيح ولا من قضايا العلم السليمة، فإنها تكون محل بحث وجدل وتدفع حينا الى التصديق بها، بينما تدفع فى أحايين كثيرة الى إنكارها ومهاجمة القائمين عليها أو القائلين بها.

كمـــا أن الإنكـــار للعقيدة الدينية التى تفرضها الكنيسة قائم فى أنها عقائد وضعها الآباء بأنفسهم ولم ينزلها الله ذاته ، بدليل أن الكتاب المقدس كله _ العهد القديـــم والعهـــد الجديـــد _ قد كتبه أناس غير معصومين، فهم ليسوا أنبياء ولا مرســـلين، وإنمـــا هم أفراد كتبوا وجهات نظرهم قديما فى أمور تتعلق بشئونهم

١- الدكتور/جوهار سينسر - التطور المعكوس ص٤٧.

الحياتــية، وإن اتســمت بالبحــث العلمـــى فى بعض الأحيان، أو حملت بعض خطــرات أخلاقية فى بعض أخر([1])، إلا أنها ظلت دليلا على ثقافة القائمين بها واتجاهاتهم الأدبية وطموحاتهم الذاتية.

بــل يذهــب ليوتاكســيل هو الاخر([2])، الى أن كاتبى سطور العهد القديم وقعــوا فريسة الجهل التام بشئون كثيرة تتعلق بما كتب وأن يهوه ([3])، هو الاخر مســئول عــن هــذا الجهل الشديد، إذ كان عليه أن يعرف كل شئ عندما كتبت أسفار العهد القديم، وأن يكون على علم تام بها موجها كاتبيها الى الصواب، بدل أن يغــرقوا فى الجهل ، وبخاصة متى تعلق الأمر بالعقائد والعالم الأرضى على أقل تقدير([4]).

ثــم إن القــارئ للفكرة ـ التطور الإحيائى ـ من أولها الى آخرها على الــنحو الذى رسمه خيال أصحابها، يراها ترجع به الى الماضى السحيق الذى لم يعشه واحد منهم، حتى يكون قوله مدعما بدليل فيه شئ من الصحة أو يقوم على طريق المشاهدة لتلك التحولات، التى ابتدأت بالنشوء ثم انتهت الى الإرتقاء آخذة التطور بين أعطافها على ما يزعمون، فدل ذلك الأمر على أنها أفكار فجائية لا تقوم على أسس مقبولة.

فــى نفــس الوقــت فإنهــا هاجمت الأصول القائمة فى الشرع الشريف، وحاولــت النــيل منه وهو الكفر بعينه، لأن الله تعالى أخبر فى القرآن الكريم ـ وهــو الوحــى الدائم المعصوم الى يوم الدين ـ بأنه جل شأنه خلق الأنواع من

---

[1] سيرغى أ. توكاريف ـ الأديان فى تاريخ شعوب العالم ص ١٩٥.

[2] ـ هو أحد المستشرقين الذين تناولوا بدراستهم العهد القديم والعهد الجديد، وانتهوا الى أنها لا تصح نسبتها الى الله تعالى بالأدلة العلمية، ومن أشهر كتبه: التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير، وأيضا هل يمكن الاعتقاد بصدق الكتاب المقدس، ويطلقون عليه وأمثاله أصحاب النقد العصرى، وهم فى نظر الكنيسة هراطقة.

[3] ـ يهوه أحد الأسماء التى تطلق على إله اليهود الشعبى، حيث يطلقون عليه ألقابا وأسماء محلية تارة وأخرى أكبر وأعم تارة أخرى ، ومنها يهوه ـ ياهو ـ ألوهيم.

[4] ـ ليوتاكسيل ـ التوراة كتاب مقدس أم جمع من الأساطير ص٩ ـ ترجمة د/ حسان ميخائيل اسحق.

أصــولها التى تجرى فيها، بقدرته جل شأنه قال تعالى : (* وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *)(١)

وبالــتالى فالــتلاحقات الــتى تكون فى الفروع إنما هى امتداد لما لها فى الأصــول ــ لذا، قال علماء أهل الاسلام حقائق الأشياء ثابتة، والعلم بها متحقق ــ فالجمــاد يظــل جمادا، والحيوان يظل حيوانا، والنبات يظل نباتا، والإنسان يظــل إنســانا ــ لايحدث تخالف إلا أذا أراد الله تعالى خرق العادة وهى مسألة إلهية أيضا ــ وهكذا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

غــير أن الإنسان هو الكائن العاقل من بين هذه العوالم المرئية، وهو الذى علــيه أن يفكر بطريقة أوسع، بحيث يعمل تفكيره على تطوير الأشياء من حوله فــى الاستعمالات التى تكون ضرورية، حتى يتحقق له أكبر قدر من الخير العام والمصــلحة القائمــة، طبقا لتوجيهات الشرع الشريف فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة الصحيحة.

أضف الى ما سبق: أن الله تعالى قرر فى كتابه الحكيم: أن الخلق تم حين لم يكن أحد من الخلائق الموجودين وقتها حاضرا، وبالتالى فأى إدلاء بشهادة فى مــثل تلــك الغيبــيات يكون رجما بالغيب، قال تعالى فى سورة الكهف: (*مَا أَشْــهَدتُّهُمْ خَلْــقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا *) (٢) .

قال الشيخ البروسوى: << فى الآية اشارة الى استغناء الله تعالى عن خلقه ونفــى مشــاركتهم له فــى الألوهــية، وفى خلق السماوات والأرض أيضا أو مشــاورتهم فــى شئ من ذلك أبدا أو تدبير أمور أى منها، كأنه تعالى يقول إنى خلقتهم جميعا ولم أشهد أحدا على هذا الخلق .

١- سورة الذاريات الآية ٤٩

٢- سورة الكهف الآية ٥١ .

كما أن هولاء المدعين يمكن أن يقال لهم ما أشهدتكم خلق بعضكم بعضا، ولا جعلت الشياطين أعوانا فى شأن الخلق أو فى شأن من شئونى، حيث يتوهم شركتهم فى بعض أحكام الربوبية([1]) ، على ما يزعمه الزاعمون وهم فى كل ما زعموا كاذبون >>.

المسألة الثانية: تاريخها

التطور الكونى الذى هو انتقال الكائنات بأمر الله تعالى من حال الى حال، ومن صورة الى أخرى ، تاريخه قديم جدا، لا يعلمه إلا الله تعالى، لأنه حدث داخل نطاق الزمان المقدر فى علم الله الأزلى وليس فى نطاق الزمان الفلكى الذى نعرفه نحن ونقدر به السنين والحساب، وقد أشارت الى التطور الكونى العام بعض الآيات القرآنية، ودلت على سريانه فى الكون كله علويه وسفليه، أرضه وسمائه لا على سبيل التحديد الزمنى، وإنما على سبيل الصورة التى تم الخلق والتطور الكونى فيها .

من ذلك قوله تعالى فى سورة النازعات : (﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾) ([2]).

قال الأستاذ محمد عبده: (فى الآيات بيان لكيفية خلق السماء بضم الأجزاء المتفرقة بعضها الى بعض، مع ربطها بما يمسكها حتى تتكون عنها بنية واحدة، وهكذا صنع بالكواكب والسماء أقام الله سمكها وهو قامتها، حيث رفع أجرامها فوق رءوسنا وعدلها فجعلها مستوية بوضع كل جرم منها موضعه، وأغطش ليلها، فجعله مظلما وهومعنى المحو فى قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا

---

[1]- الشيخ محمد على الصابونى - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان للعلامة الشيخ اسماعيل البروسوى، م٢ ص ٢٩٠ ، دار الصابونى.

[2]- سورة النازعات الآيات ٢٧/ ٣٢ .

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وجعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرةً ، لتبتغوا فضلا من ربِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والحِسَابَ وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً)(١)

بينما أخرج الشمس، فكان ضوؤها واضحا تتعاقب منه الفصول تعاقب الليل والنهار، ثم أنه جل شأنه جعل الأرض موجودة ممهدة للسكنى عليها حيث أخرج ماءها بتفجير الينابيع والعيون والأنهار، كما أخرج النبات الذى يأكل منه الناس والدواب والأنعام ، وكذلك ثبّت الأرض بالجبال حتى لا تضطرب أو تميد (٢) ، وهذا كله من باب الاستدلال على اللطيف الخبير ، وإثبات البعث الذى أخبر به وأنه أمر شرعى وحقيقة دينية .

فالتطور الكونى العام على هذا النحو عملية تمت بفضل الله تعالى، فانتقلت السماء به من حال السديم الى السقف المرفوع، ثم الى البناء الواسع، بجانب السمك القوى المستوى، ثم جعل الله تعالى حالها يتبدل مع الليل والنهار، كما يدل كلامه جل شأنه على ما يتعلق بها من تلك الناحية، واستمرار ذلك العمل الإلهى على الدوام فالتطور الكونى العام لم ينقطع حتى اليوم لقوله تعالى:(* وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ*)(٣).

وكذلك الحال مع الأرض، فإن الناظر اليها يراها هامدة، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء تطور أمرها وتبدل حالها فإذا هى رابية بالنبات والثمار التى تدل كلها على قدرة الله تعالى ووحدانيته،... قال تعالى: (* وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)(٤) ، وقال أيضا : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ *)(٥) .

١- سورة الاسراء الآية ١٢ .
٢-الأستاذ الإمام/ محمد عبده- تفسير جزء عم ص ١٤- مطبعة طبع ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.
٣- سورة الذاريات الآية ٤٧ .
٤- سورة الحج الآية ٥ .
٥- سورة فصلت الآية ٣٩

وهــو دلــيل على أن الكمون الحركى قائم فى الأرض الهامدة والمشاهدة تحكــم بأنـــه متى أنزل الله عليها الماء حدثت فيها حركات وتطورات دالة على الخلــق العظــيم والبعث، ويدل أيضا على أن التطور الكونى العام إنما يتم بقدرة الله تعـــالى وفــيه دلائـــل كثيرة على وجود الله ووحدانيته وكامل علمه وارادته وتأكيد على خبر كل من النبوة واليوم الآخر .

فمـــن دلائل قدرته تعالى : أنك ترى الأرض حال كونها يابسة ، لا نبات فيها خالية عن الخير والبركة، عارية ذليلة لا اهتمام بها([1])، فإذا أنزل الله عليها المـــاء تحركــت ،ثم ربت فانتفخت بالنبات([2]) ثم تصدعت لتفسح المجال للنبات حــتى يخــرج، وهــو إحياء لها بالنضارة التى جاءت من النبات ودليل على أن البعــث أمــر قائم لأن الخالق لذلك كله ، القادر عليه وحده هو الله تعالى([3]) وقد وعد بذلك فهو الموفى وسوف يتحقق الإحياء فى الآخرة ، كما ستتم المجازاة إن شاء الله رب العالمين.

ولا شــك أن ذلك الذى قصه الذكر الحكيم يمثل نوعا من التطور الكونى العام، ويحمل معالم الحكم على الفكر المقبول الذى هو انتقال من حال الى آخر، وأنـــه آت مـــن ناحــية الخالق العظيم جل شأنه، وليس من ناحية المادة الجامدة الصـــماء علـــى ما يزعمه أصحاب التطور الإحيائى، الذين ذهبوا الى أن المادة الصـــماء قـــد سقطت منها جزئية صغيرة فى الماضى البعيد وكانت جامدة فدبت

---

[1] فى الآية تشبيهات كلها رائعة، ومنها تشبيه الأرض التى لا نبات فيها بالإنسان الفقير الذى لا يملك شيئا من حطام الدنيا، وهو بحاجة الى رعاية الآخرين له، فإنه يكون خاشعا ذليلا ينتظر منهم الاحسان، ولا يهتم به أحد بجامع الحاجة فى كل منهما، وفيه تصوير الجماد بصورة الإنسان، ليحرك فى نفس القارئ والسامع صورا من الإعجاز القرآنى.

[2] - قال تعالى : (فلينظر الإنسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم) سورة عبس الآيات ٢٤ - ٣٢.

[3] - العلامة اسماعيل حقى البروسوى - تنوير الأذهان من تفسير روح البيان - م٣ ص ٤٦٥/٦٦ اختصار وتحقيق الشيخ محمد الصابونى دار الصابونى ١٤٠٨ هـ/١٩٨٨م.

فـيها الحياة من تلقاء نفسها، وأنها ظلت تحور نفسها وتتطور حتى بلغت شأوها ([١]) ، وهو خيال لا يقول به عاقل أبدا .

ثـم إن أجزاء الكون فى تبدل مستمر بالزيادة تارة والنقصان أخرى، وهو المقصـود بالـتطور الكونى العام، على المعنى المقبول، فالله جل شأنه ذكر أن السـماء بـناها بيده جل وعلا والأرض فرشها بقدرته قال تعالى : (* وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْـنَا زَوْجَيْـنِ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّرُونَ) ([٢])، وقال تعالى:(* أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ *)([٣]).

قـال ابن الجوزى : والسماء بنيناها بأيد لتدل على عظمتنا وإنا لموسعون فـى البناء وحسب ارادتنا ومشيئتنا من غير اكراه لنا واجبار، ونفعل فى الأرض الفـرش والمهـاد المسـتمرالى وقت أن نأذن، فهذا من أدلة وجود الله وقدرته وحكمته([٤]) .

فالسـماء التى بناها الله تعالى فيها السعة المستمرة، والأرض التى فرشها الله تعـالى وجعلها مهادا للكائنات التى ترتبط بها فيها السعة على النحو الذى تتم بـه مصـالح وأمـور الناس فى حياتهم ، وهو تطور وتغير من حال الى حال بالـزيادة ، يـدل علـيه قوله تعالى وإنا لموسعون وهو الذى يمكن فهمه ضمن الوجـوه القائمـة فـى معـنى الآية ويكون المعنى وإنا لقادرون على أن تتسع وتضيق.

ثم إنه تعالى ذكر فرش الأرض وأن عملية الإنقاص لها من أطرافها قائمة لـم تنقطع وهو تطور بمعنى التحول المستمر من حال الثبات والكمال الى حال

---

[١]- هربرت شيلر- التطور الإحيائى ص١٧، ترجمة حنان زكى ، دمشق ١٩٦٧.
[٢]- سورة الذاريات للآيات ٤٧/٤٩
[٣]- سورة ق الآية ٦ .
[٤]-الشيخ ابن الجوزى -زاد المسير فى علم التفسير جـ ٨ ص ٣٩/٤٠.

النقصان والتدهور أو العكس فهى كلها أفهام واردة فى الآية الكريمة ، قال تعالى : (﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ)([1]) ، وقال تعالى: (﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ)([2]) .

قـال العلامة الفخر الرازى: أولم يروا ما يحدث فى الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة، وموت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال، وإذا كانت هـذه التغـيرات مشاهدة محسوسة، فما الذى يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هـؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين، بعد أن كانوا عزيزين ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين([3]) ، ويجعل أمورهم كلها الى غير ما ينشدون ، وما ذلك على الله بعزيز.

ولست أذهب الى أن هذا النوع من التطور الكونى العام هو ذاته الإحيائى البـيولوجى أبـدا ، على ما ذهب اليه دعاة تلك الفكرة التى يدل القول بها على انحـراف الفكـرة أو اتجـاه العقل نحو الخطأ، بدليل أن الأرض التى يقع عليها الإنقـاص مـن أطـرافها سوف يأتى يوم يقع فيه التبديل فتمد الأرض بالزيادة امـتدادا لا يعلمـه إلا الله بدل الإنقاص الذى لها فى دار الدنيا، وأن ذلك سيكون مـن علامات الساعة قال تعالى : (﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴿)([4]) .فامـتداد الأرض للسـعة، أما انشقاق السماء فيكون للضيق وهو عكس ما كان

---

[1]) سورة الرعد الآية ٤١ .
[2]) سورة الأنبياء الآية ٤٤ .
[3])العلامة الفخر الرازى - مفاتيح الغيب ، م ٩ جـ١٧ ص٢٦٧ - دار الفكر العربى ١٩٩٢م.
[4]) سورة الانشقاق الآيات ١/٥ ، قال الإمام الألوسى أن هذا الانشقاق يكون لهول يوم القيامة، روح المعانى جـ ٣٠ ص٧٨ ، وقال القرطبى ، مدت الأرض حيث زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال وأخرجت ما فى باطنها من الأموات وتخلت عنهم وألقت ما فى باطنها من المعادن كما تلقى الحامل ما فى بطنها من الحمل وذلك يؤذن بعظمة الهول، الإمام القرطبى ، الجامع لأحكام القرآن جـ١٩ ص ٢٦٨ .

لهمـــا فـــى دار الدنيا، قال تعالى: (يوْمَ نطْوِى السَّمَاءَ كطىِّ السِّجِلِ للْكُتُب كمَا بدَأْنَا أوَلَ خلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ*)([1]).

ونظـــرا لأن المفكـــر المســـلم متمـــيز عن غيره بحماية نصوص الدين الإســـلامى لعقلـــه وتفكـــيره، فقد أطلق على هذا النوع من التطور اسم التطور الكونـــى العـــام([2])، باعتـــبار أن العـــالم هـــو كل ما سوى الله تعالى ([3])، من الموجـــودات، كمـــا يعلـــم بحدوث هذا العالم أو امكانه ، وتبدل أحواله ([4]) أدلة اثبات وجود الله تعالى.

مـــن حيـــث إثـــبات الأســـماء والصفات، فإن اثباتها لا يكون إلا بالدليل الســـمعى، وما دام كذلك فكل ما فيه من عوالم الغيب والشهادة إنما هى مخلوقة ومحدثـــة لله تعالى، واقع فيها التبدل والانتقال من حال الى حال، ومن طور الى طور ، وهى فى مجملها تمثل حركة دائمة فى الكون على وجه العموم، طبقا لما هـــو قـــائم فى علم الله تعالى نافذ فى قدره([5]) ، وأن ذلك من خصوصيات علمه جل شأنه .

فـــإذا تمت المقابلة بين فهم المفكر المسلم للتطور الكونى العام، وبين فهم أصحاب الداروينية للتطور العضوى ، أدركنا عدة أمور .

---

[1]- سورة الأنبياء الآية ١٠٤ .

[2]- الشيخ أبو الوفا محمد التعمانى - معالم الفكر الإسلامى ص ٤٥ - ط ١ ١٩٢٣م.

[3]- العلامة السيد الشريف الجرجانى - التعريفات - باب العين ص ١٢٦ - ط الحلبى ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.

٤-أدلة اثبات وجود الله تعالى من الناحية العقلية النظرية قامت لدى المتكلمين من أهل الاسلام على اثبات حدوث العالم أو امكانه ، يستوى فى ذلك الأعراض والجواهر ، ولمزيد من التفاصيل ، راجع للإمام الايجى ، الموقف الخامس من المواقف ومعه شرح الجرجانى .

[5]-باعتبار أن القضاء الإلهى هو الكتابة فى اللوح المحفوظ من الأزل والحكم به ، وأن القدر هو تنفيذ مما فى علم الله تعالى لوقته وعلى مقتضاه، لا يفارقه وهو المعنى الذى يمكن الوصول اليه فى المسألة عند الأشاعرة، راجع فى هذا الشأن للشيخ محمود أبو دقيقة: القول السديد فى علم التوحيد - تحقيق د/ عوض الله حجازى ، ط مجمع البحوث ١٤١٥هـ/١٩٩٥ م.

الأول : أن مفكـــرى المســـلمين كـــان لهم فضل السبق فى دراسة مفهوم التطور الكونى العام، مع الالتزام بالنقل المنزل، وأن غيرهم قد استفاد ذلك منهم ، وإن جحد فضلهم أو تجاهل كبرا جهدهم .

الثانى: أن تعبيرات المسلمين وتعاريفهم دقيقة قريبة المأخذ، أما ألاخرون ففـــى تعاريفهم من القلق والاضطراب الكثير، بدليل أنهم يعرفون التطور الكونى العـــام بأنـــه: تكـــامل المادة وما يصاحبها من حالةالتجانس غير المتعين وغير المـــترابط ، الى تنافر أو لا تجانس متعين ومترابط ، وفى أثناء ذلك يطرأ على الحركة المحفوظة نوع من التحول مواز للتحول السابق ([1]) .

فأحـــالوا الخلائـــق الـــى بعضها مع فرض مفهوم العشوائية والمصادفة العمـــياء. واهمـــال أو تجاهل وجود الخالق العظيم جل علاه ، فهم كافرون بالله رب العلمين ومهما حاولوا استعمال لغة الخداع فلن ينفعهم شىء منها .

الثالـــث ، مقارنة التعريفين تؤكد أن ما ذهب اليه المفكر المسلم فيه الدقة بجانـــب العبارة الرائعة والمعنى الجميل، وفوق ذلك إحالة المقدورات كلها الى الفـــاعل الحقيقى، وهو الله جل شأنه، وليس إحالة المقدرات الى ذواتها، مع أنها فى ذواتها عاجزة وغير مدركة لما تقوم به ــ على فرض التسليم الجدلى بأقوال أصحاب ذلك الإتجاه المنحرف ــ فكيف تتكامل من ذاتها، وهى عاجزة عن تفهم ذلك، وغير قادرة على الوصول اليه؟!

الـــرابع ، أن المفكـــر المسلم يولى العناية بالتطور الكونى العام طبقا لما تجـــئ بـــه النصـــوص الشـــرعية من إشارات أو تصريحات أو تلميحات ، أما ألاخـــرون فـــإن عنايتهم بالتطور الإحيائى العضوى واعتباره إلها خالقا مع أنه مجرد مفهوم واقع فيه التنازع من كل ناحية .

---

[1] ـ الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام ـ المدخل الى علم الفلسفة ص٢٣١ ـ ط القاهرة، وهى نفس الفكرة التى رددها هربرت سبنسر عندما ذهب الى أن التطور ما هو إلا عملية تحول من حال التجانس الى حال التنافر، راجع حياة الروح فى ضوء العلم ص ٣٠ وقد سبق بيانه.

إذن تـــاريخ التطور الكونى العام قديم، وحركته مستمرة وملامحه واضحة الدلالـــة فـــى عقـــل المفكـــر المسلم، ومن استفاد من تراث أهل الإسلام، أمكنه ملاحظـــة قـــيام الفكرة على أصول صحيحة هى النقل المنزل ــ القرآن الكريم والســـنة النـــبوية المطهـــرة الصـــحيحة ــ أمـــا التطورالإحيائى، فإن التندر به والسخرية منه ما تزال قائمة وتاريخه كذلك.

فهـــذا كونانت Conant يعلن: << إن الباحث فى التطور الإحيائى لن يجـــد إلا آراء مشـــتتة، لا يمكن اعتبارها أو تسميتها فروضا متميزة نافعة، كما أنهـــا فى مجملها كثيرة، وكل عشرة منها بقرش واحد، ولا يمكن تسميتها بأكثر من أنها خواطر غير صحيحة، وتحمل معها الأسى والسخرية من قائليها ([1]) ، لأنها لا تقدم نفعا ، كما أنها ليست ذات قيمة .

وبالـــتالى، فـــإن البحث عن تاريخ التطور الإحيائى ثم الاعتقاد بصحته ــ علىالـــنحو الذى يزعمه أتباع الداروينية ــ يعتبر ضربا من اللهو المحرم، لأن حقـــيقة الخلـــق لا يعـــرفها إلا الخالق جل جلاله رب العالمين، وتاريخه كذلك، وبخاصـــة إذا افترضـــنا أن هناك عمليات تطورية إحيائية قد تمت فى الأصول الأولى ثم تحولت الى أصول أخرى كتكون الإنسان من حيوان أضعف منه.

وهـــو مـــالم يقـــم دليل واحد صحيح عليه إلآ استنادا الى قدرة الله تعالى وعلمه وإرادته، وهم ينفونها ولا يعتقدون وقوعها، فضلا عن اعتقاد وجودها مع أن علـــم ذلك الى الله تعالى وحده، قال تعالى : (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) ([2]) .

---

[1] ـ كونانت ، مواقف حاسمة ص ٤٠٦/٤٠٩، نقلا عن مجلة الأزهر ، جـ ٢ ص ٣٤٥ ـ السنة الخمسون ـ مقال الدكتور يحيى هاشم فرغلى بعنوان (فى مواجهة الالحاد المعاصر ـ نقد نظرية التطور عند داروين وأتباعه) .

[2] ـ سور الملك الآية ١٤ ، والله غالب على أمره يعلم مخلوقاته كلها صغيرها والكبير ودقيقها وغيره لأنه لا يعزب عن علمه شئ أبدا ، كيف لا وهو الخالق لها الذي لا وجود لها بدونه جل علاه .

بل الآيات القرآنية دالة على أن الأصول العامة للكون ثابتة، وأن هذا الثبات ليس من ذاتها، وإنما بإمساك الله تعالى لها وحفظه أنماط حياتها عليها، من ذلك قوله تعالى : (* وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ *سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ *)[1] .

قال العلامة الفخر الرازي: ذكر الله تعالى أمورا ثلاثة، تنحصر فيها المخلوقات، فقوله تعالى(مما تنبت الأرض) يدخل فيه ما في الأرض من الأمور الظاهرة كالنبات [2] ، وقوله تعالى (ومن أنفسهم) يدخل فيها الدلائل النفسية [3]، وقوله تعالى (مما لا يعلمون) يدخل فيه أقطار السماوات، ونجوم الأرضين[4] وهذا دليل على أنه لم يذكر ذلك للتخصيص بدليل أن لأنعام إنما هي من جنس ما خلقها الله، والمعادن لم يذكرها، وإنما ذكر الأشياء التالية لما فيها من معنى العموم.

وقوله تعالى(ومما لا تعلمون) فيه معنى لطيف، وهو أنه تعالى ذكر كون الكل مخلوقا لتنزه الله عن الشريك، فإن المخلوق لا يصلح شريكا للخالق، والتوحيد لا يحصل إلا بالاعتراف بأن لا إله إلا الله >> [5].

---

[1]- سورة يس الآيات ٣٦/٣٣ .

٢- وبالتالي فكل ما يخرج من الأرض ، لما كان قبل ذلك الخروج مطويا فيها ، فلما خرج من باطنها الى ظاهرها ، وصار مرئيا للعيان فقد دل على أن الذي صنع ذلك انما هو الله الرحيم الرحمن ، الحليم المنان واسع الرحمة والغفران.

٣- وهذا اتجاه جديد في طرائق الاستدلال ، فكأنه في الأول استدل على الله تعالى بالأجسام المادية ثم بعد ذلك قام بهذه الدلائل من الناحية النفسية ، فصار الحديث عن هذين الجانبين يمثل الاستدلال بالكائنات الحية على وجه العموم .

[4]- وهذا الوجه مكمل لما سبق من وجوه ، وكلها دالة على وجود الله تعالى وتوحيده وسائر صفاته فتبارك الله رب العالمين .

[5]- العلامة الفخر الرازي - مفاتيح الغيب، م١٣ جـ ٢٥ ص ١٢٠/١٢١، دار الغد العربي.

فدلت الآيات القرآنية على أن الأصول بالنسبة للكائنات ثابتة، وأنها فى ذات الوقت دالة على وجود الله تعالى وقدرته وإرادته، بجانب علمه تعالى وحكمته، ومادام الأمر كذلك، فإن التطور الكونى العام أمر مما قضاه الله جل شأنه، وأما التطور الإحيائى على النحو الذى يقول به دعاته من أصحاب الإلحاد، فما هو إلا خيال حالمين، لم يقدر لهم شئ من الاستقرار النفسى والهدوء العلمى .

كما أن الأصول التى خلقها الله تعالى منذ بدايتها هى نفسها ما تزال باقية، لم يحدث فيها تغيير بدليل أن الانسان ما يزال منذ أن خلق الله آدم انسانا ، ولم يكن غير ذلك، والنبات خلقه الله منذ أول أمره نباتا ، والحيوان خلقه الله حيوانا ولم يحدث تطور فيه، وإنما حصلت الزيادة فى أعداده أو نوعياته على سبيل التوفيق أو التهجين ، دليل ذلك الخلق الثنائى فى كافة المخلوقات على ناحية الأصول قوله تعالى: (﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾) [1].

وقد أكد على إحالة الأمور كلها الى الله تعالى رب العالمين مفكرو الإسلام، فذكر أبو الوليد بن رشد: أن العالم الإحيائى كله يشبه الى حد كبير حال حيوان واحد، تجرى فيه قوة واحدة روحية ، أما أطرافه فتختلف لكنها مخلوقة لله تعالى، بجميع ما فيه من مبادئ سواء أكانت مفارقة ،أم غير مفارقة، وأن الله تعالى هو الممسك لهذا العالم كله، الحافظ لكل جزء فيه [2] قال تعالى: (﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾)[3] .

---

[1]- سورة الذاريات الآية ٤٩ .

[2]- العلامة أبو الوليد بن رشد - تهافت التهافت - القسم الأول ص ٣٧٨/٣٧٦ - القاهرة ١٩٦٩م.

سورة فاطر الآية ٤١

مـــن ثم فإن هناك نوعين من التطور بالمفهوم العام الغالب فى الدراسة ، همـــا الـــتطور الكونـــى والتطور الأحيائى، كل واحد منهما له تعريف مستقل، وتاريخ متميز وملامح محددة، وتجرى حوله أحكام هى الأخرى واضحة.

فالتطور الكونى العام أمره قديم وقائم فيه الغاية والقصدية، ويجرى طبقا للحكمـــة الإلهـــية ولا ينازع فى هذا النوع أحد من أهل الإسلام، أو واحد عرف الحـــق الـــذى شـــرعه الله تعالى فاستجاب له([1]) وعرف الصدق الذى حث عليه الشرع فتحلى به.

أمـــا فكـــرة التطور الإحيائى العضوى التى قال بها داروين وأتباعه فربما أدى القول بها الى بعض النتائج من خلال ملاحقة الظواهر المتشابهه فى الأنواع المخـــتلفة بالنســـبة للحـــيوانات([2]) ولكنه فى مجال الإنسان وخلق الكون لا يمثل ســـوى أحـــد المسلاخات الفكرية التى تولدت عن إيمانهم المطلق بالمادة وحدها، وحصر كافة الموجودات فى الماديات فقط، والإعلان عن عدم التصديق بكل ما هو غير مادى، من حيث إنكاره، وعدم الاعتراف به .

ولـــذا ، فمن الضرورى الإلماح الى أن الثورة الصناعية فى أوربا كانت الشـــرارة الـــتى انطلقـــت فى هشيم الأفكار عندهم، حتى جعلتها واهنة تذروها الـــرياح وتلقـــى بها فى كل اتجاه.([3]) ، وبناء عليه يذهب البعض الى أن تاريخ الـــتطور الإحـــيائى يمكن ارجاعه الى عصر النهضة الحديثة فى أوربا([4]) ولكن هذا الاتجاه عليه ملاحقات عديدة .

---

[1]- وقد أعلن ذلك مجموعة من العلماء الأمريكان فى كتاب تم نشره تحت عنوان الله يتجلى فى عصر العلم، حيث جمعت فيه العديد من الأبحاث المختلفة فى عالم النبات والحيوان، وانتهت كلها الى الاعتراف بالتطور الكونى العام وسريانه طبقا لسنة الله تعالى الكونية وقام الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان بترجمته ونشره فى المحيط العربى والاسلامى، وكذلك كتاب العلم يدعو للايمان حيث اتخذ ذات الخط الفنى الجميل .

[2]- الدكتور/ فؤاد أبو حطب - القدرات العقلية ص٨ ، مكتبة الأنجلو ط ٦، ١٩٩٦م.

[3]- الدكتور/ رفقى زاهر - الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ٩٧.

[4]- الدكتور/ حسن محمد سليمان الشطى ، التطور وتاريخه ص ٩٥ ، ط ٢ ، دار مراكش ١٩٨٧ .

أبـــرزها ظهور القول به لدى أصحاب الفكر المادى فى العالم القديم، حيث ظهـــرت ملامحـــه عند مفكرى اليونان الأوائل وبخاصة الطبيعيين الذين بحثوا أصـــل الكون ونشأته وراحوا يفسرون تلك النشأة على ناحية ديناميكية قائمة فى مفهـــوم الحركة الذاتية للمادة نفسها ، وليس الى خالق عظيم قادر له من صفات الجمال والكمال والأكرام أعلاها، وما ظهر فى أوربا إنما هو امتداد لهذا الإتجاه القديم ، لكن مع ادخال بعض التعديلات عليه طبقا لقاعدة امكانية استفادة اللاحق من السابق.

أمـــا فـــى بلادنـــا الإســـلامية فان الاتجاه المادى العلمانى، والماركسى، والوجـــودى، بل والوضعى، مازال يسيطر على العديد من الصحف والمجلات، ويتبـــنى الدعاية للعلمانية والشيوعية والوجودية، وطرائق الالحاد الأخرى، وهى متعددة ويحاول أصحابها الإعلان عنها، كلما وجدوا الى ذلك سبيلا.

كالماســـونية وأندية الروتارى([1]) ، والليونز وغيرها ، مما ينقل عن الفكر الماركسى أو يدعو اليه، وإن جاءت تحت تسميات أو اطلاقات غير صريحة فى إعلان الخصومة للإسلام ، أومن خلال كتب يصدرونها تنقل هوسهم، كما تهاجم الديـــن علـــى وجه العموم، والإسلامى على وجه الخصوص، وتحاول النيل من مصادره التى تحمله، أو رموزه التى تعبر عنه.

كمـــا أصبحت ـــ لهم صحف معروفة ـــ صدورها ، ليكتبوا فى هذا الاتجاه مـــا شـــاءت لهم أهواؤهم، فضلا عن مجلاتهم الخاصة التى تعبر عن اتجاهاتهم بصـــراحة وتحظـــى بكل الدعم والرعاية، فى حين لم يسمح للتيار الإسلامى ـــ

١- والمؤسف له أن الكثير من هذه الأندية يحظى بشعبية ، كما يحتضن جملة من المسئولين فى بلادنا الاسلامية على أنها أندية ذات أنشطة اجتماعية ، ولا علاقة لها بالدين ، بينما هى أندية يهودية علمانية تعمل على هدم الدين بكل ما أوتي أصحابها من قوة أو حيلة ، وما أمكنهم من وسيلة

الــذى يعــبر عن القاعدة العريضة للأمة الإسلامية ــ أن تكون له مجلة تتحدث باسمه ([1]) .

وهــذا مما يحزن النفس ويبكى الفؤاد، لأننا دولة مسلمة ، وأمة عربية ، زانهــا الإســلام حتى أن دستورها الرسمى هو الإسلام، فالمفروض أن يكون الدعم الكامل لكل ما ينشر حول دين الإسلام من توضيح وتفسير أو دفاع يهدف الى التعمير ، وتحقيق الاستخلاف فى الأرض وليس العكس.

ومــنذ فــترة ليست بالقليلة ولا هم للماركسية والملحدين عموما إلا التهجم علــى القــرآن الكــريم([2])، والسنة المطهرة ([3]) ، والمطالبة الكذوب بضرورة " تحريــر العقــل من سلطة النصوص الدينية، وإطلاقه حرا يتجادل مع الطبيعة، والواقــع الاجتماعى والإنسانى، حتى ينتج المعرفة التى يصل بها الى المزيد من الــتحرر، فيصقل أدواته ويطور آلياته([4]) وينهض للقيام بما يلقى على عاتقه من مهــام ضــروريةولا شك أن من أبسطها-عندهم- الالحاد ممارسة له ، واعتقادا فيه ، واشاعة لكل أساليبه وأسبابه

أجــل هى مزاعم كذوب، واتجاهات تدل على خلفية أصحابها العبثية ، أو الفكــرية العبثية معا وفوق ذلك فهى أمارة واضحة على أن أهل الإلحاد مجتمع واحــد، ومعســكرهم سوف يسقط مهما طال الزمن، وقديما قيل أهل الكفر ملة واحــدة، لأنهــم تحت أقدام الشيطان يجثون، وعلى أعقاب أبوابه يقفون وفوق الأصنام الفكرية التى صنعها لهم يتفاخرون ثم عند الله تعالى الخاسرون .

---

[1] - الدكتور يوسف القرضاوى - الإسلام والعلمانية وجها لوجه ص٩ - دار الصحوة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.
[2] كتب أحد السفراء الملاحدة كتابا أسماه.هل يمكن الاعتقاد فى القرآن، وقد رد عليه الأستاذ/ عبد الله كنون بكتاب جميل عنوانه" نعم يمكن الاعتقاد بالقرآن " فند فيه كل شبهات السفير الملحد وناقشها على الناحية العلمية.
[3] محاولات التهجم على السنة المطهرة من الملاحدة لم تتوقف، وحديثهم الكذوب عنها لم ينقطع، وسوف ترتد حتما سهام العدوان اليهم ، واسأل الله العون والمدد لإخواننا من أهل الإسلام، حتى يستمروا فى القيام بواجباتهم نحو خدمة القرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة محتسبين الأجر من اللهَ رب العالمين.
[4] - الدكتور/ عبد الصبور شاهين - قصة أبو زيد وانحسار العلمانية ص٢٣٠ - الناشرون العرب.

قـــال تعـــالى :(* اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَـئِكَ فِـى الأَذَلِّيـنَ *)(١) ،قـــال صاحب التسهيل : تمكن الشيطان من قلوبهم فاســتولى عليها كلها بحيث صارت له، كما تمكن من نفوسهم فلم يعد لهم حديث إلا عنه ونزواته، ومن ثم لم يذكروا الله المنعم عليهم ولم يشكروا الآءه، ولذا فهم الهـــالكون لأنهـــم قـــد أضاعوا على أنفسهم فرصة الاستفادة بالنعيم المقيم ، كما عرضـــوها للعذاب الأليم(٢) ومثلهم لا يكون له شئ من القبول عند الله وأوليائه وإنما يقع له شئ من القبول عند الشيطان وأعوانه .

ويذهب البعض الى أن فكرة التطور الإحيائية من الأفكار القديمة، بل هى من أقدم تكهنات الفكر الإنسانى (٣)، على اساس أن الإنسان منذ وجد على ظهر الأرض وهـــو يحـــاول تفسير الظواهر المحيطة به، كما يسعى لإبراز الجوانب الـــتى يقـــوم علـــيها، أو تقدم له حلولا مقبولة بالنسبة للمشكلات التى يعانى منها وأكـــثرها إلحاحـــا على خاطره ، ولا يمكن معرفة أى الشعوب على الخصوص حـــاز فضـــل السبق فى متابعة الأفكار التطورية، أو كان لها فى أفراده الوجود القوى (٤) .

ونفـــس النتـــيجة يعلـــنها جـــراهام كانون حيث يصرح بأن فكرة التطور للكائـــنات الحـــية قديمـــة قـــدم الجبال نفسها وأنها قد صاحبتنا منذ فجر تاريخ الحضـــارات البشرية ، بل ربما تقدمت ذلك التاريخ ، لأن الإنسان قد فطر علي حـــب الاستطلاع وعن طريقه الهب حماسه التفكير فى أصول الكائنات المحيطة

١- سورة المجادلة الآيتان ١٩/ ٢٠ .

٢- العلامة ابن جزى ، التسهيل لعلوم التنزيل جـ ٤ ص ٠٦ .

٣- الدكتور/ محفوظ على عزام - نظرية التطور عند مفكرى الإسلام دراسة مقارنة ، ص ١٩١، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، دار الهداية ، وهو يعزو القول الى كارلتيز بريل - هؤلاء درسوا الإنسان ص٢٣ ، ترجمة د/ امين الشريف ط دار اليقظة العربية بيروت ١٩٦٤م.

٤- الدكتور/فوزى محمد توفيق - التطور ونظريته ص٥٣ ١٩٦٧

بــه (١) قــبل أن يفكــر فى أصل وجوده ذاته، لقد شغل تفكيره بكل ما هو واقع تحت امكانياته العقلية وما يمكن له التعامل معه.

ويذكــر الدكتور الفواز أن فكرة التطور الإحيائى قديمة وأنها لذلك اتخذت أبعادا مختلفة، كم جاءت مطالع دراستها فى وقت مبكر جدا بالنسبة للبيئات التى كان لها وجود فى ذلك التاريخ (٢) .

بمعنى أن فكرة التطور من حيث المفهوم لها قدم راسخة فى الزمن القديم ، وأثاربعــيدة وليست وليدة الأفكار الحديثة ، بحيث تنسب اليها استقلالا ، ويقول الدكــتور الجمل نحن إذن أمام فكرة تاريخية بكل ما فى الكلمة من معنى ، وأمام ظاهرة من ظواهر الفكر العتيد العنيفة (٣) ، ومن ثم فان متابعة التاريخ الطبيعى (٤)، للــتطور تســتلزم تقديــم إلماحة عن مظاهر وجودها فى هذه المجموعات الإنســانية القديمــة على أساس أنها التى شهدت أوراقبت أو فى أجوائها ظهرت الفكرة وتطورت حتى الآن وهذه المجموعات تتمثل فى بيئات أربع :

الأولى: البيئة الشرقية القديمة.

الثانية: البيئة اليونانية القديمة.

الثالثة: البيئة الإسلامية.

الرابعة:البيئة الغربية الحديثة.(٥)

١ـ الدكتور / جراهام كانون ـ نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ٩ بتصرف يسير ، ترجمة د/عبد الحافظ حلمى محمد ، مكتبة الأنجلو المصرية.

٢ـ الدكتور/ محسن محمد الفواز ـ التطور وتاريخه ص ٢١ ط ٣ ١٩٥٦.

٣ الدكتور/ أحمد عبده حموده الجمل ـ فى المذاهب المعاصرة ص١٠٦، دار الطباعة المحمدية القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤ ليس المقصود بالتاريخ الطبيعى هنا علم الأحياء ولا ما كان من هذا القبيل إنما المقصود التاريخ العام المراقب للأحداث التاريخية، باعتباره الوعاء الذى تجرى فيه.

٥ـ الدكتور أحمد عبده الجمل ـ فى المذاهب المعاصرة ص ١٠٧.

أولا: فى البيئة الشرقية القديمة.

كـــان مصـــطلح البيئة الشرقية القديمة يشمل مصر والجزيرة العربية الى تخـــوم فـــارس والهـــند، وهذه البيئة التى تمثلت فيها الحضارات الأولى أصدق تمثـــيل، وعبرت عنها فى أوضح بيان، نظرا لموقعها الجغرافى ، وكونها موئل الرســـالات الألهية ، وملتقى القارات التى كانت تمثل العالم القديم[1] ،وهذه البيئة فـــى القديم كانت لها خصائص تميزها عن غيرها ، نظرا لوجود الأنهار العذبة فـــيها كـــنهر النـــيل فى مصر ، ونهر دجلة والفرات فى العراق، وكذلك ظهور بعض الثروات الطبيعية فيها بنسب عالية، ثم سرعة الحركة بينها والانتقال منها واليها ، وفوق ذلك امكانية التعامل مع أهلها فى ألوان التعاملات المختلفة.

أضف الى ما سبق أن هذه البيئة بما لها من سحر وجاذبية ، وما فيها من توافق طبيعى كانت مناخا خصبا لظهور العديد من الأفكار التى نبتت فى رؤوس أصـــحابها ثـــم استقرت على أرض الواقع، وأخيرا صارت هذه النباتات الفكرية معـــارف موثقـــة، تحمـــل نتائج غاية فى الابداع، وتوحى بأن أصحابها يحملون رؤسا ليست فارغة[2] .

بـــل إن هـــذه الـــرؤوس تزدان بعقول غاية فى القدرة على العطاء، نظرا لارتـــباطها بالصـــالح العام وبعدها كثيرا عن الأساطير والخرافات التى كان لها وجود كبير فى بيئات أخرى والرضوخ للأوهام والخوف من المجهول.

وفـــى أحضـــان نهـــر النيل ظهرت الحضارة المصرية القديمة فى جانبها الـــثقافى والمعـــرفى، تحملها ساقان قويان من المعارف الطبيعية واللاهوتية التى أخـــذت فـــى التـــنامى المستمر والتطور الإحيائى بوجه عام ـــ للنبات والحيوان والإنســـان ـــ وكـــان الكهـــنة فى معابدهم يعتقدون فى التطور الماوراء الطبيعة

---

[1] د/ عبد العظيم حسن ثروت ـ أسيا فى التاريخ القديم ص١٧ ، ١٩٦١.
[2] الشيخ محمد توفيق نصر الله ـ الحضارة القديمة ص٢٣ ، ط الدار الميمنية ١٣١٥هـ.

أيضـــا، بدليل أنهم جسدوا الكثير من المعبودات ، وجعلوا الآلهة فى صورها بل عملواعلىاضافة المزيد من العمليات العقلية التطورية فىمجال اللاهوت أيضا([1])

فـــى نفس الوقت كان بعض الفراعين يحرصون على اثبات ذلك النوع من الـــتطور ، حتى يرسخ فى اعتقاداتهم أن هذا الفرعون الحاكم عليهم ، ما هو إلا سليل الآلهة، وبالتالى يضمن لنفسه الاستقرار على العرش، بل ويقع ذلك لأبنائه وأحفـــاده علـــى التوالى ([2])، وكان هذا النوع من التطور يمثل علامة بارزة فى حـــياة هـــؤلاء الملـــوك المتألهة، لأن الفرعون كان يولد بين أبوين ثم يخطو فى مـــراحله العمرية من الطفولة الى الصبا ثم يبلغ سن الشباب وأخيرا تأتيه ملامح الشـــيخوخة التى تمهد له فى القفز الى العالم الأوسع، وفى هذه الأثناء كان يعتقد حدوث التطور المتوالى فى الأنساب بل والإنسان الفرعون بصفة خاصة .

وفـــى مجـــال عالم النبات لاحظ المفكرون القدماء هذه العمليات التطورية داخـــل عـــالم النبات حيث توضع بذرة واحدة فى الأرض، ثم تنمو فتصير عودا أخضر، فإذا اكتملت عملية الاخراج فيه ظهرت البذرة من خلال ثمرات كثيرة ، كمـــا فى الفاكهة ، أو سنبلات القمح ، وكانوا يعتقدون فى امكانية احداث نوع من التهجين السلالى النباتى، وربما حدثت لهم فيه بعض التجارب التى كانت لها صـــور بدائية خالصة لكنها مهدت لعلم النبات الذى نعرفه اليوم.([3]) ويطلق عليه اسم التطور النباتى .

---

[1] فرانسوا دوماس - آلهة مصر القديمة ص٧١ ، ترجمة زكى موسى ، سلسلة الألف كتاب ، الهيئة المصرية ١٩٦٨، والملاحظ أن هذا الفهم كان سائدا فى مصر الفرعونية ابان حكم الأسر، حيث عملوا على تدعيم هذه المفاهيم فى النفوس وتطويرها على الدوام، حتى تصير اعتقادات راسخة فى عقولهم وقلوب أفراد الشعب أيضا، ومن ثم وقع التطور فى صور أرضية محسوسة وعلوية غير محسوسة، بدليل ظهور العائلات الإلهية فى المجتمعات المصرية الفرعونية القديمة، راجع الدكتور هوك، عقائد الشرق القديم ص ١٤٥ ، ترجمة عبد العظيم عثمان ١٩٥١م، والشيخ على محمد حكمت الله ، العقائد الوثنية ص ٣٤، الدار الإسلامية ١٩٣٢، والدكتور عبد العظيم محمد خليل، الحضارة المصرية القديمة ص ١٤٧ ١٩٧٧.

[2] الدكتور/ فوزى محمد شبل - دور الفراعين فى العقائد المصرية ص ٥٣ ط٢ ١٩٦١.

[3] أ . ب تاتيهوم - حضارة ما قبل التاريخ ص ٧١ ترجمة حنان وصفى، بيروت ١٩٧١. ، ف . م نيكولسكى - تعدد الآلهة والوحدانية فى الديانة المصرية القديمة ص ١٤٧ ، ترجمة المهندس زكى فؤاد ، دار الفؤاد ١٩٥٣.

أما فى عالم الحيوان فقد وقع التطور بعملياته المتعددة فى كافة الحيوانات غير المقدسة، بدليل ظهور أخلاط من الحيوانات لم تكن لها أصول قديمة معروفة، وكان المصريون يقومون بعمليات التهجين السلالى فى الحيوان بغية ارضاء الآلهة، فظهرت البغال فى مصر القديمة متولدة من حمار وفرس، حيث يجمع البغل بين صفتى والديه، وهما القوة والغباء (١)، أما البقرة المقدسة فلم يقع لها التطور إذ كانوا يرون أن أى إقتراب منها يثير غضب الآلهة (٢)، وربما أثار حفيظة البقرة المقدسة ذاتها .

ومن ثم فهم قد مارسوا التطور الإحيائى لا على سبيل المعارف المجردة وإنما على سبيل التجريب ، ولذا يمكن إعتبار الحضارة المصرية القديمة من أسبق الحضارات فى هذا المجال ، كما يمكن النظر الى ما خلفه قدماء المصريين على أنه حقبة من حقب التطور (٣) ، ولا يمكن اسقاط الجهود التى حاولت التعرف على البدايات الأولى لظهور الأفكار التطورية فى هذه المنطقة من العالم القديم.

لقد كان المصرى القديم حريصا على ارضاء الآلهة المتعددة وكان أمينا فى خدمته لفراعنته، وفى ذات الوقت كانت إمكانياته العقلية المتواضعة مكتظة(٤) بالمعارف والعلوم التى مكنته من احراز فضل السبق على غيره فى البناء الحضارى، وإقامة صرحه المدنى فى شواهد ثابتة ومظاهر قائمة، فظهرت العمارة بقوتها والأهرام من أكثر الشواهد عليها.(٥)

١-ومن المشهور أن الحمار من أكثر الحيوانات غباء ، والله عز وجل قال فيه (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) سورة لقمان الآية ١٩ . وفى الأمثال والحكم السائرة ، ما خلق الله شيئا وأكره الاصوات الحمار ، راجع للاستاذ محمد باشا فؤاد ، الأمثال العربية باب الميم ص ٢٣٠ ط دار العربية ١٩٢٦ .

٢-الشيخ عبد المعبود عطية . اتجاهات الفكر الشرقى القديم ص ٤٥ مطبعة الآستانه ١٣١٩ هـ .

٣-وليم بيتز . حضارة المصريين القدماء ص ٧١ ترجمة على فتح الله ، بيروت ١٩٦٥ .

٤-وكلما كانت العقلية متسعة فانها تجمع معلومات اكثر ، أما اذا كانت عقلية ضيقة غير مرنة ، فانها تجمع معلومات قليلة ثم تضيق بما فرغ.

٥-لم تكن العقلية المصرية خاضعة لتعاليم تأليه الفراعين فى شكل عام، وانما كان ذلك هو الاتجاه الرسمى، وربما ساعد ذلك العلماء المصريين فى المجالات المختلفة حتى يتفرغوا الى أعمالهم العلمية، وإتاحة الفرصة للابتداع

كما ظهرت عمليات تعبيد الطرق وحفر الترع وشق القنوات، كما اكتشفت سلسلة من الآثار في تل المسخوطة والعمارنه والسرابيوم كلها تتحدث عن تاريخ الحضارة المصرية ([1])، وفي نفس الوقت تشهد بأنهم كانوا سباقين لخوض غمار العمليات العقلية في مجال بحث التطور الإحيائي على الناحية التي تمكنوا منها فكانوا بذلك أسبق من غيرهم.

بيد أنهم كانوا في بعض الأحيان يربطون التطور بناحية علوية ميتافيزيقية خالصة، كاعتقادهم في أن الآلهة متى غضبوا الحقوا الشر بالإنسان وعرف ذلك عندهم باسم غضب الآلهة، وبالتالي يقع لهذا الغضب ناتج يتمثل في عواصف شديدة تقتلع الأشجار وتدمر النبات ، أو زلازل وبراكين تحيل المدن العامرة الى خرابات ، أو تمتنع السماء عن اسقاط الأمطار، وقد يحدث العكس فتكون الغضبة الإلهية متمثلة في أمطار تسبب الفيضانات العالية التي تهدم البيوت وتجتاح الزروع.

وقد كانوا يعدون ذلك كوارث لا قبل لهم بها، ومن ثم كانوا يعملون دائما على ارضاء الآلهة عن طريق الكهنة المحترفين ، بدليل ظهور اسطورة عروس النيل، واسطورة الحصاد وغيرها من الأساطير التي برزت في شكل واضح داخل العقلية المصرية القديمة ([2]) وقد مهد ذلك لظهور نظرية الكوارث الطبيعية

لقد ارتبط المصري القديم بجملة من الآلهة التي فرض عليه الالتزام بهاوتقديم أوجه الطاعة والتقديس لها، لكنه في أعماقه كان يتجه نحو غاية عليا وارادة سامية، وإلا ما فكر في البعث واليوم الآخر، وما ظهرت في الآثار التي

الابداعي، من خلال تأمين حياتهم الأسرية،وانفاق الأموال الطائلة على الأبحاث التي يقومون بها واخراجها من حيز النظريات الصماء الى ميدان التطبيق العملي، أو أنهم كانوا يؤلهون الفرعون في المعابد ويؤلهون العلم في معامله وأبحاثه، أ . ب تاتيهوم حضارة ما قبل التاريخ ص١٩١.

[1]- الدكتور/ راضي السيد عبد الراضي- حضارة مصر القديمة ص٢٥٧ . ط٢ ١٩٦١

[2]- د/ عبد العظيم محمد خليل- الحضارة المصرية القديمة ص١٢٩.

خلفوهـــا عملـــيات المـــيزان والحساب، والإعداد الجيد للميت حتى يكون جديرا بالوقوف أمام كهنة الرب أثناء عرض الأعمال وميزانها([1]).

وما كانت الكوارث التى تأتيه بقادرة على اقتلاع هذه المفاهيم من ذاكرته ابـــدا بدلـــيل ظهورهـــا فـــى الآثار التى تخلفت عنهم، وبالتالى مهدت الأفكار المصـــرية القديمة الى ايجاد أرضية مشتركة نمت عليها فكرة التطور التدريجى فـــى مجال الطبيعيات والإلهيات معا مما يجعل حضارتهم سابقة غيرهم ومتميزة عليها.

ويذهـــب كانون الى أن المصريين القدماء قضت تعاليم ديانتهم بأن العالم ولـــيد القـــدرة الخالقة لأكثر من إله واحد، إلا أن الأحوال الهادئة المستقرة التى أوجدهـــا انـــتظام النيل فى ارتفاع مياهه وهبوطها، قد أوحت اليهم – ولا شك – بفكرة أكثر أمنا وسلاما وهى عقيدة الاستمرار فى بحث منشأ الكائنات وأصولها، فالزارع المصرى كان يتصور أنه هو نفسه وجميع الكائنات المحيطة به ظهرت على ذلك المنوال بطريقة منسقة منظمة([2]) .

وهو ما يمهد للتطور الذى يتحدث عنه اليوم ويؤكد أنه قد ظهر فيهم ميل الـــى بحـــث مســـألة الكوارث الطبيعية ، من زلازل وبراكين وجفاف أو أمطار غزيرة،وأنهم بذلك مهدوا لاكتشاف ما نسميه اليوم بنظرية الكوارث فى بلادهم .

أمـــا فـــى بـــلاد الرافديـــن ، أو ما بين النهرين ، فقد ظهرت حضارة ضـــارعت الحضارة المصرية القديمة فى كثير من مظاهرها، بحيث يمكن القول

---

١ ـالدكتور طلعت محمد ذكى ـحضارة مصر القديمة والهتها ص ٧١ ١٩٨٧م.

٢ ـ جراهلم كانون، نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ١٢ ، وراجع للدكتور احمد الجمل فى المذاهب المعاصرة ص ١٠٨ ، ولا شك أن النيل هبة الله تعالى، لكن المصرى القديم كان ينظر اليه على أنه إله، والحفريات التى اكتشفت أكدت أن المصريين القدماء قد ألهوا المنافع ومنها البقرة والعجل الحمار والديك ونهر النيل ، كما ألهوا المخاوف ومنها الأفعى والزلازل والبراكين ، وأنهم كانوا يبحثون عن وسائل تحقق لهم المنافع وتدفع عنهم المخاوف، لقد كانوا واثقين من أن ارضاء الآلهة فى صورة ما يمكن أن يحقق لهم الأمرين معا، جلب المنافع ودفع المخاوف ، كما كانوا يطورون فى هذه الاعتقادات الى أبعد مدى ، راجع للشيخ علىمحمد حكمت الله ـ العقائد الوثنية ص ٢٥٧ وللدكتور ناظم السيد محمد السعيد ـ المنظومة التاريخية للديانات الوثنية ص ١٤١.

بأنهمـا صـنوان وقع بينهما التأثر والتأثير وزاد من حجم هذه العلاقة الظروف المتشـابهة فى كل منهما، مع اختلافهما فى بعض الطرائق البحثية طبقا لطبيعة عقلـية مفكريهم ، أو جاءت بعض النتائج غير متآلفة مع بعضها نظرا لاختلاف المنهج المستخدم .

فبيـن أحضـان دجلة والفرات ظهرت حضارة فى كل من بابل وآشور وكانت المدينتان تتسابقان فى أيهما تحرز أنواعا من الظفر المعرفى والحضارى قـبل الأخـرى ونظـرا لهذا التسابق المعرفى برزت حضارة مشتركة الملامح والقسـمات ، نظرا لكثرة تنقل العلماء بينهما وتلقيح الأفكار التى ما إن تبدو فى بـابل حتى تظهر فى آشور وهو ما يعنى تقاسمهما حضارة واحدة ، أو إنشائهما حضارة مشتركة عرفت باسم حضارة بلاد الرافدين.([1])

غـير أن ملامـح هذه الحضارة قد ظهرت فى الجوانب التى جاءت منها الحضـارة المصرية في المجال اللاهوتى أو ما وراء الطبيعة، والمجال الإحيائى أيضـا، فعددوا الآلهة، كما كانوا يحذرون غضبها ، ويفرحون لاتفاقها ويخشون بأسـها، وكـانوا يقدمون القرابين لها ، بل كانت الذبائح البشرية والحيوانية من خصائص آلهة الرافدين([2]) .

وكان العامة يعتقدون أن هؤلاء الألهة يولدون ويكبرون ولكنهم لا يموتون وإنمـا يـتطورون من العالم الأرضى الى العالم الآخر العلوى، ثم يهبطون فى ملامـح تعـبر عـنها المنافع أو المخاوف، ومن ثم حذر القوم غضب الآلهة ، ورهبوها الى أبعد مدى.

وغلبت على بعض الأفهام فكرة الآلهة الشريرة التى تدفع للشرور، وتنزل الكـوارث وتسـتمتع بالمصـائب، وكانـت هـذه الآلهة الشريرة قد دخلت الى

---

[1] - الشيخ محمد منصور البدامونى- بلاد الرافدين وحضارة الأشوريين ص ٥٧ ، الدار الجديدة ١٩٤١.
[2] -الشيخ عبد الحميد حسن الطويل - حضارة بابل وآشور ص ٧١، ط ٢ الدار البيضاء ١٩٣٩ م.

اعـــتقاداتهم مـــن الفرس المجاورين لهم ، ونظرا لذلك فقد كانوا على توقع دائم وانتظار مستمر للكوارث التى تصبها آلهة الغضب عليهم .

يقــول هولمز كان من جراء تسرب بعض الاعتقادات الفارسية ، الى بلاد مــا بين النهرين ، ظهور طبقة الآلهة الشريرة التى لا تعرف الرحمة، إنما تحب الملحمة ، وأن هذه الآلهة تتصارع دائما فهى فى معارك مع بعضها لا تتوقف ، ويمكــنها انزال الشرور فى كل ألوانها ، حتى باتت الأساطير تحكى عنها بشكل واســع، كمــا تحكى عن آثارها التدميرية([1])، التى لا تتوقف عند حد ، حتى أن أغلــب الشعب الأشورى كان يحذرها وقد عبر عن أشكال هذا الحذر العديد من الآثار التى خلفت تلك الحضارة .

بيد أن البابلين بصفة خاصة كانت لهم تطلعات كثيرة فى المجال التطورى ســواء فـــى عالم النبات أو عالم الحيوان، وكان البابليون القدماء من اكثر الناس حرصـــا علـــى متابعة الخطوات المنهجية فى هذا المجال المعملى، حتى يكونوا ســـابقين لغـــيرهم مـــن الأمم التى تقع لهم معها علاقات، اذ كانت بابل قوية فى القيادة السياسية التى رأت ضرورة السبق لاستيعاب المجال العلمى أيضا .

يقــول تومـــاس هـــيرز لقـــد كانت منطقة بابل تزدان بالعلماء الذين لهم خطـــرات علمـــية ، وانفلاتـــات تجريبـــية اقتبســـت مدادها الأول من الحضارة المصرية القديمة ، نظرا للعلاقات التى كانت قائمة انئذ.([2]).

أجل استطاع البابليون احراز تقدم ملحوظ فى هذا الميدان العلمى ، وان لم يكــن على النحو الذى اعلنت عنه اللاماركية أو الداروينية الحديثة، غير أنه مهد الطريق لها فى صورة من الصور ، أو نحو من الأنحاء ، يقول باتلر: لقد كانت

---

[1] - أ. جون فيتكور هولمز - عقائد الشرق القديم ص٧٣ ولعل هذا ما أوحى لكلتون فى القول بأنه قد نشأ فى نفوس القوم ميل الى الاعتقاد بما نسميه اليوم نظرية الكوارث أى الاعتقاد بالرأى القائل بأن العالم كان يتعرض من حين الى آخر لكوارث هائلة تقوض أركانه، وتبيد الأحياء من صفحته، ثم تعود فى كل مرة بعض القوى الرحيمة الى تعميره من جديد، جراهام كلتون - نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ١١.

[2] توماس هيرز- حضارة بابل ، ص ٣١ ، ترجمة فوزى صبحى ١٩٦٧.

الخطــرات التى ظهرت فى الشرق القديم حول التطور بمثابة الشعلة التى نعلنها لابتداء مارثون السباق، حينما نكون حملة مشاعل ([1]) .

ويقول هيدرز لقد انتجت الحضارة البابلية القديمة معارف لم تقاسمها فيها ســوى الحضــارة المصــرية، وأنهما كانا كأنهما يأخذان من معين واحد ، فإذا ظهــرت فكــرة فى مصر ، كان يظهر رجع صداها فى بابل ، وبالتالى فالقاسم المشــترك بيــنهما هو ذات الحضارة الواحدة ، ومن الصواب تسميتها الحضارة القديمة فى وادى النيل ، والفرات ([2]) .

على أن الأشوريين هم الآخرون كانوا من الحرص على الحضارة بمكان حــتى يقفــوا على معالمها كاملة ، ويأخذوا بأرقى أسبابها ، ومن ثم فقد ظهرت لديهم أنماط حضارية متنوعة بعضها وليد البيئة الأشورية نفسها، وبعضها الأخر أمكن اقتباسه أو استعارته من الحضارة القريبة منهم ، ومنها الحضارة المصرية ، والحضــارة البابلــية ومــن ثم فالمظاهر بينها متقاربة الى حد كبير، مما مهد لظهــور ما يسمى بالوحدة الفكرية على اساس أن القواسم المشتركة واحدة، كما أن الدوافع متقاربة، وفى نفس الوقت فإن الغايات متحدة.

لقــد كانت مفاهيمهم عن الحياة ، والتطورات المصاحبة لمظاهرها أقرب الأشــياء لبعضها ، بدليل أن الأشوريين قد نقلت الآثار المكتشفة ملامح الحضارة عنهم فى المجال العلمي وكذلك المجال الفنى، وكما كانت لهم اسهامات فى مجال الاعــتقادات فقد كانت لهم ايضا اسهامات أكثر فى مجال دراسة التطورات التى تصاحب الكائنات الحية([3])، وان لم تكن مباحثها تحت ذات المسميات ، ومع ذلك

---

[1]- جوزيف باتلر - الشرق القديم معارفه وأساطيره ص ٥٣ ، ترجمة الدكتور محمد الفؤاد ، ط ٢ ١٩٧١.

[2]- توماس هيدرز - الحضارة القديمة فى بابل وأشور ص ١١٤، ترجمة ناهد رمزى ١٩٧٥، وراجع ول ديورانت ، قصة الحضارة ص ٢٦٢/١٨٧، ١٩٦٧.

[3]- ول ديورانت - قصة الحضارة، المجلد الأول الكتاب الثاني، الشرق العربي ص ٢٧٩ ترجمة الأستاذ أحمد بدران، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

فـــلا يمكن تجاهل الدور التى ظهرت فيه بذور جيدة تعبر عن التطور فى شكل من الأشكال القديمة.

وبالـــتالى يمكن القول بأن الشرق القديم – فى وادى النيل والفرات – قدم مـــا يمكن اعتباره خطرات فكرية حول التطور بالمفهوم الإحيائى على معنى من المعـــانى أو ناحية من النواحى ، ولكن لم يقتصر الأمر فى الشرق الأدنى على مصـــر وبـــابل واشـــور ، وأنما أمكن الوقوف على بعض النباتات الفكرية التى تلقفـــت بـــذور التطور ثم أخذت فى معالجتها ، ودفع ماء الحياة اليها فى كل من سومر وفارس، حيث كانت كل منها على علاقة وطيدة بمصر، كما كانت مركزا انتشـــرت مـــنه الحضـــارة الشـــرقية القديمة([1]) ، وفى نفس الوقت كانت البذور الفكرية التى تظهر هنا تقوى هناك ، ويقع لها التبادل المتواصل.

ويعـــتقد برســـتيد أن الحضارة ظهرت فى بلاد السوس القديمة ([2]) ، على أيـــدى شـــعب عظيم غير معروف الأصول أو الأجناس لكن ينتهى اليها احدى المدنـــيات الأولى المعروفة فى تاريخ العالم القديم ، وأن الآثار التى وجدت فيه ترجع الى عشرين ألف سنة، كما أنها تدل على قيام ثقافة راقية فى هذا الاقليم ، ترجع الى ما يزيد على ٤٥٠٠ سنة ق.م.([3]) .

ولا شـــك أن هذه الاثار تدل بوضوح على وجود شعب استطاع أن ينتقل مـــن حـــياة الـــبداوة الـــى التحضر، وأنهم كانوا يزرعون الحبوب ويستأنسون الحـــيوان، كمـــا كانـــت لهـــم كـــتابات مقدسة، ووثائق تجارية وأنهم تقدموا فى

---

[1]- يقول ول ديورانت : قصارى القول أن الأشوريين لم يشيدوا صرح الحضارة ابدا، وانما اخذوها عن كل من بابل ومصر ، وأن اليونان لم ينشئوا الحضارة إنشاء لأن ما توارثوه منها أكثر مما ابتدعوه، وكانوا الوارث المدلل المتلقى لذخيرة من الفن والعلم مضى عليها ثلاثة الآلف من السنين، وجاءت الى مدائنهم مع مغانم التجارة والحرب - ول ديورانت قصة الحضارة المجلد الأول الكتاب الثاني ص ١٠.

[2]- تسمى بلاد عيلام ومعناه الأرض العالية وهى قريبة من مدينة شوشان الفارسية الحديثة وحدود مدينة السوس القديمة كانت تبدأ من الخليج الفارسى حتى الصارة جنوبا، أما شرقا فيمتد من حدود العراق حتى شوشان الحديثة وهى عبارة عن صقع ضيق تحميه من غربه المناقع الكثيرة، ومن شرقه الجبال الحافة بهضبة ايران العظيمة راجع لتوماس اسكورت حضارة الشرق القديم ص ٧٢/٧١

[3]- جيمس هنرى برستيد - فجر الضمير ص ٨

الصـــناعات المخـــتلفة، بـــل كانـــت لهم تجارة تمتد من مصر الى الهند، وأنهم اســـتوردوا اجزاء من حضارتهم عن طريق هذه الأعمال التجارية، وقد اقتبسوا الكثير من ثقافة المصريين القدماء، برزت معالمها فى حياتهم النمطية ومعارفهم العلمية ([١]).

غـــير أن هذا التاريخ ، وإن لم يكن مقطوعا بأنه تاريخ التطور الإحيائى، إلا أنه على الأقل يعين الباحث فى تقدير الأفكار المعروضة ، ثم النظر اليها من خـــلال مـــا أدلـــت به المصادر القديمة، وما تنطق به المفاهيم الحديثة، باعتبار ضـــرورة الـــربط بين ما هو قائم حاليا ، بما كان له آثار فى الماضى، مادامت العلاقة بينهما واضحة المعالم محددة الأهداف.

ويختلف حول هذه النتيجة جوتفريد تايام، حيث يقرر أن الشرق القديم ما كان إلا جملة من الدعاة الذين لم يكن لهم حظ من التفكير المنظم، وبالتالى فليس مـــن الصـــواب العودة الى الوراء حتى نبحث عن تاريخهم، أو نضيع جزءا من الوقت فى صياغة دليل على أنهم كانوا أصحاب فكر تقدمى فضلا عن أن يكون لديهم تطور بالمعنى العظيم ، الذى أنبأت به أبحاث لامارك العظيم أيضا ([٢]).

ومـــن المؤكـــد أن هـــذا الرأى يخالف الثابت من القول، كما يطعن على الأصـــول البحثية، ويحاول القفز فوقها جميعا، لتبرير عداوته للعلم، ورغبته فى ادانـــة الشـــرق، وتحقيق أطماع نفسه بأن يكون رأسا فوق الرؤس، وهى العادة الـــتى تمكنت من رؤس متعصبى المستشرقين الذين لا هم لهم سوى اضاعة ما للشرق من معارف، وغبنه فيما له من حقوق .

---

[١] - ول ديورانت - قصة الحضارة المجلد الأول الكتاب الثانى ص ١١، ومن ثم فقد كانت الاعتقادات بينهم مشتركة وكانت المعارف متقاسمة، وهو ما يعنى ظهور أنماط فكرية متقاربة فى الشرق القديم، وان كانت الاشارات كلها ترجع ظهورها فى أرض الفراعين اولا، ثم انتقالها بعد ذلك الى ما بين النهرين ثم تمتد فى آسيا لتشمل السوس القديمة وما بعدها.

[٢] - جوتفريد تايام - الشرق القديم ص ٣٥ ، ترجمة زهدى فضل ، الرباط ١٩٦١.

والقاعدة أن الحكم متى كان خصما فليس هو من يَقْبَلَ منك الشهود كما لا تقـبل مـنه الشهادة، ومن ثم علينا رده قبل اصدار حكمه فى المسألة المعروضة بالنسـبة له ، أو الـتى فـرض نفسه ليكون هو الحاكم فيها(وهذا المفهوم قد تم تقنيـنه والعمل به فى المحاكم على إختلاف درجاتها، وعرف بمبدأ رد القاضى، لأن خصومته تحول بينه والرغبة فى استظهار الحقيقة واستجلاء الواقع، كما لم يعد مؤتمنا على الأحكام التى يصدرها بهذا الخصوص)([1]).

وإذا كـان كـانون يعـول كثيرا على نظرية الكوارث الطبيعية ويعتبرها النتـيجة الـتى تمثلـت فى أبحاث الشرق نحو التطور ، فإن مفهوم تايهوم يأخذ مسـلكا آخـر حيـن يقـرر أن الشرقيين عرفوا النباتات ، كما مهدوا بأفكارهم المـتلاحقة لقـاعدة الانتخاب الطبيعى، وأنهم لم يقعدوا لها ولكن يكفيهم التمهيد لظهورهـا واخراجها من دائرة الأفكار الخاصة ، الى ميدان التجربة العملية فى أبسط صورها ([2]) .

وأن هـذه الأفكـار لو قدر لها أن تجد الفرصة المناسبة للاعلان عنها، وكيفـية ابـرازها فـى شـكل خلاب، ربما سبقت أصحابها المعاصرين بآلاف السـنين([3])، لا علـى أساس أنها فكر لاماركى ، أو داروينى، وإنما على أساس أنها ناتج فكرى فى جانب إحيائى غير الحادى.

علـى كل يمكن القول بأن أقدم النظريات الشرقية ، فى هذا الجانب جاءت ، ممـثلة فى نظرية الكوارث ، التى خرجت من منطقة ما بين النهرين فى بلاد الرافديـن، ونظـرية التطور التدريجى التى خرجت من مصر ثم استقرت لدى

---

[1]- هذا المبدأ معمول به وفى بلادنا الاسلامية ، داخل نطاق الشريعة الاسلامية لأنه إذا استحكم الغضب من القاضى فلا يكون مقبولا منه الحكم ، ولذا قيل لا يقضى القاضى وهو غضبان ، لأن قضاءه حينئذ لن يكون مأمون الجانب

[2]- لويس تايهوم - الحضارة الشرقية والتطور الحضارى ص ١٥٧ ترجمة وفاء زهدى ١٩٦٧.

[3]- أ. ب هايد ثورك - النباتات القديمة ص ٢٣٢ ترجمة لطفى السيد فخرى ١٩٥٣.

اليونان، بل نستطيع الزعم بأن هاتين النظريتين ظلتا تسيطران تماما — ودون مزاحمة — حتى انقضاء فترة ليست بالقصيرة من التاريخ الحديث ([1]).

ولا يمكن اعتبار تاريخ الفكر الحديث مستقلا تمام الاستقلال عن الأفكار القديمة التى ظهرت فى البيئة الشرقية، وإنما يمكن حسبانها مكملة لها، لكن على ناحية التطور ، الذى تقع فيه امكانية استفادة اللاحق مما وضعه السابق.

ولما كانت القاعدة هى ، أن الأفكار الإنسانية تنتقل من مكان الى آخر، ويتم التلقيح بينها فى صورة من الصور، فإن إمكانية انتقال البذور الفكرية التطورية التى وضعها المصريون القدماء، والأخرى التى راعى قيامها قاطنو بلاد ما بين النهرين، تعتبر أمرا مقبولا، ويحتاج المتابعة داخل الأروقة الفكرية فى البلاد القريبة من منطقة البذور الأولى للحضارة الانسانية ، والأفكار التطورية .

ثانيا: فى البيئة اليونانية القديمة:

اليونان أمة قديمة ظهر فيها الكثير من الأفكار على الناحية التنظيمية، فهى وإن لم تكن أمة مبتكرة لكل الآراء إلا أنها على الأقل أمة تستطيع تنظيم الأفكار وتبويبها ثم إعادة صياغتها بحيث تصير فى النهاية يونانية الأصل، ونظرا لهذه الخصوصية فقد استطاع اليونانيون الأوائل النزول الى ميادين الثقافة والاقتراب الشديد من مواقعها بحيث تكون هذه الثقافات قريبة المنال ([2]) ، ولأنهم أصحاب عقلية منظمة مبوبة ، فقد سلكوا مسالك عديدة بغية تمكنهم من هذه المعارف مع الحرص الشديد على انتاج معارف جديدة تكون خالصة لهم .

فإذا كانت العصور السابقة التاريخ قد دانت لأفهام الشرقيين فإنها فى ذات الوقت وجدت أرضية صالحة للنمو عليها فى بلاد اليونان، ولقد وقف المؤرخون

---

[1] - الدكتور/ أحمد الوجيل - فى المذاهب المعاصرة ص١٠٩.

[2] - راجع فى هذا الشأن الدكتور رمزى محمد صبحى - أوربا والإسلام ص٥٧ ط٢ ١٩٥٤.

طويــلا أمــام ظاهــرة التشـابه الثقافى بين ملامح الحضارة المصرية القديمة واليونانية القديمة أيضا، ثم بان لهم أن اليونان كانوا يرسلون بعثاتهم الى الشرق حتى يتعلموا من أهله العلوم والمعارف الرياضية والطبيعية([1]) .

ولــم يكــن لديهــم استعداد للتنازل عن معتقداتهم الدينية فى الآلهة التى يعــبدونها، وبالــتالى فلم يقع لهم نسيان للألهة الإغريقية المنفردة التى بلغت فى بعــض الأحيان زهاء الألف، وكانت كلها يعتقد فيها ، وتتم عملية تقديم القرابين لها فى صورة أو أخرى .

وتطبــيقا لهــذه المبادئ فقد سارع اليونان الى ارسال بعثاتهم ، وتوجيهها نحو الشرق، فرحلت هذه البعثات الى المدن المصرية القديمة، وتعلم أفرادهاعلى أيــدى العلمــاء والكهــنة المصريين، إذ كان البعض منه يمثل حلقة اتصال بين الأعمال الكهنوتية والأعمال العلمية، ولم يكن هذا البعض يجد غضاضة فى تعلم العلوم المدنية النظرية والتجريبة ايضا، مما ساعد الكثيرين على الاقتراب منهم، بجانب الأخذ عنهم بغرض تحقيق الذات، وتحديد الهوية([2]) .

وفــى ذات الوقــت كانت هناك افتراضات لدى بعض الكهنة المصريين تحــرم سلوك هذا السبيل ، ولا تشجع عليه، باعتبار أنهم يرون هذا العمل داخلا فــى نطــاق القرصنة بلغة اليوم ، أو أنهم كانوا يريدون أن يظل الفكر المصرى ارستقراطيا الى أبعد مدى([3]) .

وهــى نظــرة ضــيقة لم تجد من يأخذ بها، بل الوقائع التاريخية لم تقف لصــالحها ، بدلــيل أن أغلــب فلاســفة اليونان المشهورين كانت لهم اتصالات بــالمدارس المصرية القديمة سواء عن طريق الانتقال المباشر، أو كان ذلك عن طريق المؤلفات التى تم نقلها اليهم.

---

[1]- الدكتور / فوزى محمد ثروت - العرب والتراث الحضارى ص ٦١ ط٢ ١٩٧٢.
[2]- انطوان بل - تلاقى الحضارات ص ١٥٧ ترجمة الدكتور حسن الصغير ط ٢ دار المعتصم ١٩٥٦.
[3]- توماس هيدرز - كهنة مصر ص ٧١ - ترجمة حنان زهدى ١٩٧٧.

أمكن لليونانين القدماء التتلمذ على أيدى المصرين، فأخذوا منهم المعارف ونقلـــوا عنهم النتائج، ثم أعادوا النظر فيها فيما بعد، فأضافوا اليها من عندياتهم وكـــان ذلـــك فـــى الجانـــب العلمى والفنى وسائر الجوانب الأخرى عدا الجانب الميتافـــيزيقى اللاهوتى، إذ كان الكهنة اليونان يحرصون على عدم نقل القضايا الميتافيزيقـــية مـــن أى مجتمع أخر حتى لو كان كهنوتيا أيضا، تحت زعم عدم ضـــمان صـــدقها، ولما حاول سقراط الخروج على هذه القاعدة ، وضعت أمامه قائمة من الاتهامات دفعت قضاته الى الحكم عليه بالاعدام.([1])

إذن تســـللت الأفكار التطورية من الشرق ــ مصر وبلاد الرافدين ــ الى الـــيونان أيضا، وتم تطبيق ما يتعلق منها بالجوانب الحضارية دون أن يكون له شـــئ مـــن الاثار السلبية، فثاوفلط اليونانى عاش فى مصر قرابة عشر سنوات يتعلم من كهنتها المتفتحين كل من الرياضة والطب والعلوم الطبيعية .

ولما عاد الى اليونان نقل اليهم كل ما اقتبسه ، لكن فى لغة يونانية، وكان أسرع ما تمت ترجمته هو الرموز الجبرية فى صورتها الأولى، والأسس العامة لعلمـــى الطبـــيعة والفلك بجانب بعض الخطرات الميتافيزيقية وما يتعلق بمفاهيم الكائنات الحية([2]).

ويقرر كانون أن الأفكار المصرية القديمة حول التطور والحياة قد وصلت الـــى البيئة اليونانية عن طرق عدة ويذكر أن فيثاغورث الرياضى الشهير رحل الى مصر وأقام فى ربوعها نحوا من عشرين عاما وأنه لما عاد الى موطنه نقل الـــيه كـــلا من فكرة الاستمرارية والاضطرارية، وهما الاسمان اللذان أطلقهما الناس فيما بعد على تلك الأفكار الأولى للمصريين القدماء ([3]) .

---

[1]- الدكتور/ صابر محمد الضبع - الفلسفة اليونانية ص١٣٢ ط٣، ١٩٦٣.
[2]- الأستاذ بيومى السيد عبد العظيم - الحضارة أصولها وتطورها ص ١٧٣ ١٩٥١.
[3]- الدكتور احمد الجمل - فى المذاهب المعاصرة ص ١٠٨ ، وراجع جراهام كانون - نظرات فى تطورات الكائنات الحية ص ١٣/١١.

لقد شاعت هذه الأفكار المنقولة الى البيئة اليونانية، وعاشت بين المفكرين حـتى التقطها أرسطو وحاول دفع دماء جديدة اليها، وتغذيتها بالأفكار التى تدعم موقفــه، وتثبت صحة نسبتها اليه، بحيث يكون هو الأب الروحى لها فيما بعد، أو على الأقل يكون فكره هو الأصل الذى قامت عليه ، ويقرر كانون أن الفيلسوف الأغــريقى أرسطو قد ورث تلك الأراء ، ثم عالجها بمنهاجه الخاص ، فاستنتج مــن تلــك المعــارف المصرية القديمة التى عاد بها فيثاغورث الى وطنه وهى الفكرة التى نسميها نحن اليوم التطور ([1]).

ويذهــب بللـــى جرام الى أن أرسطو كان مدينا فى أغلب مباحثه الفلسفية للزمـــرة الفكرية التى استطاع اليونانيون اقتباسها من الفكر الشرقى القديم، حيث ظهــرت تلك الأفكار الأفكار فى كل من وادى النيل والفرات معا. وأن الفلاسفة الــيونان كانوا ينقلونها عن فلاسفة الشرق بصورة كاملة([2]) وبالتالى فالشرق هو أساس الحضارة ، والغرب لاقط لها من أصولها .

أجــل اســتطاع اليونان بعد هوميروس ([3]) وهيزيود(٤)، الانتصار للفكر الشــرقى حتى وان كانت تلك الانتصارات تجلب على الفلاسفة اليونان غضبات القــادة السياســين الذيــن كانوا يرون فى المحافظة على التراث اليونانى وعدم

---

[1] - جراهام كانون - نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ١٣/١٢ ، وبناء عليه يرى الدكتور الجمل ان فكرة التطور التدريجى للكائنات الحية قد نشأت فى مصر ثم ترعرعت وأينعت فى الفكر الأغريقى عبر فلاسفة عديدين من ابرزهم ارسطو. راجع للدكتور احمد الجمل فى المذاهب المعاصرة ص ١٠٩ .

[2] - بللى جرام أثر الحضارة الشرقية فى اليونانية ص ١٥٧ ، ترجمة رزق فوزى ١٩٦٧.

[3] - هو صاحب الملحمة الشعرية الإلياذة التى تحدث فيها عن عصبة قليلة من القبائل الإغريقية استطاعت محاصرة مدينة طرواده بآسيا الصغرى، ثم استولت عليها وانتهبتها] .

٤- هو صاحب ملحمة الأوديسا، وهى قصة طويلة تروى مغامرة أوديسيوس البطل الحكيم أثناء عودته من محاصرة طرواده الى جزيرته والملحمتان قد دونتا فى الزمن الذى يسبق القرن الثامن قبل الميلاد، ويذهب ويلز الى أن هاتين الملحمتين قد وجدتا قبل هذا التاريخ بزمان طويل جدا، أو كانتا منسوبتين فيما سلف الى شاعر ضرير اسمه هوميروس زعم الناس أنه هو الذى صاغهما مثلما ألف ميلتون قصيدة الفردوس المفقود ثم يشك فى وجود الشاعر وقدرته على الابداع فيقول: فهل وجد هذا الشاعر حقا ؟ وهل ألف هاتين الملحمتين أو اقتصر أمره على تكوينهما وصقلهما الى غيرذلك ويلز - موجز تاريخ العالم جـ ١ ص ١٦١.

اختلاطه بغيره مزية وميزة ايضا، ولم يكن لديهم شئ من التسامح الفكرى بحيث تنمو الأفكار الشرقية داخل البيئة اليونانية.

غـير أن اسـبرطه قد وليها قادة لديهم تطلعات علمية من أمثال ثاوفنس، كمـا كانـت هذه التطلعات العلمية تتوق الى الأخذ عن الآخرين، وتدفع بهم الى مـيدان الاحتكاكات العلمية، وهو ما جعل أغلب الأفكار العلمية تنتقل من الشرق الى اليونان فى صورة أو أخرى.

ويذكـر المؤرخون أن أغلب الأبحاث العلمية التى كانت لها صور ذهنية فـى الماضى قد نقلت الى ميادين الفكر اليونانى وصارت قابلة للاعلان عنها فى أثيـنا وغـيرها من البلاد اليونانية، وقد نجا أغلبها من الوقوع فى دائرة الأحكام التى كانت تصدر لابطال مذاهب فكرية شرقية بعينها، ومن ثم فقد شرع فلاسفة الإغريق فى تدريب العقل على المغامرة الفكرية بطريقة وروح جديدتين ([1]).

على كل ظهرت ملامح التطور الإحيائى فى الفكر اليونانى، ولا مانع من القـول بـأن هذه الملامح كانت تبدو قوية بعض الأحيان ضعيفة جدا فى بعضها الأخـر، ولكـنها نقلت بعد ذلك الى البيئات الأخرى على أنها فكر يونانى جديد، وليس باعتبارها فكرا شرقيا مستقلا تمام الاستقلال عن البيئة والفكر اليوناني.

يقـول هيرز : من المؤكد أن اليونان أمة لها نصيب من التحضر، لكن أن يكـون ذلك على حساب جهود أمة أو أمم أخرى فذلك ما يرفضه الباحث العلمى المحـايد، كما تلفظه المعارف العلمية الصحيحة([2]) وهذه الشهادة منه تؤكد على أن الغرب يكابر ويسعى لسرقة جهود الأخرين.

---

[1]- هـ . ج ويلز - موجز تاريخ العالم جـ ١ ص ١٦٠ ترجمة عبد العزيز توفيق

[2]- توماس هيرز - معالم الحضارة الانسانية ص١٧٧ ترجمة فؤاد خليل ١٩٥٧.

لكـــن لمـــاذا أو كـــيف انتقلـــت هذه الأفكار الى البيئات الدينية كاليهودية والمســـيحية([1])، طالما أنها معارف علمية تتعلق بقوانين وأنظمة حياتية، وليست متعلقة بقضايا أو اعتقادات دينية ؟

والجواب أنها نقلت لليهودية لعدة أسباب:

الأول: أن العنصر اليهودى عنصر مشتت تجرى فى أفراده صفات الغدر والخسه، بجانب الطمع فى الحياة مهما كانت دونية رخيصه، وهم لذلك يحاولون امتصـــاص معـــارف الآخرين فى غفلة من الزمان، ثم اجترارها بعد صياغتها ليكون اخراجها على الناحية الجديدة مبلغا معهم الأهداف التى يسعون اليها.

ومن أبرزها مزاعمهم الامتياز بالنسبة لغيرهم وتفوقهم عليهم ([2]) ، وذلك مـــن شأنه العمل على اقتناص الأفكار العلمية أو المنسوبة للعلم حتى ولو كانت عبثية ثم تغطيتها بما ينتهى الى الحكم الظاهرى بكونها يهودية الأصل .

الثانى: حرص اليهود على جلب وسائل الشهرة وذيوع الصيت، وذلك من شـــأنه أن يدفـــع بهم الى نسبة الأفكار الغربية اليهم أو نسبتهم الى ذات الأفكار، المهـــم أن تقع لهم الشهرة التى يتفاخرون بها على غيرهم من الأمميين([3]) الذين يعتبرونهم خلقوا لخدمة اليهود فقط، وشأن المميز فى الأصل أن يكون سابقا فى العلوم والمعارف على ما يزعمون.

---

[1] -المعروف أن اليهودية كان لها وجود قبل الميلاد باعتبارها لمة يهوذا الفارسي القديم، ولها وجود باعتبارها مفهوما اسرائيليا على أساس أن اسرائيل أحد أبناء يهوذا وأن هذا الوجود لهذه التشكلة ربما تمتد فى تمضى فى سبعة الآف أو ثمانية قبل الميلاد ، وربما ارجع البعض تاريخ وجودهم الى الأحقاب المائل التاريخية، ولكل وجهة ، راجع ليوتاكسيل التورات كتاب مقدس أم جمع أساطير ص ٣٣ ترجمة د . حسان ميخائيل.

[2] - برتوكولات حكماء صهيون تؤكد هذه الفكرة ، راجع البروتوكول السابع، والخامس عشر، تحقيق الأستاذ محمد خليفة التونسى، و الشعوبية فى اليهودية وموقف الاسلام منها ، رسالة ماجستير بالمعهد الأسيوى جامعة الزقازيق ٢٠٠١. للباحث شباته محمد اسماعيل .

[3] - الأممين لفظ يقصد به فى العهد القديم الأجناس والشعوب التي ليست اسرائيلية، فكل شعب من شعوب الأرض ليس اسرائليا هو أممى، راجع قاموس الكتاب المقدس ص١٣٥، ومعجم اللاهوت الكتابى ومعجم اللاهوت المسيحى، ودائرة المعارف الكتابية فهى جميعها تحدثت عن هذه الفوارق بين الأممين والعنصر الاسرائيلى مما يؤكد انحيازهم للفكرة الشعوبية القائلة بأن اليهود شعب متميز وأنهم أبناء الله مع أن الله تعالى قد أبطل ذلك كله قال تعالى : قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما واليه المصير، سورة المائدة الآية ١٨.

الثالـــث: مـــا فى العقلية اليهودية من ميل نحو إشعار الآخرين بأنهم الأقل فى واقع الأمر، وحينئذ لن يفكر أحد منهم أن يرفع عصاه على اليهودى أيا كان المجـــتمع الـــذى يعيش فيه، أو المبررات التى تقوده لذلك، بحيث يظهر الآخرون على أنهم أمم مستهلكة لا أمم منتجة، أمم مستوردة لا أمم مصدره.

الـــرابع: حـــرص العقلـــية الاســـرائيلية علـــى اختراق الحواجز القوية، والحصون المنيعة داخل الأطر العلمية، لأن ذلك من شأنه افساح المجال للعنصر الـــيهودى حتى يعبث بمقدرات الناس على النحو الذى يمكن العنصر الإسرائيلى من التفوق الفعلى والواقعى وليس التفوق النظرى الخيالى ([1]) .

وقـــد أثمـــرت هـــذه الأسباب مجتمعة نتائج عديدة من أبرزها أن العنصر الاســـرائيلى فـــى تاريخـــه كلـــه لـــم يكن منتجا بقدر ما كان مستهلكا للمعارف الإنســـانية، وأنهم برعوا فى ادخال كل التميزات العلمية الى حوزتهم ، حتى لو كانـــت فـــى حقيقـــتها قائمة على أفكار العبث واللامعقول، أو تدعو الى الرذائل والتخلى عن الفضائل([2]) .

ولـــذا لم ينقل التاريخ عن اليهود أنهم كانوا أمة وفيه ، أو تعرف احترام حقوق الآخرين ، أو أنها أمة يسعى أفرادها لإحقاق الحق ، ورفع راية العدل بل على العكس من ذلك تماما تصدر أفعالهم.

يقـــول نيكولســـكى: أن أكـــثر الـــيهود استقلالا عن بنى جنسه، واحتراما لشخصـــه، قـــد عـــب من آبار التحلل حتى أن موسى بن ميمون لم يكن بامكانه اخفاء ذلك النوع من الممارسات الشاذة والأعمال العدوانية ([3]).

---

[1]- الدكتور / حسن محمد جابر - الخطر الاسرائيلى ص ٣٧ ، ١٩٦٥، الموصل ويؤكد أن التاريخ الذى تحدث عن بنى اسرائيل ذكر من أوصافهم السلبية الكثير وأنهم فى كل مراحلهم لم يكونوا سوى حفنه من المرتزقة الذين لا هم لهم سوى اشعار الآخرين بأنهم أقل منهم.

[2]- الدكتور / صابر عبد العظيم هلال - اسرائيل الماضى والحاضر - ص ١٤١ ط ٢ ، دمشق ١٩٧٧.

[3]- ن . م نيكولسكى - تعدد الآلهة والوحدانية فى الدين اليهودى ، ص ١٥٧ ترجمة المهندس فاضل محمود الزغبى ، دمشق ١٩٥٩.

ويقرر ول ديورانت أن حرب الطبقات كان منتشرا فى اسرائيل ، ولكنها لم يندلع لهيبها إلا بعد أن رأى الناس بأعينهم ثروة سليمان الطائلة حين حول البلاد من دولة زراعية الى أخرى صناعية، ..وكان من جراء ذلك وجود طبقة من المتعطلين فى أورشليم مما جعلهم من عوامل الشقاق والفساد السياسى والاجتماعى فى فلسطين، بل أدى ذلك الى انقسام فلسطين بعد موت سليمان لمملكتين متعاديتين تماما.

الأولى: مملكة أفرايم الشمالية — اسرائيل — وعاصمتها السامرة.

الثانية: مملكة يهوذا الجنوبية وعاصمتها أورشليم ([1]).

وقد ساعدت هذه الظروف اليهود حتى أخذوا عن الغير أفكارهم، كما أخذوا عنهم اعتاقداتهم، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على انفعالاتهم الشخصية واندفاعاتهم الآنية ، كما لم يستطيعوا التخلص من العادات المرفوضة التى سكنت أفئدة الاسرائيلين أو يقتبسوا عادات الآخرين متى كانت مقبولة .

ويذهب كثير من الدارسين الى أن اليهود وهم فى فترات السبى والشتات، كانوا يقتبسون معارف الأمم الأخرى أو يحرصون على ذلك الى أبعد مدى ، وأن نظرية الكوارث قد انتقلت الى اليهود اثر غزو بختنصر لقبائل مملكة يهوذا، ثم ابعادهم عنها الى بابل الواقعة فى اقليم ما بين النهرين، حيث ظلوا اسارى طيلة جيلين كاملين .

بيد أن ذلك الأسر لم يكن ضيق الخناق، مقيد الفكرعلى هؤلاء المشرزمين،وإنما كان فترة استجمام ونمو ذهنى، حتى قيل أن اليهود قد ذهبوا الى بابل همجا برابرة ثم عادوا منها قوما متحضرين([2]) .

---

[1]- ول ديورانت - قصة الحضارة - المجلد الأول ، الكتاب الثانى ص ٣٤٨.
[2]- الدكتور احمد عبده الجمل - فى المذاهب المعاصرة . ص ١٠٩ .

بدلـــيل أنهـــم لما عادوا الى أورشليم ووضعوا جملة من الأسفار المقدسة ظهـــر فـــيها اقتباســـهم مـــن العنصـــر البابلى ، قصة الخلق التى حفل بها سفر التكويـــن([١])، وكذلـــك الـــرواية التى كتبت عن طوفان نوح ([٢]) ، وهما روايتان فيهما الجوهر الأصلى لنظرية الكوارث.([٣])

ويعتقد بيل أن هناك تطابقا كبيرا بين قصة الخلق فى سفر التكوين بالنسبة لكـــل أحداثها وشخوصها الرمزية، وقصة الخلق فى الفكر السومرى، وأن أوجه المشابهة بينهما لا يمكن إغفالها([٤]).

ويطـــرح ول ديورانـــت فرضـــا جديدا يقوم على استعمال اليهود نظرية الكـــوارث بمفهـــوم قد يختلف عن المفاهيم التى كانت ذائعة حينئذ حيث يذكر أن أشعيا الثانى راح يعلن لليهود المنفيين فى نثر جزل مشرق مبادئ التوحيد، كما يعرض عليهم الها جديدا شفيقا عليهم رحيما بهم يفوق فى شفقته ورحمته ما كان علـــيه يهـــوه الغضوب، كما صوره أشعيا الأول نفسه([٥]) ، ومن ثم أدخل اليهود علـــى كـــتابهم المقدس نظرية الكوارث فى الجانب الميتافيزيقى والفيزيقى على السواء.

مـــن الســـهل إذن الطعـــن على كل نتائج العقلية اليهودية، ومن الصعوبة بمكـــان تزييف الوقائع التاريخية، وطبقا لهاتين المنظومتين فلا يمكن اغفال دور الـــيهود فى نقل التراث الشرقى الى أسفار الكتاب المقدس وبخاصة أسفار العهد القديم، ثم نقل هذه الأفكار الى العهد الجديد بالتبعية المقصودة أو غير المقصودة.

---

[١]- راجع سفر التكوين ١/١ - ٣١ حيث يقول فى البدء خلق الله السماوات والأرض حتى يقول آخر الاصحاح ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا، وكان مساء وكان صباح يوما سادسا وكذلك الاصحاح الثانى.

[٢]- قصة طوفان نوح ذكرها العهد القديم فى سفر التكوين ٧ ، وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك الى الفلك، وقد استغرقت قصة نوح والطوفان الاصحاحات السابع والثامن والتاسع من سفر التكوين، وهى فى مجملها تكشف عن الاعتقاد فى التطور بل وادخاله الى مجال الاعتقادات الفكرية والتعاملات العلمية.

[٣]- الدكتور جراهام كانون - نظرات فى تطور الكائنات الحية - ص ١٤.

[٤]- الطوان بل - الآثار الشرقية واليهودية ص ٧٧ ترجمة نجاة السيد.

[٥]- ول ديورانت - قصة الحضارة، المجلد الأول الكتاب الثانى، الشرق الأوسط ص ٣٦٢.

يقـــول دوهـــان: لقد كان بامكان اليهود التخلص من العقائد التى يعتبرونها وثنية بجرة قلم واحد، ولكنهم قد تشبعوا بها وصارت لهم الوعاء الأمن والخل الوفى ، بدلـــيل أنهم نقلوا أفكار الفارسيين عن قصة الخلق الأول ثم صاغوها فى كتابهم المقدس حاملة ملامحهم الغريبة وأفكارهم العبثية([1]).

وقـــد فطـــن ديورانت هو الأخر الى أن قصة الخلق التوراتية تجرى فيها عمليات التطور الإحيائى داخل النصوص ذاتها، ويكشف عن علاقتها بالقصص الفارســـية، حيـــث يقـــول: ذكرت القصص الفارسية ، وقصص التلمود الخاصة بـــالخلق ، أن الله خلـــق فى بادئ الأمر إنسانا مكونا من ذكر وأنثى متصلين من الخلف كالتوأمين السياميين، ثم رأى فيما بعد أن يفصل أحدهما عن الأخر

وهـــى نفـــس الفكرة التى عرضها سفر التكوين، حيث قال يوم خلق الله الإنســـان على شبه الله ، عمله ذكرا وأنثى خلقه ، وباركه ودعا اسمه آدم ومعنى هـــذا أن أبانا الأول كان ذكرا و أنثى معا ، ويذكر أن أحد رجال الدين لم يفطن الى هذه العبارة التوراتية([2]).

بـــيد أن الـــذى لا خلاف عليه هو اعتبار الفكر اليهودى حلقة وصل بين الـــناتج الإغـــريقى والفلسفة المسيحية، وبعبارة أخرى صارت التعاليم القائمة فى الكتاب المقدس – العهد القديم – تمارس على أنها أصول صحيحة فى اليهودية ، مع أنها فى الحقيقة اقتباسات وثنية .

ولمـــا كـــان المسيحيون يعتبرون أنفسهم الوارث الحقيقى للفكر والتراث الـــيهودى ، فقد تزاحموا حول الأفكار اليهودية الموجودة فى أسفار العهد القديم ، وتمســـكوا بها ولم يكن لديهم استعداد للتخلى عنها، بل سارع دعاة المسيحية الى إعلان أن الكتاب المقدس كله وحدة واحدة، وأنهم ملتزمون به ([3]) .

---

[1] جون دوهان - اليهود واعتقاداتهم ص ٨٣ .
[2] - ول ديورانت - قصة الحضارة المجلد الأول الكتاب الثانى ص ٣٦٨.
[3] - القس اسكندر جرجس - صحة الكتاب المقدس - ص ٢٥ دار المعرفة ١٩٦٧

وقـد غـالى بعضـهم حتى زعم أن الكتاب المقدس كلّ لا يتجزأ ، وأن الإيمـان بـه يجب أن يكون على ناحية الاعتقاد الكامل بصحة ما بين دفتيه([1])، رغم علم الطرفين أن هذا الكتاب المقدس لم ينزل من عند الله عن طريق الوحى ، وبالـتالى لـم يمله عليهم أنبياؤهم من قبل الله تعالى ، وانما هو أفهام وأوهام سجلها من ظنوا فى أنفسهم القدرة على الكتابة باسم الرب.

كمـا أن مـا فيه شاهد علي أنهم سجلوه بأيديهم ليحقق لهم بعض الآمال والأحلام، او يعبر عن ظروفهم النفسية والاجتماعية، وينقل ما يدور بداخلهم الى دنـيا الـناس، بحيـث تتحول هذه الآمال النفسية الى صورة من الواقع المعاش، ودلـيل ذلـك أن أغلب أسفار العهد القديم وضعت بأسماء أشخاص معروفين أو مجهوليـن، لـتمجد عملهـم أو تعلى من منزلتهم أو تلقى اللائمة على من أساء اليهم.

فالعهد القديم فيه سفر استير([2]) ، الذى يحكى للعنصر الاسرائيلى ما فعلته الفـتاة استير اليهودية التى استطاع ابن عمها موردخاى ، أن يجعلها زوجا لملك الفرس الهرم، وقد تمكنت استير هذه من فرض ارادتها على الملك الكهل المغرم بأنوثتها وجمالها، وبالتالى مكنت لليهود فى فارس.

بـل واسـتطاعت ادخـال موردخـاى الى الحاشية الملكية فصار رئيسا للـوزراء، ولعـب مع ابنة عمه دورا كبيرا فى توطين اليهود داخل هذه البلاد، وركـوب أكتاف أهلها([3])، ومن ثم استحقت هذه الفتاة التمجيد، وأن يدون بأفعالها سفر كامل يحمل اسمها، وكذلك الحال مع أغلب أسفار العهد القديم.

---

[1] - القس صموئيل مشرقى - الكتاب المقدس يتحدى الاعتراضات - ص ١٣ ، ١٩٨١، وراجع لإلياس مقار، إيمانى أو قضايا المسيحية الكبرى ص ٨٧ ، والقس فايز فريح ، حجية الكتاب المقدس ص ٧٢ ، دار المحبة ١٩٨٧.

[2] - ترتيبه فى أسفار العهد القديم السابع عشر وعدد اصحاحاته عشرة هو ما يشغل الصفحات ٧٩٢/٧٧٩ ويسبقه فى الترتيب سفر نحميا ويليه سفر أيوب فهو واقع بينهما، وأغلب أسفار العهد القديم كتبت لتحمل أسماء بعينها.

[3] - وحتى تبلغ تلك الغاية ارتكبت وابن عمها مذابح جماعية قام بها الاسرائيليون ضد أهل فارس وكانت المذابح بالآلاف، كما كان الضحايا فوق الحسابات وفقرات السفر الاستيرى طافحة بهذه الجرائم .

وكذلك الحال فى المسيحية فكل انجيل من أناجيلهم القانونية[١]، يحمل اسم مؤلفه، كما يحمل الصفات التى تصاحبه، بل ظهرت فى ثناياها أفكار واقتباسات تدل على أن الذين ألفوا هذه الأناجيل لم يكونوا سوى أفرادا عاديين لا علاقة لهم بوحى السماء، ولا بعيسى ابن مريم رسول الله ، وكذلك الحال مع أعمال الرسل وباقى الرسائل التى يتألف منها العهد الجديد[٢] .

يقـــول اللاهوتـــيون: ان هـــذه الأناجيل وأقدمها انجيل مرقص لم يكتبها المســـيح، ولـــم يملها على تلاميذه، وانما كتبها بعده بفترة بعض الملهمين ، على أنهـــا ســـيرة المســـيح طـــبقا لما بلغ كل واحد منهم عنه، ولذا اختلفت عباراتهم واتجاهاتهم[٣].

ومـــا زال اليهود ينكرون وجود شخصية عيسى ابن مريم - عليه السلام - وينكرون الديانة المسيحية، ومع هذا مازال أتباع المسيحية متمسكين بالأسفار الـــيهودية، فهل رأيت عجبا أكثر من ذلك بين التابع والمتبوع، قال تعالى:(* **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ*) [٤] .**

علـــى كـــل فـــإن اليهودية كانت المعبرأو الجسر الذى قفزت على أكتافه نظـــرية الكوارث من الفكر الأغريقى والمصرى القديم الى المسيحية، واستقرت فـــيها مـــنذ عهدها الأول، لأن المسيحية قائمة فى عقائدها على التقاليد اليهودية، وفلســـفة ومـــنهج فى الحياة يتقبلان الآراء والأفكار اليهودية، وما دام اليهود قد انتهى أمرهم الى الاعتقاد بالكوارث من خلال اتصالهم القهرى بالبابليين.

---

[١] يطلقون عليها هذا الوصف باعتبار أن المجامع هى التى أقرتها واعتبرتها حاملة للتراث الذى يعبر عن حياة يسوع كما أن قانون الايمان قد أخذ منها ، راجع للدكتور أحمد محمد زكى ، دراسات فى الأناجيل القانونية ص١٣ ط ٣ ١٩٥٧.

[٢] - وهو يتألف من سبعة وعشرين سفرا تتمثل فى الأناجيل الأربعة وأعمال الرسل، ثم جملة من الرسائل وأخيرا رؤيا يوحنا ويشكل الجزء الثانى من الكتاب المقدس، ولا تتفق الطوائف المسيحية كلها عليه بل بينها اختلافات كثيرة تتعلق بأسفاره وأناجيله والمحتويات أيضا.

[٣] - كنيسة قصر الدوبارة - سيرة المسيح ، ص ١٤ ، ١٩٨١

[٤] - سورة البقرة الآية ١٦٦

فــلا غرابة اذن أن نجد أباء الكنيسة الأول قد اقتفوا أثرهم، وتقبلوا مثلهم فكــرة الكوارث الكبرى، لتعليل ظهور الكائنات الحية جميعا، ولذلك فهم فسروا الفصــول ــ الاصــحاحات ــ الأول مــن سفر التكوين تفسيرا حرفيا، وفهموا طوفــان نــوح على أنه فصل تاريخى يعتبر آخر ما حدث من سلسلة الكوارث الكونية([1]).

يقــول القــس صــموئيل رزق: ليس لأحد الحق فى الطعن على الكتاب المقدس، أو نقد رواياته ،حتى وان خالفت الواقع العلمى، بل المفروض أن يكون الكتاب المقدس وقضاياه أعلى من العلم ونتائجه، فنحن نأخذ الكتاب المقدس مأخذ التســليم المطلــق، لا لأنه تم نقله الينا بواسطة الآباء الملهمين، وانما لأن الرب فعلا تكلم به([2]) .

ومادام القوم قد وضعوا هذه المفاهيم فى أذهانهم الموضع المقدس الذى لا يمكن النظر اليه فى صورة نقدية، فإن الأفكار التى يحملها هى الأخرى صارت مقدســة ، وبناء عليه تكون هذه الأفكار صحيحة سواء - التى دارت فى البيئة اليونانــية أوالفرعونــية القديمــة بجانب البابلية وغيرها من الديانات الوثنية، أو الأســاطير الخرافــية ، واقتبسها الاسرائيليون فى الماضى وسجلوها فى أسفار كــتابهم المقــدس بــل ويمكــن الاعتماد عليها فى معرفة اعتقادات الجماعات اللاهوتية اليهودية والمسيحية كما يكون أمرا غير قابل للمناقشة أو التأويل.

ومن المؤكد اصطدام بعض القضايا العلمية بالفكر اللاهوتى، مما نتج عنه وقوف الكنيسة ورجالها فى مواجهة هذه القضايا، بذات القدر الذى كانت تقوم به الكنيســة ورجالهــا فى دعم القضايا التى تحدث عنها الكتاب المقدس ، والأفكار الــتى تــدور فى محيطها ومن هذين الطريقين نتجت محاولات عديدة تدعم أحد

---

[1] - الدكتور احمد الجمل - فى المذاهب المعاصرة ص ١١٠ ، وجراهام كانون - نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ١٧.

[2] - القس صموئيل رزق - ايمانى بالكتاب المقدس ص ٣٥ ، كنيسة المحبة ١٩٤٥.

الموقفيــن بقــوة أو تعمل على تزكية ما فيه وهدم الآخر بكل ما حوله ، ومن ثم ظهر الصراع بين الكنيسة ورجال العلم فى أوربا .

مــن المناســب القول بأن الفترة التى انتقلت فيها ملامح العلم التجريبى أو العلــم المعملــى فى اوربا المسيحية،كانت السيادة فيها للفكر الدينى الكنسى، لأن الجماعــة أو الفئة التى كانت تعرف مبادئ القراءة والكتابة فى غرب اوربا ظلت صــغيرة ومحــدودة، وهــذه الفئة كان معظمها من رجال الدين ، الذين انحصر تفكــيرهم داخل دائرة ضيقة ومحدودة لا يكاد يتجاورها إلا فىحالات نادرة( )، وظــل ذلــك حال اوربا المسيحية فى العصور الوسطى التى هى ذاتها الصورة الطبيعية التى يمكن أن تعبر عن العصور المظلمة

وكانــت مراكــز الحضارة والمعرفة فى أوربا إبان تلك الفترة تنقسم الى أقسام أربعة ، بعضها يميل الى العلم الوافد ويحاول القضاء على الموروث مهما كــان الثمــن ومهمــا كانــت النتائج أيضا ، وبعضها يتمسك بالموروث لا يحيد عنهويحاول القضاء على الوافد الجديد ، وهذه الأربعة هى:

الأول: المراكز الدينية

وتمثلها الكنيسة وما يرتبط بها من مؤسسات دينية كالأديرة والكاتدرائيات، وكانــت غايــتها حفــظ التراث الرومانى، فمنذ القرن الرابع والترابط شديد بين الكنيســة والامبراطورية الرومانية، لأنهما معا يؤديان رسالة واحدة، حيث يعمل كــل مــنهما مــن زاويته على قيادة الشعب الأوربى وتوجيهه، فإذا قضى أحد الشــريكين نحــبه كان على الشريك الثانى القيام بالعمل وحده باعتباره المسؤل

الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - أوربا العصور الوسطى جـ ٢ النهضات والحضارة والنظم ص - الأنجلو المصرية ١٩٨٦

عـــنه(١)، ومـــن ثـــم ورثت الكنيسة الغربية تراث الحضارة الرومانية وصارت مسؤلة عنه (٢) .

وهذا القسم ظل محافظا على الموروث ولم يكن لديه استعداد لاستقبال أى فكـــر آخر، ومن ثم كانت امكانية قبول أفراده لأفكار جديدة أمرا صعبا، ولا يتم ذلك إلا فى أضيق الحدود وتحت ضغوط شديدة ربما تتجاوز الكثير من الحدود.

أمـــا الأديـــرة (٣)، فقـــد اعتـــبرها الـــبعض مـــن أعظم المراكز الثقافية والحضـــارية فـــى الشـــطر الأول مـــن العصور الوسطى داخل هذه المدن بل والمجـــتمع الغـــربى، وأنها أنقذت تراث أوربا الفكرى من الضياع، لأنها تأثرت بالنزعة المحلية، وعملت على الاتصال فيما بينها بعضها البعض الآخر.

وقـــد مكن لها ذلك القيام بما حدث من اصلاحات استهدفت تهذيب الحياة الديـــرية عن طريق الربط بين الأديرة، واخضاعها لإشراف مركزى دقيق، كما جعل الأفكار تنتقل مع الكتب من دير الى آخر فى شئ من السرعة.(٤).

لكن النظام الكهنوتى الصارم الذى مارسه الأباء اللاهوتيون لم يسمح لحياة الأديرة أن تخرج على القواعد العامة، وإنما وضع نظاما للراهب بحيث يستغرق ســـاعات اليوم كلها ومن معالم ذلك حرص النظام البندكتى على تخصيص سبع ساعات من حياة الراهب اليومية للعبادة والصلوات الجماعية، ومن ثم لم يبق من

١- كالحال مع الامبراطورية الرومانية التى سقطت فى غرب اوربا أواخر القرن الخامس الميلادى، ونهضت الكنيسة الغربية للقيام بالدورين معا، وقد ساعد الكنيسة على القيام بهذا الدور طوال العصور الوسطى أن المدينة وهى وحدة التنظيم الادارى فى العالم الرومانى كانت أيضا الوحدة الاساسية فى التنظيم الكنسى، كما أن الكنيسة الغربية اتبعت فى تنظيمها الأسقفى قواعد التنظيم الادارى الرومانى، الدكتور فوزى خضر ، أوربا الكنيسة والسياسة ص ١٢٥ .

٢- الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور - أوربا العصور الوسطى - جـ ٢ ، ص ١١ .

٣- الدير عبارة عن مكان منعزل فى الصحراء أو الطرق غير المطروقة ينقطع فيه الرهبان للعبادة والتبتل وخدمة الدين، كما يمكن أن يصير مأوى للمسافرين وعابرى السبيل، ومركزا لنوع من النشاط الاقتصادى والثقافى ومدرسة للآداب والفنون والعلوم ومعتقلا للخارجين على التعاليم الكهنوتية من خدام الرب أو الكهنة المرسمين، حيث أن ظروف انشاء الدير تساعد على ذلك ، الدكتور حسن محمد ثروت ، الأديرة نشأتها وأهدافها ص ٣٥ ، ١٩٤١

٤- الدكتور فوزى خضر - أوربا الكنيسة والسياسة ، ص ٣٢.

النهار سوى ثلاث أو خمس ساعات حسب الفصول على الراهب أن يقتطع جزء منها للقراءة فى الإنجيل أو كتابات آباء الكنيسة فى اللاهوت فقط([1]).

فـــإذا فـــرغ مـــن ذلك انطلق الى غرفة نسخ الكتب، ومن ثم يشترك مع اخوانه فى نسخ ما يحتاجه الدير من كتب الصلوات والترانيم وغيرها مما يسمح به آباء اللاهوت وينصحون ، لأن الهدف من التعليم الديرى - بجانب ما ذكر - هـــو اعداد رجال دين لمباشرة مهامهم فى الوعظ والإرشاد والتبشير، وكان ذلك يتطلـــب مـــن رجال الدين المسيحى الدراية بمبادئ المنطق وأساليب الجدل حتى يـــتحقق الـــنجاح، إذن الـــثقافة كانت محددة ومقننة ولا تسمح للعقل بالابتكار .

الثانى: بلاط الملوك والأمراء

ظهـــرت فكرة البلاط الملكى والأميرى فى العصور الوسطى متأخرة جدا، بعـــد ظهورهـــا فى الحضارة الإسلامية على الناحية التنظيمية، لأن ظهورها فى أوربـــا كان مصاحبا لنهايات القرن الثانى عشر ويستدل لذلك بما أمكن الوقوف علـــيه مـــن شـــعر الشعراء، ونثر الناثرين، فى وصف بلاط ملوك الشرق حيث يقول أحد شعراء سمرقند فى وصف بلاط الملوك،ناثرا هذه المرة:

ان تنظـــيم بـــلاط الملوك تنظيما صحيحا يحتاج أربع فئات من المثقفين لا مـــن غيرهم([2]) وهم: رجال الادارة والسياسة، والشعراء، والفلكيون، والأطباء، فـــرجال الادارة والسياسة يساعدون الملوك فى تصريف شئون الدولة، والشعراء يمجـــدون مآثـــرهم ويخلدون انتصاراتهم، ورجال الفلك يحددون للملوك الأوقات المناســـبة لتنفـــيذ مشـــاريعهم، أما الأطباء فإنهم يسهرون على سلامتهم ورعاية صحتهم ([3]).

---

[1] ـ الدكتور حسن محمد ثروت ـ الأديرة نشأتها وأهدافها ص ٤١.

[2] ـ وينسب هذا التنظيم الى نظامى عروضى أحد شعراء سمرقند فى القرن الثانى عشر ، راجع للدكتور محمد محمود رمضان ، النظم السياسية فى الممالك الإسلامية جـ ٢ ص ٩٧ ، دار المهندس ١٩٦١

[3] ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ـ أوربا العصور الوسطى جـ ٢ ص ٢

والواقـــع يشهد أن بلاط الأمير الإقطاعي إبان فترة العصور الوسطى كان بسيطا في تنظيمه الى أبعد مدى، فمن الناحية الثقافية كان بعض الأمراء يجهلون مـــبادئ القـــراء والكتابة وبالتالي احتفظ في بلاطه بقس ليقوم على شئون الدين وتحريـــر المكاتـــبات الضـــرورية، ولـــم يخل بلاط الأمير من بعض الشعراء والمهرجين الذين يرفهون عن الأمير وحاشيته، وغالبا ما يكثرون في المناسبات السعيدة مثل حفلات التتويج والزواج وما كان من هذا القبيل (١) .

ومـــن ثـــم صار بلاط الأمير الناضج مركزا للأدب الشعبي، لكنه لم يكن مســـتعدا لـــتلقي معلومات أو اقتباس أفكار أو نظريات، وانما كانت مسائل الدين يقوم بها قسيس على قدر من العلم بالدين وأصول القراءة والكتابة.

فلما اختلط الأمراء الأوربيون ببعض الأمراء المسلمين وجدوا الفارق بين الإدارتيـــن كبيرا، ومن ثم سعى البعض منهم الى اكتساب الثقافة التي تزدان بها الممـــالك والإمارات الإسلامية، فأرسلوا بعثاتهم الى المدن الإسلامية الزاهية في المشرق والمغرب على السواء حتى ينهلوا من معارفهم وعلومهم .

كحلـــب ودمشـــق وصور وبغداد بجانب البصرة والكوفة في المشرق ، وقرطـــبة وأشـــبيلية وغـــرناطه فـــي المغرب، وقد حققت بعثاتهم الى الممالك الإســـلامية نوعـــا مـــن النجاح البطئ أول الأمر(٢)، ثم مالبثت هذه البدايات في الانطـــلاق الســـريع ، واكتســـاب المعارف العلمية من بلاد المسلمين بأسرع ما يمكن.

الثالث: المدن الكبرى

كـــان لـــبعض المـــدن القديمـــة فـــي الامبراطورية الرومانية شأن كبير، باعتـــبارها مراكز ادارية واقتصادية وتجرى فيها بعض الملامح الحضارية التي

١- الدكتورة هدى علوة - أوربا قبل عصر النهضة ص ١٤٥ ، ١٩٦٧.
٢- راجع كتابنا قضايا حيسة في الفلسفة الحديثة ص ٣٩وما بعدها ١٩٨٨

بجعلهــا متميزة عن أهل البداوة([1])، ولما سقطت الامبراطورية الرومانية وانحل عقدها زبلت المدن الكبرى وتقلص دورها، وبخاصة بعد ظهور النظام الاقطاعى الواســع الذى حلت فيه الاقطاعيات والضياع الكبيرة الواسعة محل المدن، حتى أن بعض الملوك هجروا المدن وأقاموا فى ضياعهم ([2])، لاعتمادهم على النشاط الزراعى والحيوانى وربما النشاط الرعوى بجانب الصيد.

لكــن هذه الأنشطة التى تجرى فى الاقطاعيات كانت تحتاج مراكز تسويق وتوزيــع ومضـــاربة، وهى التى تمثل جانبا كبيرا من الأنشطة التجارية، وذلك يحـــتاج مديـــنة ولا تصـــلح الاقطاعـــيات أو الضياع له، ومن ثم ظهرت المدن الأوربية التى تحولت الى مراكز تجارية، واستطاعت التخلص من سيطرة أفراد الاقطاع([3]) .

وبالـــتالى صـــارت مركـــزا لقبول الأفكار والآراء، وهو ما جعلها تتقبل الأفكـــار الـــتى حملـــتها العقـــول الـــيهودية والمسيحية عن التطور الحضارى والبـــيولوجى أيضـــا، وبخاصـــة بعد أن أمكن لهذه المدن تحقيق الكيان السياسى والاقتصادى المستقل بجانب القوانين والنظم والدساتير.

لقد صارت هذه المدن مراكز تجمع الطبقة الثالثة ــ الطبقة البرجوازية ــ الـــتى يمـــثلها التجار والصناع، من غير النبلاء أو رجال الدين وقد أدى ازدياد

---

[1] - هذا التمايز ضرورى، ويقوم على اعتبارات قد تكون صحيحة فى الواقع المعاش، وقد تكون الامتيازات فى جانب بعيد تماما عن الذى تأتى منه البداوة والتحضر.

[2] - وهذا النشاط مازال قائما حتى الآن فى أوربا، فرغم التحضر والتقدم إلا أن الاقطاعيات الكبيرة والضياع الواسعة منتشرة فى أوربا كلها، وقد طالعتنا الصحف السيارة أن جورج بوش الإبن رئيس أمريكا الحالى يملك ضياعا واسعة فى ولاية فلوريدا، وأن إحدى مزارعه بلغت ١٥٠٠ فدان، فما بال مزارع والده والخوته، بل ومزارع الذين تربعوا على السلطة قبله، أو يطالبون بها بعده، كما أن ذات الصحف أخبرت بأن رئيس العصابة الصهيونية ارئيل شارون هو الآخر له مزارع واقطاعيات وأن إحدى مزارعه تجاوزت مساحتها ٧٥٠ فدانا، فما بال المزارع التى تملكها رؤساء الوزراء وقادة الجيش، ورجال الدين، إنها اقتطعت من أراضى فلسطين العربية المسلمة الحبيبة، ونأمل أن يعيدها الله تعالى إلى العرب والمسلمين قلبها المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين.

[3] - لقد كان هذا النجاح بمثابة الاشارة الواضحة المعالم حتى يستعد الناس لقبول الأفكار الوافدة عليهم، والتعامل معها فى سرعة بحيث يكونوا فى مأمن من قبضة الاقطاعيين، أو يمكنهم الافلات من سيطرة السلطان الكنسى.

بعوذهــا الى احداث ثورة اجتماعية واقتصادية فى أوربا كان لها الأثر الكبير فى تقــبل الأفكــار الــتى تنــتجها عقول الآخرين ([١])،ولرغبة هؤلاء فى المغامرة والــتجارب، فقد كان من جراء ذلك خروج الناس عن المألوف، وعدم الاستسلام لآراء الكنيســة مما ساعد على انتشار الأفكار التطورية فى أشكالها المختلفة([٢]) التى كان لأغلبها دور تدميرى فيما بعد.

الرابع: مراكز العلم المدنى

بعــد عــودة البعــثات الأوربية من الحواضر الإسلامية، أسرع الأمراء الأوربــيون الــى الاستفادة من أعضاء هذه البعثات العلمية، فأعدوا لهم مراكز علمية مهمتها تطبيق المعرفة النظرية وتحويلها الى واقع عملى معاش، ولما كان ذلــك يتطلــب اقامة منشآت وإنشاء معامل إجراء أرزاق ([٣])، فقد عمل الأمراء على تنفيذ ذلك كله بأسرع وقت ممكن، مما جعل هذه المراكز القليلة بمثابة النواة الــتى قامت عليها الجامعات داخل أوربا فى ذات الآونة بل كانت جامعة بولونيا فــى ايطاليا، وجامعة باريس فى فرنسا، هما المظهر الطبيعى الناتج عن مراكز العلم التى سلفت الاشارة اليها.

وقــد تفرعــت عن هاتين الجامعتين باقى الجامعات الأوربية فى العصور الوســطى، حتى اذا ما جاءت نهاية هذه العصور كان مجمل الجامعات الأوربية قد بلغ الثمانين جامعة فى أوربا كلها([٤])، وهى التى قامت بدور فعال فى استقبال

---

[١]- الدكتور محمد عبد العظيم طنطاوى - الكنيسة والنهضة دراسة مقارنه ص ١٣٥ ، ١٩٦٧.

[٢]- وهذه النتيجة يمكن الوقوف عليها بسهولة، لأن الأفكار التى كان لها وجود فى أوربا لم تعرف أفكار التطور، وإنما أمكن اقتباسها من الدولة الرومانية القديمة والأمة اليونانية التى دعت الى ذات الأفكار وحرصت على القيام بها.

[٣]- هذا كله تم اقتباسه من الأنظمة الإسلامية، حيث كان الخليفة يقوم بتنفيذ ذلك كله من فائض بيت مال المسلمين، كما كان الأغنياء والموسرون من أهل الإسلام يمارسون ذلك كله فى حدود امكانياتهم ، وقد ساعد على ذلك أيضا نظام الوقف الخيرى الإسلامى الذى لا يوجد له مثيل فى أية أنظمة أو حضارات أخرى، لأن الواقف انما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى كما ان اجراء الأرزاق للعلماء وأهل العلم كان أمرا إسلاميا خالصا.

[٤] الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور . أوربا العصور الوسطى جـ ٢ ص ٢٨

الأفكـــار الـــواردة من البيئة الإسلامية، ثم اعادة النظر فى نتائجها، وتحويل تلك النتائج الى صيغ وقوالب عملية، بدل أن كانت مجرد توجهات نظرية.

بـــيد أن هـــذه الجامعـــات الأوربية قد أخذت بالنظام الذى كان سائدا فى الأزهر القديم، وجامع قرطبة والزيتونه وغيرها من المراكز الإسلامية، اذ كانت تقـــبل الطلبة الوافدين اليها من كل البلدان والأنحاء دون اعتبار للجنس أو اللون أو المذهـــب([1])، كمـــا صار فى كل جامعة فرع ثابت من فروع العلم والمعرفة بحيث تتميزهذه الجامعة به ويعرف هو أيضا بها.

فمـــثلا جامعـــة ســـالرنو تميزت بدراسة العلوم الطبية، أما جامعة بولونيا الايطالـــية فقد اشتهرت بدراسة القانون فى أفرعه المختلفه، فى نفس الوقت فقد تمـــيزت جامعة باريس بدراسة الفلسفة واللاهوت، وكان يقوم بالتدريس في هذه الجامعات أساتذة متخصصون لهم شهرتهم الواسعة([2]) ، التى جذبت الطلاب من أماكن بعيدة اليهم حتى يدرسوا عليهم ويتعلموا منهم.

وقـــد ساعد ذلك على ظهور حركات ثورية بعضها كانت غايته المعرفة المجـــردة أو المجـــربة ، بينما كان البعض الآخر تكمن غايته فى الوصول الى أرضـــية مســـتأمنة يمكـــنه أن يغرس فيها الآراء التى يعتنقها بعيدا عن سلطان الكنيسة، وقيادة اللاهوت.

لقـــد ظهـــرت المراكز العلمية فى أوربا بمظهر مختلف تماما عن ما هو شـــائع فـــى الكنيسة وقائم لدى أباء اللاهوت، حتى كان الصراع بينها والسلطان

[1] - كانت المراكز الإسلاميةتنتشر فى الحواضر الاسلامية، وبخاصة فى المساجد كالأزهر بحيث تضم الطلاب الوافدين اليها من كل الجنسيات، وتنفق عليهم جميعا من ريع الأوقاف المخصصة لهم، والتى أوقفها أهل الخير على طلاب العلم وشيوخهم، كما كانت توفر لهم المسكن المناسب داخل المسجد الأزهر نفسه، فظهرت أروقة عديدة، منها رواق الشوام ورواق المغاربة ورواق السودان، بجانب أروقة الشراقوة والصعايدة وغيرها مما كان له دور كبير فى توفير الراحة للطلاب بجانب المحافظة على القيم والأخلاق والاسراع فى نشر العلم والمعرفة .

٢ -الدكتور/فوزى محمد خضر-أوروبا والكنيسة والسياسة ص١٢٩

الكنســي ينشــب كثيرا بحيث يمكن القول بأن العقلية الغربية عاشت مشدودة من طرفيها الى اتجاهين متعارضين تماما([١]).

فــإذا تبنــت الكنيســة ورجالها رأيا خالفته المراكز العلمية، التى راحت تســتقطب أصــحاب الــنزعات الفكرية ، وتخلى لهم أماكن داخل أروقتها، حتى يــتحدثوا فيها باسم العلم ، بغرض اسقاط التبعية للكنيسة ومقاومة سلطات محاكم التفتــيش الــتى كانت تمثل العبء الأكبر على حياة الإنسان الغربى، وتعتبر فى نفس الوقت من أكبر مشكلاته.

أجل كان من نتائج ذلك ظهور أفكار جديدة فيها شئ من الجدة، وقد مهدت هــذه جمــيعا الـــى ظهور بواكير عصر النهضة، التى جاءت بعد عدة عمليات متواصـــلة، الأولـــى: ظهور طبقة المتعلمين الذين أفرزتهم المراكز العلمية، مما جعــل مواقفهــم فى مواجهة الكنيسة تتسم بالحرية المطلقة ([٢]) وقد ساعد العقلية الأوربــية على إعادة النظر فى الآراء التى كانت الكنيسة ورجالها يتعلقون بها، وبخاصـــة تلك التى تتعلق بالعلوم الطبيعية ومناهجها بجانب موضوعاتها وتفسير ذلك على الناحية العملية.

الثانــية: ظهور طبقة ذات طابع خاص سعت لإنشاء منهج منطقى يقوم علـــى ابــراز الحجـــج وإقامة الأدلة عليها، بجانب الانفلات من سيطرة الكنيسة وطــرقها القائمـــة علـــى الالزام والقهر والتهديد الذى تجرى فيه لغة الحسم مع العنف والأرهاب ([٣])، فكانت الطريقة الجديدة تعتمد على المنهج العلمى من خللا منهجى البحث الفنى والتدليل العلمى.

الثالـــثة: ظهــور حـــركة احياء الثقافة والفنون والآداب القديمة اليونانية والرومانـــية، فظهــرت الترجمات العديدة لكثير من الأعمال الأدبية والفنية، كما

---

(١) وهذه السمة كانت غالبة على نهايات العصور الوسطى،أما فى معظمها فكانت الهيمنة للكنيسة ورجالها وحدهم.

(٢) الدكتور محمد عبد العظيم طنطاوى - الكنيسة والنهضة ص١٧٧ .

(٣) الدكتور فوزى محمد خضر أوربا الكنيسة والسياسة ص ١٣٤

ظهــرت الأعمـــال الشعرية والروائية ([١])، وفى نفس الوقت أمكن تسلل الأفكار العلمـــية التى اعتصمت بالماضى حينا ، فلما لم تطق صبرا ونفذت صدرا حيث انطلقت الى الأبحاث المختلفة وأحدثت بها ردود أفعال متنوعة .

الـــرابعة: تحويل المباحث والقضايا العلمية الى واقع عملى بدل أن كانت تجــرى فـــى الاتجاه النظرى الخالص، وكان من جراء ذلك الاندفاع الى التراث الإسلامى فى المجال العلمى ثم ترجمته والاستيلاء عليه ([٢]) ، بعد اجراء عملية تزيـــيف مقصودة، كانت تبدأ بذكر اسم المترجم مع اسم المؤلف ثم تنتهى بحذف اســـم المؤلف تماما والابقاء على اسم المترجم باعتباره المؤلف لا المترجم، مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة مما يتعلق ببعض هذه الأجزاء من أبحاث بعينها.

يقول جراهام كانون: أصبح فكر الاغريق وعلومهم فى متناول قادة عصر احـــياء العلـــوم، وكذلـــك ما كان يعتبر من المسائل العادية المتعارف عليها بين الإغـــريق، بـــل صـــار من الأمور المعقولة لدى المفكرين الجدد، ومن بين تلك الآراء كانـــت فكرة التطور الإحيائى وقد حدث ذلك كله منذ نحو ثلاثة أو أربعة قرون([٣]).

لـــيس مـــن اليســـير اعلان نتائج سريعة عن نظرية التطور التلقائى التى امـــتدت جذورهـــا فى الفكر المصرى القديم، وألمحت اليها الدراسات الفنية التى تابعـــت التطور التاريخى للأحداث، على أساس أن اكتشاف هذه النظرية قد ظهر فـــى الجزيـــرة العربـــية من خلال العمليات التى قام بها قاصو الأثر الذين كان بامكـــانهم اصــــدار أى رأى صحيح فى حسم بالغ([٤]) ، ودقة تفضى الى ضرورة التسليم بذات الرأى مع التأكيد عليه.

---

[١]- الدكتور محمد عبد العظيم خضر - الكنيسة والنهضة - ص ١٧٩ .

[٢]- كما ظهرت ملامح هذه القرصنة فى المؤلفات التى نسبت لعلماء أوربيين وهى فى حقيقتها نتاج العقلية الاسلامية كالحال مع ديكارت وسرقته المنهج الشكى من الإمام الغزالى فى كتابه المنقذ من الضلال .

[٣]- جراهام كانون - نظرات فى تطور الكائنات الحية ص ٢١.

٤ -الدكتور قطب محمد أبو سرحان-الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ص١٢٩

وقـد انتقلت الفكرة – قاص الأثر – من الجزيرة العربية الى كل من بابل وعرفـت باسـم الاجـناس المنتشرة([1])، كما شغلت عقلية الانسان الذى اقترن وجـوده بالتاريخ الميلادى، وقد عبر عن هذه وتلك انسان ذات الوقت مستخدما بعض الظواهر التى تؤكد وجهة نظره حتى قالوا ان ماء البحر يتدفق على الدوام ولكن منطقة المنبع يتم فيها التطور التلقائى على طريق الزيادة، بينما المنحدر أو المصب تجئ معه ذات النظرية لكن على الجانب السلبى.

ثالثا : فى البيئة الإسلامية

لـم تكـن البيـئة الإسلامية سوى المصدر الأصلى للعديد من النظريات العلمـية، أو الأفكار والقضايا العملية والتجريبية، وفوق ذلك فان العلوم النظرية يمكن الرجوع بتصنيفها وتبويبها الى البيئة اسلامية ذاتها، وكذا الحال فى العلوم السلوكية ([2])، أما لماذا ؟

فلأن البيئة الإسلامية ، أقامت أصول حضارتها على الأفهام التى تمكن أصـحابها مـن الـتعرف على الاشارات القرآنية والأحاديث النبوية فى جوانب العلـوم المخـتلفة، بحيـث يمكن القول بأن البيئة الإسلامية كانت كفيلة بانشاء حضارة متكاملة وما ذلك إلا لأن هذه البيئة الاسلامية قد أقامت أسس حضارتها على النصوص الشرعية.

فمثلا نظرية التطور التلقائى جاءت اليها اشارات عديدة فى القرآن الكريم، فـى مجـال النبات والحيوان، كما جاءت اشارات بعينها فيما يتعلق بالجماد، مع احالة الأمور كلها الى قدرة الله تعالى .

ففـى المجال البيولوجى جاءت اشارات قرآنية منها قوله تعالى:(* يَا أَيُّهَا النَّـاسُ إِن كُنـتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ

---

[1] -الدكتور رمضان ابراهيم عبد العزيز-التطور الإحيائى فى القديم والحديث ص٢٣٧

[2] - هذا الى جانب العلوم الشرعية التى هى أصل لاختصاص البيئة الاسلامية، كالعقيدة والفقه والتفسير والحديث واللغة العربية وادابها . وما يخدم العلوم الشرعية . فانها جميعا وليدة البيئة الاسلامية وحدها .

عَلَقَــةٍ ثُــمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَــى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُــرَدُّ إِلَــى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾([1]).

ومـــن السنة النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: (كلكم لآدم وآدم من تراب) فـــآدم وزوجـــه قد حصل منهما التطور الحيوى فى الذرية المتناسلة المتكاثرة، وبعد أن كان آدم وزوجه فقط صارت الأعداد البشرية كثيرة الى حد كبير .

وفـــى مجال عالم النبات جاءت اشارات محددة وتشبيهات بعينها من ذلك قولـــه تعالى: (﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ ســنَابِلَ فِـــى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ([2])، فقـــد حصل التطور الإنمائى بدليل أن الحبة الواحدة أنبتت سبع سنابل وكل سنبلة فـــيها مائـــة حبة، بل كل حبة من السبعمائة تحولت هى الأخرى الى نفس العدد الـــذى وقعـــت عليه المضاعفات الكثيرة([3] من خلال التطور الإنمائى الذى نعتقد نحـــن المسلمين أنه من أفعال الله تعالى وحده وليس من ذات الكائنات التى وقع عليها أو تم فيها.

وكذلـــك ظهرت فكرة تطور الكائنات الحية فى الفكر الإسلامى لكن ليس على ناحية اهمال الخالق والاعتماد على قوى الطبيعة، وانما على أساس أن ذلك كله انما يتم طبقا لسنة الله تعالى الكونية، التى حددت معالمها ارادته وتجريها فى نمـــط معيـــن قدرته، وبالتالى ظهرت الأسس التى قامت عليها بين أفكار فلاسفة الإسلام الأوائل .

---

[1]- سورة الحج الآية ٥ .
[2]- سورة البقرة الآية ٢٦١
٣-أود الإلتفات الى ان الدين الاسلامى يشير الى المتوالية الهندسية عندما يتحدث عن فكرة الثواب ومضاعفة الحسنات لأهل الإيمان،ويشير الى المتوالية الحسابية عندما يتحدث عن فكرة العقاب لأهل الإيمان بالله.

لا علـــى أنهـــا مباحث فلسفية مستقلة، وانما كانت تجئ عرضا بين ثنايا المـــبحوثات الأكثر أهمية[1] سواء أكان ذلك أثناء عرضهم لفكرة فلسفية ظهرت لها صورة سابقة عند غيرهم،أم فى تقعيدهم للأبحاث الفلسفية التى يقيمونها على سبيل الاستقلال بحيث تكون من نتاجهم وحدهم ، وفى ذات الوقت تعتبر خالصة لهم.

فالكندى بحث مسألةالكوارث الكونية على ناحية الفكر الاعتزالى الذى كان يمـــيل الـــيه، لكـــنه بعد عرضها أحال الفعل الى مسألة وجود الخير والشر فى العـــالم، وقـــرر أن الكوارث الكونية انما هى من أفعال الله تعالى، إذ لولا وجود الشـــر مـــا عرفـــت الخيرات، كما أن الشر القليل هو الذى يندفع بالخير الكثير. كانـــت كتاباته فى هذا المجال محل عناية واهتمام([2])، مما يعد بحق أول فيلسوف مســـلم يـــتجه الى بحث هذه النظرية من خلال النصوص الشرعية، ويدلل عليها من خلال الأحكام الشرعية أيضا.

كمـــا أن الكـــندى نفســـه قـــد أشار الى نظرية التطور التلقائى من حيث المفهـــوم الإســـلامى لا على المفهوم الداروينى أو اليونانى ، حيث قرر أن كل الكائـــنات يقـــع علـــيها الـــتطور مـــن خلال قوة قاهرة تجعل ذات الكائنات هى الموضوع الواقع عليه التطور، لا أنها التى من ذاتها تتطور ([3])، فالأرض كانت نقطـــة بدايتها من أصغر جرم تجمد على صفحات الماء، ثم حدث عليها التطور الـــتلقائى المتواصـــل، لكـــن تم ذلك من خلال قدرة إله قادر وارادة كاملة وعلم عالم([4]).

---

[1] يراجع كتابنا قيمة الصراع بين الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام ط الثانية ١٩٩١م.

[2] - الدكتور عبد الفتاح محمد أبو عزيزة التطور فى المفهوم الإسلامى ص ١٤٥ ، بغداد ١٩٦٩.

[3] -الدكتور البدوى محمود النذارى - نظريات إسلامية فى تطور الكائنات الحية، جـ ١، ص ٧٥، الدار الجديدة، مراكش ١٩٦٥.

[4] - وبهذا يتضح أن الفكر الإسلامى لم يقف جامدا، كما لم يحاول قطع النصوص أو لى أعناقها، وانما عمل على ابراز الفكرة فى المصادر الإسلامية وامتيازها فى الأصول التى قامت عليها والنتائج التى انتهت اليها.

كمـــا أن السماء التى بناها الله تعالى بدأت من من نقطة واحدة ثم اتسعت ومـاتــزال مستعدة للإتساع وقبول عمليات التطور التلقائى التى تجئ عليها ، قال تعــالى فى سورة الذاريات: (* وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ* وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *)([1])

وبهـــذه الــبدايات الممـــتازة يظهر امتياز أهل الإسلام عن غيرهم، حيث اهــتدوا بالنصـــوص النقلية التى أقامت الخلق بناء على قدرة الخالق وجعلت كل مخلوق يقع عليه التطور فى ذات نوعه، فالحيوان يتطور فى أشكاله وأنواعه من حيث الكثرة والتهجين السلالى، وليس فى التحول من حيوان زاحف الى ماش أو غير ذلك مما يهرف به أصحاب التطور الآخرين.

يقــول ويلــز: أولـــى الدلالات على وجود الحياة، الأثار والرفات الباقية لكائـــنات بســيطة ودنيـــئة نسبيا، مثل أصداف أسماك محارية صغيرة، وجذوع لحـــيوانات نباتية، ورؤس لها تشبه ازهار وأعشاب بحرية، وأثار لحركات ديدان البحر والقشريات وبقايا لها.

وتظهـــر منذ زمن مبكر جدا مخلوقات معينة تكاد تشبه قمل النبات وهى كائـــنات زاحفـــة لهـــا قـــدرة على تكوير نفسها، كما يفعل قمل النبات، وتسمى التريلويـــت اى المثلـــثة الفصـــوص، وبعد ذلك ببضعة ملايين من السنين تظهر أنواع معينة من العقارب البحرية، وهى كائنات الين فى الحركة من كل ما شهده العالم فى أى كائن حى من قبل ، و أكثر كفاية وقدره([2]).

فالــتطوريون مـــن غـــير أهل الإسلام يحيلون الامور الإنتقالية الى ذات الكائن، على أساس أنه يسعى الى التطور، وليس هو الذى يقع عليه التطور، أما

---

[1]- سورة الذاريات الأيات ٤٧/٤٩ .

[2]- هـ ج ويلز - موجز تاريخ العالم ، جـ ١ ص ٢٧، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد مراجعة محمد مأمون نجا.

أهل الاسلام فإنهم ينظرون الى الذى يقع عليه التطور، ويؤكدون أنه المفعول لا الفاعل، وذلك فارق جوهرى فى مفهوم التطور لدى الفريقين.

علـــى كل يمكن القول بأن الكندى قد ألمح الى التطور، كما قدم ارهاصات فى ميدان العلوم الطبيعية تعتبر بمثابة المبادئ الأولى، كما أن الميدان البيولوجى الاحيائى لـيس ببعـيد جـدا عـن ميدان العلوم الطبيعية، مما حدا بأبى البركات البغدادى الـى اعتـبار أن الأشـياء الطبيعية هى الأشياء التى ترتبط بالروح وطبيعـتها إما لأنها قواعد لها أو لأشياء كالأجسام التى تبزغ منها والتى تسمى بالأجسـام الطبيعـية، لأنهـا تمـثل تأثيرات وحركات وتكوينات تنبع عنها مثل الألوان والهيئة([1]).

من ثم يمكن اعتبار الكندى الفيلسوف المسلم أول الذين تكلموا فى التطور بالنسـبة للمفهـوم الإسلامى داخل البيئة الإسلامية، ولعل هذه الشذرات قد نقلت مبكرا – فيما نقل – الى الغرب ، مما دفع الكثيرين من مفكريهم الى اعلان سبق العرب لغيرهم فى هذا المجال .

يقـول تروبان: ان الفكر التطورى ظهر أولا فى كتابات العرب الأولى، وإن لـم نتعرف عليه الا في وقت متأخر، لكن يكفي للاستدلال على صحة هذه الافتراضية أنها ظهرت فى مؤلفات مفكريهم القدماء من أمثال الكندى والفارابى وابـن مـسكويه([2]).وهذا الاعتراف يمثل شهادة وثائقية على أن العرب القدماء من أهل الاسلام على وجه الخصوص كانت لهم اتجاهات تطورية من ناحية المفاهيم الاسلامية .

ويصـــرح درابر قائلا: تأخذنا الدهشة أحيانا عندما ننظر فى كتب العرب، فنجد آراء كنا نعتقد أنها لم تولد إلا فى زماننا، كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات

---

١ ـ العلامة أبو البركات هبة الله البغدادى ـ المعتبر فى الحكمة ، جـ ٢ ص ٥ ، ٦ ، حيدر آباد ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م.
٢ ـ جورج تروبان ـ تاريخ الفكر الإنسانى فى العلوم حـ ١ ص ١٤٧ ترجمة حنان رشدى ، دمشق ١٩٧١.

العضــوية وتدرجهــا فــى كمال أنواعها، فإن هذا الرأى مما يعلمه العرب فى مدارســهم، وكــانوا يذهــبون الى أبعد مما ذهبنا اليه، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات العضوية والمعارف، والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى أشكالها([1]).

ولا شــك أن الفــارابى وابن سينا وكذلك البغدادى قد تركوا آثارا واضحة فى هذا الميدان ، كما أن مؤلفات ابن مسكويه وابن خلدون، وابن باجه الأندلسى وابن طفيل قد ألمحت الى شئ من ذلك([2]).

ولكن النتيجة العامة التى يمكن الوقوف عليها، هى أن مفكرى الإسلام قد لاحظــوا الــتدرج فــى مراتب المخلوقات من الحيوان الى المعادن، فالنبات ثم الإنســان، لكــنهم لم يقولوا ابدا أن الإنسان له أصل حيوانى أو يبخسوه حقه فى التفكــير والحرية، كما لم ينفوا عنه مزاياه التى تفرد بها، وانما ردوا تميزه ابتداء الــى ارادة الله تعــالى الصريحة من خلقه هكذا متميزا متفردا، ليصبح خليفة الله تعالى فى الأرض.

ولم يتحول التطور فى تفكيرهم الى لوثة مدمرة كما حدث فى الفكر الغربى المــادى. ولقد عرف مفكروا الإسلام التطور ولكنهم لم يعرفوا التحول التلقائى، وهــناك فرق بين التطور والتحول([3])، فى كل من المنطوق والمفهوم، مما يؤكد

---

[1] - الدكتور عبد المعطى محمد بيومى - نظرية التطور بين داروين والمفكرين الإسلاميين ص ٣٦ ، حولية كلية أصول الدين بالقاهرة، العدد السادس ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

[2] - وقدم الدكتور عبد المعطى محمد بيومى شواهد على التطور من فكر الفارابى وابن مسكويه وكذلك لدى اخوان الصفا وابن خلدون وكانت له استنتاجات متميزة ، راجع نظرية التطور بين داروين والمفكرين الإسلاميين ص ٣٦ وما بعدها حيث جاء المقال فى جزأين من ذات المجلة انتهى الجزء الأول عند صفحة ٦٤، وابتدأ الثانى من ص ٤٣٧، ففيها اسهاب وتفصيل ومناقشات قيمة على غاية من الأهمية، وانظر ايضا نظرية التطور عند مفكرى الإسلام للدكتور محفوظ عزام.

[3] - الدكتور محفوظ على عزام - نظرية التطور عند مفكرى الإسلام دراسة مقارنة ص ١١٧ ، تحت عنوان تطور خلق العالم حيث ألمح الى فهم الفارابى واخوان الصفا وكذلك القزوينى وابن خلدون وناقش وجهة نظر الدكتور عبد الواحد وافى الذى تصور أن ابن خلدون قدم سبقا على غيره فى التطور الإحيائى على المفهوم الداروينى راجع ص ١٢٣.

ظهــور أفكــار ذات سمات تطورية لدى مفكرى المسلمين الأوائل، ولكنها تجئ على النواحى الشرعية.

ولــم يرد فى كلام أهل الإسلام شئ عن الأفكار التطورية التى دعا اليها كل من هكسلى ولامارك وداروين، فضلا عن الاضافات التى قام بها والاس، أو هيكل أو حاول التركيز عليها مالتوس وباستير، أو التعديل فيها من خلال قوانين مــاندل ومعــادلات أورجل، ومن نافلة القول أن مفكرى الإسلام قد أيقنوا وجود التطور فى الكائنات ولكنهم أرجعوه الى:

الأول: العلم الألهى

علـــى أساس أن العلم الألهى صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى يتأتى بها انكشاف جميع الموجودات على ما هى عليه، فهو علم احاطة وانكشاف([1])، وكل مــا فى الكون من وجود وعدم، بل كل ما وراء ذلك الوجود والعدم، انما هو فى علــم الله تعــالى على ما هو عليه من غير اضافة اليه أو نقصان منه، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

مــن ثم فقد أرجع علماء الإسلام التطور فى الكون، والتحول داخل صور الكائـــنات مــن نطفـــة الى علقة، ومن حبة الى حبات، ومن تداخل الأجسام فى الأنـــواع وغـــير ذلـــك الى علم الله تعالى، الذى تتكشف أمامه كافة الأشياء ولا يحيطون بشئ من علمه .

وبهذا يبطل القول باحالة التطور الى ذات الكائنات التى لا تملك القدرات العقلـــية، كما تفتقد الامكانيات التى تجعلها تمايز بين هذه وتلك، وليس من شأن الكائنات الصماء غير العاقلة احداث تطورات محسوبة، أو ايجاد تحولات منظمة تنظيما دقيقا.

---

[1] الشيخ محمد منصور الثروى ـ العقيدة الإسلامية ص ٥٥ ، ١٣٦٥هـ.

الثانى: فعل الله تعالى

حيث أن التطور الكونى العام، والتطور بمعنى التحول من نطفة الى علقة الى مضغة ثم ما بعدها، أو تحول الكائنات الى التداخل فى بعضها عن طريق الاغتذاء ([1]) ، انما يتم ذلك كله من خلال الفعل الألهى، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ([2]، فإسنادهم هذه العمليات لا يمكن إلا أن يكون من قبيل الأفعال الألهية، ولا يقول بذلك أصحاب التطور الإحيائى سواء أكان منهم داروين أو كان منهم غيره فثبت بطلان القول بالسببية العقلية والتأكيد على دليل الخلق والاختراع.

الثالث : الداخل والخارج

نظر أهل الإسلام الى التطور من الناحية الإسلامية على أنه حركة من خارج الشئ الذى يقع فيه التطور، بمعنى أن القدرة الإلهية هى التى تنفذ ذلك، وليس الشئ الذى يقع عليه التطور هو الذى يقوم بذات العملية لمخالفة ذلك لصريح المعقول وصحيح المنقول، وبالتالى رجع الأمر بأهل الإسلام الى القضاء الإلهى، والعلم الشامل التام الكاشف.

ولا يكون القدر إلا وفق ما اقتضته الحكمة الإلهية([3])، وتمت كتابته فى القضاء الإلهى، وما يجئ فى التطور يمثل جزءا من القدر الإلهى، فثبت بطلان القول بالمصادفه، كما فشلت فكرة الانتخاب الطبيعى ، وتأكد القول بدلالة الخلق المستمر. على وجود الله تعالى ، وبروز ذلك فى الكائنات بأنواعها المختلفة .

---

[1] - وهو ما يعرف باسم تناسخ الأجساد الذى يقوم على أن كل جسم يتغذى من آخر، يتحول المتغذى به فى جسم المغتذى الى دم وطاقة ثم المزيد من البناء الهيكلى، ولا ينازع فى ذلك أحد من أهل الإسلام، أما محل التنازع والرفض فهو تناسخ الأرواح.

[2] - سورة فاطر الآية ٤٣ .

[3] - على أساس أن القضاء هو ما تمت كتابته أزلا فى العلم الإلهى من غير اعتبار لكان وكائن وسيكون، أما القدر فهو تنفيذ ما فى القضاء كل بوقته المتعين له، راجع كتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامى.

الرابع: العناية الإلهيه

أهل الإسلام يعلمون أن الله تعالى ما خلق شيئا إلا جاءت عنايته به، لقوله تعالى (﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾) ([1])، وهو دليل العناية الإلهية المنبعث فى الكون جميعه.

رابعا : فى البيئة الغربية الحديثة

ظهـرت فى عصر النهضة الحديثة فى أوربا بوادر حديث عن التطور فــى علـم تـاريخ الأحــياء تارة، وأخرى عن التطور فى العلم الفيزيائى، وقد اســتمرت الجهــود المتواصلة حول هذين النوعين من العلوم، وبخاصة بعد أن أعتصــرت الرياضــيات اعتصــارا، وباتت الأمور فى هذا العصر بحاجة الى المــزيد من الدرس والبحث، كما أن الفيزياء والأحياء صار كل منهما تطوف به مسائل كبيرة، وتكتنفه صعوبات متنوعة، مردها الى أن أحدا لم يعثر على الحيلة المناسبة لحلها([2]).

مــن المتعيــن أن الأفكار التطورية ستأخذ مكانها من البحث بل والذيوع والانتشــار فى القرن السابع عشر وما بعده، لا لأنها نظرية ذات قيمة علمية، أو أنهــا حققــت العديــد مــن النجاحات، أو ساهمت فى ايجاد الحلول للكثير من المشــكلات، وإنما لأنها وجدت من يدفع بها الى عالم الشهرة، وينقلها من مجرد كونهــا فكرة مطروحة على بساط البحث الى كونها قاعدة علمية، أو قيمة إيمانية ان لم تكن عقيدة فعلا لها من الوثاقة فى نفوس أصحابها الكثير. وهى فى الواقع خرافة لا حقيقة لها على ما يقول به التطوريون الغربيون .

---

[1] - سورة فاطر الآية ٤١ .

[2] جون كيمنى - الفيلسوف والعلم ص ٢٨٠ ترجمة الدكتور امين الشريف ، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٥.

بـيد أن بحث الفكر التطورى فى المجال الإحيائى، أو المجال البيولوجى يحتاج الى البحث عن أولئك الذين أعلنوه وتدافعوا من حوله ليبقى لأن بحث هذا الجانـب ربمـا سـاهم فى ابراز العوامل التى ادت الى بروز ذات الأفكار مع المحافظة عليها، وليس من قبيل المصادفة أن يكون القرن السابع عشر وما تلاه هى قرون نظرية التطور.

وانمـا يغلب على ظنى وجود عوامل كانت تقف خلفها غايات عديدة هى الـتى ساهمت فى ابراز هذا النوع من التفكير، ثم القذف به الى سطح الأحداث الجارية مع التأكيد على أنه يملك العصا السحرية التى يمكنها أن تقدم العديد من الحلول للمشكلات التى تعانى منها الإنسانية.

وسوف أعرض لذلك أثناء الحديث عن ابراز المقعدين لها فى أوربا ابان عصـر النهضـة ، وسيكون ذلك فى الفصل الرابع من الباب الأول ان شاء الله تعالى .

مو قفــى منهم :

ولا يغربـن عـن ذى بال أن أفكار التطور البيولوجى، أو تطور الكائنات الحـية بالمعـنى الذى تحدث عنه لامارك، وداروين ، وهيكسلى ومن سار على دربهـم مـا هـى الا امتداد لتلك الاتجاهات المنحرفة التى يجادل بها أصحابها، وتزداد انحرافا متى حاول أصحابها التعرض للثوابت الشرعية.

فلو تناولت فكرة التطور الإحيائى أمورا تقوم على أسانيد مقبولة من ناحية العلـم واعـتمدت على قواعد صحيحة ، وابتعدت عن مجال الخوض فى الغيب ربمـا كانـت نـتائجها غـير تلـك التى عرف العقلاء بها، ولكنها قامت على افتراضـات مـتوهمة، وأنماط من السلوك شاذة مهدت لظهور ألوان كثيرة من

الانحرافات فى المجالات البيولوجية بدعوى أنها أفكار تطورية[١]، وبالتالى كان نصيبها البوار ، وبئس القرار.

ويـرى الياس أنطون أن " فكرة تطور الكائنات الحية التى قال بها داروين ونسـبت اليه هى من النظريات الحديثة التى أثرت فى العلوم والآداب والعمران، وليس بين قادة الفكر الآن من لا يؤمن بها[٢]، ويعتقد فى صحتها [٣].

وهـو غـير موفق فيما ذهب اليه بدليل مقاومة المفكرين المتميزين لها، وعـدم استعدادهم لقبولها أو محاولة الرجوع عن مهاجمتها ، فضلا عن هجران القائمين عليها والتحذير منهم ومنها.

وفـى نفـس الوقت يقرر سلامة موسى[٤] : << أن التطور هو النظرية السـائدة فى العلوم الآن، وهى الصبغة التى اصطبغت بها عقول جميع المفكرين فـى عصـرنا الراهـن[٥] >>، وهـى نفـس المزاعم التى يرددها العلمانيون والوجوديون والطبيعيون و الماديون بل والماركسيون أيضا، كما يتنادى بها أهل الإلحـاد علـى وجـه الاتفاق بينهم فى كل مكان وجدوا به، وأى زمان كان لهم حياله دور فعال.

وتـتلخص هذه الأفكار عند أولئك المحدثين فى أن الحيوان والنبات على تعـدد أنواعهمـا التى تبلغ الآلاف نشأت فى الأصل من نوع واحد هو العنصر الحـيوانى، أو الخلـية الحيوانية، وأن الجماد نفسه بما فيه من ذرات وجزيئات وعوالـم وعناصر أيضا كله يرجع الى أصل واحد [٦]، هو الخلية الجمادية، ثم

---

١ الدكتورة/ ناهد البقصمى - الهندسة الوراثية ص ٢٧.
٢ كان ذلك فى عام ١٩٢٢م، يوم أن كان بريق الأفكار الزائفة ينتشر فى الجو العام مؤثرا فيه، وكان دعاة الإلحاد يعبرون عنه فى جرأة لا نظير لها.
٣ الياس أنطون - تطور الأحياء ص ١٥، وهو من أنصار النظرية والمدافعين عنها، بل أنه قام بنشر الكتب التى تخدم تلك الفكرة من خلال المطبعة المصرية التى كان يملكها بالفجالة فى ذلك الحين.
٤ هو أحد المؤمنين بفكرة التطور الإحيائى العضوى والمدافعين عنها، وألف فيها أكثر من كتاب، وبذل جهودا كبيرة فى عرضها على المثقفين، حتى تنال شيئا من القبول.
٥ - الاستاذ سلامة موسى - نظرية التطور وأصل الإنسان ص ١٧ ، المطبعة الأميرية.
٦ - الأستاذ/ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢١٢.

يرجعان معا الى أصل مشترك هو المادة الصماء، الثابتة العمياء التى لا حياة فيها كما لا حس ولا حركة.

ثـم أن الكائنات الحية عندهم توجه ــ طبقا لقانون التطور ــ الى أصول مـتعددة، نظرا للتشابه بين بعضها والقرابة التى تبدو بين أنواعها، وقد استغرقت أبحاثهـا حوالى ربع قرن من عمر داروين نفسه([1])، ومن سبق أو جاء بعده، ثم مازال ذات الأبحاث قائمة تعمل على تأكيد الأفكار ودعمها فى شكل دائم، رغم أنها مجرد احتمالات وفروض مظنونة، لم يقم دليل واحد على صحتها حتى الآن ولم تسلم من الانتقادات.

وطـبقا لهـذا المفهوم فقد بذلوا مجهودات متعددة لشرحها على طريقتهم، باعتبار أنها القائلة بأن جميع الكائنات الحية الموجودة على ظهر الأرض لم تكن فـى بـادئ أمرها على هذه الصورة الحالية، ولا على هذه الكثرة من الأنواع، وإنما نشأت من أصل واحد أو بعض اصول يفترض أنها تولدت من المواد غير الحية تطورا ذاتيا....

ثـم تطـورت تلك الأصول تبعا للظروف والأسباب المختلفة حتى وصلت الـى شكلها الحالى الذى لا يزال بدوره آخذا فى التغيير تغيرا بطيئا محدودا تبعا للظـروف الطبيعـية([2]) ، التى صاحبت هذا التطور ، وفى حدود نفس الظروف التى مازالت قائمة.

وتركـز علـى أن الحياة الأولى للإنسان والحيوان والنبات، قد بدأت على ظهـر هـذه الأرض بجرثومة أو جراثيم قليلة تطورت من حال الى حال، تحت تأثـير فواعـل طبيعـية حتى وصلت الى هذه التنوعات التى نراها الآن وعلى

[1] ـ الدكتور/ عبد المعطى محمد بيومى، الدكتور/ أحمد الشاعر ـ الإسلام والتيارات المعاصرة ص ١١٨ ط٢، ١٤٠٠هـ/١٨٩٠م.

[2] ـ الدكتور / أحمد طلعت محمد القلم ـ أضواء على نظرية النشوء والارتقاء ص ٢٧.

رأســها الإنسان([1]) نفسه الذى يعتبر أحد النتاجات التى تلاحقت مع هذا التطور المستمر الخلاق.

وقد ذهب داروين هو الآخر فى شرح هذه الفكرة الى أن كل أنواع الحياة الحاضرة، هى عبارة عن فروع لشجرة عائلية ارتقائية عظيمة، ساقها وفروعها الرئيســيان يــتكونان مــن أنــواع سالفة انقرضت منذ أزمنة سحيقة عن طريق الانتخاب الطبيعى([2]).

لكنه فشل فى ايضاح الكيفية التى تمت بها عملية ذلك الانتخاب الطبيعى، وهو الشئ الذى يجعل الفكرة تنقلب على رأسها([3])، بدل أن تنتصب على قدميها وتســتوى، إن كانت صحيحة أو قائمة على قواعد مقبولة وبئس ما فعل أصحاب التطور الإحيائى. أما لمـــــاذا ؟

فــلأن الإنسان عندهم بدأ بجرثومة صغيرة تحولت تحولا ذاتيا آليا ــ من غــير حاجــة الى إله خالق عظيم قادر عليم ــ الى حيوان صغير ثم تدرج هذا الحــيوان فـــى الــرقى الذاتى،حتى ارتقى الى حياة حيوانية بدائية أول الأمر، ثم حيوان أكبر فأكبر من الأول حتى صار ريشة مجنحة([4])، وظلت على ذلك حينا من الزمان.

ثــم تحولــت تلــك الريشة الى ذوات فقرات، ثم ارتقت الى حيوان شبيه بالإنســان، وهو القرد الشمبانزى، ثم كانت نهاية هذا التطور إنسانا أول، لا يعقل ولا يــدرك ولا يتكلم، ثم إنسانا كاملا أرقى من الأول وهو المعروف والمشاهد اليوم لنا بعقله وفكره وإدراكه([5])، وما يستتبع ذلك ويتعلق به.

---

[1] ـ الأستاذ/ محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ص ٢١.

[2] داروين ـ أصل الأنواع ص ٥٧، ترجمة خاطر مرسي ـ المطبعة العصرية ـ بيروت.

[3] ـ الدكتور / سعيد محمد الحفار ـ البيولوجيا ومصير الإنسان ص ٢٨ ـ عالم المعرفة العدد ٨٢.

[4] ـ أ . ب سورز ـ تطور الكائنات الحية ص ٤٥، ترجمة صالح مرسي، بيروت ١٩٧٥م.

[5] ـ الدكتور/ أحمد طلعت القلم ـ اضواء على نظرية النشوء والارتقاء ص ٣٠

والغريـب أن دعـاة الـتطور فى الكائنات الحية، يعتمدون على المعطى اللغـوى فـى الاستدلال ، وليس استدلالهم قائما فى نتائج المعمل التجريبى كما يدعـون، مـع أنـه هو ميدان البحوث التجريبية، بل هو الأساس الذى يجب أن يعتمدوا عليه فى مسألة تطور الكائنات الحية على الناحية التى انطلقوا اليها.

وبالـتالى فـإن اتجـاههم الى الألفاظ اللغوية، يمثل نوعا من الهرب عن مواجهـة الواقـع، كمـا يمثل اعترافا بانهيار الأفكار التى يعتمدون عليها باسم البحث العلمى التجريبى وما هى فى شئ منه.

أمـا دليلنا فى اعتمادهم على اللغة هو قولهم بأن لفظة التطور غرست فى الأذهان فكرة تدرج الأحياء ورقيها جيلا بعد جيل، فصار للرقى من اللغة أساس طبـيعى، وصارت مخالفته من الفرد والأمة أو الحكومة أشبه شئ بخروج على السنن الكونية الطبيعية([1])، وهذا أمر غير مقبول وإلا لانهارت كل الأصول.

وفـى ذات الوقت فإن أصحاب التطور الإحيائى العضوى ينسبونه فى كل مـراحله الـى الطبيعة الصماء الثابتة غير العاقلة، زاعمين أنها هى التى عملت بنفسـها على ترقية الإنسان فى الماضى، وأن واجب المدنية الآن هو العمل على رقى الإنسان وتطوره المستمر، واعداده للمستقبل ([2]) .

ولسـت أدرى كيف تكون مادة صماء عمياء غير عاقلة ثم ينسبون إليها الحـركة والعمل والتطور، إن ذلك لا يصدقه عاقل، فكيف بعقول من تبنوا ذات الأفكار ؟ وهم الذين يعلنون عقلانيتهم حتى القمة.

بـيد أنـنا نميل الى أنها ليست نظرية علمية، ولا يمكن تسميتها بها، وإنما هى فكرة ينقصها الدليل المقبول على صحتها، لأن النظرية العلمية فرض علمى

---

[1] سلامة موسى - نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٣٥ ، المطبعة العصرية.
[2] إلياس أنطون - تطور الأحياء ص ٢١.

لـــم تثبـــت صحته، أما إذا ثبتت صحته فإنه يكون قانونا علميا([١])، أو هى فرض محتمل لم تثبت صحته من خلال تعريفه أو التعرض له.

أما لماذا ؟

فلما يلى :

[١] إن النظرية العلمية فرض علمى يحاول القائمون عليه إثبات صحته، وليســت الداروينـــية كذلك، بل هى مجرد فكرة تخمينية قامت على الفرضية من خلال مظاهر شكلية لم تختبر، بل ولم يقع عليها نوع تجريب أصلا، وبالتالى فلا يمكن اعتبارها نظريةعلمية مقبولة من الناحية العلمية ([٢]) .

[٢] إن الــنظرية العلمــية تقــوم علـــى الملاحظـــة والتجربة ثم فرض الفروض،واختـــبار صـــحة الفروض ثم تنحية الفرض الساقط واستبقاء الفرض الغالب([٣])، وذلك كله غير متوفر بالنسبة لما يقال عن فكرة التطور التى يزعمها الطبيعيون، وإنما على العكس من ذلك تماما تجئ الأمور.

* وبالـــتالى؛ فـــإن قبولها من جانب القائلين يؤكد أنهم اعتقدوها أولا، ثم راحـــوا يتلمسون طرائق تأكيدها ثانيا، وهو قلب للموازين، إذ تعرف هذه الأفكار بأنهـــا أســـطورة الطبـــيعة الإنسانية الثابتة، التى تقوم على أن تصورات المرء الذهنية هى التى تؤثر فى تصرفاته، لأنهم يعتقدون أنه يجب عليهم أن يتصرفوا على ذلك النحو([٤]).

[٣] إن الــنظرية العلمــية لهـــا منهج يتناسب معها،وموضوعات بحثية تـــتعرض لهـــا وتقوم عليها، ونتائج تنتظرها، فإذا وضع الباحث فى ذهنه نتائج مســـبقة ثم حاول الوصول بأبحاثه الى ذات النتائج التى وضعها فى حسبانهأولا ،

---

[١]- د / محمود قاسم - المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣١٢.

[٢]- ستيفن روز وآخرون - علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية ص ٢١١.

[٣]- وتعرف باسم نظرية الإسقاط والاستبقاء، كما تعرف باسم نظرية البواقى، راجع للأستاذ/نعيم محمد عبد العظيم - المناهج العلمية ص ٢٣.

[٤]- هربرت أ . شيللر - المتلاعبون بالعقول ص ٢٣ ، ترجمة عبد السلام رضوان ، عالم المعرفة.

فإنـــه يخالف المنهج العلمي، بل ولا يكون باحثا محايدا في مجال العلوم التطبيقية الـــتي من أبرز سماتها الحيدة والتجرد العلمي([1])، والابتعاد عن التعصب الذهني والمذهبي .

وفـــي تعريف فكرة التطور العضوى تلاحظ لي أن داروين قد تأثر بجده أرازمـــوس داروين، الذى كان قد اقتبسها هو ألاخر بدوره من دافيد هيوم أشهر الملحديـــن فـــي عصره([2])، وكان هيوم نفسه قد استقبلها من الطبيعيين في بداية عصـــر الثورة الصناعية، وبالذات عند بدايات ظهور أفكار فرنسيس بيكون مع التأكـــيد علـــي وجـــود الفـــارق بين اتجاه هيوم الشكي، واتجاه فرنسيس بيكون التجريبي.

وطبقا لهذا فإن فكر داروين قد افتقد أصول البحث العلمي، وتجاهل مناهج البحـــث فـــي العلـــوم التجريبـــية، مما يجعل فكرته عن التطور الإحيائي مجرد تصـــورات خيالـــية يكذبهـــا الواقع وتدحضها التجربة، وتحرمها نصوص الدين وترفضها العقول السليمة([3]).

[٤] إن فكـــرة التطور هذه يلحقها الارتقاء، ومذهب العشوائية، أو التولد الذاتـــي والمصادفة العمياء والحتمية المطلقة والخوض فيها كم كان مبعث جدل وخصـــام بيـــن الشباب المثقف، بل طا لما جر الكثيرين منهم ووقف بهم على شفير الالحاد([4]).

وذلـــك لـــيس من شأن النظريات العلمية الصحيحة، وإنما هو من سمات القضـــايا العبثـــيةأو الجدلية التي لم تعتمد على منهج علمي مقبول([5])، وتاريخها

---

[1] ـ الدكتور / على سامى النشار ـ مناهج البحث عند مفكرى المسلمين ص ١٩٥. دار المعارف بالقاهرة.

[2] ـ الدكتور / أحمد طلعت الغنام ـ أضواء على نظرية النشوء والارتقاء ص ٢٦.

[3] ـ الدكتور / فيصل خالد ـ تطور الكائنات اسطورة ص١٩٥ ، بيروت.

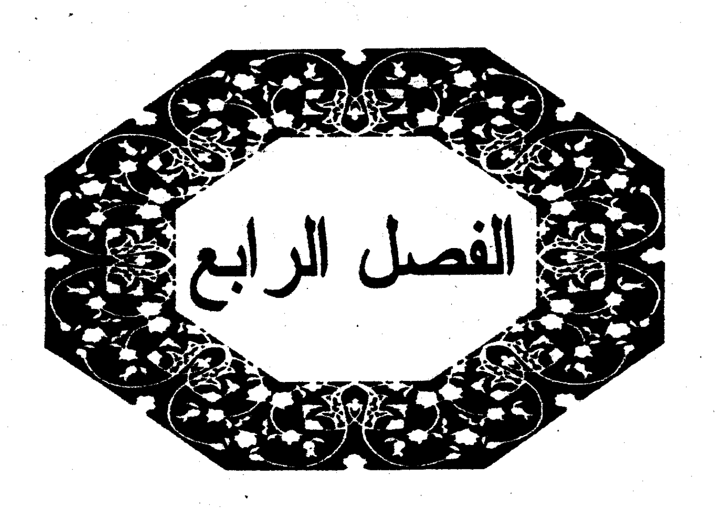
[4] ـ الأستاذ / محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ، ص ٢١.

[5] ـ وهذا في حد ذاته كافي لإثبات بطلان هذه الأفكار فإذا أنضم الى ما سبق من وجوه نقد ثبت أن النظرية وهمية ولا علاقة لها بالعلم.

كأفكارهـــا قديم في بلاد اليونان مع الشكاك ، وفي أوربا وبلاد الغرب مع هيوم وجاسندى، كما كان مع أصحاب الشك للشك كمونتانى الفرنسي وغيره

وفـــى تقديرى ؛ أن ما سلف ذكره يجعل فكرة التطور الداروينية ولواحقها ليس من قبيل النظريات العلمية،وإنما هو من قبيل الإفتراضات الخيالية التى هى فى الأصل الوليد الحقيقى للأفكار الشاذة التى تحكم سلوكيات أصحابها، وتصور وجدانـــاتهم المنحرفة من داخلها، ومثله لا يعتبر نظرية علمية، ولا تعتبر كذلك نظـــرية اجتماعية أو أخلاقية، لأنها تفتقد الأصول الموضوعية و المنهجية التى تقوم عليها، بل ولا تدخل فى نطاقها .

وســـوف أعـــرف بأبـــرز الداعيـــن لها والمقعدين لقواعدها، حتى يمكن التعرف على الموارد والجذور التى استقيت منها كل واحد من ذات الأفكار ، فقد يكشـــف ذلـــك أحد الأسرار التى قامت عليها الفكرة أو الأغراض التى حرصوا علي الوفاء بها، وسيكون ذلك فى الفصل التالى إن شاء الله تعالى.



أبرز المقعّدين لها

الأول : أرازموس داروين

الثاني : جوليان هكسلي

الثالث : جان بايتست لامارك

الرابع : تشارلز روبرت داروين

الخامس : ألفريد راسل والاس

السادس : أرنست هنريخ هيكل

ليس لدي أدنى شك ، في أن لفظ التطور القائم خلال مفاهيم كل من اللغة ، والتنوعات المختلفة ، ليس هو المراد عند أصحاب نظرية التطور في الكائنات الحية ، التي تعتمد على أن التطور الإحيائي ، إنما يتم عن طريق الانتخاب الطبيعي[١]، وليس لدي من شك أيضاً ، في أن المراد من لفظة التطور لدى الإحيائيين غير المراد منه في مسألة التطور الاجتماعي ، أو التطور السلوكي ، أو التطور الآلي[٢]، وغير ذلك من أنواع التطور التي تفترق عن التطور الاجتماعي .

ومن المؤكد لدي أن كلاً من : راي ، وهوميس ، فضلاً عن ارازموس داروين[٣]بجانب هكسلي ولامارك[٤]وتشارلز داروين[٥]وغيرهم ـ ممن يذهبون إلى القول بتطور الكائنات الحتمي ، على الناحية الإحيائية ـ من خلال فكرة الانتخاب الطبيعي ، أو تنازع البقاء ، وتطور أصول الأنواع[٦]ـ قد فكروا في نوع آخر من التطور غير الإحيائي ، لأنهم يسقطون من حساباتهم كافة الأنواع التي يجئ فيها مفهوم التطور ، ولا يتمسكون إلا بنوع واحد يعتبرونه الأصل أو

---

(١) جاكوب برونوفسكي ـ التطور الحضاري للإنسان ـ ارتقاء الإنسان ص ١٨٤ ترجمة د / أحمد مستجير

(٢) تطور الآلة نوع من الأنواع التي يجئ فيها التطور ، وقد سبق الحديث عنه ، حينما تعرضت لأنواع التطور في صدر الفصل الثاني من الباب الأول .

(٣) هو جد تشارلز داروين عاش ما بين أعوام ١٧٣٨ ـ ١٨٠٢م ، وهو صاحب القول بأن الصفات المكتسبة الإحيائية تنتقل عن طريق الوراثة طبقاً لقاعدة غريزة حب البقاء ، والتلازم مع البيئة الطبيعية ـ راجع للدكتور فوزي محمد الظريف ـ اتجاهات الفلسفة الحديثة ص ١٧٩ ط أولى ١٩٧٥م .

(٤) عاش لامارك مابين أعوام ١٧٤٤ـ١٨٢٩م حيث قدم نظريته المعروفة حول توارث الصفات المكتسبة ، والقواعد الأربعة وقد استفاد أغلبها من أرازموس داروين الذي ألف كتابا حول هذه القواعد أطلق عليه اسم قوانين الحياة الفطرية وتم نشره عام ١٧٩٤م .

(٥) عاش ما بين أعوام ١٨٠٩ـ١٨٨٢م وقدم نظريته من خلال فكرة الانتخاب الطبيعي ، ثم جاء من بعده فقدموا النظرية التركيبية الحديثة .

(٦) الأستاذ / سلامة موسى ـ نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٤٦ المطبعة العصرية بمصر .

الأساس ، ويطلقون عليه اسم التطور الإحيائي[1].

بيد أن هؤلاء الذين التقوا حول ذات الأفكار التي كانت لها امتدادات قديمة ، قد حاولوا إعادة صياغتها من جديد ، وأضافة المزيد الذي يؤكد استقلالهم عن غيرهم ، من ثم يمكن القول بأن فكرة التطور الإحيائي قد حظيت بجملة من الذين تبنوا هذه الأفكار ، وأضافوا إليها المزيد من الأشكال المختلفة ، والتداعيات الكثيرة،حتى تكون مواكبة للمستجدات العصرية ، وذلك يستلزم تقديم إلماحة عن ابرز الذين قعدوا لها في العصر الحديث ، ثم محاولة عرض الأفكار والآراء التي تحملها ، ثم الدفاع عنها — بعد التأكيد على إقامة أسسها — بغية المحافظة عليها ، واستمرار وجودها .

والسؤال الآن : من هم أبرز المقعدين لفكرة التطور الإحيائي العضوي ؟

والجواب : أن تقديم حصر لهم على وجه اليقين الذي تجئ معه الدقة ، يعتبر أمراً يعني به أصحاب تاريخ الفكر ، وفي نفس الوقت فلن يكون سهلاً ميسوراً ، متى كان المراد إبراز الجزء الذي قدمه هذا الشخص أو ذاك[2]، إنه سيكون أمرا غاية في الصعوبة ، وبخاصة متي وضع في الحسبان ضرورة التعريف بكل واحد منهم تعريفاً كاملاً ، بعد حصرهم حصراً دقيقاً ، لأن ذلك يحتاج جهود كثير من الدارسين أو الباحثين في الشرق والغرب على السواء .

من ثم فسأحاول تقديم نبذة مختصرة حول من يمكنني الوقوف عليهم من أولئك الذين قعّدوا لها، لأنهم الأصول التي قامت عليها فيما بعد، والرؤوس التي

---

(١) كما يطلقون عليه اسم التطور العضوي ، وربما أطلقوا عليه أيضاً اسم تطور الكائنات العضوية .

(٢) ربما يكون ذلك سهلاً في الوقت المقبل طبقاً لما أنتجته المطابع الحديثة ، وأفرزته التكنولوجيا المتقدمة في الأنظمة المعلوماتية ، أو القنوات الفضائية التي يتوقع لها أن يتحول العالم معها إلى قرية صغيرة من خلال المواقع التي يرتبها الأنترنت .

أفرغت فكرها في قوالب منطوق بها ، كما ظلوا حاملين لواء الدفاع عنها .

الأول : ارازموس داروين :

١ ـ حياته وأفكاره :

إنجليزي المولد ، مسيحي المعتقد ، عاش ما بين أعوام ١٧٣٨ ــ ١٨٠٢م تربى في أسرة متوسطة المستوى الاجتماعي ، إذ كان أبوه صاحب مال عاد إليه من عمله بجوار دوق إنجلترا،وقد كانت والدته تحثه على أن يكون عالماً، بحيث يعوض الأسرة ما فقدته من أسهم اجتماعية ، على أساس أن الذي كان يعمل مع الدوق يفقد مكانته الاجتماعية في بعض الأحيان[١]، فكان هذا التعويض يمثل أملاً تسعى إليه الأسرة .

نجح أرازموس في الدراسة التي التحق بها داخل مدارس اللاهوت ، ولكنه غير اتجاهه نحو العلم المدني ، إذ لم تكن وظيفة كاهن تروق له ، بل أنه كان يعتبر أعمال القسس من الأمور التي تصلح لضعاف العقول ، ولا تناسب الأذكياء من الأسوياء ، ومن ثم التحق بقسم العلوم الطبيعية ، وما لبث أن أظهر تفوقاً ملحوظاً فيه مما دفع بالأسرة حتى يكونوا جميعاً في صف واحد لخدمته[٢]، وقد شعر هو بذلك ، فازداد إصراراً على التقدم ، وتخطي كل العقبات .

وبعد تخرجه من قسم العلوم الطبيعية ، التحق بقسم للطب كان به أحد الأساتذة الذين يفد إليهم الطلاب من الأماكن المختلفة ، يدعى زاموس[٣] ، ولكنه بقدر ما له من شهرة علمية ، فقد كان حاد المزاج، عنيفاً في بعض الأحيان ، له سقطات أخلاقية زادت عن الحد ، لكن المعارف التي حصلها كانت كفيلة بإزاحة كل العقبات من طريقه ، وداعية للتعلق بعلمه ومعارفه .

---

(١)الدكتور/ خالد محمد فوزي ــ زعماء التطور ص ١٧ ط دار المنصر ١٩٧١م دمشق .

(٢)باتيودسعولكس ــ التطوريون الأوائل ص ٢٣ ترجمة رشدي النجار ط أولى ١٩٦٥م .

(٣) عاش ما بين أعوام ١٧٢٣ ــ ١٨٩١م ، وكانت له شهرة واسعة في الطب .

أعجب ارازموس داروين ، أستاذه زاموس جداً ، وتعلق به إلى حد كبير ، غير أن زاموس قد لقى حتفه حين أكثر من شرب الخمر ، فسقط من سطح المنزل الذي يقيم به،وهو في تجواله على السطح،إذ كانت تلك عادة من عاداته[1] وقد حزن التلميذ ارازموس على الأستاذ زاموس حزناً شديداً ، حتى أنه فكر في ألا يتم الدراسة في قسم العلوم الطبيعية وبخاصة الطب ، ولكن الأسرة وصديقته أليس كانا وراء استمراره في هذا النوع من الدراسة .

لقد كان عشقه لأليس كبيراً،وقد عوضته هذه العلاقة الحميمة عن فقد الأستاذ فلما أتم دراسته ، عمل طبيباً حراً ، ثم انضم للعمل بالجيش الملكي ، وأخيراً دعى محاضراً في جامعة كولونيا ، والجامعة الملكية البريطانية ، وكان الطلاب آنئذ يعجبهم المحاضر الأديب ، فهم ارازموس إلى دراسة الأدب والشعر بجانب الفلسفة أيضا[2]، حتى ظهر كشاعر ماجن في بعض الأحيان ، يسرف في الغزل الفاحش ، ومال قليلاً نحو الحياة الماجنة التي عرفتها شوارع إنجلترا القديمة[3].

بيد أنه فقد أليس الصديقة نظراً لما أصابها من مرض لم يتم التعرف على أسبابه ، أو هويته حينئذ ، فراح يبحث في كتب المعرفة العلمية — وبخاصة أن لديه العديد من الاستعدادات للتعرف على قضاياها ومشكلاتها — حتى صار معدوداً بين علماء الطبيعة ، كما هو مقيد ضمن قوائم الأطباء[4].

ويبدو أنه استفاد من ثقافته والثروة التي جمعها ، فأعاد تنظيم حياته على نحو أفضل ، ثم تزوج وأنجب ، بل صار جداً لتشارلز داروين الذي حافظت

---

(١) الدكتور / رضوان محمد شعيب — التطور — الزعماء والقضايا — ص ٤٥ ط أولى ١٩٧١م .

(٢) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٣١ .

(٣) وبالتالي فهو قد جمع بين المجون القولي والفعلي ، ومن ثم صارت آراؤه صورة من سلوكياته ، مالم تكن هذه الآراء قد ظهرت متأخرة عن هذا التاريخ .

(٤) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٣٥

الأسرة على تسميته باسم جده ، حتى يحمل مصباح ديوجانس من بعـــده ، وان يحقق من النجاحات ما يفوق التي حصل عليها جده[١].

خطط أرازموس داروين لحياته العلمية بعد تجاوزه الخمسين من عمـــره ، فأكثر من مشاهداته للكائنات الحية ، كما عمل على أن تأخذ التجربة مكانها مــن وقته ، وقد اكتشف أن كل الحيوانات الحية تتشابه فيما بينها ، بحيـــث يجمعـــها خيط واحد ، أو نسيج واحد حيوي[٢]وبالتالي قدم نظريته حول التجانس الحيوي، التى طورت فيما بعد إلى الانتخاب الطبيعي[٣]مما يؤكد أن داروين الحفيـــد قــد استفاد من الجد،إن لم نقل أنه أخذ منه، ونقل عنه،من غير ولو إشارة خافتة إليه.

وفي عام ١٧٩٠م أصدر كتاباً عن تطور الكائنات الحية ، الإنسان ــ الحيوان ــ النبات ، أكد فيه على القواسم المشتركة،واسماه بذات الاسم القواسم المشـتركة في العالم الحيوي ، وفي عام ١٧٩٢م أصدر كتاباً آخر تحدث فيه عن تجربتـــه الشعرية وملاحظاته في عالم الأحياء تحت عنـــوان ملاحظـــاتيَ ، وفـــي عـــام ١٧٩٤م اصدر كتابه الثالث تحت عنوان قوانين الحياة أكد فيه علـــى الغرائـــز وتكوينها من خلال التجربة والعمليات التي تقوم على التداعي،تحت تأثير غريـزة حب البقاء ، وقد أكد فيه أن البيئة تجبر الكائن الحي على التوافق معها .

وأخيرا انتهى إلى أن الصفات المكتســـبة تنتقـــل للآخريـــن عـــن طريـــق الدراسة[٤]، ولم تكن قوانين ماندل في الوراثة قد عرفت بعد ، فكـــانت أفكـــاره تمهد لمندل الجانب ، مما يمكن اعتبار نتائج أرازموس مقدمات لأفكار منـــدل ،

---

(١)الدكتور ضوان محمد شعيب ــ التطور الزعماء القضايا ص ٦١ ط أولى ١٩٧١م .

(٢)هنترميد ــ الفلسفه انواعها ومشكلاتها ص ١٠٨ ترجمة فؤاد زكريا ط القاهرة الثانية ١٩٧٥م .

(٣)الدكتور صوان محمد شعيب ــ التطور الزعماء والقضايا ص ٦٣

(٤) توماس فوانر ـ التطو وتاريخه العام ص ٤٥ ترجمة هدى مصباح ١٩٧١م وراجع ليوسف كرم تـــاريخ الفلسفه حدث ص ١٥٠

ونتائجه في قوانين الوراثة التجريبية .

٢ – تقييم أفكاره :

ولقد كان ارازموس داروين قد ترك بعض الآثار التي تؤكد حرصه علـى أن يكون ضمن قائمة زعماء التطور العضوي ، إلا أن هناك نقطة مهمـــة جديـرة بالنظر فيها وهى الخلاصة لموقف ارازموس حيث تجئ في كل من :

أ – أنه كان يمثل الطفرة التطورية في العصر الحديث[١] ، وإن كانت قليلة الأثر إلا أنها تركت بذوراً صغيرة ، قام برعايتها من أتى بعده ، وظل يتعهدها حتـى باتت كبيرة الحجم ، كثيرة الأشواك ، عديمة المنافع ، لكنها تحمل أسماء عديدة.

ب – أن آراءه التطورية أحدثت ردود فعل لاهوتية غاضبة في المجال الأوربـي حيث قام بالي عام ١٨٠٢م بتأليف كتاب تحت عنوان علم اللاهـــوت الطبيعـي ينتقد فيه الآراء التي انتهي إليها أرازموس، ويتهمها بـــالانحراف ، كمـا يتـهم ارازموس نفسه بالتحلل من القيم والأخلاق[٢]، ثم انتهى بالي إلى الحكـم عليـها بأنها مجرد آراء خيالية لا تستحق سوى الازدراء ، والنعت بالحقارة معاً[٣].

ج – أن هذه الآراء أحدثت شرخاً هائلاً في التركيبة الاجتماعية الأوربية آنئـذ ، كما أحدثت نوعاً من الانفلات القيمي ، رغم أن أغلب الآراء التي لها خطورة لم يعلن عنها إلا بعد وفاته بثلاثة أعوام على الأقل ، لأنه تركها عند صديقه فيليـب مقترنة بوصيته التي أظهر فيها حرصه على عدم نشـر هذه الآراء ، إلا بعـد وفاته بهذه المدة ، فلما تم نشرها أحدثت هزة عنيفة داخل المجتمع الإنجليزي كله

---

(١) حيث لم يكن قد سبق من ناحية دراسة هذا الجانب . من الناحية التطبيقية دارس يقوم بها علـى جـانب تنظيمي.

(٢)الدكتور حمدي محمد صابر – التطور واللاهوت ص ١٧٥ ط دمشق ١٩٦٥م

(٣)جراهام كانون – نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٣٧ .ترجمة الدكتور عبد الحافظ حلمي محمد ط دار الفكر الجديدة – بيروت ١٩٩٧م

بل تعدته إلى دول الجوار[1] أيضا ، وكانت تأثيراتها السلبية واسعة الأثر .

د — أن هذه الآراء فتحت الباب على مصراعيه لكل باحث في العلوم الطبيعية حتى يجهر بخواطره مهما كانت شاذة ، ويعتبرها قواعد صحيحة ، وإن لم يكن لها شئ من الصحة ، بل ساهمت في انتصار العلم على الكنيسة في معركتهما التي لم تبدأ بعد الفصول الختامية فيها ، كما أدت إلى اختلاط المباحث الطبيعية الفيزيائية وتداخلها مع المباحث البيولوجية ، وهو ما يعد خرقاً لمناهج العلوم وموضوعاتها الفنية التي باتت شبه مستقرة في هذا الوقت من الزمان .

وفي تقديري : أن أرازموس داروين كانت لديه اتجاهات غير منضبطة وأن خياله الشعري ، واختلاط الأمور بين عينيه — بجانب الخلل الاجتماعي الذي عاش فيه أبان إصدار هذه الكتب — قد غلفوا أفكاره وآراءه بالكثير من الخيالات التي تناقض العلوم التجريبية في مناهجها وغاياتها ، كما أن النتائج التي وقف عليها ، بالنسبة لتفسير ظاهرة نشأة الحياة على الأرض ، واندماج الكائنات الحية ببعضها لا يمكن التأكد من صحتها أو صدقها عن طريق التجربة العلمية [2]، وبالتالي تعتبر آراؤه مجرد احتمالات فرضية لكنها لم تنل القبول العلمي ، بل ان النتائج التي أعلن انتهاءه إليها تتضارب تماماً مع الأخرى التي يتبناها غيره ، ممن يدعى لآرائه نفس ما يدعيه أرازموس .

الثاني: جوليان هكسلي :

١ — حياته وأفكاره :

إيطالي الأصل ، إنجليزي الموطن ، لاديني المعتقد ، عاش ما بين أعوام ١٧٦٠—١٨٣٥م ، نشأ في ظروف غامضة ، إذ لم يذكر المؤرخون أكثر من أنه تربى في ظروف انفصال والديه ، فتولت رعايته جدته لأمه ، وكانت لادينية

---

(١) الدكتور حمدي محمد صابر — التطور واللاهوت دراسة حديثة ص ١٧٦

(٢) لأن العلم التجريبي يقوم على ضرورة التجربة لإثبات صدق التجربة أو عدم صدقها

أيضاً ، إذ كانت اعتقاداتها الدينية لا وجود لها[١] ، وأنها كانت تسمح بـــالاختلاط الغير مسؤل ، وأن هذا الحفيد التعس قد عاش معها طفولته الباكرة ، ثم أدخلتـــه أسرة والدة المدرسة ، لكنها لم تقم بالإنفاق المتواصل عليه ، وبالتـــالي فكـــانت أحواله في الدراسة تسوء أحياناً ، وتتحسن آخر .

وفي غمرة من الأحداث التي هزت إنجلترا اضطر جوليان للـــهرب منـــها حيث توجه إلى فرنسا ، ثم بعدها ذهب إلى إيطاليا ، وكانت سنه حينئذ تسمح لـــه بحياة الصعاليك[٢]، فتعرف على العديد من البائسات ، كما أمكنه مخالطتهن إلـــى أبعد مدى ، فلما عاد إلى إنجلترا لم يجد له مأوى يضمه ، إذ كانت الجـــدة قـــد فارقت الحياة ، وتم بيع المنزل الذي كانت تقيم فيه .

تعرف عليه صديق قديم يدعى ليفي الذي آواه إلى منزله ، وكـــان يعطـــف عليه كثيراً حتى شجعه على مواصلة الدراسة ، ومحاولة ضبـــط ســـلوكياته[٣] ، وقد أظهر جوليان قناعة زائفة بما عرضه عليه صديقه ، إذ لم يكن فرحاً بـــها ، أو عاقد العزم على التزام السلوك السوي ، ومن ثم فما أن لاحت له فرصة فـــي الأفق حتى فارق منزل صديقه ، وانحنى إلى أصدقاء السوء الجدد الذين شاركوه الأعمال العبثية[٤].

اعتبر نفسه بعيداً عن كل دين ، كما اعتبر نفسه خارج نطاق القانون ، فلجأ إلى تعاطي المواد المخدرة ، بجـــانب والاتجار فيها ، فلما وجد أنها لا ترضي

---

(١) الدكتور بدر الدين محمود العرقسوسي ـــ أعلام الفلسفة المادية ص ٩٧ ط الـــدار الإســـلامية دمشـــق ١٩٤٧م .

(٢) وكانت حياة الصعاليك منتشرة في أوربا ، نظراً لانتشار الآلة وظهور البطالة ، وقد صاحب ذلك العديـــد من الصور والممارسات الغير طبيعية .

(٣)الدكتور بدر الدين محمود العرقسوسي ـــ أعلام الفلسفة المادية ص ٩٨

(٤) وذلك التاريخ العبثي كانت له تأثيراته السلبية على فكر جوليان فيما بعد لأنه لم يتمكن من الانفصال عن هذا السلوك

غروره ،ولا يقوم بها إلا السوقية ، وسفلة المجتمع تخلى عنها[١] ، لا رغبة في الفضيلة ، وإنما لأنه قد تعرف على صديقة من بنات الأسرة المالكة انفصلت عن الأسرة ، وتريد الارتباط بمن تثق فيه ، فلعب عليها دور المحب الوله ، والفتى المهذب ، لكنها قتلت بأيدي عصابة لم يستدل على هويتها[٢] .

عاد جوليان إلى صديقه القديم ليفي ، واعتذر له عن ما بدر منه ، وباشر الدراسة في قسم التاريخ الإحيائي ،ولما أتم دراسته عمل جامعاً للنباتات الطبية ، كما عمل في مختبر لفحص نوعية النباتات ، وأخيراً استقر أمره في التدريس بإحدى الجامعات التي كانت قد نشأت حديثا ، وتحتاج أساتذة لطلابها [٣].

بدأ هكسلي في تدريس التاريخ الطبيعي، وعلم الكائنات اللافقرية ، ثم تدريس مادة الفيزياء التي لم يكن على علم تام بها ، وإنما قام بهذا الدور ليملأ الفراغ الذي تركه الأستاذ الأصلي ، ويبدو أنه لم يحقق نجاحاً في التدريس لأن إدارة الجامعة أرسلت له خطاباً تعتذر فيه عن خدماته ، وهكذا وجد نفسه مرة ثانية بلا عمل ، ولا مصدر ينفق من عائده على طلباته التي صارت في تزايد مستمر .

لجأ إلى مواصلة الجهد في المعامل السابقة ،كما حاول جمع النباتات ، ولكن سنه لم تكن تسمح ، كما أن حالته الصحية لم تكن هي الأخرى على ما يرام ، لأن القاعدة قاضية بأن من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته ، وما هي إلا شهور قليلة حتى وافاه أجله ، وصار ذكرى بعد أثر، ورسماً بعد أن كان إسما عام ١٨٣٥،ولم يلتفت أحد إلى موته ، كما لم يهتم بوفاته أي من أصدقائه[٤].

---

(١) الدكتور / زكريا محمد عبد الحافظ ــ دراسات في الفلسفة الحديثة ص ٨٥ ط أولي دار زيدان ١٩٦٧م.

(٢) وكلما تخلى الناس عن دين الله رب علالمين ، فإن شياطينهم تضلهم إلى أبعد مدي .

(٣) الدكتور / بدر الدين محمود العرقسوقسي ــ أعلام الفلسفة المادية ص ٩٩ ، ١٠٠ ولست أدري كيف يسمح لمثل هذا بالتدريس في الجامعة ، فماذا يعلم ؟!

(٤) دكتور/ عبد العظيم محمد صبحي ــ الفلسفة الداروينية ــ أعلامها ومشكلاتها ص١١٢ ط ٢ ١٩٧٧م.

٢ ـ مؤلفاتــه :

ترك بعض المؤلفات التي نشرت في حياته ومنها " الإنســـان فـــي العـــالم الحديث Man in the modern world ، جاهر فيه بآرائه الإلحادية ، وكـــان يفاخر بأنه ملحد كافر[1]، وتحدث فيه عن الأنواع الحية ، والسلالات المختلفـــة، وأرجعها جميعاً إلى ترتيبات طبيعية ، وكذلك كتابه "التطورات الطبيعية" ، ذكـــر فيه بعض الخطوات التي قطعتها الكائنات الحية ، حتى استقر أمرها على مـــاهي عليه الآن،وكتابه الخطوات والقفزات،تحدث فيه عن عمليات النشوء الأول.[2]

ومن ثم يمكن اعتبار جوليان هكسلي من أكثر الذيـــن تـــأثروا بـــأرازموس داروين من ناحية المنهج ، وأثرا في تشارلز داروين من ناحية الجـــرأة علـــى المعتقدات ، وتبني الأفكار المنحرفة باسم العلم ، بحيث يمكـــن اعتبـــاره حلقـــة الوصل بين أفكار الجد والحفيد معاً .

٣ ـ تقييم أفكاره : لكن هذه الآراء الفوضوية التي نادى بها قد أدت إلى

أ ـ تحويل الناس من الاعتماد على الدين ، إلى الاعتماد على العلم . في فـــهم القضايا المتعلقة بالخلق ، ونشأة الكائنات الحية

ب ـ الوقيعة العنيفة بين العلم المعملي،والدين المسيحي،على أساس أن العديـــد من القضايا التى تحدث عنها جوليان هكسلي كانت باسم العلم . وهي ذاتها التـــي يتحاور بها الدين المســـيحي وقد أصدر قراراته فيها سلفاً ، فكـــانت الآراء التي يعرضها هكسلي بمثابة الصدمة العنيفة . التي ادت إلى تصدع الدين الكنسي في نفوس أصحابه

(١) الأستاذ : محمد قطب ـ مذاهب فكرية معاصرة ص ٣١٩

(٢) [illegible]

ج – رغم أن جوليان قدم نتائجه على أنها مجرد ملاحظات في البناء الحيوي ، إلا أن إصراره على الإلحاد ، واستمرار إعلانه الكفر قد فتح الباب لأصحاب العلم الطبيعي حتى يهاجموا الدين الكنسي ، ويعلنوا عجزه عن إثبات صدق القضايا التي يدعوا إليها .

د – هيأ لمن أتي بعده السير بخطوات أوسع ، والقفز المتواصل في طريق الانتخاب الطبيعي المباشر ، كما تحدث عن التطور التلقائي[1] بحيث يمكن القول بأن هكسلي قد مهد لكل من لامارك وداروين في إنتاج نظرية الانتخاب الطبيعي والتطور الوراثي .

ويبدو أن هذا الرجل لم يكن على وفاق مع نفسه ، كما لم يكن راضياً عن موقف بني جلدته منه ، وإنما كان ناقماً على الجميع ، وبالتالي فما قام به من مؤلفات أو جولات ، إنما كانت غايته من ذلك إثبات عجز القادة عن الاستمرار في القيادة ، وعجز أفراد الشعب عن اكتشاف القادة الجدد ، وأنه كان ملحداً غير نادم على ما يمارسه ، أو يدعو إليه من انحلال خلقي ، أو تجاوز اجتماعي ، ولكن مثله لا يعتمد عليه في الدفع بنتائج قضايا،ادعى أنه وقف عليها ، لأنه فقد الأسس الموضوعية التي يقف عليها البحث العلمي في صورة من صوره .

الثالث : جان بابتست لامارك :

١ – حياته وأفكاره :

فرنسي الأصل والمولد ، إلحادي المعتقد ، تجريبي النزعة ، عاش ما بين أعوام ١٧٤٨ – ١٨٢٩م ،نشأ في أسرة توارث أهلها المجد،واحتفت بها مظاهر الثراء ، وبات فيهم أمر القيادة قائماً،إذ كان والده أحد أبناء النبلاء المشهورين بفرنسا ، الذين يتطلعون إلى اجتياز الموانع الصعبة ، التي تحول بينهم والرفعة

---

(١) لم يكن هو أول من تحدث عن هذه الفكرة ، وإنما كان هو الذي قد نظم الأفكار التي قامت عليها ، وطريقة عرضها

أو بلوغ قمة المجد السياسي[1] أو الأدب الاجتماعي أو العلمي .

بل كان أبوه ممن يتطلعون لاجتياز كل الموانع حتى يتمكن من قيادة فرنسا في المستقبل ، أو المشاركة في صنع القرارات التي تحكمها ، أو على الأقل يكون عضواً بارزاً في الطبقة الحاكمة[2] ، فإذا لم يتمكن هو من تلك الشرف ، فلابد أن يكون ابنه لامارك هو الذي يقوم بذات الدور ، وتناط به نفس المسؤوليات[3].

ولد جان بابتست لامارك في تلك الأسرة ، وكان أبوه محافظاً على التقاليد القديمة إلى حد ما ، فأحب أن يلحق ابنه بأحد المدارس حتى يكون مهيأ للالتحاق بالدراسات اللاهوتية ، ولكن ذلك الرأي لم يصادف هوى الأسرة فالتحق بمدرسة ديفال التي كانت مناهجها الدراسية تجري طبقاً للأنظمة المدنية [4]، ثم عاد الحنين بالرجل ، وأحب أن يلحقه بإحدى المدارس اللاهوتية ، حتى يتهيأ لأعمال القيادة اللاهوتية ، إذ كان أبوه قد طمع فيها أيضاً[5]، لأن من كان واحداً من أفراد الكليات اللاهوتية ، ويجيد أعمال الإدارة حتي يكون فارساً من فرسانها ، فإنه يكون جديراً بتولي قيادة ما في المستقبل ، أو على الأقل تكون له الفرصة في ممارسة الأعمال القريبة منها ، وفعلاً ألحقه بها .

---

(١) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٣٥ ط دار منصور .

(٢) ويبدو أن ذلك كان يلح على الرجل باستمرار ، كما كان ذلك بمثابة الانتصار الاجتماعي على الآخرين ، واقناع المرء ذاته بأن هذا عمل عظيم ، وشرف كبير

(٣) وكان ذلك شأن أغلب الأسر الفرنسية وبخاصة أسر النبلاء الذين كان النظام السائد حينئذ يسمح لهم بتولي القيادة والمنافسة عليها .

(٤)الدكتور / بدر الدين محمود العرقسوقسي — أعلام الفلسفة المادية ص ١٠٩

(٥) حيث كان سلطان آباء الكنيسة واسعاً كما كان رجال الكنيسة هم الذين يحتمي بهم . وأيضا كان رجال السياسة يلوذون بهم ويلجأون إليهم ومن ثم فقد كان رجل الدين الكنسي يمثل مكانا بارزا كما كان صاحب مركز عال يطل منه على الجميع

بيد أن القدر لم يمهل ذلك الأب فمات مبكراً وما يزال ابنه صغيراً[١]، ومن ثم لم يكمل الفتى دراسته في كلية اللاهوت ، وإنما انقطع عن الدراسة فترة من الزمان ، ثم التحق بالجيش الفرنسي عله يحرر مركزا متقدما فيه ، كان والده يعده لمثله[٢] طالما أنه لم يتمكن من تحقيق النجاحات التي كان يعلق أبوه عليها الآمال في مجال اللاهوت الذي فر منه ، وتخلى فيما بعد عنه .

عمل لامارك جندياً في الجيش الفرنسي فترة من الزمان — وإن كانت قصيرة نسبياً — إلا أنه في تلك الفترة خاض ذلك الجيش بعض الحروب ضد الألمان ، وضد غيرهم أيضاً ، وكان لامارك مثالاً للانضباط العسكري والصرامة[٣]، كما كان مجداً في كل الأعمال التي تسند إليه ، ومن ثم فقد نال الرضى من قادته ، وظل على ذلك الحال حتى رقي لدرجة ملازم[٤]، وكان معروفاً عنه القسوة البالغة ، مع الانضباط الشديد ، بجانب ظهور بعض العلامات المرضية السلوكية والجسدية عليه .

وبعد أيام من ظهور هذه الأعراض المرضية عليه بدأت الآلام الكثيرة ، فلما تم التحليل له تبين أنه أصيب بمرض غدي في أجزاء متفرقة من جسمه[٥]، لم يعرف لها سبب ، فتم تسريحه من الجيش الفرنسي ، لأنه لم يعد صالحاً للبقاء في الخدمة ، التي تتطلب مجهوداً بدنياً كبيراً ، كما تستلزم الصحة التي لابد منها حتى يستمر في نطاق الخدمة ، مادام يتمكن من القيام بأعبائها .

---

(١) يذكر البعض أن والده كان مريضاً ، وأنه مات بعد رحلة مع المرض ، ويذهب آخرون إلى أن الأب مات بطريق غير معروف، نظراً لمواقفه السياسية التي لم تكن ترضي بعض القادة السياسيين في فرنسا إبان هذه الفترة.

(٢) أ.ب – روبرت — أعلام الداروينية ص ٤٧ ترجمة أمل صبري ط دار القلم — بيروت .

(٣) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٣٩ د دار المنتصر بدمشق ١٩٧١م.

(٤) الأستاذ يوسف كرم — تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٢٩٥ .

(٥) ومرض الغدة قديم ومعروف منذ زمن طويل ، وكان المريض بالغدد يتم حجبه عن الآخرين مراعاة لظروفه النفسية،وظروفهم الصحية لأنه كان يمثل قلقاً اجتماعياً ونفسياً لمن يصاب به –راجع أعلام الداروينية ص ٥١.

بيد أن هذا لم يكن أمراً خاصاً بلامارك ، وإنما هو شأن الجيوش العسكرية التي تحافظ على أفرادها ، وتعتني دائماً بصحة كل فرد منهم ، كما تهتم بعقله وفكره ، ومادام قد أصيب بأمراض من هذا النوع ، فإن فرصة بقائه في الخدمة العسكرية قد انقضى عليها تماماً ، لأن القاعدة أنه متى أصيب أحد الجنود أو القادة بهذا المرض فلابد من إبعاده فوراً عن العمل بالجيش مهما كانت درجته ، أو كان لديه من رغبة(١)، ولذا تم تسريحه من الخدمة العسكرية .

بعد خروجه من الجيش لجأ لدراسة الطب كنوع من إثبات الذات ، والتعرف على نوعيات الأمراض التي تسبب العلل والعاهات ، وكذلك طرق الوقاية منها ، فضلاً عن الرغبة في التعرف علي العلل من ناحية العلاج الذي يمكن أن يقدم نفعاً بشأنها ، لكن هذا النوع من الدراسة لم يتوافق مع ملكاته العقلية ، وإمكانياته النفسية ، التي بات القلق يأتيها من كل ناحية ، كما أن نفسه هي الأخرى باتت عصية عليه في أغلب الأحيان ، فترك دراسة الطب غير هياب بما ينتظره من مصير مجهول ، وبخاصة أن ما تركه له والده من مال ، كان يوفر له الحياة المعيشية في شئ من الرفاهية التي تعود عليها(٢)، إذ لم يكن كسابقه جوليان هكسلي بحاجة إلى من ينفق عليه ، وإنما كان لديه ما يكفيه وزيادة .

تنقل لامارك بين العديد من أنواع الدراسات ، كما التحق بالكثير من الأعمال ، وكان لا يستقر في عمل ما إلا ونازعه غيره , ولا دراسة في فرع من فروع العلوم إلا تنازعته رغبة أخرى في الانصراف عنه إلى غيره ، لذا تراه يهرب من دراسة الطب ، إلى دراسة النبات على يد العلماء المشهورين في

---

(١) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٤١ ونفس الظروف ما تزال موجودة في الجيوش النظامية التي تحرص القيادة فيها على توفير الظروف الصحيه لأفرادها

(٢) أ ب روبرت — أعلام الداروينة ص ٥٣ وراجع للدكتور خالد محمد فوزي عماء التطور ص ٣٣

ذلك التخصص ، ثم يتركه إلى دراسة علم آخر ليكن الفلك أو الفيزياء ، المهم أنه لم يمكث في دراسة علم واحد بحيث يستوعبه ، إلا وينتقل منه إلى غيره ، وبهذا صارت لديه بعض معارف متنوعة ولو أنها خافتة إلا أنها تمثل أرضية فكرية ، ساعدته في أن يكون مستعداً لدراسة العلوم التي تخدم المجال الذي يأوي إليه ، وبخاصة أنه توسع قليلاً في دراسة علم الفلك حتى تمكن منه بعض الشئ وصارت له فيه جهود من نوع ما(١)، بحيث يمكن القول بأن لامارك أغرم بدراسة علم الفلك ، ثم وقع في حوزته(٢) .

لجأ لامارك بعد دراسة الفلك إلى دائرة العلوم الطبيعية ، في محاولة جادة منه للتعرف على أسرارها ، والكشف عن مجهولاتها ، وقد حقق بعض النجاحات في هذا الميدان حتى ذاع صيته ، وعلت شهرته رغم أنها كانت نجاحات قليلة جداً ، لا تزيد عن كونها ملاحظات أو مشاهدات في العلم الطبيعي ومن ثم دعته الجامعة في فرنسا ليشغل وظيفة أستاذ علم الحيوانات واللافقريات بها ، علي الرغم من أنه لم يكن عالماً في البيولوجيا ، إلا أنه بدأ حياته باحثاً في علم النبات ، ثم صار باحثاً في علم الحيوان ، وبخاصة علم التشريح(٣).

وقد كان لثقافته الواسعة الأثر الكبير في مستمعيه الذين أثنوا على فهمه ومعارفه ، وكما كان متمكناً أثناء القاء محاضراته ، فقد كان أيضاً متمكناً من الدفاع عن آرائه ، واثقاً في إمكانياته إلى حد بعيد ، معتد بنفسه ورأيه العلمي الذي وقف عليه ، وقد كانت آراؤه هذه بمثابة النواة الأولى التي أقام عليها

---

(١) وذلك التخصص الدقيق أتاح له الانتقال في أجواء علمية متعددة ، لكنها كانت على سبيل التخمين العلمي ، وليس على سبيل التجربة العملية .

(٢) لست أدري إذا كان علم الفلك هو الذي شغله إلى حد كبير . فلماذا تقدم بأفكار في علم الكائنات الحية ألا تعتبر هذه الأفكار هامشية أو افتراضية ، أو على أقل تقدير يمكن النظر إليها على أنها تخمينات . وما أظن واحداً مثله يمكن الانصياع لآرائه في علم الأحياء وهو ليس متخصص فيه

(٣) الدكتور جرجاهام كانون ـ نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٣٥

فلسفته التطورية أو العلمية فيما بعد[١].

على كل لم يشغله التدريس في الجامعة عن التأليف والكتابة ، بل والاستمرار في إجراء البحوث والتجارب اللازمة التي شغل نفسه بها ، بل دفعه ذلك كله أيضاً إلى بذل المزيد من المجهودات ، حتى كان له طلابه الذين يعدون أنفسهم للقائه ، كما كان له بعض المعجبين الذين تعلقوا بآرائه ، كما كانوا يحرصون على تناول أفكاره ومدارستها ، ويعتبرونها المرجع الأصلي بحيث يقتبسون منها ، ثم يقومون بترديدها على الناحية التي يرونها تعلي من قدرها .

لم يختلف الحال مع مؤلفاته عنه في محاضراته ، بل كان حال مؤلفاته ونتائج أبحاثه أكثر انطلاقا[٢]، كما أن أبحاثه الجديدة باتت محل انتظار وترقب لدى الكثيرين ممن عرفوا لا مارك في جانبه العلمي على الناحية الفلكية ، أو الطبيعية ، وكان ذلك مدعاة لأن يستمر لامارك في بذل المزيد من الجهد والأكثر من العناية بالمؤلفات والأبحاث العلمية على السواء ، حتي صار لامارك عضوا بارزا في الأكاديمية الفرنسية للعلوم أيضا ، كما كان مشرفا على متحف باريس للحيوان[٣].

حاول لامارك البحث المستمر في علم الحيوانات اللافقرية ، حتى وصل فيه إلى درجة لا بأس بها ، بل صار له في هذه الدراسة مذهب ينسب إليه ، يقوم على أن التولد في الحياة الأولي كان تولدا ذاتيا ، من غير احتياج إلى خالق عليم قادر ، له من صفات الجلال والكمال أعلاها ، وإنما جعل الكون مجرد

---

(١) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٤١ وكان هذا الاكتشاف بمثابة الصيحة التي أطلقها لامارك في فرنسا ففرقت جموعها ، وقطعت أواصر المودة بين أفرادها .

(٢)الدكتور توفيق عبد العظيم ذكي — أصحاب التطور العضوي ص ٣٥ ط أولى ١٩٥٧م .

(٣)الدكتور جرهام كانون — نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٣٥ .

مجموعة من العناصر المتآلفة ، تقوم الحياة فيها من خلال التولد الذاتي[(١)].

فالكون من وجهة نظر لامارك ليس في حاجة إلى خالق مدبر حكيم ، طالما كانت المسألة قائمة على التولدات الذاتية في أجزاء الكون كله ، أو علاقة الأسباب بالمسببات من كل ناحية طبقاً لفكرة الحتمية والعلية بجانب السببية العقلية[(٢)].

ويعتبر الكثير من الدارسين أن لامارك هو المؤسس الحقيقي لنظرية التطور والارتقاء[(٣)]، وأنه الذي وضع قواعدها ، وأقام بناءها ، أما داروين فهو الذي نقلها إعلامياً ، وتم تسويقها باسمه[(٤)]، حتى نسبت إليه في الوقت الذي نسى الناس فيه لامارك تماماً ، رغم أنه الذي عالجها أولاً ، ووضع المقدمات التي يعتمد عليها .

٢ — مؤلفاته :

بذل لامارك مجهودات كبيرة على جانب التأليف ، فأصدر أهم كتبه بهذا الخصوص وهي:

* فلسفة الحيوان : نشره عام ١٨٠٦م ، تعرض فيه للمذهب العلمي الذي يعتنقه ، مبتدئا بفكرة التطور ، ثم الارتقاء[(٥)]، مستندا إلى بعض الظواهر التي أمكنه الوقوف عليها ، أثناء جولاته التي قام بها ، ولم ينقطع عنها أثناء

---

(١) لاحظ أن التولد الذاتي تكرر القول بها عند أكثر من واحد ، وبناء عليه فسأحاول وضعها في القائمة المشتركة بين كل أصحاب الاتجاه التطوري .

(٢) والسببية العادية هي التي نصدق بها نحن المسلمين على أساس أنها من سنن الله الكونية ، أما السببية العقلية فنحن نرفضها لأنها تجعل الإله مجبراً على الخلق ، أو تجعل العالم مخلوقاً بالمصادفة وهذه اعتقادات فاسدة .

(٣) الأستاذ محمد أحمد باشميل — الإسلام ونظرية داروين ص ٢٢

(٤) يميل إلى ذلك الرأي كثير من الدارسين ، مؤكدين على أن اليهود كان لهم دور كبير في المسألة ، وبخاصة بعد الإعلان عن يهودية داروين ويذهب البعض إلى التشكيك في ذلك ، ولكل وجهته

(٥) الدكتور خالد محمد فوري — زعماء التطور ص ٤٥

البحث العلمي ، ودافع فيه عن مبادئ فكرته دفاعاً مستميتاً ، وإن لم يكن دفاعاً قوياً مقبولاً .

* فلسفة الكائنات الحية : تعرض فيه لذكر أول درجات سلم الكائنات الحية الذي هو بداية البداية التي نشأت فيها صور الحياة المتعددة ، وأطلق على هذا الكائن الأول اسم البوليب[١].
* إنجازات أرازموس داروين : تحدث فيه عن أفكار أرازموس في مجال العلوم الطبيعية والتطورية ، بل إنه شرح هذه الأفكار ، فكان هو صاحب الشرح الفني الدقيق لأفكار أرازموس داروين مما دعا إلى تلقيبه باسم مؤسس نظريات التطور الحديثة[٢]، وكما أطلق عليه اسم أب المذهب التطوري في العصر الحديث[٣].
* اللافقريات في التاريخ الطبيعي : تم نشره عام ١٨١٨م ، قدم من خلاله آراءه التطورية إلى الجمهور بلغة قريبة من افهامهم ، بعيدة عن الخصوصية العلمية ، وكانت هذه الصورة معبرة أصدق تعبير عن آرائه التطورية في أكمل مظاهرها وأكثرها دقة[٤].

٣ - قوانين لامارك الأربعة :

على كل فإن مؤلفات لامارك تكشف عن قوانينه في تطور الكائنات ، وهذه القوانين تمثل نظرية لامارك في التطور الإحيائي كله .

القانون الأول : الاستعمال والإهمال : بمعنى أن الأعضاء التي تستخدم لابد أن

---

(١)الأستاذ/ محمد أحمد باشميل — الإسلام ونظرية داروين ص ٧٢

(٢)الدكتور/محمد رضا الأصفهاني — نقد فلسفة داروين ج١ ص ٢١ .

(٣)أ . ب - روبرت — أعلام الداروينية ص ٧٣ .

(٤)الدكتور جراهام كانون — نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٣٥ .

تكـــبر في الحجم ، أما التي لا تعمل فإنها تضمر[1].

فكل عضو يتم استعماله بشكل متواصل يكبر حجمه كما يمتد طولـــه ، لأن الكائنات الحية ما هي إلا جملة من التجميعات المعقدة من الأعضاء ، وما دامت تلك الأعضاء تستخدم على الدوام،فإنه يترتب عليه أن هذه الكائنات ذاتها لابد أن تنحو في الازدياد المستمر بالنسبة للحجم ، نظرا لنشاطها الذاتي ، بحيـــث يتـم تسلم الكائنات هذه الأجزاء الزائدة ، إلى الأجيال اللاحقة على ناحية آلية[2].

القانون الثاني: امتداد العضو: وهو المظهر المناسب لجهة الاستعمال

حيث يقرر لامارك أن كل عضو في العائلة الحيوانية ، بل كل عضو فـــي الجسم الحيواني ذاته إذا طرأت عليه حاجة جديدة ، داخل بيئتـــه أو فـــي البيئـــة الجديدة المتغيرة بالنسبة له ، تستلزم ظهور عضو جديد ، فإن ذلك العضو سوف يظهر ولكنه لا يستمر إلى مالا نهاية ،وإنما لابد له أن يبلغ درجة ما من النمـو ، تناسب الحاجة إليه ، فهو بناء على ذلك لابد أن يكون صغيرا وبسيطاً ، أو كبيراً معقدا ، لأن كل عضو يتخذ المظهر المناسب لدرجـــة الحاجـــة الداعيـــة إلـــى استعماله[3]

ولاشك أن هذا القانون لم تظهر الحفريات والأثريـــات أيـــة دلائـــل علـــى تصديقه ، أما الاستدلال على الزرافة والأوزة وغيرها فما هـــو إلا مـــن نـــاتج خيالات أصحابها ، بدليل أننا نرى البطة والقطة تستعملان المنقار والفم ، ولـــم

١) والمؤسف له أن البعض من السذج تصور هذه الفكرة اللاماركية حقيقة و[illegible]فصار يتحدث عنها ، مقدما عدة مظاهر غير حقيقية سواء في الحواس الخمس الظاهرة أم في غيرها ، وقد امتدت هذه الأفهام الخاطئـــة إلى بعض العقول التي أدخلت العمليات البيولوجية بين أفراد النوع الواحد إلى هذا الميدان ولا شك أنهم يرهقون عقولهم هذه التفاهات التي جعلوها قواعد صحيحة وما هي إلا من قبيل الخيالات والخرافات الـــتي تجـــري في [illegible] صحافة

٢) [illegible]

٣) [illegible]

يحدث أي تعديل عليهما مهما كان طفيفاً . كما أن الأور والرومي لم يحدث ان طالت رقبته على أية صورة كان كبيرة او قصيرة ، بل العكس من ذلك هو ان العضو الذي يعمل كثيرا يحدث له ارهاق ، وتبدأ أنسجته في الترهل والضعف ، وربما العجز عن العمل

القانون الثالث : أن نمو العضو وكفاءته يتوافقان مع مقدار استخدامه :

وهذا القانون يقوم على أن أي عضو يعمل لابد أن ينمو ، طوله وحجمه ، بجانب كفاءته ، فالأعضاء التي تستخدم كثيراً ، إما أن تكون كبيرة الحجم أصلا وعظيمة الكفاءة في نفس الوقت ، أو تكون كبيرة الحجم قليلة الكفاءة ، أو تكون قليلة الحجم لكنها قوية في الكفاءة[١]، أما الأعضاء التي لا تستخدم ابداً ، فإنها تميل إلى الاختفاء ، أو الخروج عن ميدان العمل ونشاطه[٢].

القانون الرابع : توارث الصفات المكتسبة :[٣]

وهذا القانون يقوم على افتراض أن الصفات المكتسبة تنتقل إلى الذرية عن طريق التوارث ، وتتكون من خلال هذه العملية جملة تغيرات تطورية إحيائية ، كما أن البيئة هي الأخرى ، تؤدي إلى تعديل التركيب الجسمي للنوع الذي كان مقيما في بيئة بعينها، ثم هجر هذه البيئة وانتقل للعيش في بيئة جديدة عليه أن يتوافق معها[٤].

---

(١) هذه الصور أربعة : الأولي: كبر الحجم مع عظم الكفاءة والقوة الثانية: صغر الحجم مع القوة والكفاءة الثالثة: كبر الحجم مع ضعف الكفاءة والقوة الرابعة :صغر الحجم مع قلة الكفاءة ، ولكن هذه الأعضاء تظل موجودة بارزة ولا تختفي .

(٢) توماس داون ـــ اللاماركية في صورها العلمية ص ٩٥ ترجمة ناهد أبو ذكرى ط دار الجيل بيروت ١٩٨٧

(٣) وقد استفاد هذا القانون من أرازموس داروين وهو من الأفكار التي سلف الحديث عنها ـــ راجع هذا الفصل أثناء الحديث عن أرازموس داروين

(٤) ويعرف هذا عند التطوريين الإحيائيين بناموس المطابقة ، وسوف أتعرض للحديث عنه في الباب الثالث من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى الجزء الأول

٤ ــ تقييم أفكاره :

إذن فكرة لامارك عن التطور الإحيائي لا تخرج عن كونها مجرد اعتقاد ذهني ، أو خيال علمي ، تنتهي إلى القول بأن الأنواع الحية ليست ثابتة على ما هي فيه ، وإنما انحدرت من أنواع أخرى سلفت، بناء على مفهوم أن التطور هو عبارة عن تغير في الكائن الحي ، يطرأ عن طريق استعمال بعض الأعضاء وإهمال البعض الآخر،فالأعضاء التى تعمل تنمو أو تقوي ،أما الأعضاء التى لا تعمل فإنها تهمل وتضمر ثم تتلاشي[١] وهو ما يعرف بقانون الاستعمال والإهمال.

ثم يجئ بعده مباشرة توريث الصفات المكتسبة عن طريق التناسل المتمثل في الذرية ، على أن الأمثلة التي وضعها لامارك كدليل على صحة ما ذهب إليه من طول عنق الزرافة الذي امتد نظرا لوجودها في بيئة حيث تحتاج إلى أكل الشجر، ونتيجة لذلك أستطال عنق الزرافة بقدر يسير،لا يقدم دليلا صحيحا على ما ذهب إليه لامارك لأن معنى ذلك أن يعيش إنسان ما ملايين السنين،حتي يرى الزرافة بعنقها القصير، ثم يراها بالعنق الطويل بحيث يحكم ، وذلك لم يحدث ، ومن ثم هي خيالات فكرية لا حقائق علمية . على كل فقد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ، فإذا كان والد لامارك قد حاول أن يكون أبنه أحد رجالات اللاهوت المسيحي ، فإن الوليد لم يفطن لتلك الرغبة ، وإنما عمل على السياحة في الطريق المعاكس لها،وراح يدمر كل شئ فيها،بل إنه دعا للانحلال، وانغمس في الإلحاد ، كما شجع على ممارسته دون حياء أو خجل أو استحياء[٢].

(١) تناولت ذلك في شئ من التفصيل عرضا ومناقشة عند الحديث عن فكرة المطابقة من الباب الثالث في هذا الجزء فراجعها واسأل الله لي الستر والسلامة في الدنيا والنجاة في الآخرة

٢ وممن ذهب إلى هذا الرأي الدكتور خالد فوزي ــ أعلام الداروينية ص ٥٧ والدكتور توفيق عبد العظيم ذكي ــ أصحاب التطور العضوي ص ٤٧

بل اعتبره الكثيرون زعيم الجناح الإلحادي من القائلين بتطـور الكائنـات الحية ، الذي ظل على إذاعة الإلحاد ، والقيام بأدوار خدمته حتـى هلـك عـام ١٨٢٩م عن عمر تجاوز الثمانين بقليل[١].لم يرجع عن موقفه من الإلحاد الـذي يدعوا إليه ، بل استمر فيه ولم يخرج عنه .

ويذهب آخرون إلى أن لا مارك لم يكن ملحدا ، كما أن نظريته لا تقـارف الإلحاد ، ذلك أنه يسلم بوجود الله ، وينسب إليه وجود الهيولي المركـب منـها الكون ، ولكنه يقول أنه تعالى بعد أن خلق الهيولي بخصائصها لم يفعل شـيئا ، وأن الحياة والأجسام الالهية والعقل جميعا نتائج الهيولي ، ونتائج قواها[٢]، كمـا يقول بأنه تعالى خالق الحياة ، وأصول الكائنات ونماذجها[٣].

وفي تقديري : أن هذه الاستنتاجات غير مقبولة ، لأن التسليم بوجود ما لـم يكن مصحوبا بوحدانية الله تعالى وعلمه التام،وإرادته وقدرته النافذة مع التنزيـه المطلق فإن هذا التسليم لا يكون مقبولا أبدا ، ثم إن الله في المسيحية جوهر والله تعالى منزه عن هذه الأوصاف كلها ، لأن أسماء الله تعالى وصفاته توقيفيـة ، لا يجوز القول فيها بالرأي ، ثم إن قوله بأن الله بعد خلق الهيولي بخصائصها لـم يفعل شيئا ، فيه نسبة العجز لله تعالى ، وهو جل شأنه منزه عن ذلك كلـه ، ألا له الخلق والأمر ، ومن ثم أخلص إلى ما يلي :

أ ــ أن لا مارك استطاع صياغة القوانين الإحيائية التي أمكنه الوقوف عليـها[٤] في عبارات محددة ، كما استطاع تحديد الأهداف التى وضعها لذات القوانين .

---

(١)الأستاذ /محمد أحمد باشميل ــ الإسلام ونظرية داروين ص ١٩ .

(٢)الدكتور / محمد رضا الأصفهاني ــ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ٢١

(٣)الدكتور أحمد عبده حوده الجمل ــ في المذاهب المعاصرة من هامش ١٣١

(٤) أنا لا أعتبرها قوانين أو نواميس ــ من وجهة نظري ــ لأن القانون العلمي يمكن تطبيقه في كل الحـالات المتماثلة ، بحيث يعطي ذات النتائج ، وهو ما لم يتوفر في هذه الأفكار الإحيائية ، ومن ثم فإني أرى إطلاق اسـم الأفكار عليها ، لا اسم القوانين

ب ــ أن القوانين الأربعة عنده تتكامل مع بعضها ، وبالتالي فإن انفصال بعضها عن بعض من ناحية الدراسة أمر ممكن ، لكنها جميعا تؤدي إلى غاية واحدة .

ج ــ أن بعض هذه القوانين غلبت عليه صفة العموم [١]، وهي في مجملها تقوم على التعميم أيضا ، بجانب أن أهم الأسس التي قامت عليها الآثار والحفريات القديمة ، وتفسير مظاهرها على النحو الذي اشتهى لامارك ، وليس باعتبار نتائج العلم الصحيح القائم في قواعد مقبولة .

د ــ أن لامارك بقوانينه الأربعة قد أحدث هزة عنيفة في المجتمع الإنساني ككل من ناحية قيمه واعتقاداته وأخلاقه ، بل وأظهر الانحلال المكشوف، ودعا إلى ممارسته بكل طريق ممكن.

هـ ــ أن كافة الملاحظات التي أقام عليها فلسفته التطورية ، قد أثبتت التجارب العلمية كذبها ، بدليل أن إبن الحداد لم يرث عن أبيه قوة العضلات[٢] ، بل أن الهندسة الوراثية تعترف بإمكانية ملاحقة بعض الجينات وتنحيتها ، فلو كانت نتائج لامارك صحيحة ، ما كان للهندسة الوراثية دور يذكر ، أو ما كان لها أن تعبث بالجينات إلى هذا الحد ، وفي نفس الوقت فقد أثبت الإحيائيون أن العامل الأساسي هو البلازما التناسلية وعن طريقها تأتي الوراثة ، وهذا ما لم يقل به لامارك ، كما لم يكن له علم به .

الرابع : تشارلز روبرت داروين :

١ ــ حياته وآراؤه :

بريطاني المولد ، مسيحي المعتقد ، ثوري النزعة ، ولد في أسرة بريطانية يوم ١٢ شباط ١٨٠٩م وهلك في ١٩ نيسان ١٨٨٢م عن عمر يناهز الثالثة

---

(١) أندريه هوك ــ موقف من التطوريين ص ١٤٥ ترجمة هناء صفوت ط أولي دار الفكر بيروت ١٩٨١م

(٢) بل ان بعض أبناء الحدادين ولدوا وعضلاتهم ضعيفة . وبعض أبناء العدائين ولدوا وفيهم شئ من العجز أو الزمانة مما يدل على أن هذه الصفات الجسدية لا تورث .

والسبعين عاما[1] ، قضاها في أبحاث تتعلق بالكائنات الحية ، وظل يتابع هـــذه الأبحاث في جانبيها النظري والعملي ، مع أنها لم يقدر لأغلبها الذيوع والانتشار فضلا عن مخالفتها للحقائق العلمية، ومصادمتها للأصول الدينية ، بجانب وقوف رجال الكنيسة في مواجهتها ، حتى الحد الذي دفع بهم إلـــى تحريـــم دراســـتها والنظر فيها .

نشأ داروين بين أم كان والدها صانع خزف ، نالت قدرا قليلا من الثقافـــة ، وكانت ثقافتها المتواضعة تدفعها لطلب العلم ، فلما وضعت وليدها تعلقت بـــه ، وكانت لديها بعض النزعة اللاهوتية التي تقود إلى طلب التدين من أفواه رجـــال الدين ، وكانت أمنيتها أن ترى أبنها أحد رجال اللاهوت المعدودين[2] ، أو علـــى الأقل أن يبلغ في المنطقة التي يعيشون بها مبلغ القس الشهير جورج أنطوان[3] .

أما أبوه فكان طبيبا ميسور الحال،استطاع تدبير جزء من المال عن طريـــق مجهوده الشخصي ، كما ورث التركة التي خلفها له أبوه أرازموس دارويـــن ، فكان معه من المال الشئ الكثير ، ومن ثم لم تكن لديه رغبة في أن يلتحق ابنـــه بكلية الحقوق أو كلية الطب[4] ، وهما الكليتان التي كان طالبهما يحرص علـــى جمع المال أو يطمع في منصب سياسي ، أو قيادة من نوع ما .

تمنت الأسرة أن يكون الوليد — داروين — رجلا لاهوتيا ، وقد اشـــتركت رغبات الأب والأم في هذه الأمنية ، وأن يلحقاه بالسلك الكهنوتي متى قدر له أن يتمكن من القيام بأعباء ذلك العمل ، ومن ثم ألحقه أبوه بكلية يسوع الملكية فـــي

---

(١) الأستاذ / محمد أحمد باشميل — الإسلام ونظرية داروين ص ١٩ .

(٢) الدكتور / خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٦١

(٣) كانت شعبية هذا القس آنئذ كبيرة ، وبخاصة بين العوام الذين كانوا ينصتـــون إلى مواعظـــة ويعجبـــون بطريقته في عرضها — أ ب — روبرت — أعلام الداروينية ص ٥٧

(٤) يذكر الدكتور — توفيق عبد العظيم زكي أن كلا من كلية الحقوق والطب كانت هي محل الاهتمـــام إلى ابعد مدى — اصحاب التطور العضوي ص ٣٦

كمبودج حتى إذا شب عن الطوق تمرد الفتى على الانخراط في دراسة اللاهوت[1] ورفض استكمال دراسة الجانب الديني مهما كانت الأسباب .

لقد غلبه الجانب العلمي ، ومن ثم التحق بالكلية الملكية في أدنبره لدراسة الطب بها ، واستمر في تلك الدراسة لمدة عامين ، ثم انفض عنها،وأعلن رفضه لها ، كما سخر من دراستها،والقائمين على التدريس فيها ، فرأى أبوه إلحاقه مرة ثانية بكلية يسوع،عساه أن يكون قسيسا لا هوتيا[2] ، ثم يتدرج في وظائفه ، وماذا عليه لو بلغ أعلى درجة في المسيحية ، أو تربع على قمة الجهاز الديني والإداري فيها .

عاد إلى كلية يسوع ، وفي صدره ضيق شديد من الدراسة بها ، فقيد نفسه طالبا منتظما بقسم الدراسات العلمية،على أساس أن هذا القسم هو الذي أشبع ميوله ، وأرضى رغباته ، وظل بتلك الكلية حتى تخرج منها في عام ١٨٣٠م[3] وقد بلغ الحادية والعشرين من عمره ، ولم يكن يحفل بالجانب الديني أبداً ، وإنما كان يخفي بداخله عدم رغبة فيه ، كما كان يعلن لأصدقائه تبرمه من الدين الكهنوتي لأنه غير مستساغ ، كما لا يقدم حقائق مقبولة .

وفي عام ١٨٣١م انضم إلى البعثة العلمية البريطانية في رحلة حول العالم لرسم خريطة شاطئ جنوب أفريقيا ، عن طريق الإبحار ، وعرض عليه القيام بهذه الرحلة في وظيفة موزع طبيعي على السفينة البيجل من غير أجر[4] ، وكان قائد تلك السفينة يرفض وجوده معهم،لأن أنفه طويلة، كما لم يكن منظره العام مريحا،وظل خاله يرجو قبطان السفينة حتى رضي وسافر داروين معهم .

---

(١)الدكتور / خالد محمد فوزي ــ زعماء التطور ص ٤٥ ، أصحاب التطور العضوي ص ٣٧ .

(٢)الدكتور / حسن السيد طوقان ــ ملامح الفلسفة الحديثة ص ١٩٧ ط أولى ١٩٦٧م

(٣)الدكتور / خالد محمد فوزي ــ زعماء التطور ص ٤٦

(٤) ألدرية جوار ــ داروين حياته وآراؤه ص ٥٣ ترجمة ناهد رشدي ط دار الفجر ١٩٦٥م

استغرقت الرحلة خمس سنوات متواصلة في الذهاب والعودة ، وقد اعتبرت السفينة أن من مهامها التعرف على عالمي الحيوان والنبات ، وما يحيط بهما من أسرار تمتلئ بها أرجاء الكون(١)، في هذا الجانب الذي هيأت البعثة نفسها لــه ، وتخصص أغلب أفرادها فيه ، وقد أتاحت هذه الرحلة لداروين فرصــة كبـيرة حتى أمكنه التعرف على أشياء كان يجهلها تماما .

ولما بلغت سنه الثلاثين أراد إرواء ظمأه العاطفي عن طريق الزواج ، فتـم له ما أراد ، حيث كانت رغبته قوية في الحصول على أسرة مســتقرة ، ودعـم مستمر من الناحية العاطفية ، بجانب الاستقرار النفسي ، ويبدو أنه قــد أصابـه الكثير من الضجر أثناء تلك الرحلة ، فأراد تحصيل أكبر قدر من الهدوء النفسـي والاستقرار العاطفي ، والدفء الأسري فاسرع بالزواج ، وتم له مــا طلــب ، حيث أمكنه التعرف على أسرة أرستقراطية بالوراثة فتزوج منها(٢).

عاش داروين بعد الزواج فترة قصيرة في لندن ، لكنه لم يحتمل البقاء بــها نظرا لما فيها من ضجيج ، ولما كان راغبا في عيشة هادئة ، فقد أخذ يبحث عن الهدوء حتى يخلو بنفسه لأبحاثه التى قرر السير فيها حتى النهاية ، وأن يواجــه سلطة الكنيسة ورجال اللاهوت معا ، في محاولة منه لاثبــات ذاتــه ، ورغبة لزعزعة ثقة الناس في رجال الكنيسة وآراء رجالــها ، فانتقــل من لنــدن إلى ضاحية داون التي استقر بها ، ولم يفكر في النزوح عنها حتى وافاه أجله .

---

(١) الأستاذ يوسف كرم — تاريخ الفلسفة الحديثة ص ١٢٧ .

(٢) حيث تزوج داروين في عام ١٨٣٩م من الأسرة الأرستقراطية ، وكانت غايته من هذه المصاهرة ضمــان الكثير من الحماية الذاتية — راجع أعلام الداروينية ص ٧١ .

وفي داون[1] الهادية أعاد اكتشاف نفسه ، وبدأ يخرج للناس أفكاره منظمة في شكل أبحاث ومؤلفات مدونة بلغة علمية، جاءت في جملتها أبحاث قليلة العدد ولكن على ما يبدو كانت هي كل بضاعته ، غير أنه عمد إلى وضعها في أبحاث منفردة صغيرة الحجم ، مرتبها طبقا للمشكلات التي تعرض لها ، ثم جمع هذه الأبحاث في مكتوب واحد ، وأطلق عليه اسم أصل الأنواع[2] .

في هذه الآونة أمكن لداروين الإطلاع على ما كتبه لامارك الفرنسي ١٧٤٨/١٨٢٩م من التطور والارتقاء ، كما أطلع على قوانينه الأربعة التي سجلها لامارك ، فلم ترق لداروين أول الأمر ، بل كان يعتبر أقوال لامارك عن التطور الإحيائي نوعا من السخف الفكري والترف العلمي ، إن لم تكن من الهوس الذي يحتاج صاحبه نوعا من العلاج[3] لأنه كان يراها غير جديرة بالنظر فيها.

سمحت التجارب التي قام بها داروين فيما بعد بأن يراجع قراراته السابقة ، وبخاصة بعد ملاحظاته في البحوث الحيوانية والنباتية،حيث أعاد النظر في تطور الكائنات وإرتقائها على النحو الذي انتهي إليه لامارك ، كأنه يعيد النظر فيها،فإذا به يتراجع من العداء لها إلى المحبة،ومن المقاطعة إلى التواصل ومن النقد اللاذع إلى الدفاع المستميت ، ومقاومة الهجمات التي توجه إليها[4].

---

(١)مدينة داون من المدن الهادئة ، عاش فيها داروين وظل بها أن توفي عام ١٨٨٢ عن عمر يناهز الثالثة والسبعين ، ومن ثم يمكن القول بأنه قضى في داون وحدها أكثر من نصف عمره بكثير.

(٢) ويرى الباحثون أن كتاب أصل الأنواع من أخطر الكتب التي ألفها داروين ، لأنه ألف هذه الأبحاث في سن الشباب ، ومن ثم اتسمت بالرعونة والتسرع والرغبة في مقاومة الأفكار القائمة ، بغرض إثبات الـذات ومحاولة القفز فوق الثوابت ، وكان لهذا السلوك أخطار على العقيدة والقيم والأخلاق ، صحيح أنها لم تنشر إلا في وقت متأخر ولكن العبرة بوقت التأليف لا بزمن النشر

(٣)الدكتور/خالد محمد فوزي ــ زعماء التطور ص ٣١ .

(٤) ب ــ روبرت ــ أعلام الداروينية ص ٦٣

ويذهب برونوفسكي إلى التأكيد على أن داروين لم يكن منتجا لكل الآراء التي نسبت إليه ، وإنما كان يلتقط هذه الأفكار من هنا وهناك ، فكان كجامع معلومات أكثر من كونه موجدا لها ، ويقوم الدليل على ما يزعمه ، بأن داروين قد التقط من توماس مالتوس الإحيائي القديم عنه فكرة الانتخاب الطبيعي ، حيث ذهب مالتوس في كتابه مقال عن العشيرة في الطبيعيات ، إلى أن الطبيعة تعمل كنواة انتخابية يقضي على الضعيف فيها ، ليتكون نوع جديد من الأحياء الذين يتوافقون مع بعضهم(١).

ويذهب جراهام كانون إلى أن داروين ووالاس قد استفادا من أفكار القس توماس روبرت مالتوس في كتابه عن السكان حيث زودهما هذا الكتاب بالدليل النهائي لأفكارهما المشتتة ، وقد ذكر داروين نفسه أنه قرأ هذا الكتاب للتسلية عام ١٨٣٨م ، أما والاس فيعترف بأنه قرأه عن قصد عام ١٨٤٦م(٢).

٢ ـ مؤلفاته :

على كل فان داروين اعتبر نفسه الممثل الطبيعي ، بل والمتحدث الرسمي باسم العمليات الإحيائية في هذه الآونة ، حيث قام بإعداد مؤلفات لخدمة هذا المجال وكانت أهم أهدافه تقوم على بسط الآراء التي يعتقدها ، ومن ثم فقد برزت أهم مؤلفاته في هذا الميدان ومنها :

١ ـ كتاب : أصل الأنواع(٣): الذي تعرض فيه للحديث عن كل من النشوء ، والتطور ، ثم الارتقاء ، طبقا لمفاهيمه ، ويبدو أن هذا الكتاب كان جملة من

---

(١) جاكوب برونوفسكي ـ التطور الحضاري للإنسان ص ١٨١ .

(٢) جراهام كانون ـ نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٢٥ .

(٣) نشر هذا الكتاب في نهاية عام ١٨٥٩م متضمنا ذات الأبحاث التي تم اعدادها من قبل ، كما تم وضعها في كتاب محدد العنوان .

الأبحاث التي تفتقد الطريقة العلمية حتى يتم الربط بينها ، بدليل أن ذات الكتاب كان بحاجة إلى المراجعة العلمية والفكرية ، كما أن السمة التي غلبت عليه ، هي عدم تقديم نتائج مترابطة ، أو متوافقة مع المقدمات التي سعي لافتراضها، فعلا[١]، وكان يطمع في نتائج لكنها لم تحملها هذه المقدمات ، ومن ثم هوجم الكتاب كثيرا ، واتهم داروين بالعجلة في نشره ، كما أتهم بالغفلة عن طبيعة النتائج التي ادعاها .

٢ ـ كتاب تغير الحيوان والنبات في الدجن ، وقد نشر هذا الكتاب عام ١٩٦٨م حيث كثف من جهوده حول التاريخ الطبيعي في هذا الكتاب للتأكيد على الأفكار التي تضمنها كتابه أصل الأنواع ، فكأنه في الكتابين يهدف إلى فكرة واحدة ، ولذا اعتبرت أفكار الكتابين ذات مضمون واحد ، غير أنها كانت في الأول مجرد أفكار،أما في الثاني فقد صارت تأكيدا على ذات الأفكار،ومن ثم أعتبرها البعض كتابا واحدا يحمل أكثر من عنوان[٢]

٣ ـ كتاب تسلسل الأنواع:[٣]تحدث فيه عن نفس المسائل الإحيائية التي شغلته، ولكنه جعل غايته في هذا الكتاب إثبات التطور المستمر ، لا إثبات النشوء ، ويبدو أنه قد تصور إمكانية كتاب اصل الأنواع في غرس فكرتي النشوء والارتقاء[٤]فجاءت العناية في تسلسل الأنواع بالتطور وحده ، لكن من خلال

---

(١)ويليام بيز ـ الهندسة الوراثية للجميع ص ١٥٧ ترجمة الدكتور احمد مستجير ط ١٩٩٦م .

(٢)توماس هيوز ـ البيولوجيا في المنظومة التاريخية ص ٣٩ .ترجمة حنان فخري ١٩٧٣م .

(٣) ويذهب البعض إلى أن عنوان الكتاب هو تسلسل الإنسان والانتخاب الطبيعي ، وهو ذاته كتاب تحدر الإنسان وقد صدر عام ١٨٧١م حين كان داروين قد تجاوز الستين من عمره ـ الدكتور خالد محمد فوزي ـ زعماء التطور ص ٥٨ .

(٤)الدكتور / محمد السيد الضبع ـ داروين ونزعته الإحيائية ص ٩٥ ط أولى ١٩٦١م .

منظومـــة إحيائيـــة بيولوجية في وقت واحد[١].

٤ ــ تحدر الإنسان : وفيه عني بالجانب الإحيائي التطوري بالنسبة لنوع واحـــد منها وهو الإنسان ، فكأن الكتابين السابقين قد وضعا للتطور بصفة عامة ، أمـــا الثالث فقد جاء الحدث فيه عن الخلاصة ، أو الغاية ، وهي القفز بالإنسان مـــن النوع السافل المتدني ، إلى الحالة التي هو عليها الآن ، ولكنه فشل فـــي إثبـــات إمكانية استمرار التطور على الإنسان[٢] لأن النتيجة اللازمة له ، هي ماذا سيكون عليه الإنسان الحالي ، إذا استمر في التطور .

٥ ــ أصل الإنسان : ويذهب بعض الدارسين إلى أنه ذاته كتاب تحدر الإنسان ، وأن مادتهما العلمية واحدة تماما ولكنهما اختلفا بين يدي التراجمة فبعضهم أطلق عليه ــ في الترجمة ــ اسم أصل الإنسان ، بينما آخرون ذهبوا إلى إطلاق اسـم تحدر الإنسان عليه ، والخلاف إنما انحصر في الترجمة العنوانية ، لا في المـادة العلمية[٣].

٦ ــ القوة والمادة ، وفيه تحدث عن اعتقاده في المادة ومنزلة قوى الطبيعة من اعتقاداته ، وبان أنه ممن يقولون بتاليه قوى الطبيعة ، وأنـــه كـــان يخفـــي اعتقاداته ويغلفها في عبارات بعيدة عن النصوص أو المصطلحات الدينية .

٧ ــ بحوث في عالم الطبيعة لم يعلن عنها إلا بعد وفاته ، ومنها :

---

(١) لم يكن مصطلح البيولوجيا قد خطا في المؤلفات العلمية تلك الخطوات التي ظهرت فيما بعد ، وإنما كان يتم الإعلان عنه في صورة خافتة لأن البيولوجيا كانت حتى وقت قريب تعني العلاقات الجسدية بين أفراد النـــوع الواحد ــ توماس هيرز ــ البيولوجيا في المنظومة التاريخية ص ٤١ ترجمة حنان فخري ١٩٧٣م

(٢) بمعنى إننا لو افترضنا جدلا أن الإنسان الذي نراه اليوم كان ناتج عمليات التطور للكائنات الســـابقة في صورها المتدنية ، فعلى أي شكل نتوقع الإنسان في القرون المقبلة ، هل سيظل بشكله المعروف أم سيحدث لـه التغير والإجابة على هذا التساؤل غير ممكنة لأنها تمثل ضربا من الخيال العبثي

(٣) راجع لتوماس هيرز ــ البيولوجيا في المنظومة التاريخية ص ٤٧ وللدكتور خالد محمد فوري ــ زعمـــاء التطور ص ٥٩

أ ــ خطراتي الفيزيائية .

ب ــ الإنسان والحيوان مصالح مشتركة .

ج ــ حمار استريت .

د ــ الزرافة العملاقة ، وهي في مجملها تحمل آراء جامعة بين السياسة والأدب على الطريقة النقدية وبالتالي يمكن القول بأنها أقرب إلى الأدب الرمزي ولا علاقة لها بالجوانب الإحيائية ، ومن ثم يتشكك الكثيرون في نسبتها إليه(١).

٣ ــ مجموعات القوانين الإحيائية عنده :

والذي أنتهي إليه أنه سواء أكانت هذه المؤلفات الأخيرة في نسبتها إلى داروين صحيحة ، أم لم تصح ، فإن المعول عليه هو المؤلفات التى تم التأكيد على أنها من نتاجه ، وكذلك البحوث التى جاءت في هذا الصدد ، إذ هي في مجملها تقدم صورة أو أكثر لمجموعة المبادئ والأفكار التي جعلها داروين أساسا لفكرته ، أو عناصر أولية تحدث عنها في ثنايا علم الأحياء ، وعلم البيولوجيا ، والأنثروبولوجيا ، وهي تأتي في مجموعتين :

المجموعة الأولى : القوانين الأساسية :

وهي تتمثل في ثلاثة مبادئ ، ويطلقون عليها اسم الأفكار الرئيسية ، أو القوانين الإحيائية وربما أطلقوا عليها اسم النواميس التطورية وهي :

١ ــ قانون الانتخاب الطبيعي(٢)وهي الفكرة التي استعار أصولها من توماس مالتوس ، وكان مالتوس هو الآخر قد استعارها من الإشارات الإحيائية التي

---

(١) جورج هنري لاوست ــ داروين والصور المشتركة ص ٤٣ ترجمة الدكتور صابر محمد العقدة ط بغداد ١٩٧١م .

(٢) الأستاذ /سلامة موسى ــ نظرية التطور واصل الإنسان ص ٥٧ ،وهو يقرر أن العملية الإحيائية تجئ بناء على سلوكيات طبيعية لا علاقة لها بشئ وراء ذلك ، ومن ثم فهو ينكر البدهيات الثلاث : القصد ، النظام الأتم . الغاية من خلق الأشياء ــ محمد رضا الأصفهاني ــ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ ، الدكتور: محمد فوزي عطيه ــ النواميس التطورية ص ١٤٥ ط أولي ١٩٤٧م

ألمح إليها جوليان هكسلي .

٢ ــ قانون تنازع البقاء[١] وهو مرتب على الانتخاب الطبيعي ، غير أن الانتخاب يقوم في عناصر النوع ، بينما تنازع البقاء يقع في ذات النوع ، والفرق بينهما كبير جدا .

٣ ــ قانون بقاء الأصلح:[٢] وهو ناتج عن القانونين السابقين عليه ، وفي ذات الوقت فإن أجزاء هذه المجموعة التي تتمثل في القوانين الثلاثة السالفة ، تعتبر هي المصدر الرئيسي ، والمتحدث الرسمي باسم فكرة التطور الإحيائية ، على النحو الذي ذهب إليه داروين ، سواء أوقعت له المقاسمة مع صديقه الفرد راسل والاس ، أم ذكرت ومنسوبة إلى داروين على سبيل الاستقلال .

والملاحظ أن هذه المجموعة ليست كلها من ناتج فكر داروين حتى تنسب إليه ، أو يكون له قصب السبق عن أقرانه في الوقوف عليها ، لأنها موجودة لدى غيره ، كما أنه قد سبق القول بها على ناحية من الأنحاء .

المجموعة الثانية : القوانين الثانوية:

وهي تقع في ثلاثة مبادئ ، والتطوريون يطلقون عليها اسم القوانين الإضافية ، أو الأفكار المقبولة ، وتتمثل في ثلاثة قوانين:

١ ــ قانون الوراثة[٣] وهو فحوى الفكرة التي قامت على توارث الصفات

---

(١) وهو نوعان : أ ــ تنازع فاعلي متى كان الصراع بين الكائنات الحية مع بعضها . ب ــ تنازع مفعولي متى كان الصراع بين قوي الطبيعة الصامتة ضد الكائنات الحية

(٢) ويذهب هنري توماس إلى أن هربرت سبنسر هو الذي صاغ عبارة التنازع على البقاء ، وعبارة بقاء الأصلح ، وأن أبحاثه قد تضمنت هذه الأشياء حيث نشرها عام ١٨٥٢م قبل أن يظهر كتاب دارون ــ أصل الأنواع بسبع سنوات . هنري توماس أعلام الفلاسفة وكيف نفهمهم ص ٢٠٣ ترجمة متري أمين ط دار النهضة العربية ١٩٦٤م

(٣) توماس هيدر ــ تطور الكائنات الحية والطبيعة الصامتة ص ٤٩ ترجمة الدكتور وفاء صبح ١٩٦٠م وهو نفس مبدأ توريث الصفات الذى قال به إرزموس داروين جده من قبل

المكتسبة ، مع تعديل في طبيعة الصياغة .

٢ ــ قانون الاستعمال والإهمال[١].

٣ ــ قانون الملاءمة[٢].

٤ ــ تقييم أفكاره :

من المؤكد أن هذه المجموعات لم تكن كلها من النتاج العقلي لداروين ، ومع هذا يمكن القول بأنه أقام الفكرة ــ التي بذل جهوده حولها ــ في شكل قواعد أو مبادئ وقوانين استقاها ــ في الأغلب الأعم من مخاضات لامارك ، وأن داروين كان ينتظر هذا المخاض حتى ظهر الوليد ، ثم تسلمه في شكل نباتات صغيرة ، فطوى نفسه عليها ، وراح يتعهد هذه الأفكار بالري وعوامل الإنماء ، حتى إذا شبت عن الطوق اقتنصها ، وحاول الظفر بها ، قبل أن يسبقه غيره إليها ، وقد نجح في ذلك حتى نسبت المسأله كلها إليه ، وصارت تعرف به ،مع أنه لم يكن سوى ملفق ،كما أنه لم يكن موفقا من الناحية البحثية ، كما لم يتمكن من إحراز أية نجاحات منهجية أو بحثية في هذا المجال.

بعد أن تجاوز داروين الستين من عمره أعاد مراجعة أفكاره في كتابه " تسلسل الإنسان " فغير كثيرا من آرائه السابقة ، حتى ذهب إلى أن الإنسان ، والمجموعة الشبيهة به ، والشمبانزي منحدرات من أصل واحد ، وليست عملية التطور هي التي حولت القرد إلى إنسان[٣]، وهذا تراجع منه بغرض تهدئة الثورة عليه ، ولكنه لم ينزع الفتيل القائم في الأزمة .

---

(١) وهي ذات الأفكار التي رجعا إليها كل من لامارك ، وجوليان هكسلي ، أو من سبقهما بهذا الخصوص ، وكان لكل منهما جهوده في عرض رأيه .

(٢)توماس هيلر ــ تطور الكائنات الحية ص ٥٠ ترجمة الدكتورة وفاء صالح ١٩٦١م.

(٣)وهذا التراجع منه يمثل شيئاً من قلقلة العاصفة ، وخوفاً من بالي سلطان كنسي لا تحتمل نتائجه منه السن التي تجاوزت الستين بقليل .

يقول داروين لا يمر بي خلجة من الشك ، في أن ما كنت أقطع بـــه فـــي الماضي ، من القول بأن كل نوع من الأنواع قد خلق خلقاً مستقلاً بذاته خطـــأ محض ، وإني اليوم لعلى تمام الاعتقاد بأن الأنواع دائمة التغير ، وأن الأنـــواع التي نعتبرها من توابع الأجناس ، هي أعقاب متسلسلة عن أنواع أخرى طواهـا الانقراض[١].

بيد أن الدارس يؤكد وجود جهات كثيرة،كانت تقف خلف داروين تؤيده وتغذيه بل وتدعمه جداً منذ شبابه الباكر ، لم ينل داروين مثل هذا الدعـــم القـــوي ولا الأكبر منه[٢]، كما نال بعض الأوسمة كنوع من الدعم المستمر له[٢]، وعضوية الأكاديميات الأجنبية[٣]، وهذا في حد ذاته كاف للتدليل على ما ذهبنا إليه .

وفي ١٩ نيسان عام ١٨٨٢م انتهت رحلة داروين الحياتية ، ولكن الرجـــل لم تنتهي أفكاره ، ولم ينقطع الجدل حول آرائه ، وإنما يحاول الكثيرون أحيـــاء تلك الأفكار ، وعرض نفس الآراء على طلاب المدارس الإسلامية في جـــانب علم الأحياء ، بالرغم من أن أساتذة المادة نفسها ، يرفضون النتائج التي انتـــهى إليها داروين ذاته على الناحية العلمية ، ولكن ماذا نصنع مع الذيـــن يحـــاولون توجيه العقول نحو الأفكار الشاذة ، والتيارات المنحرفة .

---

(١) تشالز داروين — أصل الأنواع ج ١ ص ٧٢ ترجمة الأستاذ إسمـــاعيل مظـــهر ط الثانيـــة دار العصـــور ١٩٢٨م.

(٢) عمل سكرتيراً للجمعية الجيولوجية الإنجليزية اعتبارا من ١٨٣٨م ، وظل بها حتى تخلى عنها في ١٨٤١م.

(٣) نال وسام الاستحقاق من ملك بروسيا في مجال البحوث التجريبية ، بترشيح من الأكاديمية البروسية عـــام ١٨٧١م .

(٤) أنتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٧٨م قبيل موته بأعوام أربعة ، وكانت الأكاديمية الفرنســـية لا تمنح العضوية لغير الفرنسيين ، ولكنها منحتها له كنوع من الدعم للاتجاه الذي يمثله .

٥ ـ عوامل التأثير في داروين :

القاعدة المشهورة أن الفكر الإنساني يلقح بعضه البعض الآخر ، وبناء عليه فقد كان داروين حريصاً على اكتساب الثقافات التي أفرزتها عقول الآخرين ، والعمل على إضافة المسحة الأخيرة إليها ، ثم نسبة هذه النتائج له وحده متى أمكنه ذلك ، لكن الظواهر العامة تؤكد أن داروين قد استفاد من الآخرين في الجوانب المختلفة . ففي الجانب الجيولوجي : قد استفاد من علماء الجيولوجيا الذين استعملوا الاستقراء الجيولوجي ، الواقع في عمليات التسجيل الجيولوجية المختلفة ، وقد استفاد منهم معرفة أن الحياة لم توجد على الأرض دفعة واحدة ، وإنما وجدت الحياة في صورة تدريجية بسيطة ، من ناحية شكلها الأول[١] تدريجية في ترتيب الأحداث التاريخية .

حيث ظن هؤلاء الجيولوجيون أن الأنواع المتأخرة من الكائنات ، بوزت فيها معالم رقي وتقدم،عن الأنواع التي ظهرت مبكرة ، وبالتالي اعتبر داروين هذه الملاحظات حقائق مسلمة ، بنى عليها أحلامه في التطور،كما أن هذه الأفكار الجيولوجية قد أخذها داروين مأخذ التسليم وصدق بها ، على أنها نتائج نهائية لا مجرد ملاحظات جيولوجية[٢] .

بل أن داروين لم ينظر إلى الفرق بين موضوع الجيولوجيا ، وموضوع البيولوجيا ، فالجيولوجيا موضوعها العالم غير العضوي ، أو موضوعها ليس واحدا من الكائنات الحية ، وإنما موضوعها ملاحظة التطورات التي تمت في تطور الأرض ، وظهور جبالها وهضابها وتضاريسها ، ومع ذلك اعتبرهم داروين أساتذة له وعلى هدي نتائج أبحاثهم سار[٣] .

---

(١) فردريك هيلر. التطور التاريخي للكائنات الحية ص ٣٥ ترجمة فؤاد عدنان ط دار الجيل بيروت ١٩٧١م

(٢)الدكتور / صلاح حسن مرسي ـ الداروينية القديمة والحديثة ص ١٤٣ ط المهند بالموصل ١٩٦٥م .

(٣) ومن هؤلاء كل من راء ، باركسون ، لينو ، هيومان ، فيلتس ، لايل .

ويقرر كانون أن تأثير تشالز لايل على دارون كان كبيراً ، لأن لايل أصدر كتابه مبادئ الجيولوجيا ، فأعجب به داروين وحمله معه في الرحلة المشهورة ، وتأثر بأفكار الكتاب إلى الحد الذي جعله يعتنقها ، وكان لهذا الكتاب دور كبير في توجيه دارون هذه الناحية التطورية ، حتى قبل أن هذا الكتاب قد حول دارون إلى جيولوجي ، وبفضل هذا الكتاب كان دارون يرى كل شئ من خلال مبادئ لايل[1].

أجل تأثر دارون بتشارلز لايل من خلال كتابه مبادئ الجيولوجيا ، وقد سعى دارون للالتقاء بلايل أكثر من مرة ، حتى نشأت بينهما صداقة ،كان الساعي إليها على الدوام هو دارون نفسه ، الذي كاتب لايل عدة مرات واعتبره محل النجوى من قلبه.

بدليل أن والآس لما أرسل إلى دارون بمسودة بحثه حول نزعة الضروب العضوية إلى الانحراف كلياً عن طرازها الأصلي ، أسرع دارون بالكتابة إلى لايل يخبره بأبحاث والاس،كما يقول له أن ذلك من توارد الخواطر، بل يقدم تعليلاً يقول فيه،لم ار في حياتي أعجب من هذا الاتفاق والتوارد[1]. ولو لم تكن لديه الثقة الكاملة في تشارلز لايل ، ما كاشفه عن هذه الجزئية الدقيقة إذ كانت كافية للإعلان عن كون داروين لصاً محترفاً ، مادامت النتائج التى بعث بها والاس قد سبقت إعلان داروين لنتائج أبحاثه .

أما في الجانب الأنثروبولوجي ــ السكاني ــ فقد تأثر بالقس توماس روبرت مالتوس على الناحية البحثية ، بل يمكن القول بأن أبحاث القس مالتوث لم تكن خارج الإطار الديني في المسيحية،لأن غاية مالتوس انحصرت في الرجوع ببني الإنسان إلى آدم ،ومن ثم تطورت هذه الكائنات الإنسانية عدديا من آدم

---

(١)جراهام كانون ــ نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٢٥ .

(٢)الدكتور ماهر خليل ــ سقوط نظرية دراوين ص ٣٤ .

وزوجه ، حتى صارت بالمليارات ، كما أن ملاحظات مالتوس على الجانب الآخر كانت ملاحظات إحصائية ،اقرب منها إلى الإحيائية ، لأنه كان ينظر إلى جانب الفقر والغنى،وعلاقة ذلك بالإرادة الإلهية،باعتباره رجل دين مسيحي[١].

لقد كان سعيه الدائم قائما على التوفيق بين النصوص الدينية والأوضاع الاجتماعية من ناحية،والإرادة الإلهية من جانب آخر،بل يمكن القول بأن القس مالتوس كان يهدف إلى تثبيت الإيمان المسيحي في النفوس القلقة [٢]التي هزها الفقر،وأكلها الوضع الاقتصادي،المتردد بين الصعود المتنامي،والهبوط المتدني.

لكن تحويل تلك الظاهرة الاجتماعية ، إلى ظاهرة في عالم الطبيعة لدى داروين ووالاس لم يكن له ما يبرره ، بحيث يستنتجان منها أن أضعف الكائنات سوف تكتسح اكتساحا ، ولا يبقي منها إلا أفضلها عدة،وأقدرها على المقاومة

أما في الجانب الإحيائي فقد اكتسب داروين من جده أرازموس القول بالتجانس الحيوي[٣] ، كما استفاد من جوليان هكسلي فكرة ترتيب السلالات الطبيعية ،وهو ما عرف باسم الانتخاب الطبيعي[٤] ، واستفاد من لامارك صياغة هذه الأفكار في قوالب علمية ، أما استغلاله لأسماء كل من مالتوس ووالاس في الجانب الإحيائي ، فقد كان واسعا وعميقا أيضا .

---

(١) حيث كان يذكر مالتوس أن أهل الأرض منهم الأغنياء والفقراء ، ولو أن الله شاء أن يجعلك من الأغنياء لجعلك ، ولو شاء أن يجعلك من الفقراء المتعوسين جعلك ، فالأمر موكول للقضاء والقدر ، ولم يكن مالتوس يردد ذلك على الدوام ، وإنما أعلنه حينما قامت الثورة الصناعية وبرز الأغنياء في غناهم الفاحش ، والفقراء في فقرهم القاتل ، حتى أن الفقير إذا طرد من عمله في المصنع لأمر ما من التذبذبات الاقتصادية ، فإنه لايجد ما يسد به رمقه ، وربما مات من الفقر والحاجة ، وما كان ذلك عند مالتوس إلا من القضاء الإلهي والتدبير العلوي الذي ينفذ بالطريقة الخاصة التي ألمح إليها الكتاب المقدس ، ونقلتها تعاليم الآباء ، وهي جميعا أعلى من القدرات العقلية ، كما أنها فوق النقاش وأكبر من التساؤل ، ولم يكن يهدف إلى تقنين أوضاع علمية ، او طبيعية ، بقدر ما هو ساع لأبراز أحكام ظنها إلهية وألحقها بالقضاء والقدر على ناحية من النواحي التي تمكن من فهمها عقله

(٢) الدكتور / حسن السيد طوقان ـ ملامح الفلسفة الحديثة ص ٢٠١ وبالتالي فإن هذه الفكرة الاجتماعية قد وظفها داروين على غير موضعها

(٣) اذ كان جده هو الذي انتهى إلى فكرة التجانس الحيوي ، وأنها تأتي متشابهة مع بعضها

(٤) ومن ثم تكون فكرة الانتخاب الطبيعي ليست من بنات أفكار داروين نفسه

لأنه في التنامي السكاني ــ والذي قال به مالتوس ــ أمكن إعادة صياغته بطريقة جديدة ، وتحويله من مبدأ أنثروبولوجي ــ سكاني ــ إلى مبدأ إحيائي[١] لكن بالنسبة لوالاس فيمكن القول بأن أغلب الأبحاث التي نسبت إلى داروين كانت أفكارها ومادتها العلمية مستقاة من أبحاث والاس الذي رضي بذلك الصنيع ،ولم يقاومه لاعتقاده أنه مالم يكن داروين ، فلن يقدر لأبحاث والاس أن ترى النور ، فكان رضاء والاس عن سرقات داروين منه،بمثابة عقد صفقة بين طرفين ، أحدهما يملك الإنتاج ، ولا يملك التسويق[٢] ، أما الثاني فيملك التسويق وله معرفة بسيطة بالإنتاج ، وكان نصيب والاس الإنتاج ، أما داروين فكان مشاركاً ضئيلاً في الإنتاج ، لكنه يملك زمام كل التسويق .

وفي تقديري : أنه لو لم تكن خلف دارون قوى عديدة ، واتجاهات داعمة، ما أمكنه نشر هذه البحوث والمقالات ، ولا إعلان مثل هذه الانفلاتات،التي زلزلت أركان المجتمع ، وهزت قيمه ، ونزلت بأخلاقه من منطقة معتدلة أو متوسطة ، إلى الانهيار الذي لا عودة بعده ، والسقوط الذي لا نهوض يرتجى من ورائه .

الخامس : ألفرد راسل والاس :

١ ــ حياته وأفكاره :

إنجليزي الأصل والمولد ، إلحادي النزعة ، عدواني الاتجاه ، متقلب المزاج ، غير سوي السلوك ، عاش ما بين أعوام ١٨٢٣ــ١٩١٣م[٣]حيث ولد ، لأسرة فقيرة ، لا تملك من أسباب الحياة الكريمة شيئاً ، بل كان الفقر يطارد

---

(١) وهذا مما يؤكد أن داروين لم يكن صاحب عقلية إنتاجية بقدر ما كان عقلية تجميعية

(٢) وبناء عليه فلم تكن انحرافات داروين في هذا الجانب عشوائية ، وإنما كانت منظمة جداً ، ومقصودة إلى حد بعيد

(٣) وبالتالي فهو أصغر سنا من داروين بأربعة عشر عاماً حيث أن داروين ولد عام ١٨٠٩م.

أفرادها في كل مكان ، وكأنه يبحث عنها في كل اتجاه ، ولذا فقد شاع بين أفراد هذه الأسرة الكثير من أنواع الهزل ، ولم يعرف غالبيتهم الجد ، وإنما كانوا يمارسون الهزل الساخر العنيف ، كنوع من التعبير القوي عن الظروف المحيطة بهم ، وإعلانهم الرغبة في التمرد عليها والتخلص منها[١].

لم تكن ظروف هذه الأسرة مستقرة ، كما لم تكن حياة أفرادها كريمة ، أو موفقة ، بل كان يحيط بها البؤس ، ويفترسها القلق ،ويتداخل معها الاضطراب، ومن ثم لم ينل أفرادها حظا كبيرا ، أو قسطا وافرا من التعليم في مراحله المتقدمة[٣]، وفي ظل هذه الظروف ولد الفرد راسل والاس ، فذاق من البؤس والحرمان ، بقدر ما ذاق غيره من أفراد السرة تلك الأسرة .

كانت أمه اقرب شبها بالقرويات الساذجات ، كما لم يكن ابوه بأحسن حالا منها ، وإنما كانت مستويات الطرفين الاجتماعية والعقلية ،والاقتصادية أيضا، متقاربة إلى حد كبير ، ولم يكن لدى طرفي الأسرة استعداد لخوض غمار الحيلة في شكل أكثر إيجابية أو نشاطا ، كما لم يكن لدى أي منهما حب المغامرة[٢]، إنها كانت اقرب صور الأشياء لطبيعة الأسر المعدمة .

نشأ والاس بين طرفي الأسرة الخاملة ، ولما شب عن الطوق أدخله خاله المدرسة ، ثم فرضت الظروف نفسها عليه ، فانسحب منها ، ليساهم في البحث عن لقمة العيش ، وبخاصة أنه قد بلغ الرابعة عشر من عمره،دون أن يحقق في الدراسة أى تقدم ملحوظ ، ومن ثم كان عليه أن يكسب لقمة عيشه

---

(١)أ . ب ـ روبرت ـ زعماء الداروينية ص ١١٩

(٢)الأستاذ / خالد محمد فوزي ـ زعماء التطور ص ٥٣

(٣) وكثيرا ما يكون حب المغامرة وسيلة لسعادة الأسرة طالما كانت المغامرة محسوبة على ناحية صحيحة ، وكان المغامر هو الآخر ممن لديه خبرة بالحياة ،ويملك قدرا من عمق المعرفة،واتساع الرؤى ، فضلا عن إمكانية التسامح الكبير مع التوسع في قبول ما تجري به المقادير

بنفسه[١] فضلا عن أن يتحمل البحث عنها لمن هم أصغر سنا منه في ذات الأسرة

رأى والاس أن مظاهر الفقر والحرمان والبؤس ، تتعاون على هذه الأسرة المعدمة ، وتفرض نفسها عليهم بقسوة شديدة ، وتحيط بهم بعد كل اتجاه ، وفي نفس الوقت فرضت الظروف الاجتماعية عليهم أمورا ما كانت لهم بحسبان ، فاستسلم الأب لسيطرة هذه الظروف ن وأما الأم فلم يكن لها من شاغل ، سوى إلهاء أطفالها بما يقتاتون به من طعام قليل ، يفتقد الجوانب الغذائية السليمة .

كان له شقيق أكبر منه سنا ، فأخذ بيد والاس حتى يعلمه مهنة مساح الأرض،في بعض المقاطعات الإنجليزية التي كان أصحابها يحتاجون ذلك النوع من المهن الوضيعة،في مسائل البيع والشراء[١]، وكانت مهنة هامة في طبيعتها ، وإن لم تكن هامة في القائمين عليها ، وإنما ازدادت أهمية هذه المهنة بعد أن هجر أغلب الدوقات المدن الكبيرة ، وأقاموا في المزارع التي أعدوها ، بما فيها من وسائل ترفيه،وما تحققه للمقيمين فيها ، من متعة شخصية وراحة نفسية[٢].

ولما كانت مهنة مساح الأرض هذه لا تحتاج إلى تعليم متقدم أو جامعي ، فقد أمكن لوالاس القيام بها ، وقد مارسها بعض الوقت،وكانت عائداتها المالية تغطي احتياجاته الضرورية، لكنها كانت مرهقة إلى حد كبير ، كما لم يكن لديه استعداد نفسي وبدني لمواصلة العمل فيها فتركها،غير مأسوف على الوقت الذي أنفق فيها[٤].

---

(١)الفرد راسل والاس — مذكراتي الشخصية ص ١٧ ترجمة صبري حافظ نشرة دار الجيل بيروت .

(٢)الدكتور/خالد محمد فوزي — زعماء التطور ص ٥٦ .

(٣)الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور — أوربا العصور الوسطى ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) بعض الناس متى كانوا في فقر شديد ،ثم حدثت معهم أنعم من نعم الله ، فإنهم يلتفتون إلى الحاضر في شيء من الحنين المتواصل ، ولا يعنيهم أن كان الالتفات لصالحهم أم لغير صالحهم ، إنهم ربما انفلتوا من هذه النعم كلها وضجروا بها ، ولم يعملوا للمحافظة عليها ، وبالتالي فهم لم يشكروا المنعم ولم يحافظوا على النعمة فخسروا الأمرين معاً

بحث عن عمل آخر يعينه على اكتساب لقمة العيش ، ويبدو أنه أجهد في البحث ، وأخيراً وفق للتدريس الخاص ، فكان ذلك بمثابة العوض له عن وظيفة مساح الأرض[١]، وكان التعليم الخاص سمة غالبة على أوربا ، أبان العصور الوسطى ، ومطالع عصر النهضة أيضاً[٢]، ورغم أنه لم يكن مجدياً في بعض الأحيان – من الناحية المالية – إلا أنه كان يضمن للمفكر المحافظة على حياته في صورة من الصور .

أما والاس فلم يوفق للعمل بالتدريس الخاص ، إذ كانت طبيعته قلقة ، كما كانت سلوكياته غير مقبولة ، وفوق ذلك فقد كان مدرساً يجهل الكثير من الواجبات الاجتماعية التي لابد منها في ذات الأعمال ، لأنها تكون بمثابة الشفرات أو المفاتيح التي تمهد لقبوله بين الأسر التي ترى الحاجة داعية إليه[٣]، فذكاؤه الاجتماعي لم يكن على قدر معقول ، ومن ثم ترك وظيفة التدريس الخاص ، وعاد سيرته الأولي ، باحثاً عن لقمة العيش التى هي غايته الأولى وهدفه الأكيد .

وبينما هو باحث عن عمل بين أقرانه ، ولدى القلة التي يعرفها ، إذ يتناهى إلى سمعه أن أحد أصحاب المتاجر النباتية يحتاج جامع عينات طبيعية ، وهي وظيفة شاذة نسبياً[٤]، لأنها تقوم على صاحبها ، أو الممارس لها يجمع لقمة

---

(١) جاكوب برونوفسكي – التطور الحضاري للإنسان ص ١٧٥ ترجمة الدكتور أحمد مستجير .

(٢) وقد مارس هذا النوع من العمل بالتدريس الكثيرون منهم فرنسيس بيكون ، ومن قبله روجر بيكون ، وكذلك صنع توماس هوبز ، وعمانويل كانت ، وديكارت وغيرهم ، ومن ثم فقد كان هذا النوع من التعليم بمثابة النافذة التى يطل منها المفكر على العالم الآخر، ويتفاعل معه ويضمن قوته اليومي .

(٣) الفرد راسل والاس – مذكراتي الشخصية ص ١٩ .

(٤) كانت هذه الوظيفة موجودة لكنها كانت تحتاج أفرادا قليلين ، وفي نفس الوقت لابد أن يكونوا من ذوي الخبرة المتميزة وفوق ذلك فعليهم البحث الجاد . وقد عمل كل من داروين وعمانويل كانت بهذه الوظيفة في مرحلة من مراحل الحياة

عيشه من عائد النباتات النائية حتى يمكن بيعها،لأصحاب المتاحف النباتية ، أو أصحاب متاجر العينات التي كانت موجودة في إنجلترا ذاتها ، وفي العاصمة القديمة على وجه الخصوص[1]، وهذا يمثل صعوبة كبيرة .

تنقل والاس بين الصحاري والسهول بحثاً عن النباتات المطلوبة ، كما تنقل بين غالبية المدن الإنجليزية من ليستر ، إلى ويلز ، وغيرها من المدن والقرى الإنجليزية ، بل وعواصم المقاطعات ، ونظراً لطبيعة عمله في التنقل والترحال ، وبقائه في الهواء الطلق ، وتعامله الدائم مع النباتات والحشرات ، بجانب احتكاكه بالتجمعات السكانية ، فقد تمكن من التعرف على العديد من النباتات والحشرات والكثافات السكانية .

وفي إحدى جولاته إلتقى مصادفة برجل له نفس اهتمامات والاس ، ولكنه كان أوسع ثقافة منه ، وأكثر خبرة ، ذلك الرجل هو هنري بيتس صاحب كتاب محاكاة حشرات[2]، وقد تجاذبا أطراف الحديث ، فأخبره صديقه أنه تعرف على الكثير من الحشرات والنباتات ، حتى أنه جمع بضع مئات من أنواع الخنافس المختلفة وحدها من منطقة ليستر وحدها،وما يزال هناك الكثير لم يكشف عنه[3].

يبدو أن حديث هنري بيتس فتح شهية والاس ليقوم بدور البطل في هذه العملية ، ويقفز فوق الأعناق والأكتاف حتى يعوض السقوط الاجتماعي، فسارع والاس إلى أداء الدور وتقمص شخصية المكتشف هنري بيتس وقد أجاد فيه ،

---

(١) أ .ب بوتورايس ـــ زعماء المذهب الطبيعي ص ١٣٥ ترجمة عزه واصف ١٩٧١م .

(٢)هنري توماس ـــ زعماء التطور الإحيائي من لا مارك إلى والاس ص ٢٣٥ ترجمة أمل صبحي .

(٣) يذهب البعض إلى أن هنري بيتس كان مخادعاً لصديقه ، ولكنه دفع به إلى المجهول فاكتشف والاس النتائج بنفسه ، ويذهب آخرون إلى أن بيتس كان صادقاً في نصيحته وأن والاس لم يكن غمراً حتى يقع في خديعة صديقه ، وبالتالي فكل ما وقف عليه والاس إنما هو مجهود مشترك ينسب إلى كل منهما معاً ـــ راجع زعماء المذهب الطبيعي ص ١٣٩ والتطور الحضاري للإنسان ص ١٨١ وزعماء التطور الإحيائي من لامارك إلى والاس ص ٢٤١

وغامر على غير المعهود معه ، حتى أنه سافر إلى مناطق كثيرة،آملا أن يحقق ذلك الغرض الذي تعرض بسببه للعديد من المشاكل والمضايقات ، ولكن طبيعته المتهورة الغضوبة كانت تعينه على مقابلة نفس السلوكيات بمثلها[١]، ومن ثم لم يكن الأمر جديدا عليه .

استفاد والاس من قراءاته عن القس توماس روبرت مالتوس[٢]وبخاصة فيما يتعلق بالطبائع السكانية ، كما استفاد بما تركه جوليان هكسلي ، وفي نفس الوقت كشف له هنري بيتش عن قيمة كتابات ارازموس داروين في هذا الصدد ، بل ساعده على قراءة الأفكار ذاتها ، وكيفية الاستفادة منها ، واعادة صياغتها من خلال عبارات دقيقة ، ثم تصديرها في ثوب جديد ، ومن خلال منظور مستجد أيضا .

رتب والاس أفكاره ، ثم أعاد اكتشاف نفسه من جديد ، وبدأ في صياغة هذه الأفكار ، ثم وضعها في قالب تأليفي ، من خلال صديق له يدعى هنري لوماتيد ، إذ كان روائيا متمكنا ، وقاصا وناثرا ، ولما انتهى من تأليف أولى أبحاثه ، أرسله إلى من يتوسم فيه الاهتمام بالجانب الطبيعي، فأرسل إلى هايد ، كما أرسل إلى زنكوا ، وراسل كلا من توماس هيلي ، وجوليوس كبلر ، وكاتب داروين ، وكانت الآثار التي خلفها كتاب مالتوس قوية على والاس ، حتى أنه اعترف بذلك الأثر في مذكراته الشخصية[٣].

---

(١) أ . ب ــ روبرت ــ زعماء الداروينية ص ١٤٧ وقد ألمح إلى ذلك راسل والاس نفسه في مذكراته الشخصية ص ٥١ وما بعدها .

(٢) يرى البعض أن والاس قد تأثر بكتابات القس روبرت مالتوس في أفكاره عن الدراسات السكانية ، وأنه انتهى من ذلك إلى استخلاص فكرة البقاء للأصلح ــ راجع زعماء الداروينية ص ١٩٧ .

(٣)الدكتور خالد فوزي ــ زعماء التطور ص ٨٢ وتوماس هيدر ــ تطور الكائنات الحية ص ٥٦ .

لقد تمكن والاس من نشر أبحاثه ، وحقق في ذلك بعض النجاحات،وبخاصة أن مراسلاته لأهل الرأي هذه،كانت بمثابة اللجان العلمية المعنية بالطبيعيات[١]، وكانت غالبية أبحاثه تتعلق بفحص السلوك الإنساني ، والعظام والجماجم ، ثم الحفريات والآثار ،كما تعلق بعضها بملاحظة بعض النباتات والحشرات ، وكان يهدف من وراء ذلك الوصول إلى منظومة حيوية ، تقوم على أن الحياة ابتدأت بالمادة الصماء ، ثم تطورت هذه المادة ذاتيا ، وقد استمرت في التطور الحيوي حتى منتهاه ، بناء على أنظمة طبيعية محسوسة ، وليس اعتمادا على قوى غيبية مجهولة [٢].

٢ ـ مؤلفاته :

وقد ترك ألفرد راسل والاس جملة من المؤلفات ، بعضها أبحاث قصيرة ، وبعضها رسائل مطولة ، ومن أبرزها :

❖ في التاريخ الطبيعي : وفيه يحاول الحديث عن الأجناس الطبيعية على سبيل الإجمال ، ولذا اعتبر عنوان الكتاب كافيا عن محتوياته ، وقد نشره عام ١٨٥٨م ، وأرسل منه إلى من يثق في قدراتهم العلمية حسب تصوره .

❖ نزعة الضروب العضوية إلى الانحراف : وهو عبارة عن بحث صغير ، سجله والاس تحدث فيه حول نزعات الضروب العضوية إلى الانحراف، عن الأصول التي قامت عليها ، ويذكر أن هذا البحث حينما أرسل والاس صورة منه إلى داروين أعجب به داروين جدا ، ثم ضم إليه بعض ما كتب داروين نفسه ، وأرسلها جميعا إلى الجمعية الليبنوسية بلندن،تحت عنوان نزعة الأنواع

---

(١) كأن والاس قد اراد الحصول على شهادة موثقة من هؤلاء الأفراد بأن أبحاثه في المجالات الطبيعية حازت القبول ، ويعتبر قرارهم بمثابة اللجان العلمية التي يحتكم إليها في تقييم الأبحاث العلمية

(٢)الدكتور / خيري محمد فاضل ــ التطور ومشكلاته ص ٥٣

إلى تكوين الضروب ، واستمرار نشوء الأنواع والضروب بوسائل الانتخاب الطبيعي ، بل قام داروين بإلقاء هذا البحث على الجميع ، وتمت مناقشته في الآراء التي جاءت به كأنها له [١].

❖ الكائنات الحية : وفيه تحدث عن ملاحظاته الخاصة حول عالم الكائنات الحية ، في كل من الإنسان والحيوان والنبات ، ومهدت المادة التى وردت في هذا الكتاب لأفكار والاس عن الانتخاب الطبيعي ، كما ألمحت إلى التناحر من أجل البقاء ، وهي نفس الأفكار التي طرحت على ذهن داروين ، بحيث يمكن القول بأن ما يتعلق بالتطور الحيوي ، قد جاء على لسان كل من داروين ، وراسل والاس في وقت واحد ، وأن نسبته إلى أحدهما فيها غبن مقصود لحق الثاني ، وسخرية منه .

أجل استطاع والاس أن ينتزع من معاصريه،الاعتراف بأنه الأكثر في تفهم المشكلات الطبيعية،حتى أطلقوا عليه لقب شيخ علماء الطبيعة ، وكانوا يقصدون من هذا الإطلاق دعم والاس في مواجهة داروين ، الذي أطلقت عليه ألقاب مدح وتبجيل كثيرة ، وان هذا اللقب كان علامة على افتراق الجهود المشتركة عن التطور بين كل من داروين وصديقه والاس ، بحيث يبقى اسم التطور مرتبطا بداروين بينما يرتبط والاس بشيخ علماء الطبيعة[٢].

على كل فقد كان لوالاس دور كبير في كل المبادئ التي قامت عليها فكرة التطور الإحيائي[٣]، وقد انتهت حياته بنفس الشكل الدرامي الذي ابتدأت به ، من

---

(١) ويذهب البعض إلى أن هذا البحث كان المادة الأولى التي تألف منها كتاب داروين أصل الأنواع مطبوعا في ١٨٥٩م ـ راجع للدكتور ماهر خليل سقوط نظرية داروين في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة ص ٣٢

(٢)هنري توماس ـ زعماء التطور الإحيائي من لامارك إلى والاس ص ٢٧٥.

(٣) تقوم فكرة التطور البيولوجي عند أصحابها على المبادئ الآتية : ـ القول بقدم المادة ٢ ـ التولد الذاتي ٣ ـ الانتخاب الطبيعي ٤ ـ البقاء للأصلح ٥ ـ تنازع البقاء .٦ـ الوراثة ٧ ـ المطابق ٨ ـ التباين والتحول.

غير أن يحفل به أحد ، أو يهتم بجسده الذي أكله المرض ، وهي ذات النهاية التي كان يتخوفها ، ويطلبها القلق الذي كان يطارده ، وظل يسعى خلفه بغية أن يناله ، فأدركته منيته وحيدا فقيرا معدما عام ١٩١٣م ، تاركا خلفه ما قدم عقله حاملا أمامه ما كسبت يداه.

٣ – تقييم أفكاره :

وفي تقديري : أن ألفرد راسل والاس كان حلقة من حلقات المذهب التطوري الإحيائي ، ولو قدر له أن يقرأ في كتب الدين ، قبل أن يطالع إبحاث الطبيعيين ، فربما تغير موقفه الإلحادي ، ولو في قليل منه ، أو تغيرت لهجته في التعبير السافر عن ذلك الإلحاد المكشوف ، لكن ليس ذلك مما يقع في الأماني ، أو تتحقق من خلاله الأحلام لقوله تعالى :" أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون"(١).

كما أن سعي والاس في الحكم على غير المحسوس بأنه معدوم ، يعتبر مغامرة لا تخضع للعلم بقدر ما هي معبر أصيل عن الإلحاد السافر الذي تغلغل في صدره ، حيث ذكر أن الاعتقاد بوجود قوى أو كائنات غير طبيعية،إنما هو نوع من الخرافات، وضرب من الأوهام الموغلة في القدم ، التي مازال الكثيرون يعتقدونها ، ويعتبرونها محل الإيمان(٢)، وبهذا حكم على نفسه بأنه ملحد جاهر بإلحاده .

---

(١) سورة فاطر الآية ٨ .

(٢)الفرد راسل والاس – مذكراتي الشخصية ص ٩٥

أجل هناك الكثيرون ممن تعلقوا بأحلام الداروينيـــة ، وامســكوا بحبالــها المتهالكة ، وظلوا يدعمونها بكل قوة ، ويدافعون عنها بكل ما أمكنـــهم ، لكــن جاءت أسماؤهم عرضا ، أو تلاحقت كأطياف المنى ، وخيــالات الســراب ، إذ كانت غايتهم التعبير عن كونهم أحياتيين ، يعتقدون في دورات الحياة من خــلال صورة كيميائية تربطها بالطبيعة كلها[1] بعيدا عن الخالق العظيم جل علاه ، ومن ثم فهم جميعا ملحدون ، ولأنفسهم يخدعون ، وعلى الله يفترون .

٤ ــ موازنة بين داروين ووالاس :

لكن تبقى نقطة هامة وهي : ما الأثر الذي تركه والاس بالنســبة للتطــور الطبيعي الإحياتي ، ولماذا ارتبطت النظرية باسم داروين ، وأهمل اسم والاس ؟

والجواب : يجئ في نقطتين ، ويدور حول محوري ارتكاز :

الأول : أن إسهامات داروين وإسهامات والاس مشــتركة ، باعتبــار الأفكــار المتسلسلة ، والخواطر المتداعية ، لأن جهودهما المشتركة لا تجعل من اليســير فصل النتائج ، ونسبتها إلى واحد دون الآخر ، بدليل اعترافهما معا بأنهما تــأثرا بأفكار كل من لايل الجيولوجي ، ومالتوس الأنثروبولوجي[2] حيث قرأ كل منــهما كتاب القس روبرت مالتوس عن السكان ، وقد زودهمــا ذات الكتــاب بــالدليل النهائي لأفكارهما المشتتة ، وأعلن داروين أنه قرأ الكتاب للتسلية عــام ١٨٣٨م فيما أعلن والاس أنه قرأه بعناية وقصد عام ١٨٤٦م[3].

كما أن والاس حين أرسل لداروين أول نسخة من كتابه عن التاريخ الطبيعي ولما قرأ داروين سطور الكتاب قال ، إن والاس لو اطلع على الخلاصــة التــي كتبتها عام ١٨٤٢م لما استطاع أن يستخلص منها أكثر مما جاء في رسالته ، إن

---

(١) جاكوب برونوفسكي ـ التطور الحضاري للإنسان ص ١٩٠ .

(٢) أ.ب.بوتورايس ــ زعماء المذهب الطبيعي ص ١٤٧ .

(٣) جراهام كانون ــ نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٢٥ .

كثيرا من اصطلاحاته التي استعملها ، قد دخلت كتابي، وكانت عناوين لبعض فصوله[١] وهذا مما يؤكد أنهما معا يأخذان من معين واحد ، كما يتعاونان للسير نحو غاية واحدة ، كل منهما يعترف بها،ولا يجد في صدرة قدرة على انكارها.

كما أن والاس قد اهتم بمشكلة التطور الإحيائي إلى الحد الذي كان يملأ عليه حياته كلها ، بل كان بحث هذه المشكلة هو خاطره العلمي ، ومن ثم فقد توصل إلى نظرية النشوء والارتقاء،في ذات الوقت الذي توصل دارون إليها ، وهو ما أعلنه دارون نفسه حيث أعلن ذلك في مقدمة كتابه أصل الأنواع ، فقال أن صديقي والاس،قد توصل إلى ذات النتائج ، التي وصلت إليها،قبل نشر هذا الكتاب — أصل الأنواع —[٢] ولذلك فإن بعض الدارسين يقررون أن أصل الأنواع إنما هو كتاب لجهودهما المشتركة .

ويقرر الدكتور الجمل أن والاس كان تطوريا أصيلا ، وليس من المستبعد أن يكون دارون قد اغترف من جهوده وآرائه ، بل أن ذلك مؤكد وقطعي[٣]، وبالتالي فيمكن النظر إلى القواعد أو المبادئ التي أنتجها داروين،على أنها ذات النتائج التي توصل إليها والاس ، إنهما يمثلان شركة يقوم كل منهما ببحث ذات المشكلة من ذات المصادر ، في نفس الموقع،وبالتالي لن تختلف النتائج إلا في الصور اللفظية ، ونوع الخيال ، وهو غير جوهري بالنسبة لهما .

الثاني : إنها نسبت لداروين ولم تنسب لوالاس لعدة أمور :

— أن داروين من عائلة علمية حيث كان جده أرازموس دارون عالما في الطبيعيات،بجانب دراساته الطبية على ما سلف القول به ، كما أن والد داروين

---

(١)الأستاذ محمد رضا الأصفهاني — نقد فلسفة دارون ج ١ ص ١٩ ، والدكتور / ماهر عليل — سقوط نظرية دارون في ضوء الاكتشافات العلمية الحديثة ص ٣٢ .

(٢) الدكتور/عبد الحليم محمد عمران .التطور المشكلة والحلول ص ١٥٣ ط ثانية دار الجيل بيروت ١٩٦٧م

(٣)الدكتور أحمد عبده حوده الجمل — في المذاهب المعاصرة ص ١٤٣ .

كان هو الآخر من نفس العائلة العلمية ذات الشأن الكبير ، وبالتالي فلما جاء تشارلز دارون الحفيد كانت الأرض الفكرية مهيأة لنسبة أية أفكار علمية إليه في هذا المجال ، متى أعلن عنها ، أما والاس فلم يكن لأسرته أدنى نصيب في العلم ونسبة أية معلومات إليه بهذا الخصوص مقضي عليها بالفناء لأنها مغامرة غير محسوبة(١).

ب ـ أن دارون كان لديه من الذكاء الاجتماعي نصيب كبير ، وبالتالي فما أن يتوصل إلى شئ مهما كان ضئيلا إلا ويسارع هو نفسه إلى إعلانه ، ثم يقوم أصدقاؤه ومعارفه بدور الراوي عنه(٢)، كما يقومون بدور وسائل الإعلام مدفوعة الأجر في هذا المجال ، أما والاس فلم تكن هذه الميزة له ، إذ ليس بإمكانه غزو المجتمعات وهو طريدها ، إن لم يكن هو المنبوذ فيها ،فمن ذا الذي يحمل أراءه ، أو ينقل عنه ؟ !

ج ـ ثقة دارون في نفسه ، ومقدرته العلمية،كانت تمكنه من الدفاع عن الأفكار التي يعرضها،حتى لو لم تكن في عالم الطبيعة أو الأحياء ، إذ كان مجادلا يملك ناصية الكلام ، كما يملك القدرة على إقناع الآخرين بما يريد(٣)، دليل ذلك أنه بالرغم من أن نتائج أبحاثه ، لم تكن محل التأكيد،إلا أن ثقته في نفسه كانت من أهم العوامل في دفع الآخرين على قبولها ، وعرضها على مائدة البحث والمناقشة.

---

(١)إذ كان النظام السائد في هذه الآونة هو اعتبار أبناء الصعاليك لا وزن لهم ، مادام الصراع الطبقي قائما على ألف قدم وساق

(٢) وقد لعب هذا العمل دورا كبيرا في حياة الكثيرين فأثر إيجابيا بالنسبة لهم ، وأثر سلبيا على غيرهم ، بدليل أننا نعثر على أفكار مطوية في ثنايا مؤلفات علمية ، لو قدر لصاحبها الذيوع والانتشار ، لكانوا بمثابة الذهب الذي أزيلت عنه الطبقة العلوية من التراب

(٣) وهذه المقدرة قد تكون راجعة لملكات ذاتية وقدرة على القيام بهذا الدور ، وقد تكون راجعة لجوانب تمثل حصانة اجتماعية وهو ما يعرف بدور البيئة في تكوين الفروق الفردية

أما والاس فقد كانت خطواته متعثرة ، وعباراته مرتعشة ، لم يكن واثقاً في نفسه ، وإنما كان مضطرباً إلى أبعد مدى،ولم يكن يتصور أن ما وصل إليه يمثل نتائج ذات قيمة بقدر ما يمثل استنتاجاته الشخصية، ومن ثم كان يرسل هذه النتائج إلى العلماء حتى ينظروا فيها . فإذا قبلت أمكن إعلانها ، وإذا رفضت لم يعلم أحد بها[١] .

د ـ الظروف الاجتماعية كانت تعين دارون على السفر والانتقال في مأمن مادي ، بدليل أنه لما فكر في الزواج ترك لندن ، وسكن في ضاحية هادئة داخل منزل يمتلكه،فتحول منزله في تلك الضاحية إلى ما يشبه منتدى العلماء، وكانت المراسلات تتم عليه ، لأنه محدد العنوان،معروف الإقامة ، في نفس الوقت كان بإمكانه مراسلة أكبر الجمعيات العلمية ، بما له من رصيد اجتماعي وعلمي موروث[٢]، ومن ثم كان يعرض أبحاثه على هذه الجمعيات بنفسه ، ويدافع عنها أمامها ، بإمكانياته العلمية .

أما والاس فكان يفتقد هذه الأشياء كلها ، بل لم يكن قادرا على المثول أمام جمعية علمية حتى يعرض نتائج أبحاثه ، وإنما كان يرسلها إلى دارون الذي يتولى عرضها على ذات الجمعيات العلمية[٣]، باعتبارها أبحاثا مشتركة ، ثم يقوم دارون نفسه بالدفاع عنها ، فكان والاس من باحثي ما خلف تحت الظل .

هـ ـ أن دارون لم يعلن الإلحاد كبديل عن الإيمان ، وإنما ظل يخفي إلحاده

---

(١) وقد فعل ذلك بأبحاثه كلها ، بل لم يقم هو بنشر كتاب في حياته ، كما كانت أبحاثه قصيرة ، تسري فيها عملية الرهبة الاجتماعية .

(٢) وهذه العوامل تعين الباحث على إعلان آرائه في جرأة ، وتدفعه إلى إظهار ما لديه من إمكانيات حتى لو كانت متواضعة ـ راجع لسبنسر كولز ـ أعرف نفسك ص ٣٥ ترجمة هدى فوزي ١٩٧٥م

(٣) كالحال الذي قام به دارون حين تقدم بجملة أبحاثهما إلى الجمعية اللندنية ، والجمعية الروسية ، ودافع عنها أمام كل منهما .

تحت غطاء شفيف باسم الأبحاث العلمية[١] رغم أن أبحاثه صارخة بالإلحاد العلمي — وبخاصة ما يتعلق بالتطور الطبيعي الذي أحله محل الخالق — إلا أنه لم يعلنه سافرا ، وبالتالي فلم تقع عليه انتقادات عنيفة من الكنيسة أول الأمر ، كما لم يسارع رجالها إلى إصدار أحكامهم عليه .

أما والاس فقد كان ملحدا إلى ابعد مدى،ولم يكن لديه شئ يخاف عليه،إنه كان واحدا من الصاعليك الذين يعيشون لحظاتهم في ترقب الهلاك أو انتظار النهاية[٢].

ومن ثم فلم يكن يخفى إلحاده ، ومثله ينفر الكثيرون منه ، إن لم يكن خشية إصابتهم بأفكاره ، فعلى الأقل تكون هذه النفرة رغبة في تفادي السخط الاجتماعي [٣]، أو الضغط الكنسي ، أو التخفي من متابعة السلطة السياسية .

من هذه العوامل يمكن استخلاص الإجابة على السؤال السابق لماذا نسبت النظرية إلى دارون وحده ، وأهمل شريكه والاس ، بجانب أن دارون استطاع استمرار الدفع بهذه الأفكار إلى الرأي العام العلمي ، وتغذيتها بكل ما يمكنه القيام به ، بل ونشر هذه الأبحاث على التتابع مع التواصل المستمر .

السادس : أرنست هنريخ هيكل :

١ — حياته وأفكاره :

ألماني الجنسية ، إلحادي المعتقد ، طبيعي النزعة ، ثائر على كل القيم

---

(١) ومن ثم ذهب البعض إلى أنه لم يكن ملحدا ، وإنما كان مؤمنا ، بينما ذهب آخرون إلى أنه كان ملحدا ضالعا في الإلحاد ، وقد تعرضت لهذه المسألة أثناء الحديث عنه من هذا الفصل .

(٢) وقد أعلن والاس ذلك في مذكراته الشخصية حيث يقول لم أكن أملك القدرة على إعلان ما أراه ، وإنما كان يقوم به آخرون بدلا مني ، إذ كانت هذه الآراء كفيلة بالقضاء علي في اية مرحلة من مراحل حياتي الأولى — والاس مذكراتي الشخصية ص ٣٩ .

(٣) واصحاب الإلحاد المكشوف لا يخفون هذه النزعة ، وإنما يجاهرون بها على سبيل المفاخرة ، وما هي إلا العهر الأدبي ، والفسخ الأخلاقي ، والخروج على دين الله رب العالمين .

الأخلاقية الراقية ، قافز فوق كل الأعراف المستقرة ، شاذ يمارس أنواع الشذوذ المختلفة ، ويدعو إليها من غير مراقبة لشئ آخر ، شيطان يسعى لإشباع نزواته الشخصية ، ونزعاته العدوانية المتمكنة منه ، المتحكمة فيه .

عاش ما بين أعوام ١٨٣٤ — ١٩١٩م حيث ولد في أسرة سكنت ألمانيا طويلاً ، وكانت أصولها العرقية مجهولة ، ولما كانت الإقامة بألمانيا قد طالت حسبت الأسرة على الجنسية الألمانية[١]،غير أن تلك الأسرة لم تظهر في أحد من أفرادها ملامح النبوغ ، كما لم تبد معالم الصفاء الذهني ، بل على العكس من ذلك كانت الظواهر العادية،تجزم بأن هذه الأسرة ترجع لنظام سلالي فيه الكثير من التمرد الجيني ، والعصيان الوراثي ، والثورة الدائمة على الثوابت الصحيحة والقواعد المستقرة .

نما الصغير أرنست بين أخوته الذين تلقوا عن والديهم أفانين الكذب ، وتعلموا منهم كل أنواع الانحلال، إذ كان أبوهم ملحداً لايستحي من كونه ملحداً، وإنما كان يقول أن الطبيعة هي الإله الذي خلقنا ، ثم هي الدمار الذي يلحق بنا، فكان من أكثر المتحمسين لفكرة تأليه الطبيعة وقواها[٢]، وكانت أمه ترفض الانصياع لفكرة الأديان عموماً ، وتعتبرها فكرة ساذجة يعتقدها أصحاب العقول الضعيفة ، أو التي لا قدرة لها على التحليق بعيداً عن مواضع الأقدام ، فكان من الطبيعي أن يتلقي الصغير أصول الإلحاد على أيدي والديه .

---

(١) الدكتور / خيري أحمد نجم — أرنست هيكل وفلسفته ص ١٩٧ ط دار القلم بيروت .

(٢) تأليه الطبيعة باسم الدهر قد صور القرآن الكريم موقف عبدة الدهر — الطبيعين — من حيث الشبه التي اعتمدوا عليها ، وبين أنها فاسدة ، وأصحابها لا دين لهم ، قال تعالى:" أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون " سورة الجاثية الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

وفي الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل ترون فيها من جدعاء[1]، وبناء عليه فقد تحول هذان الوالدان بأبنائهما جهة التحلل والتفسق والإلحاد ، ولم يكن الأبناء يرون في إعلان الإلحاد أمرا مخزياً ، مع أنهم كانوا منبوذين من أقرانهم .

عمل والد أرنست على إلحاق ابنه بمدارس التعليم الطبيعي التي كان لها وجود ضئيل في تلك الفترة ، إذ كان والده قد طمع في أن يكون ابنه أحد الطبيعيين الذين سمع عنهم ، أو يكون صاحب سلطان بحيث يتحول إلى نافذة يطل منها أبوه على العوالم الطبيعية ، أو على الأقل يتمكن هذا الابن من التعبير عن إمكانياته في هذا المجال ، ولم يكن أبوه يدرك ما معنى الطبيعة ، كما لم يكن على علم بشئ من هذه المفاهيم والمصطلحات بالمعنى الفني[2].

وكثيرا ما كان الأب يفرغ في صدر ابنه معلومات عن الطبيعة لا علاقة لها بالطبيعة ، إنها معلومات أشبه بالقصص التي تأتيها الأساطير من كل ناحية ، ولم يدرك الابن أنها كذلك إلا بعد أن درس العلوم الطبيعية على أيدي أساتذتها المتخصصين ،وبعد معرفته أن ما أدلى به أبوه لم يكن إلا وليد خياله الشخصي[3]، ومن ثم فقد كانت تعبئة الولد بهذا الشكل الخاطئ أحد العوامل التي دفعت به إلى التعمق فيها حتى يثبت لأبيه خطأ ما كان قد أدلى به ، من ناحية ، ويكون فوق رؤوس العلماء الطبيعيين الألمان من ناحية ثانية .

حرص الابن على بلوغ تلك الغاية ، ونفخ فيه من روح الأمل صديقه في

---

(١) العلامة محمد بن إبراهيم التويجري – من هدي البشير النذير ص ١٧٥ ط الدار الإحسانية بمكة المكرمة ١٤٢٥هـ .

(٢) أرنست هيكل – مذكرات هيكل ص ١٢ ترجمة خالد ناصر ط دار المعرفة – بيروت .

(٣) ب. روبرت – زعماء الداروينية ص ٢٢٣ .

الدراسة جوليوس هنري الذي كان يمتد بسبب إلى إحدى الأسر العريقة ، لقد أمكنه أن ينمي في خيال هيكل إمكانية بلوغ هذه الأمنية مستخدما كل ما أمكنه من باب أن الغاية تبرر الوسيلة(١)، ولذا فلم يكن هيكل يعبأ بأي شئ يحول بينه وبين بلوغه أمانيه.

غير أن هيكل كان متقلب المزاج ، فما أن يستقر في دراسة فرع من الفروع المعرفية إلا يغادره مسرعا إلى غيره ، بدليل أنه لما التحق بدراسة الطبيعيات مكث فيها وقتا قليلا ، ثم انصرف عنها ، وراح ينظر إليها نظرة بغض وإزدراء حتى كانت النتيجة المحتومة،هي هجرها دون أن يأسف عليها ، أو على العمر الذي أنفقه فيها ، أو بذله في دراستها(٢)، فكان الوقت بالنسبة له غير ذي قيمة ، وهي طبيعة المتهورين .

التحق بفرع دراسة العلوم الطبية عله يعوض ما فقده ، كما أنها مهنة ذات ربح وفير سريع، وسلوك متحضر ، كما تحقق في الوقت ذاته للقائم بها الكثير من الذيوع والانتشار ، وهو ينشد كلا منهما ، وقد تقدم في دراسة هذا الفرع حتىأحرز بعض النجاحات ، وظل يضاعف الوقت والجهد فحصل على درجة الدكتوراه في ذات التخصص ، ومارس أعباء المهنة فترة من عمره(٣)، كما تكسب من ورائها قوته وجمع ماله .

بيد أن الرجل تغلبت عليه طبيعته القلقة،وانقلبت إليه انقلاب من لا يرتجي السلامة من ورائه،حيث لم يتمكن من السيطرة عليها، أو كبح جماحها ، وبالتالي

---

(١) وهذا السلوك يعبر عن طبيعة غير مستقرة ، وسلوك غير سوي ، بل هو إحدى علامات التوتر والقلق النفسي الذي يصاحب العجز عن التكيف الاجتماعي والتحول السيكولوجي ــ راجع للدكتور توماس هـوك القلق والانفعال ظواهر غير صحية ص ٤٣ ترجمة هدى رضوان .

(٢) أندريه جيد ــ فلاسفة الغرب الطبيعيين ج ١ ص ١٩٥ ترجمة الدكتور فايز الصاغ ط دار الجيل لبنان ١٩٦١م .

(٣)أرنست هيكل ــ مذكرات هيكل ص ١٧

ابتعد عن الطب عملاً وعلماً ، مهنة وفكرا ، رغم أنها لم تتنكر لــه[١] ، وقــرر العودة إلى محبوبته الأولى،التي لم يطق صبراً في البعد عنها ، إذ هي معشــوقته التي يجد نفسه بين أحضانها وهي دراسة العلوم الطبيعية ، ومحاولة للتغلب على نوازع اليأس ، في ذات الوقت ، سارع نحو الهدف وهو التمكــن منــها ، وقــد أحرز بعض النجاحات في ذلك المجال ، لكنها كانت قليلة جدا .

بذل هيكل جهودا كبيرة في دراسة العلوم الطبيعية التي عاد إليها من جديـد ، ويبدو أنه أخلص لها هذه المرة ، بكل ما وسعه من جهد ، وما يملك من رغبــة في الدراسة ، ورغبة في تحصيل العلم والمعرفة الطبيعية ، ومــن ثــم حــاول اصطناع الصبر في دراسة الموضوعات التي يتناولها ، وقد ساهم ذلك كله فــي حصوله على قدر منها ، بل تم له ذلك في وقت قصير جداً[٢]، إذا قــورن بمــا حصله في العلوم الطبية.

من الثابت لدى المؤرخين أن هيكل قد برع في العلوم الطبيعية ، وبخاصــة في الجانب الحيوي ، حتى صار واحداً من أكثر المعدودين في أوربا المبرزين في ميدان دراسة العلوم الطبيعية ، وبخاصة لدى فلاسفة ألمانيا الطبيعيين، الذيـن رأوا في تقدمه انتصاراً حقيقياً لصالح العلوم الطبيعية[٣]، كما عبر هو عن ذلــك التقدم من خلال ما بثه في مذكراته الشخصية .

على كل فقد زاحم هيكل علماء الطبيعة مقاعدهم ونتائجهم ، وكانت جرأتــه هي المفتاح الطبيعي الذي يغشي به المجالس العلمية ، ولم تكن منزلته العلميــة هي التي تمهد لذلك ، ويذكر أنه كان سليط اللسان ، جاف العبارة ، غير مــألوف

---

(١) بدليل أنه اشتهر في ميدان العلوم الطبية ، كما اشتهر بين الناس حسن اختياره للدواء المناسب ، بعد تحديد العلة المرضية تحديدا سليما .

(٢)الدكتور/ محمد السيد ثابت ــ فلاسفة الغرب وكيف نفهمهم ص ١٧١ .

(٣)أرنست هيكل ــ مذكرات هيكل ص ٢٣

عند التعامل معه . ومع ذلك كان يقرأ كثيرا ويكتب كثيرا ، وكان يحاضر في فروع مختلفة من العلم .

يبدو أنه كان على يقين من أن المجتمع لن يتناسى ظروف أسرته ، كما لن يغير من اتجاهه العام نحوه ، ولذا أراد أن يقوم بعملية إنزال من فوق على رؤس الناس ، لا صعود من اسفل حتى يبلغ السلم على ما هو المعتاد[٢]، ومن ثم استغل قدراته في مجال العلوم الطبيعية،كما وسع من دائرته الثقافية وتنوعاتها وكان ولعه بهذا الجانب يدفعه للبحث عنه ، والارتحال في طلبه .

بناء عليه تنقل بين المدن الألمانية ، كما ارتحل إلى الدول الأوربية مستغلا الظروف البيئية والطبيعية بين هذه البلاد ، كما سافر إلى كل من برلين ، وفيينا ومرسيليا ، وبراغ ، وغيرها من المدن الأوربية التي اشتهرت بدورها الثقافي في العلوم الطبيعية أثناء تلك الفترة ، وقد مكنه ذلك الارتحال من الوقوف على المؤلفات التي صدرت في هذا الجانب ، فصار شبه متمكن منها إلى الحد الذي جعله يزاحم الكبار فيه ، ويسبقهم حتى يقف في مقدمة الصفوف .

لكن المؤسف له هو أن ثقافة الرجل لم تكن على وفاق مع إمكانياته القلبية ، ولا قدراته العقلية ، ومشاعره الذاتية ، فضلا عن الجو المحيط به ، وإنما كانت ثقافته أعلى من أخلاقياته ، أما اعتقاداته فقد كانت في الحضيض[١]، بدليل أنه لم يفكر ولو مرة واحدة في معرفة أي دين ينسب هو – هيكل – إليه ، بل الغالب أنه كان يرفض الدين على طول الخط ، وينظر إليه باعتبار أنه نوع من

---

(١) الدكتور محمد السيد ثابت – فلاسفة الغرب وكيف نفهمهم ص ١٧٧

(٢)ألفريه جيد – فلاسفة الغرب الطبيعين ج ١ ص ١٩٧ .

الاستخفاف بالعقول[(١)].

٢ – مشهوراته الخمسة : اشتهر عن أرنست هيكل عدة مشكلات صارت علما عليه وهي :

أ – المجاهرة بالإلحاد: [(٢)]

حيث كان يعلن إلحاده ، وأسباب رفضه للدين ، ويقاتل في سبيل ذلك دون أن يناله وخز من ضمير[(٣)]،أو يرده عن غيه شئ من حياء، بل كان يقول : إن زمن تأليه غير المادة الحية انقضى على الإطلاق ، ويستحيل وجود إله يقع في

---

(١) ذلك شأن الملحدين في كل زمان وأي مكان ، أنهم ينظرون إلى أهل الإيمان نظرة غريبة ، تقوم على الشك والريبة ، بجانب حسبان أهل الإيمان في عداد من لايعبأ بهم ، ولا يلتفت أحد إليهم ، والقرآن الكريم قص بعضا من مواقف أهل الإلحاد مع أهل الإيمان حيث أتهم الكافرون أهل الإيمان بالله مع نبي الله نوح عليه السلام بأنهم الأرذلون الذين يعيشون على ملئ بطونهم ، وليس لهم من هدف وراء ذلك ، قال تعالى:" فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين" سورة هود الآية ٢٧ ، ونفس الموقف منهم جاء تأكيدهم عليه :" قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون " سورة الشعراء الآية ١١١ ، وهم في سبيل ذلك ليس لديهم استعداد لسماع أي صوت يعيدهم إلى الصواب ، أو يردهم عن الغي ، فليس بعد الإلحاد بالله وآياته شئ آخر في العنف والضلال

(٢) الإلحاد هو الميل عن الحق وإدخال فيه ما ليس منه،وهو أيضا الطعن في الدين ، والملحد هو الطاعن في الدين المائل عنه ، راجع القاموس المحيط باب الدال فصل اللام ، المنجد في اللغة والأعلام مادة لحد ، وقطر المحيط باب اللام والحاء ، والإلحاد أنواع الأول: إلحاد في الدين باسم الدين ، كالذي يقوم به دعاة اليهودية ودعاة النصرانية وغيرهم ممن ينكرون نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعمومها وأبديتها ، الثاني: إلحاد في الدين باسم العلم التجريبي ، كالذي يقوم به المنطقيون ، والتطوريون ومن على شاكلتهم ، الثالث: إلحاد في الدين باسم عدم وفائه باحتياجات العصر كالذي يقوم به دعاة التنوير في أوربا ومن على شاكلتهم أينما كانوا، الرابع: إلحاد في الدين باسم التحرر أو رفض القيود الشرعية كالذي يمارسه الإخوان الجمهوريون في السودان ومن على شاكلتهم ، والله تعالى توعدهم جميعا بالهلاك في الدنيا والإلقاء في النار يوم لقائه تعالى في الآخرة ، قال تعالى:" إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير" سورة فصلت الآية ٤٠ .

(٣) الشيخ علي عبد العظيم الاسناوي – دين الله لا دين الشيطان ص ١٣٧ ط دار الجهاد الإسلامي دمشق ١٣٣٥هـ .

مجال الغيب[١]، كما أنه لم يعترف بالإله الخالق أبدا ، فكان تطوريا ، كما كان وضعيا ، وينطبق عليه أن أهل الكفر جميعا ملة واحدة ، وكان يعلن في صراحة تامة أنه إذا كان من الضروري الاعتقاد في إله ، أو التصديق بفكرة وجود الله فليكن هو الطبيعة الملموسة ، ولا شئ غيرها ، ولذا اعتبره النقاد زعيم الإلحاد العلمي في الداروينية[٢].

لقد أعلن الحرب على الدين ، وجمع صنوف الملحدين،ثم سارع إلى قيادة هذه الحملة في إصرار بالغ ، وعناد شديد ، زاعما أن مبعث الدين هو الخرافات والأساطير التي نقلت عن الأقدمين ، وينعتهم بأنهم الذين فقدوا القدرة على التفكير العلمي الصحيح ، وارتضوا أن يكونوا عميانا ، مع أن الطبيعة منحتهم عقولا يفكرون بها ، وعيونا يبصرون الكون من خلالها .

ب ـ القول بوحدة الوجود الطبيعية :

كان هيكل يزعم أن الكون كتلة واحدة بكل ما فيه من مواد وتراكيب ، وأن هذه الوحدة في الموجودات ذات نظام آلي،بمعنى أن الكون هو الذي خلق نفسه ، وأن هذه العملية تمت من الداخل ، ولم يخلقه خالق متميز عنه ، بحيث ينفصلان في الوجود من حيث المفهوم ، أو السبق الزماني[٣]وإنما الوجود وهو الطبيعة ، والطبيعة هي الله على فرض القول به ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ هو بهذا يعيد للأذهان مزاعم الماديين جميعهم ، كما يدرج نفسه بإرادته في سلسلة الملحدين ، حيث كان يعتقد أن القول بوجود خالق للكون منفصل عنه ، وليس جزءا منه،وهم وخيال،قام في عقول السذج الذين أخذوا من خرافات أهل الأديان

---

(١)أرنست هيكل ـ مذكرات هيكل ص ٥٧ .

(٢)الدكتور هاشم السيد جابر ـ أرنست هيكل وفلسفته ص ١١٥ ط الثانية بالمغرب ١٩٦٥م .

(٣) فكرة تقدم الله تعالى على الموجودات بالزمان فكرة ساقطة ،لأن الزمان بكل معانيه مخلوق لله،فلا يمكن أن يكون قدم وجود الله مع المخلوقات من باب السبق الزماني ، وإنما نؤمن بأن الله تعالى كان ولا شئ معه .

من متقدمي بابل وآشور. أو أخذوا من خرافات سالفي الساميين ، وأساطيرهم ، ومنها روايات موسى التي كانت مصادرها قصص البابليين،وخرافات الكلدانيين وخزعبلات الكنعانيين ، الذين طواهم الزمان القديم[١] .

ج ــ **المعاندة في نشر الأفكار والمعتقدات الفاسدة:** حيث متى يظن هيكل أن هذه الفكرة صواب ، فإنه ينحول معها إلى معتقد لها ، يدافع عنها ، ويعاند في إعلانها ، ويكثر من الخوض فيها ، دون مبالاة بعرف قائم ، أو قاعدة سلوكية مستقرة ، أو التزام الشرع الإلهي ، أو مراقبة لحرمات قائمة ، وذلك العناد كان أحد العوامل التي دفعت به إلى إعلان تاليه الطبيعة ، وإنكار وجود الله العظيم جل علاه[٢]، بل أن المعاندة التى كان يوليها العناية الشديدة ، لم تقدم له نفعا بقدر ما ألحقت به من هلاك وأضرار .

د ــ **القول بالتولد الذاتي :** وهذه الفكرة قائمة في طبيعة ومفهوم الفكرة الثانية ــ القول بوحدة الوجود الطبيعية ــ صياغة المبادئ في الدروانية ، أتفقوا على تسمية هذا الجزء من الفكرة الثانية باسم التولد الذاتي ، بمعنى أن الكون لم يصدر عن خالق حكيم قادر له من صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام أعلاها،وإنما تم هذا الخلق عن طريق النشوء الطبيعي، والحركة الذاتية الأبدية ، الملازمة للمادة من الأزل ، وما تزل قائمة معها ، وستظل في دورة آلية لا تنقطع[٣].

---

(١) الدكتور هاشم السيد جابر ــ أرنست هيكل وفلسفته ص ١٧٣ وراجع لأرنست هيكل فصل المقال في النشوء والارتقاء ص ٩ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٤م .

(٢)الأستاذ محمد أحمد باشميل ــ الإسلام ونظرية داروين ص ٤٧ .

(٣)ولاشك أن القول بقدم المادة وأزليتها قول باطل ، متى قصد بمفهوم القدم قيامها على الذاتية ،وعدم الاحتياج إلى رب البرية جل شانه ، أما إذا قصد بها القدم الزماني فهذا ما لا نزاع فيه ، إنما النزاع في المفهوم المترتب عليه من الإيمان أو الكفر .وذلك مما يستلزم ضرورة تحديد معنى الزمان

ورغم أن فكرة التولد الذاتي ، أ التولد التلقائي ،لا تقوم على أسس منهجية ولا أصول صحيحة ، بحيث يمكن النظر فيها بعين التفكير العقلي ، إلا أن هيكل رفض الانصياع لغير ميله الشخصي ، وسلطان هواه ، فأصم أذنيه عن نداءات أهل الحق ، وأغمض عينيه عن النظر في الكائنات من حوله[1] ، بل كان يتناول آراء الناصحين له ، أو مخالفيه بالتسفيه الحاد ، بجانب القسوة الشديدة ، والنقد اللاذع القائم على الفوضوية والاندفاع [2]، بحيث ينفر الناس منه ، ويصرفهم عن محاولة الجدل معه .

هـ ـ ميكانيكية التطور :

زعم هيكل أن العالم يمثله التطور بل هو الصيغة الطبيعية ، والعنوان الصحيح عليه ، وأن هذا التطور الميكانيكي نقطة البداية فيه ، أو الانطلاق هي الذرة ، ثم يقع التطور في ذات الذرة فيكون الجزئ المتطور ، ثم الحيوان ذي الخلية الواحدة ، ويستمر الحال حتى يصل إلى الحيوانات الفقارية واللافقرية ، كما يقع تطور داخل الفقاريات فيظهر الثدييات ، وفي قمة التطور لها تجئ القردة العليا ، واصبح الشعار العام عنده هو أن الإنسان ينحدر من سلالة القرود وقد سوى هيكل بين العقل والإحساس والطاقة ، وهذا يعني أن العقل في نظره لا يختلف اختلافا جوهرياً عن المادة[3].

وقد أغضب ذلك السلوك غير السوي الكثيرين من أفكار هيكل العبثية ، وجعل أسهم قبوله بين أصحاب الآراء القابلة للمناقشة في تناقص مستمر ، كما أن أرصدته صارت كأوراق الخريف ، تتساقط من التولد الذاتي ، كما كان نفس

---

(١) ولو نظر في الكائنات من حوله لأدرك أن الله تعالي هو الخالق لها جميعاً ، القادر على اخراجها من العدم ، أو إعادتها مرة ثانية ومرات عديدة إلى العدم من جديد

(٢) وهذه العادة من سلوكيات الملاحدة الذين لا عناية لهم سوى بالجدل وتجريح الآخرين ، واتهام الأبرياء

(٣)الدكتور محمود حمدي زقزوق ـــ تمهيد للفلسفة ص ٢٠٠ ط الثانية مكتبة الأنجلو المصرية ص ١٩٧٩م

الصنيع من الكنيسة التي رفض رجالها دخول هيكل إليهم ، ولم يحتضنه سوى مجموعة قليلة من العناصر اليهودية ، التي اندست بين أفراد المجتمع ، إندسلس الجراثيم بين حبات فاكهة تركت في العراء .

يقول الدكتور الجمل : لقد امتاز هيكل عن الجميع بأنه أعلن الحرب على الدين إعلانا صراحاً ، وقاد الحملة ضده في إصرار وعداء سافرين ، لم يستطع أكثر المتحمسين للنظرية ، بل ولا دروين نفسه أن يجهر بهما كلية ، كما نرى هيكل ينعي على المؤمنين استبعاد أن يكون العالم قد نشأ بذاته ، كما يقول لفيف من التطوريين ، من غير علة أولى فاعلة ، ويشجب قول هؤلاء المؤمنين ، بأن العالم مخلوق لله ، وفق الحكمة والمشيئة[1].

أما أحرار الفكر الأوربي أو التنويريون — كما يزعمون — فقد رفضوا أفكار هيكل جميعها ، وبخاصة ما يتعلق منها بالقضايا الإيمانية ، كما أن رجال اللاهوت قد رفضوا أفكاره كلية ، وحرموا النظر فيها ، وأعلنوا تكفير من ينظر فيها ، بل أقاموا الصلوات الخاصة بهم حتى لا تدخل روح هيكل الشريرة إلى محافلهم[2] كما منعوا هذه المؤلفات من التدريس،واصدروا قرارات حرمانية تتعلق به ومؤلفاته ، وقامت السلطات بتنفيذ إرضاء للكنيسة والرأي العام[3] .

لقد كان بوسع هيكل أن يفكر وأن يبذل في ذلك كل طاقته ، أما أن يقف بتفكيره إلى ما هو ابعد من إمكانياته ، فقد أسرف على نفسه ، وحملها ما لا قبل لها به ، كما ساهم هو ذاته في الحكم عليه ، بأنه لم يكن صاحب عقلية سليمة ،

---

(١)الدكتور أحمد عبده حوده الجمل — في المذاهب المعاصرة ص ١٤٤ .

(٢)الدكتور / حوري أحمد نجم — أرنست هيكل وفلسفته ص ٢٠١ .

(٣)الدكتور / حسن السيد طوقان ، ملامح الفلسفة الحديثة ص ١٩٨ / ١٩٩ .

وأن مؤلفاته التي حملت آراءه في الطبيعيات ، لم تكن علـــى نفـس المســتوى المطلوب ، ممن ينصب نفسه متحدثاً باسم العلم ، مطالباً بالتنوير .

على كل ترك أرنست هيكل جملة من الأبحاث تحمل آراءه في الطبيعيات ، وتطور الكائنات ، كما تعبر عن وجهة نظره في الدين والسياســة والأخــلاق ، وفي نفس الوقت تنقل للقارئ رأي هيكل في الحياة على وجه العموم ، مما يجعل الدارس يعتبرها المصدر الأساسي، لمن يحاول إبراز فكر هيكل وفلســفته ، إن كان له في هذه المباحث ما يسمى فكراً أو فلسفة[1].

٣ ــ أهم مؤلفاته :

أهم الأبحاث والمؤلفات التى حملت آراءه ، ونقلتها إلى الرأي العام ، فيمـــا بعد ونسبت إليه ولم يذكرها الدارسون ما يلي :

١ ــ أحجية الكون ، وهو نفسه كتاب ألغاز الكون ، وقد نشره عام ١٨٩٩م .

٢ ــ تاريخ الخليقة .

٣ ــ عجائب الحياة .

٤ ــ علم التركيب العضوي .

٥ ــ نشوء الإنسان ، وهو ذاته فصل المقال في فلسفة النشوء والارتقــاء الــذي طبع بالقاهرة عام ١٩٢٤م ترجمة مسعد حسين ، وقد نشر أيضا تحت اسم فصل المقال في التطور ، وتم نشرة عام ١٩٠٥م .

٦ ــ الحلقة الأخيرة .

٧ ــ علم الطبيعة .

٨ ــ الرسم البياني للشعاعيات .

---

(١)الفكر في نظري تقليب الرأي على الوجوه المختلفة طبقاً للمعايير الصحيحة ،أما الفلسـفة فهي التحاور مــع الآخر ، واعتبار الأنا الآخر هو المتحدث الرسمي ، فشأن الفيلسوف الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى كمــا يجب أن يستمع الآخرون إليه .

٩ ــ محاولات طبية
١٠ ــ اللافقريات .
١١ ــ تطور الكائنات العضوية .
١٢ ــ مذكرات هيكل[١]

ولاشك أن هذه الأبحاث المتعددة قد حاول هو نفسه أن تكون موســوعية ، بمعنى أن يتناول في كتاب الطبيعة ما يعن له قوله في الأخلاق ، ويتناول كذلــك ما يقابله في الدين ، ولم تكن موضوعاته متخصصة من حيث البحث والدرس والاستقصاء ، سوى في مجال التاريخ الطبيعي وحده ، ورغــم هــذه الأبحــاث المتعددة في المجالات المختلفة،إلا أنه لم يفكر في الوصول للحق ، ومن ثم طبــع الله على قلبه ، فلم يرجع عن غيه وضلاله ، ويبحث عن طريق الهدى والرشــاد كما لم يعمل على الخروج من دائرة الكفر التي أدخل نفسه فيها ، وتبناها وقتــاً طويلاً ، وإنما أكد على الإلحاد طوال تاريخه ، واستمر فيه ، ولم يرجع عنه.

٤ ــ تقييم أفكاره :

من غير شك أن عقلية هذا الرجل لم تكن على المستوى اللائق،ولا ما يتفــق مع عمره الزمني الذي قضاه في البحث ، مما يؤكد ما سبق القول به ، من أنــه كان ثوري النزعة[٢]، إلحادي المعتقد ، غير سوي السلوك ، لا يعــرف للحــق وجهاً ، ولا للشرع حرمة .

ربما يقال : أن هيكل قد تأثر بداروين إلى هذا الحد من الإلحاد ، وأنــه إذا كان توماس هكسلي قد أسمى نفسه كلب حراسة دارون[٣]، فإن أرنســت هيكــل كان هو المتحــمل عبء الدفاع عن أفكار دارون ، وشأن التابع التأثر بالمتبوع،

(١)الأستاذ : محمد أحمد باشميل ــ الإسلام ونظرية داروين ص ٣٨
(٢)أرنست هيكل ــ مذكرات هيكل ص ١١٩
(٣)الدكتور أحمد الجمل ــ في المذاهب المعاصرة ص ١٣٩

وبالتالي تكون علاقة هيكل بداروين هي التي فرضت عليه ذلك السلوك اللاإيماني،أو أن داروين نفسه قد دفعه إلى ممارسة الإلحاد ، والإعلان عنه في صراحة شديدة ،بحيث يكون هو كبش الفداء في مواجهة الرأي العام والكنيسة.

بيد أن هذا الاحتمال غير وارد أصلا في هذا المقام ، لأن أرنست هيكل كانت حياته غامضة في أغلب مراحلها ، وإمكانياته كحياته فيها القلق والاضطراب ، كما كان فيها الاندفاع المتهور ، ومثله لا يؤثر فيه لقاء عارض بداروين ، أو حتى لقاءات قصدية متعددة [١].

وعلى فرض أن هناك لقاءات تمت بين داروين وارنست هيكل ، وأنها كانت مقصودة ، فإنها تكون قد وقعت بعد أن بلغ هيكل مرحلة النضج الفكري وتجاوز مرحلة التلقين والتلقي ، بدليل أن أول لقاء تم بينهما كان في عام ١٨٦٦م وكان هيكل قد تجاوز الثالثة والثلاثين من عمره ، كما كان لقاء عابرا ، لم يدم سوى سويعات ثم افترقا ، وبعد أن كانت لهيكل مواقف ثابتة وقضايا متعلقة به ، وكانت كلها سابقة على هذا اللقاء ، فدعوى تأثره بداروين إلى هذا الحد من الإلحاد ، فيها مغامرة غير محسوبة النتائج .

كما أن أفكار أرنست هيكل كحياته ، منذ بدايتها وهي طافحة بالإلحاد ، ممتلئة بألوان الكفر، غير مقبولة حتى من أكثر الناس قربا منه ، ومن ثم فإن دعوى تأثر هيكل بداروين إلى هذا الحد من الأخلاقيات المتدهورة[٢]، تكون غير مقبولة ، لأن داروين نفسه لم يعلنها ، كما لم يجاهر بها ، في الوقت كان يسعه إعلانها لو أراد ، كما أنها تجعل هيكل مجرد ، إمعة ،يجري خلف أفكار داروين ويسعى لالتقاط شئ من بريقها الزائف ، أو طبيعتها الإلحادية .

---

(١)جان باستير ـــ اتجاهات الفلاسفة في الغرب ص ١١٧ ترجمة الأستاذ فرج زكي ١٩٦٣م .

(٢) لم يكن هيكل يستحي من هذه السمة الإلحادية ، وما كان يخفيها بل كان يفاخر بها،ويعلن دائما أنه مؤمن بالتطور وحده كافر بما وراء ذلك .

أجل كان ارنست هيكل يقول : عن لقائه الأول بداروين أن ذلك اليوم من أعظم ساعات حياتي[١]وهو في معرض اظهار حبه له ، واحترامه لأفكار داروين ، ولكن ليس معناه أنه تحول إلى صورة مستنسخة من داروين ، أو أنه يطبق خطة الحادية وضع جزئياتها داروين ، وراح هيكل ينفذها طبقا لما تم الاتفاق عليه ، أو أنهما نسخة واحدة في جسدين ، لما سبق القول به من أن أرنست هيكل كانت لديه نزعة إلحادية طافحة ، وفي أعماقه جذور الإلحاد بالله ضاربة .

كما كان ايمانه بالمادة وتأليه الطبيعة من أكثر المظاهر في حياته وفوق ذلك فقد كان يعتقد في منهج البحث العلمي التجريبي وحده، وعدم الاعتداد بشئ غير محسوس ، أو قائم على فكرة وجود موجودات غير محسوسة .

على كل انتهت حياة هيكل مع نهايات العقد الثاني من القرن العشرين عام ١٩١٩م حين كانت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها ، ولكن أفكاره ستظل مثيرة في النفس التقزز ،كما تنشر بين الناس السخط ، وتنادي بالكراهية الشديدة له ، بل أنها ستظل إلى فترة محل قبول واستنكار ، شأن الكثير من الأبحاث التي لم تقم على أصول صحيحة ، ولا مناهج علمية مدروسة .

وأياما كان الأمر ، فإن من يركبون متن موجة التطور في أوربا كثيرون ، بعضهم تقدم بها خطوة،وبعضهم ظل يردد ما قاله السابقون عليه، من التطوريين قبله ،كالحال مع توماس هكسلي الذي أطلق على نفسه كلب حراسة داروين ،كما دافع عن أفكار داروين بأكثر مما يمكن أن يفعله دارون نفسه ، بل سعى في نشر مذهب الارتقاء على الناحية التطبيقية[٢]، وذلك من خلال نشره لكتابه مكان

(١)الأستاذ / محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ص ٤٤ .

(٢)هنتر ميد ـ الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ص ١٠٧، ١٠٩ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ط القاهرة عام ١٩٧٥م

الإنسان في الطبيعة ، وكذلك كتابه معرفة الظواهر الحية[١].

وقد اكتسب توماس هكسلي شهرة واسعة لمجرد أنه قام بالدعاية للمذهب التطوري لداروين ، ولم يقدم جديدا يذكر ، لأن قوله بالتولد الذاتي ، وتسلسل الإنسان عن الحيوان،قد سبقه إلى القول بهما كثيرون ، وكذلك قوله أن الإنسان قد نشأ عن القرود ، وأن التشابه بين الإنسان والقرد أكثر من التشابه بين القرد الراقي والقرد المتدني .

وما أظنه إلا ذات القرد ، لأن الخلق من فعل الخالق العظيم ، وهو الله سبحانه وتعالى الذي قال: "ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين" ، ولم يقل من سلالة قرود ، ولا يمكن تفسير الطين بأنه القرد أبدا ، إلا إذا كان القائل بهذا الفهم المغلوط أو المصدق به هو ذاته من فصيلة القرود ، ويتحدث عن نفسه حديث الكاذب فيه .

أما القس الإنجليزي توماس روبرت مالتوس ، فلم يكن يهدف إلى إنشاء النظرية التطورية[٢] أو تقديم أي لون من الدعم لها ، وإنما حملت أفكاره بعض البذور في العالم الجيولوجي استطاع التطوريون الإحيائيون استخدامها من خلف ظهره ، وبعيدا عن الاتجاه العام الذي يشكل فكره ، ولذا فحسبانه من القائلين بالتطور الإحيائي يمثل مجارفة في القول ، كما يؤكد أن أقواله أرغمت على الإدلاء بمعلومات لم تكن قائمة في أصولها[٣].

---

(١) يرى البعض أن توماس هكسلي كان يسرع إلى تطبيق الأفكار التي يعتقدها في المجال الحيوي ، وأنه طبق هذه النظرة على الإنسان ، قبل دارون ـــ راجع نقد فلسفة دارون ج ١ ص ٢٤ ، نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٣٩ وما بعدها .

(٢) على أساس أن مالتوس لم يكن عالما احيائيا ، وإنما كان ناسخا في مكتبة الدير ، وأنه وقع على تلك الأفكار في المجال الاجتماعي ، فطبقها على الناحية السكانية فقط .

(٣) ولا يمكن أن يحاسب مالتوس على شئ لم يقصده ، ولم يضع في حسبانه ان تكون هذه الأفكار ضمن النظرية التطورية .

لكن ظهرت جهود هربرت سبنسر في ذات المجال ، وأنـــه اســتطاع اجــتزاء بعض من أفكار لامارك ، ثم طور فيها على طريقته ، وأخيرا أضافها لنفسه[١] ، وبخاصة فكرته عن انتقال الصفات المكتسبة التي قال بها من قلبل لامارك، ومن مثله أرازموس داروين ، إذن ليس من الصواب القول بأنه قدم إنتاجــا جديــدا ، وإنما كل ما فعله أنه دفع بالنظرية دفعا قويا إلى مجال التنفيذ العملي، كما يمكـن اعتباره رجع صدى لأفكار لامارك على وجه الخصوص ، ولكنه حمــل لاقتــة الدفاع عن الداروينية ككل .

فإذا جئنا إلى لويس باستير كانت المفاجأة أنه قدم بحوثا قصيرة ، وفي نفـس الوقت كانت تجئ على جانب ناتج عن الأحياء وليس من الأحياء ذاتها[٢] ،وقولـه بالتطور لم يكن مدعما بأدلة جديدة، أو قائما على أصول لم يسبق غليها ، وكذلك الحال مع ليسلي أورجل وغيره ممن وجدوا عناية شديدة ، ودعما متواصلا مــن الصهيونية العالمية ، لأن ظهور هذه الاتجاهات كان مصاحبا ، لمؤتمــر بــازل الذي حرصت الصهيونية العالمية فيه على إعلان النوايا ، والعمل علــى إنشــاء وطن قومي.

أما ماندل وقوانين الوراثة[٣] ، فقد كان له الكثير من الجهود التــي دعمــت الفكر التطوري ، أو أنه أمكن استغلال آرائه،واستنطاقها حتى تكون داعمة للفكر التطور الإحيائي الذي قال به من سلف الحديث عنهم،وكذلك الحـــال مــع دي فريز الهولندي ١٨٤٨ـ١٩٣٥م صاحب نظرية الطفرة التــي وجــهت إليــها إنتقـادات عديدة ابسطها أن هناك طفرات ضارة ، ومعظم الطفريات متنحية .

ولن يعدم هذا الإتجاه بعض الأعوان الجدد الذين ينضمــون للفــكرة ، أو

---

(١)أندريه جيد ــ فلاسفة الغرب الطبيعين ج ١ ص ١٩٨ .

(٢)أ . ب روبرت ــ اعلام الداروينية ص ٢٢٧ .

(٣) تعرضت لهذه القوانين أثناء مناقشة الأفكار التطورية في الباب الثالث .

يغريهم بريقها الخادع ، شأن كل عمل يقبل عليه البعض ،ويدبر عنه اخـرون ، وكلما أثبت ذلك العمل ما فيه من منفعة ، فإن النفس تتوجـه إليـه ، وإذا ثبـت العكس ، فإن أي عاقل يرفض إضاعة الوقت فيه ، على سبيل المتابعـة لـه ، بدليل أن المبادئ الأساسية التى قامت عليها فكرة التطور تحتاج ملايين السـنين للتأكد من صدقها[١] ، ولما كان المنهج العلمي في الدراسات الطبيعية يقوم علـى ضرورة التجريب ، وأفكار التطوريين ، لا يمكن التجريب عليها، والتأكد منـها ، فإنها على الأقل تعتبر فروضا خيالية ، وأفكارا ناقصة .

كما أن الحديث عن تطور الكائنات الحية من خلال الانتخـاب الطبيعـي ، وطريقة التعبير عن دورات الحياة في صورة كيماوية تربطها بالطبيعة كلـها[٢] ليس من الممكن الاحتكام إليه على ناحية التصديق به ، إذ أن ذلك مما يبعد تماما عن دائرة التطبيق العملي .

٥ ـ موقفي منهم بوجه عام :

لاشك أن هذه الرؤس التى تحدثت عن التطور من هذه الناحية ، لـم تنـل القبول العلمي والاجتماعي ، كما لم يوفقوا إلى ما ذهبوا إليه من الناحية الإيمانية العقدية ، ولا المعرفية أيضا ، أما لماذا ؟

فلأن المسائل التي تعرض لها داروين هي بذاتها داخلـة ضمـن القضايـا الإيمانية من ناحية الحكم عليها ، لأنها تتعلق بأصل الخلق ، وإعادة النظر فيـه ، على أنه موضوع معرفي فلسفي ، مع أنه ليس كذلك ، ثم إن النقل المـنزل قـد حسم القول في اصل الخلق ، كما هو الشأن في كل القضايا المتعلقـة بالعقيـدة الإيمانية ، وبناء عليه فإن أفكار داروين ومن معه ،لا تخرج عن كونها مجـرد

---

(١) والتطوريون يقولون ان تحول المادة الصماء إلى خلية حية استغرق ملايين السنين ، فـهل كـانوا أحيـاء يراقبون الموقف حتى كانت مشاهداتهم هي الفيصل في المسألة ؟؟

(٢)جاكوب برونوفسكي ـ التطور الحضاري للإنسان ـ إرتقاء الإنسان ص ١٩٠

افتراضات ، أو خيالات عقلية مرفوضة،عندنا عقلا وشرعا وعرفا، ولسنا نقبلها أو نرتضي القول بأنها[١].

ثم إن هذه الأفكار — على النحو الذي عرضه التطوريون — في جملتـها ، لا تولي عناية بالقدرة الإلهية ، كما لا تلتفت إلى السنن الكونية ، وإنمـا تجعـل الطبيعة الصماء تتحرك تلقائيا ، ثم تحدث فيها العمليات الانقلابية الهولامية مـن ذاتها ، وكأنها عاملة ، وهو تناقض غريب ، واستخفاف بالعقول ، إذ كيف يوجد عقل متميز عن مادة صماء غير عاقلة[٢]، وفاقد الشئ لا يعطيه .

بل إن ما ذهب إليه داروين في هذا المضمار ، قد أوقع الناس فـي حـرج ديني شديد ، إذ لا يعقل أن يكون الإنسان العاقل ، والسمكة التي يأكلها ، والقـرد الذي يلعب به ، والحمار الذي يركبه ، والحصان الذي يمتطي صهوته ، والفـأر الذي يقتله[٣]، كل هذه الكائنات المختلفة،قد جاءت من مبدأ إحيائي واحد طبيعـي لا دخل لقدرة الله فيه.

أو أن عملية النشوء فيهم واحدة ، من الناحية الطبيعية ، وأنها جميعا كـانت في صراع مرير سريع متتابع ، وأن عملية الغلبة قد تمت لأحدها فانتصر علـى الآخرين ، حتى صار المنتصر هو الإنسان ، بينما المهزوم هو الحيـوان الـذي

(١)ربما يقال إن هذا الحكم يفقد الدارس الموضوعية ، كما يفقد الدراسة ذاتها الحيدة ، لأنها أحكام صـدرت قبل دراسة الفكرة التطورية الإحيائية ، وبالتالي لا تخرج عن كونها مصادرة على المطلوب ، والجواب أن هـذا الاستنتاج غير صواب لأني هنا أتحدث إلى موقفي العقدي وليس المعرفي ، والفرق بينهما كبير جدا ، لأني مسـلم والله عز وجل أمر بالعدل في قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكـم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" سورة المائدة الآية ٨.

(٢) والبديهة بل والفطرة السليمة تحكمان بأن هذه مجرد افتراضات لا قيمة لها ، لأنها تسقط من حسابها الفرق بين الكائن الحي ألا وهو الإنسان ، وبين الكائن غير العاقل وهو الحيوان .

(٣)والفرق بين الإنسان والحيوان منصوص عليه بالتكريم للإنسان على غيره في قوله تعالى:" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم " سورة التين الآية ٤ .

يمشي على أربع ، أو أنه الحيوان الذي يطير بجناحين ، أو يسير على قدميـن ، أو يزحف على بطنه ، أنها أوهام جدلية ، وافتراضات تغذت بـالعداء الفكـري والتعبئة اللاشعورية ، وتخالف النصوص الشرعية التي دلـت علـى سـنن الله الكونية ، في الخلق والإحياء ، من ذلك قوله تعالي : " والله خلق كل دابة مـن ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشـي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير "(١).

كما أن هذه الأفكار الافتراضية تخالف النصوص الشرعية ، والقطعية فـي ورودها الواضحة في دلالتها ، لأن الخلق صنعه الخالق ، وهو وحـده القـادر عليه ، ومن ثم فهو وحده القادر على التعريف به ، والحديث عنه ، بنفس القـدرة على إيجاده وإعدامه ، وهو سبحانه وتعالى القائل :" ومـن كـل شـيء خلقنـا زوجين لعلكم تذكرون"(٢)، والزوجية قائمة في مفهومها على كـل المخلوقـات العاقلة ، وغير العاقلة ، ما ندركها في طبيعتها ، وما لا ندركها ، وسواء أكـانت الزوجية على المفهوم النوعي كالذكر والأنثي ، أم المفهوم العـددي كـالأرض والسماء(٣)، فإن ذلك من أفعال الله تعالى ،وهو وحـده القـادر علـى إيجادهـا والتصرف فيها ، بجانب الحديث عنها ، ومن أصدق من الله حديثا.

من ثم فإن هذه الأفكار التطورية الطبيعية خالفت فـي المبـدأ والمنتـهي النصوص النقلية ــ القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المطـهرة ــ التـي ذكرت في وضوح تام ، وتحديد دقيق مبدأ الخلق لكل كائن على حدة ،وبينـت أن كل نوع منها تمثله قاعدة ثابتة .

---

(١) سورة النور الآية ٤٥ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٣) وهذه الزوجية قائمة على المثلية في قوله تعالى :" الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتـنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما" سورة الطلاق الآية ١٢ .

فمثلا الجن خلقه الله تعالى من نار ،قال تعالى:" والجان خلقناه من قبل من نار السموم"[١]، والملائكة خلقهم الله تعالى من نور ، أما الإنسان فقد خلقه الله تعالى من طين وفي الحديث الشريف ، خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم[٢]، وفي رواية مسلم خلق الله الملائكة من نور العرش وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم[٣].

ثم إن هذه المخلوقات قد خلقها الله تعالى على ما هي فيه ، من غير زيادة عليها أو نقصان منها ،وأنها جميعا قد خلقت من مبادئ متكاملة متمايزة ، راجعة في أصولها كلها إلى الله تعالى وحده،وبالتالي كان التحدي فيها قائما،قال تعالى : " أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت"[٤]، فلم يحدث تطور على الإبل ، لأن الله لم يقل كيف تطورت ، إنما الخلق ثبات الشئ على ما هو قائم في أصله ، واستمرار ذلك فيه دليل العناية الإلهية "الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين[٥]فتبارك الله أحسن الخالقين"[٦].

ويبدو لي أنه كانت تقف خلف أصحاب الاتجاهات التطورية الإحيائية أغراض ودوافع غير طبيعية ، تقوم في أغلبها على الرغبة الشديدة لتصفية الحسابات مع الكنيسة باسم العلم التجريبي ، وهو سمة العصور الوسطي ، وعصر النهضة أيضا في أوربا ، لأن الكنيسة ورجالها قد ضيقوا على هؤلاء المفكرين إلى أبعد مدى ، فلما أتيحت لهم فرصة مبادلة الكنيسة عنفا بعنف، لم

---

(١)سورة الحجر الآية ٢٧ .

(٢) الإمام أحمد،مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ١٥٣ ، وسنن الإمام البيهقي ج ٢ ص ٣ ومصنف عبد الرازق المدني ٤ ٢٠٩٠

(٣)الإمام مسلم ـ صحيح مسلم كتاب الزهد ص ٦٠ .

(٤) سورة الغاشية الآية ١٧

(٥)سورة السجدة الآية ٧

(٦) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

يتأخروا عن ذلك[١]، وإنما اعتبروها فرصة ، ثم أسرعوا إلى القيام بها .

لقد كان التطوريون يرون في العلم التجريبي أحد وسائلهم في استرداد كرامتهم ، التي سلبتها منهم الكنيسة ورجال اللاهوت المسيحي ، واليهودي على حد سواء،بدليل أن الأفكار التي نادوا بها،قد أحدثت زلزلة عنيفة في أوربا كلها ، كما هزت قواعد الكنيسة هزا شديدا ، واستطاع التطوريون إنزال القداسة التي كانت لرجال اللاهوت من نفوس أفراد الشعب ، كما دفعت برجال اللاهوت أنفسهم إلى الانزلاق نحو تلك الحركة ، التي لم يكونوا مستعدين لها[٢].

فتحولت أرض الأفكار الأوربية إلى ساحات قتال ، وحملات ومداهمات متوالية ، لم تفلح الكنيسة في إحراز أية انتصارات بشأنها ، كما لم تنجح في إطفاء النيران التي تأججت حولها ، بل كان بعض رجال اللاهوت جزء من الوقود الذي جعل المعركة تزداد اشتعالا ، ونيرانها تشتد ضراوة .

بناء على ما سلف يمكن القول بأني قصدت بتقديم تلك المسيرة التاريخية ، لأولئك الذين سلف ذكرهم التطوريين الطبيعيين عدة أمور :

الأول : إبراز دور الحصانة الإيمانية ، والحماية الروحية ، لأبناء الإسلام الذين لديهم الزاد الكافي ، والدواء الشافي ، المتمثل في القرآن الكريم ، وصحيح السنة النبوية المباركة ، وفي الحديث الشريف : تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي ،ومن ثم فلا يمكن لمسلم أن يتخلى عنهما ، أو أي منهما ، وإلا لم يكن مسلما أبدا .

---

(١) والمبدأ الطبيعي يركز على أن كل فعل له رد فعل متكافئ معه ومساو في المقدار .

(٢) ولاشك أن ظهور ذلك التيار في أوربا قد ساعد على إذكاء المقاومة ضد بقايا محاكم التفتيش، بل أنه قد اشتد عوده ، وظهرت قوته في ذات الوقت الذي بات تيار الدفاع عن الكنيسة ضعيفا ، حيث لم يتمكن رجال اللاهوت من احتواء الأزمة ، وتقديم العلاج الحاسم السريع ، أو إصلاح ما أفسده عنف محاكم التفتيش أو حتى تهدئة الخواطر الثائرة أو تجفيف المنابع التي امتلأت بحصيد القتلي والحرقي من محاكم التفتيش ، كما لم تنجح في كسر الطوق الذي أمسك به الشباب المندفع باسم العلم ضد الدين والكنيسة تحت شعار التنوير

الثاني : إبراز دور الفراغ الديني والخواء الفكري الذي يتحول في الإنسان إلى وحش كاسر، فينقلب بصاحبه إلى الإلحاد ، بحيث يصير وجوده من أكثر الأمور خطرا على الكائن العاقل المفكر خليفة الله في الأرض ، لأن الإلحاد نقيض الإيمان والعقيدة الصحيحة ، لكن الإيمان تتصلح به الأحوال ، أما الإلحاد فإنه يدمر كل شئ ، ابتداء من صاحبه حتى آخر واحد ممن يتعاملون معه .

الثالث: بيان أن القائلين بالتطور الإحيائي ، الذين ينسبون الخلق إلى الطبيعة من التولد الذاتي ، والتحولات إلى الانتخاب الطبيعي ، أو التنازع من أجل البقاء ، أو غير ذلك قد أخفقوا ، ولم تكن لديهم أدنى رغبة في الوصول للحق ، كما لم تكن عندهم رغبة في خدمة العلوم التي انتسبوا إليها ، ومن ثم فإن متابعتهم في ذات الأفكار تمثل جريمة علمية ودينية وأخلاقية .

الرابع : التحذير من الاغترار بهم ، أو الظن بأنهم كانوا على قدر من التدين أيا كان نوع الدين الذي إليه ينتسبون ، إنهم افترقوا من هذه كلها ، ولم يعد هناك من قول إلا بأنهم عصابة من الأشرار ، وقطيع من الأغنام الضالة ، أو الذئاب المفترسة ، وفعلهم لا يجئ معهم إلا بالخراب والدمار(١)، والحذر منهم واجب شرعي ، والتحذير منهم نصيحة إسلامية .

---

(١) الدكتور محمد عبد العظيم قمرة ــ الفلسفة الحديثة في ميزان النقد ص ١٣٥ ط الثانية ١٩٧٥م .



الباب الثاني

التطور الأحيائي بين الموضوعات والأدلة

الفصل الأول : موضوعات التطور

الفصل الثاني : المراحل التطورية

الفصل الثالث : دوافع القول بالتطور الأحيائي

الفصل الرابع : أدلة التطور الأحيائي ومناقشتها

مدخـــــــل :

تعتبر مسألة البحث في بداية الكائنات الحية،على الجانب التكويني والزمــاني من أكثر المسائل العلمية غموضاً، بالنسبة للعقل البشرى ،لأن هذه المخلوقات قـد تمت قبل أن يخلق الله العقل ذاته ، كما أن خلق الله الكائنات الحية ، كان ســابقا على خلق آدم أبي البشر عليه السلام،بزمان لا يعلمه إلا الله تعالى،بدليل أن الجن سكنوا الأرض قبل آدم عليه السلام ،وكانت لهم في الأرض صولات وجولات.

كما أن السماوات والأرض ، قد خلقت كلها قبل الجن والملائكة ، بزمـــان لا نعلمه نحن وإنما يعلمه الله رب العالمين ، وبناء عليه فلا يعلم نشأة الكون مـــن حيث الحقيقة إلا الله ، لأنه الذي خلقه ، وبالتالي فهو سبحانه وتعالى القادر علــى إعادته ، وبداية خلقه من جديد ، كما أن الزمان مخلوق سواء أكان مقــدراً فــي علم الله الأزلي ، أم غير مقدر على هذه الناحية ، وفي الحديث الشـــريف ، مــا روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" قدر الله مقادير الخلائق قبــل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة[1].

ومن ثم فالعقل البشري لم يكن موجوداً في هذه الأونة ، حتى يزعم لنفســه إمكانية تقديم تفسير لنشأة الكائنات الحية ، فضلاً عن محاولة تفسير أسباب نشــأة الحياة ذاتها، ولو على سبيل الإجمال، إذ المفروض فيمن يحكم على شئ ما ، أن يكون له سبق في الوجود عنه،أو لديه تصور كامل عنه ، أو دليل صحيح ينهض له،بحيث ينال ذلك التصور جزءاً من القبول[2]على الأقل ،إن لم ينل القبول كله.

بيد أن التثبت من الأحكام التي يصدرها العقل ، في مجال القضايا الغيبيــة ، لا يمكن أن يقوم على العقل وأدلته ، وإلا كان معناه ، أن العقل القاصر هو ذاته

---

(١)الإمام مسلم ــ صحيح مسلم بشرح النووي المجلد السادس ج ١٦ ص ٢٠٣ ط دار الريان

(٢) ومقياس القبول هنا هو قيام الأمر على الأحكام الشرعية ، من خلال النصوص الدينية الإســلامية لأنهــا النصوص الوحيدة التي لم يقع عليها شئ من التبديل أو غيره ، كالذي لحق بالكتب الأخرى .

الذي يستدل به على ما هو أعلى منه من حيث إمكانياته،وفوق مدركاته ، وبناء عليه فلا يمكن اعتبار هذه الأحكام،التي يصدرها العقل،في هذا الخصوص،من قبيل اليقين العلمي(١).

وطبقاً لهذا فلم يحاول الإنسان القديم ، التعرض لهذه الموجودات بشئ من البحث الجاد ، أو التفصيل الدقيق عن أسباب نشأتها ، كما لم يفكر في البدايات التي قامت عليها ، أو لماذا قامت أصلاً ؟ وإنما كان تفكيره منصباً على محاولة تفسير أو تفهم بعض الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الظواهر التي يراها ماثلة أمامه ، وهي في ذات الوقت ظواهر حولية أو فصلية ، كظاهرة المطر ، والفيضانات ، أو البراكين ، والزلازل وأمثالها(٢).

لكن قدماء الفلاسفة ــ وهي طبيعتهم ــ حاولوا انتقاء بعض أسئلة،من تلك التي طرحتها عليهم العقول ، حول نشأة هذه الكائنات المرئية التي يلمسونها،أو تقع لهم تحت سيطرة الحواس ، وكانت هذه الأسئلة تفرض نفسها على عقولهم في إلحاح متواصل ،مع شئ من القسوة التي تستلزم معالجتها الكثير من العناء ، ولذا فهم جمعوا أسئلتهم في نقاط محددة كانت تدور حول المفاهيم الآتية :

(١) من أين نشأ هذا الكون ؟

(٢) إلى أين يتجه سيره ؟

(٣) ما الغاية التي بعثت على إنشائه ؟

(٤) ما الغاية التي يهدف إليها(٣) ؟

(٥) ما هي العلاقات المتبادلة بين أجزاء ذلك الكون ؟

---

(١) لأن العلم اليقيني لابد أن تكون مقدماته يقينية ، واليقين المطلق لا يكون إلا من خلال النصوص الإسلامية القطعية في ورودها ودلالتها أيضاً ، والبدهيات العقلية .

(٢)الدكتور / عوض الله جاد حجازي ــ تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٧٢ .

(٣)الدكتور محمد سيد أحمد المسير ــ المجتمع المثالي ص ٤٥

(٦) ما هي النهاية المحتومة التي تنتظر هذا الكون[١] ؟

وكلما حاول باحث تقديم إجابة لبعض هذه التساؤلات لم ينجح في الوصول إلى غرضه ، أو تقديم إجابة تكون حاسمة في المسألة ، وإنما كانت كل الإجابات التي يتقدم بها مجرد افتراضات ، أو احتمالات قابلة للأخذ والرد ، القبول أو الرفض[٢]، لأنها إجابات نظرية ، واستخلاصات فردية ، قائمة على الفرضية حول بحث مسائل غيبية ، أو ميتافيزيقية ، ومثل تلك الإجابات يأتي الحكم عليها ، بأنها غير مفيدة من ناحية المجال البحثي[٣].

ربما يقال إن مفكري اليونان الأقدمين ، وفلاسفة المصريين القدماء ، بجانب كهنة الصين والهند ، وسحرة الأكاديين ، ومفكري بلاد ما وراء النهر ، وصانعي حضارة بابل وآشور وبلاد الرافدين ، كانت لهم جميعاً اتجاهات واضحة المعالم في تفسير المسائل الغيبية ، وتقديم نتائج إيجابية في كل مسألة ، نالت بعض القبول ، أو حالفها الكثير من التوفيق، وقد حظيت هذه الجهود باهتمامات الدارسين، فهل كانت تلك المحاولة التي قاموا بها دليلاً على تمكنهم من البحث في هذه المسائل ، وتقديم حلول مقبولة حولها ؟[٤].

والجواب: أن هؤلاء وأولئك قد بحثوا مسائل مادية تقع أمام أعينهم، وتدركها حواسهم ، أو يمكن الحكم عليها من خلال إمكانياتهم المتاحة لهم ، ومن ثم تقدموا بإجابات فيها الكثير من التوفيق ، باعتبار الظرف الذى وجدوا فيه فقط دون سواه .

---

(١) الدكتور عبد الرحمن بدوي — خريف الفكر ص ٧٣ .

(٢) وهو شأن هذا النوع من الدراسات التي تعتمد على الافتراضات المتوهمة أو الخيالية ، كلما دخلت فكرة طردت السابقة عليها .

(٣) الدكتور / أحمد عبده حموده الجمل — تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٤٣ .

(٤) الدكتور / صفوت السيد رزق — الفكر اليوناني وما وراء الطبيعة ص ٩٧ ط أولى ١٩٧٩م .

أما المسائل الغيبية التي تتعلق بما وراء الحس ، فلم يكن بحثهم لها ممكنــا ، بل لم يدر لهم على بال ، وإنما كانت جهودهم الفكرية تأتي كأنها شوارد عقلية ، إذ لم تكن قائمة على القصد والغرضية في البحث ، كما لــم تكـن ذات أسـس موضوعية ، ولذا لم تحفظ المدونات القديمة ، التي أمكن الوقوف عليها ، صـورا مبحوثة على الناحية الغيبية ، وبالتالي فلا يمكن حمل أفكارهم الشاردة على أنـها مباحث في العوالم الغيبية(١).

لم يذكر التاريخ أن فلاسفة الهند أو المصريين القدمـاء ، بحثـوا المسـائل الميتافيزيقية من الناحية الغيبية ، فهم لم يتحدثوا عن أدلة وجود الله تعالى ، كمـا لم يبحثوا مسألة الذات وعلاقتها بالصفات ، كما لم يتناولوا الحديث عـن اللـوح والقلم والكرسي والعرش ، وما كان من هذا القبيل الذي لا يمكن للعقـل وحـده معرفته على وجه تفصيلي يقيني. كما أن مسالة البحث في خلق الكون أرضـه وسمائه،علوية وسفلية ، قد حسمها القرآن الكريم،ولم يحسمها غيره،كما حكم بأن هذه المسألة غير خاضعة للبحث التجريبي أو الأحيائي في أصولها، أما لمـاذا ؟ فلأنها في وجودها سابقة ، على خلق الإنسان الذي يحاول تقديم إجابات فيـها ، وهي في ذات الوقت أعلى من إمكانياته ـ باعتبار السؤال عن متي خلقـت ، أو كيف خلقت ـ التي خلقها الله له، والمعروف أن البحث فيما وراء الملكات،يمثـل تكليفاً بما لا يطاق ، وهو ما يتنزه عنه الشارع الحكيم جل علاه .

قال تعالى :" مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا "(٢)، والمعنى إني خلقت السماوات والأرض وغيرهما،من

---

(١) وما جاء في المؤلفات القديمة متحدثاً عن البعث والميزان والحساب وكرسي الدينونة ، فذلك ممـا لم ينـل القبول وإنما هي مجرد تصورات فكرية،وخيالات شخصية،في أمور غيبية،لا مكان فيها للتخمين،ولا يصلح معها القول بالظن .

(٢) سورة الكهف الآية ٥١

الكائنات التي صنعتها بيدي،ولم يكن أحد من الخلائق شاهدا على ذلك الخلق ، إذ لم يكن لأحد منهم وجود سابق على ذلك الخلق، كما أنهم لم يشاهدوا خلق أنفسهم وهم محدثون ،وعدم حضورهم عند خلق من هم أقدم وجوداً منهم أقوى وأكـبر، وما احتجت أحداً من خلقي حتى يعينني عليه ، أو يعضد قدرتي على خلقه[١].

يقول صاحب صفوة التفاسير ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني ، خلق السماوات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض ، وإنما هـم بعيداً مثالكم لا يملكون شيئاً ، وما كنت متخذ ــ المضلين ــ الشياطين أعوانا في الخلق ، فكيف تطيعونهم من دوني[٢]، وأنا الخالق القادر العليم ، الـذي لا إلـه سواي ، ولا معبود بحق إلا أنا وحدي ، فأنا مالك الملوك ، رب الجميع .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه ، أن الله تعالي لـم يفـرض شيئاً افضل من التوحيد والصلاة ، ولو كان شئ أفضل منـه لافترضـه علـى ملائكته ، منهـم راكع ، ومنهم ساجد[٣]، وبالتالي فالنقل المنزل من عند الله رب العالمين قد حسم الأمر في المسألة .

بل العقل الصحيح يقر بأنه مادام أمر الخلق لأصول الكائنات كلها ، قد تـم قبل خلق البشر المتجادلين، فإن شهادة أي واحد من المخلوقين عن خلق الكائنات يعتبر قفزاً فوق الأصول العامة ، ومحاولة للنيل منـها ، بالاعتبـار الأصلـي والأساسي وهو أن عملية الخلق الإلهي للكون قد تمت قبل وجوده ذلك المتجـادل فيه ، ومن ثم فمهما أدعى هذا الأمر، فهو غير صادق فيه ، أما لماذا ؟

فلأن الضرورة العقلية قاضية بأن العقل متى كان طالباً إصدار حكم في شأن شئ كان موجوداً قبله ، ولا قدرة له فيه ، فقد وجب عليه أن يكون موجوداً قبـل

---

(١) الشيخ محمد عبد العظيم البهنسي ــ تفسير سورة الكهف ص ٨٧ ط أولي ١٩٥٧م.

(٢)الشيخ محمد علي الصابوني ــ صفوة التفاسير ج ٧ ص ١٩٥ .

(٣) كنول العمال ج ٧ طبعة مؤسسة الرسالة وعزاه للديلمي .

خلق الكائنات حتى يراها وهي تخلق،كما تفرض عليه أن يكون مخلوقا معـــها ، لأنه ضمن أجزائها[١]وذلك القول ضرب من السفه ،ونوع من الجدل المرفوض ، ومدعية كاذب على كل ناحية .

بيد أن بعض الدراسات التطبيقية أو التجريبية متى كانت في أيدي غيـر المسلمين[٢]،فإن كل شئ عندهم يتم من منظور دائرة إمكانية البحث، دون اعتبار لطبيعة عالم الغيب ، أو ملابسات عالم المشاهدة ، وبناء عليه فقـد بحثـوا فـي أصول الأشياء المادية وحدها[٣]وأهملوا الجانب الغيبي كأنه لا وجود له .

ومن ثم جعلوا الخالق العظيم في دائرة البحث التجريبي أيضا ، ثم حكمـــوا بعقولهم الهزيلة على أنه غير موجود — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — بزعـم أنه غير محسوس ، وهم لا يؤمنون إلا بوجود المحسوسات وحدها[٤]، وهم بـهذا يجعلون أنفسهم في منزلة الباحث الذي لا يعتقد بوجود ما لا يقع تحـت البحـث الموضوعي الحسي.

لو أحسن هؤلاء لانصرفوا إلى البحث العلمي ،في الجوانب المحسوسة التـي يتمكنون من من معرفة بعضها ، من غير أن ينكروا ما وراءهـا ، إذ أن عـدم الوجدان لا يترتب عليه عدم الوجود ، كما أن بحث ما فوق الإمكانيات العقلية —

(١) راجع كتابنا حبو الوليد في علم التوحيد ص ١١٩ حيث ذكرت هناك الفروق بين القســـمة العقليـة ، والضرورية العقلية أيضا .

(٢) هذا التخصيص مهم جدا ، لأن المسلم يلتزم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وســـلم ، كمـا لا يكلف عقله البحث في أمر لا قبل له به .

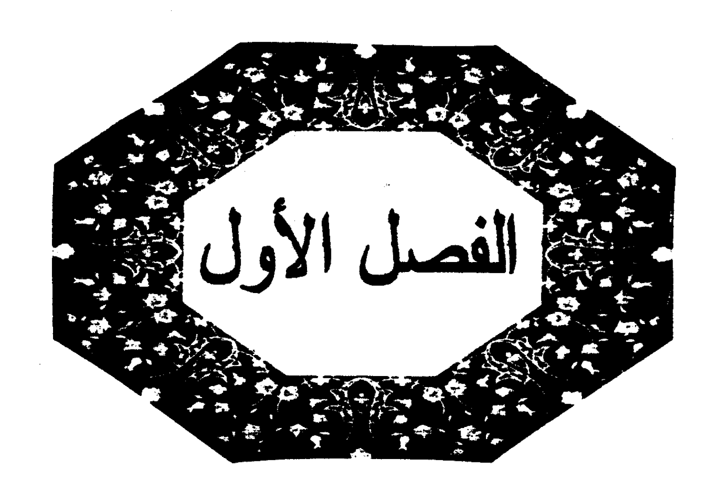
(٣)ولتر استس — تاريخ الفلسفة الوجودية ص ١٣٧ .

(٤) الشيخ الرئيس ابن سينا — الإشارات والتنبيهات — النمط الرابع في الوجـــود وعللـه ص ٤٥ تحقيـق الدكتور سليمان دنيا ط دار المعارف .

من الأمور الغيبية والقضايا الإيمانية ، التى كلفنا الله تعالي الإيمان بـــها[١]، مـــع التصديق بأنها مما ابتلانا الله تعالى به – تكون حيلتهم نحوه ضعيفة ، وأحبـــال الود بينهم منقطعة، بل ان سفن الإبحار معهم سوف تغرق بين شواطئ الأوهام ، أو تختفي تحت لجات الأحلام.

غير أني سأعرض لموضوعات التطور التي حاولوا التـــأكيد عليـــها ، ثـــم أعرج إلى المراحل التي قالوا أن التطور الأحيائي قد قطعها ، منذ كـــان مـــادة صماء جامدة ، إلى أن صارت كائنات حية ، بعضها له قدرات عقلية وإمكانيـــات نفسية وغيرها .

(١) وقد امتدح الله أهل الإيمان بالغيب فقال تعالى :" الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـــاهُمْ يُنفِقُونَ " سورة البقرة الآية ٣ .



موضوعات التطور

أجل بدأت الثورة الصناعية في أوربا ، كأثر من الآثار العلمية للفكر الإسلامي الذي غزت أنواره العالم شرقاً وغرباً ، في عصور النور الإسلامية[١] حيث تسللت هذه الأنوار الإسلامية ، في أشكال مختلفة من الأبحاث والمؤلفات العلمية ، التي شملت كافة الجوانب المعرفية ، فأيقظت أوربا النائمة من سباتها الطويل ، كما فتحت عيونها الغافية التي غلب عليها الانغلاق قروناً متتالية .

كما أن الفكر الإسلامي كان قد أعلى الآذان في العقول التي خشيت سطوة الكنيسة ، وأحكام رجال اللاهوت ، فاستنامت للرؤى ، واكتفت بلذيذ الأحلام[٢]، بدل البحث العلمي ، وبذل المجهود العقلي .

غير أن تلك الثورة الصناعية التي اشتعلت في أوربا، لم تكن تهتدي بالأفكار الإسلامية إلا في الجوانب التي تتعلق بالمادة ،وخواصها ،والطبيعة ، ومسائلها . ومن ثم انتزع الأوربيون هذه الأبحاث المادية من أصولها الروحية الإيمانية ، فصارت أقرب إلى نزغات الهوى ، وإنفلاتات النفس ، بدليل أن هذه الثورة قدمت نتائج بعضها إيجابي في ميدان الحياة العملية ، والآخر سلبي ، إذ لم تقدم فيه سوى مجرد الافتراضات التي تحتاج البحث العلمي ، والدعم الفكري والثبات المنهجي[٣]حتى تعاد معالجتها على نحو يقبل التطبيق ، ولا يصادم النصوص الدينية،طالما كان في مجال الماديات والعلوم التطبيقية على حد سواء.

استمر البعض في دراسة هذا الجانب المادي السلبي ، واستمرأ الكثيرون منهم الخوض فيه لدوافع شخصية ، وعوامل اجتماعية ، وكانوا في ممارساتهم ،

---

(١) يقابلها عصور الظلام في أوربا ، ولذلك فإن الحضارة الإسلامية هي وحدها ،التي أثرت في الحضارات المختلفة ،وبخاصة الأوربية لأنها اقتبست من الإسلامية كل ما أمكن للأوربيين الوقوف عليه وبخاصة المادية .

(٢)الدكتور – رفقي زاهر – أوهام الماركسية ص ١٣٨ .

(٣) الدكتور فوزي صبحي عبد العظيم – نظرات في الفلسفة الحديثة ص ٢٤٥ ط أولى دار الفكر بيروت ١٩٧٣م.

هذه يخبطون خبط عشواء ،ومن ثم فقد ظهرت بواكير البحث في الطبيعة ــ من حيث نشأتها ــ على أنماط مختلفة ، كما برزت نداءات خافتة تلمست طريقاً نحو الأفكار التطورية في صورة ما من الصور ، والتي أمكن التعبير عنها في حياء مصطنع[١]. ومن ثم فسأحاول عرض موضوعات التطور قديماً وحديثاً حتى يكون القارئ الكريم على إلمام بها ، بحيث يعرف المقبول منها وأسباب قبوله ، والمرفوض وعوامل رفضه .

أ ــ موضوع التطور قديماً :

لم يقف الدارسون على أي البلاد وأي العقول هي التي ابتدأت البحث في التطور قديماً ، بحيث يقال ــ على سبيل التأكيد ــ أنها التي سبقت الجميع في خوض غمار هذا الميدان ، ولكن الأقوال أغلبها ظنية أو افتراضية ، وبناء على هذه الافتراضيات، يمكن أن يقال قد ظهرت شذرات فكرية في مصر الفرعونية، تتحدث عن التطور ، وكان كهنة مصر هم الذين يقومون بهذا الدور[٢]، إذ كان من مهامهم ممارسة أعمال القيادة الدينية ، والفكرية أيضاً .

كما ظهرت بعض الأفكار التي يمكن حسبانها مبادئ تطورية في عقول بعض مفكري كل من بلاد الرافدين واليونان ، كما ظهرت شذرات تطورية في كل من بابل ونينوي ، وبنفس القدر كانت لها وجودات في الفكر الصيني القديم ، لكن من غير أن توضع لها قواعد،أو مبادئ عامة[٣]،كما لم يستخرجوا ما عرف فيما بعد باسم النظريات الإحيائية في تفسير نشأة الكائنات الحية .

---

(١)الدكتور / عبد الله خيري ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ٨٣ ط الثالثة ١٩٨٥م .

(٢)سورون لانك ــ كهنة مصر القديمة ص ٣١ ترجمة الدكتور صلاح فضل ط دار الفكر ١٩٨٧م .

(٣) أ . ب ــ توماس زيد ــ عصور ما قبل التاريخ ص ٢٣ ترجمة الأستاذ نور الدين فضل ط دار الفكر ١٩٨٧م .

ومن ثم يمكن القول بأن الإنسان العاقل في زمن ما قبل التاريخ[١] . كـان يفكر في الوجود ومظاهره ، ولكنه لم يعلن عن شئ من ذلك ، وإنما راح يـهمس بهذه الأفكار إلى مشاعره في خفاء ، ويناجيها خيفة وعلى اسـتحياء ، ويحـاول التعرف عن أسباب نشأة الكون ، وإلى أين يرجع أمر هذا الوجود .

أما إنسان العصور التاريخية فقد استفاد من ملاحظات سابقة ، وراح يخطـو مسرعاً خلف آماله ،ويعدو ممسكا بأحلامه ، وكانت له محاولات في هذا الجانب ظهرت من خلال ما تم اكتشافه على المدونات التي بعد التعرف عليها ثبت أنـه أفكار قليلة مدونة ، لدى اليونان،والمصريين القدماء على وجه الخصوص[٢].

تطورت هذه الأفكار القليلة ، وتقدمت خطوات معدودة ومحدودة أيضا، ولـم يكن لها من الذيوع والانتشار ما يعين على مناقشتها ، أو الوقوف عليها ،كما لـم تكن لدى أصحابها الجرأة في الإعلان عنها .

وقد تمثل ذلك في العقلية اليهودية التى كانت ظروفها الاجتماعية قائمة على الترحال المتواصل، لأنهم ــ في الأصل ــ جماعات رعوية عاشوا بين صحر . الأمم ، فعاشوا كذلك حيارى بين صحارى الأفكار،حيث غلبت عليهم السطحية . بجانب النقل عن الآخرين ، كما كانت ظروفهم السياسية غير مسـتقرة لكونـهم عاشوا مستضعفين بين الأمم ، مقهورين من الأقوياء ، إذ كانت أفعالهم الذميمة

---

(١) تعرف بأنها الأزمان السحيقة التي مضت ، حين كان الإنسان لا يقدر قيمة الوقت ، ولا كيفية حسـبان الأيام والشهور والسنين ، وهذه الأقوال مجرد فروض احتمالية .

(٢)العصور الما قبل التاريخية مصطلح يطلق على الفترة التي عاش فيها الإنسان البدائي الأول ، حيث لم يكـن حريصا على تسجيل وقائع حياته في أي جانب من جوانبها ، أما العصور التي تم تسجيل الأحـداث فيـها ، وتدوين الظروف التي عايشها ، فقد أطلقوا عليها اسم العصور التاريخية ، وهي مراحل متعـددة ــ راجـع لوبرت هنري ، ما هو التاريخ ص ٤٤ ترجمة شادي أبو الفتوح ط بيروت ١٩٦٧م

غير متهاون ، فظا غير متسامح ، ومن ثم لم تظهر حركات فكرية نحو النواميس التطورية ، إذ كان مجرد الهمس بها كافياً باختفاء الهامس من مسرح الحياة ، وطبقاً للقاعدة الطبيعية أن الضغط المتواصل يولد الانفجار ، فقد تزايدت ضغوط رجال الكنيسة ، وممارساتهم العنيفة مع الأحرار من المفكرين الذين اضطر بعضهم إلى الإعلان عن الأفكار التي تدور برأسه ، فأحرق بعضهم بأيدي رجال اللاهوت ، وأعدم البعض ، واختفى خلف أسوار السجون كثيرون[١].

لكن ذلك السلوك العدواني الذي تعلن أفواه أصحابه الرحمة والمحبة ، لم يرهب أصحاب العقول المتأملة،والأنات الحائرة ، بل راحت الأسئلة القلقة تقفز إلى شفاه أصحابها الذابلة ، وتلح عليها في التعبير عن نفسها ، فلما ترجم التراث الإسلامي إلى البيئة المسيحية في أوربا ، ورأى المفكرون ما في هذا التراث من علم نافع،وحضارة زاهية،سارعوا إليه غير عابئين بالنتائج المترتبة على هذا .

كما اقتنع بفوائده بعض من رجال اللاهوت المسيحي،الذين انشغلوا بالعلوم المدنية ، وبخاصة الذين لم يكونوا نساخاً فقط ، فحاولوا ترجمة هذا التراث الإسلامي من جانبه المادي فقط ، بغية الانتفاع بما فيه ، وفي نفس الوقت ظهرت قيادات شابة في أوربا المسيحية كانت لها أدوار سياسية ، عملوا على تشجيع هذه العمليات العقلية، ومن ثم ظهرت أفكار تطورية في البيئة المسيحية ، لكنها كانت ــ أول أمرها ــ بمثابة رجع الصدى للفكر الإسلامي من الناحية المادية فقط ، كما كانت تقوم على نتاج المفكرين المسلمين الأوائل .

مضت أيام قلائل وباتت الصراعات في أوربا على أشدها ، بين الكنيسة من ناحية ، ورجال العلم من الناحية الثانية ، وكلما أسرفت الكنيسة في إصدار العقوبات اندفع الآخرون لبحث القضايا العلمية،وبخاصة تلك التي تنتهي نتائجها

---

(١) الدكتور / سعيد عبد العظيم رضوان ــ أوربا والعصور الوسطي ص ٧٩ ط ثانية ١٩٨٣م.

إلى بطلان نصوص في الكتاب المقدس[١]، وكانت غايتهم من ذلـــك إثبـــات أن الدين الذي تعاقبهم الكنيسة باسمه ، أو تسيطر عليهم من خلال نصوصه ، مـــا هو إلا دين هولامي ، صنعته عقول قاصرة ، وتنفذه عقول أكثر قصوراً .

لم يكن ذلك الغرض معلناً ، وإنما انطلق هؤلاء المضطهدون من الكنيســـة إلى إبراز الأفكار المخالفة لها باسم حرية البحث العلمي تارة ، أو محاولة قـــراءة الأفكار اللاهوتية من جديد تارة أخرى،ولكن ذلك الفعل لم يقدر له النجاح الكبـير أو التوفيق الغائي[٢]، لأن أصحابه اندفعوا إليـــه دون أن تكـــون معـــهم أدوات السباحة في ذلك المحيط المتلاطم من الأمواج العاتية .

ومن ثم يمكن القول بأن موضوع التطور في العصور الوسطى كان قريـب الملامح مما ساد في العصور القديمة ، وإنما امتاز عنه بأن مسائله بات الإعلان عنها يتم في صورة من الصور ، كما امتد نحو القضايا العلميـــة التـــي ذكرهـــا الكتاب المقدس فكان ذلك بمثابة الإعداد الجيد للمرحلة التالية،وبخاصة أن ترجمة الفكر الإسلامي من الجانب المادي تركت آثاراً كبيرة فـــي المنـــاهج القائمـــة ، والموضوعات المتداولة ، وذلك من شأنه التمهيد للأفكار التي جاءت بعد ذلـــك ، إما في انفلات لا حدود له ، أو انحلال تخفى ملامحه الحقيقية غطاءات زائفة.

ج – موضوع التطور في عصر النهضة الأوربية :

ومع مطالع القرن السابع عشر الميلادي بدأ الاهتمام المتزايد بدراسة العلوم الطبيعية المادية أكثر من ذي قبل ، سواء عن طريق التعرف عليها ، أو تقديـــم

---

(١) مثل ما جاء في العهد القديم حول نشأة الكون ، وبخاصة مطالع سفر التكوين التي تحدثت عن كيفية خلـق الكون والعصور الجيولوجية ، وكلها جاءت على ناحية مخالفة تماماً لقواعد العلم الحديث ، مما يدل على أنهـــا ليست معصومة .

(٢) كانت غايتهم من هذا البحث في أوربا المسيحية النيل من السلطة الكهنوتية ، وإثبات عجزها عن القيـــادة وبالتالي انفضاض الناس عن رجالها ، وعدم تقديم أي لون من ألوان الدعم لهم ، وبالتالي تضعـــف ســـلطانها . ويذوي سلطانها

الجديد من البحوث بشأنه . او محاولة اكتشاف نتائج لم تكن موجودة من قبل ، في كل من علم الإحياء . أو البيولوجيا ، أو الهندسة الوراثية [١]. وقد استمر هذا الحال إلى يومنا هذا ، كما لم تقف المحاولات التي ابتدأت،حتى كانت الظهورات العنيفة لمن أطلقوا على أنفسهم اسم التطوريين ابتداء من : أرازموس ، جوليان هكسلي ، لامارك ، داروين ، ألفرد راسل والاس ، مالتوس ، هيكل ، دي فرير ، ماندل ، باستر ، وغيرهم .

وكان هؤلاء الذين مر ذكرهم يتناولون القضايا الطبيعية تحت مزاعم حرية البحث العلمي في كل شئ ، ومن ثم فقد كانوا يعتقدون أيضا ، أن ما لا يمكن إخضاعه للتجربة لا يمكن التصديق بقبوله ، أو الإيمان بوجوده ، لا فرق بين كونه من قضايا الإيمان ، أو كونه من قضايا العلم ، حتى لو كان من ناتج البحث فيما وراء الطبيعة ، وراحوا يطلقون على أنفسهم لسم أحرار الفكر[٢]، في مقابلة أصحاب الدين المسيحي الذين ينغلقون على فكرهم ، أو يتسمون باسم التنويريين في عملية مضادة لرجال اللاهوت الذين وصفوا بأنهم أصحاب الفكر المظلم ، وهم في ذات الوقت سبب ظهور العصور الوسطي المظلمة في أوربا.

غير أن النتائج التي توصل إليها هؤلاء التنويريون أو الإحيائيون لم تكن على وفاق مع المزاعم التي أعلنوها ، كما لم تكن على ما يرام في طبيعتها ، إنما كانت نتائج مبتسرة ، ومقدماتها مشوهة ، كما أن الموضوعات التي تناولوها كانت أكبر من إمكانيات هذه العقول التي حاولت الرجوع للماضي

---

(١)الدكتورة ناهد البقصمي ــ الهندسة الوراثية ص ١٢ ولم تكن الهندسة الوراثية معروفة بهذا الاسم في ذلك الوقت ، وان كان موضوعها قد طرح على مائدة البحث العلمي ..

(٢) الدكتور على محمد زكريا ــ أوربا في عصر النهضة ص ١٥٣ طبعة الكرنك ١٩٧٥م ، وكما كانوا يطلقون على أنفسهم اسم أحرار الفكر . فقد أطلقوا على أنفسهم أيضاً اسم التنويريين ، ثم بدأ فريق منهم في تسمية أصحابه باسم البنائين الأحرار .وهم الماسونية وهكذا تعددت الأسماء والنعوت وكلها من خيال أصحابها لأن الواقع العملي شهد بأنهم لم يكونوا على هي أبداً . أو ان أبحاثهم العلمية كانت مقبولة

البعيد ، وعملت على التفتيش في نصوص الكتاب المقدس . حتى تثبت عدم موافقتها للعلم [١]، ومن ثم عدم صدقها في مجال الحديث عن تفسير بداية الكون أو نشأته ، بل وكيفية ظهور الكائنات الحية من المادة الجامدة ، فضلاً عن تطوراتها المستمرة ، وما قامت به خلال الصراعات القائمة في جزئياتها الصغيرة ، والتقلبات أو الانتقالات المعتصمة بأرحام الجينات وما يصاحب ذلك.

د ــ موضوع التطور في العصر الحديث :

مألوف في الدراسات العلمية ، ان كل جزئية ، أو موضوع يجئ ، لابد له من تعريف ينهض ممهداً له ، ثم موضوع خاص يقوم فيه ، بجانب المنهج الذي لابد من متابعته من خلاله ، أو الاهتداء إليه به ، وهنا نتساءل ما هو الموضوع الذي يقع فيه التطور بالنسبة للعصر الحديث ، هل هو الكون بكل ما فيه المرئي وغيره ، أم هو الكون المشاهد ، أم الكون غير المشاهد ، أم خليط يجمع بين نوعين منها أو أكثر ، أم أنه يتعلق بجزئية صغيرة ، داخل إطار عالم من العوالم التي سلف الحديث عنها ؟

والجواب : أن موضوع التطور يختلف باعتبارات عديدة :

الاعتبار الأول : ما يقصد به استمرار الفعل الإلهي متى قصد بالتطور استمرار الفعل الإلهي ، واضطراد السنن الكونية ، فلاشك أن موضوعه سيكون العالم كله الغائب والمشاهد ، لأنها جميعاً من فعل الله تعالى ، ويقع فيها خلق مستمر[٢]، حتي وإن كنا لا نعلمه ، ولا ندرك عنه شيئاً ، لأن العالم الغائب كالعالم المشاهد من حيث أنه مخلوق لله تعالى ، واقع تحت إرادته ، خاضع

---

(١) الدكتور عبدالله عبد الدايم شعبان ــ الثورة التكنولوجية ص ٢٣٣ ط دار المعرفة بيروت

(٢) وردت مادة الكلمة ــ خ ل ق ــ في القرآن الكريم حوالي أربعاً وثلاثين ومائتي مرة ــ راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم باب الخاء ص ٢٤١ ، ٢٤٥ .

لمشيئته . فكل ما يقع في العالم كله ، إنما هو من خلق الله تعالى لقوله تعالى: " ويخلق مالا تعلمون "(١).

فالخلق الإلهي مستمر دون انقطاع، سواء أكان من طريق التسلسل والتتابع ، م كان من قبيل الخلق المستقل المتجدد ، الذي نعلمه أو لا نعلمه ، لأن الفعل المضارع في لفظ يخلق دال على التجدد، والحدوث، كما هو دال على الاستمرار وربما استأنس لذلك بقوله تعالى :" أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون"(٢)، وقوله تعالى:" لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء".

فالفعل المضارع يخلق جاء في القرآن الكريم دالا على الجهات التي يفهم منها التطور بأنواعه المختلفة ومن ملامح ذلك ما يلي :

١ ـ التطور الكوني العام :

يمكن أن يستدل علي التطور الكوني العام بآيات كثيرة ، يستوي في ذلك الكون كله ، علويه وسفليه،أرضه وسمائه، وما يتعلق بالموجودات كلها أيضاً من حيث أصولها العامة التي قامت فيها ، أو دلت عليها (٣)منها قوله تعالى: "خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون"(٤)ثم ذكر خلق الإنسان من النطفة التي قامت على أصلها ، وهو آدم الذي خلقه الله من طين لازب(٥)، ثم جعل له زوجاً منه ، وخلق منهما ماء يتحول بخلق الله إلى بشر ينتشرون في كل مكان ومن الكثيرين الأشكال والألوان .

---

(١) سورة النحل الآية ٨ .

(٢) سورة النحل الآية ١٧

(٣) ومتى نظر العاقل إلى الكون كله وجد فيه حركة سارية لا تتوقف وفيها الحكمة من كل ناحية ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

(٤) سورة النحل الآية ٣

(٥) قال تعالى:" فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ "سورة الصافات الآيتان ١١ ، ١٢

وخلق الأنعام وفيها من منافع لذات الإنسان ، كما ذكر إنزاله من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، وذكر من فوائد الماء إنبات الزرع والزيتون والنخيل والأعناب وما يأتي من كل الثمرات[1].

ثم بين سبحانه وتعالى أنه سخر الليل والنهار ، كما سخر الشمس والقمر والنجوم ، وكلها خاضعة لأمره[2] ، حركتها عنده كسكونها ،عظيمها كدقيقها ، لا يغرب عن علمه شئ منها ، فهو الخالق لها ، وهو سبحانه وتعالى المقدر لأمورها ، وفوق ذلك فهو جل شأنه الذي يدير حركتها ، وينظم شئونها ، وكل شئ عنده بمقدار.

كما بين أنه جل علاه هيأ ناتج الأرض مختلف الألوان والطعوم كدلالة على وجوده تعالى ووحدانيته ، بجانب علمه وقدرته وكامل إرادته ، وبين أنه سبحانه وتعالى سخر البحر بما فيه من عظم ، لتحملوا عليه،كما تأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجون منه الحلى التي تلبسونها ، وتكتسبون أرزاقكم من البحر حتى تشكروا نعمة الله عليكم .

وبين كذلك أنه جعل الجبال في الأرض رواسي،حتى لا تضطرب الأرض بكم أو من تحتكم ، وفي نفس الوقت جعل فيها الأنهار العذبة والسبل والمنافع التي تكون لكم ، وكل ذلك حتى تهتدوا إلى الله الواحد جل علاه [3].

وفي النهاية ذكرهم بأنه سبحانه وتعالى لا يقارن بشئ أبدا ، إنه دائم الخلق والعطاء ، ونعمه فوق الحصر قال تعالى :" وإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّه لا تُحْصُوهَا إِنَّ

---

(١) قال تعالى: "وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا "سورة النبأ الآيات ١٦/١٤

(٢) قال تعالى :" وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " سورة النحل الآية ١٢ .

(٣) ومن ثم فالله جعل حركة الكون كأنها صفحات تحمل الدلائل المتعددة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، كما تدل على ما له من الجلال والكمال والإكرام ، ومن ثم قيل أن الكون هو الكتاب المنظور

اللَّه لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ "[1]، فالفعل ـ يخلق ـ دال على استمرار الخلق في الكون العام بيد الله الملك العلام .

وقوله تعالى:" أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ اللّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إَلاَّ كُفُوراً "[2]، فاستعمال القرآن الكريم لفظ قادر على أن يخلق مثلهم ، إنما يفيد استمرار الخلق لا إنقطاعه ، وبقاء عمل القدرة الإلهية ، على النحو الذي أخبر به رب البرية ، وهو أمر يجري فيه التطور الكوني العام ، باعتباره من سنن الله الكونية ، كما أن المثلية الواردة في قوله تعالى قادر على أن يخلق مثلهم ـ ليست منحصرة في نوع واحد من أنواع الموجودات وإلا لقال مثلها ، إذا كان المراد من لفظ المثلية هو السماوات والأرض باعتبار تثنية كل جنس منها[3]، ولكنه قال مثلهم حتى يشمل جملة السماوات والأرضين ، وجملة ما في كل منهما ، كما يتضمن الاستدلال بالقدرة على إمكانية خلق المثل في امتداد العالم الغائب أيضاً ، وقياس ما يجري في الشاهد على الغائب دليل مشهور.

٢ ـ التطور في الكائنات الحية :

ومن التطور في عالم الأحياء على الناحية البيولوجية قوله تعالى:" خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنْ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا

(١) سورة النحل الآية ١٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية ٩٩ .

(٣) بمعنى أن الكائنات العظمى ـ السماوات والأرض ـ جنس ، ولكنها لما كانت سبعاً في كل من الأرض والسماوات فمفهوم المثلية قائم في الزوجية ، فكل أرض تقابلها سماء ، وهما مثلان من حيث العدد ، لأن مجموعهما أربعة عشر ، فإذا قسم هذا العدد عليهما كان الناتج سبعة أزواج ، يتمثل كل زوج منها في أرض واحدة ، وسمائها أيضاً ، وهو معنى المثلية .

اله إلّا هو فأنّى تصرفون "(١)، فالخلق الأول كان ادم عليه السلام ، ثم نفخت فيه روح بأمر الله ،فصار آدم نفساً واحدة ، ثم جعل الله من هذه النفس الواحدة في النوع زوجها حواء على سبيل التطور القائم في سنن الله تعالى ، ثم جعل من هذين الفردين — آدم وحواء — خلقاً كثيراً لا يحصيهم أحد عدداً إلا الله جل علاه

وكذلك الحال في عالم الحيوان فهي ثمانية أرواج . من الإبل اثنين ، ومن البقر أثنين ، ومن الغنم اثنين ، ومن الماعز أثنين ، كل واحد منها زوج . وسميت أزواجاً لأن الذكر زوج الأنثي ، والأنثي زوج الذكر[٢]وكل منهما شيء عند انفراده ، كما هو زوج عند اجتماعه ، والله تعالى ذكر ذلك فقال " ومِن كُلِ شيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ"[٣].

وقال الإمام الطبري : خلقكم من نفس واحدة هي آدم ، ثم خلق منها زوجها حواء،حيث جاءت من ضلع من أضلاعه[٤]، ثم الله تعالي استعمل لفظ خلق الدال على التكوين في الماضي ، للدلالة على أن هذه الأفعال قد تمت ، من حيث الإحكام والإتقان ، ثم عبر بالفعل المضارع يخلقكم في بطون أمهاتكم على سبيل الحال والاستقبال ، وهو المفهوم من التطور البيولوجي على الناحية الشرعية ، من حيث إسناد هذه الأمور كلها ، إلى قدرة الله الخالق القوي القادر عز وجل.
ثم إنه تعالى استعمل لفظ في ظلمات ثلاث بالنسبة لتطور الأجنة في الأرحام[٥] وهي تتمثل فيها مراحل التطور من النشوء والارتقاء ، ثم القمة المعبر عنها

---

(١) سورة الزمر الآية ٦ .

(٢) الإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ٢٣٥ .

(٣) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٤) الإمام الطبري — جامع البيان ج ٢٣ ص ١٢٤ وفي الحديث الشريف: إنهن خلقن من ضلع ، وان أعوج شئ في الضلع أعلاه ، فان ذهبت تقيمه كسرته ، وان استمتعت بما فيه مع عوجه أفاد — راجع للشيخ محمد السيد البوهي — من أنوار السنة ص ٩٧ .

(٥) لم يذكر علماء النبات — حسب ما وقفت عليه — أن النبات يستغرق هذه الظلمات الثلاثة

التتابع الدقيق ، كما يقع التوالي والاستمرار . فإن الإنسان يكون ماء . ثم نطفة ثم علقة،ثم مضغة،إلى أن يتم خلقه، ثم ينفخ فيه الروح[١]بحيث يكون خلقا اخر . مغايرا في بعض الملامح للأول ، وان كان في الأصل مترتبا عليه .

كما أن الناظر في الظلمات الثلاثة الواردة في الآية الكريمة،يراها قائمة في ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، ثم ظلمة المشيمة،وهو الكيس الذي يغلف الجنين ، وهي عمليات تطورية يكمل بعضها البعض الآخر ، ولا تنفصل إحداها عن الأخرى ، يستوي في ذلك شأن الأرحام جميعها . وإن كان الخطاب في الآية متجها لبني الإنسان العاقلين ، لأنهم المخاطبون بهذه الآيات،ويتمكنون من تفهم ذات الحجج الواضحات .

كما أن هذه الإشارات القرانية للتطور الاحيائي،في بعض الملامح الحيوية قد جاءت في آيات كثيرة مثل قوله تعالى :" واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّةٍ مِن مَّاء فمِنْهُم مَّن يمْشِي علَى بَطْنِهِ ومِنْهُم مَّن يَمْشِي علَى رِجْلَيْنِ ومِنْهُم مَّن يمْشِي علَى أَرْبَعٍ يخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشاء إِنَّ اللَّهَ علَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير"[٢].

قال الشيخ البروسوي: والله سبحانه وتعالى وحده الخالق لكل حيوان يدب على الأرض وبعثته منها ، وسكنه فيها من ماء[٣]سواء أكان هذا الماء هو أحد العناصر الأربعة ، أم هو ماء مخصوص قائم في النطفة التى هي مجموع ماء

---

(١) وفي الحديث الشريف أن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم تكون علقة مثل ذلك ، ثم تكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد ، جامع الأصول في أحاديث الرسول ج ١٠ ص ١١٣ وأخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي بلفظ متقارب من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) سورة النور الآية ٤٥ .

(٣)فيخرج من الحصر الوارد في الآية الملائكة والجن فان الملائكة خلقهم الله من نور ، وأما الجن فقد خلقهم الله تعالى من نار،فكل ما كان أصله النور فهو مرتد إليه، وما كان أصله النار فإن أفراده راجعة إلى ذات الأصل

الذكر والأنثى[١] وتنكير لفظ ماء في الآية مؤذن أن كل دابة مخلوقة من ماء مختص بها ، وهو النطفة فجميع الحيوان ـ سوى الملائكة والجن ـ مخلوق من نطفة ، وهي الأصل للجميع.

ثم حدث التطور في هذا الناتج عن الأصل ، فمنهم من يمشي على بطنه كالحية والحوت ونحوهما ، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطير ، ومنهم من يمشي على أربع منتكساً وجهه كالنعم والوحش ، وعدم التعرض لما يمشي على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات ، لعدم الاعتداد بها ، كما أنها في الصورة كالتي تمشي على أربع[٢] .

يخلق الله ما يشاء من الكائنات الحية وغير الحية ، مما يتعلق بالتطور الكوني العام ، أو التطور العضوي ، مع التأكيد والتركيز على إحالة الأمور كلها إلى الله تعالى في الخلق والإيجاد ، "كذلك يخلق الله ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون"[٣]،وليس الطبيعة هي التي تطور،أو تتطور بحيث تكون هي الدين الذي يعتنقه السذج والسطحيون .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر، لماذا حمل الدكتور شبلي شميل على الأديان ؟ والجواب: أنه حمل عليها متابعة لرأيه المادي ، جرياً وراء غاية محدودة ، غاية سعى إليها كثير من مادي القرن الثامن عشر ، وتنحصر تلك الغاية في أن يتبدل الناس بدينهم ديناً آخر ، وما هو ذلك الدين ؟ إنه عبادة المادة التي أرادوا أن ينظروا إليها على أنها المصدر الأول للإنسان،والعلة الأولى التي فطرته ، وأنها

---

(١) لما هو معروف في لغة العلم التجريبي أن الولد يأتي من ماءين هما ماء الأب المتمثل في الحيوان المنوي ، وماء الأم المتمثل في البويضة، وإليه الإشارة في قوله تعالى:" فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ "سورة الطارق الآيات ٥ ـ ٨ .

(٢)الشيخ إسماعيل حقي البروسوي ـ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ـ المجلد الثالث ص ٦٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٤٧ .

التي تحبوه بأسلوب الحياة ، التي ينعم بها فوق هذه الأرض[١]، وهي أفكار قضى أصحابها عليها بالتهافت مع التناقض ، لما تحمله بين جنباتها من مناقص عديدة سوف أتعرض لمناقشتها فيما بعد .

لكن هنا نقطة جديرة بالنظر إليها من جديد ، وهي الموضوعات التي يجيئ فيها التطور بالاعتبار الذي مضي ، أو بعبارة أخري ما هو موضوع التطور بالاعتبار السالف ؟ والجواب : أن موضوع التطور يتغير بحسب المقصود من اللفظ ، فإن كان المراد من لفظ التطور هو التطور الكوني العام ، فإن موضوعه يكون قائماً في العالم المشاهد كله الكائنات العلوية والسفلية وما بينهما .

الاعتبار الثاني :

ما يقصد به فعل الطبيعة متى قصد بالتطور فعل الطبيعة ، أو حركة الكائنات من غير حاجة إلى خالق عظيم فهو التطور الإحيائي الطبيعي ويكون موضوعه هو ذات القوانين أو النواميس الإحيائية بجانب القضايا التي تحكم العالم المادي بجانب الحيوان والإنسان والنبات أيضا ، أما إذا كان الحديث عن التطور في المفهوم البيولوجي ، فإن دائرته تضيق بحيث يكون موضوعه هو الإنسان والحيوان فقط [٢].

ويذهب الدكتور الجمل إلى أن موضوعات التطور ثلاثة هي :

الأول : تطور المادة غير الحية،حتى تكونت النجوم والكواكب ، والنظام الشمسي بعامة ، وتمثله نظرية الفرض السديمي .

الثاني: تطور المادة غير الحية ، إلى مادة حية،كانت منها كائنات ذوات حياة ،

---

(١)الأستاذ إسماعيل مظهر — ملتقى السبيل ص ٤٣ .

(٢) وبهذا الاعتبار أرى أن موضوع التطور تارة يتسع جداً فيكون شاملاً التطور الكوني العام ، وتارة يضيق عن هذا المعنى قليلاً فيكون متعلقاً بالكائنات الحية الأرضية — النبات — الحيوان — الإنسان ، وتارة ثالثة يضيق جداً بحيث يكون خاصاً بالإنسان والحيوان فقط.

أو بعبارة أخرى كيف دبت الحياة في المادة ؟ وتمثله نظرية حالة الاستقرار .

الثالث : كيف وجدت أنواع الحياة ، أو كيف تطور بعضها من بعض ، في سلسلة صاعدة مترقبة ، حتي بلغت قمة تطورها في الإنسان ، وتمثله نظرية التذبذب . وهذه الموضوعات الثلاثة،لاشك تمثل لب البحث التطوري الحديث ، وتتوجه إليها أولي اهتماماته[1].

ويبدو لي أنه لابد من فصل أنواع التطور عن بعضها أولاً ، ثم التعرف على الموضوع أو الموضوعات التي يجئ فيها كل نوع ، لأن التطور الكوني العام ليس مراداً عند التطوريين الإحيائيين من غير المسلمين[2]، كما أن التطور الإحيائي العام ، ليس هو التطور العضوي الخاص الذي يطلق عليه اسم التطور البيولوجي،ومن ثم فخصوصية الاسم تستلزم خصوصية الموضوع والنتائج أيضاً

هـ- علاقة الموضوعات بالأنواع التطورية :

نحن أمام ثلاثة أنواع من التطور بالمفهوم التطوري على وجه العموم ، كل نوع منها مرتبط بموضوع محدد :

الأول : التطور الكوني العام :

وموضوعه العالم المشاهد والغائب ، بل ما يمكن أن يطلق عليه اسم الكون ، فيشمل الأصول التي قامت في كل منها ، ولما كان عالم الغيب غير مدرك أو مرئي بالنسبة لنا ، فإن موضوعاته مما لا نعلمها على الحقيقة الذاتية[3]ولكن ليس معنى ذلك أنها ثابتة لا تتطور ، بل معناه أنها تتطور في صورة من

---

(١) الدكتور أحمد عبده حوده الجمل - في المذاهب المعاصرة ص ١٢٦ .

(٢) لأن علماء الإسلام الذين تحدثوا عن التطور كمادة لغوية ، ومفهوم شرعي ، انشغلوا به ككل بحيث شمل التطور الكوني العام ، والتطور الإحيائي في الكائنات الحية كلها ، والتطور العضوي المتعلق بكل من الحيوان والإنسان وهو ما يعرف باسم التطور البيولوجي .

(٣) لأن هذه الموضوعات الغيبية مخلوقة لله كالعرش والكرسي واللوح والقلم وتطورها إنما يكون طبقاً للناحية التي خلقها الله عليها وهو أعلم بها .

الصور غير المدركة بالنسبة لنا[١] قياساً على ما يجري في العالم المشاهد . وقياس الغائب على الشاهد قد يكون مقبولا في كثير من الأحيان[٢] .

بل العالم المشاهد هو الآخر من موضوعات التطور الكوني العام ،لأن أصوله الأولى ، أو المادة الأصلية التي نشأ عنها ، مدركة بالنسبة لنا على وجه اليقين والقطع[٣]، وإنما ظواهر النقل المنزل هي التي أشارت إليها ، ومن ثم أمكن الاهتداء إلى هذه الإشارات المنزلة الوحيية ،والتعامل معها على ناحية يفهم منها وقوع التطور الكوني العام .

فالأرض مادتها الأولى نقطة صغيرة مائية ، تجمدت بقدرة الله تعالى ، فسبحان من بسط الأرض على ماء جمد ، ثم دحيت بعد ذلك تنفيذا لأمر الله[٤] . دليل ذلك قوله تعالى :" وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء "[٥].

قال العلامة الزمخشري : أي ما كان تحته خلق قبل خلق السماوات والأرض ، وارتفاعه فوقها إلا الماء ، وفيه دليل على أن العرش والماء كانا

---

(١) فالملائكة أجسام نورانية لا يتوالدون ، كما لا يأكلون أو يشربون ولا ينامون ، ومع هذا يتكاثرون خلقا متجددا ، كما أنهم مكلفون من أصل الخلقة ، فهذا التكاثر العددي في خلقتهم من غير توالد يمثل صورة من صور التطور في العدد على النحو الذي يجب الإيمان به من غير الدخول إلى تفصيلات لا دليل عليها .

(٢) قياس الغائب على الشاهد أحد الأدلة القوية لدى المعتزلة في إثبات الصفات لله تعالى ، وفي اثبات وجوده جل شأنه ، ويستعمله أهل السنة والجماعة أيضا ، وبخاصة الأشاعرة ، لكن هذا الدليل لم يسلم من النقودات التي توجهت إليه — راجع حاشية العلامة الغفاري على شرح المواقف أثناء حديثه عن اثبات الصانع ، وكذلك حاشية الشيخ السيالكوتي في ذات الموضوع.

(٣) إذ لم يكن أحد من الخلائق موجودا حتى يعرف من أي مواد بنيت السماء ، أو اقيمت الأرض ، وإنما النقل المنزل هو الذي تحدث عن الأصول الأولى ، وعن مدة الخلق ، أما الكيفية فقد فوض الأمر فيها لله رب العالمين .

(٤) قال تعالى :" والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها " سورة النازعات الآيتان ٣٠ / ٣١ .

٥ - سورة هود الآية ٧ .

مخلوقين قبل السماوات والأرضين ، وقيل كان الماء على متن الريح،والله أعلم بذلك[١]، ومن ثم فإن الأرض التي نحن عليها ، ما هي إلا نقطة مائية تجمدت بأمر الله ، إذا قضى شيئاً فإنما يقول له كن فيكون .

ويؤكد الإمام الفخر على فكرة الزمخشري وأبي مسلم الأصفهاني ، كأنه ارتضاها ، لأن الله تعالى إذا بنى الأرض والسماء على الماء ، كان ذلك أبدع وأعظم وأعجب ، فإن البناء الضعيف إذا لم يؤسس على أرض صلبة لم يثبت ، فكيف بهذا الأمر العظيم إذا بسط على الماء[٢]، وبهذا يظهر أن الماء كان مادة مخلوقة قبل خلق السماوات والأرضين، لكن ما هي المادة التي نشأ عنها الماء ، أو تخلق منها ، والجواب أن ذلك أمر سكت عنه الشرع ، ولا يجوز لنا بحثه لعدم إمكانية عقولنا حتى تغوص فيه .

وحكى الإمام الزمخشري ، قيل كان عرشه قبل خلق السماوات والأرض على الماء ، فأخرج من الماء دخاناً ، فارتفع فوق الماء وعلا عليه ، فأيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ، ثم فتقها فجعلها أرضين ، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع[٣]ويبدو أن ما ذكره الزمخشري مجرد أثر بدليل تردد الفخر في قبوله ، حيث قال ذكر صاحب الأثر،أنه كان عرش الله على الماء قبل خلق

---

(١) العلامة الزمخشري ــ الكشاف عن حقائق التأويل ج٢ ص ٣٨٠ ط دار الريان للتراث ، وذهب أبو مسلم الأصفهاني إلى أن لفظ العرش الوارد في الآية الكريمة هو البناء ، والمعنى عنده أنه تعالى خلق السماوات والأرض على الماء ، فان كل بناء يسمى عرشاً ، وبانيه عارش ، قال تعالى :" ومن الشجر ومما يعرشون ، أي يبنون ، وكان عرشه على الماء أي بناؤه . الإمام الفخر الرازي مفاتيح الغيب المجلد الثالث ج ١٥ ص ٢٤٩ ط دار الغد العربي .

(٢)العلامة الفخر الرازي ــ مفاتيح الغيب المجلد الثامن ج ١٦ ص ٤٧٧ .

(٣)العلامة الزمخشري ــ الكشاف ــ المجلد الرابع ص ١٨٩ ط دار الريان للتراث .

السماوات والأرض ، فأحدث الله في الماء سخونة فارتفع زبد ودخان[١]، أما الزبد فبقي على وجه الماء ، فخلق الله منه اليبوسة ، وأحدث منه الأرض ، وأما الدخان فارتفع وعلا فخلق الله منه السماوات ، وأعلم أن هذه القصة غير موجودة في القرآن ، فإن دل عليها دليل صحيح قبل ، وإلا فلا[٢].

إذن هذه العمليات المتلاحقة داخل المواد المتخلقة ، ترسم صورة للتطور الكوني العام،على أساس أن الماء مادة أصلية مخلوقة لله تعالى ، ثم حدثت عليها تطورات أو خلق مستمر ، تخلف عن الماء الدخان أو البخار ، فارتفع وعلا ، ونظراً لخروجه فقد بقيت المادة الحالية من غير سخونة ، فحدث التبريد ونشأت التجمعات المتجمدة ، التي صارت البداية للأرضين،حيث تم بناء الأرض الأولى ثم انتقل عنها غيرها،بقدرة الله تعالى،وكذلك الحال في السماوات ، وهو ما يمكن تسميته بالتطور الكوني العام في أصوله الأولى .

وذهب علماء الجيولوجيا الكونية إلى أن العالم الأرضي تكون من تفاعل عناصر مختلفة مع بعضها البعض الآخر ، عملت فيما بينها على تكوين مواد جديدة ، وأهم هذه العناصر أربعة هي : النار ، والماء ، والتراب ، والهواء[٣] ، وبالتالي عادت النظريات الحديثة،إلى تجميع ما كانت عليه الأفكار القديمة من فرض الفروض الوهمية ، والسباحة فوق الأوهام والخيالات التي عاش فيها اليونانيون القدماء،حينما حاولوا تفسير نشأة الكون ، ثم استقرت الآراء على أن هذه النشأة ترجع إلى المواد أو الاستنتاجات الأربعة : النار ، والماء ، والتراب،

---

(١)وبناء عليه تكون المواد الأولية الدخان والسخونة والماء والزبد واليبوسة وهي كلها متخلقة عن بعضها بقدرة الله تعالى ، واستجابة لأمره جل علاه .

(٢) الإمام الفخر الرازي — مفاتيح الغيب المجلد الثالث عشر ج ٢٦ ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ ط دار الغد العربي بالقاهرة .

(٣) الدكتور حسن سيد أحمد أبو العينين — كوكب الأرض وظواهره التضاريسية الكبرى ط ٣ ص ٥٨ ، ٥٩ مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٤م .

والهواء، فصارت النظريات الحديثة بمثابة رجع الصدى للأفكار القديمة البعيدة عن النقل المنزل، وهي كلها خيالية أو افتراضية لا عماد لها من النقل الصحيح ، ومن ثم فإن عدم الإلتفات إليها أولى من تسويد بعض الصفحات فيها.

الثاني: التطور الإحيائي العام :

وهو الذي يتعلق بتفسير نشأة الكائنات الحية على الأرض من النبات والحيوان والإنسان ، وبالتالي فإن موضوعه هو الكائنات التي يقع لها النمو والتكاثر على وجه العموم ، يستوي في ذلك أن يكون الكائن نباتاً لا حس فيه ولا حركة مقصودة[١] أو يكون هذا الكائن حيوانا ينمو ويتغذى ويتناسل ، وفيه شهوة قاهرة له وغالبة عليه ، أو يكون إنساناً كامل العقل والحرية ، يعمل بكل ما يملك إما إرضاء لمولاه جل علاه ، أو إرضاء للشيطان الذي عصى أمر الرحمن الرحيم فالكل مشترك في مظاهر الحياة من النمو والاغتذاء ، ولذا يطلق عليه اسم تطور الكائنات الحية ، أو التطور الإحيائي العام .

الثالث : التطور البيولوجي العضوي:

وهو الذي يختص بما يتناسل من سلالاته ، ومتكاثر في إفراده[٢] الذين

---

(١) وما قيل من إحساس النبات بالمياه ، وانبعاث الفرحة فيه ، وغلبة الغضب عليه إنما هي من خيالات الحالمين أو أطماع الآملين ، إنما هو يسبح بحمد الله تعالى بلسان حاله أو بلسان يعلمه الله تعالى ، لأنه داخل في عموم قوله تعالى :" تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا" سورة الإسراء الآية ٤٤ .

(٢)وربما كان هذا التعريف شاملاً النبات أيضاً باعتباره يقع في سلالات ويتكاثر في أفراده ، لكن الواقع خلاف ذلك لأن النبات خال من الحس والحركة المقصودة ، وبالتالي فهو فاقد الغريزة ، والرغبة التي تكون في الحيوان كما هو فاقد الرغبة والغريزة والتنظيم القائم على التفكير وهي كلها مما تكون للإنسان .

يتوارثون بعض الصفات[1] ويقع لهم العديد من التفاعلات التي هي في حد ذاتها تطورات بعضها مقصود من أصحابه ، وبعضها يجرى عليهم باعتبارهم الموضوع للتطور نفسه ، وبالتالي فموضوعه الكائن الحيوي في الحيوان والإنسان ، سواء أكان ذلك في الأعضاء أم في الأنواع، ويطلق عليه أيضا اسم التطور العضوي ، كما يطلق عليه اسم التطور البيولوجي[2].

وأكثر الحقائق دلالة على هذا التطور البيولوجي ما نراه في هذه الكائنات الحية وقدرتها على التوالد ، وإنجاب عدد ضخم من كائنات حية ، أخرى تشبهها في الصورة إلى حد ما ، والجنس البشري هو أبطأ هذه الكائنات في سرعة توالده ، غير أنه يمكن لرجل وأمرأة أن ينجبا عشرة أولاد ، قبل أن يبلغا سن الأربعين ، كما يمكن لهذه الذرية أن تعيد الكرة دون كبير جهد[3] وهو تطور بيولوجي عضوي لا محالة ، وفي نفس الوقت مشاهد محسوس ، تدل عليه الوقائع القائمة.

ثم إن القوانين الآلية الميكانيكية التي أضافها جريجوري ماندل في قوانين

---

(١) هذا التوارث في الصفات محمول في الجينات وهو ما يعرف بالبلازما التاسلية وليس قائماً على الاكتساب أو التوارث الجسدي كما ذهب إليه التطوريون ، ولعل هذا التوارث الجيني هو الذي حذر منه الحديث الشريففي قوله صلى الله عليه وسلم :تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس ، وقوله صلى الله عليه وسلم تباعدوا لا تضووا ، ومعناه حتى لا يخرج النسل ضعيفاً ، الشيخ محمد نور الدين البهنساوى ــ من هدي الإسلام في الزواج ص ١٥٢ طبعة أولى ١٩٣٤م .

(٢) توماس لدلنج ــ العلم والعصر الحديث ص ١٣٧ ترجمة طاهر رضوان مطبعة دار الفكر بيروت ١٩٧١م

(٣) جون كيمني ــ الفيلسوف والعلم ص ٢٨٤ ترجمة الدكتور أمين الشريف المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت بالإشتراك مع مؤسسة فرانكلين نيويورك ١٩٦٥م.

الوراثة[١] أو تلك التى جاءت خلال نظرية التحول الفجائي التي نماها دفريس وهي التي تقوم في الانتقال الوراثي للصفات، لم تقدم حلولاً ترضي أي باحث علمي ،أو تقدم تفسيراً يقبل التجريب عليه ، أو التأكيد من صحته ، إنها عجزت عن ذلك تماماً ، مما يؤكد قيامها على كل من الخيال العارم والفرضية المتوهمة وهي كلها غير مقبولة .

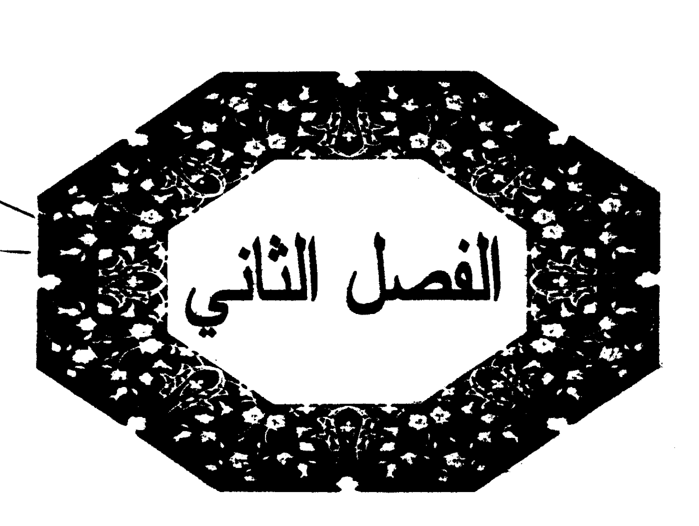
على كل ظهرت نظريات ، وبرزت قوانين ، بعضها يعدل في صياغة البعض الآخر ، وبعضها يعدل في نتائجه ، ولكن تبقي النقطة الهامة ، أو هي الحقيقة الثابتة القائمة في أن العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة .ومن أراد السلامة فعليه الاهتداء بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي تقديري : أن التطور البيولوجي يدخل ضمن التطور الإحيائي من باب دخوله الخاص في العام ، فمادام التطور الإحيائي يشمل النبات ، والحيوان ، والإنسان ، فإن التطور العضوي يمثل جزءا من هذه المنظومة المتواصلة ، وهو ما حدا بالبعض لاطلاق اسم التطور الإحيائي على كل من الأبحاث التي جرت في عالم النبات والإنسان والحيوان ، مع استبعاد الكائنات غير الإحيائية ، أو المادة غير الحية ، من إدخالها تحت هذه المنظومة ، إذ ليس من الممكن

---

(١) ماندل: هو الراهب النمساوي جريجور مندل قام بإجراء أبحاثه في عالم النبات ثم قام بنشر هذه الأبحاث على وراثة بازلاء الحضر عام ١٨٦٦م وانتهى الأمر إلى اعتباره مؤسس علم الوراثة التجريبي ، وقد وضع قانونين في هذا المجال ، الأول قانون انعزال الصفات الوراثية ، إذا اختلف فردان نقيان في زوج من الصفات المتقابلة ، فإنهما ينتجان بعد تزاوجهما جيلاً به صفة أحد الأبوين فقط ، وهي السائدة ، ثم قد تورث الصفتان معاً في الجيل الثاني بنسبة ٣إلى ١ ، والثاني : قانون التوزيع المستقل للعوامل ويقوم على أنه إذا تزاوج فردان نقيان مختلفان في زوجين أو أكثر من الصفات المتقابلة ، فإن صفتي كل زوج منها تورث مستقلة عن الأخري ، وتظهر في الجيل الأول كلها سائدة ، ثم تتوزع في الجيل الثاني بنسبة ٩ إلى ٣ ، ٣ إلى ١ أي بنسبة ٣ سائدة إلى واحد متنحية لكل صفة منها — راجع للدكتور / محمد السيد أبو هداية — ماندل والقوانين الوراثية ص ٤٥ ط دار المنشأة ١٩٧٤م .

نتعامل مع الكائنات المادية الجمادية على أنها داخلة في نطاق التطور الإحيـــائي أبداً ، وعلى أية ناحية كانت .



المراحل التطورية

ذهب أصحاب القول بفكرة تطور الكائنات مذاهب شتى ، في حديثهم عـــن المراحل التي استغرقتها الكائنات،حتى وصلت إلى ما هي عليــه ، مـــن تبايـــن واختلاف ، ابتداء من المادة الجامدة الصماء ـــ التي لا حس فيها ولا حركــة ولا عقل لها ولا قصدية ـــ إلى قمة التطور المتمثل في الإنسان .

فمنهم ذاهب إلى أن المرحلة الأولي من التطور تتمثل في النشأة الأولـــي ، المعبر عنها بتطور المادة الجامدة حتى صارت نجوماً وكواكب ، كما صــــارت سدماً ونظاماً متكاملا ، في مجموعته الشمسية العلوية علـــى وجــه العمـــوم[١]، ويطلقون عليها اسم مرحلة النشوء .

وهذا الإطلاق ينطبق على النشوء الإحيائي، كما ينطبق على النشوء غـــير الإحيائي ، وأقصد به التطور الكوني العام ، حيث يذهبون إلى أنه قد وقع تحـــول في ذات المادة الجامدة الصماء ، عبرت عنـــه نظريـــات الســـدم ، ونظريـــات الانفجار العظيم ، كما عبرت عنه نظرية الكتل الملتهبة ، حيث يقرر الفلكيـــون أنه " في بداية الكون لم تكن هناك مجرات ، ولا نجوم أو كواكب ، كما لم تكـــن هناك حياة أو حضارات ، بل كانت مجرد كرة نارية مشعة ، منتظمة الشـــكل ، تملأ الفضاء كله ، وأن الانتقال من حالة تشوش اختلاط الانفجار الكبـــير إلـــى حالة الكون المنتظم التي بدأنا نعرفها ، هو التحول الأشد رعباً للمادة والطاقـــة[٢] كما تذهب نظرية السدم إلى أن السماء قد تم تجميـــع أطرافـــها مـــن عنصـــر الأيدروجين ، وهو أبسط أنواع الذرات ، ومايزال يكون ٩٣% من حجم المـــادة في الكون ، كما يكون ٧٦% من وزن المواد كلها ، ثم تجاذبت ذراتـــه مكونـــة

---

(١) الدكتور فوزى محمد يس ـــ علم الأحياء والتطور العام ص ١٥٣ ط أولى ١٩٦١م .

(٢) الدكتور / كارل ساغان ـــ الكون ص ٣٦ ترجمة نافع أيوب ط ثانية ١٩٨٣، وعرفت باسم الســـدم ، كما عرفت باسم نظرية التفسير الميكانيكي للكون .

كتلة ضخمة هي السدم[١]، وهي مرحلة تجمع الرتق . ثم بدأت عملية الفتق حيث دارت سحابة السدم، حول نفسها بسرعة، رحوية جعلتها تنقسم إلى أجزاء عديدة تبلغ الملايين ، ومنها تكونت المجرات ، وتلاشت سمات السديم(٢)، ولكن مادتها الأصلية ماتزال موجودة في رحاب الكون .

ومنهم ذاهب إلى أن المرحلة الأولي تتمثل في تحول المادة الجامدة إلى مادة حية ، عن طريق تطور ذاتي صاحبته عمليات كثيرة داخلية ، كانت على قدر كبير من الأهمية ، كما كان لها دور هائل في هذا التطور، لأنه يمثل مرحلة الاستقرار في التحولات التي انطلقت من المادة غير الحية ، في أشكال تصاحبها ملامح حيوية(٣).

ومنهم ذاهب إلى أن المرحلة التطورية الأولى ، تتمثلها مجموعة من التحولات المتوالية ، كل منها تتسلم من ما قبلها،ثم تسلمه إلى ما بعدها مباشرة، طبقاً لمقتضيات طبيعة كل واحدة،من ذات التحولات،وكل مرحلة منها تقوم على أجزاء بعينها في ذاتها(٤) .

ومنهم ذاهب إلى غير هذه التي ذكرت . وكلها تعمل في إطار منظومة واحدة ، أو تحاول تقديم وجهة نظر تحوز الكثير من القبول وهي كلها تنتهي

---

(١)الاستاذ/ وحيد الدين خان ــ الدين في مواجهة العلم ص ٤٤ وما بعدها ط دار الاعتصام ١٩٧٢م .

(٢) الدكتور كارل ساغان ــ الكون ص ٣٨ ــ ٤٠ وراجع للدكتور / حسين طه الدهشة ــ قوانين تفسر نشأة الحياة ص ٨١ / ٨٥ ط أولى ١٩٨٧م .

(٣)جورج سندان ــ العالم من خلال السدم والمجرات ص ٩٥ ترجمة هدى فوزي وراجع الاستاذ على عبد العظيم في ملكوت السماوات والأرض ص ٥٢ بتصرف يسير ، والحال مع السدم هو نفسه الحال مع نظريات المجرات .

(٤)الأستاذ / إسماعيل مظهر ــ تطور الكائنات الحية ص ١٢ .

إلى أن تفسير نشأة الكون تقوم على أساسين ثابتين هما قانون الصدفة ، وقانون التعليل[١]، ولا مكان لسنن الكونية الإلهية فيها .

غير أنه لما كان الحديث عن التطور الإحيائي بصفة قصدية ، هو الممثل لموضوع هذا الكتاب ، فسأحاول الالتزام بالمراحل التي أعلن عنها المتطورون الإحيائيون أنفسهم ، والحديث حول هذه المراحل، من خلال ما تدلي به جوانح أصحابها المفزعة ، أو يعبر عنها ما بداخل وجداناتهم السلبية ، وتم نقله عنهم ، بشكل يؤكد صدوره منهم ، وهذه المراحل تقوم في النشوء ، ثم التطور ، وأخيرا الارتقاء خلال سلسلة متواصلة من الأحداث التي لم تنقطع[٢].

المرحلة الأولى: النشوء :

وهي تقوم على أن الموجود الوحيد الأصلي القديم الأزلي ، كان هو المادة الصماء العمياء الجامدة الساكنة ، وهي في نفس الوقت أبدية أزلية ، لا أول لها ولا نهاية ، ثم حدث انفصال أولي لخلية واحدة غير معينة من تلك المادة الصماء عرفت تلك الخلية باسم الخلية الحية الأولي التى تولدت ذاتياً ، عن المادة الأم الصماء بطريق غير معروف[٣]،أطلق عليه اسم النشوء[٤]أو مرحلة النشوء الحيوي.

ثم ان هذه الخلية المنفصلة عن المادة ، قد وجدت فيها — فيما بعد — حياة غير معروف مصدرها ، تميزت بها عن باقي أجزاء المادة المتولدة منها،حيث

---

(١) الأستاذ/ وحيد الدين خان — الدين في مواجهة العلم ص ٤٤ ، الإسلام يتحدى ص ١٢٧ ط ٤ ١٩٧٣م .

(٢)الأستاذ / سلامه موسى — نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٢٧ .

(٣)أدموند ر — سينوت — الخلية والروح في ضوء العلم ص ٧ ترجمة الأستاذ إسماعيل .

(٤) ومن ثم فالنشوء هو حركة ذاتية قامت بها جزئية حية من المادة الجامدة ، وهل ينتج الجماد إلا جماداً ، بناء على فكرة التوالد الذاتي ، أم أنهم يهدمون في كل خطوة ، ما سبق لهم إعلان الوقوف عليه في الخطوة التي سبقت عليها .

استمرت هذه الأجزاء على حالتها الأولى[1] لم يقع لها شئ من التحـــول ، وبنـــاء عليه فالجزء الذي انفصل فقط،هو الذي يمكن اعتباره بداية العملية الإحيائية،على وجه العموم ، والبيولوجية بصفة خاصة .

ثم حدث نوع من تلاقي الانفصال الخلوي بعد الخلية الأولى ، فظهرت خلية أخرى حية أيضاً ، وكل منهما ــ الخلية المنفصلة الأولى ، والخليـــة المنفصلـــة الثانية ــ لا تمثلان خلية أحادية كاملة ، ومع هذا فهما منفصلتان عن المـــادة الأم تماماً، من خلال التولد الذاتي،والانفصال الأولي الذي لا يمكن تجاوزه،أو التخلي عنه في المرحلة الأولى على أقل تقدير، باعتبارها مرحلة طبيعية لذلك النشوء[2]

وقد استمر هذا الانفصال الخلوي فترة طويلة ، حتى ظهرت أعداد كثيرة .

ونظراً لوجود أكثر من خلية واحدة منفصلة عن المادة الأم ، فقد كان مـــن الضروري وجود نوع من الاحتكاك والاختلاط الخلوي الذي جعل تلك الخلايـــا تشعر بالتجاذب نحو بعضها البعض الآخر ، على ناحية الرغبة في التكامل مـــع الأصل الأول .

ومن ذلك الشعور بالانجذاب ثم الالتصاق بين هذه الـــذرات ، والاجتمـــاع للخلايا المنفصلة الأحادية ، بحيث أعقبه النشوء المتكامل أيضاً ، بيـــن الخلايـــا الأحادية ذاتها[3]، ومن ثم ظهرت فيه صور الأشياء على نحو ما من التكـــامل ، وبه تم النشوء ، على الناحية التي يقول بها أصحاب التطور الإحيائي من خـــلال أنظمة لا علاقة لها بشئ من خارج المادة نفسها.

ولسنا نوافقهم في شئ من ذلك ، بل نؤكد أن الخلق كله مرجعه إلى الله تعـــالى بداية ونهاية،وأن البداية لا يعلمها إلا الله،والنهاية كذلك لأنه وحده الخالق القادر.

---

(١)الدكتور / محمد السيد زاهر ــ التطور والتطوريون ص ٧١ ط أولي ١٩٧٥م .

(٢)أ . ب بروفسكي ــ التطور العلمي ومراحله ص ٩٦ .

(٣)التطور البيولوجي ــ خطوة هامة ص ٧١ وما بعدها .

خطوات النشوء

من الملاحظ ان عملية النشوء عند القائلين به قد مرت بخطوات عديدة او مراحل نشوئية كثيرة من أبرزها :

الخطوة الأولى :

أ - الانفصال عن المادة الجامدة :

وهذه الخطوة تقوم على أن هناك انفصالا غير مقصود ، قد وقع للخلية الأولى الحية ، عن المادة الجامدة الصماء ، من خلال ما يعرف بمبدأ الانفصال الكلي[1]،ثم تطورت هذه الخلية المنفصلة في شكل آخر من خلال عملية ذاتية داخلية لا علاقة لها بشيء خارجي[2]. وظلت هذه الحركات التطورية الكاملة فيها ، تعمل عملها النوب حتى وصلت في تكوينها إلى ما عرف باسم الأميبا أو البونيب[3]. وقد استغرق اتمام تلك الفعل آلف السنين ، إن لم تكن الملايين ، إذ ان هذه الخطوة من أكثر الخطوات النشوئية صعوبة وتعقيد[4]، كما أنها من أكثر الأنماط التطورية غموضا وأبعدها عن طرائق القبول ، لأنها عاجزة عن تقديم تفسير صحيح لكيفية ظهور المادة الحية من المادة الجامدة بعيداً عن القوى الخارجية .

ب - التجمع والتلاقي :

وهي التي تم فيها تجميع الخلايا شبه الأحادية ، في صور خلايا نباتية وحيوانية ، مما يمكن أن يقع فيه التجمع من غير تحديد لمظهر معين ، أو شكل

---

(١) مبدأ الانفصال الكلي ، يقترب كثيرا من مفهوم الانفجار المنتظم ،وهما غير مبدأ أو نظرية التولد التلقائي . في المفاهيم والموضوعات . والنتائج .

(٢) روبرت مارتن - التطور والتطوريون ص ٧٣ ترجمة السيد حنفي ط دار الوفاء ١٩٧٥م.

(٣) وهو أصغر كائن حي مجهري ، يمثل جزءاً من الخلية وليس خلية

(٤) الدكتور - صابر محمد أبو عوية - النشوء والارتقاء والفكر العبثي ص ٥٧ ط دار النفائس ١٩٧١م .

معين ، فضلاً عن أن يكون هذا التجمع له وضع ثابت[١]، وإنما كان القاسم المشترك هو التجمع والتلاقي ، من ناحية المفهوم ، إذ لم يكن بالإمكان إبراز صورة دقيقة له . وهذه الخطوة لم تشر إلى الوسيلة التي قامت بهذا التجميع كما لم تعرف بها ، وهل هي أيضاً من داخل المادة الصماء ، أم من المادة الحية التي نتجت عن المادة الصماء ،مما يؤكد أن الفكرة تقوم على مجرد الفرض .

ج ـ التكامل :

وهي التي تم فيها ظهور النشوء الكامل ، على أساس أنه نشأ من تجميع الخلايا الأحادية أول الأمر، نوع الحيوانات المائية ، التي عاشت قروناً طويلة في تنازع مستمر من أجل البقاء بين الشواطئ في الأماكن النائية ، ثم ظهرت الحيوانات البرية ،من خلال عملية انفصال جديدة، اقتضى إتمامها الاستمرار في درجات التطور العديدة [٢] .

وبهذه المرحلة تكون عملية النشوء قد استوت على عودها، وأتمت بناءها فيما هو قائم على المفاهيم المتعامل بها فيما بينهم . لكن عملية النشوء هذه يهدمها الكثير من النظريات العلمية ، كما تقضي عليها ما يرد على النواحي العقلية ، أما لماذا ؟

١ ـ أنها عجزت عن تقديم تفسير مقبول عن وجود دافع بعينه في الجزء الذي انفصل عن المادة الخام الجامدة الصماء العمياء ، ولماذا وقع الانفصال على هذا الجزء بعينه[٣]، مع أن أجزاء المادة كلها متساوية ، وليست لها إرادة فاعلة ،

---

(١)الدكتور / رمزي محمد السيد ـ جنايات التطور على الدين والعلم ص ٨١ ط دار المختار ١٩٦١م .

(٢)جاكوب بروتوفسكي ـ التطور الحضاري للإنسان ص ٩٧ .

(٣)وبالتالي فهي فرضيات قدمها علماء أو غير علماء ، لكن بدا فيما بعد أنها غير صحيحة ، ولكي نقبل الأفكار الجديدة يجب أن تنجح في كل الاختبارات الصعبة جدا ـ الدكتور كارل ساغان الكون ص ٨١ ترجمة نافع أيوب لبس عالم المعرفة العدد ١٧٨ أكتوبر ١٩٩٣م .

ولا قدرة متميزة ، بجانب خلوها من المعارف والقدرات العقلية .

٢ — إنها لم تتحدد الفترة الزمانية التي ابتدأت فيها ذات الحركة ، مع أن الزمن أجزاء صغيرة ، وفي نفس الوقت لم تحدد المدة التي تم فيها النشوء على وجه دقيق[1]، مما يؤكد أنها مجرد فكرة خيالية ، أو فرض وهمي .

٣ — أنها لم تمهد العقل حتى يسمح بقبول فكرة تحول أجزاء المادة الجامدة ، إلى مواد حية يقع بينها التلاقي والتجمع ، بحيث تظهر العمليات النشوئية في شكل منظم دقيق ، من غير إحالة هذه كلها إلى الله تعالى .

المرحلة الثانية : التطـــــور :

بناء على فكرة التقويم الذاتي للخلايا ، أو التولد الذاتي ، أو التحول المتباين[2]فإن التطور البيولوجي الإحيائي ، يقصد به كل الخطوات التي تفصلنا عن أسلافنا من القردة العليا، الذين شغلوا بضعة ملايين من السنين[3] باعتبار أن الحياة الأولى بدأت بصورة تشبه خلية حية واحدة منفصلة من المادة الصماء الأم

كما يعرف بأنه تغير وانتقال تدريجي مستمر ، داخل الكائن الحي ، خلال فترات زمانية متطاولة[4]تلاقت مع بعضها على سبيل التواصل المستمر بمعنى أن حلقاتها لم تنقطع ، كما لم تحصل بينها أية صورة من صور الانفصال أبداً.

وطبقاً لفكرة أو مبدأ الانفصال الخلوي ، فقد حدثت استجابة ذاتية من داخل

---

(١) يقول دي بروجلي : لا نستطيع تحديد زمن كوني يكون واحداً بالنسبة لكل من الراصدين — الدكتور لويس دي بروجليه — الفيزيا والميكرو فيزيا ص ١٣٢ .

(٢)ويطلق عليه دارون اسم الانتخاب الطبيعي الذي يقوم على ثلاثة أجزاء :

أ — الانتاج المتزايد . ب — التباين والاختلاف ج — الوراثة .

(٣)جاكوب برونوفسكي — التطور الحضاري للإنسان ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) الدكتور محمد مصطفى الفولي — بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية ص ٧٢ ط ثانية منشأة المعارف ١٩٨٤م .

الخلية المنفصلة،جعلتها تطور نفسها ذاتيا،واستمرت هذه الخلية في هذه العمليات المتواصلة حتى نجحت في فصل بعضها عن الآخر من كل الملامح .

إذ صار بعضها نباتاً ، والبعض الآخر حيواناً ، والبعض الثالث يعد نفسه لنوع من التطور لم يفصح عنه ، وكانت هذه العمليات كلها تتم داخل صورة خلية واحدة الأصل ، وهو التطور الأولي[١] في الناحية البيولوجية ، الذي يلي مرحلة النشوء مباشرة .

غير أن هذه الخلايا المتطورة ذاتيا ، الموجودة في صور الأشياء على الحقيقة ، ظلت تنازع غيرها في سبيل البقاء ، وتتصارع معها من أجل ذات الهدف ، كما ظلت تقاوم نزعات الخصوم الألداء ، حتى أمكنها أن تجعل فيما بينها اشتراكا مستمرا ، ينزع بها إلى ما فوق مجرد التجميع للخلايا المشتركة ، فظهرت أنواع الأميبا والبواليب ، باعتبارها موجودات فيها شئ من التكامل يميزها عن غيرها .

ثم استمرت المسألة التطورية آخذة في الزحف نحو التطور الاضطواري ، فظهرت الحيوانات الرخوة ، التي لا فقار لها أول الأمر[٢] ، ثم تطورت ذاتيا إلى أن صارت فقاريات ، ثم ذوات الثدي[٣]، ولكنها في نهاية المرحلة ظهرت معها ملامح بسيطة للإنسان الأول ، كخطوة متقدمة في سلم التطور البيولوجي ، وهو المعروف بالتطور النهائي ، أو التطور التقدمي ، أو التطور الآخذ في الرقي[٤].

---

(١) الأستاذ / إسماعيل مظهر — تطور الكائنات الحية ص ٢٠ .

(٢) وبناء عليه تكون الحيوانات اللافقرية أسبق وجوداً من الفقاريات، لكن كيف نشأت اللافقاريات من الخلية الجامدة ، هذا ما فشل التطوريون في الإجابة عليه .

(٣)الدكتورة أمل فخرى — الوراثة ونشأة الأنواع ص ١٤٥ .

(٤) جاكوب بروفسكي — التطور الحضاري للإنسان ص ١٧٥ .

وقد استمر هذا التطور منذ ابتدأ ، ولم ينقطع بعد ، ونحن لا نوافقهم على شئ من ذلك أبدا ، لأن الله خلق الإنسان إنساناً ، وخلق القرد قرداً ، وخلق الحيوان حيواناً ، وجعل ذلك من دلائل وجوده تعالى ، كما أنه من معالم الحكمة في صنعته جل علاه .

إذن التطور ليس حركة واحدة تعقب النشوء ، وإنما يمر بأدوار ، كل دور منها يمهد للذي بعده ، وأبرز هذه الأدوار ما يلي :

١ ــ دور التطور الأولي:

وهو الذي أعقب عملية الانفصال الخلوي ، حيث حدثت استجابة ذاتية من داخل الخلية المنفصلة الأولى ، جعلتها تلجأ إلى التطور الذاتي داخل الخلية الأولى ، خلية الأصل الواحد الذي جاء من بعد النشوء مباشرة .

٢ ــ دور التطور شبه المتكامل :

وهو الذي يلي التطور الأول ، وظهرت فيه عملية النزعات والرغبات ، وتجميع الخلايا المشتركة ، التي مهدت لظهور أنواع الكائنات الحية الأولي في أشكالها اللافقارية .

٣ ــ دور التطور المتكامل ــ التطور التقدمي :

وهو الذي ظهرت فيه الكائنات الحية في أنواعها النباتية والحيوانية ، والإنسانية لكن من حيث الصور والمبادئ،لا من حيث الصورة الواقعية النهائية

خطوات التطور :

على أن عملية التطور التي يقول بها الإحيائيون ، قد تمت جميعها من خلال عمليات انفصال كبرى ، استمرت على التوالي في تاريخ الكون فترة من الزمان وكان المظهر الدافع لها هو وجودها في تدرجات تطورية ، ومن ثم يمكن القول بأن مرحلة التطور عن الإحيائيين قد جاءت من خلال خطوتين :

الأولى : خطوة التطور الاجمالي وهي التي وقع فيها استسلام الخلية الحية الأولى إلى قبول الحركات الداخلية ، واستمرار ذلك القبول ، بمعنى أنه حدث تطور من الخلية الأولى الأحادية التي انتهت إليها عملية النشوء ، إلى الخلية المشتركة على وجه العموم ، ومن ثم فهو تطور إجمالي ومعناه استعداد العناء الخلوي للحركة والانفصال الداخلي .

الثانية : خطوة التطور التفصيلي — النوعي ، وهي التي وقع فيها تعاون بين الخلايا التي من جنس واحد ، حتى ظهرت لها صور وتجمعات متقاربة في أجناسها وأفرادها النوعية بمعنى أنها وقع فيها تطور من الخلايا المشتركة ،إلى الحيوانات اللافقارية ، ثم تطور آخرمن اللافقاريات إلى الفقريات والثدييات[1] ثم إلى ما بعد ذلك حتى وصل الأمر إلى المرحلة الأخيرة التي تسبق الارتقاء مباشرة ويعرف بالتطور التفصيلي أيضاً .

صور التطور :

يذكر التطوريون أن التطور لابد أن يتخذ خطوات محددة حتى يبلغ القمة، كذلك يظهر في صور متعددة بالنسبة للكائنات الحية كلها ، ومن أبرز هذه الصور ما يلي :

١ — صورة التطور المتشعع أو المنتشر:Divergent evolution

وهذه الصورة يعبر عنها بأنها عملية خروج مجموعة أو مجموعات صغيرة تنفصل عن المجموعة الأصلية ، ثم تنتشر هذه المجموعات الصغيرة في اتجاهات مختلفة سواء أتم ذلك عن طريق الهجرة الجبرية، أم بالانتقال القصدي أم العقدي أم أية وسيلة أخرى .

ثم تنعزل هذه المجموعات عن بعضها ،إنعزالا كاملا وتعمل كل منها على

---

(١) روبزالسكي — الوراثة ونشأة الأنواع ص ١٦٣ .

التكيف داخل المجتمع الجديد ، وذلك يؤدي إلى ظهور أنواع جديدة تكون لديها القدر الأكبر على التكيف الطبيعي،مع ظروف المجتمع الجديد الذي حلت به ، بحيث يصير هذا الموطن أو البيئة الجديدة ، كأنه الأصل أو البيئة الأصلية[1].

وهذه الصورة قد لوحظت في بعض الكائنات الحية من خلال متابعة تاريخ الكائنات الحية ، في عالم الطيور، ولكنها غير دقيقة ، كما لا تقدم قاعدة يمكن التطبيق عليها . كما لا تنطبق على بني الإنسان أيضا ، بدليل أن محمد على باشا،حينما أراد تطبيق ذلك عمليا مع الجنود المصريين ، والجنود السودانيين ، كانت النتيجة وفاة العدد الكبير منهم، ونفس الحال تم مع قيادة روسيا في الحروب العالمية الثانية حيث عجز الجنود الألمان عن التكيف داخل البلاد الروسية ، بما فيها من ظروف بيئية غير مستقرة ، تمثلت في البرودة الشديدة ، وغير ذلك مما أدى إلى وفاة الكثيرين منهم .

فالتاريخ الحيوي نفسه شاهد على أن هذه الأفكار افتراضية،كما أنهم يأخذون عصافير داروين في جزر "جالا باجوس" مثالا لذات التطور المشعع ، حيث بدأت من نوع واحد ، ثم تشعبت وتطورت لتكون في النهاية أربعة عشر نوعا ، بعضها أصيل ، وبعضها الأخر تم إدخاله عليها طبقا لظروف البيئة الجديدة.

في نفس الوقت فإن هذا التطور المتشعع لا وجود له في المادة الغير حية ، وإنما هو تطور في كائن حي متكامل — جسم ، روح ، نفس — وبالتالي فهو تطور مجتمعات من خلال الأفراد الذين يمثلون ذات المجتمعات ، وليس تطورا إحيائيا .

٢ — صورة التطور المتلاقي : Convergent evolution:

ويعبر عنها بأنها عملية تقوم بها كائنات حية من مجموعات تصنيفية مختلفة يمضي كل منها في تطوره حتى يتكيف تماما ليلائم ظروفا متشابهة للحياة ،

---

(١)الدكتورة / هدى محمود طلعت — البيولوجيا والإنسان ص ٧٤ ط ثانية دار التواز بالعراق ١٩٧٣م .

بمعنى أنها تنشأ من بدايات مختلفة ، ولكنها تتلاقي في النهايـــة ، أو أن نقطـة التقائها تعبر عن التطور المتلاقي[١].

ومن الأمثلة على ذلك وجود بعـض الحيوانـات المتمثلـة فـي الطيـور والحشرات ، بجانب بعض الزواحف والأسماك ، والثدييات ، التي قـد تكيفـت جميعها للطيران ، بل صارت مستعدة له ، رغم انتمائها جميعا إلى مجموعـات تصنيفية مختلفة ، وكذلك الاختلاف في طرق تطورها ، ووسـائل طيرانـها ، واختلاف أجهزتها ، لكنها جميعا تطورت تطورا متلاقيا محققا رغبتها للطـيران في الهواء[٢].

والملاحظ أن هذه الصورة لم تلتفت إلى الفوارق الذاتية التي تفصل بين كـل مجموعة تصنيفية نوعية من حيث هى ،والمجموعات الأخرى التى ترتبط معها، بصورة ما من الصور ، أو تكون على حالة من الحالات ، في نفس الوقت فإنـها تعجز عن تقديم تفسير مقبول لعدم قدرة هذه المجموعات كلها علـى الطـيران بدرجة واحدة مثلا ، أو البقاء عليها جميعا من غير طيران ، فلماذا افترقت هـذه المجموعات التصنيفية عن بعضها ، مادام التطور يمثل الخطوة الأولـى، التـي يجئ بعدها الارتقاء بالنسبة لها جميعا ؟ !.

المرحلة الثالثة : الارتقاء[٣] :

وهي تقوم على أن الكائنات الحية،التي تولدت كلها عن المادة الصماء ، قـد أخذت في التطور البطئ التدريجي،بحيث لم تقف عند حال واحدة ، كما لم تثبـت في مكان واحد ، إذ كانت عملية الانعزال النوعي ، والانتخاب الطبيعـي تسـير

---

(١) الدكتور فوزي عبد العال غريب ــ التطور ومدارسه ص ١٣٥ ط ثانية دار الكرنك ١٩٧٥ م .

(٢) الأستاذ/ عبد الحميد حسين الدبشه ــ التطور والتطوريون ص ٩٥ ط الدار العصرية ١٩٨٥م .

(٣) وهي المرحلة الأخيرة ،والنهائية في سلم التطور الإحيائي ،لدى البيولوجيين ، ومن ثم يظل الأمر قائما فيـها حتى النهاية بمعنى أنها مستمرة ولن تنقطع ، والسؤال الآن لماذا وقفت عند هذا الحد ؟ !

معه نشوط . من مبتدئه داخل الجماعات النوعية ، طبقا لما هو مستقر في ذاتية الكائن الحي نفسه [١].

وكلما تخطى هذا الكائن رحلة متدنية من مراحل التقدم الحيوي، وصعد إلى مرحلة أعلى منها ، فإنه وهو في داخل المرحلة التي وقف عليها ، أو وصلـــها يكون دور التطور أيضا قائما ، لأنه حينئذ يعمل من خلال التنافس بين الأحيـاء، أو التنازع الحمضي داخل الخلية الواحدة ، مستغلا الوراثة حينـا، أو الاسـتفادة من عملية التباين ، والاختلاف حينا آخر .

وكلما اندفع من المرحلة المتدنية إلى الأعلى منها ، فإنه يكـون مرتقيـا أو مترقيا ، ونلمح ذلك في مفهوم الارتقاء ، حيث ابتدأ الوجود الحيوي الأولى مـن خلال صور متدنية ،ثم حدث في هذه الصور تطور مستمر بطئ جدا ، استغرق ملايين السنين .

ثم قفزت العملية التطورية فظهر الارتقاء التطوري في شبه الخلية ، ثم فـي صور الخلية ، ثم الخلية الأحادية ، ثم أرتقي أكثر عن ذي قبل،فظهرت ملامحـه في الجانب البيولوجي ، من خلال جرثومة الذكر التي تنفصل عنه ، وجرثومـة الأنثى التي تنفصل عنها[٢].

فإذا تم الانفصال لهذه الجرثومات من الأفراد ، وتم التلاقي الجديد للجرثوميـن في الوعاء الرحمي ، حينئذ يحدث إرتقاء لكل منـهما ــ الجرثومـة الذكريـة والجرثومة الأنثوية ــ وبالتالي يتم إيجاد كائن حي مشترك منهما ، وهو الجنيـن الذي ينفصل هو الآخر بعد ذلك عن الأم[١] ليكون إنسانا متكـاملا ، أو حيوانـا متكاملا،لكنه يحمل من صفات والديه بقدر ما تحمل مادة الجين الوراثيDNA.

---

(١)الدكتورة/ هدى محمود طلعت ــ البيولوجيا والإنسان ص ٨٩

(٢)الدكتورة أمل فخري ــ الوراثة ونشأة الأنواع ص ١٨٩ .

(٣)سينوت ــ الخلية والروح ص ١٣ ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر .

من ثم ذهب التطوريون إلى أن الكائن الحي أثناء وجوده في رحلة الحياة ، فإنه يتقدم في نمائه ، متمشيا بتؤدة ، وهوادة ، نحو استحداث فرد ذي صورة محددة تماماً ، طبقاً لمفهوم التقويم الذاتي، والقصدية الآلية الميكانيكية القائمة في ذاتية الكائن الحي نفسه من خلال معيار التطور الحيوي(١)دون حاجة إلى دفع خارجي ، أو قوة مراقبة بعيدة عن بنية هذا الكائن الحي نفسه .

وربما استخدم التطوريون كلمة ارتقاء ، أو أطلقوها على معنى محدود جداً — غير الذي سلف ذكره — يقوم على أن الإنسان يتميز عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ، وأقر بها إليه الحيوان — بمواهبه التخيلية ، وقدرته على رسم الخطط والابتكارات ، والقيام بنوع من الاكتشافات الجديدة ، عن طريق تجميع ملكات مختلفة ، وتزداد اكتشافاته حذقاً وذكاء ، وهو يتدرب على تجميع ملكاته بطريقة أكثر تعقيداً وعمقاً(٢).

ومن ثم يتضح أن عملية الارتقاء تمثل القمة في البناء التطوري ، كما أتضح أنه لا توجد فواصل ثابتة ،يمكن الوقوف عليها بدقة بين المراحل الثلاثة ، وإنما هي فواصل مفترضة أو اعتبارية ، لكنها مصنوعة في خيال القائلين بهذه الأفكار ، ومن الضروري القول بأن هناك فروقا عديدة بين التطور والارتقاء ، كما أن بينهما علاقة من نوع ما .

بيد أن الارتقاء عند التطوريين الاحيائيين ليس نوعاً واحداً ، أو عملية ذات وظيفة محددة ، إنما هو أنواع ، ولكل نوع منها سماته الخاصة به ، ووظائفه التي لا تتعداه ، وإنما تتمسك به أو يعرف من خلالها .

---

(١)أدموند ر — وسينوت — حياة الروح في ضوء العلم ص ٦٢ ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر .

(٢) جاكوب برونوفسكي — التطور الحضاري للإنسان — إرتقاء الإنسان ص ١٤ ترجمة الدكتور أحمد مستجير ١٩٨٧م .

١ - خطوات الارتقاء[1]:

يذهب التطوريون القائلون بالتطور الإحيائي الطبيعي إلى أن الارتقاء يجيء في خطوات متواصلة ، أبرزها مايلي:

الأولى : الخطوة الحيوية - الترقي الأول :

وهي التي تبدأ من لدن انفصال جزء من المادة الصماء ، ثم تدب فيها الحياة من خلال مظاهرها الأولي ، حيث تتحول الخلية من مادة جامدة عمياء ، إلى مادة فيها شئ من الحياة ، تفصلها تماما عن الوصف السابق ، بكونها مادة جامدة أو صماء ، لأنها بعد الحركة التي طرأت على الأصل صارت حية ، ولم يعد بالإمكان اطلاق وصف الجمادية عليها[2]، وهو الترقي الأول .

الثانية : الخطوة التميزية الارتقاء الأوسط :

وهي التي تبدأ من حين تحول الخلية الحية إلى الشعور بذاتها ، ورغبتها في السعي من أجل البقاء ، وحرصها على مدافعة الآخرين ، بغية استنتاج الأقوى ، عن طريق التكيف البيئي من جهة[3]والعمل على الاستفادة بالتباين من جهة ثانية ، لما هو معروف من أن جميع النباتات والحيوان تبدأ حياتها من

---

(١) ويطلق عليها البعض اسم مراتب الارتقاء ، بينما يرى آخرون أنها مراحل ، وقد آثرت استعمال الخطوات مسايرة لما سبق العمل به في كل من النشوء والتطور .

(١) الدكتور أمل محمد فخري - الوراثة والتطور ص ٩٢، والدكتور حسن طاهر - التطور والعلم ص ٦٩

(٣) التكيف البيئي يؤدي إلى فهم البيئة والتوافق معها بأنواعها المختلفة وهي :

الأولى: البيئة الطبيعية التي تتمثل في ظروفها في الحرارة والضوء ، وتوافر الماء ، وما يستتبع ذلك .

الثاني: البيئة الصناعية التي تتمثل في الظروف الجديدة التي يوضع فيها الكائن الحي بغرض اجراء المزيد من التجارب عليه ، أو التأكد من النتائج التي أمكن الوقوف عليها .

الثالث: البيئة الحية ذاتها وهي التي تتمثل في جملة الكائنات الحية المتقاربة في أنواعها ، حيث يقع تدافع شديد بين هذه الأنواع ، وكل يسعى للبقاء ، كالحال مع الأسود ، والغزلان مثلاً ، فإن الأسد يريد البقاء ويقاتل في سبيله ، فيحتاج إلى الغزلان كنوع من الطعام له ، ومن ثم يعمل على اصطيادها ليأكلها ، بينما الغزلان تريد البقاء وتعرف عدوها ، وهي تحاول الهرب منه ، وحينئذ تتخالف الرغبات، ويحدث التنازع من أجل البقاء .

خلية واحدة ، هي الخلية الأولي،أو اللاقحة ــ الزيجوت ــ التي تأخذ في النمــو والانقسام ، بجانب التشكل إلى أنسجة وأعضاء[١] .

إذ التباين بين الأفراد في النوع الواحد ، إنما يساعد على تكيف الفرد ذاتــه مع ظروف بيئته ، كما يساعد على استمرار النجاح في الحياة مع تغير البيئات ، والظروف ، ولهذا يعتبر التباين أساساً في حدوث التغـــير ، كمـــا يمثــل أحــد المراحل الهامة في السلم الارتقائي .

الثالثة : الخطوة العضوية :

وهي التي تبدأ منذ شعور الخلية بأنها أكثر حرصاً على الحياة ، ومـــن ثــم تلجأ إلى استعمال وسائل ، أو استحداث وسائل تضمن لها الاستمرار الحيـــوي ، لكنها لا تقوم على العفوية هذه المرة ، وإنما تقوم على القصدية الذاتية ، بعيــــداً عن الجبرية أو الآلية ، فإذا كانت الخطوتان السابقتان قد ظهرت عمليات التطور فيهما من خلال عملية عفوية ، أو جبرية مقنعة ، فإنها في هذه المرحلة تكـــون قصدية، على نطاق واسع .

ومن ثم يحدث تزاوج بين أفراد ذات طرز جينية مختلفة ،كما يحدث بيـــن ذات طرز جينية متفقة ، وبالتالي تحدث الطفرات الجينية على نحو واسع جـــداً ،تجعل عملية التطور أكثر تقدماً وأعلى أثراً،وأبرز مظهراً.

فالطفرات الجينية بناء على ذلك ، إنما هي ناتج عمليات قصدية ، لجأ إليـــها الكائن الحي ، في إحدى مراحله التطورية ، ليعبر بها عن دخوله دائرة الارتقــاء أيا كانت طبيعة تلك المرحلة،بغض النظر عن كون هذه القصدية كاملة أو جزئية ومن ثم يقول التطوريون أن القصـــدية التطورية والارتقائيـــة، تكون من داخل

---

(١) جورج أوزمان ــ البيئة والتطور الحضارى ص ٩٧ ترجمة لمال صبحي ١٩٨٣م .

الكائن الحي ذاته وليس من خارجه أبداً[١].

الرابعة : الخطوة المتقدمة :

وهي التي تبدأ عند ثبات النوع الذي يرغب في التطور الإحيائي من ذاتـه ، ويعمل على تلاشي الأخطاء المحيطة به ، من خلال عمليات عقلية منظمة ، يتـم فيها تدارس النتائج السالفة ، ووضع الخطط ، والمناهج التي يقف عليها الارتقـاء حتي يكون صلبا قويا ، وهي أعلى المراحل الارتقائية ، كما أنها تظل مصاحبـة للكائن الحي في رحلته الأبدية[٢].

والملاحظ أن خطوات الارتقاء على النحو الذي قال به التطوريون،لا تخرج عن كونها مجرد أفكار نظرية ، غير قابلة للتجريب عليها،حتى يمكن الحكم على الناتج عنها ، كما أنها مجرد افتراضات خيالية،بدليل أن الفواصل التي يجـب أن تقوم عليها عملية التمييز في الكائنات الحية ،لا وجود لها ، فضلاً عن أنها ألغـت من حسبانات أصحابها،وجود أثر لأية قوة خارج نطاق الكائن الحي نفسه ، وهـو مالم يقم دليل أو شبهة دليل على كونه فرضاً يقبل المناقشة ، بل على العكس من ذلك تماما، ثبت أنه مجرد خيال لا قيمة له ، لأن الكون كله يجري بقضـاء الله ، وخلق الكون وما فيه إنما يتحقق بقدر الله ، قال تعالى :" إِنَّا كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ "[٣] .

---

(١) روبرانسكي ـــ الوراثة ونشأة الأنواع ص ١٧٣ ، ويلاحظ أنهم بهذا يعملون على إلغاء الوجود الإلهـــي تماماً كما يعملون على إنكار دور الأسباب الإلهية والسنن الكونية في مسبباتها ، وفي نفس الوقت يؤكدون على نفي القضاء والقدر ،وإثبات الحرية المطلقة للكائن الحي في كل ما يأتي أو يذر ، وهم في كل ذلـــك كـــاذبون وعلى الله يفترون .

(٢)جورج أدموند ـــ الارتقاء قمة التطور ص ١٧١ ترجمة فؤاد عليان ط دار الفكر بيروت ١٩٧١م .

(٢) سورة القمر الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

٢ ـ أنواع الارتقاء :

يتنوع الارتقاء من ناحية المنطوق اللغوي إلى أنواع متعددة ، تقف جميعها في مفاهيم ومصطلحات تناسب القائلين بها ، قد تتلاقي قليلاً ، ولكنها تختلف كثيراً ، ومن ثم سأقدم نبذة عنها حتى استخلص ما يتعلق بالتطور الإحيائي :

الأول ــ الارتقاء التاريخي الحضاري :

وهو الذي يقوم في سلوك الكائن الحي لا في بنيته ، أو أنشطته الخلوية ، انه ارتقاء يتم على الكائن الحي،وليس في داحل هذا الكائن[1]، على معنى أن الكائن الحي هو الذي يقع عليه الارتقاء ، بحيث يدرك ذلك الكائن ما في طبيعته الذاتية ، وما يمكن أن يتحقق له من نتائج تعمل لصالحه

إنه يأخذ بالكائن الحي أخذا،حتى يوقفه على ما لديه من إمكانيات ذاتية ، ثم يدفعه إلى إعادة اكتشافها من جديد ، وكيفية الاستفادة من هذه الإمكانيات داخل البيئة التى يعيش فيها،سواء أكانت هذه البيئة أصلية، أم بيئة صناعية ، والإنسان هو أكثر الكائنات الحية قدرة على الارتقاء ، بما له من ذكاء وحذق ومهارة[2] .

كما أن الإنسان هو الكائن الحي العاقل الذي يستطيع القيام بتدريب ملكاته ، وتجميعها بطرق مختلفة وتدريبها على القيام بالعديد من الأعمال الصعبة ، بل يستطيع فك الرموز المغلقة ، كما يستطيع تحطيم القيود المحكمة ، وفوق ذلك فإنه الأقدر على وضع مشكلات عميقة في طريقه[3]،ثم يقوم بتدريب ملكاته حتى يبحث لها عن حلول واقعية عملية ، ومن ناتج ذلك العمل يزداد رقيا وارتقاء .

(١) جاكوب برونوفسكي ــ التطور الحضاري للإنسان ــ ارتقاء الإنسان ص ٢٤

(٢) الدكتور محمد السيد زهدى ــ التطور ومشكلاته ص ١٨١ ط ثانية دار الفجر الجديد ١٩٨٣م

(٣) وهو حين يفعل ذلك إنما يكون عامداً إلى اختبار قدراته ، والعمل على التأكد من سلامة ملكاته ، بجلب ما يسعى إليه من تحقيق المصالح المختلفة .

الثاني: الارتقاء البيولوجي :

وهو الذي يكون في الخلية الإحيائية البيولوجية من ذاتها[١] دون اعتبار لشيء أخر ، إنه يقوم في ذات الخلية ، ويمثل جانباً من نشاطها الحيوي ، من حيث هي خلية حية بيولوجية ، وهذا الارتقاء يمثل أعلى درجات القمة التطورية الإحيائية التي وضعت الكائن الحي هدفاً لدراستها ، أو موضوعاً تقوم عليه أبحاثها[٢]، وهذا الارتقاء الخلوي البيولوجي،يخالف الارتقاء الحضاري،من حيث أنه يقع داخل الكائن ، بينما الحضاري السلوكي يتم على خارج ذات الكائن .

كما يلاحظ أن النوعين — الحضاري والبيولوجي — يتحدثان عن علاقة ذات الكائن بداخله ، أو خارجه هو ، من غير نظر إلى قوة عليا قادرة ، مدبرة هي قوة الله تعالى وعلمه وإرادته ، أنهم ألغوا من قائمة موضوعاتهم الفكرية أدنى صلة بالله تعالى ، حتى صاروا ملحدين بالله وآياته ، كافرين به ، وما له تعالى من صفات الجلال والكمال والإكرام[٣].والله تعالى توعدهم وأمثالهم بالعذاب الأليم في الآخرة ، جزاء كفرهم بالله وآياته .

علاقة التطور بالارتقاء الاحيائيين :

يرى البعض أن هناك نوعا ما من العلاقة بين التطور والارتقاء،في المفهوم التطوري الإحيائي ، وهذه العلاقة تتنوع إلى صور عديدة ، من ابرزها :

الصورة الأولي : التباين :

حيث يعرف التطور بأنه تغير مستمر ، على ناحية تدريجية ، خلال فترات

---

(١) هذا الوصف قصدت به تحديد التطور الأحيائي فيما له روح وحس وحركة ونشاط وهو الحيوان والإنسان فقط .

(٢)الدكتور محمد مصطفي العولي — بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية ص ٧٣ ، وراجع للدكتورة وفاء سلطان التطور البيولوجي ومدارسه ص ١٩٥.

(٣) وسوف أناقش هذه الأفكار أثناء عرض المبادئ التي يقومون عليها ، وسيكون ذلك في الباب الثالث من هذا الجزء حتى لا أطيل على القارئ الكريم ، أو يقع مني التكرار .

طويلة من الزمن[١]، وبالتالي فهو حركة في إطار زمني متواصل ، أو حقـــب زمانية متواصلة ، لا يقع بينها انفصال حقيقي ، لأن الكائن الحي الذي يقع عليــه التطور الجديد ، أو المستمر هو ذاته الذي كان في المرحلة الأولي لكن مع تغيير طفيف ، وبالتالي فهو ليس شيئاً مستجداً .

أما الارتقاء فيعرف بأنه تغير يؤدي إلى أن يصبح العضو ـ وليس الخليـة ـ أكثر قدرة على أداء واجباته الوظيفية الإحيائية ، من خلال المنظومة الثابتــة التي ينهض فيها[٢].

فالتطور والارتقاء كلاهما قائم على التغير،لكنه في التطور تغير مستمر في مراحل تتسم بالصراع الدائم ، أما في الرقي فهو تغير أدائي ، وليس تغيراً بنائياً

الصورة الثانية : التقدم والتأخر :

التطور سابق على الارتقاء من حيث الوجود، باعتبار المفهوم ، وبالتالي فـهذا السبق هو التقدم نفسه ، ومن ثم فلا يمكن حدوث ارتقاء إلا إذا ســبقه تطــور ، وإلا فعلى أي أساس يقوم الارتقاء،وهذا يستلزم بالضرورة تأخر الارتقــاء عــن التطور.

وبناء عليه يعتبر التطــور بمثابة الأساس الذي يقوم عليه الارتقاء ، كمـــا يعتبر الارتقاء هو القمة التي تنعقد على نهاية التطور ، ومن ثم قالوا أن الرقـــي ينشا عن التطور حتماً[٣]. ولكن هذا الكلام غير مقبول في جملته لما سبق قـــول التطوريين أنفسهم ان كل تطور مهما كان ضئيلاً ، فلابد أن يصاحبه ارتقاء في

---

(١) الدكتور محمد السيد زهدى ـ التطور ومشكلاته ص ١٩٣ ، وراجع بعض مظاهر التقـــدم في العلـــوم البيولوجية ص ٩٥.

(٢) سينوت ـ الخلية والروح ص ٤٥ ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر ، وراجع لوويزافسكي ـ الوراثة ونشـأة الأنواع ص ١٦٧ .

(٣) الدكتور فوزي محمد طه الحلبي ـ نظرات في التطور ومدارسه ص ١٢٩ ط الثانية دار بســـام بســـورية ١٩٧٥م .

أية صورة من الصور[١] ، ومن ثم فإن عملية التقدم والتأخر نسبية ، وبناء عليه فليست هناك حدود فاصلة بين كل منهما ، وإنما يمكن القول بأنه في كل تطور ارتقاء نوعي ، وكل ارتقاء لابد له من تطور أعلى في صورة من سابقة .

الصورة الثالثة : الاختلاف في الرتبة :

بمعنى أن التطور قد يقف عند حالة معينة ، ويحدث بعدها الانهيار ، بدليل أن الإحيائيين أنفسهم يذهبون إلى أن الكائنات الحية آخذة في الصراع من أجل الحياة ، أو التنازع من أجل البقاء ، وأن الأصلح للبقاء وهو الأقوى والأقدر، على التكيف مع ظروف البيئة ، التي تمكنه من الحصول علي غذائه ، وتأمين سلامة أفراده وتنشئة الصغار ، حتى تنضج وتتمكن من التكاثر فإنه يرقي ويظل في ارتقاء مستمر[٢].

أما الذي يعجز عن التكيف مع الظروف البيئية،أو لا يتمكن من تأمين غذائه ، وسلامة أفراده ، أو يفشل في تنشئة الصغار ، ومراقبتها حتى تكبر وتنضج ، وتصير قادرة على مواجهة أعباء الحياة ، فإنه يختفي ويتلاشى منها أيضاً ،ومن ثم فليس كل تطور يأتي بعد رقي ، إنما الارتقاء دائما يكون للأصلح[٣] .

لكن لابد في الارتقاء من تطور يسبقه،إذ لا يقوم الارتقاء من ذاته مباشرة ، وإلا كان تطوراً وارتقاء معاً ، أو كان تطوراً دون أن يوصف بحدوث شئ من الارتقاء فيه ، وبناء عليه فالمراحل الثلاثة ــ النشوء ، والتطور ــ والارتقاء ــ

---

(١) جون كيمن ــ الفيلسوف العلم ص ٢٨٦ وراجع لتوماس للفيج ــ العلم والعصر الحديث ص ١٣٩

(٢) الدكتور محمد السيد زهدي ــ التطور ومشكلاته ص ١٨٥ وراجع للدكتور حسام أحمد الحليدي ــ قواعد التطور ص ٧٤ .

(٣)وبناء عليه فكل تطور لا يستمر في الطريق حتى نهايته ، ولايعتبر من قبيل التطور ، وإنما يعتبر خطة عمل لم تكتمل ، كما أن الأصلح في مفهومهم هو الأقوى في السبق ، والأقدر على التنازع والغلبة ، وتحقيق الانتصار

لدى التطوريين تأتي متلاحقة ، كل واحدة منها آخذة بتلابيب التي قبلها[١] سواء أكان ذلك باعتبار المفهوم ، أم باعتبار الدلالة والمعاني الثابتة .

وهي كلها اتجاهات نظرية ، وافتراضات لا تقوم على أصول ثابتة ، أو أسس واقعية ،كما أن ذات الافتراضات تقابلها افتراضات أخرى على سبيل التناقض تماماً ، فما من فرض قامت عليه هذه الأفكار الإحيائية، إلا ويقابله فرض آخر أقوى منه ، يهدمه ولا يبقي شيئاً منه[٢]، وسوف يتضح ذلك أثناء عرض الأفكار والمبادئ التي قامت عليها مسألة التطور الإحيائية ، إن شاء الله تعالى .

علاقة التطور الإحيائي بالتطور الاجتماعي الماركسي :

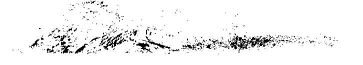
اختلطت العمليات التطورية في رؤس أصحابها ، لأنهم لم يكونوا مستعدين لمعرفتها معرفة جيدة ، حتى يحددوا موضوعاتها،وكيفية البحث فيها من الناحية الفنية الدقيقة ،أو على الأقل لم يضعوا الخطط المنهجية للدراسة التي لابد منها ، بدليل أنهم خلطوا بين التطور الاجتماعي التاريخي المادي الذي نادت به الماركسية[٣]والتطور العضوي الأحيائي الذي نادت به الداروينية مع أن التطور

---

(١) لأن انفصال هذه المراحل عن بعضها معناه فقدان العملية التطورية أحد الزوايا التي تقوم عليها ، أو افتقاد أحد الأضلاع التي تمثل التطور الإحيائي على وجه العموم .

(٢) وما زالت الآراء حول التطور الإحيائي قائمة بين قلة مؤيدة ، مندفعة بأحد الدوافع ، بينما الأكثرية العلمية ترفضه وتقدم على الرفض العديد من الأدلة ، وفي ذات الوقت يظهر أهل الفكر الإسلامي حيث يدرسون الموضوع من زواياه المختلفة،ثم ينتهون إلى إثبات بطلان الفكرة من الناحية العلمية والدينية والأخلاقية مادامت تستند في الخلق والعناية إلى الطبيعة لا إلى الله تعالى .

(٣) التطور الماركسي تطور طبقي يعبر عن اتجاهات سلوكية ، ولا يعبر عن واقع عملي معاش ، أو اتجاه تجريبي يمكن التطبيق عليه ، كما يمثل صورة من التطور داخل النطاق التاريخي الذي يمثل الوعاء الزمني للأحداث ــ راجع للدكتور محمد السيد سليمان ــ الماركسية والتطورات التاريخية ص ٧١ .



الاجتماعي التاريخي[١] غير التطور الحيوي من نواح كثيرة أبرزها :

١ — التعريف أو المفاهيم :

فالتطور الاجتماعي هو : العملية التي ينتزع بواسطتها الإنسان وسائل وجوده من العالم الخارجي ، أي غذاءه ، وملابسه ، ومأواه ، ويطلق عليه ماركسية عملية الإنتاج ، أو شكل الإنتاج ومنهجه[٢]، فالإنسان هو الغرض بالنسبة للتطور الاجتماعي ، كما أنه يتحول بالإنسان من طبيعته المسالمة ، إلى صورة متوحشة تجري فيها عوامل العنف والإرهاب حتى يتمكن ذلك الإنسان من انتزاع وسائل وجوده.

بينما يعرف التطور الإحيائي بأنه العملية التي يقوم بها الكائن الحي ليحقق مصالحه الذاتية ، متوافقا مع البيئة التي يعيش فيها ، والزمن الذي يعاصره[٣] دون أن تكون له غاية أخرى أو يفكر في شئ وراء ذلك .

وهو تعريف قد لا يتوافق مع المقدمات التي يسعى التطوريون للوقوف عليها ، كما لا يتوافق مع الغايات التي يعلنونها ، لكنه لا ينقل الكائن الحي من طبيعته إلى طبيعة أخرى ، وبالتالي فالعدوانية التي قررها الماركسيون في الإنسان على وجه الضرورة ، غير موجودة لدى الإحيائيين بذات الشكل أو الصورة الصارخة.

٢ — المراحل التي يمر بها :

يمر التطور الاجتماعي المادي بمراحل خمسة هي :

المرحلة الأولي: مرحلة الشيوعية الأولي ، وهي أخس المراحل لأنها أدناها [٤].

---

(١) هذا التطور الاجتماعي التاريخي ، غير التطور الإحيائي وإن كانت هناك بعض ظواهر مشتركة لكن عملية التباين بينهما غاية الوضوح ، وهو ما يظهر في الفروق الكبيرة بين كل منهما.

(٢)د — اوسبورت — الماركسية والتحليل النفسي ص ٩٢ ترجمة الدكتوره سعاد الشرقاوي ط دار المعارف

(٣)روبرت مارتن — التطور والتطوريون ص ١٩ ترجمة السيد حنفي ط دار الوفاء ١٩٧٥م .

(٤) وهي المرحلة التي لابد أن تكون موجودة حتى تمهد لغيرها تماما .

المرحلة الثانية: مرحلة الرق،وهي أعلى من سابقتها قليلاً، وأدنى من غيرها[١]

المرحلة الثالثة: مرحلة الإقطاع ، وهي أدنى من مرحلة الرق ، وأفضل منها ، لكنها تمهد للرأسمالية ، وبالتالي فهي أدنى من الرأسمالية ، وأعلى من سابقتيها.

المرحلة الرابعة: مرحلة الرأسمالية ، وهي أرقى من مرحلة الإقطاع ، ولكنها مرتبطة بها ، وفي نفس الوقت تمهد للشيوعية الأعلى .

المرحلة الخامسة: مرحلة الشيوعية الراقية ، وهي الشيوعية المتأخرة ، وهي ارقي من المراحل الخمسة[٢]التي يبدو من خلالها التطور الاجتماعي الماركسي.

أما المراحل التي تمر بها عملية التطور الإحيائي فهي :

المرحلة الأولي : مرحلة النشوء من العدم ، أو الخروج من المادة الصماء إلى الحياة المتحركة.

المرحلة الثانية : مرحلة الارتقاء من النشوء الأول ، إلى ما هو ابعد من ذلك .

المرحلة الثالثة : مرحلة التطور المتواصل في أصوله القائمة .

المرحلة الرابعة : مرحلة الارتقاء الأعلى ، والاستمرار فيه حتى النهاية .

بناء على ما سلف يتضح أن هناك علاقة من نوع ما ، تجمع بين التطور الاجتماعي ، والآخر الأحيائي ، وبالتالي فلابد أن يكون لكل منهما تأثير مع الآخر ، أو عليه .

٣ – الموضوع والغاية :

موضوع التطور الاجتماعي هو سلوكيات الإنسان فقط ، من ناحية ماليتعلق بهذا الإنسان ، لا كمجرد كائن حي ،وإنما من حيث ما يتعلق بنوعية سلوكياته ، ومسائل وجوده في الحياة ، وعلاقة ذلك كله بالعالم الخارجي المحيط به ، بناء

---

(١) وبالتالي يمكن النظر إليها على أنها مرحلة وسط بين الأخس والأعلي .

(٢)الأستاذ / محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة ص ٣٧٥ .

على فكرة بقاء الأنا الذاتي[١].

أما غايته فهي قائمة على الرغبة في أن يكون هو الأنا الأعلى ، مع عدم الانصياع لمتطلبات الأنا الآخر،في محيط الصراع،الطبقي فوق السلم الاجتماعي على أساس أن فكرة الأنا الأعلى هي التي يجب أن تكون لها السيادة ، والسيطرة على باقي الأفكار والاتجاهات الأخرى ، كما أنها التي تحرك رغبات النفس الداخلية ، ومن ثم تكون لها السيطرة الكاملة على التصرفات الإنسانية[٢].

أما موضوع التطور الإحيائي بالمعنى الواسع فهو الكائنات الحية كلها ، الإنسان والحيوان ـ النبات ، من حيث البيئة الأصلية،والخلية التي تقوم عليها ، والمراحل التي تمر بها كل على حدة ، من خلال تلك التطورات المستمرة بقصد الارتقاء المتواصل ، مع الصراع المستمر في حدود تنازع البقاء[٣]من خلال مفهوم بقاء الأقوى .

أما غايتها فهي اكتشاف العلاقات الجوهرية التي تربط بين الأصول الأولى لهذه السلسلة من الكائنات ، ثم السير في هذا الطريق حتى يتمكن الإنسان العاقل المفكر من إنتاج إنسان آخر له المواصفات التي يريدها ذات المنتج ، وكان هيكل يقول ، أعطني هواء وماء ، ومواد كيماوية ووقتاً ، ثم انتظرني ، وأنا أصنع لك إنساناً[٤].

فالتطور الأول من وجهة نظرهم، قامت به الطبيعة وحدها، أو أنه نشأ بتأثير الطبيعة المطلقة ،أو تأثير المصادفة العمياء[٥].

---

(١) أ.ب . بنسيون ـ الأنا الذاتي والآخر ص ١١٧ ترجمة لويس عزمي ط دار القلم .

(٢)الدكتور ـ صبري حسن ضبيع ـ التطور التاريخي وتفسيره للأحداث ص ٤٥ ط سعيد رأفت ١٩٨١م

(٣)هذا المبدأ يقضي تماماً على فكرة المثالية التي نادى بها كثير من الفلاسفة ، كما يزيح من طريقه دور الدين في إصلاح النفوس ، وتهذيب سلوكياتها .

(٤)الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان ـ الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه ص ١٥٢ .

(٥)جراهام كانون ـ نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٥٣ .

أما التطور الثاني ، والذي بعده ، وهو الأخير فتقوم به الكائنات الحية عن طريقها هي ، بعيداً عن الرضوخ لتأثيرات أو قوى خارجية[١]، وبالتالي فكل منهما ـ التطور التاريخي الاجتماعي ، والتطور الأحيائي ـ يلغي من حساباته وجود الله تعالى ، كما يحذف قدرته جل شأنه ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

٤ ـ الانتساب :

نسبت الوضعية الاجتماعية إلى كثيرين ، وكل منهم كان له دور فيها، فهي مجهولة الأصل من كل ناحية ، كما هي مجهولة المنشأ ، إنها أقرب الأفكار إلى اللقاطة التي لا يعرف لها واضع ، أو أب تنتسب إليه ، ومن ثم يدور آباؤها حول ماركس ، واميل دوركايم ، وأوجست كونت ، وأونيل هارفي ، بجانب توماس هوك ، وكثيرون غيرهم ممن يدعي نسبته إليها ، أو نسبتها هي إليه .

أما الوضعية الإحيائي فهي الأخرى فقدت النسبة الصحيحة ، ولم تعد لقيطة فقط ، وإنما هي مهد سوء اللقطاء ، ولذا ظهر لها ألف اب ، ولم تعرف لها أم واحدة ، أو بلد محدد ، فمن آبائها أرازموس داروين ، وجوليان هكسلي ، ولامارك ، ثم داروين ، ووالاس بجانب مالتوس وهيكل وماندل وفريزر وغيرهم[٢]ولاشك أن فقدان النظرية الهوية الأصلية المحددة ، يؤكد أنها من عمل الشيطان ، وهو الذي ينطبق على كل من الوضعية والمراكسية ، كما ينطبق على الداروينية والعلمانية والوجودية وباقي الاتجاهات والتيارات الفكرية المنحرفة.

---

(١) وكل من النوعين لم يعر اهتماما لعقيدة وجود الإله القادر ، كما لم يتح أى مجال للفعل الإلهي ، وبالتالي فالجبرية قائمة من داخل نطاق الخلية ، والخبطة العشواء أيضا فيها قائمة ، بجانب أن الحركة التي يقوم بها ذات الكائن تجئ فيها القصدية على ناحية من النواحي ، وكلها مسائل متناقضة يضرب بعضها الآخر حتى يوسعه ضربا وتبريحا ، كما يشبعه قتالا أو تذبيحا .

(٢) راجع الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الجزء حيث تحدثت عن أبرز المقعدين لها .

٥ ـ الموقف من الدين والأخلاق:

عمل التطوريون الاجتماعيون على إلغاء دور الدين من النفوس ، وأقاموا البديل عنه في التفسير التاريخي المادي ، فالتاريخ عندهم هو الإله المعبود ، والأحداث التاريخية هي التي ترسم من خلال التسلسل الزمني[١] .

حتى انتهى الأمر بهم إلى اعتبار الدين والأسرة والزواج ، بل والأخلاق أمورا أفرزتها قدرات العقل الجمعي ، القائم على التغير المستمر ، والتحول الذي لا ينقطع(٢) والدفع المتوالي يصاحبه نحو الغاية التى حددها له .

ونفس الحال بالنسبة للتطور الإحيائي فقد سارعوا إلى إلغاء منزلة الدين من النفوس، وادعاء أن هذه الأفكار المتعلقة بالله وصفاته،إنما هي من قبيل الأساطير والخرافات ، وأن القيود التي يفرضها الدين،ما هي إلا قيود صنعها أباء الكنيسة لحرمان غيرهم من ممارسة حقوقهم التي منحته إياها الطبيعة[٣]، وكل ما يجيء من الدين بالنسبة للأخلاق أو التعاملات يجب الدفع به بعيدا عن رغبات الإنسان أما ما منحته إياه الطبيعة الخلاقة ، فيجب الحرص عليه ، بجانب التمسك به .

بيد أن هذا الموقف يؤكد أن التطوريين جميعا ـ اجتماعيين وإحيائيين ـ قد قفزوا فوق الثوابت الصحيحة ، وحاولوا هدم القواعد السليمة ، وإزاحتها من الوجود ، أو على الأقل إزاحة ما لها من سلطان على النفوس ، ومن ثم تلاشت

---

(١) تاريخ البحث في التطور الإحيائي من الناحية البعيدة عن النصوص الشرعية لن تنتهي حلقاته ، وإنما ستظهر في الأفق اتجاهات إما مؤيدة للقائم ، وإما مناهضة له ، وإما معدلة في القوانين والمبادئ ، وإما مضيفة إليها ، والشواهد على ذلك ماتزال قائمة .

(٢) يقوم التطور التاريخي الماركسي على عدة مبادئ منها : أ ـ وحدة الاحتواء وصراعها ، ب ـ تحول الكم إلى كيف ، ج ـ التركيب أو نفي النفي ـ راجع لبليخانوف ـ القضايا الأساسية في الماركسية ص ٣٧ وراجع للينين المادية والمذهب التجريبي النقدي ص ٤٣ وللدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ـ نقض أوهام المادية الجدلية ـ الديالكتية ص ٦١ / ١٠٢ .

(٣)الدكتور محمود رمضان ، الدكتور محمد ثروت العجمي ـ التطور والدين ص ١٤٥ ط ثانية ١٩٧٧م .

المعايير ، وتقطعت أوصال القيم ، وانهدمت الأخلاق . وذلك من الغايات التي سعت إليها العلمانية منذ ظهورها ، وهي تحويل المجتمع الإنساني كله من مجتمع فيه ملامح إيمانية إلى مجتمع لا ديني على الإطلاق[1] ، وحينئذ تتحول قضايا الدين الإلهي من نصوص شرعية ، وقواعد صحيحة إلى مجرد أفكار تقبل لدى أصحاب العقول المتواضعة .

في نفس الوقت فإن هذه العقيدة الإيمانية ترد من أصحاب العقول العالية ، الذين ارتضوا العقائد الفلسفية بديلا عن العقيدة الإلهية ، كما ارتضوا الانحلال كبديل عن القيم الراقية، وقرروا السير في اتجاه العربدة ، بدل نظام الأسرة المستقرة .

وذلك مما يؤكد أن المجتمع الإنساني مستهدف من العصابات الشيطانية الذين استنكفوا السير في طريق الهداية ، واندفعوا للإلحاد والغواية[2]، يستوي في ذلك أن يكونوا من الماركسية ، أم من الداروينية ، أم من غيرهم .

وفي تقديري: أن التطور الاجتماعي والإحيائي على النحو الذي سلف قد مهدت له عوامل كثيرة ، من أبرزها :

١ ـ انعدام الوازع الديني في نفوس القائلين بهما .

٢ ـ الرغبة في إحلال الأفكار الفلسفية في النفوس ، محل النصوص الشرعية الإلهية.

٣ ـ الاعتقاد بأن هذه الأفكار تمثل مجهودات عقلية ناضجة .

٤ ـ تصور إمكانية هذه الأفكار في القدرة علي تقديم حلول للمشكلات القائمة .

٥ ـ السعي لضرب الكنيسة ورجالها،وإفساد العلاقة القائمة بينها،وأفراد المجتمع

---

(١)الدكتور محسن محمد الفواز ـ العلمانية وعلاقتها بالماسونية ص ٧٧ ط أولي مطبعة دار الجيل ١٩٧١م .

(٢) راجع كتابنا : من وحي البيان في جماعة الشيطان ، حيث عرضت بعض النماذج التي توضح هذه الاتجاهات المنحرفة التي تقوم به الجماعات الإسرائيلية .

وكل من هذه التيارات والأفكار السالفة على غير صواب ، لأنها تخالف النصوص الشرعية المتعلقة ببيان ما يلي :

(١)الصورة التي خلق الله عليها الكائنات الجمادية والنباتية والحيوانية والإنسانية ،وهي حقائق ثابتة، وقديما قيل حقائق الأشياء ثابتة والنصوص الشرعية قد دلت على ذلك أكمل بيان وأجلى صورة .

(٢)المواد التي خلق الله تعالى منها هذه الكائنات ، والأنسال التي جاءت منها، والمراحل التي قامت عليها .

(٣)الغايات التي تجئ فيها ، فالله تعالى وحده هو الذي خلقها ، وهو سبحانه الذي أنشأها من غير مثال سابق ، وأجرى فيها قدرته من غير ممانعة أبدا ، وبالتالي فكل من الداروينية والماركسية وأمثالها إنما تصادم الأحكام الإلهية، كما تهدم الأخلاق الإسلامية ، وتسعى لتدمير الخط العام للبشرية ، حيث يتحول الإنسان الاجتماعي الطبيعي إلى أناني قانص للفرص ، يعدو خلف منافعه وحده ، عدو لذئب المفترس ، خلف الحملان الوادعة ، غايته مصالحه الذاتية ، بغض النظر عن مصالح الأخرين .

ومن ثم يتحول المجتمع الإنساني كله إلى قطيع من الذئاب المفترسة لكنها تحمل أسماء إنسانية ، ولها مخالب وأنياب حيوانية ، وذلك كله مخالف لتعاليم رب العالمين .

أما نحن المسلمين فنرفض ذلك كله ، ونتمسك بما جاءنا عن الله تعالى في كتابه الكريم ، وسنة حبيبنا المصطفي سيد الأولين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

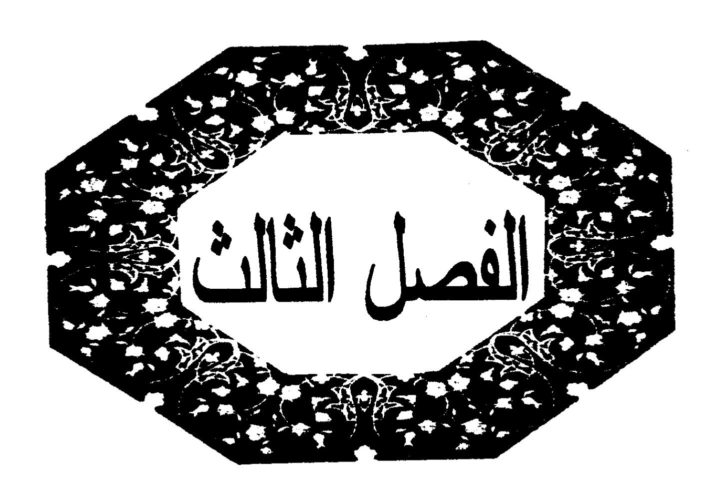
قال تعالى : " ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمآئه سيجزون ما كانوا يعملون وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون

والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمـــون وأملـــي لـــهم إن كيـــدي متين"[١].

فما هي دوافع القول بالتطور الأحيائي ، والأدلة التي قامت فيه ، ذلك مـــا سأحاول التعرض له فيما يلي إن شاء الله تعالي .

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٨٠ ـــ ١٨٣ .



دوافع القول بالتطور الاحيائي

تعددت الدوافع التي قادت هؤلاء الفلاسفة ، المحدثين إلـــى إحيــاء فكــرة التطور التي قال بها الأقدمون من اليونان،وغيرهم في المجال الكوني العام ، ثــم أحدثوا فيها العديد من الأحداث ، وأضافوا إليها العديد من الإضافات ، وأخـــيراً تبنوا آراء مخالفة للقواعد العامة ، والأصول الثابتة .

ودليل ذلك أنهم اندفعوا إلى إبعاد أثر القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد ، بـل صار المجال الحيوي هو الميدان الذي لعبوا فيه،أو مارسوا على أرضه عملياتهم العبثية ، لكن ذلك لا يمنع من الوقوف على الدوافع التي انطلقت بهم إلـــى هــذا الذي خاضوه ، وهي تجئ في مجموعتين :

المجموعة الأولى : الدوافع النفسية :

الأول : تفريغ الشحنة الانفعالية :

ما من واحد انتسب إلى القول بفكرة التكور الإحيائي في أوربا أو غيرهــا،إلا وكانت خلفيته النفسية على غير توافق مع إمكانياته وملكاته الذاتيـــة[1]، فمثــلاً ارازموس داروين ، كانت اتجاهاته النفسية طامعة إلي بلوغ أكبر مما هو فيـــه ، إذ كان يتطلع إلى القيادة ، ويرى أنه أحق بإمساك شراع قيادة بلاده .

فلما لم يفلح في ذلك،أكثر من الحديث عن الأجناس البشرية ، بل ذهب إلـــى توريث الصفات المكتسبة ، مما يعني فشله التام في الوصول إلى منطقة سياســية يأمن فيها على نفسه ، بل كانت عملية توريث الصفات المكتسبة ، التي قال بــها معبرة عن رغبته في ممارسة النفاق السياسي مع النظام القــائم[2] ، إذ مــادامت الصفات الوراثية تكتسب،ثم تورث،فلا مانع من أن يتولي زمام الحكم في البــلاد، أسرة يملك أفرادها وحدهم زمام القيادة .

---

(١)الدكتور / خالد محمد فوزي ــ زعماء الداروينية ص ١٩٥ .

(٢) الدكتور / رزق عبد العاطي صبري ــ الفلسفة الحديثة ومشكلات أعلامها ص ١٤٧ طبعــة دار فــؤاد ١٩٦٧م .

لقد كان أرازموس صورة من توماس هوبز،الذي كان يري الناس وحوشا كاسرة والملك هو المروض لها ، ولابد من التعاقد الاجتماعي الذي يكون بين الملك والرعية ، بحيث يكون الملك ظل الله في الأرض ، وتكون الرعية هي الصورة المثلي الذي يظهر فيها عدل الملك ورحمته[١] ، وقد حقق توماس هوبز من وراء ذلك حياة قريبة من الأسرة المالكة ، فنعم بالرزق الذي أجرى له عن طريقهم ، واستفاد ذلك من علاقته بهم ، وما كان يمكنه الوصول إلى شئ مما وصل إليه ، إلا بالتعاقد الاجتماعي[٢]غير أن أرازموس لم يحقق شيئا من النجاح في هذا الشأن .

كما أن جوليان هكسلي لم يكن على قدر من المساواة في حصوله على حقوقه ، إذ كان يري نفسه أعلى من أن يخضع للأخرين ، لكنه في نفس الوقت لا يملك الجرأة التي تعينه على إعلان فكرة أو توضح موقفه، فاحتبست آماله في صدره رغماً عنه[٣] ، وكان يبحث لها عن مخرج ،أو طريقة ينفس بها عن نفسه فلما لم يقف على هذه الوسيلة لجأ إلى العلوم والمعارف ؛ ولذا كانت له اتجاهات فكرية لم تتفق مع العرف العام آنئذ .

بيد أن هكسلي لم يقف عند آلامه وأحزانه يجتر بعضها ويلوك الآخر ، وإنما قرر القفز فوق الأكتاف ، بحيث يصنع لنفسه مجداً ، أو يعمل على تخليد ذكراه ، وبالتالي هرع إلى العلوم الطبيعية ، التي لم تكن تحظى بالدراسات الجادة في ذلك الوقت[٤] ، ولم يكن هرعه نحوها من باب الحب لها ،وإنما من

---

(١) الأستاذ / عبد العظيم محمد زهران ــ أعلام الفلسفة الحديثة ص ٢٥١ ط دار عبد الرشيد دمشق ١٩٨١م.

(٢) وهو غير العقد الاجتماعي الذي ذهب إليه جان جاك رسو ــ راجع كتابنا خواطر حيشة في الفلسفة الحديثة أثناء الحديث عن توماس هوبز وفلسفته .

(٣)الدكتور / رزق عبد العاطي صبرى ــ الفلسفة الحديثة ومشكلات أعلامها ص ١٥١

(٤) الدكتور/ خالد محمود فوزي ــ زعماء الداروينية ص ١٩٧

باب أنها التي تعينه على تلك الغاية، بل وتمهد له الطريق في تصفية حساباته مع الذين منعوه من تحقيق أهوائه الشخصية .

ومن ثم حاول إبراز توارث السلالات الطبيعية،وإثبات أنها تجئ في ترتيبات بعينها،وأن هذه الترتيبات تبدأ من الأدنى في الوجود حتى تبلغ الأرقي، ولا يمكن لهذه السلالات أن تقفز دون أن تدرج في سلم الترقي درجاً بعد آخر[1]، وكان يرى أن ذلك يفرز عناصر مختلفة ، عن الأصول القائمة ، وأن هذه العناصر المفرزة حديثاً تعمل على الانتقاء للأفضل ، وهو ما عرف باسم الانتخاب الطبيعي .

لقد كان هكسلي على قدر كبير من الخوف ، كما لم يكن يملك قدراً من الجرأة ، وأنه حاول كثيراً استخدام الرمز في التعبير عن أغراضه الشخصية ، أو كان استخدامه له على أنه وسيلة تبلغ به مراده ، لكنه لم يتمكن من ذلك ، ومن ثم فلم يكن حديثه عن الترتيبات السلالية ، أو الانتخاب الطبيعي ، إلا حديث من يهرب إلى ذاته ، بعيداً عن ذاته أيضاً ، مما أوقعه في حرج شديد ، كما أن نتائجه لم يكتب يطاردها الكثير من القبول ، بل صار لها العديد من الخصوم ، ويعدوا خلفها الأنداد .

أما لامارك فلم يكن أحسن حالاً من سابقيه ، وإنما كان على العكس منهم تماماً في الجانب السئ ، وهو ما يعرف بالجانب السلبي ، لقد كان فرنسياً يعشق بلاده ، لكنه في ذات الوقت يكره بكل ما يملك تربع عائلة بعينها على السلطة[2]، وأنه أراد الوصول بالأسرة المالكة إلى المستنقع .

كأنه يريد أن يصرخ بكل ما لديه من قوة قائلاً ، ان الذي يعمل يبلغ المجد ، والذي لا يعمل ينحدر للقاع ، وأنه الأن يعمل،بينما أغلب أفراد الأسرة المالكة لا

---

(١) الأستاذ / عبد العظيم محمد زهران ـــ أعلام الفلسفة الحديثة ص ٢٥٧ .

(٢) الدكتور . رزق عبد العاطي صبري ـــ الفلسفة الحديثة ومشكلات أعلامها ص ١٥٥ .

يعملون ، فهم بذلك القعود عن العمل قد اثبتوا أنهم أغبياء،حتى وان كانوا أغنياء إذ لا قيمة لأبهة الملك ورهبة السلطة ، ما لم تكن حراستهما من العلم [١].

في الوقت ذاته كان لامارك يطمع في المناصب السياسية، التي يتطلع إليها أمثاله، لكن لم يتحقق له شئ من أمانيه،ومن ثم فقد حرص على إثبات أن الزمن لابد أن يتغير ، وأن القيادة العاملة قادمة إلى الطريق ، أما القيادة النائمة الناعمة فليس لها وجود[٢] ، وبناء عليه ظهرت قواعده صورة طبق الأصل مما يدور داخل نفسه، ويجري على التوالي في أعماقه[٣].

إذن لم يكن اتجاه هؤلاء لدراسة تاريخ الكائنات الحية قائماً على رغبة في العلم ، بقدر ما كانت الرغبة هي التنفيس عن مكنونات الصدور ، وأن البحث في تاريخ العلم كان هو اللافتة التي يخفون تحت عباءتها أحلامهم وآمالهم معاً .

بيد أن تشارلز روبرت داروين لم يكن هو الآخر خالي النفس،سليم الصدر، إذ كان يشعر بأنه حفيد رجل طبيب تجاوزت شهرته غيره ، كما كان ينظر إلى والده الذي كون ثروة لا بأس بها ، ثم يقارن بينه وبين غيره من أبناء الأسرة

---

(١) ومتى سقط العلم من عليائه ، واستولي المال على مركز السلطة فإن الأمة كلها تضيع ويكون الفناس قرين أفرادها جميعاً

(٢)الأستاذ / عبد العظيم محمد زهران ــ أعلام الفلسفة الحديثة ص ٢٦٤ .

(٣) وقواعده هي: ١ ــ قانون الأعمال والإهمال ٢ ــ قانون الامتداد والحاجة ٣ ــ قانون تناسب المقدار مع الكفاية ٤ ــ قانون توارث الصفات المكتسبة ، رغم أن هذه القوانين ثبت فشلها على أرض الواقع ومن أبرز الأدلة على هذا الفشل أنه نقل توريث الصفات المكتسبة عن ارازموس داروين ، ثم أدخل عليها بعض التعديلات ، لكن المشاهد أن الحداد الذي تنمو عضلات يديه من استعمال المطرقة ينجب أطفالاً ناعمين إلى أبعد مدى ، كما أن العداء الذي يقطع المسافات في سرعة مذهلة يأتي ابناؤه كسالى خاملين ، كما أن العلم أثبت بطلان هذه الفكرة أيضاً ، إذ بان أن الإنسان يرث عن والديه الصفات من خلال الخلايا الجنسية وليس من طريق الخلايا الجسدية ، بل أن الجينات هي الأخرى دلت على أن اكتساب الصفات السلبية والإيجابية إنما يكون عن طريق الخلايا التناسلية ، ولعل هذا مما أشار إليه الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم ، تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس

الحاكمة التي كانت لبعضهم سلوكيات غريبة ، ساهمت في إذكاء روح العداوة عليهم[١]، ولم تمهد لأحد في التسامح معهم ، إلا إذا تم ذلك من خلال ممارسات عنيفة ، يقوم بها المسؤولون عن الأمن والنظام .

عاش داروين وهو يضمر في وجدانه،أشياء كثيرة مما انطوت عليها نفسه ، ولكنه لم يكن يملك القدرة على إعلانها ، نظراً للتحالف الذي أقامته السلطة السياسية مع السلطة الدينية ، وكان ذلك كفيلاً بإحراق من يفكر في الثورة على الملك ، أو يعلن رفضه الانصياع لأوامره[٢] ، فكان لجوء داروين للتاريخ الطبيعي بمكانة الموئل الآمن ، أو الملجأ القانوني ، بدليل أنه لم يفكر في نشر آرائه ، إلا بعد أن غامر الفرد راسل والاس ، بنشر ذات الأفكار .

ولأن والاس لم يكن يعبأ بشئ ، فقد كان ظهور داروين وآرائه في نوع من الحياء المصطنع ،وبالتالي فقد كان يقف خلف آراء والاس ، حيث يعرضها ويدافع عنها ، ويحاول جاهداً إثبات كونها صادقة وصحيحة معاً، وكان في مراسلاته يحرص جيداً على أن لا تقع أفكاره في هذا المجال،بين يدي أحد ممن لهم علاقة بالسلطة المالكة ، فهو يريد الطعن على توريث السلطة،لكنه غير قادر على أن يقوم بتنفيذ ما يريده ، أو يعمل على ما يتمنى تحقيقه .

بل ان القس روبرت مالتوس لم يكن راضياً عن آراء القيادة السياسية في بلاده ، إذ كان يرى أنهم اقتطعوا هذه الحقوق لأنفسهم ، دون أن يكون لهم سند صحيح ، كما أنهم ـ من وجهة نظره ـ قد عززوا مواقعهم في النفوس عن

---

(١) ونحن في نهايات القرن العشرين مازلنا نسمع عن أخلاقيات الأسرة الحاكمة أو المالكة في بريطانيا ، كما يسمع العالم الأخبار ، ونشاهد على شاشات التليفزيون مغامرات الأسرة المالكة رجالاً ونساء حتى أن العالم كله عاش إنفلاتات ديانا ودودي والتي انتهت بقتلهما معاً ، ومايزال الابن تشارلز يمارس أفعاله الشاذة مع عشيقته كاميلا.

(٢) وأخبار محاكم التفتيش لم تنقطع ، بل يمكن القول بأن آثارها المدمرة امتدت إلى كل مكان أمكنها الوصول إليه .

طريق الدعم المتواصل لأساليب الخوف والقهر ، ولكنه لم يكن يستطيع إعـــلان ذلك ، ومن ثم فلما ذهب إلى دراسة الأنثروبولوجيا ، إنما كان ذلك الفعل بتوجيه من قيادة الدير الذي يتبعه إذ كان مالتوس أول أمره عالماً اقتصاديا،فلما انضــــم إلى العمل بالخدمة اللاهوتية صار واحداً من النساخ،الذين تكلفهم الخدمة الديريــة نسخ بعض المؤلفات.

ويذهب البعض إلى أن مالتوس لم يقدم مؤلفا في الدراسات السكانية ، وإنمـا قدم كتاباً قام بنسخه عن الأصل الأول ، الذي وقع عليه،وكلفته مكتبة الدير القيـلم على هذا النسخ مع بعض زملائه ، ولكنه استقل به ، على أن يقوم زملاؤه كـــل بنسخ كتاب على حدة[1]،فلو صدق هذا الاتجاه لكان مالتوس مجرد ناقل أو ناســخ لكتاب مجهول المؤلف،وبالتالي تكون الأفكار الواردة فيه لصاحبها مجهولة أيضاً لكن سرقتها ثم نسبتها إلى مالتوس ، تؤكد أن الرجل كان في صدره العديد مــن الشجون ، وأنه لجأ للتعبير عنها ، من خلال نشر هذا الكتاب .

بل أن الدارس يجد كل التطوريين الإحيائيين إنما كـــانوا يصــدرون فـــي أفكارهم هذه من خلال ضغوط نفسية داخلية ، بعضها جرت فيه نغمة الوداعــة ، ورغبة البحث العلمي ، والبعض الآخر برزت فيه ملامح العنـــف والفوضـــى ، بجانب العبث ، والقصد إليه .

الثاني : استرداد الكرامة السلبية :

عاشت المجتمعات الأوربية إبان العصور الوسطى نظاماً طبقياً بغيضاً ، حيث قسم أفراد المجتمع إلى طبقات عديدة أبرزها :

أ ــ طبقـــة الحكـــام .

ب ــ طبقة الإقطاع .

---

(١) الدكتور فوزي محمد يسرى ــ زعماء التطورية بين الحقيقة والخيـــال ص ١٢٣ ط دار الجيـــل بـــيروت ١٩٦٧

ج — طبقة رجال الدين .

د — طبقة الفقراء .

هـ — طبقة العبيد[١]

وكانت طبقة الحكام قد تعاونت مع طبقة الكهنوت،على ترسيخ حكم الملك من الناحية الدينية ، وبناء عليه صار الملك حاكماً بواسطة الله ،لا بواسطة البشر وبناء عليه فلا يجوز عزله أو الثورة عليه ، إذ الملك لابد أن يكون وراثياً،طالما كان الملك من السلالة الملكية التي عينها الإله،ومن ثم فقدت كل الطبقات كافة الحقوق ، ولكنها ظلت مرهونة بالواجبات ،عليها أن تعمل ، وليس لها أن تستفيد من عائد عملها[٢].

مثل هذا العمل يقود الناس إلى الثورة على القيادة،لكن كيف يقومون بالثورة ؟ وهذا مما حرمته الكنيسة،وحذرت منه النصوص والتعاليم الكهنوتية،كما حرصت عليه إعلانا وممارسة الطقوس الكنسية.

إذن لابد من طريق يسمح لهؤلاء وأولئك باسترداد كرامتهم السليبة ، وحرياتهم التي انطوت كل صفحاتها،فكان طريق ذلك هو العلم، لكن أى علم ذلك الذي يحقق لهم لابد أن يكون ذلك العلم بعيداً عن سلطان الكنيسة ، ومن ثم كانت ضالتهم قائمة في علم الأحياء وعلم الطبيعة،أوالبحث في المادة وخواصها ، وما ينتج عنها .

ونظراً للتفاوت الكبير بين الطبقات،وعدم قدرة أصحاب الطبقات الدنيا على

---

(١) الدكتور عبد العزيز محمد صالح — أوربا والعصور الوسطى ص ١٧٣ ط أولى ١٩٧٥ ، الدكتور زكي محسن الطويل — العصور الوسطي والنظام الطبقي في أوربا ص ٢٤٧ .

(٢) وكان هذا السلوك العدواني قد دفع بالقديس أوغسطين إلى القول : من منا يجهل أن الملوك والحكام استمدوا أصلهم من أناس لا يعرفون الله ، وأنهم يستجيبون لاغراء الشيطان ليحكمون شهوتهم العمياء في السيطرة على إخوانهم من البشر — الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور — أوربا العصور الوسطي ج ٢ ص ٣٩٦ مكتبة الأنجلو ١٩٨٦م .

الاقتراب من صانعي القرار أو سدنة الحكم ، فقد ظهرت نوازع نفسية عديـــدة ، وصراعات طبقية لم يقدر لها الاستمرار في الخفـــاء ، وإنمـــا قـــام أصحابـــها بالتنفيس عن رغباتهم المكبوته،من خلال قضايا المعمل ، بعضها حالفه الصواب وبعضها الآخر كان ظهيره الانفلات الأخلاقي ، والقيمي والديني أيضاً .

يقول لوكهايد : لقد كان التطوريون أشبه بالقنبلة الموقوتة ، ولكن فتيلها لـــم يكن بأيديهم ، ومن ثم لجاؤا إلى الفلسفة الطبيعية ، كما راحوا يتلمسون طرائقـــهم نحو التاريخ الطبيعي ، حيث وجدوا فيه السلوى ، كما ظنوا أن بيـــن شـــاطئيه الأمان ، ولكنهم ضلوا الطريق ، إذ لم يكن هذا العلم كافياً لاسترداد أرصدتـــــهم العقلية التي ملأها العنف الداخلي ، وسيطرت عليها الرغبة في الانتقام[١].

لقد كان هؤلاء المفكرون يشعرون بأنهم من طبقة دنيا ، أو أنهم مواطنـــون في بلادهم من الدرجات الأخيرة ، ليست لديهم القدرة في التعبير عـــن إرادتـــهم الحرة ، كما لا يطمعون في أن يقع لهم ذلك ، لما للسلطة الحاكمة من صولجـــان وبطش ، وقدرة على بث الرعب في النفوس باسم الدين الطبيعي،الذي تمثله ذات السلطة،أو الدين الإلهي الذي تمثله الكنيسة من خلال رجالها وأفكارها[٢].ومن ثـم كانوا يشعرون في قرارة أنفسهم بأنهم ضحايا بشرية،لا كرامة لهم ولا قيمة [٣]،

---

(١) نورمان لوكهايد ـــ الثورة الفكرية في عصر النهضة ، تاريخ ومشكلات ج ٢ ص ٥٣ ترجمة هناء الطويل مطبعة بوعزيز مراكش ١٩٨١م .

(٢) الدكتور/ محمد صبرى بدوى ـــ أثر محاكم التفتيش في ظهور التيارات المناهضة للدين ص ٢٩٤ ط ثانيـــة ١٩٦٤ .

(٣) نورمان لوكهايد ـــ الثورة الفكرية في عصر النهضة ج ٢ ص ٥٩ وفي هذه الأوضاع يتحـــول العقـــل الطبيعي إلى ما يشبه سلال البارود ما ان تقترب منها النيران ، أو تجد فرصة للإشـــتعال إلا ســـارعت إليـــه ، واشتعلت فوراً ، ومن ثم فإن ظهور هذه الأفكار الرعناء في ذات الوقت ربما يؤكد أنها لم تقم على أسس علمية أو أصول صحيحة ، بقدر ما كانت تعبيراً عن اضطهادات داخلية ، ورفض السير في طريق الخضوع لهـــا ، أو الاستذلال ، والاستسلام المهين .

أو على اقل تقدير ،كانوا على يقين بأن كرامتهم سليبة ، وأنهم كالعملة التي فقدت التعامل بها ، فأكلها الصدأ .

ربما يقال أن استرداد الكرامة السليبة يستلزم الثورة على الأوضاع الخاطئة ، وليس الانحناء نحو العلم الطبيعي ، إذ أن استرداد الكرامة لا يكون عن هذا الطريق ، فلماذا تحسب هذه الاتجاهات العبثية ، من الوضعية والتطورية ، والماركسية والعلمانية وغيرها من التيارات الفوضوية التي تبحث عن استرداد الكرامة ؟

والجواب : أن السلطة السياسية كانت قابضة على زمام الأمور بيد من حديد ، بحيث تملك أغلاق المدارس ، ووضع افراد الشعب رهن الاعتقالات الفردية والجماعية[١] التي لاتنقطع ، كما تملك فرض التعذيب عليهم في شتى ألوانه وأشكالها المختلفة ، وأمر كهذا لا يدعو للتفاؤل ، كما لا يعين على مجرد التفكير في الثورة ، لأن مجرد التفكير في الثورة آنئذ كان كافياً في اتهام صاحبه بالتآمر على السلطة وقلب نظام الحكم ، وبالتالي قتله أو حرقه[٢].

أما الاتجاه نحو العلوم والمعارف فلا علاقة له بالسلطة السياسية ، وإنما يصطدم بالدين اللاهوتي ، وتملك السلطة الدينية إصدار الأحكام على أصحابه ، وكانت تلك الأحكام تنفذ بصورة بشعة ،في العصور الوسطي على وجه الإجمال لكنها بدأت في الاختباء التدريجي ، عند ظهور بواكير الثورة الصناعية حتى انقضى أمرها ، في نهاية القرن التاسع عشر ومطالع العشرين ، بل صار الدين اللاهوتي يقبع في ميدان ثابت ، هو الكنيسة والمعبد والدير[٣] . أما نصوصه فقد كان عليها أن تبقى هي الأخرى داخل أطر لفظية لا تبرحها ، أو تفاسير هزيلة

---

(١)الدكتور عبد العزيز محمد صالح ـ أوربا والعصور الوسطي ص ١٤٨ ط أولى ١٩٧٥ .

(٢)الدكتور/ زكي محسن الطويل ـ العصور الوسطى والنظام الطبقي في أوربا ص ٢٤٩ .

(٣) وهكذا استطاع الفلاسفة في أوربا إسقاط الدين الكنسي من النفوس وإسقاطه أيضاً من كافة الحسابات.

لا تقنع أحداً بصدق ما فيها ، حتى وان أكثر من قراءتها ، وأطال التفكير فيما حولها ، لأن هؤلاء المفكرين نجحوا في تحويل أوربا إلى دولة علمانية كبيرة من حيث الواقع ، حتى وان رفعت ألف راية لنوع من التدين اللاهوتي .

من ثم يمكن القول بأن المفكرين في عصر النهضة الأوربية لجأوا إلى العلم التجريبي واعتبروه الدين الطبيعي الذي يدينون به ، وأكثروا من الحديث عنه ، كما أكثروا من الدراسات التي أقاموها حول قضاياه ، ولكنهم أخفقوا كثيراً حينما انتهي الأمر معهم إلى إنكار الخالق الواحد جل علاه ، أو اعتقاد أن الطبيعة خلقت نفسها ، أو أن حركاتها القائمة فيها عمادها التولد الذاتي ، دون احتياج للخالق العظيم ، المدبر الحكيم ، الله رب العالمين .

الثالث : الضغط على الكنيسة ورجالها :

دين الله للناس جميعاً فيه ما يصلح دنياهم وأخراهم ، وما من نبي بعثه الله تعالى إلا كان هدية من الله تعالى[1]، وهداية للقوم الذين بعث فيهم ، لأن مصدر الإرسال واحد ، وهو الله تعالى، والرسول واحد ، والكتاب الذي يحمله إليهم واحد،في مادته التي يتعلق بها أمر الهداية والتبليغ والإرسال ، وكان كل رسول يطلب من قومه عبادة الله الواحد،ونبذ الشريك أياً كان ، قال تعالى:" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ"[2].

---

(١) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنما أنا رحمة مهداه ، قال العلامة القليني إنما كان كل رسول يهدي قومه إلى الله فكان هو الهدية والهداية أيضاً ، لكن على وجه مخصوص لقوم بأعيانهم ، أما رسول الله الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد كان رحمة مهداة للعالمين ، قال تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين سورة الأنبياء الآية ١٠٧ وراجع للعلامة الشيخ أحمد بن رجب القليني الرحمة المهداة ص ١٧ المطبعة الأميرية ١٣٩٧هـ .

(٢) سورة النحل الآية ٣٦ .

والمعنى أن الله تعالى أرسل جميع الرسل إلى أممهم بعقيدة واحدة ، وعبادة صحيحة،تقوم على الاعتقاد في الله الواحد،وإخلاص الوجه والعبادة له ، فاعبدوا الله ووحدوه ، واتركوا كل المعبودات الأخرى فإنها باطلة ، كالشيطان والكاهن والصنم والهوى ، وكل من دعا إلى الضلال ، فمن الناس من اهتدى بهدى الله ، وصدق بما جاء به المرسلون ، فكان له من الله تعالى الجزاء الأول ، والهداية من الله الكريم المتعال ، ومن الناس من أصم أذنيه عن قبول الحق ، وأعمى عينيه عن رؤية معالم اليقين ، فطمس الله على قلبه ووجبت له الشقاوة لأنه من الكافرين [١].

وقال تعالى :" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ"[٢]والمعنى ما بعثنا قبلك يا محمد من نبي أو رسول[٣]، إلا أوحينا إليه أنه لا معبود بحق إلا الله ، الذي يجب أن تخصوه بالعقيدة الصحيحة ، والعبادة السليمة ، ولا تشركوا معه أحداً ، وكان هذا البلاغ يجئ مع كل واحد من أنبياء الله تعالى إلى القوم الذين بعث فيهم[٤].

لكن بعض الأقوام والأمم تنكبوا الطريق المستقيم ، فتركوا تعاليم الله تعالى، واصطنعوا لأنفسهم ديانات خاصة بهم[٥]، أقاموها من عند أنفسهم ، وساقوا

---

(١)الشيخ محمدين على عبد الواحد الحسيني – تفسير سورة النحل ص ٧٥ ط المشهد الحسيني بالعراق .

(٢)سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٣) وهذا الفهم بناء على أن النبي والرسول بمعنى واحد ، وإليه ذهب بعض المحققين ، كما ذهب بعض آخر إلى أنهما متغايران ، وذهب فريق ثالث إلى أن الثاني تأكيد للأول متى ذكر تالياً له أو أن بينهما نوعاً من العموم أو الخصوص – راجع مجمل الآراء في كتابنا : الغزاليات في النبوات .

(٤) الشيخ محمد زكي عبد المعبود – نظرات في سورة الأنبياء ص ٥٣ ط أولى دار مراد للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٤٣م .

(٥) فمع كونها ديانة خاصة جاءهم بها نبي الله إليهم،إلا أنهم أبعدوها عن أصولها وحرفوها،فصارت خاصة بهم من ناحية تحريفهم ، بل صارت ديانة كاملة التحريف .

الناس إليها سوق الغنم للجازر ، أو تلاعبوا بعقولهم تلاعب أجنة تلهي ألبابهم ، وتسحر عيونهم ببريق خادع ، وحلم كاذب أو إدهاش بالخيالات وإلهاء بما يشبه المعجزات ، ومتى استقر أمر فريق منهم تسلط على الآخرين تسلط الشيطان على القرين ، ليستوي في ذلك من لا دين له ، ومن معه شبهة دين .

اتجاهات اليهود بعد نبي الله موسى الكليم :

بيد أن اليهود بعد نبي الله موسى الكليم قد حرفوا تعاليم الله ، وبدلوا النصوص التي جاءهم بها نبي الله موسى بن عمران من عند الله ، وصاروا إلى أربعة اتجاهات ، تجمعهم رغبة واحدة .

١ — اتجاه المحرفين : وهم الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه عن قصد سئ ونية خبيثة ، قال تعالى:" أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ "[١]، وهم بذلك نقضوا الميثاق مع الله ، فاستحقوا اللعن والطرد من رحمة الله ، قال تعالى :" فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"[٢].

٢ — اتجاه المزيفين : وهم الذين ألفوا كتب الله تعالى إليهم ، وكتبوا كتباً من عندهم نسبوها لله،بغية أن يحصلوا على مال وفير ، أو مراتب دنيوية ،أو يبلغوا في الناس منزلة زائفة ، فتوعدهم الله بالعذاب الأليم،في الدنيا،حيث لا يستفيدون

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٥ ، وقال تعالى :" مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً" سورة النساء الآية ٤٦ .

(٢) سورة المائدة الآية ١٣ ، ويدخل فيهم المبدلون ، لأن التبديل فرع من أنواع التحريف قال تعالى : فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ " سورة الأعراف الآية ١٦٢ .

مما جمعوه ، والعذاب الأليم في الآخرة ، واستحقاقهم العذابين لأنـــهم ارتكبـوا جريمتين ، إحداهما جريمة الكتابة الزائفة على الله تعـالى ، وثانيـهما جريمـة الكسب الحرام.

قال تعالى : " فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِـنْ عِنـدِ اللّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ"[١].

قال صاحب التحرير : ومعنى يكتبون الكتاب بأيديهم،أنهم إنما يكتبون شـيئاً لم يأتهم من رسلهم ، بل يضعونه ويبتكرونه،كما دل عليه قوله ، ثم يقولون هـذا من عند الله،المشعر بأن ذلك قولهم بأفواههم ليس مطابقاً لما في نفس الأمر[٢].

٣ ــ إتجاه الهزو واللعب ، وهم المنفلتون في الظاهر، إنفلاتهم في الباطن ، فـهم أهل إباحية يسخرون مما شرع الله كله ، في الاعتقاد والعبادة ومكارم الأخلاق ، فحكم الله عليهم بأنهم من أصحاب الجحيم ، قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّـارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُـزُواً وَلَعِبـاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ "[٣].

٤ ــ اتجاه الغفلى أصحاب الأماني : وهم الذين يحملون مكتوبـات أحبـارهم ، ويحفظون الأماني التي اعتصمت بها قلوبهم ، وليس لهم وراء ذلك شئ آخـر ، إنهم لا يعملون شيئاً عن ما يحملون ، ولا يفقهون حال ما عنه يتكلمون ، قـال تعالى : " وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَـانِيَّ وَإِنْ هُـمْ إِلاَّ يَظُنُّـونَ "[٤]

---

(١) سورة البقرة الآية ٧٩ .

(٢) الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ــ تفسير التحرير والتنوير ج ١ ص ٥٥٣ ط الحلبي الأولي ١٣٨٤هـ ١٩٦٤م .

(٣) سورة المائدة الآيتان ٥٧ ، ٥٨ .

(٤)سورة البقرة الآية ٧٨ .

فصاروا كالأحمرة التي تحمل فوق كتفها مالا تعلم عنه شيئاً ، قال تعالى :" مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ "(١).

ومجتمع كهذا افتقد العناصر الأساسية لبقائه ، والمحافظة على كيانه ، يسلط الله أفراده على أنفسهم ، كما تتسلط شياطينهم عليهم ، ومن ثم تقع فيه الفواحش وتكثر الجرائم ، كما تتعدد الانفلاتات ، وبالتالي يتحول رؤساءهم إلى الظلم ، كما ينصب قادتهم أنفسهم آلهة فوق رؤسهم(٢).

ومن ثم تظهر الطبقات المتحكمة والمتسلطة ، كما تقفز إلى سطح الأحداث الجماعات ذات الرغبة في اقتناص الفرص، ومن كان ذلك شأنهم ، فان المجتمع الذي يعيشون فيه يكون كالمرجل الذي يغلي على النار، ما أن تحين الفرصة في الانفجار إلا وينفجر ، وكل من له قدرة على التفكير،فإنه سيتحول به عن غايته الصحيحة ، إلى وجهة توافق ماعليه القادة حتى وإن كان مخالفاً لما في وجدانه ضميره(٣).

فإذا ما أتيحت فرصة ضيقة للتعبير عن الرأي،انفلت هؤلاء من عقالاتهم ، وسارعوا إلى تحطيم أغلالهم ، وانطلقوا في التعبير عن ما في نفوسهم من آثار مؤلمة، وربما كان إنفلاتهم ناحية التطرف في الدين ، أو كانت المسارعة منهم نحو ركوب متن العلم ، والشطط فيه إلى أبعد مدى(٤)، وكانت هذه من سمات المجتمع الذي حكمته طبقات إسرائيلية .

---

(١) سورة الجمعة الآية ٥ .

(٢)الدكتور عبد العظيم محمد البدري — الطواغيت (الآلهة البشرية) ص ٥٧ مطبعة الفجر دمشق ١٩٨٧م.

(٣)الدكتور خيري السيد الذكر — المجتمع وعوامل تطوره ص ١٤٣ سعيد رأفت ١٩٨٣م .

(٤)وذلك مما يمثل نوعاً من الهروب الداخلي ، والرفض لكل معطيات الواقع الظالم،أو المعايشة الغير متكافئة ، وذلك من شأنه أن يفتح الباب واسعاً لأعمال العنف المعقدة في صورها ومظاهرها .

في نفس الوقت فإن نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام،جاء بني إسرائيل حتى يعيدهم إلى ما كانوا عليه وقت انجاء الله لهم ، مع نبي الله الكليم موسى بن عمران ، لكن القوم استنكفوا السير في طريق الحق والهداية ، واستمرؤا الانفلات في طريق الباطل والغواية ، فحاربوا عيسى ابن مريم رسول الله [١]، وطعنوا فيه وأمه ، وهموا بقتله لكن الله تعالى أنجاه منه ورفعه عنهم ، فلم تنله أيديهم الآثمة ، ومع هذا يسجلون على أنفسهم تلك الرغبات المكنونة، والأمنيات المجنونة ، التي اندفعت بهم إلى الباطل كله .

قال تعالى :" فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بَآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"[٢].

ثم اختلطت العناصر الرومانية بالإسرائيلية ، والتحف النصرانية بعض خصومها الألداء ، كشاؤل اليهودي المتطرف الذي سعى كثيرا للقضاء على نبي الله عيسى ابن مريم، كما حارب أتباعه حتى لم يعد لهم ذكر[٣] ، وبالتالي عمل شاؤل وأتباعه على إقامة دين بديل للتعاليم التي جاء بها عيسى عليه السلام ، وجملة هذه التعاليم مقتبسة من ديانات وثنية،تقوم على تعدد الآلهة،وتجسداتها في

---

(١) وألبوا جنود الحاكم الروماني عليه ، وسارعوا إلى اتهامه بأنه يخالف القواعد العامة التي يصدرها الحاكم الروماني بيلاطس ، إلى غير ذلك من الاتهامات الكيدية التي تمكنوا منها ، ولكن الله تعالى نجى نبيه عيسى ابن مريم منهم ومنها .

(٢) سورة النساء الآيات ١٥٥ / ١٥٨ .

(٣) وإنما الموجود جملة من الأفراد مختلفي الأعراق والاتجاهات ، بجانب جملة من الأفكار لا قيمة لها ، التبست من ديانات تجري فيها الوثنية على كل ناحية .

أشكال مختلفة . وكان شاؤل محنكاً سياسياً ، كما كان بارعاً في التزييف ،وقد بنى خطئه على أن يقيم ديناً لاهوتياً شاؤليا ، ينسب إلى شاؤل ، لا إلى نبي الله عيسى الرسول ، وقد حقق في ذلك أعلى قدر من النجاح ، وساعده على ذلك أمران :

الأول : الدولة الرومانية،التي كانت تتبنى اتجاه القضاء على الدعوة التي جاء بها عيسى عليه السلام ، حتى تتخلص من عوامل القلق في البلاد الواسعة تحت سيطرتهم[١]لأن وجود شئ من القلاقل لا يساعد على تمكين المستعمر من فرض إرادته .

الثانية : انفضاض أتباع عيسى عليه السلام ، وعدم ظهورهم على مسرح الأحداث بشكل فعال ، لأن من بقي منهم — بعد انتقال نبي الله عيسى عنهم — فضلوا الاختباء من وجه العاصفة .

إذن الدين الذي صنعه شاؤل صار كان بحاجة إلى نبي ينسب إليه ، ومؤلفات تنقل أفكاره ، وقد برع شاؤل في الجانبين،فأطلق على نفسه اسم بولس وتخلى عن اسم شاؤل ، وزعم أن الرب هو الذي سماه بهذا الاسم الجديد[٢]، وأنه طلب منه أن يكرز في الناس ، بل سير نفسه رسولاً فيهم ، وحتى يتم له دوره على وجه أفضل زعم أنه أوحى إليه عن طريق الروح القدس[٣] ، الذي هو من روح الله ، الذي يرف على وجه الماء ، فكتب جملة رسائله،التي تحولت إلى جزء هام ، من أجزاء العهد الجديد فيما بعد .

---

(١) الدكتور / منصور محمد صبري — أوربا والمسيحية ص ٨٣ ط الفجر الجديد تونس ١٩٥٧م .

(٢) وقصة هذه التسمية قريبة الشبه من التسمية التي جاءت بها رواية العهد القديم بالنسبة ليعقوب الذي تسمي إسرائيل ، ولكنها في يعقوب قامت على المصارعة ، أما في العهد الجديد فقد قامت على الخوف والقلق.

(٣)الدكتور/ عبد الرحمن السيد حسن المهتدي — بولس رسول المسيحية ص ٧٥ وراجع كتابنا ومض النصرانية بين غيوم المسيحية ص ١١٩ .

ولم يفت أتباع ـ شاءل ـ بولس ، أن يقدموا تصوراتـــهم الســاذجة هـم الآخرون ، فكتب كل منهم رسالة ، أطلق عليها اسم البشارة ، ولأن الله تعالى قد أنزل مع عيسى ابن مريم الإنجيل فقد سارع كل من هؤلاء المؤلفين المزيفيــن . إلى إطلاق اسم الإنجيل على التصورات التي عنت له ، أو لعب بها خياله[١] .

ولما كان اليهود أصحاب كثير من التقلبات، والعديد من الاتجاهات ، فقــد تقلبوا بوجوههم المرة تلو المرة ، وحكموا الناس بالحديد والنار ، بل كانت تعاليم بولس ـ التي عرفت فيما بعد بإسم المسيحية ـ من أقسى العوامل التي واجهــها الجنس البشري ، لأن هذه التعاليم ظاهرها المحبة والرحمـــة ، بــل أن بعــض نصوصها يدعوا إلى ذلك ، لكنها في طبيعتها تحمل القسوة والعنف، وكما أحدثوا رسلاً من عند أنفسهم ، وأحدثوا كتباً ، فقد أحدثوا أبنية،أطلقوا عليها اسم الكنيسـة والدير وغير ذلك .

في ظل سيادة التعاليم الكنسية وقيادتها لأوربا المسيحية ، ظهر رجال الديـن على الوجه الطبيعي ، كما برزت صورهم الحقيقية ، فـــي أوضاعــها التـــي لا يمكــن تجاهلها ، كما راحت التعاليم الكهنوتية تطل على الناس ، لا من الناحيـة الشــكلية الظاهرية ،وإنما من الناحية العملية الواقعية ، وكان من جــراء ذلـــك ظهــور العديد من التناقضات الغريبة من أبرزها:

١ ـ رغبة رجال الدين في ممارسة الحقوق الإلهية ، على قلوب العباد،فظــهرت محاكم التفتيش،التي كانت تقوم على حق رجل الدين اللاهوتي،فــي إصــدار أي حكم على أي شخص كان ، من خلال ما يتصوره ذلك الرجل اللاهوتـــي مــن حقوق لنفسه ، فكان حساب الناس لا على أفعالهم ، وإنما على ما في ضمـــائرهم وقلوبهم[٢] ، وذلك الفعل من شأنه أن يفقد الإنســان الطبيعي الشعور بالأمـــان

---

(١)وما تزال هذه الأناجيل تحمل أسماء مؤلفيها ـ متى ـ لوقا ـ مرقس ـ يوحنا .

(٢)الدكتور/ فوزي محمود عبد العظيم ـ محاكم التفتيش وأخطارها على العقلية الأوربية ص ١٣٥

النفسي ، والطمأنينة القلبية ، ولذلك تعد محاكم التفتيش من أسوأ المراحل في حياة الإنسانية .

٢ — قيادة الناس باسم الدين الإلهي ، وما هو إلا دين صنعه آباء الكنيسة ، الذي يدعو ظاهره إلى الرحمة ، ويمارس الآباء اللاهوتيين على الشعب باسمه ، كل ألوان القسوة ، فأحرق العديد من الأبرياء ، أو قدموا طعاماً للكلاب الضالة[١] ، والمجازر التي أرتكبها الكنسيون في أوربا،أبان العصور الوسطى،ليس بالإمكان حصرها.

٣ — فرض رقابة على القدرات العقلية،والملكات الإبداعية ، وصلت ذروتها في اتهام كل مبدع بأنه منحرف مضلل ، ووصف أي مفكر بأنه مجدّف يبحث عن ضلالات[٢] ، وبالتالي يستحق الطرد والحرمان ، من بركات الرب ، كما يصير مهدر الدم ، لا حرمه له .

٤ — حق الكنيسة في حرمان الناس جميعاً ، من الاستفادة بنتاتج مجهوداتهم ، وعائد نتاجاتهم ، ومصادرتها جميعاً لصالح رجال الكنيسة ، الذين صاروا قوة اقتصادية هائلة ، أو مصادرة جزء منها لصالح الأديرة والكنائس التي باتت خزائنها متخمة بالأموال الناتجة عن المصادرة ، أو عن العشور[٣] أو غير ذلك مما تجبيه القيادة الكنسية .

٥ — حرمان الناس من ممارسة حقوقهم الفكرية ، أو التعبير عن جوانحهم العاطفية ، فضلاً عن السياسية ، إلا بإذن مسبق من القيادة الكهنوتية .

ولا شك أن تقنين مثل تلك الأمور ، ومحاولة تطبيقها في الواقع العملي يترتب عليه العديد من المفاسد الدينية والاجتماعية والأخلاقية ، بل والسياسية

---

(١) الدكتور / سعيد محمد رمضان — أوربا والعصور الوسطى ص ١٧٩ ط ثانية ١٩٨٥م .

(٢) الدكتور / فوزي محمود عبد العظيم — محاكم التفتيش وأخطارها على العقلية الأوربية ص ١٣٩ .

(٣) ليس في المسيحية زكاة حسب تصوراقم ، ولكن فيها العشور كبديل عن الزكاة .

أيضاً ، حتى بات المجتمع الأوربي كله في حاجة إلى هزة عنيفة تعيد الأمـــور إلى نصابها ، بغض النظر عن نوعها ، وجنسية القائمين عليها ، ومن ثـــم فقــد تولدت عن هذه المتناقضات أفكار كما ظهرت العديد من التيارات،غالبيتها كـانت غايتها تصفية الحسابات مع الكنيسة ورجالها .

دليل ذلك أن عصر النهضة في أوربا،لم يلتفت تيار واحد إلى الدين الكـهنوتي بحيث يدعمه[1] ، بل ظهرت حركات انفصالية عن الكنيســـة الأم ، أو الكنيســـة العامة حيث ظهرت الطائفة الأرثوزكسية منفصلة عن الكاثوليكية ، كما ظـــهرت طائفة البروتستانت ، كنوع مـــن التعبير الواضح ، والرفض الصريـــح لســيادة الكنيسة الكاثوليكية[2] ، وإعلان التخلي عن بعض مبادئها ، أو الحاجة إلى تعديل بعض السلوكيات بجانب النصوص والطقوس أيضاً .

إذن ظهور المذاهب التجريبية ، والمذاهب الآلية ، والمذاهـــب المثاليـــة أو العقلية ، ثم المذاهب التطورية والوضعية بجانب الماركسية والذرائع إلى غـــير ذلك ، لم يكن إلا صورة من صور الرفض المعلن للتعاليم السائدة[3] ، وإعـــلان الثورة الدائمة عليها .

لقد كان داروين مسيحي الانتساب ، لكنه كان علمـــاني الاتجـــاه ، ملحـد الاعتقاد ، كافر بالدين الذى جاءت به النصوص الكنسية[4] ، وكذلك الحال مـــع لامارك ، أما الفرد راسل والاس فلم يكن لديه استعداد للتفكير في أى قيد يحـــول بينه ورغبات نفسه المنطلقة وشـــهواته المندفعة ، لقد كان يعـــتقد في مذهـــب،

---

(١)الدكتور / عبد العزيز محمد صالح ــ أوربا والعصور الوسطى ص ٢١١ ، ٢١٢

(٢)الدكتور / محمد صبري بدوي ــ أثر محاكم التفتيش في ظهور التيارات المناهضة للدين ص ٣١١ .

(٣)الدكتور/ عبد العزيز محمد صالح ــ أوربا والعصور الوسطى ص ٢١٥ .

(٤) وهذا مما دلت عليه سلوكياته ، وتمت مراجعته مع مصادره ــ راجع ما سبقت كتابته عن داروين أثنـــاء الحديث عن أبرز المقعدين لها

اللاأدرية ، وكان يتمسك به إلى أبعد مدى .

المجموعة الثانية : الدوافع العلمية[١]:

وهي التي تعبر عنها اتجاهات جرى الحديث عنها في المؤلفات والأبحـــاث العلمية التجريبية أو النظرية ، والفزيائية والسلوكية ، ومن ثــم فمـــن المناســب إبرازها وبيان دورها في إنماء الحركات التي جاء في بعضها التزام بالعلم ولغته ونتائجه ، وفي بعض آخر انفلات من العلم ونتائجه ولغته .

ويذهب الكثيرون إلى أنها الأدلة التي قام عليها التطور ، ومن ثم فسأحاول عرضها ومناقشتها من ناحية كونها أدلة التطور، والدوافع التي قادت إليه .

---

(١) يطلق البعض عليها اسم أدلة التطور ، وسوف أجاريهم في هذا الإطلاق ، لأنها التي قـــادتهم إلى القـــول بالتطور واعتبروها أدلة عليه أيضاً .



أدلة التطور الإحيائي ومناقشتها

ذهب القائلون بالتطور الإحيائي إلى أنهم لاحظوا وجود علاقات متبادلة بين الكائنات الحية قديما وحديثا ، كما ظهر لهم وجود العديد من أوجه التشابه بينها جميعا من الناحية البيولوجية ، والفسيولوجية بجانب الآثار والحفريات ، وعلم السلالات والأجنة ، ومن ثم فسأعرض أبرز هذه الأدلة لديهم ، ثم أحاول مناقشتها على النحو التالي:

الدليل الأول : التراكيب الجيولوجية والحفريات [١] : Paleontology

علم طبقات الأرض من العلوم المستحدثة ، باعتبار التسمية المتخصصة ، لكنه قديم باعتبار الموضوع البحثي ، أو بعبارة أخرى هو حديث باعتبار منهج الدراسة ، قديم باعتبار الموضوع المطروح لذات الدراسة .

أ ـ عرض الدليل :

١ ـ يذهب التطوريون إلى أن الحياة بدأت في مراحلها الأولي غير متميزة ، خلال العصور الجيولوجية الأولي ، وبخاصة في الحقب القديم والحقب الأركي[٢] أما في الحقب الباليوزي فقد ظهرت الطحالب أولا،ثم اللافقريات البحرية والأسماك ، والبرمائيات الضخمة والأعشاب البحرية ، والنباتات اللازهرية ، ثم السرخسيات الكبيرة الحجم[٣].

وفي الحقب المتوسط ظهرت الزواحف الضخمة ، والنباتات الزهرية عاريات البذور وكان ظهورها الأول يمثل تمهيدا لمجئ غيرها، أما في الحقب السينوزي فقد انتشر ظهور الثدييات على وجه العموم[٤] ، ثم الثدييات الراقية

---

(١) موضوع هذا العلم متعلق بطبقات الأرض ، وتنوع تربتها ، بجانب مظاهر التضاريس وكيفية ظهور الحياة فيها ، الدكتور/ محمد السيد جبران ـ الجيولوجيا الحديثة ص ٧٩ ط دار مراد ١٩٨٩م.

(٢)هولنج مارتن ـ التراكيب الجيولوجية والتطور ص ٥٣ ترجمة حنان رزق ط دار الجيل بيروت ١٩٨٥م

(٣)الدكتور عبد العظيم محمد طاحون ـ الأزمنة الجيولوجية ص ٤٧ ط أولي مكتبة سعيد رأفت ١٩٧٩م .

(٤) الثدييات هي الكائنات الحية التي تلد وترضع ، ولذلك فقد كان ظهورها في هذا القرن بمثابة علامة بارزة قادت إلى دراسة التطور على الناحية الجيولوجية .

والرئيسيات ،ثم كان أخر هده الثدييات ظهورا وأرقاها هو الإنسان ، كما ظهرت النباتات مغطاة البذور[١]، وبالتالي اندفع التطور في الحيوان والنبات إلى قمته

٢ ــ يقرر الجيولوجيون أن بداية الحياة على الأرض غير معلومة على وجــه اليقين والقطع ، وذلك لأن الكائنات الحية الأولي ــ التي كانت لــها ظــهورات قديمة ــ لم تترك بصمات أو آثار تدل عليه بين طيــات الصخــور التــي تــم اكتشافها أو التعرف عليها ، ومن ثم فإن إمكانية تقديم تاريخ منضبط ، أو محــدد لبداية ظهور الكائنات الحية على وجه الأرض ،من الصعوبة البالغة بمكان ، بــل إن القيام بها يمثل نوعا من الضرب في المجهول[٢]، كما أن الاعتماد عليــها لا يمثل الصورة العلمية الصحيحة.

٣ ــ أن الحياة والكائنات الحية ، يمكن أن تكون قد بدات على الأرض منذ ألــف وخمسمائة مليون عام[٣]مستدلين على ذلك بما عثروا عليه من مظاهر حيوية بين الصخور القديمة ، لكائنات بسيطة التركيب ، تشبه النباتات الأولية مــن فصيلــة الطحالب ، وأنها عاشت في الماء منذ بليون سنة ، أو أكثر من ذلك بقليــل[٤]وأن هذه الكائنات البسيطة أمكن الوصول إليها في علم طبقات الأرض على الصخور القديمة المجاورة للمحيطات والمصادر المائية .

٤ ــ كما يزعمون أن هناك اكتشــافات حديثة قد تمت ،فأكــدت ظــهور بعض

---

(١)الدكتور على أحمد الشحات ــ نظرية التطور بين العلم والدين ص ٧٨ مطبعة الخانجي بالقاهرة

(٢)توماس براون ــ العصور الجيولوجية القديمة ص ١٩ ترجمة الدكتور محمد سند ط أولى بيروت ١٩٧١م

(٣) لاحظ أن هؤلاء يحاولون تقديم شهادة ميلاد لبداية الحياة على الأرض ، ويحاول غيرهم تقديم شهادة ميلاد لعمر الكون أرضه وسمائه ، ويحاول فريق ثالث تقديم شهادة ميلاد لعمر السماء ، وهم في كل ذلك يخــالفون قضايا العلم التي يزعمون التماسها أو تمسكهم بها ، لأن امكانية التجريب أو الاستدلال خياليــة ، والعلــم لا يقوم على الخيال ، وإنما يقوم على اليقين والقطع

(٤) ألا يمثل ذلك تناقضا واضحاً بين التاريخ الزمني في كل منهما ، إذ الفرق بين ألف وخمسمائة مليون ســنة وبليون سنة كثير جداً مع زعمهم أن والحياة كانت فيهم واحدة .

الرواسب الحديدية ، أو الكبريتية في بعض الصخور القديمة ، ويرجعون أصل وجودها ومنشئها إلى نشاط كائنات حية بسيطة جداً كان لها وجود في ، الماضي ويطلقون عليها اسم قريب الشبه من اسم البكتريا[١]،ومن ثم يقولون أن الرواسب الحديدية والكبريتية اقدم وجوداً من شبهات الطحالب ، وبالتالي يكون وجود أشباه البكتريا اقدم بكثير من وجود شبيهات الطحالب،مما يرجح القول بأن أشباه البكتريا كانت أول الكائنات الحية ظهوراً،في الوجود الحيوي على الأرض[٢] .

وهذا الترجيح قد قام بناء على العلم بوجود هذه الكائنات على الأرض، منذ هذه الفترة الطويلة ، وبالتالي فلا يصلح دليلا للتطور ، كما لا يصلح أن يكون شهادة يعتمد عليها في تفسير بداية الحياة على الأرض ، كما أن مقدماته كلها ليست ظنية احتمالية فقط وإنما هي محل شك فيها أيضاً .

لكن ما الدليل الجيولوجي الذي عثروا عليه،حتى يتأكد لديهم أن أشباه البكتريا هي اقدم الكائنات الحية ظهوراً على وجه الأرض ؟ والجواب أن هذا الدليل مفتقد على وجه اليقين ، لكنهم يحملون أنفسهم على الظن أيضاً ، فيقولون أن الدليل قائم في أن أشباه هذه البكتريا وأمثالها من الكائنات الحية ذات الخواص المشتركة ، لها القدرة على الحياة تحت ظروف متباينة ، من الحرارة والبرودة والضغط ، كما أنها تستطيع التوافق مع البيئة التي تعيش فيها ، بجانب ما لديها من القدرة على التكيف داخل أية ظروف تفرض عليها[٣].

وهذا الدليل يقوم على التاريخ الطبيعي فكيف يقوم على طبقات الأرض ، في نفس الوقت مع اختلاف كل منهما في موضوعه ومنهجه وطبيعة البحث فيه

(١)توماس براون ــ العصور الجيولوجية القديمة ص ٢١ .

(٢) هولنج مارتن ــ التراكيب الجيولوجية والتطور ص ٥٩ وراجع هنري البرت ــ الجيولوجيا القديمة ص ٩٧ ترجمة حنان رزق .

(٣) الدكتور أنور عبد العليم قصة التطور ص ٢٣ ط دار القلم القاهرة .

بل إني ذاهب إلى ما هو أبعد من مجرد فقدان الدليل والموضوع البحثي ، إلـــى القول بأن الاستدلال على التطور من الناحية الجيولوجية أمر بعيد جداً ، ان لـــم يكن غير مقبول أبداً .

٥ — أن هذه الكائنات يمكنها أن تتنفس الهواء،وهي بمعزل تام عنه ، كما يمكنها الحصول على احتياجاتها الضرورية بطرائق مختلفة ، وفي نفس الوقت تســتطيع ممارسة أنماطها الحياتية داخل وسط حمضي ،أو قلوي دون أن يؤثر فيها سلباً ، أو يتمكن من القضاء عليها(١)بل لا يكاد يوجد أدنى شك في أن الحياة قــد دبــت أول أمرها على الأرض في الماء ، ثم الطمي القريب منه ، لأنه يكون رطبـــاً ، وبخاصة في المستنقعات القديمة(٢).

وبناء على هذه الأفكار المتناثرة حول الجيولوجيا القديمة ، أعلن التطوريــون أن الحياة قد بدأت أول أمرها في أشباه خلايا ثم تطورت آليا،حتى بلغت ما هـــي عليه من المظاهر في الكائنات النمطية التي نراها الآن ، ومنها الإنسان(٣) .

ولكن هذا الدافع الجيولوجي يفتقد الدعائم ، ويسقط من عليائه ، متى أخذنـــا في الحسبان انعدام العلاقة البحثية بين علم طبقات الأرض الجيولوجية ، وبيـــن الكائن الحي ، سواء في الباحث الجيولوجي نفسه الذي ليس لديه استعداد للتعرف على الكائنات الحية ، وبين الموضوع المعروض للبحث ذاته ، وهذا نفسه مـــا يجعل الاعتماد عليه — فيما بعد كدليل لاثبات التطور — مغامرة غير مأمونـــة العواقب ، لكن النظر إليها على أنها دافع من دوافع القول بالتطـــور قد يكـــون

---

(١) هذه المقولة محل ظن وشك كبيرين ، لأن إمكانية القضاء على البكتريا صار أمراً محل دراسة ، بل بـــات أمراً عادياً ، ومن ثم فلا يمكن التمسك بأقوال لم تسلم من النقد القوي واعتبارها أدلة صحيحة .

(٢) هولنج مارتن — التراكيب الجيولوجية والتطور ص ٦١ ، الدكتور أنور عبد العليم قصة التطـــور ص ٢٤ الدكتور فوزي محمد العكش التطوريون وأدلتهم ص ٦٥

(٣) الدكتور/ عبد العظيم محمد طاحون — الأزمنة الجيولوجية ص ٥٣

أمراً قائماً ، أو مقبولاً على ناحية من النواحي بحيث تتم مناقشته من جهتها .

ب ـ مناقشة الدليل الأول :

ما من شك في أن البحث العلمي الموضوعي يستلزم عرض وجهات النظر الممكنة أو المعقولة في المسألة البحثية التي يتعرض لها ، كما يتطلب القيام بمناقشتها ، متى كان ذلك أمراً ممكنا ،وجرياً على هذا المتبع فإن جوانب مناقشة الدليل الأول ، مما قامت عليها الأفكار التطورية تجئ من عدة نواح،أبرزها :

١ ـ قيامه على مجرد الفرض :

ذهب التطوريون إلى افتراض وجود كائنات حية في الأزمنة المتباعدة في القدم ، وأن هذا الوجود كان في مظاهر متدنية من حيث الصور، التي أمكن الوقوف عليها ، ورغم أن الفرض العلمي المقبول يمثل أحد الحوافز الهامة والدوافع الأساسية في الأبحاث العلمية[١].إلا أن ذلك لا يكون صحيحاً إلا إذا قام الفرض العلمي نفسه على حقائق أساسية وأصول صحيحة[٢] .

حيث أن التطوريين قد افترضوا وجود كائنات قديمة لم يقفوا عليها ، ولم يتأكدوا من وجودها ، فإن هذا الفرض يكون ساقطاً ، والقاعدة قاضية بأن الدليل إذا تطرق إليه الاحتمال ، سقط به الاستدلال وبناء على ذلك لا تكون لدليل الآثار الجيولوجية أية قيمة .

٢ ـ افتقاد العلائق المترابطة :

ذلك أن التطوريين قد أقاموا هذا الدليل على حكايات الأخباريين والقصاص، ممن انضموا إلى الباحثين في التاريخ الجيولوجي ، الذين تنصب عنايتهم الأولى

(١) راجع للدكتور محمود قاسم ـ المنطق الحديث ومناهج البحث ، والدكتور على سامي النشار مناهج البحث عند مفكري المسلمين ، وكتابنا : الحديث في المنطق الحديث أثناء الكلام عن دور الفرض العلمي في إثبات الملاحظة التجريبية .

(٢) الدكتور / محمد السيد البسيد رمضان ـ دراسات في المنطق الحديث ص١٢٧ .

على المادة معرفة الجمادية من الصخور ،وأنواعها المتباينة بين رسوبية وجيرية إلى غير ذلك ، ثم يأخذون عنهم ليطبقوا ذلك في الحيوان الإحيائي الذي عمله الأصلي هو الكائنات الحية ، وليس الكائنات الجمادية .

من ثم فالعلاقة بين علم الجيولوجيا وعلم التاريخ الطبيعي منقطعة تماما[١]، ولا يصلح قول الجيولوجيين في هذه المسألة ، كما لا يصح أن يكون دليلا على القول بوجود التطور الإحيائي لما هو معروف من أن انقطاع المقدمات عن النتائج يمثل خطرا كبيرا .

٣ — فقدان التحديد الزماني :

من المعروف أن كل حدث لابد له من ثلاثة أمور ، مكان يتم فيه ، وزمان يتابع وقوع الحدث من خلاله ، وموضوع يحمل ذات الحدث ، ولما كان الجيولوجيون قد أعلنوا أن بداية الحياة على وجه الأرض غير معلومة التاريخ على وجه اليقين والقطع[٢] ،فقد انقطع الحدث بانقطاع الزمان ، ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على أن الأبحاث والاكتشافات الجيولوجية تثبت التطور الاحيائي.

في نفس الوقت فإن فرضية بداية ظهور الحياة على وجه الأرض ، وإرجاع تاريخها إلى ألف وخمسمائة مليون سنة ، تنقضها إشكالية تقدير العمر الزمني للأرض[٣] حيث أرجع البعض عمر الأرض إلى عشرة ملايين سنة[٤]

---

(١) ومعالم الانقطاع بينهما متعددة ، سواء ما يتعلق منها بالموضوع ، أم ما يتعلق بالوسائل والمناهج ، أم ما يتعلق بالغايات والأغراض .

(٢) وليم بيو — علم طبقات الأرض ص ٥١ ترجمة وفاء العمر ، الدكتور بيتر مايلد — الجيولوجيا القديمة ص ٩٤ ترجمة حنان صبري ١٩٨١م

(٣) هولنج مارتن — التراكيب الجيولوجية والتطور ص ٨٣ ترجمة حنان رزق وراجع للدكتور علي عبد العظيم طاحون — الأزمنة الجيولوجية ص ٧٥ وما بعدها .

(٤)جورج هورتن — الأرض التي تحتنا ص ٢٩ ترجمة رزق فضل الله ط الدار العصرية بيروت ١٩٨٧م

بينما أرجعه البعض الآخر إلى عشرين بليار او مليار سنة[١].

وبناء على ذلك الاختلاف والتناقض الكبير في التاريخ الزمني لعمر الأرض يكون الاختلاف والتناقض في الأحداث التي جرت عليها ، والكائنات التي ظهرت فوقها،وكذلك نوعياتها مما يهدم الدليل الجيولوجي كله، وينقضه من أساسه متى كانت الغاية منه الاستدلال على وجود التطور الإحيائي العضوي.

٤ ــ قيامه على الصور وليس الأصول :

عماد الدليل الأول في القول بالتطور الإحيائي العضوي، هو مجموعة الصور التي ظهرت كآثار على الصخور القديمة ، وليس على بقايا كائنات حية ، ومن ثم فإن هذه الصور لا تعبر عن شئ من التطور أبدا ، بقدر ما تعبر عن أنماط جيوفيزيائية حدثت في أزمنة مختلفة ــ هذا على فرض التصديق بوجودها ــ وتم التعامل معها على أنحاء شتى ، كل باحث أو جملة من الباحثين يسعى لتفسيرها طبقاً لاتجاهاته العامة[٢] وتراكماته الذهنية. فإذا كان القائم بها باحثاً في الجيولوجيا أمكنه تفسيرها على ناحية جيولوجية[٣]، أما إذا كان باحثاً في التاريخ الطبيعي فإنه يفسرها على ناحية أخرى[٤]،وهكذا تعددت التفسيرات والتأويلات

---

(١) وليم بيز ــ علم طبقات الأرض ص ٥٦ والملاحظ أن هذه الفوارق الزمانية ليست قليلة بحيث يمكن التغلب عليها ، وإنما هي فوارق بعيدة جداً وكبيرة إلى حد لا يمكن جمع أطرافه بسهولة ، بل ليس من اليسير مسايرة ذات الاتجاهات دون أن يجد المرء نفسه قد وقع في الكثير من المشكلات ، كما قفز فوق بركان مشتعل بالصعوبات .

(٢) وهذا مما تؤكده نظرية الفروق الفردية ، وتباين القدرات العقلية ، كما يشهد به كل من نظرية التراكمات الذهنية ، والإحصاء الحيوي،لمزيد من التفاصيل حول هذه النظريات ــ راجع لتوماس أنطوني ــ علم السلوك بين النظرية والتطبيق ص ٩٨/٧٣ ترجمة فؤاد حسن رزق ط أولي ١٩٧٨م.

(٣) الدكتور عدلي محمد رمضان ــ الفروق الفردية بين الباحثين ، دراسة مقارنة بين نظام التعليم العام والصناعي في مصر ص ١٩٣ ط الدار الجامعية ١٩٧٥م .

(٤) وذلك شأن الأبحاث ذات الوحدة الموضوعية التي يختلف النظر إليها باعتبار الثقافات المتعددة والتباين الذهني والمناهج والغايات أيضاً .

التى تنسف فكرة اعتبار الاكتشافات الجيولوجية ، دليلا على التطـــور الكونـــي العام ، أو التطور الإحيائي العضوي .

٥ — انفصال عرى الود بيـــن البكتريـــا والصخـــور،أو الرواســـب الحديديـــة والكبريتية: يعتمد التطوريون على الخيال الشخصي ، أو الخيـــال القصصـــي . فيزعمون أن الاكتشافات الجيولوجية والحفريات التي تمت ، ألمحت إلى ظـــهور بعض الرواسب الحديدية في بعض الصخور القديمة ، وأن هذه الرواسب ترجـــع في أصلها إلى نشاط كائنات حية بسيطة جداً،كان لها وجود في الحـــاضر هـــي البكتريا أو كائنات قريبة الشبه بها(١) ، لكن لا توجد أدنى علاقة إحيائيـــة بيـــن البكتريا ، ككائن حي ذي خلية أحادية غير متكاملة وبين الرواسب الحديديـــة أو الكبريتية ، بل كل منهما غير الثانية تماما ، ومن جوانب كثـــيرة ، ابســـطها الرواسب الحديدية مادة جامدة ، بينما البكتريا كائنات مادية حية .

وقد نبه إلى ذلك السير تومان ، حيث يقول : لقـــد شـــاع فـــي الأوســـاط التطورية القول بفكرة إمكانية بناء المذهب التطوري على اكتشافات جيولوجيـــة ، تربط بينها والكائنات الحية الأولي روابط قديمة ، ولكن هذه الإشاعات لا أســـاس لها من الصحة ، وارى أنها من الخدع التي قام بها التطوريون لبناء مذهبـــهم ، الذي أقيم على أوهام وخيالات، لا ترتبط بشى من الواقع العلمي(٢)، ومن ثم فـــإن هذه الأفكار لم تقم على أصول مقبولة ، والروابط بينها والأدلة التـــي اعتمـــدوا عليها منقطعة تماماً .

٦ — إنكار الجيولوجيين له :

يقرر علماء الجيولوجيا أن موضوعاتهم البحثية ، إنما تنصب أساساً على

---

(١) الدكتور/ محمد السيد جبران — الجيولوجيا الحديثة ص ٨١ ، وراجع للدكتور عبد العظيم محمد طـاحون الأزمنة الجيولوجية ص ٥٢ .

(٢) الدكتور — فرج السيد ثابت — التطور بين الأنصار والخصوم ص ١٤٧ ط ثالثة ١٩٧٧م .

ما بين طبقات الأرض ، وكيفية ظهورها من الناحية التى هي عليها الآن . والتلاحقات أو التطورات التي تمت من هذه الناحية أيضاً ، ومن ثم فهم يذهبون إلى أن أبحاثهم الجيولوجية إن تعلقت بنوع من التطور،فهو التطور الكوني العام وليس التطور الحيوي العضوي .

يقول أرنست هولمان : أن الأبحاث الجيولوجية يمكنها وضع صورة قريبة من المفاهيم التى على أساسها يمكن تفسير نشأة الكون ، ولكنها لا تعمل على تفسير نشأة الكائنات الحية أبداً[١]، ومن ثم فقدح الجيولوجيين في هذه العلاقة ، يوضح أن الأمور بينهما لم تكن على وفاق،وأن الصلات التى حاول التطوريون إلصاقها بالأبحاث الجيولوجية لا مكان لها. وبالتالي فقد هذا الدليل صلاحيته عند الاستشهاد به ، في تطور الكائنات الحية على الأرض ، من الناحية التى قال بها الإحيائيون ومنهم داروين وغيره ممن اتجه ذات الجهة ، أو سلك نفس المسلك.

أضف إلى ما سبق أن الحفريات الجيولوجية،أو علم طبقات الأرض لا تكشف عن عملية التطور الاحيائي ، ولا تقدم دليلاً واحداً على وقوع التدرج في الكائنات الحية ، بحيث يقال أنها من الأدلة على النشوء أو التطور، فضلاً عن الارتقاء نفسه ، غاية ما تقوم به،هو الإعلان عن وجود مظاهر حيوية،في أزمنة غابرة[٢]ولا تقدم أكثر من ذلك .

---

(١)ارنست هولمان ـــ الجيولوجيا بين الماضي والحاضر ص ٩٢ ترجمة فؤاد ثابت ط بيروت ١٩٨٤م

(٢)والملاحظ أن الجيولوجيين يقسمون تاريخ الأرض أو عمرها الزمني ،والأحقاب التي جاءت فيها إلى أربعة ،ومنهم من قسمها إلى خمسة ، ومنهم من يزيد على ذلك ، ولكنها في الغالب الأعم خمسة أحقاب أو عصور تاريخية ، الأول الحقب أو الدهر العتيق ، ويقدر بنحو ٣٥٠ مليون سنة ، الثاني: الحقب الفجري ويقدر بنحو ١٤٥٠ مليون سنة . الثالث : الحقب القديم، ويقدر بنحو ٣٠٠ مليون سنة . الرابع :الحقب الوسيط أو الوسط ويقدر بنحو ١٣٠ مليون سنة الخامس :الحقب الحديث ويقدر بنحو ٧٥ مليون سنة،وكل حقب منها ينقسم إلى عصور ، وكل عصر منها ينقسم إلى عهود ، وهكذا إلى أقصر فترة زمانية ، راجع للدكتور أنور عبد العليم قصة التطور ص ٧ ، ٩ ط القاهرة وللأستاذ حسن محمد صبري ـــ التطور ومشكلاته ص ٥٣ ، وللدكتور فوزي السيد حبشي ـــ علم طبقات الأرض ص ١٤٧

كما أن الاكتشافات التي تمت في هذا الجانب ، دلـت علـى أن الطبقـات الكمبرية في العصور القديمة،قد احتوت على بقايا كائنات حية في صور محفورة فوق بقايا صخور متناثرة ، وهذا على أعلى تقدير يشير إلـى ملامـح الوجـود الحيوي،في كائنات حية من خلال أشكال مختلفة ، لكنها جميعا لا يمكنها تفسـير عوامل ظهور الحياة الأولى على سبيل القطع واليقين ، كما أنه ليـس بإمكانـها تقديم تفسير واحد مقبول لعملية النشوء أو التطور(١).

ثم إن علم طبقات الأرض ما هو إلا كالمصور الذي يقوم بالتقاط عدة صـور لشخص ما دون أن يعرف اسمه ، أو تاريخ ميلاده ، كما يعجز عن الإدلاء بأية بيانات صحيحة حول بنيانه الداخلي النفسي ، أو إمكانياته العقلية ، أو الأمـراض أو الصحة التي هي من عوارضه ، أو يقدم معلومات تنال شيئا من القبول عـن أسرته وبداياته ، ورحلته الأولى في الحياة .

إذن ليس في علم طبقات الأرض ، أو الحفريات ، ما يشير إلى النشـوء أو الارتقاء على الجانب الإحيائي العضوي ، أو يؤكد أن هذه الصـور التـي تـم اكتشافها إنما كانت لكائنات حية ، أو تم وجودها من مادة حية هولامية عديمـة الشكل .

كما أن البحث في الطبقات الأقدام من المرحلة الكمبرية لم يكتشف عن وجـود بقايا لأية كائنات حية ، أو صور لها(٢) ، كما أن البحث الجيولوجي المتقدم لـم يتمكن أيضا من إصدار بيان واحد يؤكد فيه أنه تم العثور على صور أو كائنـات تمثل المرحلة المتطورة(٣).

---

(١)الدكتور حسن محمد سليمان ـ التطور وقضاياه ص ١٥٩ ط أولي ١٩٧٥م .

(٢)أرنست هولمان ـ الجيولوجيا بين الماضي والحاضر ص ١٢٩ .

(٣) وبناء على هذا فإن القول بالتطور واعتماده على علم الجيولوجيا أو طبقات الأرض لا يمكن قبولـه مـن ناحية علمية ، بقدر ما يعبر عن أفكار جمة استقبلها أصحابها دون تحقيق لها أو تأكد من وجودها

بمعنى أن كائنا مثلا كالدودة وجد في القديم ، ثم برز شكله في الدودة التي تمثل التطور التالي،حتى صارت فقارية مثلاً،وبالتالي فلم يعثر الباحثون على أية بقايا تمثل حلقات انتقالية ، يمكن الاعتماد عليها في تفسير التطور العضوي ، أو التأكيد عليه .

ويستمر التطوريون في الزعم بأن الحياة بدأت منذ ما يزيد على مليار ونصف مليار سنة تقريباً ، بينما علم الجيولوجيا يؤكد أن الآثار التى تم اكتشافها لا تعطي أكثر من نصف مليار سنة[١] ، وبالتالي فإن هناك مليار سنة حيوية تم إسقاطها من الحسبان ، وهذا يؤكد أن التطوريين لا يضعون في حساباتهم ما تم إنجازه مليار سنة حيوية[٢]، فكيف يكون عالماً مع هذا التجاهل الغريب ، لسلسلة طويلة من السنوات الحيوية الكافية ــ حسب زعمه ــ على انتقال وارتقاء وتطور كميات كبيرة من الكائنات الحية .

وفوق ذلك فإن الأبحاث الجيولوجية المتقدمة تؤكد أن أشكال الحياة لا تتخطى الحدود بين الأنواع الموجودة ، ومعنى هذا أن كل نوع من الأنواع قد نشأ مستقلاً تماماً عن الأنواع الأخرى[٣] ،وأنه راجع في وجوده وبقائه إلى قوة الخالق العظيم جل علاه القائل : " إنا كل شئ خلقناه بقدر "[٤].

دلالات البيولوجيا المتقدمة :

لم يكن لهذا المصطلح ــ البيولوجيا ــ وجود في القديم ، وإنما كانت فروعه هي التي تظهر بين الحين والآخر، ومن هذه الفروع ما كانت له السيادة على غيره ، ومنها ما كان خافيا،ثم تم اكتشافه حديثاً ، وفي النهاية أمسك البحث

---

(١)الدكتور / فرج السيد ثابت ــ التطور بين الأنصار والخصوم ص ١٥١ /١٥٢

(٢) وهذا الإسقاط هو الذي وقع في مثله أصحاب تقدير عمر الأرض،فجاءت نتائجهم كاذبة من كل ناحية

(٣)الأستاذة /منير على الغاياتي ــ مذهب النشوء والارتقاء ص ١٨ .

(٤) سورة القمر الآية ٤٩

العلمي بهذه الفروع جميعا تحت اسم البيولوجيا المتقدمة ، ومن أبرز تلك الفروع ما يلي :

١ — علم الأجنة Embryology وهو مما يشترك فيه كل من الإنسان والحيوان بشكل أساسي[١] .

٢ — علم التشريح المقارن Comparative anatomy وهو قاسم مشترك بين الكائنات الحية ، وبخاصة في الإنسان والحيوان ،ولكنه في العصر الحديث صار مستقلا ببيان الفروق بين الحيوان والحيوان ، وبين الحيوان والإنسان أيضا .

٣ — علم وظائف الأعضاء أو الفسيولوجيا Physiology[٢]

٤ — علم الوراثة أو علم الجينات Kinetics.

ثم ظهرت فروع أخرى مشتركة بين الكائنات الحية ، أمكن لبعض العلماء تصنيفها ، بجانب اعتبارها داخلة في نطاق البيولوجيا المتقدمة ، ومنها :

١ — علم الحفريات Paleontology

٢ — علم التقسيم Taxonomy

٣ — علم التوزيع الجغرافي للكائنات الحية Biogeography — الإنسان — الحيوان — النبات[٣] .

٤ — علم استئناس الحيوانات والتربية الانتقائية Domestication and Selective Breeding

ربما يقال كيف كانت البيولوجيا المتقدمة أحد الدوافع للقول بالتطور الإحيائي ؟ والجواب ما يلي :

أ — إنها اشتملت على العديد من الفروع العلمية ، كل منها يجئ فيه شكل من

---

(١) الدكتور / محمد توفيق — الكائنات الحية ص ٩٥ ط ثانية الدار العصرية ١٩٨٧م .

(٢) الدكتور نصر محمد عبد العظيم — البيولوجيا المتقدمة ص ٤٧ ط أولي ١٩٧٥ وراجع لتوماس هيج البيولوجيا والمجال النووي ج ٩٣ ترجمة هناء صبري .

(٣) توماس هيج — البيولوجيا والمجال النووي ص ٩٤ ترجمة هناء صبري المطبعة العصرية بيروت ١٩٨٣م

أشكال التطور ، أو سورة من صوره ، وبالتالي يمكن توظيف كل فـــرع منـــها لخدمة التطور العضوي .

ب – إنها في أشكالها المختلفة تعين على القيام بمهمة النشـــوء ثـــم التطـــور ، وأخيراً الارتقاء .

وبناء عليه سأعتبر كل فرع من فروعها دليـــلاً مســـتقلاً أعرضـــه لـــدى التطوريين ثم أناقشه طبقاً لتوفيق الله تعالى .

الثاني : دلالات علم الأجنة : Embryology

البحث في علم الأجنة يؤكد أن هناك مراحل يمر بها الجنين ، في بطن أمه سواء أكان ذلك في عالم الحيوان أم الإنسان ، بمعني أنه متي وضعت النطفة في الرحم ، وأمكن لها أن تتعامل مع البويضة ، تبدأ مراحل الجنين في التقدم نحـــو الهدف .

حيث تكون المرحلة الأولي هي مرحلة الحيوان أحادي الخلية ، ثـــم عنـــد تلاقي البويضة مع الحيوان المخصب ، والتحامهما معاً،تأتي مرحلة جديدة تسمى مرحلة اللاقحة وهي الخلية الأولي[١] ، ثم تليها مرحلة الحيوان متعـــدد الخلايـــا الجسدية والعصبية، والجنسية[٢]، ثم تأتي مرحلة الحيوان ثنائي الطبقات ، فثلاثي الطبقات[٣] ، ثم المرحلة السمكية حيث تظـــهر الأطـــراف الصغـــيرة الأقـــرب للزعانف ، ثم تأتي المرحلة الفاصلة وهي الثديية .

وبعد ذلك تأتي مرحلة الرئيسيات وهي أرقي مجموعة في الثدييات،ثم تليها الصفات البشرية، كفاصل بين نوعي الحيوان – الإنسان – والحيوان –وبالتالي فالتشابه الكبير بينهما،وسبق المرحلة الســـمكية للإنســـانية،يؤكد أن الإنســـان تم

---

(١)توماس هيج – البيولوجيا والجمال التروي ص ١٠٩ .

(٢)الدكتور / نصر محمد عبد العظيم – البيولوجيا المتقدمة ص ٥١ .

(٣) الدكتور /صبري حسن شيمة – البيولوجيا الحيوان والإنسان ص ١٩٥

الوصول إليه ، أو الوقوف عليه بعد مروره بعدة مراحل تطورية[١].

أ – عرض الدليل :

يتوسع التطوريون في هذا الجانب إلى أبعد مدى ، حيث يعتقدون :

١ – وجود التشابه الجنيني :

أن البحث العلمي أكد وجود نوع من التشابه الذي يبلغ حد التطابق التام،بين الأجنة في كل من الإنسان والحيوان[٢] .

٢ – وجود تطابق شبهي :

أنه كلما حاول دارس الوقوف على أوجه التشابه بين الإنسان والحيوان[٣] مثلاً باعتبار العملية الجنينية،فإنه لن يجد صعوبة ، بل على العكس من ذلك سوف يري أوجه التطابق[٤] ، وبخاصة متى عقدت أوجه المشابهة بين الإنسان والقرد العليا أو الشمبانزي التي تعتبر المرحلة السابقة على الإنسان مباشرة [٥]، أو أن الإنسان هو قمة التطور لهذا النوع من القردة العليا .

– أن الصور الجنينية كلها ، بل والمراحل الجنينية أيضاً ، تحقق التشابه التام بين جنين الإنسان ، وجنين القرد الأقرب شبها به[٦]حيث لوحظ اتفاقهما معاً في كل من المراحل الآتية :

---

(١) وعلى هذا فالإنسان هو ناتج العمليات التطورية وليس خلقاً متميزاً في أصله وهذا يخالف نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(٢)نولدج هيوماس – التطور المقدم ص ٤٧ ترجمة ناهد رشاد ص أولى ١٩٨٩م.

(٣) هذا التشابه راجع إلى الأطراف وأعضاء البدن ، ولكن الاستدلال غير صحيح .

(٤) نولدج هيوماس – التطور المقدم ص ٥١ والدكتور صبري حسن شيمة – البيولوجيا الحيوان والإنسان ص١٩٧

(٥) الفروق بينهما في الظواهر الجسمية ما تزال قائمة ، في نفس الوقت ما يزال القرد قرداً ، والإنسان إنساناً فلماذا ثبت القرد على حاله ، وتطور الإنسان إلى الشكل الذي نراه ، ونتعامل معه من خلاله .

(٦) فرانك توماس – التطور الإحيائي ص ١٥٧ويعزي هذا القول لمارك،كما يعزي لوالاس وأرنست هيكل ، ويعزي لغيرهما ترجمة محمد عبد العزيز طاحون ١٩٨٥م .

المرحلة الأولية : وهي مرحلة الخلية الأولى ، حيث تكون النطفة التي تمثل مجموع الخليتين الجنسيتين الأحاديتين في الإنسان والقرد أيضاً ، أو الحيوانات الفقارية على وجه العموم .

المرحلة الثانية : وهي مرحلة الحيوان متعدد الخلايا ، والبدائي في التركيب .

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة الحيوان ثنائي الأبعاد أو الطبقات .

المرحلة الرابعة : وهي مرحلة الحيوان ثلاثي الطبقات .

المرحلة الخامسة : وهي المرحلة السمكية حيث تكون الزعانف والأجنحة.

المرحلة السادسة : وهي المرحلة الثديية .

المرحلة السابعة :وهي مرحلة الرئيسيات التي تعتبر أرقي مجموعة من الثدييات

المرحلة الثامنة : وهي مرحلة الصفات البشرية(١) .

وهذه المراحل يقع فيها التشابه التام بين الإنسان والقرد العليا — الشمبانزي — من الناحية الجنينية .

يقول توماس هيلز : ان الحيوانات الفقرية،ومنها الإنسان والقرد قد تتشابه في أجنتها إلى حد كبير، بحيث لا يكون من السهل لباحث ما أن يقوم بعملية تمييز دقيقة بين أجنة أنواع هذه الحيوانات المختلفة ، وبخاصة متى تعدى مجرد الظواهر.

وخلص إلى محاولة إثبات التشابه التام بينها جميعاً ، فإن ذلك لن يكون أمراً سهلاً ، لإثبات تمام التشابه بين الإنسان والحيوان أما لماذا ؟ فلوجود فروق كثيرة بينهما(٢)، من أبرزها:

---

(١) الدكتور — نصر محمد عبد العظيم — البيولوجيا المقدمة ص ٧٣ .

(٢) توماس هيلز — الكائنات الحية والبيولوجيا المقدمة ص ٨١ ترجمة رزق فوزي ط دار الجيل — بيروت — لبنان ١٩٨٧م .

الصبغة الجنينية[١]، ومدة الحمل[٢] بجانب الفروق الجوهرية الأخرى،التي تتعلق بعلم التشريح المقارن ، على وجه الخصوص .

٣ – التطابق البنائي في الأرحام :

ربما يقال أن هذا الدليل قد سيق لإثبات أن الإنسان هو ناتج التطور عن القردة العليا،وليس هو ناتج التطور عن الحشرات،أو أنواع أخرى من الحيوانات المتدنية ، وأوجه المشابهة قائمة في التفاصيل الجوهرية بين الأجنة الفقارية الواضحة التشابه ، وهي تقوم بين الإنسان والقردة العليا ، ويؤكد ذلك الاتجاه :

١ – تطابق الخطوات الجنينية بين الإنسان والقرد ، فكل منهما يتكون بناؤه الأصلي من خلية حية واحدة تسمى الخلية الأولي[٣] .

٢ – تتابع الانقسام بينهما يمثله نظام واحد ، ثابت في كل من الإنسان والقرد .

٣ – التمايز بين الأعضاء في كل منهما،إنما يأخذ صورة أولية خالصة ، بحيث لا يمكن التفرقة بين بويضة الإنسان ، وبويضة القرد أو الأرنب أو الكلب ، واختلافهم في بعض الاعتبارات،ليس دليلاً على الاختلاف في الأصول العامة ، أو البناء الجنينى[٤] .

---

(١) الصبغة الجنينية تتمثل في مجموعة الكروموسومات حيث أن الخلية الأولى في البناء الإنساني تتكون من ستة وأربعين كروموسوما يستوي في ذلك حال الذكر والأنثي من بني البشر ، أما في الحيوان فإنها تختلف بدليل أنه في حيوان الدروسوفيلا أربعة أزواج صبغية فقط ، وفي الحصان يوجد أثنان وخمسون زوجاً صبغياً ، وبالتالي فعدد الكروموسومات في القرد ليست هي عدد الكروموسومات في الدروسوفيلا ، ولا في الإنسان أيضاً ، مما يؤكد أن المشابهة بينهما من هذه الناحية لا وجود لها .

(٢) كما أن مدة الحمل في أنثي الإنسان تكون في الغالب تسعة أشهر ، أما هي في أنثي الأرنب فأربعون يوماً بينما هي في أنثي الحمار أربعة عشر شهراً ، وفي أنثي الخنزير وأنثى القرد تختلف مما يؤكد أنه لا توجد علاقة ثابتة تدعم مقولة أن القرد أصل الإنسان ، أو أن الإنسان تطور عنه .

(٣)الدكتور/ محسن السيد رزق – مشكلات تطورية ص ٩٥ ط ثانية الدار العصرية ١٩٨٣م.

(٤) بارتلمي هير – الكائنات الحيوية والمنظومة المشتركة ص ٤١ ترجمة حنان رزق ١٩٨١م .

٤ ــ أن الوقوف على الفروق الجوهرية بشكل أساسي،إنما يمكن العثور عليه في أخريات الانقلاب الجنيني ، ومن ثم تظهر الفوارق بين أجنة كل من الإنسان والأرنب والقردة العليا[١].

ومن ثم فلا توجد فوارق بين الإنسان والحيوانات المختلفة من هذه الناحية ، مما يؤكد أن الشواهد الجنينية تعلن التطور ، وتؤكد أن المشابهة بين الجنين في الإنسان والقرد متطابقة تمام المطابقة[٢] ، بل ان أعراض الحمل كما تظهر على أنثى الإنسان تظهر بنفس الصورة على أنثي القرود .

وكذلك ما يتعلق بالإعراض المرضية التي تلحق بالأجنة في كل منهما[٣]، وبخاصة أجنة القرود المتميزة،التي هي أقرب الأشباه بالإنسان ، أو أن الإنسان هو الممثل لقمة التطور بالنسبة لها .

٤ ــ **التطابق الصورى :**

وحتى يدخل التطوريون المسألة إلى عقول طالبيها ، فقد اعتمدوا على مجموعة من الصور التي تم التقاطها تعبر عن تطور نطفة كل من الحيوان والقرد في الرحم ، كما تظهر الصورة الحيوانية شاملة لكل منهما ، بادئة بأبسط جوانب الهيئة الحيوانية[٤]،ثم التقاط صور لها وهي متدرجة في الكمال ، بالنسبة للحيوان والإنسان ، ثم تأتي النهاية فتظهر الأجنة الحيوانية في صورتها الحقيقية

---

(١) راجع في بيان هذه الفروق لفرانك توماس ــ التطور الإحيائي ص ١٥٩ ولتوماس هيلز الكائنات الحية والبيولوجيا المتقدمة ص ٨٧ .

(٢)فرانك توماس ــ التطور الاحيائي ص ١٦١

(٣) الدكتور شعبان عبد الحميد سليمان ــ التطور المشكلات والحلول ص ١٧٤ ط ثانية الدار العصرية ١٩٨١م .

(٤) توماس هيلز ــ الكائنات الحية والبيولوجيا المتقدمة ص ٩١ .

كما تظهر الأجنة الإنسانية في صورتها البشرية الحقيقية[١].

يقول الدكتور : إبراهيم العطار" شاع لدى التطوريين الداروينيين ومن معهم أن علم الأجنة يؤكد وجود تشابه تام بين الإنسان والقردة العليا ، لكنهم لم يقدموا على ذلك أدلة معملية ، وإنما اعتمدوا فقط على مجموعة من الصور التي تم تجهيزها لنفس الغرض ، وهو ما يعني أن هذه الصور من صنائعهم ليثبتوا صدق نظريتهم ، وهذا التشكيك يمثل فقدان الثقة في الأدلة التي اعتمد عليها التطوريون مهما كانت ملامحها ، أو الصور التي تقوم فيها .

والتطوريون الإحيائيون يحاولون التأكيد على أن المراحل التي يمر بها الجنين داخل رحم أمه ، إنما هي صورة التطور المتقدمة التي قامت في الكائنات الحية على اختلاف العصور ، ومن ثم فهم يأخذون من الصور الجنينية أدلة يدعمون بها موقفهم ، بالنسبة إلى التطور الإحيائي بوجه عام ، وهذا مما يؤكد وقوعهم في دائرة الاستدلال بالنتائج المتوهمة ، على المقدمات الخيالية .

ب — مناقشة الدليل :

والواقع أن هذا الدليل تعتريه الكثير من العورات وبالتالي لا يصلح للاعتماد عليه ، أما لماذا ؟ فلما يلي:

١ — قيامه على مخالفة الحقائق العلمية في الكروموسومات :

حيث قام على مجرد تخيل وجود مشابهة من نوع ما بين المراحل العمرية داخل الرحم في كل من أنثى الحيوان وانثى الإنسان ، أو المراحل التكوينية ، وهذا ليس بصحيح ، لأن التشابه في هذه المراحل ليس معناه وقوع تشابه في

---

(١) ظن التطوريون أنهم بهذه الصور قد بلغوا عنان السماء ، وأنها الدليل القوي الذي يكشف عن المشابهة القائمة بين الإنسان والقرد وبخاصة القردة العليا ، وذلك مما شجع ايريان مايلد ، وجوليوس ألرست ، بجانب أرنست هيكل على القول بتسلسل الإنسان من القردة العليا .

الموضوع ، بدليل أن خلية الإنسان الأولى تتكون من ستة وأربعين كروموسوما، بينما الخلية الأولى في الحصان تتكون من أثنين وخمسين كروموسوما[١] والتطور يعني الزيادة ، ولا يعني النقصان .

٢ ــ إغفاله تكريم الله للإنسان :

أجل هناك فرق بين كبير، بل فوارق عديدة بين الإنسان والحيوان مما يؤكد أن أحدهما ليس هو الثاني ولا قائماً عليه، فالقرآن الكريم قد ألمح إلى هذا الفارق في الخلق،كدليل على تصرف الخالق وعلمه وقدرته،فقال تعالى:"وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً "[٢]والمعنى شرفنا ذرية بني آدم بالأصل على جميع المخلوقات[٣] كما شرفناهم عليهم بالعقل والعلم والنطق وتسخير جميع ما في الكون لهم ، وحملناهم على ظهور الدواب والسفن وغير ذلك من وسائل الانتقال،التي هيأ الله عقولهم لانتاجها ورزقناهم من لذيذ المطاعم والمشارب من السمن والزيت والعسل وغيرها مما تقع لهم به الفائدة .

وفضلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات ، وأصناف المخلوقات بما فيها الجن،والبهائم والطيور والوحوش تفضيلاً واضحاً ، محدد المعالم يبتدئ

---

(١)الدكتور على الدين محمد إبراهيم الهلالي /علم الأجنة دراسة مقارنة ص ٧١ مكتبة دار الفؤاد ١٩٨١م

(٢) سورة الإسراء الآية ٧٠ .

(٣) ويشهد الواقع المعاش في القرن العشرين ، أن الصرب الملحدين حينما هاجموا إخواننا المسلمين في كل من البوسنة والهرسك وسرايفو كانوا يبقرون بطون الحوامل فهن ، وينتهكون أعراض البنات والسيدات ، كما لجأوا إلى طريقة جديدة في التعذيب وهي وضع حيوانات منوية في أرحام بعض اخواتنا المسلمات بغية أن تنجب المسلمة كلباً أو حيوانا آخر ، فلم تفلح هذه الطرق الكافرة الفاجرة ، بل باءت جميعها بالفشل لأن الله أحكم الحاكمين قال :" ولقد كرمنا بني آدم " راجع للشيخ محمد رحماتوف مذكرات شاهد عيان في البوسنة ص ٥٣ وما بعدها ترجمة الدكتور زكريا حسن دهشان ، والغريب أن ذلك تم على مرأى العالم المعاصر كله وفي نهاية القرن العشرين فهل هذه هي المدنية المتطورة ، أم المادية الظالمة ، أم الإلحاد المعاصر الذي يقوم به أعمدة الكفر متى تمكنوا من الإعلان عنه .

بالأصول الأولى التي قامت عليها مادة الخلق ، وينتهي بالنعيم لأهل الإيمان في الجنات والعذاب الأليم لأصحاب الكفران[1].

٣ — تباين الأصول في الكائنات الحية :

فالأصل الذي قام فيه الحيوان،وتمثله مجموع الكروموسومات أو الصبغيات غير الأصل الذي قام فيه الإنسان .

منها بكل خلية وتمثله جملة الكروموسومات أيضاً بدليل أن حشرة الدروسوفيلا مثلاً ، يوجد فيها أربعة أزواج من الصبغيات ، بينما هي في الإنسان ٢٣ زوجاً، إذن علم الأجنة ليس دليلاً مقبولاً على القول بالتطور، كما لا يمكن اعتباره دافعاً قوياً في المسألة ، مادامت الأصول التي قام عليها غير صحيحة لكنهم قالوا به وتمسكوا بمضمونه ، والأستاذة منيرة الغاياتي — كغيرها من أهل الإسلام — ترفض هذه التصورات الخيالية الساذجة ، كما تؤكد أن الكشوفات التي تمت في علم الأجنة ،كانت كافية باعادة القطيع الضال إلى حظيرته .

فتقول يتصور أكثر النشوئيين جرأة أن الجنين يمر بكل مراحل النشوء والارتقاء ، أي من الخلية الواحدة إلى الإنسان ، وهم يفترضون أن الشهور القلائل التي تنقضي بين الحمل والولادة تغطي ملايين الأعوام من الوجود والتطور،من بويضة إلى سمكة،إلى زاحفة إلى ثديية ، إلى قرد ثم إلى طفل .

ثم تقول وطبيعي أن أول سؤال يقفز إلى الذهن هنا،هو إذا كان من الممكن أن يحدث هذا في خلال تسعة اشهر ، فلماذا استغرق حدوثه ملايين السنيين من قبل ؟ إن هذه النظرية الغريبة التي قدمها أيرنست هاكل ERNST Hackle [1] تقول أن تاريخ الجنين هو إعادة لتاريخ الأنواع ، ومعظم النشوئيين لا يؤمنون

---

(١) الشيخ محمد أبو العلا صبري — الضياء في تفسير سورة الأسراء ص ٩٩ المطبعة المحمدية بالديار اليمنية ١٣١٨هـ .

(٢) هو أرنست هيكل وقد عرفت به أثناء الحديث عن أبرز المقعدين لفكرة التطور الإحيائي من هذا الكتاب .

بها ، إنهم يحذفون المراحل العديدة ، ويحتفظون بثلاث فقط ، هي السمكة والذيل والشعر ، كما لاحظوا وجود شقوق شعيبية في الجنين[١].

ولكن الحقيقة هي أن هذه الثنايا تتكون منها ، مع نمو الجنيـــن التجــاويف السمعية ، والجزء الأسفل من الفك ، وجزء من الرقبة ، أما ما يسمونه ذيلا فإنــه في الواقع العمود الفقري ، الذي يتكون جنبا إلى جنب مع الأمعاء ، التي تنتــهي بالفتحة الشرجية .

فهل هناك حيوان يفرز فضلاته من طرف ذيله، كما أن الذي يدعونه شعرا فــإن ذلك الزغب المتناهي الدقة والنعومة الذي يكسو الجنين ويسقط عند الـــولادة، لا يمكن مقارنته بتلك الفروة الغليظة الخشنة التي تغطي أجساد الحيوانات[٢].

٤ – شهادة أصحاب التخصص :

ثم تقدم في هذا الشأن ما يعتبر من قبيل الشهادات العلمية ، على عجز فكرة التطور العضوي عن القيام بما هو مأمول فيها لدى أصحابها من هذه الشهادات:

١ – اعتراف أرثر كيث ARTHUR KEITH بفشل النتائج المترتبة علـــى القـــول بالتطور الإحيائي البيولوجي ، حين قال: إننا كنا نتوقع أن يكرر الجنين الصفات المميزة لأسلافه، من أدنى أشكال الحيوان إلى أعلاها ، ولكن بعد دراسة الجنين في كل مراحل تكوينه خابت آمالنا، فالجنين الإنساني ، لم يكن قردا في أي مــن مراحله[٣].

٢ – إعلان باتسين BATESON أمام جمع من العلماء المتخصصين في الأحيـــاء

---

(١) وهذه الملاحظات يقوم بها الإحيائيون أنفسهم ، مما يؤكد أن أفكارهم غير مقبولة ، ولا برهانية أيضا .

(٢) ومادامت المقارنة غير ممكنة بين الإنسان والحيوان في المرحلة الجنينية ، فإن علم الأجنة لا يكـــون كافيــا لاعتباره واقعا قويا يحث أصحابه على القول بالتطور .

(٣) وهذا الاتجاه العلمي والاعتراف الحيوي ينسف تماما فكرة تطور الإنسان الكائن الأعلى،عـــن كائنـــات أخرى كانت دونية ، ثم حصل لها التطور المستمر حتى صار قردا ، ثم ترقى فصار ذلك الإنسان الذي نراه .

بأنه من الحكمة الآن أن تلتزم الصمت[١]، فهو خير من الكلام الـذي مـلأ بـه الإحيائيون صفحات الجو ، ثم ما لبث أن تهاوى أمام الحقيقة الإلهية الكـبرى ، ومنها قوله تعالى :" هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظـالمون في ضلال مبين "[٢]. ومن ثم فإن هذا الذي اعتمد عليه الوضعيون في علم الأجنة لا ينهض معهم ، بل ولا يمكن حسبانه أحد الوجوه المقبولة في المسألة .

٥ ــ وقوع التزوير في الأدلة :

وينقل الدكتور محفوظ عزام أن أرنست هيكل قد اعترف رسـميا بـتزوير بعض الصور التي تم ألتقاطها لتصور المراحل المختلفة للجنين ، وذلك في مقالة كتبها في ديسمبر عام ١٩٠٨م، تحت عنوان تزوير صور الأجنة .

واعترف أيضا بأن مئات العلماء شاركوه في هذه الجريمة ، لأن كثيرا من الصور التي توضح علم أبنية الأحياء ، وعلم التشريح ، وعلم الأنسجة ، وعلـم الأجنة المنتشرة ، والمعول عليها في إثبات ذلك ، مزور مثل تزويره تمامـا، لا يختلف عنه في شئ[٣]،ومن ثم تكون المسألة كلها صورة من صور التزوير التي لكن التي تمت على نطاق واسع ، لكنها هذه المرة جاءت باسم العلم .

ثم إن القرآن الكريم فرق بين أجنة الإنسان ، وأجنة الحيوان ، مـن حيـث مدة الحمل ، وطبيعة تكوين الجنين ، والمدة التي تستغرقها كـل مرحلـة مـن مراحل الحياة داخل الرحم ، إبتداء من النطفة ثم المضغـة والعلقـة ، وأخـيرا الخلق الآخر ، قال تعالى :" لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم "[٤]

---

(١) الأستاذه / منيرة على الغاياتي ــ مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين ص ١٠ ، ١١ مكتبة وهبـة بالقاهرة ١٩٧٦م .تقديم الدكتور محمد البهي .

(٢) سورة لقمان الآية ١١ .

(٣) الدكتور محفوظ عزام ــ نظرية التطور ص ٢٣٠ وقد أحال هو على الشيخ طنطاوي جوهري ــ الجواهر في تفسير القرآن ج ٢ ص ٤٩

(٤) سورة التين الآية ٤

الثالث : دلالات علم التشريح المقارن[1]: Comparative Anatomy

علم يعني بدراسة الفوارق المختلفة بين أفراد الحيوان على وجه الخصوص، وموضوعه الملامح الحيوية المتباينة في الحيوان ذاته ، وعلاقتها بأوجه التشابه أو التباين بالنسبة للإنسان ، وما إذا كان أحد النوعين قد تطور عن الآخر ، أو يمكن استفادة الإنسان ببعض الأجزاء أو الأعضاء المتشابهة من الحيوان[2].

أ ـ عرض الدليل :

وقد ذهب التطوريون إلى أن البحث في علم التشريح المقارن قد انتهي إلى:

١ ـ أن جميع الفقاريات ـ في الحيوان والإنسان ـ يوجد لها منطقة رأس وجذع وذيل[3] ، وزوجان من الأطراف ، أو الزعانف في الأسماك[4]، ومعنى هذا أن الشكل الخارجي يقع فيه التشابه التشريحي من الجوانب المختلفة بين جميع الفقاريات المتمثلة في الحيوان والإنسان .

٢ ـ أن الأعضاء الداخلية لجميع الفقاريات كالجهاز الهضمي، والجهاز التنفسي ، والجهاز الدوري ـ متشابهة إلى حد كبير قد يبلغ حد التطابق ، ولكن هناك تحورات خاصة ، لها علاقة متميزة بطريقة حياة الحيوان[5]نظرا لنوعية غذائه .

٣ ـ أن الأعضاء التي اختفت من مسرح الأحداث "وتسمى الأعضاء الأثرية" ،

---

(١) علم التشريح المقارن هو الذي يقوم ببيان الفروق التشريحية ، بين أنواع الحيوانات المختلفة ، وبينها وبين الإنسان أيضا ، راجع للدكتور منير محمد الضبع ـ علم التشريح المقارن ص ٧ ط أولى ١٩٨٥.

(٢)الدكتور / محمود زكريا خطاب ـ علم التشريح المقارن ص ١٣ طبع ثانية ١٩٨٧م .

(٣) الدكتور / فوزي على عبد العظيم زهران ـ التطور والقوانين العلمية ص ٦٩ ط أولي ١٩٨٧ المطبعة العصرية .

(٤)الدكتور / محمود زكريا خطاب ـ علم التشريح المقارن ص ١٤ ، ١٥ .

(٥) وبالتالي فالتباين أو التحور بالنسبة للأعضاء الداخلية بين الإنسان والحيوان مرجعه إلى نوعية الغذاء بالنسبة لكل منهما

كانت موجودة بشكل طبيعي في النوعين ، وتعمل بكفاءة عاليه ، ثم حدث لها اهمال نحو العمل فصارت قزمة لا فائدة لها ، وطبقا لقاعدة الاستعمال والإهمال[١]، فإن هذه الأعضاء متى استعملت ادت وظائفها بشكل كبير ، امـا اذا أهملت فإنها تتلاشى .

بدليل أنها ما تزال تعمل في بعض الحيوانات التي لم تهملها ، وكذلك الحال مع الفصيلة النباتية من العالم الإحيائي ، بل أن بعض هذه الحيوانات والنباتات تحتوي على هذه الأعضاء التي تعمل في صورة كاملة،وتؤدي الوظيفة المنوطة بها في شكل متكافئ [٢]

٤ ــ إن الأعضاء الضامرة الآن ،كانت موجودة في الماضي،وتمثل أحد الدوافع الهامة، بل والقوية للقول بالتطور، بناء على علم التشريح المقارن ، لأنه يمكن تفسير وجودها الآن في هذه الأشكال . بأنها كانت في الماضي موجودة بشكل أقدر على العمل بالنسبة للأسلاف ، ومع أنها صارت ضامرة الآن أو عديمة الفائدة،إلا أنها من المعالم الهامة لإثبات وقوع التطور ،كالحال مع الزائدة الدودية، وضروس العقل ، وعضلات الأذن،وغيرها من العضلات التي تحرك الذيل[٣]

٥ ــ ان علم التشريح المقارن قد اعترف بوجود علاقات متبادلة بين أفراد النوع الواحد ، لكنه أكد على وجود فوارق بين ذات الأفراد ، ليس في الذكورة والأنوثة فحسب[٤] بل أن أوجه الاختلاف بينهما كبيرة أيضا ، فالذكر والأنثى

---

(١) قاعدة الأعمال والإهمال تمثل أحد القواعد الهامة التي قال بها لامارك،وقواعده الأربعة هي : الأولى قاعدة الاستعمال والإهمال ، الثانية امتداد العضو طبقا للحاجة المناسبة ، الثالثة تناسب نمو العضو مع مقدار استعماله الرابعة توارث الصفات المكتسبة

(٢)الدكتور فوزي على عبد العظيم زهران ــ التطور والقوانين العلمية ص ٧٧ ط أولى ١٩٨٧م

(٣) الدكتور محفوظ عزام نظرية التطور عند مفكري الإسلام دراسة مقارنة ص ١٨٠

(٤) الذكر غير الأنثى في التسمية ، وغيرها في الأعضاء التناسلية باعتبار المهام الملقاة عليها والوظائف التي تقوم بها في كل منهما

مختلفان ، وليس أحدهما أفضل من الآخر ، ومع هذا فهما متكافئان في القيمـة ، ولو أن قيمة كل منهما من نوع مختلف .

وإذا كان كل من الجنسين قد يأخذ من الآخر بعض السمات بنسب متفاوتة ، فإن هذا لا ينفي مطلقا أن الذكر ليس كالأنثي ولا يمنع أن يكـون الإنسـان قـد تطور عن نوع راق من أنواع الحيوان ، وهو القردة العليا ، أو الشمبانزي .

٦ ـــ أثبت علم التشريح المقارن إن الذكورة والأنوثة ليست شيئا مقصورا علـى الإنسان وحده ، بل هي شئ شائع في الحيوان والنبات والجماد ، وإذا أردنا الدقة فهي شئ شائع في جميع الكائنات الحية ، حتى ما يخفي عن العيان المباشر مثل الكهارب الموجبة والسالبة ، التي تتجاذب لتستوي بها الذرة الدقيقة[١]. لكن هـذا من صنع الله الذي قال :" ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون"[٢]، وقـال تعالى : " وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثي"[٣]، وقال تعالى : " فسـبحان الـذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون"[٤].

إذن حاول التطوريون توظيف علم التشريح المقارن ليحقق أهدافهـم فـي القول بالتطور ، ويدعم خطتهم بهذا الشأن ، لكن كيف حاولوا توظيف ذلك ؟

والجواب : أنهم عمدوا إلى إيجاد نوع من التشابه في التركيب البنائي العام بيـن جميع الكائنات الحية ، وبخاصة الحيوانية والإنسانية ، واندفعت بـهم خطـاهم سريعة نحو الحديث عن اللافقريات تارة[٥]والفقريات أخرى[٦]، وكانت غايتـهم

---

(١)الأستاذ محمد عثمان الخشت ـــ وليس الذكر كالأنثي ص ٥ مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٨٥م .

(٢)سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٣) سورة النجم الآية ٤٥ .

(٤) سورة يس الآية ٣٦ .

(٥) اللافقريات هي الكائنات الحية التي ليس لها عمود فقاري كالديدان والقواقع ، والاميبا واللوليب وهي تقوم بمهامـها عن طريق مجموعة من العضلات تساعدها على الحركة والانتقال بجانب ممارسة متطلباتها المعيشية

(٦) هي الكائنات الحية التي لها عمود فقاري،كالإنسان والحيوان ، والأسماك ، وكل ما له هيكل عظمية مهما كان شـأنها فإنها تسمى حيوانات فقارية .

من ذلك كله إثبات أن التطور حقيقة واقعه ، وبالتالي حاولوا تقديم أوجه التشابه بين الكائنات الحية من خلال علم التشريح المقارن ، قاطعين الخطوات الآتية :

الأولى : إثبات أن جميع الكائنات الحية الفقارية تشترك في الصفة التشريحية الواحدة ، بمعنى أن كل كائن منها ، له رأس وجذع،وذيل وأطراف،وهو الجانب المرئي المشاهد ، وكذلك له أعضاء داخلية منها الجهاز الهضمي ، والجهاز العصبي ، والجهاز الدوري ، والجهاز التنفسي، بجانب ما يتعلق بهذه الأجهزة من أعمال أو وظائف ، وأن هذه المسائل كلها متشابهة بين هذه الكائنات الحية جميعا ، إلى حد كبير جدا .

الثانية : إثبات أن جميع الكائنات الحية الفقارية ، تشترك في الهيكل العظمي كله على سبيل التشابه والتطابق ، مما يؤكد أن أوجه المشابهة بينها جميعا واحدة ، وأن السمات التي تجمع بينها جميعا من الناحية التشريحية واحدة .

الثالثة : إثبات أن الفقاريات تتشابه في العلبة العظمية التي تحتوي على المخ الذي يتحرك به الجسم ، يستوي في ذلك الأسماك والثدييات ، وجملة الفقاريات عموما ، إذ المخ هو الذي تخرج منه أنسجة عصبية ، تمتد في الجسم كله فتغذيه وتحركه[١] .

ومن ثم فالتشابه بين هذه الكائنات الإحيائية من ذات الناحية يؤكد أنها قد تطورت من بعضها ،وأن الحيوان هو الأصل الذي تطور عنه الإنسان ؛ كما يؤكد أن التطور حقيقة واقعية[٢]وليس صورة خيالية ، أو أمرا قائما على مجرد الفرضية .

---

(١)أنتوني دوبكس ــ الجهاز العصبي في الكائن الحي ص ١٣٧ ترجمة عبد العظيم حسن وهدى نبوي ط أولي ١٩٨٥

(٢) وهذا من الجدل وليس من باب العلم ، لأن العلم يقوم على حقائق،ولا يقوم على جدليات ، ومادام قد سلك طريق الجدليات فقط فقد أعلن عن تهافت النتائج التي يمكنه الإعلان عن وصوله إليها ،أيا كانت إنها إفلاسات فكرية .

الرابع : إثبات أن الفقاريات كلها تتشابه مع بعضها في الدم ومكوناته ، باعتبار الخلايا والكرات ، فكل كائن فقاري يشترك مع الآخرين في الدم وأعراضه وأمراضه ، كما يشترك معهم في الحاجة إليه ، أو ضرورة وجوده فيه ، وانعدام الحياة بدونه يستوي في ذلك الثدييات وغيرها [١].

وبناء عليه فقد انطلق التطوريين إلى القول بأن الإنسان ما هو إلا كائن حي فقاري ثديي ، ومن ثم فالتشابه بينه،والحيوانات الفقارية قائم من الوجوه التي سلف ذكرها جميعا ، والإنسان هو الآخر — من وجهة نظرهم — حيوان فقاري ثديي لا يختلف عن باقي الحيوانات الفقارية الثديية ، في الأصول الجسمية والتراكيب العامة الجوهرية ، بل وأغلب الصفات المشتركة الأخرى ، مما يؤكد أنه واحد من هذه الحيوانات التي أوجدتها الطبيعة ، ومن ثم فالتطور قد وقع عليها حتى بلغه هو .

ثم إن الإنسان من الصفة التشريحية كالحيوان تماما بتمام [٢] له رأس ، وجذع وزوجان من الأطراف ، وله كذلك جهاز عصبي وجهاز تنفسي وجهاز دوري ، وله كذلك هيكل عظمي ممتد في جسمه كله ، كالحال مع كل ذوات الفقار ، كما يمتد الجهاز العصبي في الجسم كله ، وإن كانت كتلة الجهاز العصبي ترتكز في منطقة الظهر [٣] والجهاز الدوري في الناحية البطنية ، والقناة الهضمية في الوسط ، ونفس التركيب العام للعضلات المرتبطة بالأطراف [٤].

---

(١) انتوني دوبكس — الجهاز العصبي في الكائن الحي ص ١٣٨ .

(٢) الصفة التشريحية هي المجال الطبيعي لعلم التشريح في الإنسان ، ولعلم التشريح المقارن في الحيوان ، وهي تقوم على التراكيب البنائية للكائن الحي باعتبار الداخل والخارج .

(٣) وربما ظن أحد أن الجهاز العصبي يكون في الظهر ، ولكن هذا ليس رأيا علميا ، إنما تمتد كتلة الأعصاب ، أو الحزمة العصبية في الجسم كله من خلال الأحبال التي تنطلق من المخ لتغطي الجسم كله — راجع للدكتور زكريا محسن العوضي — علم التشريح مبادئه ونتائجه ص ٧١ ط المطبعة العصرية بيروت ١٩٨٩ م.

(٤) الدكتور عبد العظيم محمد سيد أحمد — الكائنات الحية والإنسان ص ١٤٧ ط ثانية دار الجيل ١٩٩٥م.

٧ ـ أن أنثي الإنسان تلد،ثم ترضع صغارها،وتفعل ذلك أنثي الأرنب والفيل،بل وتحنو الغزالة واللبوءة على صغارها مع إرضاعها لهم[١] حنوا كبيرا، فهذا يدل على القاسم المشترك بينها ، وبين ذوات الثدييات مما يؤكد أنها جميعا من أصل واحد ، كما تقع المشابهة بينهم تماما في تركيب الدم ، والأعضاء ، بجانب تركيب القلب والدورة الدموية ، وكذلك الأوردة والشرايين والرئتين بجانب العضلات الناعمة .

بل ويستمر التشابه التام بين الإنسان والحيوانات الفقارية ، من الناحية الهيكلية والعضلية حتى ينتهي الأمر عند الأطراف وانتهائها بالأصابع التي تتشابه كثيرا جدا بين الإنسان والقرد[٢]، بل بين الإنسان والأرنب والكلب أيضا وإن كان التشابه بين القرد والإنسان أكثر وضوحا مما بين القرد والكلب[٣].

٨ ـ أن مراكز الإحساس في المخ داخل هذه الكائنات الإحيائية تجزم بوجود تشابه كبير جدا بين الإنسان والحيوانات العليا ، في كل من الإحساس،والحواس باعتبار المنبهات والمثيرات،والمثبطات أيضا ، فالقردة وحيوانات التجارب وإنسان التجارب،أمكن تطبيق بعض التجارب عليهم جميعا في وقت واحد فكانت النتيجة واحدة [٤]في كل من المثير والمنبه ، أو المثبط .

ولا يختلف الإنسان والقرد ، أو الإنسان والأرنب والكلب في شئ من ذلك ،

---

(١) كأنه يريد القول بأن عملية الحمل والولادة ثم الإرضاع بجانب الحنو على الصغار في الحيوان المتوحش والمستأنس والإنسان تؤكد التطور الإحيائي .

(٢)فرانك هوكس ـ علم التشريح والتطور ص ٨٧ ترجمة حسن رمزي ط دار الجيل بيروت ١٩٨١م .

(٣) كأنه يريد التأكد على أن الإنسان يمثل خلاصة التسلسل من المجموعات الكلية التي يمثل القرد فيها أعلى المراتب ، وبالتالي فالقرد تخلص من الكلية وهي المرحلة المتدنية ، وصار أقرب إلى الإنسانية وهي المرحلة الراقية وهم بذلك يخالفون تعالم رب البرية

(٤) قام بهذه المحاولة العالم الإحيائي هنري توماس في هولندا عام ١٩٧٨ م لكن تجاربه لم تفلح ،لأنها لم يقع لها التطابق التام ولا التأكيد المتواصل أيضا

وإنما الاختلاف البسيط قد يرجع إلى القوة والضعف أو الاستجابة السريعة والبطيئة ، ومن ثم فهو فرق نسبي في الدرجة من حيث القوة والضعف ، كما هو نسبي من حيث السرعة والبطء ، وهو اختلاف ليس جوهرياً ، لأنه يقع في أفراد النوع الواحد نفسه ، من ذوات الفقاريات الثديية .

أجل كانت هذه الملامح القائمة في علم التشريح المقارن ، بمثابة الشواهد للتطوريين على أن الكائنات الحية الفقارية واللافقارية،قد نشأت جميعهاعن أصل واحد هو المادة[١] وأن عملية التولد التلقائي[٢] Spontaneous generation والتعاقب الإحيائي ، بجانب تسلسل الكائنات من بعضها ، قد جاءت في مراحل تطورية متباعدة استغرقت ملايين السنين مما يوحي بأنها كانت بطيئة.

لكنها في النهاية،تؤكد أن الإنسان كغيره من الحيوانات،قد وجد معها من أصل واحد ولم يوجد على أنه خلق مباين لها،أو أنه قد تم وجوده بعيداً عنها ،أو كان مجيئه في خلق مستقل ، وأن التنوع بين هذه الكائنات الاحيائية إنما مرجعه إلى الانتخاب الطبيعي أو الاصطفاء النوعي الذي قامت به الطبيعة ذاتها مع الكائنات الحية ، في رحلة الحياة التي لم تنقطع بعد .

ب ـ مناقشة دلالات علم التشريح المقارن :

الحق أن التطوريين قد خانهم التوفيق ،وما ذلك إلا لأنهم عمدوا إلى البحث في قضية لم يكونوا شهوداً لها حين وجودها ،كما لم يطلب منهم الإشهاد عليها ، وأعني بها قضية كيفية خلق الإنسان ، والله سبحانه وتعالي قال :" مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا "[٣] فلو

---

(١) ذلك باعتبار الأصل الأول من وجدة نظرهم على ما سلف بيانه أثناء الحديث عن المراحل التطورية المختلفة ـ النشوء ـ التطور ـ الارتقاء .

(٢) سبق الحديث عنها في إشارة موجزة ، لكن سأتعرض لها في شئ من التفصيل داخل الباب الثالث من هذا الجزء إن شاء الله تعالى لأنها كانت تمثل احدى اتجاهات معرفة الأصل الحيوي للأحياء Blogeneis

(٣)سورة الكهف الآية ٥١

حضروا خلق أنفسهم لكان من الممكن أن يطلب منهم الإشـــهاد عليـــها ، أو أن يكونوا شهودا فيها ، لكنهم تطوعوا أن يدلوا بشهادات في غير محلها،فوقعوا فـــي نتائج ما أدلوا به من شهادات كذوباً،لكن لابد من مناقشة ما اعتمدوا عليه بالنسبة لدلالات علم التشريح المقارن ، وذلك سيكون على النحو التالي :

١ ــ اختلاف الموضوع :

ذلك أن علم التشريح المقارن ، موضوعه بحث الفروق بين الكائنات الحيـــة في عالم الحيوان ، ومرجع هذه الفروق أو الأصل الذي نشأ عنه ، وهل يمكـــن التغلب عليها ، أو تقديم حلول علمية أو عملية بالنسبة للمشكلات التي تطرأ[١].

من ثم فليس علم التشريح المقارن معنيا بإظهار أوجه التشـــابه بيـــن هـــذه الكائنات الحية الحيوانية والإنسانية حتى يؤخذ منه ما يدل على وقـــوع التطـــور الإحيائي والتأكيد على أن أصل الإنسان حيوان أقل رقياً منه ، بل على العكـــس من ذلك ، وأن عنايته العلمية امتدت لابراز الفروق الجوهرية بين الحيوان فـــي أنواعه المختلفة ، الزاحفة والماشية على قدمين والأربع وذوات الأجنحـــة مـــن ناحية ، وبين الإنسان من ناحية أخرى[٢].

ومن ثم فلا يصلح الاعتماد عليه ، في إثبات وقوع التشابه بيـــن الكائنـــات الحية ، أو أن الإنسان قام في أصله على أى نوع من أنواع الحيوان أبدا ، كمـــا أن الله جل شأنه بين أن كل الكائنات المختلفة في أجناسها تجري فيها الزوجية ، وأنها خلقت من البداية على هذا النحو قال تعالي :" وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "[٣].

---

(١)الدكتور صفوت محمد ذكي ــ علم التشريح المقارن ونظرياته العلمية ص ٣٧ .

(٢)مادامت عناية علم التشريح المقارن هي إبراز الفروق الجوهرية بين الإنسان والحيوان ، فكيف يؤخذ علـــى أنه يفيد إثبات وقوع التشابه بينهما ، لابد أن الدليل مقلوب ، والغاية معروفة وهي استخدام العلـــم بطريقـــة معكوسة للإضرار بالأصول الدينية ، وهو سلوك عدواني ، وليست له علاقة بالعلم أبداً .

(٣) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

٢ ـ احتمالية النتائج :

علم التشريح المقارن كغيره من العلوم الاحتمالية ، يقوم علـــى فــروض واحتمالات ، ولا يقوم على نتائج يقينية ، كما أنه في ذات الوقت لا يقدم نتـــائج يقينية،وإنما يقدم نتائج احتمالية أيضا ، ولو كانت نتائجه يقينية يقينا مطلقا لأغلـق باب البحث العلمي،منذ ظهرت بواكير النتائج السابقة ، ولأغلقت كذلك الميـــادين العلمية القائمة على البحث العلمي المتواصل في المعامل المشتركة أو المعـــامل المتخصصة[١] .

ومن ثم فلا يمكن الاعتماد على دلالات علم التشريح المقارن ، في تفسير أصـل الإنسان ، وكونه تطور عن حيوان أدنى منه أم لا ، بل ولا الطريقة التـــي تـم خلقه عليها .

٣ ـ تخالف الأصول :

أن علم التشريح المقارن ميدان عمله الكائن الحي الموجود فعـــلا بمـا هـو عليه[٢]،وليس بما كان عليه ، إنه لا يبحث في الماضي[٣] ، ولكنه يبحـــث فـي الحاضر ويؤكد عليه ، ثم يقدم تصورات لما يمكن أن يكون عليه هذا الكائن فـي المستقبل،باعتبار إمكانية الخيال العلمي،أو الاستنتاج المحتمل[٤] وليس من طريق اليقين ، لأن ذلك من علم الغيب المستقبلي .

---

(١) والواقع المعاش شاهد على أن البحث العلمي لم ينقطع ، كما أن مدارسه لم تتوقف ، ونتائجه هي الأخرى محل قبول أورد ، بل إنما في الأغلب الأعم يقع عليها التعديل من كل ناحية .

(٢) ومسألة خلق الإنسان ، إنما هي متعلقة بما كان ، لا بما هو كائن ، والفرق بين الاتجاهين كبير جدا .

(٣) لأن البحث في الماضي من عمل المؤرخين وليس من عمل علماء التشريح ، فلاستدلال بعمل المؤرخين على علم التشريح منهج غير سديد ، وكذلك الحال في العكس بينهما.

(٤) ومادام علم التشريح المقارن لا يبحث في الماضي فإن الاستدلال به على وقوع التطور يكون استدلالا غير مقبول . كما أن الاعتماد عليه يكون مغامرة مرفوضة من كل ناحية .

٤ ـ التباينات التشريحية :

أجل هناك العديد من التباينات التشريحية الكثيرة بين الإنسان والقردة العليا ، كما بين الإنسان والحيوان ، من عدة نواح منها :

أ ـ الصبغات الجينية،أو الكروموسومات Chromosomes حيث أن بعض الحشرات قامت جيناتها على أربعة أزواج صبغية[١] ، وفي بعض الحيوانات ظهرت هذه الكرومسومات في أثنين وخمسين ، بينما هي في الإنسان ستة وأربعون كرموسوما[٢]،ومازال الحيوان هو هو ، وما زال الإنسان أيضا هو هو

ويؤكد ذلك ما يقال في الأحياء بأن الكائن الحي أثناء مراحل نموه الجنينية ، إنما يتسلق شجرة النسب الخاصة به ، وأن تاريخ نشوء الفرد من ذات النوع ، كما يرى في تطور الأجنة ، فإنه يعيد تاريخ نشوء النوع كله ، ويلخصه وهو ما يعرف باسم ظاهرة الاستعادة أو التلخيص[٣]، ويؤكد أن الإنسان هو إنسان منذ خلقه الله تعالى ، كما أن الحيوان هو الحيوان منذ خلقه الله تعالى ، ولا تبديل لخلق الله .

ب ـ مدة الحمل في الحيوانات الثديية مختلفة تماما إلى حد التباين ، فهي في الأرنب مثلا أربعون يوما ، بينما هي في الفيل ستة وثلاثون شهرا، وفي الحمار أثنا عشر شهرا ، ناهيك عن اختلافها بين الفئران والقطط[٣] ، أما مدة الحمل في الإنسان فما تزال ما بين سبعة ، إلى تسعة أشهر ، ولم يحدث فيها أي تغيير إطلاقا من ناحية علم التشريح ، رغم مرور آلاف السنين في المجال البحثي .

---

(١) كالحال مع حشرة الدروسوفيلا حيث يوجد بها أربعة أزواج من الصبغيات .

(٢)الدكتور محمد عبد العظيم التوني ـ البيولوجيا والإنسان ص ١٩٤ .

(٣)الدكتور / فوزي السيد خضر ـ البيولوجيا الجزئية ص ١٥٣ ط دار الجيل بيروت ١٩٨١م .

(٤)الدكتور حسن رمزي الديب ـ علم الأجنة من منظور حديث ص ٤٣ نشرة المكتب العلمي ١٩٨٧ .

ج ـ خلايا الدم ومكوناته تؤكد ان دم الإنسان غير دم الحيوان ، باعتبار الخصائص ، ولو كان بينهما شئ من التشابه الوثيق ، لتمت معالجة القصور بحيث يمكن الاستفادة من دم الحيوان ، في علاج أمراض الدم بالنسبة للإنسان ، وبخاصة الأنيميا الخبيثة ،أو أنيميا الخلايا المنجلية في الإنسان Sickle-cell Anemia أو الأنيميا المتأقلمة التي ينشأ عنها العديد من الأمراض ، ومن أكثرها شيوعا سرطان النخاع الشوكي[١]، التي ما تزال الجهود البحثية حولها متواصلة لم تنقطع .

٥ ـ التباين العاطفي :

الحيوان يسعى نحو غريزته بصورة تلقائية ، فيها الكثير من العشوائية أو العفوية ، بل إنه في مزاحه قد يتحول بسرعة رهيبة،إلى عمليات عدوانية جمعية قاتلة ، وكثيرا ما يفتقد الحيوان كل صور العاطفة التي تمليها الروح ،أو يختزنها القلب والوجدان [٢].

وعالم الحيوانات يضرب به المثل في هذا الجانب وبخاصة حيوانات الغابة وأسماك البحر،أماالإنسان فإن عاطفته تعلو بة فوق السحاب،وتمكنه من التحليق بين طبقات الجو العليا ، ومن الأدلة على ذلك ما امتلأت به الصفحات حول الغزل الجميل العفيف،والمدح أو الحديث عن الذات في الجوانب المختلفة[٣]التي

---

(١) الدكتور فيلارت هولمز ـ أمراض الدم والمشكلات المستحدثة ص ٧٧ ترجمة الدكتورة هيفاء فخري ١٩٨٥ دار الفكر بيروت . حيث أكد على وجود العديد من الفروق بين دم الإنسان والحيوان ، كما قدم صورا لمشكلات بحثية ما تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة ، وطالب ببذل المزيد من الجهود حولها .

(٢) الدكتور توماس هولمز ـ مشكلات الطب النفسي عند الحيوان ص ٩٥ ترجمة صابر راضي ، حيث انتهى إلى أن الحيوان يتحرك ويفرح بالغريزة ، لا بالعقل ، وأنه يمارس حياته بشكل طبيعي،طالما كان قادرا على ذلك ، أما إذا عجز فإنه يلجأ إلى السكون ويتوارى عن الآخرين ، وبالتالي فالمسيطر عليه هو غريزته لا عقلية .

(٣)الدكتور سبنسر كولز ـ الطب النفسي قديما وحديثا ص ١٤٥ ترجمة وفاء صبري ١٩٨٧م .

جاءت متوازنة أحيانا ، وغير متوازنة في أحايين كثيرة ، ولكنها تعبر عن تمايز الإنسان وتباينه عن أرقي الحيوانات في الجانب العاطفي .

٦– القدرات العقلية والفروق الفردية :

من الثابت أن الحيوان لا يملك قدرات عقلية عالية ، بحيث تمكنه من اصطياد معلومات ذات طبيعة بحثية،كما لا تعينه على اختزانها بصورة من الصور ، كل ما لدى أرقى الحيوانات ارتقاء هو العمل على تلبية احتياجاته الضرورية ، من المأكل والمشرب والجنس،كما يلبي نداءاتها كلها بطريقة غريزية[١] تلقائية لا مجال فيها للتدريب ، ولا مكان للتعلم أو التعليم .

ومن ثم فهو لا يفكر في مصادرها إنما يفكر فيها مباشرة ، فتفكيره مرتبط بغريزته ارتباطا كاملا ، حتى دافع الأمومة عنده يمكنه أن يطفئه بصورة من الصور التي لا تعبر عن قدرات عقلية،أو امتيازات فكرية حتى في أعلى صورها وأرقاها ومهما بالغنا في تدريبه وتأديبه[٢] فإن طبيعته الحيوانية تفرض نفسها عليه في وقت من الأوقات .

أما الإنسان – مهما كان مستواه الفكري – فإنه يعمل دائما على اكتساب معارف جديدة – وان لم يكن ساعيا إليها – إلا أنه من السهل عليه الاحتفاظ بها كليا أو جزئيا ، وليست هذه قاعدة ثابتة في كل أفراد النوع الإنساني ذاته ، وإنما هناك فروق فردية ، تعبر عن التمايز بالنسبة للقدرات العقلية ، وبالتالي فلا يمكن أن يكون الإنسان متطورا عن كائن لا إنساني أبدا .

كما أن الإنسان يستطيع توظيف هذه المعارف في جملتها ، بغض النظر عن كون هذا التوظيف واسع المدى أم لا ، إذ العبرة قائمة في كيفية استفادته

---

(١) الدكتور / توماس هولز – مشكلات الطب النفسي عند الحيوان ص ٩٧ .

(٢) ويؤكد ذلك ما وقع من عمليات عدوانية قام بها الأسد المدرب في السيرك حيث انقض على مدربه فأكله رغم أنه مدربه الذي تولى تعليمه واستعمل معه الوسائل التي تجعله يخاف منه

مما احتفظ به من معلومات بالنسبة لجملتها دون اعتبار لطبيعة جزئياتها[1].ومن ثم فلا يمكن أن يكون الإنسان في أقل درجات المعرفة أو الثقافة حيوانا راقيا ، ولا يمكن أن يكون الفأر أو البغل إنسانا متدنيا،لأن ذلك يتنافى مع حكمة الحكيم وعلم العليم الله رب العالمين .

٧ ـ شهادة علماء التشريح :

ويقرر بعض من علماء التشريح أنه لا يمكن احتمال تصور تسلسل الإنسان من القردة أبدا ، لأن القردة منفردة بتركيب خاص ، يستحيل تشريحيا أن يتطور الإنسان منها ، أو أن يقوم تركيبه عليها[2]، وبالتالي فعلم التشريح لا يشهد للتطوريين بقدر ما تأتي شهادته مكذبة لهم ، هادمة الأصول التي اعتمدوا عليها.

وينقل الشيخ مصطفي صبري[3]عن هكسلي[4]، كما ينقل الأستاذ عباس العقاد القول بأنه لا ريب في أن الذين يعتقدون بالارتقاء يجهلون أنه نتيجة مقدمات ، مثل التولد الذاتي ، والانتخاب الطبيعي ـ لم يسلم بها[5]، من جانب أهل الإسلام وإنما هي محل شك من الباحثين ، ومحل إنكار لدى جملة كبيرة من الإحيائيين

---

(١) وهذا وحده يكفي للتدليل على أن الإنسان لم يتطور عن أي نوع من أنواع الكائنات الحية ، وإنما هو خلق مُتميز عنها جميعا .

(٢)توماس هيلد ـ الإنسان كائن برأسه ص ٩٧ ترجمة حنان مهنا ١٩٨٧م .

(٣) هو شيخ تركي الأصل ، مسلم سني الاعتقاد ، ولي مشيخة الخلافة الإسلامية ، فلما ألغيت الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وقامت الدولة العلمانية في تركيا البلد المسلم ، هاجر الشيخ إلى مصر وأقام بها وظل فيها إلى أن لقي ربه ، وكان له نشاط علمي ملحوظ دافع فيه عن العقيدة الإسلامية دفاعا متواصلا ، وله جملة مؤلفات تحمل آراءه ومن أشهرها ـ موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ، وعباده المرسلين وهو أربعة مجلدات ، وموقف البشر تحت سلطان القدر ، وغيرها من المؤلفات العلمية .

(٤) سبق الحديث عنه أثناء تقديم نبذة عن أشهر المقعدين للفكرة الإحيائية حديثا .

(٥)الأستاذ عباس محمود العقاد ـ الإنسان في القرآن ص ٢٢٤ .

أنفسهم[١] الذين رأوا فيها مجرد افتراضات وخيالات لا ترقى إلى مجال الحكم عليها بأنها أفكار صحيحة أو نظريات علمية مقبولة ، وبناء عليه فإن دلالات علم التشريح لا تؤيد التطور الاحيائي العضوي ، وإنما تثبت بطلان الأقوال التي جاءت فيه ، والقواعد التي حبل بها ، ثم وضعها وليدا مشوها .

الرابع :علم التوزيع الجغرافي البيئي : BIOGEOGRAPH

تعتبر البيئة هي الوعاء الطبيعي لنمو الكائنات الحية ، وذلك لأنها تقوم على ثلاثة معالم رئيسية ، الأول : المناخ المتمثل في الحرارة والبرودة والاعتدال ، الثاني : التربة بما لها من سمات انباتية ومواصفات تتعلق بطبيعتها ، من سهول وتضاريس وماء إلى غير ذلك ، الثالث : وسائل المعيشة في هذه البيئة ذاتها[٢]، وقد حاول التطوريون الاستدلال بعلم التوزيع الجغرافي البيئي على كون التطور العضوي حقيقة واقعة ، وليس مجرد فرض خيالي ، ومن ثم سأعرض وجهة نظرهم وبعه ذلك أناقشها .

أ ـ عرض الدليل :

من المؤكد أن وجود العوامل البيئية، بصفة مشتركة يؤثر بشكل ما في تكوين الكائن الحي ، كما تؤثر البيئة ذاتها في نشاطه من الخواص المختلفة ، حتي قيل أن الإنسان ابن بيئته، من ثم فقد ظهرت تباينات عديدة داخل الكائنات الحية التي تقيم في بيئات مختلفة ، كما ظهرت أنواع من أوجه التشابه بين الكائنات الحية التى تقيم في منطقة أو بيئة واحدة[٣]، ومما لا شك فيه أن هذه الكائنات الحية تتكاثر بطريقتين أساسيتين ، ويأتي مع كل واحدة منهما طرق فرعية تابعة له .

---

(١)ويمكن مطالعة المنكرين لهذه الأفعال في العديد من المؤلفات،كما أنني ربما أشرت إلى بعضهم في هذا الجزء من ذات الكتاب إن يسر الله تعالى الأسباب أو أضمه إلى الجزء الثاني من هذا الكتاب تحت عنوان موقف المنكرين والمثبتين .

(٢)الدكتور / توفيق محمد صالح ــ البيئة الطبيعية ومشكلات البيئة الصناعية ص ٧٧ ط أولي ١٩٩٥م .

(٣)الجرمان هايل ــ الإنسان والبيئة ص ٣٩ ترجمة الدكتور عبد العزيز راشد ط دار الجيل بيروت ١٩٧٧م

١ ـــ التكاثر اللاجنسي : ASEXUAL REPRODUCTION

وهو الذي يقوم على انفصال جزء من الجسم الحيوى ، سواء أكان خلية واحدة جرثومية ، أم كان جملة من الخلايا أو الأنسجة ، ثم نمو هذه المنفصلات بحيث تتحول إلى فرد جديد تماما ، لكنه يشبه الأصل الذي انفصل عنه[١] وتستمر صفات الأجيال الناتجة بطريقة التكاثر اللاجنسي قائمة ، مادامت البيئة ذاتها مستقرة .

أما إذا حدث تغير في البيئة فإن معظم هذا الناتج عن التكاثر اللاجنسي يتعرض للهلاك [٢] ، لكن إذا استطاعت الأصول ـــ الآباء ـــ التكيف والتآلف مع البيئة ، والتأقلم على ذات ، التغيير فإن نسبة التعرض للهلاك في هذه الكائنات المتكاثر لا جنسيا تقل إلى حد كبير ، وهذا النوع من التكاثر شائع جدا في عالم النبات،لكنه ينتهي إلى اعتبار الأبن نسخة طبق الأصل من أبيه الذي قام عليه[٣].

أما في عالم الحيوان فإن التكاثر اللاجنسي يقتصر على بعض الأنواع البدائية في عالم الحيوان الأولي ، ومن ثم فالبيئة لها دور كبير في عملية التطور الإحيائي ، كما أن لها دخلا كبيرا في ترشيد الكائن الحي ، إلى طرق جديدة تعينه على تنميته نفسه ، وتعويضها عن ما فقدته في رحلته الحياتية[٤].

---

(١)والأصل الذي أنفصل عنه لا تربطه به علاقة ، ولكنه في ذات الوقت ليس باستطاعته الاستغناء عنه ، لأنه يصير بمثابة الصورة المعبرة عن الأصل.

(٢) لأن للبيئة دورا كبيرا في تنمية الكائنات الحية ، عن طريق امدادها بالمقومات الأساسية ، راجع لانجو مان هايل ـــ الإنسان والبيئة ص ١٤١.

(٣)الدكتور محمد عبد الله تفاحة ـــ مقدمة في علم الكائنات الحية ص ٢٤٩ ط أولي ١٩٨٦م .

(٤) وللتكاثر اللاجنسي في عالم الأحياء صور عديدة من أبرزها :أ ـــ الإنشطار الثنائي BINARY FISSION ب ـــ التبرعم BUDDING ج ـــ التجدد REGENERATION د ـــ التكاثر بالجراثيم SPOROGONY هـ ـــ التوالد البكري وتسمي البويضة العذراوية أيضا PARTHENOGENESIS ـــ زراعة الأنسجة PARTHENOGENESIS .

٢ ــ التكاثر الجنسي : SEXUAL REPRODUETION

وهو الذي يقوم على فردين من ذات النوع ــ الذكر والأنثى ــ غالبا ، لإنتاج الأمشاج الجنسية بعدد كبير ، ويتعين على تلك الأمشاج أن تتلاقى من أجل الاندماج في الإخصاب ZYGOT لكن ذلك يعتمد على المصادفة والعشوائية ، ولا يعتمد على الغائية أو القصدية [١] حيث يلتقي المشيج الذكري ، بالمشيج الأنثوي المناسب لنوعه ، ثم يندمجان معا في اللاقحة ، التي تبدأ في الانقسام مع النمو لتكوين الجنين ثم الفرد اليافع ، فالبالغ الذي يجمع بين صفات الأبوين[٢].

لأن الابن يتسلم من كلا الأبوين جزءا ، ولو يسيرا ، من مادتهما النووية ، ومن ثم فإنه يصير خليطا بينهما[٣].

غير أن البيئة تمثل أهم العوامل الخارجية بالنسبة لتطور الكائنات الحية ، بدليل أنها قد تجبر بعض الأنواع الإحيائية على مخالفة قاعدة تعاقب الأجيال Alternation – of – generations [٤] خلال دورات الحياة ، ومن ثم قد تقع التلاقي أو

---

(١) إذا كان مجرد تلاقي الأمشاج الذكرية مع الأنثوية في الرحم الواحد ، لايتم إلا عن طريق المصادفة العشوائية كما يزعمون ، ألا يعتبر قولهم بالتطور الإحيائي هو ذاته قائما على المصادفة العشوائية والفرضية الساذجة أيضا ، مع أن عملية التكاثر العشوائية هذه هي الأصل الذى قام عليه التطور عندهم .

(٢)الدكتور محمد عبد الله تفاحة ــ مقدمة في علم الكائنات الحية ص ١٥٣ .

(٣) صور التكاثر الجنسي عديدة ايضا من أبرزها : أ ــ الاقتران Conjugation ويكون عادة في الكائنات الأولية البدائية كبعض الطحالب والفطريات حيث يقع الانقسام الأميتوزي لكنها تلجأ للاقتران عند تعرضها للجفاف أو تغير حرارة الماء ، أو نقاوته ، ب ــ التكاثر بالأمشاج الجنسية المتمثلة في الذكر والأنثي ، حيث يتم نقل مادة النواة الأبوية إلى المشيج الأنثوى في الإخصاب الذي يمثل عملية اندماج نواة المشيج الذكري بنواة المشيج الأنثوي لتكوين اللاقحة التي يمكنها استعادة ازدواج الصبغيات ثم تمضي نحو تكوين الجنين بالانقسام الميتوزي .

(٤)وتعتبر قاعدة تعاقب الأجيال أحد طرق التكاثر ، حيث توجد بعض الأنواع النباتية والحيوانية التي يمكنها الاحتفاظ بالقدرة على التكاثر بالطريقتين الجنسية واللاجنسية في تعاقب للأجيال خلال دورات حياتها ، وربما تمكن بعض الأنواع من التحول بين نوعي التكاثر الجنسي واللاجنسي حسب ظروف البيئة ، ومن ثم فإنه يجني ميزاتهما معا فى تحقيق سرعة التكاثر والتنوع الوراثي نظرا لما يملكه من قدرة على مسايرة البيئة وسرعة الانتشار

التحول والتبديل النوعي ، ويكون ذلك ناتج العمليات البيئية والظروف الحياتية .

بناء على ما سلف اتجه التطوريون إلى القول بأن البيئة تمثل أحد المراكز الهامة التي تقوم عليها عملية التطور ، أما كيف ذلك ؟ أو ما هي الطريقة التي يمكن فهم هذا الجانب من ناحيتها ؟ فالجواب ما يلي :

١ ــ الاعتقاد بأن المجموعات النوعية القديمة،ذات القربى،التي نشأت أولا كانت كلها في بيئة جغرافية واحدة ، وأنها قد انطلقت من هذه البيئة ذاتها [١]فصارت البيئة هي العامل الهام في بناءاتها ، بل يمكن اعتبار البيئة بمثابة المركز المشترك بين هذه الكائنات ، التي انطلقت منه ، أو قفزت عليه .

٢ ــ اعتقاد أن هذه المجموعات النوعية الأولي المشتركة ، في المركز النشوئي قد حصلت لها عدة تقلبات ، بعضها نتج عنه ان انقراض نوعي ، وبعضها الآخر حدث له تكاثر نوعي أيضا ، ثم أجبرت البيئة العناصر المتكاثرة على التحوير ، رغبة في الحياة[٢]، وطلبا للهرب من ضغوط البيئة ومشكلاتها .

٣ ــ الاعتقاد بأن بعض هذه الكائنات المتكاثرة ، لم تتمكن من التعامل مع الظروف البيئية المستجدة ، وبناء عليه قررت الهرب بعيدا عنها ، لكن إلى بيئة أخرى ، وأنها في أثناء الهجرة قد اكتسب صفات وعوامل جديدة ، دفعت بها إلى التطور المتلاحق في عمليات بطيئة حينا ، سريعة نسبيا في بعض الأحيان[٣]

ولكن هذا الاتجاه لا يفصح عن نوعية هذه الكائنات التي أمكنها القيام بعملية التفاعل الجديدة فضلا عن الوسائل التي حملتها أثناء قيامها بهذه المهمة ، كما لم توضح الصورة التي انقطع عندها ذلك التعامل .

---

(١)الدكتور أنطوني توماس هيوار ــ البيئة والتطور قواسم مشتركة ص ٧٧ ترجمة الدكتورة حنان عزت ط دار التوفيق ١٩٨٧م .

(٢) الدكتور حسن محمد شعبان ــ التطور وقضاياه ص ١٦٤ وهذا الاعتقاد الخاطئ يترتب عليه إلغاء فكرة وجود قوى غيبية لها تأثيرات في الكائنات كما يلغي من حسبانه عقيدة وجود الله تعالي .

(٣)توماس أنجر ــ مشكلات تطورية ص ٧٥ ترجمة هناء الزغبي دار النفائس ١٩٨٧م.

٤ ــ أن العوامل البيئية من المناخ،والتضاريس،والغذاء كان لها دخل كبير أيضا في تغيير اتجاه هذه الكائنات المهاجرة، وذلك مما أدى إلى وقوع نوع من الفساد في توزيع الكائنات الحية من الناحية الطبيعية ، لأن عمليات الهجرة المتواصلة لم تسمح لهذه الكائنات الاحيائية بتنظيم نوعياتها،والتقليل من نسب الهلاك في أفرادها وأنواعها أيضا[1].

وهذا مما يعول عليه التطوريون ، لكن الواقع ليس يؤيدهم بل يعاندهم بدليل ا، العوامل البيئية صارت مفعولا بها . بل تحولت من عنصر مقلق إلى عنصر مستأنس جدا .

٣ ــ الاستنتاجات الخمسة :

وقد نتج عن هذه الاعتقادات الأربعة ، عدة استنتاجات أعتمد عليها التطوريون في الاستدلال بالتوزيع الجغرافي،أو النظام البيئي،على وقوع التطور الإحيائي ، وأهم هذه الاستنتاجات ما يلي :

الأول : وجود أماكن خالية على وجه الأرض من الحيوانات بأنواعها المختلفة ، مع صلاحية هذه الأماكن للمعيشة[2]، ومن ثم فلو كان إيجاد الكائنات عن طريق الخلق المباشر أو الخلق الخاص ، ما وجدت هذه الأماكن الصالحة للمعيشة خالية من الحيوانات كلها [3]، بل ولظهرت فيها أنواع ومظاهر حيوية متعددة.

الثاني : عجز العلماء عن تقديم تفسير مقبول لكون هذه الأماكن خالية من الحيوانات المختلفة ، مع إمكانية العيش فيها ، حيث أنها بيئة متلائمة مع أسباب

---

(١)الدكتور محمد السيد ذكي ــ البيئة ومشكلات التطور ص ٨٧ ط أولي ١٩٩١م .

(٢) توماس الجريد ــ مشكلات تطورية ص ٧٧ كأنهم يريدون إحكام سيطرتهم على قدرة الله تعالى أو يريدون القول لماذا خلق الله في هذه الأماكن كائنات حية ولم يخلق في الأماكن الأخرى مع صلاحيتها لوجود كائنات حية عليها تعالى الله من قولهم علوا كبيرا .

(٣) هذا التعليل يرتد على التطوريين إذ يمكن أن يقال لهم ما دمتم قد زعمتم أن الحياة الملائمة يسعى إليها الكائن الحي بنفسه ، فلماذا لم يتمكن من الوصول إليها هذه المرة ، مادام قد وصل إليها من قبل

المعيشة إلى حد كبير ، وبالتالي فلابد لها من تفسير علمي مقبول ، يقوم على الجانب التطوري ، ويعترف به [١].

الثالث : أن الحيوانات التي وجدت في بيئات متجاورة ظهرت فيها الوان شتى من التشابه والائتلاف ، مما يؤكد دور البيئة في عملية تطور الكائنات الحية ، بل ولا يمكن تجاهل هذا الدور على الإطلاق[٢].

الرابع :أن الكائنات الحية التي ظهرت صورها على الحفريات، أو أمكن تربيتها في بيئات منفصلة،بعضها عن الأخرى بحواجز طبيعية،كالمحيطات والجبال ، لم يظهر بينها أي نوع من التشابه ، بل لم يظهر بينها إلا كل ألوان الاختلاف ،مما يؤكد دور البيئة في عملية التطور[٣]، وهذا الزعم غير صحيح لأن الفوارق الطبيعية أكثر من الاتفاقات الظاهرية في كل أنماط الكائنات الاحيائية ، حتى داخل البيئة الواحدة.

الخامس : أن التاريخ الطبيعي قد اعترف علماؤه ، بوجود طفرات في الكائنات الحية ، التى نمت داخل بيئة بعينها ، بل أمكن استخدام التهجين السلالي أو الوراثي بطريقة منظمة ، فأدى ذلك إلى حدوث بعض التغيرات الجديدة التي لم تكن لها ملامح بارزة في ذات الكائن من قبل[٤]، وهذا الاتجاه قد مال أصحابه نحو علم التاريخ الطبيعي،بحيث يعتمدون عليه في دعم وجهة نظرهم التطورية العضوية .

من ثم فقد ظن التطوريون أنهم حققوا انتصارات كبيرة في المسألة ، وأكدوا على دور البيئة في عملية التوزيع الجغرافي ، والتطور الاحيائي وكذلك توزيع

---

(١) الدكتور محمد السيد زكي ــ البيئة ومشكلات التطور ص ٩١ وهذا الاعتراف بعجز عن العلماء يجيء على الفكرة من أصلها ، لأن العجز حينئذ يكون قاسما مشتركا .

(٢)الدكتور حسن محمد شعبان ــ التطور وقضاياه ص ١٦٨ .

(٣)توماس الجريد ــ مشكلات تطورية ص ٩٣ .

(٤)الدكتور / حسن محمد شعبان ــ التطور وقضاياه ص ١٧٢ .

الكائنات الحية في انماطها وأشكالها المختلفة ، وأعلنوا أن التطور ناتج البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي ، وليس طبقاً لإرادة الخالق العظيم جل علاه

ب – مناقشة الدليل :

معروف أن البيئة لها دور ما في تكوين بعض السلوكيات ، التي تصدر من الكائن الحي ، أما على سبيل الاكتساب ، أو على سبيل التنحي ، أو على سبيل الثبات،فهذه الوجوه الثلاثة لا تخرج عنها تأثيرات البيئة في الكائن الحي[1] وهي حينئذ تعمل على السلوك ، والتطبع،ولا تعمل على الطبع ، بمعنى أن دور البيئة لا يعدل من طبيعة الكائن الحي ، وإنما يعدل في المظاهر الناشئة عنه ، أو الفعال التي تتعلق به ، ومناقشة هذا الدليل ستكون في حدود ما يلي :

١ – فقدان الوثائق الصحيحة :

أن البيئة أو التوزيع الجغرافي عنصر هام في دراسة بعض الحالات المتعلقة بالأمراض والأقوات ، بدليل أن أئ إنسان يخرج من البيئة التى تربى فيها ، فإنما يعاني بعض الشئ أول انتقاله للبيئة الجديدة ، أو أنه يغالبه ذلك الشعور بالاغتراب ، لكن التكاثر اللاجنسي لا يمكن أي باحث من تقديم صورة مشروعة على لغة ، العلم تفيد بأن البيئة أو التوزيع الجغرافي، له أدنى دخل في تفسير نشأة الحياة على الأرض ، فضلاً عن وجود كائنات حية على قدر عال من الترقي والتقدم[2]كالإنسان مثلاً ، وبالتالي فلا توجد وثائق صحيحة تؤكد دخل البيئة في التطور العضوي ، فضلاً عن أن يكون لها تأثير كبير فيه.

---

(١)الكائن الحي المقصود هنا هو الحيوان والإنسان ، لأن كلا منهما يقبل التعلم والاكتساب ، أو التقليد والمحاكاة ، بنسب تختلف في أحد النوعين عن الآخر ، كما تختلف بالقوة والضعف في أفراد كل من النوعين طبقاً لقاعدة الفروق الفردية والقدرات العقلية .

(٢) الدكتور خيري محمد فوزي/ التطور الداروني لغة غير مقبولة ص ٧٧ طبعة دار الرشيد حلب ١٩٨٧م

٢ـ شهادة الواقع المعاش :

أن البيئة لا دخل لها بعملية التكاثر الجنسي ، حيث ثبت أن الكثير من الحيوانات متى عاشت في بيئة بعينها ، ثم انتقلت إلى بيئة أخرى ، فإنها لا تتأثر كثيراً بالبيئة الجديدة ، وإنما تظل حالة في ثبات كأنه لم يحدث لها شئ أصلا ، أو أنها لم تعرف بحدوث تغيير بيئي .

بل ان طائر السمان يهاجر من بيئة إلى أخرى في شكل أسراب وجماعات هجرات إرادية،ويعمل على التكاثر في البيئة الجديدة ، دون أن يتأثر بشئ[1]، وبالتالي فلا دخل للتوزيع الجغرافي بالنسبة لنشأة الكون ، أو إقامة الأنظمة الحياتية أو الإحيائية ، فضلاً عن أن يكون له شئ من التطور فيها والواقع لا يشهد للتطور بين من يعاندهم .

٣ ـ ثبات الأشياء في حقائقها :

أن ظهور اللافقاريات كعالم مستقل إلى اليوم ، وظهور الفقاريات بجواره نفس المدة ، كعالم مستقل أيضا ، وإلى اليوم ، يؤكد أنه لا دخل للبيئة في عملية الخلق والإيجاد أو الرقي والتطور،إنها بيئة صماء ، فكيف تجبر ساكنيها على الهجرة والمغادرة ، أو الإقامة والاستقرار كما أنها ليست عاقلة حتى توصف بقدرتها على الجبر أو الإكراه[2]، اللهم إلا إذا أراد التطوريون الإفصاح عن إلحادهم ، بطريقة سافرة مكشوفة ، وكانوا من قبل يقومون به على نواح ، يجئ فيها الاستتار كثيراً .

٤ ـ عدم القدرة على الارتداد :

أن عدم تحول الفقاريات من الصورة التي هي عليها،إلى صورة متدنية عند

---

(١)الدكتور على عبد العاطي النمرسي ـ مشكلات حيوية ص ٩٤ ط ثانية ١٩٦٥م .

(٢) وبالتالي فهم قد صاروا في عداد الدهريين الذين لاهم لهم إلا الحديث عن الطبع الحيي والدهر المفني ، وهم في أعدادهم وأفرادهم كافرون بالله رب العالمين .

الانتقال من بيئة متنامية إلى اخرى غير متنامية . يؤكد عجز التطوريين عن الإمساك بقضايا صحيحة ، وكذلك العجز عن الوقوف على أدلة معقولة . او مقبولة[١] أما لماذا ؟ .

فلأن التوزيع الجغرافي للكائنات الحية ليس على إطلاقه ، كما أن عملية الإجبار على الهجرة ، والنزوح لم تنل القبول العلمي ، أما كيف ؟

فلأن حيوانات الغابة ، وبخاصة ذي الطبيعة الإفتراسية ـ ينقل إلى البيئة الحضرية حيث يكون في حدائق الحيوانات . ومع هذا يتأقلم الحيوان مع البيئة الجديدة ، دون أن يحدث له شئ من التطور ، بل ربما حدث له شئ من التدهور في الصحة الجسمية أو النفسية لا تغير البيئة ، وإنما لشعوره بأنه مقيد الحركة ، أو غير قادر على الانطلاق الذي كان له قبل ذلك[٢]، ولو انطلق من أغلاله لاسترد عافيته

٥ ـ استقرار الفعل الإلهي :

أن التلاقي داخل البيئة الواحدة للأنواع المختلفة ، في المظاهر أو المتقاربة فيها ، ليس مبرراً مقبولاً ، لأن يكون قاعدة مشتركة يقفز فوقها التطوريون حتى يعلنوا عن اكتشافاتهم المتوهمة ، لأن الله تعالى ما خلق خلقاً إلا ومهد له سبيل الحياة بالمكان الذي يعيش فيه[٣] ، أو تبادل التعايش بداخله .

---

(١) الدكتور على عبد العاطي النمرسي ـ مشكلات حيوية ص ٩٩

(٢) فالأسد والغزال بل والذئب والثعلب كان كل منهما قد اعتاد العدو السريع في البيئة الصحراوية التي تربي فيها ، فإذا تم حبسه القلب أمره ، والقبض وربما انزوى ، لكنه سرعان ما يعود إلى وضعه الطبيعي ، لا لأنه أراد المواءمة بينه والبيئة الجديدة ، وإنما لأنه تناسي بيئته السابقة فقط،ولو عاد إليها لرجع إلى نفس النشاط الأول ، لكن مع شئ من التدريب والتمرين حتى يزاول مهارته السابقة ، لأن الحيوان يتأثر بالاغتراب تأثرا سريعاً ما يلبث أن يزول أ راجع للدكتور محمد السيد زكي ـ البيئة ومشكلات التطور ص ٩٧

(٣) قال تعالى : "وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ" سورة هود الآية ٦ .

وليس معنى ذلك أن هذا التشابه يصلح لأن يكون قاعدة ينطلق منها القـول بالتطور ، وأن هذه المجموعات النوعية المتلاقية ، قد جاءت من أصل واحد هو المادة الصماء أو يمكن القول بأن الأصل الحيوي الذي قامت عليه إنما هو أصـل واحد ناتج عن المادة الجامدة ، أما لماذا ؟

فلأن المجتمعات الحيوانية وحدها ، قد وجد فيها الدجاج ، والحمام والرومي بل وذوات الجناحين من الإوز والبط وغيرها ، ورغم أنها صور نوعية واحـدة في الشكل أو متقاربة إلى حد كبير[1]، إلا أنه لم يحدث أن تحـول الديـك مـن الدجاج إلى ديك من الرومي مثلاً،لا في الشكل ولا في الصوت،ولا في الوظائف وكذلك الحال في باقي الحيوانات التي من هذا النوع ، بل وكل الأنواع على هـذا النحو تسير.

كذلك الفصيلة الحيوانية الرباعية المستأنسة ، كالحمار ، والفرس ، والبغـل والجمل ، وتعيش كلها في بيئة واحدة ، وهي ذات مجموعة نوعية ، ومع هذا لم يحدث أن تطور الحمار فصار بعيرا ، أو تطور الفرس فصار ثوراً ، أو تطـور الخنزير فصار عجلاً،بل كل الأنواع وأفرادها على ما هي عليه،في نظامـها الأول الذي خلقها الله سبحانه وتعالى عليه ، قال تعالى: الذى أحسن كل شئ خلقه"[2] .

٦ ــ قلة الخلائق واتساع الأرض :

أن وجود أماكن فارغة من مظاهر الحيوان،أو الكائنات الحية في الماضي ، لايعني عدم صلاحية هذه البيئة ، وتنبذ للإقامة فيها ، وإنما معناه ، أن الخلائـق لم يكونوا قد تكاثروا بهذا الشكل، فليس من المعقول أن آدم عليه السلام ، وحواء كانا يعيشان على كل الأرض، التي نسمع عنها أو نعرفها الآن ، وإنما عاشا فـي

---

(١) وهذا واضح بالمشاهدة بين الرومي والنعام والأوز والدجاج ، ومع هذا فلا يمكن القول بأن أي نوع منـها هو الثاني .

(٢) سورة السجدة الآية ٧

منطقة صغيرة تكفيهما ، وكلما تكاثرت انسالهما امتدت في الأرض لتعمرها وتنهض بها وتستفيد بما فيها

وكذلك الحال مع الحيوانات والطيور فإنها جميعا مخلوقة لخدمة الإنسان الذي هو الكائن الأرقي.قال تعالى :"وَالْخَيْلَ والْبِغَالَ والْحَمِير لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ويَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُون وعَلَى اللّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ ومِنْهَا جائِرٌ ولوْ شاء لَهَدَاكُمْ أجْمَعِين" (١)

٧ ــ طبيعة السنن الكونية :

أن ظهور بعض أوجه التشابه بين الحيوانات المنعزلة في بيئة واحدة ، وعدم ظهورها في الأنواع التي عاشت داخل أنظمة بيئية متباعدة ، ليس معناه أن هذا التشابه قد وقع بالاكتساب ، بدليل أن لزنجي الأسود لو أقام في قلب المناطق الباردة فإن سحنته لا تتغير ، وإذا حدث تغير طفيف في اللون أو السلوكيات ، فإنها ترتد إلى طبيعتها مباشرة بعد عودته إلى البيئة التي جاء منها ، وفي سرعة شديدة .

وهذا يدل على أن الخالق لها جميعا واحد وهو الله تعالى ، وأنه الذي نظم ذلك بقدرته ، ولا يغرب عن علمه شئ منها لا في الأرض ولا في السماء ، بل ولا أصغر من الذرة ، أو كبر منها،كل شي عنده جل علاه مدون،ومسجل في كتاب مبين .

٨ ــ أن اعتماد التطوريين على البيئة أو التوزيع الجغرافي ، إنما هو إعلان عن إفلاسهم في الوقوف على شواهد مقبولة ، تدعم ما زعموه من نتائج، وما هي إلا خيالات انخدع بها أصحابها ، كما لم يوفقوا إلى التعرف الدقيق على ما فيها من سوءات ، حتى يعملوا على إصلاحها ، أو عورات فيسارعوا إلى سترها .

(١) سورة النحل الآيتان ٨ ــ ٩

الخامس: دلالات علم الفسيولوجيا : Physiology

علم وظائف الأعضاء قديم باعتبار البحث فيه ، حديث باعتبار التسمية الاصطلاحية ، فهناك فسيولوجيا النبات ، وفسيولوجيا الحيوان ، وفسيولوجيا الإنسان أيضاً،وهناك فوارق كبيرة تتعلق بكل جانب معرفي منها ، طبقاً للمسائل البحثية التي يقوم عليها هذا الجانب،أو الكروموسومات،أو الوظائف المتعلقة به.

ومن المؤكد أن فسيولوجيا النباتات تختلف اختلافاً جوهرياً عن فسيولوجيا كم من الإنسان والحيوان ، طبقاً للظروف العلمية والمستجدات التي تقوم عليها ، حتى وان اشتركت جميعها في البروتوبلازم[١]، ومادام التطوريون قد اعتمدوا عليه في إثبات التطور العضوي فلا بد من عرضه عندهم ، ثم مناقشته على الجوانب الممكنة .

أ ـ عرض الدليل :

يظهر الدليل الفسيولوجي لدى القائلين بالتطور، في العديد من المواد الأساسية أو التي تقوم بدور الخدمة لها،أو المتابعة الكاملة للنتائج المترتبة عليها .

١ ـ الإشتراك في البروتوبلازم:

يقرر الاحيائيون أن البروتوبلازم هي المادة الحية الأولي المشتركة بين جميع الكائنات الحية وهى تقوم بوظائف مشتركة متشابهة تماما في كل الكائنات الحية ، وهذا التشابه في المادة الأولي يعطي انطباعا معينا لا محيد عنه ، وهو أنه ما دامت هذه الكائنات جميعا تشترك في قاعدة واحدة هي قاعدة المركز فإن أوجه التشابه بينها ، لا يمكن حصرها ، كما لا يمكن فصل بعضها عن

---

(١) البروتوبلازم عبارة عن ناتج جملة من التفاعلات المعقدة التي تمت داخل ظروف بيئية مختلفة،أدت إلى تكوين وحدات أساسية أطلق عليها اسم البروتينات التي نشأ عنها البروتوبلازم ، وهو المادة الحية المشتركة بين جميع الكائنات الحية على اختلاف مستوياتها . أنطوني هايلد ــ الجينوم ومراحله ص ٧١ ترجمة الدكتور علي هاشم فريح ط أولي ١٩٨٧م.

بعض فصلا حقيقيا[١].

بيد أنه لما كانت الحيوانات كلها قد انحدرت من أصل واحد،هو المادة الخام الأصلية ـ البروتوبلازم ـ فإن الخصائص المشتركة من الناحية الوظيفية للأعضاء تكون واحدة ، كما تكون القدرات الأساسية بين هذه الكائنات الحيوية واحدة في الأصل ، وصور هذا التشابه البروتوبلازمي في الكائنات الحية عديدة من أبرزها :

أ ـ التشابه في عمليات التحول الغذائي ، حيث أن الإنسان والحيوان يتشابهان تماماً في إلتقاط الطعام عن طريق الفم،وليس عن طريق الامتصاص ، كما أنهما بعد التقاط الطعام يمران بمراحل عديدة منها ، البلع ، ثم الدخول إلى المعدة التي تقوم بدورها في طحن الطعام وهضمه ، ثم تحول هذا الطعام إلى مادة الدم ، التي بها الحياة .

أما مفرزات هذا الطعام التي تتم غربلتها ، وتنقيتها عن طريق الكبد ، فإنه يتم طردها مع الأجزاء الأخرى ، عن طريق عملية الإخراج ، ولا يختلف أرقى إنسان عن أدنى حيوان في هذه المسالة ، ويعبر عنها أحيانا باسم التمثيل الغذائي في الإنسان والحيوان[٢]وهي لا تختلف كثيرا في نوعيهما .

ب ـ التشابه في عمليات الالتحام والانفصال ، حيث أن عمليات الانفصال والالتحام تقع في صور عديدة من الناحية الاجتماعية،حين تظهر هذه الحيوانات في جماعات متآلفة أحياناً ، أو متنافرة منفصله أحياناً أخرى ، وذلك في

---

(١) الدكتور / محمد عبد العظيم التوني ـ البيولوجيا والإنسان ص ٢١١ وهذا التشابه الظاهري الطلق منه التطوريون ، وكأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة .

(٢)الدكتور حازم محمد الوكيل ـ علم الوراثة والسلالات ص ٥٧ طبعة دار الفجر ١٩٧٦ والتشابه في التمثيل الغذائي والتحول الغذائي من ناحية المفهوم ربما قدم بعض التصورات التي أمدت علماء التغذية بالعديد من أوجه التمايز في البحث العلمي عن غيرهم

الجماعات الإنسانية أيضا[١]. ومن الناحية البيولوجية حيث يضع الذكـر خلايـاه في الأنثى ، ثم تتم عملية الالتحام الخلوي ، وهو ما يعرف باللقحة ، ثم يحـدث التطور وأخيرا يتم الانفصال الجنيني وذلك مما يشترك فيه الحيـوان والإنسـان على نفس المستوى الواحد.[٢]

ومن الناحية الاقتصادية تعيش الحيوانات في جماعـات متعاونـة كـالنمل والنحل ، ثم تنفصل عن بعضها البعض الآخر ، لاعتبارات بعينها ،وكذلك الحال في الإنسان[٣]، ومن ثم فقاعدة التشابه بين الحيوانات والإنسان تتسع جـداً ممـا يؤكد أنهما أصل واحد[٤] .

ج ـ التشابه التام في عمليات التكاثر الجنسي ، بدليل أنهما "الحيوان والإنسـان" يتكاثران عن طريق الجنس ، وليس عن طريق اللاجنس[٥]حيث يقـوم التكـاثر الجنسي على وجود فردين أو أكثر[٦] ، لأنه إذا تم التعامل الجنسي بين فرديـن من النوع الواحد ـ ذكر وأنثى ، أو ذكر وعدة إناث ـ فإن التكاثر للنوع يقـع بينهما بشكل مطرد،يستوي في ذلك القردة العليا ، والحيوانات الدنيا بل والإنسـان أيضاً ، ومن ثم فإن التشابه في التكاثر الجنسي يدعم قضية التطور .

---

(١) هذه المشابهة صورية وليست حقيقية لأنها في الحيوان غير مقصودة عن طريق المعرفة وإنما تتـم في شـكل تلقائي ، أو عن طريق المصادفة .

(٢)الدكتور محمد عبد العظيم التوني ـ البيولوجيا والإنسان ص ٢١٣ .

(٣)أرنولد هابلت الإنسان والحيوان خصائص مشتركة ص ٥٧ ترجمة هناء زكريا ط دار الفجر الجديد١٩٨٥

(٤) ونحن لا نوافقهم عليه لأن ما ذكر في القرآن الكريم بخصوص النمل إنما كان للعظة والاعتبار ، صحيح أن ما وقع في قصص القرآن الكريم حق كله ، ولكن ليس معنى ذلك أن جماعة النحل فيـها عمليـات الصـادر والوارد على الناحية القصدية ، وإنما على الناحية الغريـزية الفطرية .

(٥)أرنولد هابلت ـ الإنسان والحيوان خصائص مشتركة ص ٦١ .

(٦) أما التكاثر اللاجنسي فإنه لا يحتاج إلى فردين ، و ما يحتاج إلى فرد واحد ، أو جزئي مادي فقط،بدليل أن بعض الحشرات إذا قطعت بطريق عرضية فإن كل جزء منها يعيد تنظيم نفسه ويأخذ في النمو حـتى يصـير حشرة جرثومية كاملة ، بطريقة خلقها الله تعالى في ذلك الكائن .

د ـ التشابه التام في العمليات الحيوية الإحساسية،من حيث أن الحيوان له نشاط حيوي يمارسه ويحتاج فعل الممارسة إلى نوع من التمهيد ، والإعداد ثم التهيئة وأخيراً يتم المقصود ، والحيوان يحتاط في ذلك كثيراً ، بل يقوم به الذكر والأنثي على قدر سواء كل بطريقته .

ففي الأرنب يقوم الذكر والأنثي كلاهما بالتمهيد للعملية من خلال إشارات ميكانزمية محورة في أشكال نغمية متوالية ، والإنسان يقوم بهذا العمل في الأمور المعتادة ، بل ان القرد أكثر من الإنسان في الاهتمام بالعمليات الحيوية الإحساسية[1]،مما يؤكد أن أصل القردة العليا والإنسان واحد .

هـ التشابه التام في العمليات العصبية المشتركة بين الإنسان والحيوان ، ففي المظاهر الغضبيَة قد يبلغ الإنسان مرحلة يمزق فيها أعز الأشياء لديه ، وربما أهلك نفسه وهو لا يدري ، ثم بعد ذلك يدرك أنه أخطأ ، وربما سارع إلى تصويب الأخطاء ، أو لم يسارع[2].

والحيوان يفعل ذلك أيضا، ويكفي لغضب القرود أن يشعر بهجر أنثاه له ، وحينئذ يتعامل معها بقسوة وعنف ، كما أن العمليات العصبية من تحريك الجفون واستخدام الحدقات في التعبير عن ما بالداخل ، لا يمكن أن تنفصل صورها في الإنسان والحيوان ، بل ربما كانت في الحيوان أكثر قوة[3] ، وبالتالي فالتشابه بينهما قائم من الناحية الفسيولوجية .

٢ ـ الاشتراك في النظام الهرموني : HORMONES

يذهب التطوريون إلى أن الكائنات الحية كلها ، تتشابه في حزمة هرمونية

---

(١)ماكدونالد الطوني ـ المصير المشترك ص ١٤٥ ترجمة صفوت راشد ط دار الفؤاد .

(٢) أرنولد هاملت ـ الإنسان والحيوان خصائص مشتركة ص ٦٦ ولكن هذه الصور لم تتم دراستها بشكل صحيح .

(٣)ماكدونالد الطوني ـ المصير المشترك ص ١٤٨ ولكن هذا لا يعطي التشابه التام في القاعدة الأصلية .

ترتبط بينها جميعاً ، بحيث لا تخرج عن هذه المشاركات أبدا ، بل أن أي دارس لعلم الفسيولوجيا خاصة ، او علم الجينات ،أو الأنزيمات والهرمونات عامة يجد قاعدة يشترك فيها كل من الحيوان والإنسان على قدر سواء [١]، ومن ثم فإن هذه الكائنات تقع في نطاق التطور،الذي يبتدئ من الأدنى حتى يبلغ الأعلى ، أو من القاع حتى يصل إلى القمة .

ويؤكد التطوريون أن البحث في الكيمياء الحيوية[٢] Biochemistry منح هذا التشابه القاعدي دعماً متواصلاً ، بل كلما تقدمت الأبحاث في هذا المجال كثرت الدلائل على أن الإنسان يمثل قمة المراحل التطورية للكائنات الحيوية الأخرى، وأن الأصول التي قام عليها هي ذاتها التي تعبر عنها الملامح العامة ،وتقوم علي مبادئ كل من علم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية معاً [٣].

ولكن هذا الاشتراك في النظام الهرموني ليس على وجه دقيق،بحيث يبني عليه القول بوجود تشابه تام بين الإنسان،والحيوان حتى يقال أن الإنسان تطور عنه ، بل يؤكد أصحاب الكيمياء الحيوية اختلاف البناء الكيميائي في المخ الإنساني عن مخ الحيوانات ، كما يختلف بالحجم والوزن والعمليات الكيميائية الأخرى[٤] مما يؤكد أن هذا التشابه الظاهر ليس حقيقيا .

٣ ـ الاشتراك في الإنزيمات : ENZYMES

يزعم التطوريون أن الإنزيمات تمثل قاعدة يشترك فيها الحيوان والإنسان ، وأن انزيم التربسين الذي يهضم البروتينات Proteins يوجد في مجموعة كبيرة

---

(١)أرنولد هابلت ــ الإنسان والحيوان خصائص مشتركة ص ١٦٣ .

(٢) علم الكيمياء وتفرعت عنه فروع كثيرة منها الكيمياء الحيوية والكيمياء العضوية ، بل أنها حاولت أن تجد لها مكانا في الكثير من الموضوعات البحثية أيضا .

(٣)رنولد هابلت ــ الإنسان والحيوان خصائص مشتركة ص ١٦٧ .

(٤) فردريك هوكمان ــ الكيمياء سر الحياة ص ٩٧ ترجمة ــ هناء وصفي ط دار الجيل بيروت .

من الحيوانات ، ابتداء من الأوليات في الخلية حتى الثدييات ، ومعنى هذا أن الإنزيم يوجد في الحيوانات التي تتكون من خلية واحدة مثل الأميبيا AMAEBA ثم يحدث التطور في الخلية حتى تصل إلى الخلية الثنائية الجنينية ، والجنسية ، أو الجسدية ، بل وحتى يبلغ القمة[١]، فهو يسعى فيها سعياً متواصلا ، دون أن يفرق بين كائن أحادي الخلية أو غيره .

كما يؤكدون على أن هذه الإنزيمات تعتبر قاعدة مشتركة بين الكائنات الحية بحكم أن الأصول العامة كلها قد وجدت فيها جميعاً من خلال اصل واحد، ثم وقع التطور العضوي على هذا المبدأ الأول[٢]ومن ثم تكون أوجه التشابه بين الكائنات الحية وحدة متواصلة .

ولكن هذا الاستنتاج غير مقبول ، لأنه قام على ناحية نظرية تفتقد الأصول التجريبية ، بدليل أن الأنزيمات ما هي إلا جملة من البروتينات التي تختلف في أفراد النوع الواحد من شخص لآخر ، ومن ظروف صحية إلى أخرى مرضية[٣] ، ومن ثم فلا يمكن القول بأن التشابه في الأنزيمات يعطي صورة مؤكدة على أن التطور العضوي حقيقة واقعة .

بل ربما غالى التطوريون حتى قالوا أن الشمبانزي يتشارك وإيانا في أكثر من ٩٩ في المائة من جيناتنا ، كما يشترك معنا في كل من البروتينات والإنزيمات ، وكلما اقتربت نظريتنا من أقصى حد للتغير السلس المستمر ، زاد تشاؤمنا فيما يتعلق بمجرد إمكان تطبيق كلمات مثل طير، أو لا طير ، وبشر أو لا بشر ، على كل الحيوانات التي عاشت قط ، والوثوبي المتطرف هو الذي

---

(١) الدكتور محمد عبد العظيم التوني — البيولوجيا والإنسان ص ٢٣٥ ولماكدونالد الطوني — المصير المشترك ص ١٥١ .

(٢)الدكتور محمد عبد العظيم التوني — البيولوجيا والإنسان ص ١٣٧ .

(٣) الدكتور / أرنولد هابلت — الإنسان والحيوان خصائص مشتركة .

يستطيع الاعتقاد بأنه كان هناك إنسان أول . يبلغ حجم مخه الطافر ضعف حجم مخ أبيه ، ومع أخيه شبيه الشمبانزي[١]

والسؤال الآن كيف تحولت الخلايا المفردة الأحادية إلى الكائنات المتكاملة، في ظل البناء الفسيولوجي،بحيث يمكن القول أن هناك تشابها قاعديا بين الكائنات الحية أمكن استخدامه في صور تطورية،حتى ظهر النوع الأرقي وهو الإنسان؟ والجواب: أن تفسير هذه الملاحظة والإجابة عليها ، قد ظهرت فيه اتجاهات متباينة كل واحدة منها تضرب الأخرى حتى توجعها ، وتأخذها من رأسها أخذا قوياً ، وكلها — في ذات الوقت — تطعن فكرة التطور ، كما تهدم الأدلة التي قامت عليها من ابرز هذه النظريات ما يلي

الأولي : نظرية التخلق السبقي: PREFORMATIONIST

ومعناها أن كل أعضاء الجنين — أيا كان نوعه،موجودة سلفا في الجرثومة الأولي التي عبر عنها هو كوجود ناتج عن هذه العملية ، وأصحابها يعتقدون أن الجسم البالغ مكون سلفاً ، أو مطوي من قبل في الخلية الوحيدة ، التى كان عليه أن ينمو منها[٢] .

بل تصوروا إمكانية أن يرى الواحد منهم في ميكرسكوبه مصغرا دقيقا للإنسان مكوما داخل الحيوان المنوي،وليس البويضة،ويكون النمو الجنيني ما هو إلا عملية تكبير فقط ،لأن كل أجزاء الجسم البالغ موجودة هناك من قبل ،ويطلق

---

(١) ريتشارد دوكنز — الجديد في الانتخاب الطبيعي — بيولوجيا ص ٢٢٧ ترجمة الدكتور مراد فضل ١٩٨٨م

(٢)من ثم اعتبرت هذه النظرية معيبة من حيث أنها غير قائمة على اصول مقبولة،ما أن نظرية التخلق المتعاقب على النقيض منها واستطاعت انتزاع أدلة لصالحها راجع سينوت البيولوجيا مذاهب ونظريات ص ١٥٧ ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز رضوان ١٩٨١م

علي أصحابها فريق المنويين[١].

ولكن هذه النظرية علمياً ، بأن الأولاد يرثون الصفات من الأم مثلما يرثون من الأب[٢] بل على العكس من هذا الاتجاه ظهر فريق البويضيين، لذين يعتقدون أن الإنسان البالغ يتكون مسبقاً في البويضة بدلا من الحيوان المنوي ، التى قال بها المنويون .

ومع هذا فالنظرية البويضية تعاني من نفس المشكلة التى تعاني منها النظرية المنوية تماماً بتمام والاعتماد على أي منهما في القول بالتطور الاحيائي يمثل مشكلة جديدة يصعب تقديم أية حلول علمية لها.

الثانية : نظرية التخلق المتعاقب : EPI & ENESIS أو نظرية الوصفة

ومعناها أن كل جنين إنما يتم تكوينه خلال سلسلة من التشكلات المتعاقبة ، وليس من التخلق السبقي ، وبالتالي فكل كائن حي يقع عليه التطور في شكل من الأشكال ، مادام سيكافح من أجل البقاء ، وسيعمل أيضا على تطوير نفسه حتى يكون في شكل افضل مما هو عليه .

كما تعرف بأنها مجموعة من التعليمات الموضوعة بدقة فائقة ، وإذا أمكنه تنفيذها بالترتيب الصحيح سينتج عنها كائن حي متكامل[٣]. لكن هذه النظرية وان كانت مقبولة إحيائيا على الناحية النظرية،إلا أنها غير مقبولة إحيائيا أيضاً

---

(١) ريتشارد باولو — التطور والفسيولوجيا ص ٧٤ ترجمة رشاد فوزي ط دار الجيل بيروت ١٩٨٤م والملاحظ أن هذه التسمية ليست اصطلاحاً ، وإنما هي من الاطلاقات التي يراد بها التميز بين أصحاب الاتجاهات المختلفة ، وكذلك الحال مع فريق البويضيين .

(٢) توارث الصفات وتوارث السلالات قال بهما أرازموس داروين ثم قام لامارك بإدخال نوع من التعديلات عليها ، ولكن لم يقدر لها النجاح ، لأن الواقع المشاهد أثبت أن ابن الصانع الحداد قوي العضلات ربما كان ضعيفاً جداً ، وابن العداء قد لا تكون له ساقان صحيحان .

(٣)ريتشارد روكنز — الجدية في الانتخاب الطبيعي ص ٢٩١ .

على الناحية العملية [١]،كما أنها تفصم عرى الود بين كل الأبحاث السابقة داخل هذا الميدان الحيوي[٢] .

الثالثة : نظرية طبعة المخطط الزرقاء :

ومعناها أن وجود حامض ال DNA في البويضة المخصبة يرادف طبعة مخطط زرقاء للجسم البالغ ، وطبعة المخطط الزرقاء هي رسم للشئ الحقيقي بمقياس مصغر ، لأن الشئ الحقيقي له ثلاثة أبعاد[٣] ، بينما طبعة المخطط الزرقاء من بعدين فقط ، وهى تعتمد على اختزال الكائن الحي، بحيث تكون في مفهومها مسبق التخليق الذي يمكن إعادة تشفيره في أبعاد أقل ، بحيث تنتهي إلى بعد واحد ، أو شفرة ذات بعد واحد[٤]، وهذه الطبعة الزرقاء يمكن أن تحمل صورا جديدة عن مظاهر التطور العضوي في الحيوان والإنسان .

على كل أراد التطوريون توظيف علم الفسيولوجيا لخدمة التطور ، حتى انتهوا إلى القول بأنه مادامت هناك قاعدة ثابتة، يتم فيها التشابه التام بين مختلف الكائنات الحية ، وبخاصة أنواع الحيوان في الخواص الفسيولوجية والكيميائية الحيوية ، ويعنون به تطابق التشابه بين تركيب الأعضاء الداخلية ، والشكل الخارجي ، والمواد الكيميائية الموجودة في أجسام الحيوانات العليا ، يمكن تتبع هذا المنشأ في الحيوانات الدنيا ، وهذا وحده يكفي للاستدلال على أن لها أصلاً واحداً مشتركاً[٥]وأن التطور قد تم على هذا الشكل المشترك من الناحية الفسيولوجية.

---

(١)توماس هولز — الفسيولوجيا والتطور الحيوي — ص ٧٧ ترجمة هناء فضل الله

(٢)رتشارد ووكر — الجديد في الانتخاب الطبيعي ص ٢٩٣ .

(٣)يقصد بما له من طول وعرض وعمق فهي الأبعاد الثلاثة الثابتة ، أما اللون والصحة والمرض فهذه عوارض وليست أبعاد

(٤)توماس هولز — الفسيولوجيا والتطور الحيوى ص ٧٩ ترجمة هناء فضل الله

(٥) الدكتور محفوظ عزام نظرية التطور عند مفكري المسلمين دراسة مقارنة ص ١٨٥

ب — مناقشة الدليل :

ما من شك في أن الفسيولوجيا ، علم وظائف الأعضاء[١]، له أهمية قصوى في حياة الحيوان والإنسان معا ، لكن أن يستخدم هذا العلم لاثبات استغناء الخلق عن الخالق،أو عدم احتياج هذه الكائنات لقدرة الله تعالى أو علمه وأرادته ، فذلك أمر نرفضه نحن أهل الإسلام ،ولا نرتضيه،لكن لا يقوم رفضنا لهذا المسلك من الناحية الدينية الاعتقادية وحدها ، وإنما سأعمل على إبراز أوجه القصور في الاستدلال،من خلال مناقشة موضوعية ، وسيكون ذلك على النحو التالي :

١ — قيامه على الاستقراء المرفوض :

المعروف أن الاستقراء العلمي هو العملية التي يقوم بها الباحث،حتى يشكل بواسطتها نظرية تعلل الحقائق المشاهدة،ومن ثم فهي تتم في خطوتين متعاقبتين، أو مرحلتين لا تنفصلان،إحداهما تشكيل النظريات الممكنة والثانية اختيار واحدة من بينها[٢] .

ولكن التطوريين لجاؤا إلى مظاهر حيوية ، واعتبروها حقائق أصلية ، ثم حاولوا تفسير نشأة الكون ، وتطور الكائنات الحية ، ومنها الإنسان على الناحية الاستقرائية النظرية[٣] ، كما أنهم قايسوه على القياس ، النظري وليس الاستقراء العلمي ، لأن الاستقراء العلمي يقوم على تتبع الجزئيات كلها أو بعضها ،

---

(١) علم الفسيولوجيا يأتي في كل الكائنات الحية ففي النبات فسيولوجيا النبات ، وفي الحيوان علم فسيولوجيا الحيوان ، وفي الإنسان علم فسيولوجيا الإنسان والدراسات فيه لم تنقطع على أي من المستويات أو الأنواع سالفة الذكر .

(٢) جون كيمنى — الفيلسوف والعلم ص ١٤٤ ترجمة الدكتور أمين الشريف المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بيروت ١٩٦٥م .

(٣)الاستقراء النظري أحد مباحث المنطق النظرية ولذا فقد هوجم بأنه لا يقدم جديدا .

للوصول إلى حكم كلي علم يشملها جميعا ، فإذا أمكن تتبع الجزئيات واحدة تلو الأخرى حتى النهاية كان هو الاستقراء الناقص المفيد في العلوم [١].

والتطوريون خلطوا بين المفاهيم النظرية والعمليـــة التجريبيـــة ، فصـــار استقراؤهم مرفوضا ، ومن ثم سقط الدليل ، وبناء عليه فـــلا يكـــون الإنســـان متطورا عن مخلوق حيواني أدنى منه أبدا تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

٢ ــ قيامه على الخلط بين المفاهيم :

قاعدة المفاهيم المشتركة،تسمح بالممارسة الفكرية في نوع من الحرية أثنـــاء البحث العلمي ، لكن هذه الخاصية ليست على وجه العموم ، بدليل أننا كثيرا مـــا نستعمل مفهوما استقيناه من لفظ ، فصار مصطلحا خاصا ، ونفس اللفظ يســـتقي منه مفهوم آخر فيصير المفهوم الثاني أيضا اصطلاحا خاصا ، ولا مشاحة فـــي الاصطلاح ، مادامت الأصول التي تم قيامه عليها صحيحة .

والملاحظ أن أوجه التشـــابه التـــي عناهـــا التطوريـــون فـــي الاســـتدلال بالفسيولوجيا على وقوع التطور العضوي[٢]يمكن محوها جميعا من ذهن القـــارئ بعبارة واحدة ، هي أن أوجه التشابه هذه صورية ، وليست حقيقية ، ومن ثم فـــلا يمكن قبولها على أنها حقائق بقدر ما يمكن التعامل معها في حدود كونها مجـــرد صور تقوم على الفرضية .

---

(١) راجع كتابنا : الخبيث في المنطق الحديث ص ٢٢٨ ،٢٨٠ .

(٢)والصور هي : أ ــ التشابه في علميات التحول الغذائي ب ــ التشابه في عمليات الالتحام والانفصال ج ــ التشابه في عمليات التكاثر الجنسي د ــ التشابه في العمليات الحيوية الإحساسية هــ التشابه في العمليات العصبية المشتركة ، ولكن هذه الصور ليست مقبولة علميا من ناحية الباحث التجريبي ، ولما كان التجريب غير ممكن على هذه الكائنات الحية من الناحية الموضوعية فإن الصور التي نتجت عنهـــا أو النتائج التي اعتبرت قائمة فيها لا تكون ملزمة ، كما لا تثبت وجود شيء من التطور الذي يسعـــى لاثباته التطوريون الاحيائيون .

٣ ـ قيامه على الصور وليس على الحقائق :

زعم التطوريون وجود صور لكائنات حية قديمة،يقع فيها التشابه التام بينها والإنسان ، ومن ثم انتهوا إلى ضرورة اشتراك صور هذه الكائنات مع الإنسان في الإنزيمات والبروتينات والنشاط الهرموني،مع أن هذا المستند قائم فقط على مجرد الصور ، وإمكانية اللعب فيها ، أو العبث بمحتوياتها أمر طبيعي ، بل لقد اعترف التطوريون أنفسهم بأنهم مارسوا عملية التزوير على هذه الصور عدة مرات[١]، يقول هولمز ، ليس بالإمكان اعتقاد أن علم الفسيولوجيا يحتم وجود الإنسان عن أصل غير إنساني ، بل العكس صحيح ، وهو أن الإنسان لم ينشأ إلا عن إنسان أقدم منه ، وتسلسل الثاني أو الأخير إنما جاء عنه[٢] .

٤ ـ اضطراب النظريات التفسيرية :

الدارس للدليل الفسيولوجي ـ الذي حاول التطوريون الاعتماد عليه ـ يرى النظريات التي سيقت بشأنه،غير متعانقة أو مستقرة على نتائج بعينها ، فنظرية الخلق السبقي ،تعاند نظرية الخلق المتعاقب ، كما أن نظرية طبعة المخطط الزرقاء ترفض قبول النظريتين معا[٣].

وبالقياس فكل واحدة من النظريات تضطرب في مبانيها العلمية ، كما تخلط في المفاهيم والنتائج المترتبة عليها ، وهذا يجعل الباحث ينفضها جميعا

---

(١) لقد اعترف لامارك بأنه قاد حملة لهذه الغاية ، ولكنها كانت قليلة ، ثم فعلها هيكل ، وهكسلي ، بل كانت الأبحاث التي يقولها دارون نفسه على أنها أبحاث علمية محملة بالصور فقط ، وفي ظل الشعور بإمكانية قيام باحث ما على التزوير ، فإن النتائج التي توصل إليها تكون محل شك ـ راجع للدكتور على محمود فرح ، والدكتور يوسف رمضان ـ التطوريون ومشكلاتهم البحثية ص ٥٣ ط أولي دار الأسد بدمشق ١٩٧٥م.

(٢) الدكتور ريتشارد هولمز ـ الفسيولوجيا وقائع وحقائق ص ١٨٣ ـ ترجمة الدكتور / محمد السيد سلطان ط أولي دار الجيل ١٩٩٧م .

(٣) وهذا الرفض مما يؤكد عجز النظريات التي قدمها التطوريون في إثبات حقيقة نشأة الكون .

من يديه ، بل ويرفض الانصياع لها كلها،أو أي منها ، ويعود الأمر إلى الأصـل الأول،والحق الذي لا مراء فيه وهو النقل المنزل.

لأن هذا الجدل يؤخر ولا يقدم ، يفرق ولا يجمع ، كما يكشف عن طبيعـة جدلية مذمومة ، قال تعالى : أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيـم مبين وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييـها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم "[١] .

ذهب البعض إلى أن الآية نزلت في العاص بن وائـل السـهمي[٢]وذهـب آخرون إلى أنها نزلت في أبي بن خلف زعيم المنافقين[٣] وذهب غيرهم إلى أنها نزلت فيمن لم يحدد اسمه[٤]،ولكن العبرة عندي بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكأنها نزلت في كل من يحاول إنكار قدرة الله تعالى على الخلق ، والإيجاد مـن العدم في المرة الأولي،وهي الحياة الدنيا،وفي البعث أيضا،وهي النشأة الأخرى.

والمعنى أولم ير الإنسان العاقل أنه أهمل عقله ، وكفر بربه ، وأنكر قدرتـه على الخلق والإيجاد ، كما أنكر قدرته على البعث والإعادة ، مع أن الله تعـالى هو الذي خلقه من ماء مهين حقير في ذاته،هو النطفة التي هي مجرد مني خارج من مخرج النجاسة ، فإذا هو بعد ذلك يجادل في الله،ويخاصم ربه القوي القـادر،

---

(١)سورة يس الآيات ٧٧ / ٧٩ .

(٢) وإلى هذا ذهب العلامة أبو حيان التوحيدي في البحر المحيط ج ٧ ص ٣٤٦ .

(٣) وإليه ميل الإمام القرطبي حيث حكى أن أبي بن خلف لما نزلت آيات البعث جاء بعظم بلي ورم ، ثم فتـه في وجه النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقال له ساخرا منه مستهزئا بما أنزل ، أتزعم يا محمد أن الله يحيينا بعد أن نصير رفاتا مثل هذا العظم البالي المفتت ؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم نعم يحثك الله ويدخلك النـار ـ العلامة القرطبي ـ الجامع لأحكام القرآن ج ١٥ ص ٥٦ وقد أطال في ذكر القصة ، كمـا أكـثر مـن الشواهد فراجعه تظفر به .

(٤) وإلى هذا الرأي ذهب الشيخ محمد عبد العظيم الكدواني ـ حيث قال أنها نزلت في رجل لم يسمه الحديث إذ كان له أبناء بررة ، ولم يكن والدهم على نهجهم يسير ـ تفسير سورة يس ص ١٢٧ .

وينكر قدرته ، ويكذب بالبعث . ألا يتصور صاحب هذا العقل المجـادل أن الله تعالى الذي خلق الإنسان أول أمره من مجرد نطفة ، قادر جل شأنه على خلقـه مرة أخرى عند البعث ، بل هو الأقدر عليه والأهون عنده ، قال تعـالى: وهـو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثـل الـأعلى فـي السـماوات والأرض وهو العزيز الحكيم [١].

السادس : دلالات علم الوراثة : genetics

المعروف علميا أن دراسة الجينات Genesهو موضوع علم الوراثة ، وهـو واحد من أكثر مجالات علوم الحياة غموضا حتى يعرف الكثيرون أنه غاية فـي التعقيد، لأنه علم يتحدث كله عن التطور ، ومن ثم اعتبره البعض العلـم الـذي يتعلق بتحسين الجنس ، وهو يوجد في كل الكائنات الحية ، النباتية والحيوانيـة والإنسانية ، بالمفهوم المحدد جدا [٢].

وعلم الوراثة بالمفهوم البحثي ــ تحسين النوع ــ كـان يمارسـه العـرب الأقدمون عن طريق الاستبضاع ، حيث كان البعض يلتمس جيلا صحيحا قويا ، يتمكن من الكر والفر ، والإقبال والأدبار ، وبالتالي فقد كان هذا البعض يرسـل المرأة إلى رجل قوي البنية ، حاد الذكاء ، حتى يعاشرها وتلقح منه لمعرفتهم أن الابن يرث عن أبيه أهم خصائصه ، التي تنتقل إليـه عـن طريـق التـوارث السلالي[٣]، وإن لم يكن ذلك الفعل سائدا في كل العرب ، لكنه وجد لدى البعـض منهم ، مما يؤكد فهمهم للوراثة على ناحية عملية ، داخل إطار من الأطـر ، أو شكل من الأشكال وإن لم تكن مقبولة لكنها كانت تتم ولو في أضيق نطاق.

---

(١) سورة الروم الآية ٢٧ .

(٢) وليام جنز ــ المنظمة الوراثية للجميع ص ١٨ ، ١٩ ترجمة أحمد مستجير ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م .

(٣) الشيخ حمزه محمد على المالكي ــ أيام العرب في الجاهلية ص ١٨٣ الطبعة القديمة ١٣١٥هـ .

بل طبقوا مفاهيم الوراثة في الحيوان أيضا ، حيث كانوا يبعثون في طلب الإبل الصحيحة ، والخيل الأصيلة ، ثم يرسلون النوق ، وأنثى الخيل حتى يتم التوثيب عليها ، بغرض إيجاد نوعية متمايزة من السلالات[١]، وكانت هذه الممارسات تتم من غير تدريب عليها،أو تلقين مبادئ علمية بشأنها .

لقد دربتهم الأيام ، وخبرتهم السنون ، فكانوا يمارسون علم الوراثة على الناحية العملية الخاصة التي صارت فيما بعد الأسس والقواعد التي يحتكم إليها .

واشتهر العرب بانتخاب السلالات النباتية،كما اشتهروا بقدرتهم على انتخاب السلالات الحيوانية ، والبشرية أيضا ، وكذلك فعل المصريون القدماء ، وأهل الصين والإغريق[٢]بحيث يمكن القول بأن علم الوراثة له أصول قديمة ، وقواعد تاريخية ، واتجاهات عملية قامت كلها على ناتج الخبرات والتجارب الذهنية والتراكمية ، في الأجيال البشرية القديمة خلال شكل من الأشكال ، وسأعرض جزئيات الدليل عندهم ثم أناقشه .

أ ـ عرض الدليل :

يرى التطوريون أن علم الوراثة انضم البحث فيه ـ أبان القرن التاسع عشر والعشرين ـ إلى الأبحاث البيولوجية ، حتى صار من أحدث العلوم البيولوجية وأهمها ، لكونه استطاع تقديم تفسيرات عديدة ، لكثير من الظواهر الوراثية،من خلال أسس علمية ، أدت إلى رفع معدلات الأداء ، ومستويات الإنتاج ، بجانب تقليل المستهلك من الطاقة ، والحد من انتشار الأمراض الوراثية التى تؤثر في

---

(١)الشيخ نصر الدين محمد الأشرح ـ العرب وحضارتهم القديمة ص ٩٥ ط أولى الدار المهدية ١٣٠٥هـ وما يزال هذا النوع من التهجين يمارس لدى القبائل الرعوية التي يلجأ قادتها إلى استحداث أنواع من الحيوانات ذات الصفات المتمايزة .

(٢)توماس أنجرمان ـ الحضارات القديمة ص ٧٧ ترجمة هناء رشدي ط دار الجيل ١٩٦٥م وراجع قصة الحضارة لول ديورانت،والأديان في تاريخ شعوب العالم لسيرغي توكاريف،وتاريخ العلم لويلز وغيرهم كثيرون

الكائنات الحية على السواء[١]، وعرف باسم علم الوراثة الحديث .

ومن ثم فإن علم الوراثة الحديث له طرق باعتبار الدراسة ، وله قوانين باعتبار الاستفادة عند الاستعمال ، بل صارت طرقه الدراسية عبارة عن حلقات ممتعة من التفكير العلمي المنظم ، الذي تدعمه اتجاهات علمية تجريبية متوازنة[٢].

أما قوانينه فقد ظهرت بواكيرها على أيدي الكثيرين ، الذين ساهموا في تحويلها من مجرد خيال علمي إلى واقع عملي ، وذلك يحتاج تقديم لمحة عن الجانبين في شئ من الإيجاز .

أولا : طرق الدراسة :

ظهرت طرق في دراسة علم الوراثة فى أشكال متعددة الاتجاهات ، بعضها قام على ناحية إحصائية ، وبعضها جاء على قاعدة تجريبية ، وبعض أخير قام على المزج بين أكثر من ناحية ، لكنها جميعا تأتي متلاحقة أخذه بعضها بعناق البعض الآخر ، وهاك مجملا لها :

١ ــ التربية BREEDING

وهذه الطريقة تعتمد على انتقاء مجموعات سلالية ذات صفات معلومة ، ثم عزل بعضها عن بعض عزلا إراديا قصديا ، ثم إعادة المزج بينهما من خلال مختبرات معملية ، أو مناطق تربية سلالات ذات طبيعة خاصة ، مع منح هذه السلالات المعينة وسائل الدعم المستمرة ،بجانب تهيئة المكان ، والبيئة اللازمة ، والعمل على عزل كل الصفات السلبية التي تؤثر في السلالات بشكل هرمي ، أو تدفع إلى التخلص من السلالات الهزيلة[٣].

---

(١)الدكتور / حسين سليمان الأشقر ــ علم الوراثة الحديث ص ٨ ، ٩ ط دار الفجر الجديد ١٩٨٧م

(٢)انطونيو فرانس ــ الوراثة في المفهوم الجديد ص ١٥ ــ ترجمة الدكتور فوزي محمد خاطر .

(٣)الفرد توفالتس ــ علم الوراثة ص ٢٣ ترجمة محسن السيد زرق ط أولى ١٩٨١م

على أن هذه الطريقة لابد فيها من القصدية ، إذ أنها لا تجئ مع العشـوائية أبدا ، وإلا كانت الأسباب المتحصلة منها ،أو النتائج القائمة فيها غير صحيحـة ، أو غير صادقة على الدوام ، ومن ثم فإن طريقة التربية تمهد لظـهور طريقـة التهجين السلالي Crossing، كما تساعد على ظهورها بشكل كبير(١)، وبخاصـة في كائنات التجارب النموذجية التي تسهل السيطرة عليها ، وإخضاعها للتجـارب المتعددة ، من خلال الأشكال والصور المختلفة(٢)، بجانب إمكانية التعويض فيـها خلال مدة قصيرة(٣) .

٢ ـ التهجين السلالي : CROSSING

وهذه الطريقة تقوم على استخلاص أو انتقاء بعض السلالات ذات الصفـات المعلومة ثم تهجينها مع بعضها ، بغرض التأكد من عملية المزج ، وبالتالي فكل تهجين سلالي لابد فيه من وجود نوعين سلاليين سابقين على النـاتج ، بجـانب أحداث نوع من التهجين بينهما ، ثم ملاحظة ظهور أو اختفاء تلك الصفات علـى النتاج الجديد ، بحيث يمكن النظر إلى الصفات التي اختفت ، على أنها صفـات ثابتة منتقلة وراثيا(٤)، لا على أنها صفات منتحية صناعيا ، أو معمليا .

بيد أن هذه الطريقة لابد فيها من سهولة تربية الكائن الحي داخل المختبر،

---

(١) الدكتور حسن السيد عبد الظاهر ـ الهندسة الوراثية وملامح المستقبل ص ٣٥ ط أولى ١٩٧٧م .

(٢) مصطلح كائنات التجارب النموذجية ينطبق على الأرانب والفئران ، وبعض النباتات والفطريات، كما أن الحشرات تمثل كائنات نموذجية لاجراء التجـارب عليـها ، وبخاصـة ذبابـة الفاكهـة أو الدروسـوفيلا DROSOPHILA .

(٣) ومن ثم اعتبرت هذه الكائنات من أكثر الكائنات الحية استعدادا لاجراء التجارب عليها ، نظـرا لقصـر دورتها الحياتية التي تبلغ عشرة أيام في كل جيل،وتوفر نتاجها الذي يصل إلى حوالي مائة فرد في كل جيل، كما تتباين فيها الصفات الوراثية إلى حد كبير،وفوق ذلك فإن تربيتها،ودراسة أجيالها سهلة جدا وقليلة التكاليف .

(٤) الفرد لوفالتس ـ علم الوراثة ص ٣٣ وراجع للدكتور عزب محمد القادري ـ علم الوراثة والسـلوك الإنساني ص ٧٤ ط أولي ١٩٥٧م .

مع وفرة الإنتاج،للحصول على نتائج إحصائية سليمة ومتكاملة أيضا ،والإفاضـــة في وضوح التباين بين الصفات الوراثية ، مع إمكانية التحكم في التزاوج بينـــهما أو العزل[١] .

ومن ثم فهي ليست كطريقة التربية التي تعتمد على مجرد الانتقاء والعزل ، وإنما لابد فيها مع ذلك من التزاوج المقصود، والتمهل فـــي انتظـــار النتـــائج ، وبالتالي إذا نجحت هذه الطريقة ، فإنها تمهد لنظرية السجل النســـبي،أو شـــجرة العائلة الإحيائية.

٣ ــ سجل النسب الوراثي : FAMILG PEDIGREE

وهو عبارة عن سجل تدون فيه تحركات أفراد العائلة الواحدة معـــا داخـــل الحلقة المعملية متى أمكن ذلك ، أو في الواقع المشاهد القابل للتجريـــب عليـــه ، وتتم مراعاة ذلك على مدى أجيال متعاقبة ، بجانب ضرورة تتبع بعض الصفات المتنحية[٢]، أو الأمراض والعيوب الوراثية،مع إمكانية التنبؤ باحتمال ظهور تلـك الصفات المدروسة في أجيال مقبلة .

على أن تصنف تلك الصفات ، كما يصنف أفراد المجموعة ذاتها، حيث يرمـــز للذكور في سجل النسب بمربعات ، ويرمز للإناث بدوائر[٣]،مع تظليل أو تلويـــن المربعات ، أو الدوائر الخاصة بالأفراد ، الذين تظهر عليهم الصفة المدروسة.

ثم يرمز للتزاوج بين الأفراد بخط أفقي ، ينزل من وسطه خط الأبناء،الـذي يتصل به كل فرد منهم،بخط رأسي قصير ، ويشار إلى كل جيل في العائلة برقـم

---

(١)الدكتور حسن السيد عبد الظاهر ــ الهندسة الوراثية وملامح المستقبل ص ٤٧ .

(٢) الصفة المتنحية هي التي تنتج عن غياب جين مما يمنع تكوين أنزيم خاص وهو ما يعرف باسم الطراز الجيني

(٣)الدكتور / عزب محمد القادري ــ علم الوراثة والسلوك الإنساني ص ٧٦ ، ولاشك أن هذه الرموز مـــن المربعات والدوائر قصد بها التمييز حتى تسهل دراستها

روماني ، بينما يشار لكل فرد فيه برقم عادي . ومعرفة شجرة النسب مفيدة جدا في علم الوراثة ، لا لأنها تقوم على التهجين السلالي ، ولا على أنها تمهد للدراسات الخلوية ، وإنما لأنها تمد الباحث في مجال الوراثة ، بأساليب علمية جديدة كما تمكنه من إصدار نتائج صحيحة(١) ولكنها قد تكون غير يقينية ، بجانب أنها ليست مطلقة،وإنما هي احتمالية خاضعة لمعياري القبول أو الرفض.

٤ – الدراسات الخلوية : cytological studies

وهي التي تعني بدراسة النظام الخلوي في الكائن الحي يستوي في ذلك كل من النبات والحيوان والإنسان ، باعتبار الخلايا الجنينية والجنسية (٢)، وكذلك باعتبار ما يتعلق بمنظومة الخلايا العصبية ، وغيرها من أنواع الخلايا وأشباه الخلايا هي الأخرى .

وقد ساعد هذا النوع من الدراسة على معرفة الكثير من آليات الوراثة ، وكذلك ما يتعلق بصورها وطبيعة عملها ، بجانب الأمراض التي ترد عليها ، وكيفية دفعها عنها ، إنها منظومة كبيرة تفوق دقتها وحجمها العالم بأثره(٣).

ان العصبة أو الحزمة الخلوية في الكائن الحي،هي أساسه ونقطة ارتكازه ، بل ان أنواعها تتكامل فيما بينها بطريقة محكمة جدا ، بحيث تؤدي خدماتها مع بعضها في شكل تلقائي خال من القصدية الذاتية ، لكنها تندفع للقيام به رغبة

---

(١)الدكتور توماس مايلد – علم الوراثة من منظور كيميائي ص ٣٧ ترجمة حنان راشد ط مؤسسة فرانكلين ١٩٦٨م .

(٢) والمشهور أن الخلايا الجنينية تكون كاملة العدد بالنسبة لبنائها الكروموسومي، فإذا كانت خلية جسدية إنسانية فإنها تحتوي على ستة وأربعين كروموسوما أما إذا كانت خلية جسدية حيوانية كالفرس مثلا فإنها تحتوي على اثنين وخمسين كروموسوما ، أما إذا كانت في حشرات أو حيوانات أولية فإنها قد تكون أربعة أزواج من الكروموسومات أو ثمانية طبقا لطبيعة ذلك الكائن لمزيد من التفاصيل راجع لأولن هارمس – البيولوجيا من منظور آخر ص ١٣٧ ترجمة صبحي اسكندر دار اللؤلؤة ١٩٨٧م .

(٣)انطونيو فرانس – عالم الخلايا الهندسية الوراثية ص ٦٤ ترجمة الدكتور فخري رزق .

منها في البقاء . ولذا فإذا وقع شئ من التدمير على بعضها — وبخاصة الخلايا ثنائية التركيب[١]،فإن التعويض فيها يتم بسرعة مذهلة ،ومن خلال عمل جماعي فريد في سلوكياته ، كما أن الخلايا الأحادية التركيب إذا وقع ضمور أو تدمير على بعضها،فإن الباقي يحتاط لنفسه ، ويعمل بسرعة فريدة على تعويض النقص الوظيفي،أو الأدائي،الذي أحدثه العدوان على الخلايا التي دمرت أو ضمرت[٢].

وعلم الوراثة ينظر إلى هذه الطريقة ، على نحو يفيد في التمهيد لظهور الطريقة البيوكيمائية الحديثة ذات النفع المتزايد ، التي عبرت عنها جميعا — في لغة حاسمة اليوم — الهندسة الوراثية[٣].

٥ — الدراسات البيوكيماوية : biochemical studies

لعبت الأبحاث العلمية في نهايات القرن العشرين ،دورا هائلا في المنظومة الإحيائية الحياتية ، لأنها انصبت على هذا الجانب ، وعالجت مشكلاته بطريقة سريعة الأداء،لكنها متآلفة الأدوار ، ومن ثم فقد حظى علم الوراثة،بنصيب وافر من هذه الأبحاث ، وكانت الدراسات البيوكيماوية على قمة هذا الهرم البحثي ، حيث تعرف بأنها العملية التي تمكن الباحث من التعرف على تركيب صبغيات النواة بداخل الخلية ، وطرق التحليل الدقيقة للأحماض النووية ، وتأثيراتها المختلفة ، ومن ثم فهم البناء والوظيفة لكل جين على حدة ، وكذلك معرفة دوره

---

(١) يوجد بالجسم الإنساني نوعان من الخلايا في الجملة باعتبار الانقسام وعدمه الأولي الخلايا الجسدية ، وهي تنقسم على طريقة التضاعف السريع أو المتوالية الهندسية ، ويتم التعويض فيها أيضا بذات الطريقة ، الثاني الخلايا الجنسية والعصبية وهي أحادية النوع التركيبي ، وتؤدى وظائفها في منظومة متعاونة ، ولكن إذا حدث عدوان عليها ووقع التدمير فلا يمكنها التعويض ، وأبرز مثال على ذلك خلايا المخ — الدكتور محمد على الفار — البيولوجيا ودراسة الخلايا ص ١٤٤ .

(٢)انطونيو فرانس — علم الخلايا والهندسة الوراثية ص ٧٧ .

(٣) راجع في هذا الشأن لويليام بيز الهندسة الوراثية ، وللدكتوره ناهد البقصمي — الهندسة الوراثية ، وللدكتور التهامي محمد راشد الهندسة الوراثية والبيوكيميائية

في الحالات السوية أو المرضية [١].

وبناء على هذا النوع من الدراسات الحيوية المتطورة أمكن اكتشاف الظروف المحيطة بالجينات وتطويعها للبحث العلمي ، ثم تقديم أنواع شتى من المعالجات المستمرة لها ، كما أمكن للباحثين أن يعدلوا في بناءاتها ، ثم تسخيرها في اتجاهات أفضل تسمح بالاستفادة منها في المجال النباتي والحيواني بل والإنساني أيضا ، وعرف هذا باسم هندسة الجينات [٢]،على أنه أحد الفروع الهامة التي تؤدي خدمات متمايزة في المجال الحيوي على وجه العموم .

ولم تقف الجهود العلمية حتى الآن في أي مجال من المجالات البحثية وأظنها لن تتوقف ، لأن رحم العلم مازالت ولادة ، والمدد الإلهي لم ينقطع ، وكم تمنيت أن تستخدم هذه القدرات العقلية والأبحاث العلمية في إرضاء رب البرية جل علاه ، بل يجب أن تتحقق تلك الأمنيات المشروعة .

ثانيا :قوانين علم الوراثة :

المعروف أن العلم التجريبي يمر بمراحل أو خطوات حتى يصل إلى القانون العلمي[٣]، فليس من المعقول أن يقفز باحث ما إلى إصدار قانون من غير أن يقطع الخطوات أو المراحل التي تمهد له ، أو تؤدي إليه ، وبالتالي فالمراحل الموصلة للقانون العلمي التجريبي هي: ١ ــ الملاحظة ٢ــ الفرض

---

(١)الدكتور توماس مايلد ــ علم الوراثة من منظور كيمالي ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٢)أنطونيو فرانس ــ علم الخلايا والهندسة الوراثية ص ٨١ .

(٣)القانون العلمي يختلف عن القوانين التي تدرس في كليات الشريعة والقانون ، وكليات الحقوق ، إنه قانون يتعلق بأنظمة أبنية الكائنات الحية ، وليس تنظيم سلوكيات الكائنات الحية ، ولذا فالقانون العلمي ، لا يكون وليد الملاحظة ولا الفرض العلمي إنما يكون القمة المعبرة عن النتائج البحثية ، في مجال من المجالات العلمية وهي كثيرة جدا ، وقوانينها معقدة أيضا ، ويتم التعديل عليها لأنها احتمالية في النتائج التي قامت عليها .

٣ ـ التجربة ٤ ـ النتائج الصحيحة ٥ ـ إعادة النتائج في أوضاع مختلفة
٦ ـ القانون[١]

وبالتالي فالقانون العلمي هو القمة التي تتربع عليها النتائج في زهو وغرور ، أو ثقة وتواضع .

وفي نهايات الأبحاث العلمية توجد قمة تربعية هي ذات القانون، أو هي المعبر عنه ، والوراثة قد نالت عناية فائقة في دراسات علماء الإسلام منذ الرعيل الأول ، نظرا لوجود إشارات إليها واضحة جدا في القرآن الكريم[٢]والسنة النبوية المطهرة [٣].

أما في نهايات القرن التاسع عشر فقد ظهرت جملة من الأبحاث التي قامت على أيدي كثير من الباحثين في المجالات الحيوية ، كما قفز إلى سطح الأحداث اسم راهب نمساوي يدعى جريجور ماندل G - MANDEL حيث قام

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع للدكتور محمود قاسم المنطق الحديث ومناهج البحث ، وكتابنا : الحثيث في المنطق الحديث ، وغيرها من المؤلفات التي نالت العناية بهذا الجانب .

(٢) من ذلك قوله تعالى :" وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا " سورة الفرقان الآية ٥٤ قال الشيخ البروسوي والمعنى أن الله تعالى هو الذي أوجد النطفة من نوع الماء ، فهي نطفة مائية ، ثم جعل من هذه النطفة بشراً أدمياً ظاهراً على الحيوانات الأخرى ، مباينا لها في مظاهرها ، ثم جعل هذا البشر قسمين ذوى نسب ممتد من الأصل حتى الفرع حيث ينسب الابن إلى أبيه أو ينسب ألى أمه ، وذوات صهر وهذه الأناث اللاتي تقع بهن المصاهرة والمخالطة والتزاوج ، وكان ربك قديراً على أن يخلق من المادة الواحدة البشر ذا الأعضاء المختلفة ، والطباع المتباعدة ، وربما يخلق من المادة الواحدة التوائم ، قال الشاعر:

فإنما أمهات الناس أوعية ... مستودعات وللآباء أبناء

الشيخ اسماعيل حقي البروسوي تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج٣ ص ٨٧ .

(٣) ومن إشارات السنة النبوية المطهرة قوله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمع الماءان ماء الرجل وماء المرأة فإيهما غلب كان منه الولد وفي رواية فأيهما سبق كان منه الولد ، وفي رواية أخرى فأيهما علا كان منه الولد، الشيخ محمد منصور الديدامونى من أنوار السنة المباركة ص ٧٣ ط أولي ١٣١٩

بإجراء تجاربه البحثية على نبات البازلاء الخضراء،فجاءت مؤكدة له أن الوراثة أمر قائم ، وأنها تنتقل من الآباء إلى الأبناء في شـــكل المعــادلات الرياضيـــة المتوازية،ومن ثم أعتبر الراهب جريجور ماندل مؤسس علم الوراثة التجريبـــي، في العصر الحديث[١]، ويذهب فردريك شاخت إلى أن ماندل كان راهباً ولم يكـن عالماً إحيائياً ، وكان نظام الرهبنة يفرض على الراهب في الدير القيام بـــالصلاة ثلاث ساعات ، ثم القراءة في اللاهوت ثلاث ساعات ، ثم نسخ كتاب أو جـــزء منه من خلال ثلاث ساعات أيضاً .

وأن ماندل وقع على كتيب صغير لعالم أندلسي اسمه ابن القلقشندي وكلــف بنسخه ، فإذا هو بدايات علم الوراثة ، ثم قام ماندل بزراعة البازلاء الخضـــراء بجوار الدير كأنه يريد تطبيق ما نسخه في الواقع فكانت النتـــائج التـــي ســـجلها ماندل ، ولما جاء رهبان جدد للدير جردوا المكتبة الديرية فوجدوا مـــال ســـجله ماندل والكتاب الأصلي ، لكنهم أهملوا الأصلي وتمسكوا بالنتائج رغبة منهم فـــي أن يكون لهم موقف مضاء لاتجاهات المفكرين ، ويرفعوا عن الكنيسة الاتهامات العديدة ومن أبرزها الانغلاق الفكرى ، ومحاربة العلماء[٢]فالمسألة فيها تزويـــر كبير .

بيد أن البحث العلمي في هذا الميدان لم ينقطع وقد تلقي الباحثون في هـــذا المجال نتائج ماندل ، ثم قاموا بدراستها من جديد ، وعملوا على تعزيـــز هـــذه الأبحاث من الناحية الكمية ، والكيفية ، بجانب السعي الحثيـــث لمـــؤازرة هـــذه النتائج البحثية بالدراسات الخلوية والبيوكيميائية ، ومازال هذه الدعائم قائمـــة ، والإضافات إليها لم تنقطع ، بجانب هندسة الجينـــات ـــ الهندســـة الوراثيـــة ـــ والشفرة الوراثية The cenetic – code وهو قائم لخـــدمة هذا الجانب على

---

(١)الدكتور / نصر محمد عبد العظيم ـــ البيولوجيا المقدمة ص ٦٩ .

(٢)فردريك شاخت ـــ أثر العرب في الحضارة الأوربية ص ٢٩٧ ترجمة عبد العزيز محمد صقر ط ١٩٦٧م.

النواحي المختلفة . وكان ماندل قد وضع نتائجه البحثية في مجموعتين ، أطلــق على كل منها اسم القانون ، ومعناه القاعدة الضابطة لهذا النوع مــن العمليــات البحثية ، فالقانون هنا منهج بحثي،أو طريقة علمية ، تدل على المنهج الذي تقـف النتائج خلفه،منتظرة من يفتح لها حتى تخرج إليه سافرة ، في تمنع ودلال ، مـع حياء مصطنع أحياناً ، وجرأة غير مرفوضة أيضاً .

١ـ قانون انعزال الصفات الوراثية :

وهو يقوم على أنه إذا "اختلف فردان نقيان في زوج من الصفات المتقابلـة ، فإنهما بعد تزاوجهما ينتجان جيلاً به صفة أحد الأبوين فقط ، وهي السائدة ، ثـم تورث الصفتان معاً في الجيل الثاني بنسبة ٣ : ١"[١] ولكن هذه النسبة المندليــة أمكن تحويرها ، كما أمكن التعديل فيها ، من خلال عوامل عديدة ، كتداخل فعل الجينات مثلاً ، الذي كانت له بعض التأثيرات ، على سيادة الصفات،والتأثير فـي المتنحية أيضاً .

٢ ـ قانون التوزيع المستقل للعوامل :

وعماده أنه إذا تزاوج فردان نقيان مختلفان في زوجيــن ، أو أكــثر مــن الصفات المتقابلة،فإن صفتي كل زوج منها تورث مستقلة عن الأخرى ، وتظـهر في الجيل الأول كلها سائدة ، ثم تتوزع في الجيل الثاني بنســبة ٩ : ٣ : ٣ : ١ أي بنسبة ٣ سائدة إلى ١ متنحية لكل صفة منها[٢].

ولاشك أن هذين القانونين ينسبان إلى ماندل ، ولذا يطلق البعــض عليــها اسم قوانين الوراثة الماندلية من جديد على الوجوه العديدة ، وقد أمكن التعـــامل مع النسب الماندلية ، وتم تطوير هذه النسب بعد معرفة المفاهيم القائمة في معنى السيادة والتنحي ، المقصودة داخل نظرية ماندل الوراثية .

---

(١)أولن هارمس ــ البيولوجيا من منظور آخر ص ١٤١ ترجمة ــ صبحي اسكندر ط دار اللؤلؤة ١٩٨٧م

(٢)الدكتورة علياء محمد الفقي ــ ماندل وقوانين الوراثة ص ١٢٣ ط أولي ١٩٧٥

ومع التقدم المذهل في علم الوراثة والخلايا ، برزت أمام العلماء أنشطة الكروموسومات ، والسلوكيات الصبغية الجنسية Sex Chromosomes ، والجسدية الذاتية Autosomes في الحيوان والنبات [١]، وبالتالي أمكن لهم الوقوف على العمليات الوراثية التي نتج عنها التطور ، بل اعتبروا ذلك التطور هو المظهر الفعلي ، والمعبر الطبيعي عن الأنشطة الوراثية كلها ،بل أدى إلى اكتشاف مكونات DNA الذي يحمل المعلومات الوراثية ، وكذلك دراسة الأساس الجزئي للوراثة وهو ما يعرف باسم البيولوجيا الجزيئية Molecular Biology ، ومن ثم قرر التطوزيون أن علم الوراثة يؤيد اتجاهاتهم ، أما لماذا ؟ فلأنهم لاحظوا ما يلي :

١ _ ظهور الصبغيات _ الكروموسومات _ داخل أنوية الخلايا ، حاملة الجينات المسؤولة عن تكوين الصفات المميزة لكل فرد من الأفراد العاديين ، داخل النوع الواحد من خلال نظام خطي ثابت[٢]، على أساس أن كل خلية بشرية بها ستة وأربعون من الكروموسومات ، بكل كروموسوم مائة الف جين وراثي ، داخل كل جين واحد وراثي كميات هائلة من الأحماض الأمينية والنووية والبروتينية المسؤلة عن الصفات الوراثية[٣]، وإنها تسير في ترتيب

---

(١) وعلى أساس نوع الصبغيات يتحدد جنس الأفراد ، ويوجد من الصبغيات الجنسية واحداً وأثنان في خلايـا كل فرد من الإنسان وبعض الحيوان كالحصان والقرد وذبابة الفاكهة من خلال صبغين متشابهين تماماً في خلايا الأنثي يطلق على كل منها اسم الصبغي x أما في خلايا الذكور فيوجد صبغي X وصبغي y ويختلف عنه في الشكل والحجم ويكون التركيب الصبغي في الذكور هو xy والذي يحدد جنس الأبناء في الإنسان هو الأب ويكون التركيب الصبغي الجنسي في الأنثي هو XX .

(٢) وهذا النظام الخطي يسير في اتجاه معين ، منسحب من الأجداد إلى الأحفاد ، وهو ما يعرف بالتسلسل الوراثي في الأصلاب والأرحام طبقاً للمفاهيم التي يمكن الوقوف عليها في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى : " ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " سورة السجدة الآية ٨ .

(٣) الدكتور فوزي حسن صفوت _ علم الوراثة وعلاقته بهندسة الجينات ص ١٣٧ طبعة دار الأشقر بغداد ١٩٨٦م.

منتظم وخط ثابت متدفق لا يحيد أبداً،وذلك في كل الكائنات الحية ، ومن ثم فالتشابه ، قائم في النظام الصبغي الكروموسومي بين الإنسان والحيوان ، ويكون التطور هو التفسير الوحيد لتلك الحركة المتدفقة المتشابهة ، تمام التشابه بين الإنسان والحيوان[١].

٢ — ظهور الانقسام الاختزالي الذي يحدث فقط أثناء تكوين البويضات ova أو الحيوانات المنوية SPERMETOZA ويطلق عليها اسم الجاميات GAMATES [٢] حيث يقوم هذا الانقسام بفصل أزواج الصبغيات — الكروموسومات — المتماثلة ثم يختزل عددها إلى النصف ، في كل جامية على حدة ، وهذا الاختزال مقصود ويجري في كل الكائنات الحية المتشابهة ، لأنه يعطي التناسليات صورها الطبيعية .

على أساس أن الحيوان المنوي Sperme يتكون من ثلاثة وعشرين كروموسوما ، كما أن البويضة Smenelهي الأخرى تتكون من ثلاثة وعشرين كروموسوما ومجموعها معاً يمثل الخلية الأولي ، في البناء الحيوي بالنسبة للثدييات والفقاريات[٣].

وبالتالي فالانقسام الاختزالي يمهد للاتحاد الجزافي الذي يكون بين البويضة الأنثوية ، والحيوان المنوي الذكري [٤]، ولكن هذا الاستنتاج غير مسلم لأن القصدية قائمة في مفهوم جريان هذه الأفعال كلها طبقاً لسنن الله الكونية ، وهي قائمة في الحكمة الإلهية على الدوام ولا تختلف إلا لأمر إلهي أيضا

---

(١) أنطونيو فرالس — علم الخلايا والهندسة الوراثية ص ٧٠ .

(٢) ويلاحظ أن الجامية تمثل الجانب الذكري وحده على سبيل الاستقلال كما تمثل الجانب الأنثوي مستقلاً أيضاً ، وبالتالي فكل جامية هي الخلية الأحادية في أي من الحيوان المنوي أو البويضة .

(٣) الدكتور عبد العظيم محمد الطماوي —البيولوجيا وخطط المستقبل ص ٥٤ ط أولى الدار الجديدة ١٩٨١م

(٤) هناك فرق بين الاتحاد المقصود والاتحاد الجزافي ، كما أن هناك فرقاً بين الطفرة التلقائية والأخرى المستحدثة ، وبناء عليه فليس كل اتحاد يمثل الخلية الأولي أو يرتد إليها

باعتبار أن الكون بيد الله جل علاه .

٣ ـ ظهور عمليات الإخصاب عن طريق التزاوج،سواء أكان مقصوداً أم غير مقصود ، حيث يتم فيها الاتحاد الجزافي بين البويضة والحيوان المنوي ، مما يؤدى إلى تكوين تشكيلات ذكرية وأنثوية من الكروموسومات[١]، ثم تتحول إلى الجينات الواقعة من أب وأم مختلفين ، وذلك يؤدى بدوره إلى إنتاج أفراد جديدة لها اتحادات جينية مختلفة ، باعتبار العنصرين اللذين تم بينهما التزاوج .

لكن عملية الإخصاب الجزافي هذه ، قد يحدث لها نوع من التطور المفاجئ في الصفات الوراثية ، وهو ما يعرف بالطفرة[٤] MUTETION حيث يؤدي ذلك إلى وجود مواليد جديدة،قد تختلف عن الأبوين،في العديد من الوجوه ، لكنها في الأصل تعبر عن حدوث تحورات وانقلابات طارئة على الجينات الأصلية من خلال سجل النسب ، أو شجرة العائلة .

---

(١) هذه الحزم التشكيلية الناتجة عن الاتحاد الجزافي لا تعتبر مبررا تقوم عليه الأفكار التطورية ، بل أني أذهب إلى انتفاء فكرة الاتحاد الجزافي ، وأقول إنه اتحاد مقصود من جهة عليا ويأتي في حكمة مصدرها هو الله تعالى .

(٢)تعرف الطفرة بأنها تغير مفاجئ في طبيعة العوامل الوراثية المتحكمة في صفات معينة ، مما قد ينتج عنه تغير هذه الصفات في الكائن الحي ، والطفرة تختلف عن التغير الذي ينشأ عن تأثير البيئة أو انعزال الجينات ،وإعادة اتحادها ، لأن الطفرة تمثل نوعا من التغيير في تركيب العامل الوراثي ذاته ، أما التغير بسبب البيئة فإنه يمثل حركة من خارج العامل الوراثي ، وتتنوع الطفرة إلى أنواع:

الأول : الطفرات الجينية ، وهي التي تحدث نتيجة لتغيير كيميائي في تركيب الجين،وبخاصة في ترتيب القواعد النيتروجينية في جزئ DNA مما تؤدي في النهاية إلى تكوين انزيمات مختلفة تظهر في صفات جديدة ، ومع هذا التغير في التركيب الكيمائي يتحول من الصورة السائدة إلى الأخرى المتنحية ، وربما حدث العكس في حالات نادرة ،حيث يتم التحول من الصورة المتنحية إلى السائدة .

الثاني: الطفرات الصبغية وهي تتخذ مظهرين ، فاما تغير في عدد الصبغيات من ناحية الزيادة أو النقصان ، وإما تغير في تركيب الصبغيات بحيث يتغير ترتيب الجينات على ذات الصبغي،عندما تنفصل قطعة من الصبغي أثناء الانقسام وتلف حول نفسها بمقدار ١٨٠درجة ، ثم يعاد التحامها في الوضع المقلوب على نفس الصبغي ، كما قد يتبادل صبغيان غير متماثلين أجزاء بينهما ، أو يزيد أو ينقص جزء صغير من الصبغي ذاته ـ راجع للدكتور كمال محمد العر دراسات في علم الأحياء ص ١٦٥ ط أولى ١٩٦٧م دار المنشأة بالإسكندرية .

على أساس أن الطفرة قد تكون جينية وقد تكون صبغية [١]كما تكون تلقائية أيضا حيث تنشأ دون تدخل من الإنسان أصلا ، وهي ضئيلة في شتى الكائنات الحية، لكنها إذا حدثت فإنما يكون مرجع ذلك إلى تأثيرات بيئية ، تحيط بالكائن الحي كالأشعة البنفسجية والكونية ، والمركبات الكيميائية المختلفة[٢]، لكن هذه الطفرة التلقائية تلعب دورا رئيسيا وهاما بالنسبة للتطور الإحيائي .

وقد تكون الطفرة مستحدثة يقوم بها الإنسان من خلال القصدية والفرضية لأنه يهدف من ورائها إلى إحداث تغييرات مرغوبة،في صفات كائنات بعينها ، وفي هذه الحال يستخدم الإنسان كل ما يملك من وسائل ، وجدت في الطبيعة كأشعة أكس ، وأشعة جاما ، والأشعة فوق البنفسجية ، كما قد يستخدم بعض الكيماويات ، كغاز الخردل MUSTARD GAS ، ومادة الكولشيسينCOLCHICINE وحامض النيتروز[٣]كما قد يستخدم أحماضا أخرى بالإضافة إلى ما سبق ، وذلك لتحقيق الغاية التي يسعى إليها.

لكن هذا النوع من الطفرات المستحدثة،قد يجئ بصفات غير مرغوب فيها ، وبالتالي فعلى ذلك الإنسان–الذي قام بهذه الطفرات–أن ينتقي منها ما يراه نافعا في المشكلة التي يتعرض لها ، أو المسألة التي يعمل على معالجتها ، يستوي في ذلك الحال مع كل الكائنات الحية الفقارية والثدييات[٤]، ولا يمكن تقديم إجابة كافية،أو حلول مقبولة لحدوث هذه الطفرات إلا عن طريق التطور العضوي .

---

(١) هذا الوجه يمثل أحد الوان التنوع وليس كلها ، لأن الطفرات مختلفة من جهات كثيرة ، وليس من الصواب التعامل معها كلها على أنها حزمة واحدة ، أو ذات طبيعة محددة وإنما يجب النظر إليها باعتبارها تحمل صورا متخالفة .

(٢)الفرد لوفالتس — علم الوراثة ٧٨ ، ٧٩ .

(٣)الدكتور حسن السيد عبد الظاهر — الهندسة الوراثية وملامح المستقبل ص ٤٨ .

(٤)الفرد لوفالتس — علم الوراثة ص ٨٩ وراجع للدكتور كمال محمد العتر — دراسات في علم الأحياء ص ١٧١

في نفس الوقت فإن الطفرة التلقائية،أو المستحدثة،إنما تقدم نموذجها في احد اتجاهين ، أو تلعب أدوارها فوق أرضية ملعبين ، ولها في كل منهما تأثيرها الخاص ، وفعلها المميز ، وهذان الميدانان هما :

١ ـ ميدان طفرات الخلايا التناسلية ، ومعناه أن الجنين الذي تتم عليه الطفرة بحيث يكون ناتجا عنها ، لابد أن تظهر عليه الصفات الجديدة ، ويطلق على هذا النوع اسم الطفرات المشيجية GAMETE MUTATION ، وهي تتم في الكائنات الحية التي تتكاثر تزاوجيا ، سواء أكان ذلك عن طريق القصد ، أم بطريق العشوائية وانتقاء الغرضية[١]

٢ ـ ميدان الخلايا الجسمية ، ومعناه ان هذا العضو تظهر عليه وحدة أعراض مفاجئة ، وتكون قائمة في خلاياه ، لكن لما كانت هذه الطفرة في الخلايا الجسمية فقد سميت بالطفرة الجسمية SOMATIE MUTATION ، وهذا النوع من الطفرات الجسمية قد يكون تلقائيا ، كما قد يكون مستحدثا أيضا ، ولكنه في النباتات أكثر انتشارا وبخاصة من الإنسان ، تلك التي تتكاثر خضريا[٢]ويمكن تطبيقه في عالم الحيوان والإنسان دون نظر إلى اعتبارات أخرى .

ودليل ذلك أنه تم استحداث تلك الطفرة الجسمية في النباتات ، حيث نشأ فرع جديد من النبات العادي ، يحمل صفات مختلفة عن النبات الأم ، ويمكن فصل هذا النوع من النبات عن غيره ، ثم زرعه من جديد ، وإكثاره خضريا ، متى كانت الصفة السائدة الجديدة هي المرغوب فيها[٣]ولا يختلف الإنسان والحيوان عن النبات في هذا الجانب .

---

(١)الدكتور / كمال محمد العتر ـ دراسات في علم الأحياء ص ١٧٢

(٢) والملاحظ أن التطوريين يسعون جاهدين لأثبات وقوع التطور بأي شكل وعلى أية ناحية مهما كانت الأسباب أو المبررات ، أنهم أقرب الأشباه بالمفلسين الذين يعتمدون على أرصدتهم الخيالية متى فقدوا أرصدتهم الحقيقية الواقعية ، وأفكارهم ما هي إلا شيكات بدون أرصدة

(٣)الدكتورة علياء محمد الفقي ـ ماندل وقوانين الوراثة ص ٣٧

وطبقا لهذا فإن البيئة قد يكون لها تأثير من نوع ما في الطفرات المستحدثة أو التلقائية ، كما قد يكون لها دخل كبير في تعديل بعض صفات الكائن الحي ، وكذلك إحداث بعض التعديلات ، أو التحويرات في النظام الخلوي الوراثي الذي يقوم عليه ذلك الكائن نفسه .

غير أن التطوريين قد اعتقدوا بحدوث الطفرات المفاجئة ، واعتقدوا كذلك أن التطور مرتبط بالطفرات وقائم عليها ، دون أن يحددوا آثار كل منها على انفراد ، وقد حاولوا الاستدلال على صحة هذه الفكرة ، بمعنى أنهم اعتقدوا أولا في ضرورة وقوع صورة التطور ، ثم عملوا على إثبات وقوعه[٣]، من خلال الأدلة المعملية ، أو الظواهر التي جاءت في التاريخ الطبيعي .

فلما ظهرت للسطح فكرة الطفرات الصغيرة ، التي تقوم في جين واحد ، رتبوا أنفسهم على إعلان أنها المنشأ والمولد للتطور، فلما أعقبها اكتشاف الطفرات الكبيرة التي تحدث في مجموعة من الجينات ، وقد ظهر أنها تؤدي إلى تغيرات كبيرة ومفاجئة ، مثل الأصابع الزائدة في القطط، والأرجل الصغيرة في الأغنام[١] ، ومن ثم سارعوا إلى احتضانها والتمسك بها ، فكأنهم يتصيدون أدلة غير واقعية .

بل بالغ التطوريون في التعامل مع هذه الأفكار ، حتى أعتقدوا أن جميع الكائنات الحية المختلفة ، قد نشأت في الحياة من المادة الصماء العمياء ،

---

(١)وهذا يمثل قلبا للموازين ، كما يعتبر عدوانا على الأصول العامة والطرائق البحثية ،والمفروض أن تكون البداية قائمة على البحث العلمي بشروطه من الملاحظة والفرض والتجربة ثم القانون أما أن يعتقد أولا ثم يبحث فقد صادر بذلك على مطلوبه وتحول معه من علاقة طبيعية إلى علاقة غير طبيعية من الناحية البحثية والمنهجية أيضا .

(٢) الدكتور فوزي حسن صفوت ــ علم الوراثة وعلاقته بمندسة الجينات ص ١٤١ ، والملاحظ أنهم يعملون على اصطياد أدلة مهما كانت أدواتهم أو وسائلهم في الحصول عليها ، وليس ذلك من شأن البحث العلمي التجريبي ، وإنما هو طبيعة بعض الباحثين الذين يعتمدون على الجدل ، ويعتبرونه القاعدة التي يحتكمون إليها

بوساطة عدد من الطفرات الصغيرة التي تم تجميعها بحيث تؤدي في النهاية إلى تجميع أو وجود الكائن الحي متكاملا ، الذي يكون للانتخاب الطبيعي فيه التصيب الأوفى .

بناء على أن الطفرات التلقائية هي التى تحدث في الكون بصورة مستمرة ، ويساعد على وجودها العوامل المسببة للطفرات،ولا علاقة للطفرات باحتياجات الكائن الحي ، إنها تأتيه من أعلى كعوامل اختلالية فـي الأنظمة الإحيائية الثابتة[1].

وبناء عليه انتهى التطوريون إلى أن علم الوراثة في الجينات وما يلحق بها إنما يؤكد قضية التطور العضوي ، على أساس أن الجينات تلعب دورا كبيرا في المسألة ، وتدعم قضية التوارث السلالي، الذي يقع في الأجيال المتعاقبة ، يدفعها التطور السريع في ذاته البطئ من خلال مظاهره .

ومن ثم فلابد من النظر إلى أن الجينات والطفرات هي المادة الأولى التي يقع عليها التطور ، ويشترك فيها كل الكائنات الحية بصفة عامة ، والإنسان مع القردة العليا بصفة خاصة[2]وعلى الأخص الشمبانزي الذي يمثل قمة التطور في الجنس الحيواني[3]، حتى يسلمه للإنسان الذي هو أرقي الكائنات الحية وقمة الأعمال الإحيائية ، أو بعبارة أخرى ، الذي هو قمة النشاط الوراثي في أنواعه المختلفة .

---

(١) الدكتور عبد العظيم محمد الطماوي — البيولوجيا وخطط المستقبل ص ٥٧ ، وفي هذا اعتراف صريح بأن الطفرة التلقائية تجبر على القيام بأعمالها من خلال منظومة أخرى أعلى منها قدرا ، وأكثر قوة ، وليس ذلك إلا قوة الله القادر المقتدر .

(٢) هذا الاستنتاج غير دقيق لما سبق القول به من أن بعض الحيوانات — وليس الإنسان منها — تستطيع البلازما الجسدية فيها أن تتحول أو تنتج بلازما تناسلية وجسمية أيضا ، ولا يوجد ذلك في الإنسان على الإطلاق

(٣)انطونيو فرانس — علم الخلايا والمنظمة الوراثية ص ٩٣

ب ــ مناقشة الدليل :

لاشك أن علم الوراثة قديم على أي معنى من المعاني ، سواء باعتبار البحث فيه ، أم باعتبار النتائج البحثية المترتبة عليه،لكن أن تكون العمليات الوراثية هي التي تتم من خلال الطريقة العشوائية ، أو الطفرة التلقائية داخل الكائن الحي الإنساني من غير احتياج إلى الله تعالى وعلمه وقدرته[١]، فهذا ما نرفضه جميعا نحن المسلمين ، ونؤكد على أنه خارج نطاق التصورات العقلية السليمة،والدوائر الفكرية المقبولة ، في مقدماتها ونتائجها،مهما كانت المبررات أو التمحلات .

كما أن الاعتماد على قوانين الوراثة التي ابتدعها البشر في تفسير خلق الإنسان،أو الحيوان أمر غير معقول ولا مقبول لا من الناحية العلمية ، ولا من الناحية الدينية[٢]، أما الطامة الكبرى فهي زعم التطوريين أن علم الوراثة يثبت تطور الإنسان وترقيه من كائنات أخرى غير إنسانية ، عن طريق الطفرات أو غيرها[٣].

وليس معنى هذا أني أطالب بإلغاء علم الوراثة أو إلغاء البحث فيه ، فهذا أمر غير معقول من الناحية الشرعية، ولكني أطالب أن يتم قيام العلم على أسس صحيحة ، وأن يستمر البحث فيه من خلال قواعد لا تصادم النصوص الشرعية ولا تعاند الحقائق العلمية أيضا ، ومن ثم فإني سأعرض لموقف القرآن الكريم من الوراثة حتى يكون ذلك بمثابة المناقشة لذات الدليل .

---

(١) وما ذهب إليه التطوريون هو ذات القيام على التلقائية ، والعشوائية ، والفكر المنحرف ونحن المسلمين نرفض ذلك كله .

(٢) لأنها تفسيرات منقوصة وفي نفس الوقت منقوضة ، ويكفي أدراك أنها لا تقوم إلا على الفرضية الخالصة وهي لا تصلح في القضايا العلمية متى كان المطلوب هو الوصول إلى اليقين .

(٣)وكل مزاعم التطوريين وأغراضهم قائمة في ذات الاتجاه ، بمعنى أنهم يلغون من حسابهم قدرة الله في الخلق الأول ، والمحافظة على هذا الخلق من خلال العناية به والرعاية له .

موقف القرآن الكريم من الوراثة :

والملاحظ أن القرآن الكريم قد أقام أسس علم الوراثة في عـالم الإنسـان ، من خلال بعض الآيات القرآنية التي جمعت هذه الأسس ويمكن النظر إليها مـن خلال أربع مجموعات أو وحدات وراثية ، أعرضها فيما يلي :

الأولي — وحدة النسب

الثانية — وحدة المصاهرة .

الثالثة — وحدة التكوين .

الرابعة — وحدة التكامل والانسجام .

وقد جاءت هذه القواعد في مجموعة من الآيات القرآنية ومنها :

١ — قوله تعالى : " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَـانَ رَبُّكَ قَدِيرًا"[١].

٢ — قوله تعالى :" وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى مِن نُّطْفَـةٍ إِذَا تُمْنَـى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى"[٢].

٣ — قوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّـهَ الَّـذِي تَسَـاءلُونَ بِـهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" [٣].

٤ — وقوله تعالي" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ"[٣].

إلى غير ذلك من الآيات التي توضح علم الوراثة على الناحية الشرعية ،

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٤ .

(٢)سورة النجم الآيات ٤٥ — ٤٧

(٣)سورة النساء الآية ١

(٤) سورة الحجرات الآية ١٣ .

وسوف أعرض لبيان هذه الوحدات والإشارات القرآنية إليها وفيها الرد الكافي على مزاعم التطوريين أو استنادهم إلى قوانين علم الوراثة المندلية أو غيرها .

وسوف أتناول هذه الوحدات الأربعة،والصور التي يمكن أن تجئ فيها،كل وحدة على انفراد،وسأقدم لذلك بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية،متى كان ذلك ممكنا لي ، وسيكون على النحو التالي :

الأولي: وحدة النسب — البلازما التناسلية ، grem plasma أو وحدة الأصلاب

١ — قال تعالي :" وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا"[1]،فلآية القرآنية دالة على أن وراثة الأنساب والأصهار إنما هي آية من آيات الله تعالى الكونية،التي جعلها في الإنسان والحيوان والنبات ، حيث يتوارث كل جيل من سابقه ما يحتاج إليه في الوجود من الناحية الذكرية ، وحدة النسب أو البلازما التناسلية[2] — .

وبالتالي فالماء الذي خلق الله منه البشر ، مباين في طبيعته وخصائصه لكل من الماء المالح ، والماء العذب وغيرهما من أنواع الماء الأخرى، وهذه المباينة المائية هي بداية الانطلاق نحو وحدة النسب،في الإنسان على وجه الخصوص ، بل والحيوان والنباتات أيضا .

أما دليل ذلك في الإنسان ؟ فهو أنه ما من فرد من بني البشر إلا ويبدأ حياته بلاقحه،على أنه إخصاب يتم بين حيوان منوي من أب، وبويضة من أم ،

---

(١) سورة الفرقان الآية ٥٤ .

(٢)حيث تقرر البيولوجيا أن الفرد الجديد في الكائنات البيولوجية يبدأ بلاقحة ، التي هي عبارة عن خلية واحدة ، نتجت عن اندماج حيوان منوي من رجل مع بويضة من امرأة ، ومن ثم تكون اللاقحة نتاج خليتين تناسليتين — أنصاف خليتين من الوجهة الوراثية — فقط ، ولهذا تمثل اللاقحة ما يعرف علميا باسم البلازما التناسلية grem plasma .

أي من مشيجين تناسليين،من فردين سابقين له في الوجود[١]، فهو إذن يبدأ بخلية تناسلية واحدة اللاقحة التي تنقسم تباعا ودون توقف، فيتكون بذلك الفرد الجديد ، ذكرا كان أم أنثي، بكل مكوناته من أنسجة وأعضاء، وأجهزة تختلف عن بعضها اختلافا شاسعا[٢]وبالتالي فكل شئ يتم من خلال تنظيم دقيق،وأحكام إلهي بديع .

٢ ـ أن بداية أي فرد جديد تكون بلاقحة ، وهي خلية واحدة نتجت عن توفيق الله تعالى، من اندماج حيوان منوي فرزه رجل ، مع بويضة أفرزها مبيض من امرأة ، وبناء عليه تكون هذه اللاقحه نتاج خليتين تناسليتين ـ أنصاف خليتين من الناحية الوراثية ـ فقط ، ولهذا تمثل اللاقحة ما يعرف علميا باسم البلازما التناسلية GREM PLASM وهذا لا يكون عن طريق التطور العشوائي .

وإنما يكون طبقا لسنن الله تعالى الكونية ، قال تعالي:" ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون"[٣].

---

(١) ويستثنى من هذا آدم عليه السلام فلم يكن من خلايا سابقة ، إذ لم يكن قد سبقه إلى الوجود الآدمي أحد وكذلك حواء أم البشرية وعيسى ابن مريم رسول الله ، وهذا الاستثناء قد جاءت أدلة نقلية تؤكد عليه لأمر يعلمه الله تعالي ، وبيان قدرته على النحو الذي يريده جل شأنه قال تعالي :" إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين "سورة آل عمران الآيتان ٥٩ ، ٦٠ ، وذهب بعض من أهل الإسلام إلى أن الله تعالى حول بويضة مريم ابنة عمران من بويضة قابلة للتلقيح عن طريق الحيوان المنوي إلى بويضة أخرى غير قابلة للتلقيح وإنما تم فيها كل ذلك بأمر الله تعالى القائل: إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون " سورة النحل الآية ٤٠ ، وممن مال إلى هذا الرأي الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار عند تفسيره لقوله تعالى :" الله مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ".

(٢)الدكتور / حسن محمد عبد العظيم ـ الإنسان في القرآن ص ١٥٣ ط أولي ١٩٥٧م . وبناء عليه فللرجل يعطي زوجه البلازما التناسلية grem plasma فقط .

(٣)سورة السجدة الآيات ٦ ـ ٩ .

٣ ـ أن البلازما التناسلية الممثلة في اللاقحة،تنقسم أول مرة ، ثم تنقسم تباعـــ ، فيتكون بذلك الفرد الجديد بتمامه وكماله ، والذي يتكون بدوره من بلازما تناسلية ممثلة في الخلايا التناسلية التي ينتجها جهازه التناسلي ، بالإضافة إلـــى بلازمـــا أخرى تعرف علميا باسم البلازما الجســـمية SOMATO PLASM أو البلازمـــا الخضرية VEGETATIVE PLASM وهي ممثلة في كل ما عدا الخلايا التناسلية .

إذن هي ممثلة من خلال كل الأنسجة والأعضاء والأجهزة،التي يتكون منها الجزء الأكبر من الفرد الجديد ، وبالتالي فالبلازما التناسلية ، قد خلقها الله تعـــالى وجعلها مهيأة لتنتقل من فرد لآخر[1]، من خلال ناقل أمين ، يقوم بـــدوره علـــى النحو الأكمل ، طبقا للأوامر العليا التي يريدها الخالق العظيم جل علاه .

وقد انتقلت من آدم ابى البشر وزوجته حواء،في صورة لاقحات،كونت كـــل منها فردا في ذرية آدم الأولي ، الذي يمثل الجيل الأول ، ثم انتقلت من الجيـــل الأول إلى الثاني بعد التزاوج ، ولم يكن بإمكانها الانتقال إلى الجيل الثاني بـــدون تزاوج أبدا ، إلا إذا أراد ربنا جل علاه ، وبالتالي فهي في كل حالاتها إنما تسير طبقا لأوامر الله العليا .

قال الإمام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ليســـت القـــردة بحســـنة ، ولكنها متقنة محكمة[2] ، ثم أن المرء العاقل لو تصور مثلا أن للفيل رأسا مثـــل رأس الجمل ، وأن للأرنب مثل راس الأسد ، وأن الإنسان مثل رأس الحمـــار ، لوجد في ذلك نقصا كبيرا ، وعدم تناسب وانسجام .

---

(١) وهذا الانتقال ليس عشوائيا أو تلقائيا ، وإنما هو انتقال منظم محكم،بدليل أن التزاوج ، قديتم بين فرديـــن مختلفين ومع هذا لا يتحقق لهما الإنجاب ، قال تعالى :" لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمـــن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير " ســـورة الشورى الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

(٢)العلامة أبو حيان ـــ البحر المحيط ج ٧ ص ١٩٩ .

ولكنه لو علم أن طول عنق الجمل ، وشق شفته ليسهل تناوله الكلأ عليـــه أثناء السير ، وأن الفيل لولا خرطومه الطويل ، لما استطاع أن يـــبرك بجســـمه الكبير، لتناول طعامه وشرابه ، لو علم العاقل هذا،لتيقن أنه صنع الله الذى أتقـــن كل شئ ، وقال بأعلى صوته فتبارك الله أحسن الخالقين[١].

ولاشك أن ذلك التباين في أوجه المخلوقات ، يؤكد أن عملية الخلق إنما تتـم بأمر الله تعالى ، وترجع إلى قدرته وعلمه وحكمته، وليس إلى الطفرة ــ أيا كان نوعها ــ أو التطور الذي كم أعلى من قدره التطوريون ، حتى جعلوه خالقـــا ، وأنزلوه في نفوسهم منزلة الخالق العظيم جل علاه .

٤ ــ أن هذه البلازما التناسلية grem J plasma قد جعل الله لها كفاءة عاليـــة ، وأن ما انتقل منها بداية من آدم عليه السلام ، سوف يظل ينتقل في أفراده ، بـــل وينتقل حتى تقوم الساعة ، ومعنى ذلك ببساطة شديدة ، أن كـــل آدمـــي دب أو سيدب على ظهر الأرض من عهد آدم عليه السلام ، وحتى يوم القيامة ، إنمـــا هو امتداد لأبي البشر آدم عليه السلام وفيه منه بقية[٢].

بيد أن هذه البقية هي البلازما التناسلية ، التي يسلمها كل جيل سابق لكـــل جيل لاحق ،ويترتب علي ذلك أيضا،انتقال الصفات الوراثية من جيل إلى جيـــل، وبهذا يكون الارتباط عن طريق النســـب والمصاهرة ، ويتحـــقق التكاثر، وهذا الارتباط الوراثي المتميز ، عبر عنه القرآن الكريم بالنكاح الذى يقوم عـــقد من

---

(١) راجع للعلامة أبي السعود ارشاد العقل السليم ج ٤ ص ١٩٩ وللإمام القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ٨٩ .

(٢) والإشارات القرآنية في ذلك كثيرة منها قوله تعالى :" ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفـــة فـــي قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخـــر فتبارك الله أحسن الخالقين "سورة المؤمنون الآيات ١٢ ــ ١٤ ، وقال تعالي :" الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلـــق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين " سورة السجدة الآيتان ٧ ــ ٨ .

العقود المشروعة في الملة الإسلامية[١].

٥ ــ ان الفرد الجديد الذي بدأ حياته جنينا بالبلازما التناسلية -اللاقحة -وحدهــا ودون شريك ، قد تكونت في هذا الفرد ــ ومن هذه البلازما تباعا أثناء الأطــوار الجنينية وما بعدها ــ من جديد بلازما تناسلية ــ خلايا تناسلية ــ بالإضافة إلــى كل جسمه الباقي الذي يقوم على البلازما الجسمية[٢].Somato plasma

ومن ثم فإن القوانين العلمية تقرر قدرة البلازما التناســلية ، بانقســاماتها المتعددة،على تكوين بلازما تناسلية جديدة ، مع بلازما جسمية ، وليس العكــس ، بمعنى أن البلازما الجسمية SOMATO PLASMA لا يمكنها بحال ــ فــي حالــة الإنسان ــ أن تكون بلازما تناسلية أبدا[٣] وبالتالي فلا يصلح التطور العضــوي ليكون حكما في المسألة ، وإنما لابد من الاعتماد على قدرة الله تعالى وحده .

٦ ــ أثبتت الدراسات المتوالية في علم الوراثة أن البلازما الجسمية فــي غــير الإنسان ــ بعض الحيوانات الأخرى مثل العدار ــ الهيدرا ــ والإسفنج ،وبعض الديدان المفلطحة ، بلاناريا ، يمكن أن تكون البلازما الجسمية ، بلازما تناســلية وجسمية من جديد ، حتى إذا قطع هذا الحيوان قطعا ، فإن كل قطعة منه تمثــل بلازما جسمية ، يمكنها أن تكون حيوانا جديدا قائما بذاته له جهازه التناســلي ــ بلازما تناسلية ، وأجهزته الجسمية الأخرى ، وحينئــذ تختلــف عــن الإنســان تماما[٤]ولا يصلح أن يكون الإنسان قد ترقي عنها أو قام خلفه عليها .

---

(١) وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم ن ك ح حوالي ثلاث وعشرين مرة ــ المعجم المفــهرس لألفــاظ القرآن الكريم باب النون ص ٧١٨ وأطلق القرآن الكريم على تلك العلاقة الدافئة من الناحية المشروعة عقــدة النكاح قال تعالى :" ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله " سورة البقرة الآية ٢٣٥ .

(٢)الدكتور / عبد العظيم محمد الطماوي ــ البيولوجيا وخطط المستقبل ص ٨٩ .

(٣)الدكتور فوزي حسن صفوت ــ علم الوراثة وعلاقته بهندسة الجينات ص ١٦٢ .

(٤)الدكتورة علياء محمد الفقي ــ ماندل وقوانين الوراثة ص ١٥١ .

بدليل أن بعض الحيوانات إذا قطع أربا عرضية ، فإن كل قطعة من هــذا الحيوان ، تمثل بلازما جسمية مستقلة ، يمكنها أن تكون حيوانا جديدا قائما بذاتـه له جهازه التناسلي — بلازما تناسلية — بجانب أجهزته الجسمية الأخرى .

٧ — أن البلازما الجسمية في أى فرد آدمي مآلها الموت لا محالة ، بـل ربمـا مات بعضها ، ومايزال صاحبها حيا يرزق ، مثل كرات الدم الحمراء،وكثير من الخلايا الطلائية على الجلد ، أو في باطن القناة الهضمية[٢]، أو غير ذلـك مـن الخلايا لكن حين ينتهي الأجل المسمى لهذا الكائن الحي ، في علم الله تعالى، فإن الإنسان يموت بكل أجهزته ، بما فيها من خلايا تناسلية كانت لها بقية فيه .

أما خلاياه التناسلية المتمثلة فـي الحيوانـات المنويـة بالنسـبة للرجـل ، والبويضة بالنسبة للمرأة ، فإذا قدر لها أن تشترك قبل موته في تكوين لاقحات ، فإنها تبقى كامتدادات له ، لأنها انتقلت منه أثناء حياته، لتشترك في تكوين أبنائـه أو بناته ، وهذا يحاول أحد العلماء التعبير عن ظـاهرة البلازمـا ، وعلاقتـها بنوعيها قائلا : إن البلازما الجسمية في أي فرد ما هـي إلا مجـرد عربـة ، وظيفتها الأساسية أن تحمل وتحافظ على البلازما التناسلية ، حتى تسـلمها إلـى غيرها [٣]، أليس هذا صحيحا على لغة العلم ، وأن الله تعالى، خلق ذلـك كلـه وأحكم صنعه ، وبناء عليه يستطيع أي إنسان عاقل استنتاج أمرين مـن الآيـة الكريمة : الأول : خلود البلازما التناسلية عن طريق الانتقال المتواصل ، حتـى يأذن الله بانقضاء ذلك كله .

الثاني: وحدة النسب وعمقه كلما تردد إلى سمعه قول الله تعالى :" يابني آدم" لأن فيه تذكيرا بوحدة النسب الأولي فسبحان الله اللطيف الخبير .

---

(١)الدكتور محمد عبد الهادي جلال — التطور البيولوجي مدارسه ونظرياته ص ١٨١ .

(٢) فرانك توماس هيد — التطورات العلمية في مجال البيولوجيا ص ١٨٤ ترجمة الدكتور صابر حسن شمـس الدين ط أولى ١٩٨٣م بيروت دار الفكر .

الثانية : وحدة المصاهرة ـــ الأرحام ـــ القرار المكين[١] :

يمكن اعتبار ما سلف هو الصورة المعبرة عن البلازما التناسلية،في صورة من الصور التي يفرزها الأب ، ويتم من خلاله التسلسل الوراثي،بقدرة الله تعالي أما الجانب الثاني فهو المتعلق بالقرار المكين ، أو تسلسل الوراثة عن طريق الأرحام ، ويعرف بالبلازما الجسمية ، كما يعرف بوحدة المصاهرة .

والمعروف أن الأسرة الواحدة ، أو الأسرة الأولي المكتملة تتكون من أب واحد ، وأم واحدة،وأبناء متعددين ـــ ذكورا وإناثا ـــ وأن هؤلاء الأبناء جميعا قد سكنوا رحم هذه الأم ، على فترات متتالية لا محالة ، وبالتالي فصلة رحم الأم بينهم جميعا واحدة [٢]بجانب أنها واضحة .

فإذا كان لهذه الأم أخوة وأخوات من أب وأم واحدة ،فهم لاشك بدورهم قد جمعهم رحم هذه الأم جدة الأسرة الأولي ، وهكذا إذا تسلسلت في الرجوع للخلق الأول ، حتى تصل إلى أمنا حواء ، أو سرنا للأمام حتى تقوم الساعة ، وهو مفهوم التسلسل الوراثي بالنسبة لوحدة المصاهرة ، وبناء عليه يتضح ما يلي :

(١)أن رحم حواء الجدة قد سكنه ـــ على فترات ـــ كل أولادها من آدم ، ذكورا كانوا أم إناثا [٣]فكان الرحم للجمع هو القرار المكين قال تعالي :" هو الذي

---

(١) تحدث القرآن الكريم عن القرار المكين الذي يحفظ بالبلازما التناسلية فقال تعالي :" ثم جعلناه نطفة في قرار مكين " سورة المؤمنون الآية ١٣ ، وقال تعالي :" ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون " سورة المرسلات الآيات ٢٠ ـــ ٢٣ .

(٢)وهذا يجعلنا ندرك السر في تأكيد القرآن الكريم على الأرحام ، محافظة عليها ، وصيانة لها وصلة مستمرة قال تعالى :" واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيبا " سورة النساء الآية ١ .

(٣)حيث يذهب البعض إلى ألها حملت عشرين بطنا ، في كل بطن ذكرا وأنثي ، ثم لما قتل الشقي أخاه الطائع ونقص عدد الأولاد عن البنات واحدا ، أكرمها الله فحملت من آدم البطن الحادى والعشرين ، لكن لم تلد فيه سوى ولد واحد وبالتالي تساوى الأولاد مع البنات في العدد

يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم "[1]، وتصوير الله في الأرحام لا يقتصر على البشر ، وإنما يتـم ذلك كله في الأرحـــام جميعها ، كما لا يقتصر التصوير في الأرحام على الصورة الشكلية ، وإنمـا يمتد فيشمل الأرزاق والأعمار ، والجوانب النفسية والعقلية وغير ذلك ممـا لا نعلمه نحن ، وإنما يعلمه الله جل علاه فتبارك الله أحسن الخالقين .

(٢)إن إناث الجيل الأول من بنات آدم وحواء ، اللاتي تزوجن بأخواتهن ، قـد سكن في أرحامهن كل إناث وذكور الجيل الثاني ، باعتبار أن أرحامهن هي التي حملت بهذه الذرية ذكورها ونسائها ، وبالتالي فالمصاهرة آتيـة مـن عناصر متكاملة متطابقة في كافة الأجزاء ، وليست متطورة عـن أصـول مختلفة .

صحيح أن النطفة يقع عليها تطور في الرحم ، حتى تصل إلى الخلـق المتكامل ، لقوله تعالي :"ثم أنشأناه خلقا آخر" لكن ليـس معنـى ذلـك أن تتحول النطفة من صفات حيوانية،إلى إنسانية، ولا العكس ، لأن هذا يخالف علم الوراثة من ناحية ، كما يخالف سنة الله في خلقه من ناحيـة ثانيـة [2] وهي الأهم وعليها المعول ، لأنها الصدق بعينه .

(٣) أن عملية التسلسل الوراثي تدلنا على حقيقة ثابتة ، من الناحية الشـرعية ، وهي أن كل أم لاحقة قد سكن رحمها ذكور وإناث هم أبناؤها وبناتها[3]لكن هذه الأم بدورها كانت أختا لذكور وإناث سكنوا رحم أم سابقة عليها ،ويظل الأمر آخذا في هذا التسلسل العجيب ، بدءا من حواء أم البشر ، حتي آخر

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦ .

(٢) قال تعالى :" فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنت الله تحويلا " سورة فاطر الآية ٤٣ .

(٣) هذا على سبيل الفرض المستقبلي ، أو كما يقول المناطقة لأنها أم بالقوة وليست أما بالفعل ، فحين تصـير أما بالفعل يسكن رحمها أولادها وبناتها .

رحم لاقح عند يوم القيامة[١].

بل أن الناظر للسياق القرآني العظيم المعجز الأخاذ بالعقول في قوله تعـالي:" نسبا وصهرا " يجد العجب العجاب في عملية المصاهرة ، لأنه سيدرك أن حواء هي أم لأبنائها الذكور والإناث جميعا ، ثم هي أم لأمهات حملن ذكورا وإناثا من الجيل الثاني[٢]وفوق ذلك فهي أم لأمهات أمهات حملن ذكورا وإناثا من الجيـــل الثالث .

ثم إنها هي ذاتها أم لأمهات أمهات حملن ذكورا وإناثا من الجيل الرابــــع ، وهكذا يقع التسلسل المستمر من خلال صلة الرحم ـــ وصهرا ـــ التي تربط بيـن كل من في الأرض جميعا،من بني البشر رجالا ونساء ، منذ خلق الله آدم وحواء على الأرض ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

من ثم فإن رابطة المصاهرة في ذاتها ،هي رابطة القرار المكين، وهما معا يكونان وحدة من نوع خاص ، بدايتها الماء المهين ، ووسطها القرار المكيـــن ، ثم تتبعهما عملية الخلق الكامل ،المقدر في الآجال والأرزاق ، والأعمال ، صنــع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون"[٣]، ولا مجال للتطور العضوي فـي شئ من ذلك أبدا ، بل ان العاقل متى أدرك ما سلف ذكره عن البلازما التناسلية، والأرحام تأكد له أن الناس جميعا تربطهم وحدة التكوين ، كما تربطهم وشـــائج الدم والقرابة ، ومن ثم فالناس جميعا متساوون فليس لجنس امتياز على جنـــس آخر ، إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وتكريم الإنسان لا يكون بلون ضد لـــون ، أو جنس ضد جنس ، أو قومية ضد قومية ، أو لغة ضد لغة ، بل إن البلازمــــا

---

(١) وهذا يؤكد أن الخلق منسل من أنواعه ذاتها ، وليس منسلا من أنواع مختلفة كالحيوان أو غيره .

(٢) والعقل لا يمنع ذلك بل يقر بأنه حقيقة واقعة ، وفي نفس الوقت ، منطق معقول تدعمه أدلـــة المشـــاهدة والتجربة في الإنسان بصفة خاصة .

(٣) سورة النمل الآية ٨٨ .

التناسلية وخلودها وتكوين الأرحام وصلاتها ، تكونـــان السـبب فــي النســب والمصاهرة ، كما ورد في القرآن الكريم .

الثالثة : وحدة التكوين — وحدة القرابة الأزلية :

تحدثت عن وحدتي النسب والمصاهرة ودورهما في علم الوراثة،من الناحية الإسلامية ، لكن القرآن الكريم ذكر وحدة التكوين والدم مع،وشائج القربى ، فـإذا أمكن للإنسان العاقل تفهم هذه الحقيقة أدرك أن الناس جميعاً يتساوون في الجنس الإنساني ، ومن ثم تنقطع نزعـــات العصبيـــة للـــدم ، والشـــعوبية للجنـــس ، والعنصرية للعلم أو المعرفة أو القومية ضد أخرى،أو الصراع بين الحضارات.

ومن الأدلة على ذلك قوله تعالي:" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَـاء وَاتَّقُـواْ اللّـهَ الَّـذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"[١]، وقوله تعالى :" وَمِنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّـنْ أَنفُسِـكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَـةً إِنَّ فِـي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِّقَـوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ"[٢]، أما كيف يتم ذلك ؟

فالجواب ما يلي :

١ — أن تكوين البلازما التناسلية grem plasma، واستمرارها في رحلة الحيـــاة إلى المقصود — باعتبار الانتقال المتواصل في الأصلاب — وهـــو النســب — وتكوين الأرحام ، واستمرار أدائها لوظائفها ، التي خلقها الله تعالى مستعدة لها ، وهو المصاهرة ، فإن الضرورة العقلية تفرض وجود وحده تركيبية بيـــن هـــذه العناصر — النسب والمصاهرة — ولا يمكن أن تقوم في غيرهما ، وهذه الوحـدة التكوينية هي ذاتها وحدة القرابة ، إنها وحدة البلازما التناسلية، والرحم المصاهر

(١) سورة النساء الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآيتان ٢٠ ، ٢١ .

وحدة الدم والعمل ، ووحدة الأصل الصلبي ، والرحم القائم على أعلى نشـــاط [١]، وبالتالي فلا توجد هذه الوحدة التكوينية بين الأغنام والإنسان مثلاً ، لأنهما ليســـا من وحدة البلازما التناسلية النوعية ، ولا وحدة الأرحام المصاهرة[٢].

كما لا تقوم بين الإنسان والشمبانزي ، بل ولا بين الإنسان وأي كائن حـــي آخر ، كما لا تقوم بين الحيوانات أنفسها في أنواعها المختلفة ، فـــلا تقـــع هـــذه الوحدة التكوينية بين الديك والفيل ، ولا بين العصفور والأسد المفترس ، كمـــا لا تقوم بين أنسال الحيوانات الأليفة والأخرى المفترسة ، لأن وحدة الأصلاب فيـــها غير قائمة ، كما أن وحدة المصاهرة بينها منقطعة .

والله سبحانه وتعالى بين أن هذه الوحدة التكوينية في أصولها مستقلة تمامـــا قال تعالى :" وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ " [٣] .

٢ ــ أن القرآن الكريم ألمح إلى وحدة التكوين في قوله تعالى:يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُـواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَـــالاً كَثِـيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا"[٤].

فالآية الكريمة قد دلت على أن الله تعالى ، قد خلق الناس جميعا مـــن نفـــس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وهذا ما يتعلق بالبلازمــــا التناســـلية ، أو وحـــدة الأصلاب ، فكلهم مخلوقون منها على سبيل التسلسل الوراثـــي ، وهـــذا النـــداء

---

(١) وهذه الصلات لايمكن تجاهل دورها في الجانب الإحيائي ، بل من الصواب القول بأن وحـــدة التكويـــن مستمدة جذورها من وحدتي النسب والمصاهرة ، بحيث يمكن القول أنها قامت عليهما معا ، أو هي المعبرة عـــن ما في طبيعة كل منهما واستعداداته .

(٢) ومن يجادل في ذلك إنما يهدم علم الأحياء وقوانين الوراثة ، ويسعى للحديث عن علم لا وجود لـــه ، أو يدلي بمعلومات قامت في خياله فقط ، ولا علاقة لها بشيء خلف ذلك .

(٣) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

(٤) سورة النساء الآية ١ .

الإلهي موجه للناس جميعا منذ وجود آدم عليه السلام ، وحتى تقوم الساعة[١] ، ثم إن التسلسل الوراثي قائم في مفهوم قوله تعالي :" وبث منهما رجالا كثيرا ونساء "[٢]، وبالتالي يقع تنوع الحيوانات المنوية في إنتاج الذكور والإناث ، من البشر في كل زمان ومكان .

٣ ــ أن الآية الكريمة حثت على مفهوم وحدة التكوين المكاني ــ الأرحام ــ حيث دفعت إلى مراقبتها والمحافظة عليها ، وهو توطيد لكل العلاقات القائمة بين الكائنات الحية ، وتأكيد على الصلات القائمة في القربي بين الناس ، الذين خلقوا من أفراد أسرة واحدة ، ويمثلون جماعة واحدة[٣]ترتد كلها إلى رحم واحد فقال تعالي :" واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ".

٤ ــ ان الغاية من وحدة التكوين والانسجام ، هي تحقيق أعلى قدر من المنفعة الدالة على أن الفاعل لها هو القادر الحكيم المقتدر العليم جل علاه ، وبالتالي كان الأمر الإلهي اتقوا الله الذي تساءلون به ، ثم ذكر الأرحام أيضا ، ليكون التواصي بها بعد توحيد الله وعبادته ، نوعا من الشعور بأن صلة الرحم والقربى[٤] إنما هي توجيه علوي ،جاءنا من رب العالمين ، وليس لنا أن نتهاون أو نقصر فيه ، وإلا كنا مؤاخذين به ، فقال جل شأنه أن الله كان عليكم رقيبا.

الرابعة : وحدة التكامل والانسجام :

لم يخلق الله بني البشر متعادين ، وإنما خلقهم متعاونين ، بدليل أنه لا

---

(١) ومن ثم فإن هذا النداء يظل قائما ، والنداء موجه للناس جميعا منذ وجود آدم عليه السلام إلى يوم القيامة.

(٢)ولاشك أن عبارة وبث منهما رجالا كثيرا ، وكثيرا دالة على تنوع الحيوانات المنوية التي يترتب عليها إنتاج الذكور والإناث من البشر في كل مكان وأي زمان .

(٣) هذه الجماعة هي الإنسانية كلها التي جاءت جميعها من صلب رجل واحد هو آدم ورحم امرأة واحدة هي حواء رضي الله عنها .

(٤)وبالتالي فليست صلة الرحم أو القرابة منحة من أحد ، وإنما هي أمر الله تعالى ولابد من القيام بها على أحسن ما شرع الله تعالى .

يستطيع واحد من البشر القيام على وظائف الحياة ومتطلباتها بالنسبة لذاته ، وإنما لابد له من فرد أو جماعة تؤازره وتعاونه ، في كل مظاهر الحياة ، وهو مما أسرف في الحديث عنه علماء الاجتماع ، وذكره أهل الإسلام أثناء الحديث عن المعارضة والمعاوضة في حاجة البشر إلى الرسالة .

بيد أن هذا النظام الجماعي ، يمكن ملاحظته في مفهوم ذات الآية القرآنية فجعله نسبا وصهرا ، أما كيف ؟ فلأن :

١ — دور الحيوان المنوي البلازما التناسلية :

حيث أن الله تعالى شاءت إرادته ، ونفذت قدرته،أن يخلق الحيوان المنوي كما تصنعه الخصية الذكرية في صورة تخالف صور أية خلية أخرى في جسم الإنسان[1]حيث جعل هذا الحيوان المنوي متحركا بسرعة كبيرة ، كما جعله مكونا من رأس وذنب،وجعله معدا بشكل خاص يؤهله لأداء وظيفته على الوجه الأكمل ، فكان خفيف الوزن ، دقيق الجسم ، رشيق القد ، كثير الأعداد ، — إذا ما قورنت أعداده بالبويضات التي تنتجها الأنثي[2]، وهذا ما يجعل فرصة التلاقي في الإخصاب كبيرة جدا بإذن الله تعالى .

ثم ان التعاون والتكامل يظهر حين ينتقل الحيوان المنوي — المشيج الذكري — إلى حيث توجد البويضة في جهاز المرأة التناسلي ، إنه يسعى إليها حتى يلتحم بها ويتكامل معها ، فإذا لم يكن معدا من قبل الله الخالق العظيم ، بهذا الشكل الدقيق العجيب ، والحركة السريعة الملائمة مع الحجم المناسب ، لما أمكنه أن

---

(١) فالخلايا التي تقوم في الإنسان ثلاث مجموعات : ١ — الخلية الجسدية ٢ — الخلية التناسلية ٣ — الخلية العصبية .

(٢) حيث يفرز الرجل الطبيعي في اللقاء الواحد ، قرابة ثمانين مليون حيوانٍ منوي ، بينما عدد البويضات الصالحة للتخصيب في الأنثي ثابت هو خمسمائة بويضة تقريبا ، وبالتالي فنسبة الحيوان المنوي للبويضة من حيث الحجم قورن بنسبة ١/٢٥٠٠٠٠ — راجع لسير نورمن جفكث — علم النساء والتوليد ص ٥٣

يزاول نشاطه ، أو القيام بمهامه الشاقة الجسيمة على الوجه الأكمل ، حتى يكـون هناك رجال ونساء من فضل الله تعالى ، ومن ثم فإن ذلك مـــن دور الحيــوان المنوي ، والبلازما التناسلية ، في هذا التكامل والانسجام .

٢ ـــ دور الأمشاج :

خلق الله الإنسان من حزمة أمشاج متآلفة متعاونة ، قال تعالي :" إنا خلقنـــا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا "[١]. قال ابن عباس رضـــي الله عنهما : الأمشاج يعني الأخلاط ، وهي ماء الرجل وماء المرأة ، إذا اجتمعـا واختلطا ، ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، ومن حال إلى حـــال[٢]بمعنـــى أن الماء المهين هو المني الذي ينطلق من صلب الرجل ، ويختلـــط بمـــاء المـــرأة البويضة الأنثوية ، فيتكون منهما هذا المخلوق العجيب،الذي جعله الله في أحســن تقويم[٣]، والأمشاج لها طريقتها الخاصة التي هيأها الله تعالى لـــها مـــن حيــث الإنقسام المشيجي فتتكاثر أعدادها ، وتعد نفسها للإخصــــاب ، وتعــرف هــذه الطريقة المشيجية باسم الإنقسام الاختزالي .

ويبدو التآلف والتكامل حين تظهر نتيجة الانقسام الاختزالي،حيث يحمل كـل من المشيج المذكر والمشيج المؤنث بالتساوي نصف عـــدد الصبغيـــات فقــط ، وليس بإمكانه حملها جميعا[٤]، فإذا أندمج كل منهما مع الآخر ، تم الاخصــــاب بإذن الله ، حيث تتكون اللاقحة التي بها العدد الكامل من الصبغيات وكل منـــهما المشيج المذكر والمشيج المؤنث يسعى لهذا التكامل ويصر عليه،بل ويدافع عنه.

---

(١) سورة الإنسان الآية ٢ .

(٢)الإمام أبو حيان التوحيدي ـــ البحر المحيط ج ٨ ص ٣٧٠وبالهامش النهر الماء .

(٣)الإمام الألوسي ـــ روح المعاني ج ٢٩ ص ١٥١ وحاشية الصاوي على الجلالين ج ٤ ص ٣٧٣ .

(٤) لأن من صفات الخلية الذكرية في الإنسان الأفراد الصبغي ، وكذلك الحال مع الخلية الإنثوية على أساس أن كلا منهما تتكون من ثلاثة وعشرين من الكروموسومات قبل الإندماج الخلوي .

إنه لمنظر عجيب ، ونشاط قوي أخاذ بالعقول والألباب ، حيث تتعاون الأمشاج لتكون وحدة التكامل ، وتسعى للإنسجام ، بربك قل لي من الذي أفهم هذه الأمشاج ذلك المسلك ، من الذي غرز فيها هذا الاتجاه؟ بل من الذي خلقها مهيأة للقيام به ؟ لاشك إنه الله رب العالمين ، الذي خلق فسوى وقدر فهدى" [١] وهو صنعه جل شأنه ومن تقديره وتدبيره .

ان المؤكد علميا هو الظهور العلني السلبي المدمر لو أن هذه الأمشاج خالفت النظام الإلهي والسنن الكونية ، وما كان لها أن تخالف، بل أنها لو خالفت لنشأت مسلاخات غريبة، من لاقحة لا تمت لصاحبها بصلة ، وما تم تكوين الخلق أبدا ، لا الجديد ولا القديم ، ولكنها قدرة الله الخالق العظيم ، الذي أحسن كل شئ خلقه ، التي جعلت ذلك يتم على أحسن نظام وأكمله ، وبالتالي ظهر أن الأمشاج في علم الوراثة تنطلق بتوجيه الهي لتحقيق الالتحام مع التكامل والانسجام في المنظومة الإحيائية الوراثية ، القائمة على الأمر الإلهي والتوجيه الرباني[٢] .

٣ ـ دور الأرحام :

جعل الله تعالى اللاقحة ـ الحيوان المنوي المندمج بالبويضة ـ مكونة من خلية أولي ، وهيأ لها طبيعة تسمح بالانقسام المتوالي لتكوين الفرد الجديد بخلاياه التي تعد بالبلايين[٣] ، مع أنسجته المختلفة وأعضائه المتباينة ، وأجهزته المتنوعة وهي في هذه الأثناء تسعى لجمع الشمل ، وتأليف الأجزاء[٤] حتى يكون التكامل

---

(١) سورة الأعلى الآيتان ٢ ، ٣ .

(٢) وبناء علي هذا يكون التطور المقصود عندنا نحن المسلمين هو نوع من التحول طبقا لما هو قائم في علم الله تعالى ، وواقع بقدرته سبحانه وتعالى .

(٣) ولذا ذهب الاحيائيون إلى أن بالجسم الإنساني ٣٠ تليون خلية جسدية متكاملة كل خلية منها بها ستة وأربعون كروموسوما صبغيا .

(٤) ليس معنى هذا أن اللاقحة ميته وتجبر على القيام بهذه الأدوار من الناحية الميكانيكية ، أو أنها تفعل ذلك بقصد تام منها ، إنما الذي اعتقده إنها تلبي النداء الإلهي وفي نفس الوقت تنفذ التعاليم الإلهية .

الذي لا يقع على وجه الكمال ، إلا من خلال التعاون .

بربك قل لي من الذي هيأ هذه اللاقحة الغريبة العجيبة ، التي لا تزن سوى جزء يسير جدا من بلايين البلايين الأجزاء من الجرام الواحد ، ومن الذي دربها على الحركة ، ومكنها من الانقسام المتوازن ، حتى تصير فردا قد يصل وزنه في المستقبل إلى ما يزيد على المائة كيلو جرام(١).

ثم ان اللاقحة لها نواة لا تشاهد إلا بالمجاهر المكبرة كثيرا ، وحتى في هذه الأثناء التكبيرية ، فإنها تكون كنقطة حبر صغيرة على ورقة بيضاء ، هذه النواة إنما هي سجل كامل متكامل، بل هو حافل بكل الصفات الوراثية التي تحدد معالم الفرد الجديد ، وملامح ذاتيته ، كما ترسم شخصيته التي ينفرد بها عن كل من سواه من البشر(٢)منذ خلق الله آدم أبا البشر إلى يوم القيامة ، وما البصمة الوراثية اليوم إلا صورة تعبيرية تدل على ذاتية كل فرد، وما ذلك إلا من صنع الله رب العالمين.

وهذا السجل الحافل الذي تحمله اللاقحة ، لا يورث من أحد الأبوين ، وإنما يحمل من كل منهما بقية ، أو يأخذ عن كل واحد منهما توجيها ، ولذا فمن السهل استخدام البصمة الجنينية في التعرف على أصحاب الجرائم ، كما يمكن الاستفادة منها في تعويضات أصحاب الحوادث إلى غير ذلك من الوجوه .

٤ ـ دور الخلايا المتشابهة :

هيأ الله تعالى اللاقحة حتى تكون مستعدة للانقسامات المتوالية ، وهي حين تنقسم إنما تؤدي إلى إيجاد خلايا متشابهة ، ثم تقوم كل خلية أو مجموعة من

---

(١) بل قد يصل إلى ثلاثمائة كيلو جرام حيث قد سجلت موسوعة جنس أن أبدن رجل في العالم بلغ وزنه ٣٠٧ كيلو جرام ، وأنه كان لا يتحرك وإنما تحركه مجموعات بشرية خصصت للقيام بهذا الغرض ـ راجع للدكتور محمد عثمان الأشقر جنون البشر ص ١٢٥ دار القلم الشريف ١٩٩٩م .

(٢)الدكتور التهامي محمد راشد ـ الهندسة الوراثية والبيوكيمائية ص ١٩١ .

الخلايا المتشابهة إلى السير في إتجاه معين محدد ، يخالف مسيرة حزمة خلوية أو مجموعة من الخلايا الأخرى[١]، بحيث تكون اتجاهات كل مجموعة منها لغاية ظاهرها الاستقلال التام .

فهذه الخلايا تؤدي إلى تكوين الجهاز الدوري ، والثانية تتجه إلى تكوين الجهاز العصبي ، والثالثة تذهب إلى تكوين الجهاز العظمي ، وهكذا تقوم كل مجموعة على جهاز بعينه ، لكنها في الحقيقة تسعى للتكامل والانسجام[٢] بدليل أن الجهاز الدوري لا ينفصل عن العصبي ، كما أن العظمي لا يبتعد عن التنفسي،وإنما الجميع يسعى لإحراز تقدم نحو وحدة التكامل على الوجه الأكمل.

ثم إن علم الأجنة هو الآخر ، قد اهتدى الباحثون فيه إلى إدراك حقيقة علمية ثابتة ، أشار إليها القرآن الكريم ، وهذه الحقيقة العلمية قائمة في أن الخلية التى تتجه إلى تكوين نسيج من نوع ما،أو جهاز بعينه ، تظل في مسيرتها متقدمة بخطا واثقة ، قوية حينا ، وقد تضعف، لكنها تظل منطلقة للأمام ، ولا تفكر في الارتداد على العقب ، والنكوص عن التقدم مهما كانت المبررات [٣].

بل ومهما وقع عليها من تأثيرات ، فإنها تصر على تنفيذ ما أمرت به من قبل الله تعالى القائل :" الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار" [٤].

---

(١) وهذه الحركات لا يقع بينها اختلاط أو تداخلات لا بالقوة أو الضعف ، كما لا يقع بينها اختلاط في المسير أو الأنواع ، وجذور النباتات من أكثر الأدلة على ذلك شيوعا .

(٢) ومن ثم فإن حركتها لا تكون عفوية أو عبثية وإنما تكون مقصودة ذات دلالة قوية ، وتأثيرا إيجابي ، أنها تشبه التحركات التي تصدر عن مسؤل قادر على تنفيذ ما يتعهد به .

(٣) وليس هذا من التوارث السلالي أو التولد الذاتي ، إنما هو من صنع الله الذي خلق فسوى وقدر فهدى سبحانه وتعالى وذلك كله من حكمته ، وتجري فيه الحكمة .

(٤)سورة الرعد الآية ٨ .

وقال تعالى:" هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَـــاءُ لاَ إِلَـــهَ إِلاَّ هُـــوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ "(١).

ولا أغالي إذا قلت أن التصور في الأرحام مفهوم يحتوي الشكل والحركـة ، كما يحتوي الرزق والعمر، بجانب السعادة والشقاوة ، وكـأن الله تعـالى يـأمر ملائكة الأرحام بجعل اللاقحة تنتقل من دور إلى دور ، ومن طور إلى طـور ، وهي في كل دور وطور خلق آخر ، لكنه متكامل متآلف ، دال على أن خالقـه هو الله العليم القدير .

٥ ــ دور التماثل التشريحي :

الإنسان مخلوق لله وبالتالي فكلما كان هذا الإنسان كـاملاً كـانت أجـزاؤه متساوية متماثلة ، بمعنى أننا إذا وضعنا في الاعتبار أن هذا الإنسان نصفـان ، أو شقان ، أحدهما أيمن،والثاني أيسر ، فإن التشابه بينهما يكون متقاربا إلى حـد كبير من ناحية الأجزاء ، مادام ذلك الإنسان طبيعياً (٢)، فلا يوجـد فـرق بيـن العين اليمنى أو اليسرى ، ولا الأذن اليمنى أو اليسرى ، ولا الذراع الأيمن عـن الأيسر ، كما أن شعر الإنسان يتوزع على أجزاء الجسم في تماثل تـام ، منـذ طفولته حتى المشيب(٣).

والسؤال الآن : من الذي علم أو كلف هذه الجزئيات التشريحية حتى تقـوم بهذه الأدوار المتآلفة المتناسقة ، بل من الذي يأمر ذات الخلايا بالانبعاث الحثيث نحو غاياتها المتكاملة،المنسجمة في لغة حاسمة،وتوجيهات حازمة لا تحيد عنها.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦ .

(٢)الدكتور رجب بيومي سلمان ــ علم التشريح المقارن ص ١٧١ ط ثانية ١٩٩٥م .

(٣)ولو حدث عكس ذلك فمرجعه إلى عمليات عدوانية ، أو صور مرضية ، وهو لا يدخل في إطار الحـالات الطبيعية التي هي موضوع التشابه الطبيعي ، وهي المقصودة في عملية التشابه كموضوع له أو دليل يتم تطبيقـه عليه .

وفي تقديري : أن العلم لا يمكنه معرفة ذلك ، فضلاً عن أن يقوم فيه بدور الموجه أو المسيطر ، وإنما الذي أعتقده،أن الذي يقوم بذلك كله علام الغيوب،الله تعالى المحيط بكل شئ،وتكمن أبرز الكائنات كلها عنده ،قل بلي لَتَـأْتِيَنَّكُمْ عَـالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِـكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ "(١) .

كما أن قدرته تعالى هى التي تمهد ذلك التوجيه العلوي الرباني،الذي تتجلـي بعض مظاهره للعقول ، فتقع في حيرة وذهول ، ثم لا تجد مناصاً من الإعـلان بأن صاحب ذلك كله هو الله رب العالمين .

وهذا الدور التشريحي ذاته باعث على التكامل والانسجام ، إذ لا يمكـن أن يستغني أحد الجانبين عن الآخر ، أو أن يكون عوضاً أو بديلاً عنه ، بدليـل أن فاقد العين اليمنى لا تعوضه اليسرى ، ولا العكس ، كما أن فاقد أحد الذراعيـن لا يعوضه الأخر ، وذلك يدل على أن الخلق كله مرده إلى الله تعالى ، لا إلـى غيره ، قال تعالى :" هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ "(٢).

٦ ــ دور البلازما المشتركة : من بديع صنع الله تعـالي أن جعـل البلازمـا التناسلية في صورة اللاقحة ــ الخلية الأولي ــ مسؤولة عن الخلق الجديد ، بكل مركباته ، من بلازما تناسلية وأخرى جسمية ، ولم يجعل الله تعالـى البـلازما الجسمية هي التي ينشأ عنها البلازما التناسلية(٣) ، بمعنى أنه جل شأنه لم يجعل

---

(١) سورة سبأ الآية ٣ . (٢) سورة لقمان الآية ١١

(٣)وربما يستشهد على هذا الترتيب من قوله تعالى :" فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِـن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" سورة الطارق الآيات ٥ ــ ٧ فذكر الصلب أولا ليشعر بأن البلازمـا التناسلية في الإنسان لا تنعكس مع الأخرى الجسدية مكانها ، ولا تكون بديلا عنها .

البلازما الجسدية فرداً واحداً بالنسبة للإنسان ، وإن كانت ممكنة في بعض أنواع الحيوان — وقد جعل الله تعالى لهذه البلازما التناسلية صفة الخلود الإحيائي ، وذلك عن طريق انتقالها من سابق إلى لاحق ، من أبناء آدم إلى أن تقوم الساعة .

لكنه لم يجعل هذه البلازما التناسلية تعيش في فضاء أو فراغ ، وإنما جعل وسيلتها في الخلود والبقاء ، داخل أرحام الأمهات التي تكفل لها الاستمرار المناسب ، والحياة المأمونة[١]، ومن ثم فكل من البلازما التناسنية والأرحام يسعى للتكامل مع الآخر ، والانسجام أيضا .

بل أن لفظ الرحم ومشتقاته في القرآن الكريم،صار دالا على الصلة القوية ، والقرابة المتينة بجانب الرحمة المتآلفة بين نوعي البلازما — التانسلية والجسدية، فهل بعد هذا التكامل المنسجم ، يمكن أن يقال بأن الكون قائم على التطور الذي تحمله أفهام التطوريين؟ أم أنه قائم على خلق الله رب العالمين . لاشك أن المؤمن بالله سوف يعلن بوضوح أن ذلك كله قضية بدهية ،راجعة لرب البرية ، أما الملحدون فلا حاجة للحديث معهم .

وفي تقديري : أن دلالات علم الوراثة تشهد بأن للكون خالقاً عظيماً،هو الله رب العالمين ، لأن ما يقوم على العشوائية والعفوية أو التلقائية ، لا يكون منظماً محكماً على سبيل الاطراد[٢]، وإنما إن أصاب مرة فالخطأ الوارد بمقدار ما في الجملة من احتمالات ، بناء على النظرية الاحتمالية ،القائمة في نسبة النتائج إلى المقدمات .

---

(١) وهذا لا يكون إلا في القرار المكين ، لأنه الذي يقع فيه ذلك كله ، ويتم من خلاله ، طبقاً لقدرة الله تعالى واقتضاء حكمته .

(٢) وسنن الله في الكون المعمور بالكائنات المشاهدة ما تزال قائمة فيه ، وبكل ما تعنيه ، فالليل هو الليل والنهار هو النهار . بل والقمر والشمس والنجوم ، والأنهار والبحار ،كل ذلك على ما خلقه الله وقدره

كما أن القرآن الكريم تحدث عن علم الوراثة،وأشار إليه في نصوص كثيرة ومنذ أمد بعيد ، يرجع إلى زمن نزول القرآن الكريم ، ومعنى هذا أن القرآن الكريم المح إلى علم الوراثة،مع إرجاع كل شئ إلى الله تعالى ، لا إلى شئ من المخلوقات نفسها ــ وجاء ذلك في العديد من الآيات القرآنية ، لا على أن القرآن الكريم كتاب في علم الأحياء ، أو علم الوراثة ، أو ما شابه ذلك [١] ، وإنما على أن القرآن الكريم كلام الله الخالد الباقي إلى يوم الدين .

وفوق ذلك فإن القرآن الكريم هو الذي ساق العقول إلى بحث المشكلات الفلسفية العقلية ، بل والتجريبية والنفسية كلها ، من خلال الإشارات القرآنية التي التقطها المسلمون الأوائل ، ثم وظفوا إمكانياتهم لخدمتها ، فجاءت نتائجهم غاية في الروعة ، ومعبرة أصدق تعبير عن النموذج الأمثل للحضارة الإنسانية في أصولها وتطوراتها[٢] ، بجانب مجئ الدقة فيها ، والوفاء أيضا . ومن ثم عرفت هذه الأنماط المتقدمة باسم الحضارة الإسلامية .

بيد أن الأدلة التطورية لو تعامل معها أصحابها على أنها قضايا علمية تخطئ وتصيب،فربما كانت مقبولة مهما كان فيها من أوجه القصور والنقصان ، لكن المشكلة تفاقمت عندما اعتبروها قضايا إيمانية ، أو عقائد قلبية[٣] ، وبناء

---

(١)لا يعتقد مسلم مؤمن بالله رب العالمين ، وأن سيدنا محمد ا خاتم الأنبياء والمرسلين أن القرآن الكريم كتاب نظريات أو قوانين علمية ، أو رياضية ، أو غيرها ، وإنما تعتقد أنه كتاب هداية للمؤمنين وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، فإذا جاءت فيه إشارات وأمكن استخدامها على ناحية من النواحي ، أو في البحث أو الكشف عن علم من العلوم فليس معنى ذلك أنه تحول من كتاب هداية إلى غيره ، وإنما معناه أن الإشارات التي أمكن الوقوف عليها تمثل مصابيح للسائرين في هذه العلوم .

(٢) وقد تعرضت لذكر بعض الجوانب واشارات القرآن الكريم ــ راجع في ذلك كتابنا : المدخل للدراسة الحكمة الإسلامية .

(٣) بدليل أنهم جعلوا الطبيعة هي الخالق ، الفاعل واعتبروا أن الطبيعة هي المعبود العقلي ، ومحل الاعتقاد القلبي فحق عليهم الخسران .

عليه فقد رأى أهل الإسلام أن واجبهم الشرعي يحتم عليهم إدراج أنفسهم في خطط بحثية طويلة الأمد ، تكون نتائجها واضحة الأهداف ، محددة المعالم ، وتحقق للفرد والمجتمع الذي يعيش فيه أكبر قدر من الطمأنينة والسعادة أيضا .

ومن ثم سأعرض للمبادئ والأفكار التى قام عليها التطور الإحيائي العضوي وكذلك القواعد والأسس التى تنهض لذات الغاية ، وفي نفس الوقت سأبذل جهدي في المناقشة ، وذلك ما سوف أعرض له فيما يلي إن شاء الله تعالى من خلال الباب الثالث .



أهم الأفكار التطورية ومناقشتها

الفصل الأول : قدم المادة والتولد الذاتي .

الفصل الثاني : تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي .

الفصل الثالث : بقاء الأصلح والوراثة .

الفصل الرابع : المطابقة والتباين أو التحول .

((مدخـــــل))

سلف الحديث عن أنواع التطور من حيـــث المنطـــوق والمفـــهوم ، كمـــا تعرضت لذكر نبذة عن تاريخه ، وأيضا ألمحت إلى موضوعاته ومراحله ، وفي نفس الوقت تعرضت للحديث عن الدوافع التي قادت إليه في عصـــــر النهضـــة الحديثة،وعلاقة هذا التطور الإحيائي العضوي بالحركات والتوجهات الإسـرائيلية وكذلك علاقته بالاتجاهات العلمانية واللادينية الأخرى ومنها الماركسية .

من ثم فقد بقي النظر إلى المبادئ والأفكار التي قام عليها التطور الإحيـــائي العضوي ، وذلك يحتاج أمرين :

الأول : عرض هذه المبادئ كما هي عند أصحابها ، والمدافعين عنها .

الثاني : مناقشة هذه المبادئ من الجوانب الممكنة[١]، ومن ثم فلابد مـــن بيـــان خطة العمل ، أو المنهج الذي قررت السير فيه ، أثناء عـــرض هـــذه الأفكـــار ومناقشتها وهو يقوم على ما يلي :

١ ـــ التحرر من سيطرة العواطف ، والثوابت الدينية عند العرض .

ذلك أن الماديين لهم وجود قديم في التاريخ الإنساني العام ، باعتبار أنـــهم لا يؤمنون إلا بالمادة وحدها ، وأن ذلك قد ظهر منهم قبل الأزمنة التاريخية بوقـــت غير محدد ، كما أن منكري الغيبيات لا ينقطعون عن إعـــلان الكفـــران بـــها ، ومهما توالت عليهم رسالات السماء من الله تعالى لهدايتهم فإنهم لا يهتدون ، بـلى عليها يتكبرون ، وعلى ربهم جل علاه يستكبرون ، وله ينكرون .

وفي ذات الوقت فإنهم للمادة العمياء الخرساء الصماء يتقربون ، ولودهـــا ينشدون ، كما أنهم للطبيعة العمياء الهامدة التي لا علم لها،ولا قدرة فيها يعبدون فهم بهذه الاعتقادات الخاسرة ، والأفهام المعكوسة ، أثبتوا أنهم لا يفقهون ، مع

---

(١) تلك طبيعة المنهج العلمي ، إذ لا قيمة للعرض وحده ، وإنما لابد من العرض والمناقشة أيضاً ، لأنها الـــتي تصوب ما في الموضوع ، كما توضح الجوانب التي قد يقع فيها شئ من الخفاء .

أنهم لرجاحة العقل يدعون ، قال تعالى " استحود عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون "(١)

٢ — طبيعة الأدلة التي يعتنقها التطوريون:

لاشك أن الاتجاهات التطورية قد قامت في الماضي على نوعية الأدلة . سواء أكان ذلك من الناحية النظرية،أم من الناحية التاريخية الطبيعية ،ولكني في هذا الكتاب سأحاول تناول شكل الأدلة التي يزعمون إقامة بناءاتهم الفكرية عليها ثم طبيعة هذه الأدلة ، وعرضها على الناحية التي يذهب إليها أصحابها ، ويتفقون حولها ، أو التي يقع لهم توارد عليها ، لأن بيان المنهج المستخدم في العرض والنقد ، هو أفضل طريقة لمعالجة القضايا المطروحة (٢).

٣ — مناقشة الأفكار طبقا للناحية التي جاءت عليها :

ذلك أن مناقشة الأفكار من الناحية التي جاءت عليها،هو أقرب الطرق لبلوغ الغاية الصحيحة ، بل هو ذاته المنهج القائم على تحرير محل النزاع ، بمعنى أنه متى جاءت شبهاتهم من ناحية المنتج العقلي(٣)فقد وجبت مناقشته من ذات الناحية القائمة على المنتج العقلي أيضا .

وإذا جاءت شبهاتهم على ناحية الجدل النظري ، واستخدام مفردات لغوية تحتمل أكثر من معني ، وتقبل ألوان التأويل المختلفة ، فإن الضرورة العلمية

---

(١) سورة المجادلة الآية ١٩

(٢) الدكتور على سامي النشار — مناهج البحث عند مفكرى المسلمين ص ٥٩ وما بعدها لأن عرض القضايا كما هي عند أصحابها أولا يعطي انطباعاً واضحاً بالتزام الموضوعية ، كما يمهد للمناقشة على النطاق الأكثر جودة ، ومن ثم فالمناهج متعددة ، منها المنهج الوصفي التحليلي ، ثم التاريخي ، والتجريبي ، وغير ذلك من المناهج التي عني بالحديث عنها أهل الاختصاص — راجع تفاصيل ذلك في مناهج البحث الخلقي عند مفكري المسلمين للدكتور/ احمد عبد الحميد الشاعر — رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين بالقاهرة

(٣) هناك فرق بين مجئ الشبهة على الناحية العقلية . أو على الناحية التجريبية ، فالأولي تمثل العقل الخالص أما الثالثة فتمثل انضمام شئ آخر إلى جانب العقل وهو التجربة

تستلزم قيام المناقشة معهم على ذات الناحية ، وبنفس المنهج ، مع تحرير محـل النزاع أولاً ، ثم الاتفاق على الألفاظ المستعملة من خلال المعاني المحددة ثانيـاً، كالشأن بين كل من المتناظرين في العلوم المختلفة[١]، الذين يقوم جدلـهم علـى طرائق صحيحة من ناحية المنهج .

ومتى عرضوا قضاياهم أو مبادئهم من خلال توظيف المنهج التجريبـي ، فلابد من استعمال ذات المنهج أثناء المناقشة ، وبيان ما إذا كانت متفقين معـه أم متخالفين ، وما إذا كانت هذه النتائج قد وقعت من أصحاب المنـهج التجريبـي أنفسهم موضع القبول والقطع ، أم أنها كانت مجرد وجهات نظر ، لم تسلم لـهم على ناحية القانون العلمي[٢].

في نفس الوقت فإذا ما جاءت قضاياهم أو شبهاتهم معتمدة على الحفريـات أو الآثار ، والتراكيب الجيولوجية ، والظواهر الفيزيائية أو ما شابه ذلك ، فـإن الضرورة العلمية تستلزم أن تكون المناقشة معهم قائمة على نفس الطريق ، ومن ذات الاتجاه ، لأن ذلك أقرب طرائق البحث العلمي للقبول ، وأيسر في المتابعـة كما يعني بالأصول الدقيقة المتفق عليها[٣].

أما إذا انتحوا بقضاياهم ناحية أخرى ، أو جاؤا بها عن طريـق الهندسـة الوراثية ، أو علم الآليات أو السلالات البشرية ، أو علم الإحياء البيولوجـي، أو المنهج المشترك بين الاتجاهات النظرية والتجريبية[٤]فإن الأمر في مناقشتهم لـن يخرج عن الطريق الذي رسموه، وإلا كنا كمن يضرب في فلاه، باحثاً عن عين

(١) الدكتور الشرباصي الحسنين — خلاصة في أدب البحث والمناظرة ص ٧ ط الحلبي ١٩٦٤م .

(٢) شأن القانون العلمي قابلية نتائجه المستمرة للتطبيق العملي ، وإعادة النظر فيه مع التأكيد المستمر علـى بقاء نتائجه.

(٣)الدكتور — فؤاد زكريا — التفكير العلمي ص ١٩ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٤م .

(٤)لمعرفة هذه الأنواع راجع هنري جوسان — علم الإحياء والبيولوجيـا الحيوانيـة ص ٧٣ ، ٧٤ ترجمـة الدكتورة وفاء رجب .

ماء زلال لا وجود لها ، قال تعالى :" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ "(١)

٤ — البحث عن الحقيقة :

نحن المسلمين نبحث عن الحقيقة بكل ما نملك في كافة صورها ، وأشكالها لقوله صلى الله عليه وسلم ، "الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها ، لا يبالي من أين جاءت"(٢)وبناء عليه فما من قضية أو مسألة يتعرض لها المسلم — مهما كان مصدرها — إلا ويعمل جاهداً على فحصها من حيث هي ، دون أن يهتم بأصحابها ، وبالتالي فلا يغلب عليه التعصب لها أو عليها ، لأن التعصب ضد الرأي يفقد صاحبه الحيدة ، كما يسلبه الوصف بأنه حكم نزيه ، وقد ألتزم ذلك أهل الإسلام الأوائل وإلى يومنا هذا .

يقول الإمام الشهرستاني الأشعري أثناء حديثه عن الفرق والملل والنحل كلها ، وشرطي على نفسي أن أورد كل مذهب بما وجدته في كتبهم من غير تعصب لهم ، أو كسر عليهم (٣)، وقد استعمل ذلك في دراسة الملل والنحل ، ولا مانع من استخدامه هنا ، لأن عرض الرأي — وإن كان مخالفاً لما نميل إليه — يساعد على كشف عوراته ، والإبانة عن إيجابياته وسلبياته ، ثم الموازنة بين كل منها على الناحية الصحيحة .

٥ — بيان الموقف الإسلامي :

لما كانت الأفكار والآراء البشرية لا تقع لها العصمة ، فإن إمكانية وقوعها في الخطأ أو الزلل تكون قائمة على سبيل التفاوت النسبي أو المطلق ، وبالتالي

---

(١) سورة النور الآية ٣٩

(٢)الشيخ محمد منصور رضوان — من أنوار السنة ص ١٣٧ ط صبح بالقاهرة .

(٣) الامام عبد الكريم الشهرستاني — الملل والنحل ج ١ ص ١٩ تحقيق الأستاذ عبد العزيز الوكيل

فلابد من الحكم عليها بالقبول من عدمه ، والفيصل في إصدار ذات الأحكام ليس هو العقل وحده ، وإنما هو الشرع الإلهي ، وحيث لا يوجد شرع معصـوم ، أو دين صحيح إلا دين الإسلام وهو الدين الحنيف ، فقد وجب أن يكـون الموقـف الإسلامي هو المعول عليه ، عند إصدار شئ من الأحكام في هذه المسألة .

وغايتي من ذلك أن يعرف المثقف المسلم وغيره ، أن هذه القضايا وأمثالـها فيها ما هو متعلق بالحرام على الناحية الشرعية ، ومن ثم فهو مرفوض عندنـا ، لا لكونه قائماً في مصادر غير إسلامية ، وإنما لأن الأحكام الشرعية انتهت إلـى القول بتحريمه ، ومنها ما هو قائم في دائرة الإباحة أو الكراهية ، أو الندب طبقاً لما هو معروف وثابت في المؤلفات الفقهية عندنا نحن المسلمين .

- **مجمل المبادئ والأفكار التطورية :**

قام التطور حديثاً عند القائلين به ـ وبخاصة التطور الإحيائي البيولوجـي ـ على جملة من المبادئ والأفكار ، كل ساهم فيها بمبدأ أو فكرة ، وهي تتمثل فيما يلي :

١ ـ قدم المادة وأزليتها(١) .

٢ ـ التولد الذاتي أو التلقائي (٢)

٣ ـ تنازع البقـاء (٣)

---

(١) إن هذا المبدأ يشترك فيه الماديون جميعاً ، يستوي في ذلـك الوضعيـون ، والتطوريـون والعلمـانيون ، والماركسيون ، بل وكل الطوائف والفرق المادية أو الإلحادية على وجه العموم .

(٢) وهذا المبدأ مما يشترك فيه كل من الماديين والتطوريين حيث يقوم على اشتراك جميع الأحياء في أصل حيوي واحد ، ومن ثم فهو قاسم مشترك بين منكرى قدرة الخالق في خلقه ، كما أنه يقوم على فكرة أو نظرية التكـاثر في الكائنات الحية ، كما أنه تابع لنظرية الأصل الحيوي للأحياء وينتج عنه نظرية تعاقب الأجيال .

(٣) قال به ارازموس داروين ، ولامارك ، كما قال به داورن وهو عنصر مشترك بين أصحاب التطور المـادي التاريخي والإحيائي البيولوجي أيضاً .

٤ ــ الانتخاب الطبيعي [١] الاصطفاء النوعي [٢]

٥ ــ بقاء الأصــــلح [٣]

٦ ــ الوراثـــــة [٤].

٧ ــ المطابقــــة [٥]

٨ ــ التحول والتباين [٦].

وقد حدث اندماج لبعض هذه المبادئ في بعض آخر ، أو تولد من مبدعيــن ثالث ، ومن المؤكد أنها جميعاً لم تكن من نتاج عقلية واحدة ، ومن ثم فســـــوف أعرض لها في شئ من التفصيل،على طريق العرض والمناقشة حسب توفيق الله تعالى ، من خلال وضعها في مجموعات أو مبادئ وقواعد ، تجمع فيما بينـــــها جملة من الأفكار أو المبادئ ، وسيكون ذلك على النحو التالي:

---

(١) قال به كل من جوليان هكسلي ، ولامارك وتوماس مالتوس بجانب داروين وألفرد راسل والاس .

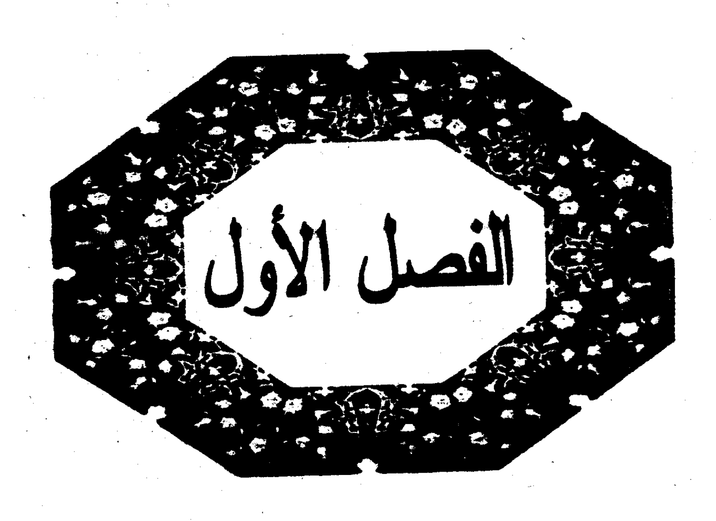
(٢)هو الانتخاب الطبيعي بينهما تقارب شديد ، لكن الانتخاب يكون في الأنواع أما الاصطفاء فإنما يكــون في الأفراد .

(٣) هذا المبدأ مرتبط بالتنازع من أجل البقاء ، وكل منهما يكمل الآخر .

(٤) قال به أرازموس داروين في توريث الصفات المكتسبة ، وقال به جوليان هكسلي في ترتيب الســــلالات الطبيعية ، ولأمارك وداورين بجانب والاس .

(٥) هذا المبدأ يعتبر من نانج البحث في التاريخ الطبيعي ، ولكن ليس أهم من غيره بالنسبة للمبادئ الأخرى .

(٦) وهذا المبدأ مما ألمح إليه توماس روبرت مالتوس ، وقد تمت عليه تعديلات عديدة ، وهو يقــــوم علـــى أن أفراد النوع الواحد يقع لها التباين لأسباب متعددة منها أ ــ تزاوج أفراد ذات طرز جينية مختلفة ب ــ كثرة الخصائص الوراثية للنوع ج ــ التقاء الجينات مع بعضها وتأثيرها المتبادل ، وصور الشــــذوذ المختلفــة مــن الصبغيات بالنقص أو الزيادة أو التضاعف د ــ زيادة فرص التباين الناتج عن عبور السلالات أثناء الانقســـام الميوزي هــ ــ تأثير العوامل البيئية المختلفة في ظهور أثر الجينات و ــ حدوث الطفــــرات الجينيــة وظــــهور صفات جديدة . راجع الإحياء للثانوية العامة ص ٢٨٨ عام ١٩٩٨م/١٩٩٩م .



قدم المادة والتولد الذاتي

ظهرت فكرة القول بقدم المادة وأزليتها منذ آمـاد بعيـدة ، وكـان الذيـن يتحملون عبء الدفاع عنها،من أصحاب العقول التي لم تعمل بكامل طاقتـها ، أو التي ارتضعت أفكار الآخرين ثم أفرزتها ، من غير أن تبذل جهداً فـي فهمـها بجانب هضمها أو الوقوف على حقيقتها ، كما أن القول بأزلية المادة لزمه اعتقاد إيجادها لنفسها وفيه مناقضة للضرورة العقلية ، وإنكار لطبيعة الحقائق البدهية .

أولا : قدم المادة وأزليتها [١]:

المؤسف له أن أصحاب القول بالتطور الإحيائي ـ العضـوي ـ يـأخذون القول بقدم المادة وأزليتها مرتكزاً أساسياً لهم، حتى يقفزوا منه إلى القول بـالتولد التلقائي ، الذي يمهد للتطور الإحيائي ، مع أن القول بقدم المادة وأزليتها فكـرة فلسفية غير مقبولة ، أما استعانة هؤلاء الإحيائيين بها ، فما ذلك إلا مـن بـاب استخدام الوسائل الغير مشروعة في الوصول للغايات ، ومن ثم يلـزم عـرض الفكرة عند القائلين بها ، ثم مناقشتها .

أ ـ عرض الفكـرة :

ذهب إلى القول بقدم المادة جمع من الفلاسفة،الذين قالوا بقدم العالم وأزليتـه بناء على أن المادة التي نشأ منها العالم،أو تكون فيها قديمة[٢] ، ولما كانت المادة قديمة ، فإنها تكون قد أوجدت نفسها،ويستحيل أن تكون قد وجدت من العدم ، أو تنتهي إلى العدم ، بدعوى أن العقل لا يمكنه تصور وجود مادة ، ثم تتلاشى إلـى درجة العدم .

بل كيف يتصورها أو يحكم بوجـودها في زمن من الأزمـان ، ثم يعـتقد

---

(١) هذه الفكرة الفاسدة يتفق عليها كل الملاحدة في القديم والحديث ، سواء منهم القائلون بالتطور الطبيعي الكـوني ، أو القائلون بالتطور الطبيعي في الكائنات الحية ، كالداروينية ، وأصحاب التطور التاريخي المادي كالماركسـية والعلمانيـة ، والحسيون والدهريون والطبيعيون وأهل الخلاعة ، ولذا فهذه الفكرة قاسم مشترك بين هؤلاء جميعاً .

(٢) سيوكين وياخوت ـ أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٨ ترجمة الأستاذ / محمد الجدي ١٩٦٧م.

إمكانية تحولها من الوجود المادي،حتى تصير إلى العدم الخالص،لأن ما لا يوجد في العدم ، أو من العدم ، لا يمكن أبداً أن ينتهي إلى العدم[1]والمادة موجودة في الواقع ، وبالتالي فلن تنتهي إلى العدم أبداً ، وبناء عليه فإنهم قد اختاروا القول بقدم المادة ، كما ألزموا أنفسهم القول بأزليتها وأبديتها وذلك لما يلي:

١ ـ قرر الماديون ثم قرروا وجود تحولات ذاتية للمادة،تجري في داخلها ،ومن داخلها أيضاً ، وأنها لا تقوم في بدايات عادية ، ولا نهايات متوقعة تصل بها إلى حد الوقوع في العدم ، ومن ثم فليس للكون بداية ، ولا نهاية ولا حدود ، والعالم ابتدأ وسيستمر ، ليس له بداية ، ولن تكون له نهاية [2].

وأنه أوجد نفسه ، ومستمر في إحداث تطورات ذاتية ، من البدائية إلى استمرار الارتقاء الدائم ، ولا شئ غير المادة يمكن أن يقوم بذلك ،كما لا يمكن الاعتقاد في وجود أية قوة أو وجودات أخري[3].

٢ ـ قرر الماديون استحالة وجود موجودات غير مادية ،من الناحية المعرفية ، فضلاً عن أن يقع اعتقاد في وجودها من الناحية الإيمانية ، لأنه إذا لم يوجد في الكون سوى المادة وتحولاتها ، فإنه لا يمكن الاعتقاد بوجود سوى عالم مادي واحد ، وأن تفسير وجود الظواهر والأشياء المختلفة في العالم الذي يحيط بنا[4]، يجب ارجاعه إلى شئ واحد فقط،هو المادة وخواصها [5]وبالذات ما في طبيعتها

---

(١) العلامة الشيخ القاسمي ـ دلائل التوحيد ص ١٧ ، وقدم رحمه الله العديد من الأدلة على إبطال هذه الفكرة وكانت أدلته تقوم على العقل ، والنقل ، كما قدم العديد من الأدلة على وجود الله تعالى .

(٢) سبركين وياخوت ـ أسس المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية ص ٣٩ ترجمة الأستاذ محمد الجندي ١٩٦٧م .

(٣) روبرت توماسكي ـ قياسات الزمن المتطورة ص ١٤٧ ترجمة هدى العبد الله ط الكويت ١٩٧١م.

(٤) ومعنى هذا أنه لا مكان للعالم الغائب في اهتماماتهم ، إنهم قد محوه من ذاكرتهم ، ولم يعد له أدنى نصيب من الوجود عندهم،وبالتالي صار أمرهم من هذه الناحية كالطبيعيين والدهريين تماماً بتمام لا يختلف فريق عن الآخر

(٥) ف ـ كيلي ، كوفال زون ـ المادية التاريخية ص ٣٠٥ ترجمة احمد داود ط دار الجماهير بدمشق ١٩٧٠

من القدم والأزلية التي اكتسبتهما المادة خلال رحلة كفاحها المتواصل ، وشاهدته فصول تاريخها الطويل[١].

٣ — يعتقد الماديون وجود صلات عظيمة ، بين الطبيعة والظواهر الطبيعية وفي نفس الوقت ، فإن العلم يطرد — في تطوره الطبيعي — فكرة الإيمان بوجود الإله من الطبيعة ذاتها ، والعلم يتفق مع المادية في بحثه عن الحقيقة داخل الحياة ذاتها ، وفي الطبيعة أيضاً ، كما أنه يفسر الظواهر الطبيعية داخل المجتمع، معتمدا على القوانين الوضعية[٢]، دون التفات لشيء آخر .

٤ — أن القوم بقدم المادة وأزليتها — يتفق تماماً مع الاتجاهات المادية ، سواء أكانت معملية كالوضعية[٣]، أم ملاحظات على التاريخ الطبيعي كالداروينية ، أم نظرية خالصة كالماركسية والعلمانية ، الذين يقررون أنه لا ينشأ في الطبيعة شئ من لا شئ ، ولا يختفي أبداً شئ بلا أثر ، وبالتالي فإن الطبيعة المادية قد وجدت دائماً ، وستظل أبداً[٤] هكذا يتصورون أما لماذا ؟

فلأننا لو سلمنا بأنه في وقت من الأوقات ، لم يكن شئ موجود في العالم أصلاً ، فمعناه أن العالم الذي نعيش فيه لم يكن له وجود ، كما لم تكن هناك

---

(١) وهذه الأفكار يحاول الماركسيون والعلمانيون التأكيد عليها ، كما يسعى التطوريون لإبراز دورها في الحياة ، بحيث يمكن الاستغناء بها عن الخالق العظيم جل علاه ، وما هي إلا أحلام الشياطين ، وسلوكيات البله وأنصاف والمجانين .

(٢) ن . كيلي — كوفال زون — المادية التاريخية ص ٥٠٥ ويلاحظ أن يعتمد على الوضعية في تقييمه للأمور وهذا الاعتماد يسقط الاتجاه العلمي التجريبي ، متى كان المراد الوضعية التاريخية ، أو الوضعية الاجتماعية .

(٣) الوضعية أنواع منها الوضعية الطبيعية ومن أبرز رجالها كوندرسية ، ويطلقون عليها اسم الوضعية التحليلية التجريبية ، ومنها الوضعية الاجتماعية ، ومن أبرز رجالها أوجست كونت ، ودون كايم ، والوضعية المنطقية ، ومن أبرز رجالها شليك ، رتشباخ وغيرهم ، لمعالجة هذه الأفكار تحت عنوان الوضعية بين المعقول واللامعقول ط ٢٠٠٣م .

(٤) كارل ماركس — بؤس الفلسفة ص ١٩٧ ويلاحظ أن الماركسية لا تبنى قضايا وإنما تثير مشكلات ولا تبحث لها عن حلول

مادة موجودة أيضاً ، والسؤال الآن من أين لها أن تنشأ المادة إذن ؟ ولكن مادامت المادة موجودة ، ولها سبق كامل في الوجود ، فمعناه أنها لم تنشأ في أي وقت من الأوقات ، إنها فوق الزمان وأعلى منه ، وقبله وستظل بعده ، إنها أبدية خالدة ، ولا يمكن أن تكون مخلوقة أبداً ، إذ يستحيل أن يوجد مخلوق ما لايمكن إفناؤه ، وبناء عليه فالمادة لم تنشأ من العدم ، كما لم توجد في زمان ، وستظل باقية خالدة[١] .

لكن هذا القول منهم بأزلية المادة وأبديتها ، ينتهي حتما إلى إنكار وجود الخالق العظيم رب العالمين جل علاه[٢]، زاعمين أن فكرة وجود إله غير مادي فقدت كل أهميتها ، كما فقدت محتواها أيضاً ، بل لم يعد لها في العقول العلمية أدنى وجود — تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً — يستحق أي لون من ألوان المناقشة ، فهذه الأفكار مجرد فرض لاهوتي لا يقدم نفعاً[٣] .

وحتى يظهروا حبهم الشديد للمادة ، وكفرهم بالله رب العالمين ، قالوا يجب القول بأن فكرة وجود إله غير مادي ، وفكرة الديانة الروحية ، ما هما إلا ظاهرتان إنسانيتان فقط ، لأن العنصر الإلهي هو من إبداع الإنسان نفسه ، وليس الإنسان هو الذي من إبداع الله[٤]، وهذا كفر صريح بالله رب العالمين ، ولا يحتمل أي شئ من التأويل ، بجانب أنه خروج بالعقل عن دائرة التفكير السليم ، إلى دائرة التفكير العبثي ، والسباحة بين موجات من الشك والقلق والاضطراب .

---

(١) سوكين وياخوت أسس المادية الديالكتيكية ، والمادية التاريخية ص ٤١ ترجمة الأستاذ محمد الجندي

(٢) الدكتور سيد أحمد رمضان المسير — إلزام القرآن للماديين والملحدين ص ١٣ ط أولي دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٣١٩هـ ١٩٧٩م .

(٣) الدكتور / صبحي محمد الذكر — الفلسفة الماركسية والدين ص ٧٥ ط ثانية ١٩٦٧م . .

(٤) جورج بولتيز وآخرون — أصول الفلسفة الماركسية ص ٢٠٦ ترجمة شعبان بركات ط دار الفكر بيروت

بيد أن القول بقدم المادة وأزليتها ، ليس وليد اليوم الذي نعيشه أو العصر الحديث ، أو من بنات أفكار عصر النهضة الأوربية وحدها ، وإنما هي فكرة إلحادية لها جذور في أعراف الماديين منذ المراحل الأولي ، سواء أكان ذلك في بلاد الإغريق عند ديمقريطس وانكسمانس ، وانكساغوراس ، وغيرهم من نفس الجيل ، حيث لم يقف أمر واحد منهم بها عند حد القبول(١) .

وكانت أيضاً موجودة في بلاد الصين والهنود حيث ظهرت ملامحها لدى تشانج ، وتشوا ، بجانب تي . سي وغيرهم من مفكرى الصين الأقدمين(٢)، وهي جميعاً لا تخرج عن كونها مجرد افتراضات وهمية ، وتخرصات لا شئ فيها من اليقين أيا كان نوعه ، بدليل أن كل هؤلاء كان الواحد منهم إذا عثر على فكرة ، أو طرأت على ذهنه ، سارع إلى تدوينها والإعلان عنها ، فإذا جاء الثاني سارع إلى هدمها(٣) ، وأزال ما اعتبره سابقه أصلاً فيها ، أو رأساً لها.

وتاريخ الفكر الفلسفي يعترف بهذه المسألة ولا يجحدها ، مما يؤكد أنها كانت أحد المعبرات الأساسية عن التيار المادي في الفكر الإغريقي دون منازعة وأن هذه الملامح ظهرت في كل من أثينا وإسبرطة ، وغيرهما من الحواضر اليونانية آنذاك ، بل والفكر المادي المنكر للغيب أينما وجدت له ملامح .

<u>ب ـ مناقشتها</u> :

ما من شك في أن العبرة بالخواتيم ، أو صحة أنتزاع النتائج السليمة من المقدمات المقبولة ، وهذا ما لم يتحقق للماديين ومن ثم فأوجه بطلان هذه الفكرة فيما يلي :

---

(١) الدكتور محمد غلاب ـ الفلسفة الإغريقية ص ١٤٥ .

(٢) الدكتور / فوزي محمود كريم ـ الفلسفة الصينية ص ١٥٩ ط أولي ١٩٦٧م .

(٣) وهذا في حد ذاته دليل على حدوث المادة ، من خلال حدوث الأفكار في رؤس أصحابها ، ومن ينكر حدوث الأفكار ، أو ينكر حركة التغير في المادة من خلال الواقع المشاهد ، إنما ينكر وجود نفسه أيضاً .

١ ـ الجانب المادي نفسه :

إن القول بقدم المادة وأزليتها ، واعتبارها في غير حاجة إلى إله خالق قادر مدبر عالم حكيم ،أو واعتبار المادة ذاتها هي الخالق ،فإن هذا أمر أو فكر هزيل تناقضه الحقيقة ، ويدفعه الواقع ، الذي يشهد بأن العالم يقع فيه التغير، باعتباره من أبرز دلائل الحدوث على العالم كلياته وجزئياته ، وبالتالي فالمادة حادثة ، وليست قديمة ، وأنها مخلوقة وليست خالقة ، والخالق للجميع ، العالم الحكيم،هو الله رب العالمين ، قال تعالى:" هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ"(١).

والمعنى هذا الذي تشاهدونه من أرض وسماء ، وأنهار وبحار ، ونبات وجماد ، ويمثل عالم الشهادة بكل جزئياته وكلياته ،إنما هو من خلق الله القادر ، القاهر وحده ، الذي أتقن كل شئ ، فجمع بين المتناقضات ، وأخرج للوجود المعدمات ، وميز بين المتشابهات والمتقابلات ، فأروني ماذا خلق الذين تعبدون من دونه ، والحال أن الظالمين في ضلال واضح ، وخسران كامل في الدنيا ، وعذاب أليم في الآخرة .

٢ ـ قيامها على إنكار الغيب :

إن أصحاب الإلحاد يجمعهم وصف واحد ، ويقوم أمرهم على اتجاه ذي خصائص متقاربة ، تتلاقي في الاعتقاد بالمحسوس وتأليهه ، وإنكار الغيب باعتبار أنه غير محسوس بذاته ، حتى وان كان مدركاً وجوده بآثاره .

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .قال الشيخ الصابوني : هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله ، فانظروا في السماوات والأرض والإنسان ، والنبات ، والحيوان ، وسائر ما خلق الله ، ثم تفكروا في آثار قدرته ، وبديع صنعه ، فأخبروني أى شئ خلقته آلهتكم التي عبدتموها من دون الله يستوي في ذلك من الأوثان والأصنام ، بل المشركون في خسران ظاهر ، وضلال واضح ما بعده ضلال ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا ينفع ولا يضر ، كما أن من ترك عبادة الإله الخالق العظيم المدبر يكون أحط شأنا من الحيوان ـ صفوة التفاسير ج ١٢ ص ٤٨٩

فالإغريق بحثوا عن أصل الكون من حيث المادة لا من حيث الخالق[١]، سواء أكانت المادة ترابا ، أم نارا ، وسواء أكانت هواء أم ماء ، أم كانت مجملى هذه العناصر ، ولم يحاولوا الاستدلال بها ، أو بعضها على وجود الله جل علاه إنهم بحثوا عن الله،ولم يستدلوا عليه فجاءت نتائجهم تحمل الخطأ من كل ناحية.

كما أن الطبيعيين هم الآخرون تحدثوا عن قدم المادة ، وأزليتها ، واعتبروا ذلك حقيقة قادتهم للإلحاد ، حيث سارعوا إلى إنكار وجود الله الخالق العظيم ، وقالوا إن هي إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما يهلكنا إلا الدهر ، وقالوا إن الدهر هو المحيي والمميت[٢]بل هو الطبيعة ذاتها ، ولا شئ غيرها ، وقد صور القرآن الكريم ذلك الصادر عنهم قال تعالى :" وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون"[٣].

قال الإمام الرازي : يريدون أن الموجد للحياة والموت ، تأثيرات الطبائع وحركات الأفلاك ، ولا حاجة إلى إثبات الخالق المختار ، فهذه الطائفة جمعوا

---

(١) ربما يقال أنهم لم يبحثوا عن الخالق لأن ذلك منهي عنه ، ففي الحديث الشريف :" تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا ، ولكن هذا المعنى لم يدر لهم على بال ، وإنما كان انشغالهم بأصل الكون على ناحية التأليه والاعتقاد ، لا المعرفة والاستدلال . ولذا فشلوا في كل الفروض التي تخيلوها ، وهذا في حد ذاته من الشواهد على عجزهم ، وعدم دقة أبحاثهم .

(٢)الشيخ / جمال الدين الأفغاني ـ الرد على الدهريين ص ٢٩ .

(٣) سورة الجاثية الآية ٢٤ ، والمعنى : قال المنكرون وجود الإله الخالق القادر العليم ، ويوم البعث أيضاً إنه لا حياة بعد هذه الحياة التي نعيشها ، يموت بعضنا ، ويحيا بعضنا ، ولا آخرة ، ولا بعث ، ولا نشور ، وقال ابن كثير هذا قول الدهريين من الكفار،ومن وافقهم من مشركي العرب ، في إنكار الخالق العظيم ، وإنكار المعاد ، ومرادهم ما ثم دار إلا هذه الدار ، يموت قوم ، ويعيش آخرون ، وليس هناك معاد ولا قيامة ، وهو أيضاً قول الفلاسفة الدهريين المنكرين للصانع ، المعتقدين أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شئ إلى ما كان عليه وما يهلكنا إلا مرور الأفلاك وتعاقب الأيام ـ العلامة الحافظ ابن كثير ـ تفسير القرآن العظيم المجلد الرابع ص ٣٧ .

بين إنكار الإله الخالق ، وإنكار البعث والقيامة[١]، وبالتالي إنتـــهت أفكــارهم ، وتساقطت أهواؤهم ، وبان كذبهم ،وضلال أفكارهم،بحكم العقل والواقع بعد حكم الشرع الإلهي ، لكني سأحاول مناقشة تلك الفرضية من النواحي الآتية :

٣ ـ ناحية الضرورة اللغوية :

أصحاب القول بقدم المادة وأزليتها ، يعتمدون على ظواهر اللغــة ، التــي تستخدم لفظ القدم في معنى مالا أول له ، أو معنى الغير مســـبوق بــالعدم [٢]. ونحن لا ننازع في أن لفظ القدم من ألفاظ اللغة العربية ، ولكنا نرفض حصـــر القدم في مفهوم واحد بعينه ، مما سولت لهم به أنفسهم ، أما لماذا ؟ فلأن أفندتهم لأن القدم أنواع :

الأول : الذاتي : وهو ما يخص الله تعالى الخالق العظيم ، رب العـــالمين جـل جلاله ، فقدمه لذاته ، لأن لفظ القدم هنا يراد به ما ليس مسبوقاً بالغير ، ويسـمى قدماً حقيقياً ، كما يسمي قدماً ذاتياً[٣]،باعتباره صفة من صفات ذاته جل عـــلاه ، وهو وحده القديم الذاتي ، الذي ليس في زمان ، ولا يحتاج إلى مكان ، ولا غـير ذلك مما هو من صفات المخلوقات [٤]، وهو من الصفات السلبية عند المتكلميــن أيضاً[٥] .

---

(١) الإمام الفخر الرازي ـ مفاتيح الغيب ج٢٧ ص ٢٧٥

(٢) وهذا تعبير عن فهم ضيق لمعنى القدم ، أو حصر لمفهومه في غير موضع مقبول ، لأن لفظ القدم له العديد من الاطلاقات التي جاءت بها اللغة ، كما له العديد من المفاهيم الواردة في معانيه .

(٣)العلامة السيد الشريف الجرجاني ـ حاشية الجرجاني على مطالع الأنظار ص ١٢٨

(٤)الدكتور سليمان سليمان خميس ـ محاضرات في العقيدة ص ٣٧ مطبعة عطايا .

(٥)هذا على أساس تقسيم الصفات إلى أربعة أقسام ، نفسية وهي الوجود ، وسلبية وهي القدم ، والبقـــاء ، والوحدانية ، والقيام بالنفس ، والمخالفة للحوادث ، ومعان وهي القدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع والبصر ، والكلام النفسي ، والتكوين والإدراك عند من أثبتهما ، ومعنوية وهي كونه قادراً ، وكونه مريـداً ، وكونه عالماً ، وكونه حياً ، وكونه سميعاً ، وكونه بصيراً ، وكونه متكلماً

الثاني : القدم الزماني : وهو ما يراد به عدم المسبوقية بالعدم[١]، وهو مخلوق ويخص الخلائق ، كما يقع في دائر ة الزمان الفلكي ، وفي حدود أقسامه من الماضي والحاضر والمستقبل ، وفيه يتم التناسب مع الحوادث المرتبطة بالتغيرات التي وجدت فيها[٢]، ويعرف بالزمان الفلكي أيضاً .

الثالث : القدم بالغير : ويسمي القدم الإضافي ، ويعرفه الجرجاني بأنه كون ما مضى من زمان وجود الشئ أكثر وأكثر ، ما مضى من وجود آخر بالنسبة إلى ما حدث[٣] . وهو ما يخص المخلوقات السابقة على الزمان الفلكي ، فهي قديمة لأن خالقها قديم ، وهو الله سبحانه وتعالي ، لكن ليس معنى ذلك أن قدمها من ذاتها ، أو أنه ذاتي لها ، وإنما معناه أنه قدم إضافي غير مفرغ من مفهوم فكرة الزمان المقدر في علم الله تعالى الأزلي .

على أن اللغة تساهم في دحض فكرتهم القائمة على القول بقدم المادة ، حيث تؤكد أن المادة تحدث لها تطورات متعددة ، وتغيرات مستمرة ، ومن ثم فهي ليست قديمة قدماً ذاتياً ، وإنما هي قديمة باعتبار الزمان فتكون حادثة[٤]، لأن أجزاء الزمان الحاوية لها حادثة وكل ما كان حادثاً من حيث المحتوى فهو حادث باعتبار الداخل فيه ، ومن ثم ينتهي الأمر إلى أن القديم الحقيقي الذاتي واحد وهو الله تعالي ، ولا يشاركه في ذلك القدم الإلهي أحد أبداً .

٤ ـ ناحية الضرورة العقدية :

وهذا الجانب يقوم على أنه لو كانت المادة قديمة ، لترتب على ذلك نفي تأثير الفاعل المختار فيها ،أما لماذا ؟ فلأن تأثير الفاعل المختار إنما يكون

---

(١)الشيخ الشريف الجرجاني ـ حاشية الجرجاني على المطالع ص ١٢٨ .

(٢)أ . ب سيزمان ـ فكرة الزمان وتطورها ص ٩٥ ترجمة مرسي خيري ـ بيروت ١٩٧٢م .

(٣)السيد الشريف الجرجاني ـ حاشية الجرجاني على المطالع ص ١٢٨ .

(٤)الدكتور / أحمد عبد الخالق ـ الإسلام والفكر المنحرف ص ١٣ .

مسبوقاً بالقصد والاختيار ، أو القصد إلى إيجاد الشئ مقارن لعدم الأثـــر ، لأن القصد إلى إيجاد الموجود محال، كما يكون تحصيلاً للحاصل،وهو محال أيضاً.

كما أن الشئ المعدوم الذي توجه القصد إلى تحصيل وجوده يكون حادثـاً ، لكونه حدث بعد العدم ، فتأثير الفاعل المختار يستلزم حدوث الأثر ، وقدم الأثـر ينافي حدوثه ، فقدم الأثر ينافي تأثير الفاعل المختار ، لأن منافي اللازم منـاف للملزوم[١]، فثبت أن المادة حادثة وليست قديمة ، والحادث يحتاج إلـى الصـانع الحكيم ضرورة ، لأنه الذي أخرجه من العدم إلى الوجود .

والمعلوم عندنا نحن المسلمين أن العقيدة الإيمانية هي أسمى ما يحافظ عليـه المؤمن ، صحيح الاعتقاد في الله رب العالمين ، الواحد المنزه عن كل صفـات النقص ، المتعالي على كافة ألوان الاحتياج . صاحب الجلال والجمـال والكمال والإكرام[٢]، فتبارك الله أحسن الخالقين[٣]، ولا يمكن أن تكون المـادة الجـامدة الصماء سوى مصنوعة حادثة ، من جملة المخلوقات لله رب العالمين .

ثم ان الضرورة العقدية تفرض على المؤمن بالله وملائكته ورسله الالـتزام بما تأتي به هذه النصوص الشرعية [٤]من إثبات وجود الله تعالى وتوحيده بجانب تنزيهه جل شأنه ، ووصفه تعالى بما وصف به ذاته الكريمة ، من غير زيـادة على ما جاءت به النصوص الإلهية ، أو نقصان منها ، أو تحريـف لـها ، أو تبديل فيها ، سواء أكان ذلك في النصوص التي تنقلها ، أم في الفكر الذي يقوم

---

(١) العلامة الشيخ أبو الثناء شمس الدين محمود الأصفهاني ـــ مطالع الأنظار على طوالع الأنوار للبيضاوي ص ١٢٩ .

(٢)الأستاذ الشيخ محمد جمال الدين القاسمي ـــ دلائل التوحيد ص ١٩

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

(٤) النقل المول عندنا نحن المسلمين هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، وهو النص الثابت الورود عن الله تعالى ، أما محاولات المفكر المسلم في تفهم النصوص الإسلامية ، فهو ما يعرف باســم الفكـر الإسلامي ، والفرق بينهما كبير جداً

على خدمتها ، أو الاتجاه الذي تسير فيه .

والعقيدة الإيمانية الصحيحة ، توجب على العقل وصف الله تعالى بكل صفات الكمال ، وأولاها بالتقدير أنه سبحانه الخالق الواحد المتعالي عن كافة المتشابهات ، فلا تقع في ذاته التجزئة ولا التركيب ، كما لا تقبل ذاته المقدسة الحلول به ، أو الاتحاد فيه ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير[1] وطبقاً لذلك الاعتقاد فإن القول بعدم المادة أو أزليتها قدماً مطلقاً أو حقيقياً ، يؤدي إلى اعتبارها خالقة ، بأي معنى من المعاني[2]، وهو الذي يرفضه صاحب الاعتقاد الصحيح ، والإيمان السليم ، والفطرة النقية الصحيحة ، والعقل الذي لم يلوث بالأفكار المنحرفة عن المنهج الإلهي. أما لماذا ؟

فلأن المادة في كل صورها وأشكالها قابلة للتجزئة والتركيب والإضافة الدائمة إليها،أو الإنقاص المستمر،أو الزيادة عليها،فهي إذن مفعول بها مخلوقة ، وليست فاعلة في غيرها ، ولا خالقة له ، لأن فاقد الشئ لا يعطيه ، كما أن القابل للكثرة والتركيب ، أو التجزئة والبساطة ، لا يكون إلهاً أبداً[3]، إنما يكون مخلوقاً ضعيفاً ، تجري عليه صفات المخلوقين من الابتداء والانتهاء ، والضعف والاحتياج ، كضرورة عقدية ، لاغني لمسلم أبداً عنها ،فضلاً عن أن يكون ذلك مفكراً له قدرات ابداعية ، أو نتاجات فكرية .

وفوق ذلك فإن القول بقدم المادة وأزليتها ، ربما أنتهي بصاحبه إلى تصور أنها كاملة في ذاتها لا يعتريها نقص ، وأنها ثابتة لا ينالها تغيير ، وأنها قوية لا يصيبها ضعف ، ومعنى ذلك أن دعاة الفكر المادي يخلعون على المادة ما يجب

---

(١) سورة الشورى الآية ١١ .

(٢)الأستاذ / محمد قطب ـ مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٧٩ .

(٣)راجع للسيد الشريف الجرجاني ـ شرح المواقف ـ الموقف الخامس ص ٢٣٧ .

لله تعالى من كمالات ، وهذا ليس بصحيح على أى وجه من الوجوه[١] ، وإنما نرفضه نحن المسلمين ، ولا يعتقد في صحته أحد من العلاء النابهين .

إن القول بقدم المادة وأزليتها يفضي إلى اعتبارها مسؤلة عن السلوكيات التى تطرأ عليها ، والتعديلات التي تتم في أجزائها ، مما تحكم بوقوعه المشاهدة وتؤكد عليه التجربة ، ومن ثم فلو كانت فاعلة أو قديمة ، لما أمكن القيام بهذه العمليات عليها[٢]،ومن ثم فقد ثبت أنها حادثة ، كما أنها ليست قديمة ولا أزلية ، ولا خالقة أيضاً .

إن المادة هي الحقل الخاص بالتجارب،التي يجريها العلم المعملي التجريبي ، وقد بلغ التحكم في المادة مبلغاً عظيما ، أفاد البشرية في مختلف المجالات ، حتى أصبح كل إنسان يستمتع بمنتجاتها ، وأجهزتها الحديثة ، رفاهية لم يحلم بها الإنسان من قبل ، وطبقاً لهذا فلو كانت المادة تتمتع بالوجود من ذاتها ، لاستعصت على التجربة والمعمل ، ولما استطاع أحد ـ كائناً من كان ـ أن يسيطر عليها[٣] أما وأنه قد أمكن السيطرة عليها ، وإخضاعها لتجارب الإنسان وأغراضه ، فإنها تكون حادثة مخلوقة لا خالقة أبداً ، ومن ثم سقطت أوهام الماديين ، كما سقطت الخيالات التي اعتبروها شبهاً أو أدلة .

كما أن المادة صماء من صفاتها أنها جامدة ، غير عاقلة ، ومتى اجتمعت هذه النعوت في شئ فإنه يفتقد الإدراك والحياة والعلم ، ومثله لن يصدر هو في شئ أبداً ، كما لن يصدر عنه شئ أبداً ، لأن صدور أية حركة فيه،معناها وجود حياة بداخله ، كيف وهو مادة جامدة ، بل لو صدر عنه شئ ـ جدلاً ـ سيكون

---

(١) الدكتور عبد المعطي محمد بيومي ، الدكتور احمد عبد الحميد الشاعر ـ الإسلام والتيارات المعاصرة ص ٩٧ الطبعة الثانية المكتب الحديث للطباعة والنشر

(٢)راجع كتابنا ـ حبو الوليد في علم التوحيد ص ١٧٧ الطبعة الخامسة ١٩٩٩م

(٣) الدكتور عبد المعطي محمد بيومي ، والدكتور أحمد عبد الحميد الشاعر لإسلام والتيارات المعاصرة ص ٩٧

الصادر من طبيعة الأصل الذي قام عليه، ومادام الأصل جامدا أصم ، لا يعقل ، فإن الذي سيصدر عنه لابد أن يكون مثله ، لأن الفرع لا يفترق عن أصله في الأسس المشتركة،والقواعد الأساسية فبان أن المادة حادثة مخلوقة ، وليست قديمة ولا خالقة .

٥ ــ ناحية الضرورة العقلية :

يعتمد القائلون بقدم المادة وأزليتها ، وعدم الاحتياج إلى الخالق العظيم جل علاه ، على أحكام ينسبونها للعقل ، ويظنون أنها في ذات الوقت عقلية . ونحن لا نمانع في أحكام العقل السليم متى كانت صحيحة ، ولكنا نستدل بأحكام العقل على أن المادة مخلوقة وحادثة ، وليست خالقة أو قديمة[١] ، وذلك بناء على حكم الضرورة العقلية أيضا ، أما كيف ذلك ؟ فالجواب من وجوه :

أ ــ لو أن المادة كانت قديمة أزلية ، لكانت هي التي خلقت نفسها ، ولو خلقت نفسها ، لكانت فاعلا ، باعتبار أنها الخالقة ــ لغيرها ، وفي نفس الوقت تكون مفعولا ــ باعتبار أنها مخلوقة ــ لغيرها [٢]، وفي هذا المفهوم يقع تقدم الشيء على نفسه ، وتأخره على ذات النفس في ذات الوقت ، وهو محال عقلا ، ولا يقول به إلا من فقدوا القدرة على التفكير العقلي الصحيح .

ب ــ لو كانت المادة قديمة قدما مطلقا ، وأنها خلقت نفسها ، لمنحت ذاتها أعلى الكمالات ، وأعظم الدرجات ، بل وجعلت تحتها كافة المخلوقات ، لكن الواقع المعاش يشهد بأن المادة يتم التعديل في كل جزئية من أجزائها ، ومازال التعديل فيها قائما ، كما أن ذلك التعديل لم يتوقف ولن يتوقف ، بل استطاع الإنسان تغيير أوضاع المادة ، كما أقدره الله تعالى على إحداث العديد من التغيرات في

---

(١) راجع كتابنا حبو الوليد في علم التوحيد أثناء الحديث عن الضرورة العقلية وصورها وأحكامها التي تجري فيها ، أو يمكن الحكم عليها من خلالها .

(٢)الدكتور سليمان دنيا ــ التفكير الفلسفي الإسلامي ص ١٩٥

اجزائها،ومن ثم تأكد العقل أن المادة حادثة متغيرة،وليست قديمة قدما أزليا أبدا

٦ – الأدلة الشرعية :

ربما يقال : أن الظواهر النقلية قد تحدثت عن وجود مواد أولية قبل خلق الكون الذي نعرفه ، كالماء الذي نشأت عنه العوالم الأرضية ، والدخان الذي صارت منه السماوات والمخلوقات العلوية ، وبالتالي فالمادة قديمة أزلية ، وليست حادثة أو مخلوقة .

والجواب : أن الظواهر النقلية تحتمل التأويل الذي يعرفه أهل الحقيقة ، وهو وجه من وجوه العلم واللغة ، بجانب العقيدة الإلهية ، مادام مجيئه على الناحية الشرعية ، كما أن المواد التي تحدثت عنها الظواهر النقلية هي الأخرى مخلوقة في موادها الأولية،وصورها المتحولة عنها إلى غيرها(١) ، ومن ثم فهي قديمة باعتبار إضافتها لله سبحانه وتعالى ، لكنها ليست قديمة باعتبارها فاعلة أو صانعة ، فضلا عن أن تكون خالقة .

أضف إلى ما سبق النظر في زعم الماديين بأن المادة هي الأصل الذي انبثقت منه الكائنات الحية ، وغير الحية بما في ذلك الإنسان ، وأن المادة هي الخالقة لها جميعا ، وأنها لم تخلق ، إنما كانت موجودة وستظل دائما موجودة(٢)، أمر يناقض البدهيات ، ويطعن عليها ، فلا يقول به صاحب عقل واع صحيح ، يعرف ما يقول ، أو يفكر فيه ، فضلا عن أن يدعي قدرته على تسور حواجز الغيب الماضي ، ومعرفة أسراره .

---

(١) منها قوله تعالى :" وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون " ، وقوله تعالى :" وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا " سورة الفرقان أية ٥٤ ، وقوله تعالى :" وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" سورة هود آية ٧ وقوله تعالى :" ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين" سورة فصلت آية ١١

(٢)الأستاذ محمد قطب – مذاهب فكرية معاصرة ص ٢٧٢

مما سلف اتضح أن الضرورة العقلية تحكم ببطلان قدم المادة وأزليتـها ، أو اعتبارها غير محتاجة إلى الله تعالى ،في إيجادها والمحافظة على تلك الوجـود ، ومن ثم فلا حسبان لما يقول به أصحاب التطور الإحيائي الذين بنـــوا آمالـــهم وأحلامهم على قدم المادة وأزليتها،والمعروف أنه متى سقط الدليل صار صاحبـه هو الذليل ، الذي فقد السند والخليل ، أما لماذا ؟.

فلأن القائلين بقدم المادة وأزليتها يؤكدون على وجود تحولات ذاتية تجـري بصفة مستمرة في المادة ذاتها[1] ، ولكن ما معنى أن المادة فيها تحولات ذاتيـة ؟ بل ما معنى هذه التحولات ، وما الغاية منها إن وقعت ؟ وهل تجري فيها مسألة القصدية أم العشوائية ؟

إنها أسئلة كثيرة ، ولا تجد إجابة كافية ، أو مقبولة عندهم ، تجعل المـــرء يقنع عقليا بأنهم أصحاب فكر ، أو أنهم نالوا حظا من القبول ، أما لماذا ؟ فـلأن كل إجابة تصدر عنهم ، إنما تهدمها غيرها ، لكن الملاحظ أن المادة موضـــوع لتحولات عديدة تتم عليها في جزئياتها على سبيل القصد والغاية،لتحقيق الهدف ، وهذه التحولات ليست من ذاتها ، وإنما هي من آمر بها ، قائم عليها ، ولولاه ما وقعت عليها تحولات أبدا،فالأرض الهامدة الجامدة،متى أنزل اللـــه عليها المطـر بأمره جل شأنه ، حدثت على هذه الأرض تحولات عديدة من الاهتزاز والنمـو ، ودبت فيها الحياة ، ونشطت عليها الحركة ، بأنواعها المختلفة .

قال تعالي :" وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهـــتزت وربـت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه علـــى كل شيء قدير "[2].

---

(١) وهذا مما تحكم به المشاهدة ، كما لا يمكن للعقل الصحيح انكاره ، على وجه من الوجوه

(٢) سورة الحج الآيتان ٥ ، ٦ وقال تعالى :" فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتـــها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير " سورة الروم الآية ٥٠

والمعنى أن أي عاقل متى نظر إلى الأرض يابسة ميتة فيـــها ولا زرع ، بل ولا شئ من حس أو حركة ، ولا مظهر من مظـــا عمـــار، أو الإسكان ، لقد خلت من السكان ، كما خلت من الحيوان ، لقد مـــاتت وانعدمـــت فيها الحياة . فإذا أراد الله إحياءها أنزل عليها المطر الثجاج[١]

وهنا تقبل عليه الأرض تنفيذا لأمر ربها ـــ كما أنزل المطر عليها وحدهـــا بأمر ربه ـــ فتمتص ماء المطر بدل أن ترفضه ، وحينئذ تتحرك بـــأمر ربـــها حركات متواليات من الاهتزار ، ثم الانتفاخ والتشـــقق[٢] الـــذي يســـمح للبـــذرة الضعيفة بالخروج عن باطن الأرض إلى ظهرها ، بأمر ربها،وأخرجت من كـــل صنف العجيب[٣]، واللون العريب ، في نموه وألوانه . وطعمه ومذاقـــه،حلـــوه وحامضه ، وكل ذلك ما يسر الناظر ببهاء جماله وكمال صنعته [٤] .

ومن ثم فلا يسعه إلا الإعلان بأن صانع ذلك كله ، والقادر عليـــه ابتـــداء وإعادة هو الله الواحد الحق ، وأنه يحيي الموتى في الآخرة ، كما أحيـــا الأرض الميتة أمام الأعين في دار الدنيا[٥]، ولا يمكن أن يفعـــل ذلـــك إلا الله ســـبحانه وتعالي . الخالق العظيم العليم الحكيم .

---

(١) قال تعالى." وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا إن يوم الفصـــل كـــان ميقاتا " سورة النبأ الآيات ١٤ ـــ ١٧

(٢) قال تعالى :" فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبـــا وعنبـــا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم " سورة عبس الآيات ٢٤ ـــ ٣٢

(٣) قال تعالى " وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يســـقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" سورة الرعد آية ٤

(٤)فالجمال هنا في المنظر والإتقان في الصنعة ، والإبداع في المباني والغايات ، بدليل أن النخلة الباسقة تحمـــل ثمرا صغير الحجم ، بينما شجرة البطيخ الضعيفة تحمل كميات كبيرة وأحجام عظيمة ، فلو حـــدث العكـــس لانكسرت القاعدة ،حيث إلتوت النخلة وتحطمت وماتت أيضا ، أو سقط حملها قبل بدء صلاحه ولفســـدت الثمار كلها لأنها ستغمس في الطين وحاجزها غير مستعدة له . فسبحان الله رب العالمين

(٥)الشيخ محمد ناصر الدين البرديني ـــ نظرات في كتاب الله ص ١٧٧ ط الدار المصرية ١٣٣٩هـ

قال تعالي:" ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير" (١)، فالأرض التي صارت حية متحركة كانت قبل إنزال الله المطر عليها ، هامدة خاشعة ذليلة ، لاحس فيها ولا حركة ولا حياة ، وفي هذا تشبيه بحال الفقير المعدم الذي لا ينظر أحد إليه ، أو يهتم به ، فإذا لاقاه الناس كان خاضعا لا يرفع بينهم رأسا ، ولا يعلي صوتا .

وهذا من التشبيهات الرائعة البليغة ، التي جعلت لسان حال الأرض أكثر تعبيرا عن مقال غيرها ، فإذا أنزل عليها الماء من رحمات الله ، فرحت واستبشرت وتحركت في دقة وانتظام ، وهي نفس صورة الفقير المعدم،إذا منحه أحد الملوك عطية تتناسب مع المانح ، فإن هذا الفقير يبتسم بدل العبوس ، ويفرح بدل الحزن ، ويتحرك بدل السكون ، حتى لتنتشر داخل في أرجاء نفسه الرغبة في الحياة والإقبال عليها.

ويا سبحان الله هذه الأمثال قد ضربها الله جل علاه،في الكتاب المقروء وهو القرآن الكريم ، وضربها في الكتاب المنظور وهو صفحات الكون ، ومع هذا ما تزال بعض العقول غافلة ، وعليها العماية ، بدليل أنها تلجأ للسير في طريق الضلال والغواية ، قال تعالى:" وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون"(٢).

وما قيل على الأرض الجامدة الهامدة يقال مثله في باقي أجزاء المادة ، ومن ثم ثبت أنها تتحول ، وأن تحولاتها ليست من ذاتها ، إنما من خلال قدرة الله القادرة ، وإرادته النافذة ، وعلمه الشامل المحيط ، كما ثبت أن المادة ليست

---

(١) سورة فصلت الآية ٣٩ . وقال تعالي " فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير "سورة الروم الآية ٥٠
(٢) سورة العنكبوت الآية ٤٣

عاقلة[1]، ولا خالقة بل ولا قادرة على إحداث أي نوع من التحـــولات بذاتـــها ، وإنما هي موضوع تقع عليه هذه التحولات من لدن حكيم خبير ، ومن هنا لـــزم الإيمان بالله تعالى ، وأنه موجود واحد ، خالق عظيم ليس قـــابلا للتجريـــب أو الاختبار ،منزه عن كل ما من شأنه المماثلة بالمخلوقين،فتبارك الله رب العالمين .

وطبقا لما مر يمكن القول بأن التطور على هذا النحو ــ الذي يقـــول بـــه الماديون والتطوريون ــ مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمـــي ، وإن كـــل مـــا التمسوه من أدلة لا يرقي به إلى مستوى الحقيقة العلميـــة المقـــررة [2]، علـــى الناحية التي يتحول أصحابها إليها ، وهو في حد ذاته كاف لإبطال القـــول بقـــدم المادة وأزليتها، فضلا عن تطوراتها المتلاحقة ، مما يجعل قضية الإيمان بوجود الله تعالى ووحدانيته ، وإنه الخالق للكون ، المتصرف فيه ، قضية بدهية مطلقة.

أن الثابت في المصادر التاريخية هو اعتبار القـــول بقـــدم المـــادة ممـــهدا لموضوعها ، وأن المادة الغير حية تطورت من الشكل السديمي إلى الغـــازي ، حتى تكونت النجوم والكواكب[3] فقد أنهار تبعا له القول بقدم المادة ، إنها كذلـــك القول بتطورها ، أو تحولاتها من الجمادية إلى السديمة ، إلى الغازي من ذاتها ، ويبطل كذلك كل ما لحق بهذه الأقوال ، أو قدم لها ، أو جـــاء بيـــن أعطافـــها وثناياها .

والمؤسف له أن تجد هذه الأفكار المنحرفة أرضا لها في عالم التقدم العلمـــي ، أو تجد من يؤكد على أن في هذا الجانب العدواني من السلوك الإنساني استحسانا

---

(١) كما أن تسبح المادة لله رب العالمين مما لا نفهمه نحن باعتبار المفهوم والدلالة ، وإنما هي تسبح بالطريقـــة التي يعلمها الله سبحانه وتعالى ، قال جل شأنه:" تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شـــيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا" سورة الإسراء الآية ٤٤

(٢)الدكتور محمد عبد الستار نصار وآخرون ــ في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص ٨ ط ٢ ١٩٨٢م

(٣)الدكتور / أحمد طلعت الغنام ــ أضواء على نظرية التطور والارتقاء ص ١٠

والأشد غرابة أن نرى من بعض مفكري القرن العشرين رغبة في الدفاع عنها ، ونشرها على نطاق واسع،من خلال وسائل الإعلام .

وقد تعجب شيللر من وجود هذه الأفكار في الولايات المتحدة الأمريكية ، ذات الفخامة والضخامة العلمية ، من خلال مجموعة المفكرين الذين يدعون إليها ، ويعملون على نشرها في كل مكان ، وهم لها أشد حماساً ، حيث يذكرون عنها المحاسن(١) وينفون ما حولها من مثالب .

وفي تقديري: أن القول بقدم المادة وأزليتها،أمكن توظيفه ونشره على أوسع نطاق من الناحية النظرية الجدلية ، وليس من الناحية العلمية التجريبية ، كما أن الإحيائيين الذين تمسكوا به قد أخفقوا في الاستدلال على ما ذهبوا إليه من القول بقدم المادة ، وأزليتها إحيائيا أيضاً ، أما لماذا ؟

فلأن علماء البيولوجيا الأوائل يقررون أن المادة الحية مقسمة إلى الخلايا cells تنضم سوياً ، بأعداد كبيرة لتشكل أنسجة الجسم ، وهذه الخلايا هي الوحدات القاعدية للمادة الحية (٢)وليست هذه الخلايا من خواص المادة الجامدة.

ولما كان الإحيائيون قد أقاموا فكرتهم على احداث نوع من التطور في المادة الجامدة وليس الحية ،فقد اسقطوا أنفسهم من سجل أصحاب المنهج التجريبي العلمي ، كما أضاعوا الشواهد التي كانوا يقفون عليها.

إنه متى هدم علم البيولوجيا الأساس الذي قامت عليه فكرة التطور الإحيائي ، فلن يكون لداروين وأمثاله من دليل سوى الظن والوهم ، والعلوم البيولوجية لا تقوم إلا على اليقين العلمي القابل للتجربة ، فثبت إنهدام فكرة التطور البيولوجية كلها ، كما ثبت إنهيار فكرة القول بقدم المادة أو أزليتها ، وفي نفس الوقت ثبت لكل ذي عقل أن الله وحده الخالق الباقي،بيده كل شئ ،وأنه على كل شئ قدير .

---

(١)هربت أ – شيللر – المتلاعبون بالعقول ص ٢٤ ترجمة عبد السلام رضوان – عالم المعرفة

(٢)ويليام بينز – الهندسة الوراثية للجميع ص ٣٥

لكن ماذا عن التولد الذاتي ، الذي تغنى به التطوريون ، واعتبروه أحد قواعدهم الأساسية ، ونواميسهم الثابتة ، ذلك ما سوف أعرض له فيما يلي من سطور إن شاء الله تعالى فهيا إليه وعلى الله قصد السبيل .

ثانياً التولد الذاتي – التلقائي – أو مبدأ الانفصال الكلي :

SPONTANEOUS GENERATION

حاول الإنسان القديم – في كل من الإغريق والمصريين القدماء ، وأملكن نشوء الحضارات – أن يجد تفسيراً أو تبريرا لنشأة الكائنات الحية من غير الحية ، ثم لما أعياه البحث ، وعجز عن تقديم إجابة صحيحة سعى البعض إلى إصدار ما يشبه القرارات التي تصدرها الحكومات العسكرية،لإرهاب المواطنين وإسكات الجموع الغاضبة ، فقالوا بنظرية التولد التلقائي[1].

وهي قد قامت أساساً على بعض المشاهدات السطحية القاصرة ، كظهور بعض ديدان أو ذباب من بقايا طعام تالف أو لحم متعفن، أو جيف لم يتم طمرها أو نمو بعض أعشاب صحراوية دون القيام بإلقاء بذورها على الأرض[2].

بل غالى البعض فزعم أنه يمكن أن تتولد الفئران تلقائياً ، إذا ترك قميص قذر على الأرض مدة ما من الزمان ، مع سنابل قمح في وعاء مكشوف قد تصل إلى ثلاثة أسابيع[3]بحيث تسمح هذه المدة بنمو بعض الكائنات نمواً كبيرا.

ولكن التجربة العملية أثبتت زيف هذه الأفكار النظرية ، وانتهت إلى أن كافة أنماط الحياة وصور الأحياء ، تنشأ من أحياء سابقة عليها ، ومشابهة لها تماماً وقام ريدي REDI الإيطالي بإثبات بطلان نظرية التولد الذاتي عن طريق

---

(١) التولد الذاتي والتولد التلقائي شئ واحد ، ولذا فقد اعتبرا ضمن النظريات القديمة في التعرف على الأصل الحيوي للأحياء BLOCENEIS ولكن ما لبث العلماء أن دحضوا هذه الفكرة وبينوا بطلانها ، كما هدموا الظواهر التي تقوم عليها .

(٢) هربرت شيللر – المتلاعبون بالعقول ص ٣٧

(٣) توماس حيد – التطور التلقائي ص ٤٥ ترجمة هدى صبري

التجربة ، حيث تأكد من ظهور اليرقات في اللحم ، إذا ترك مكشوفاً لعدة أيـام ، وعدم ظهور هذه اليرقات في اللحم متى أمكن إحكام الإغلاق عليه .

ثم فسر ظهور هذه اليرقات،بأن الذباب يضع بيضه في اللحم المكشـوف ، وبالتالي يفقس عن طريق اليرقات التي تري ، وكأنها نشأت من اللحـم نفسـه ، بينما هي من ناتـج كائنات حية متكاملة(١).

بيد أن الجهود المتواصلة حول معرفة الأصل الحيوي للكائنات الحيـة لـم تنقطع ، ولذا كثرت هذه المحاولات التجريبية المتواصلة ، للتـأكد مـن صحـة نظرية التولد الذاتي ، أو التأكد من كذبها ورفضها ، فظـهرت أبحـاث نيدهـام الإنجليزي NEED HAM في حساء الدجاج (٢) كما ظهرت أبحاث الإيطـالي سبالانزانيSPLLANZANI في أحكام عملتي التسخين والعزل عن الهواء(٣).

كما جاءت محاولات الفرنسي كاشافا cas,faen في إعادة تجربة نيدهـام مع إحكام العملية بالنسبة للغطاء والتسخين(٤)، ثم جاءت ابحاث يوشييه الفرنسـي

---

(١) وبهذا تأكد أن الكائنات الحية،لا تقوم إلا على كائنات حية متشابهة معها ، في صورها وأصولها .

(٢) حيث فسر ظهور كائنات دقيقة في حساء الدجاج وعصير الخضر بعد تسخينها في أنابيت اختبار وتغطيتـها بالفلين لعزلها عن الهواء ، بأنها تولدت تلقائياً في ذلك المحلول ، فكان بذلك مؤيداً النظرية التولد التلقـائي ــ الدكتور حسام الدين محمد عبد التواب ــ النظريات العلمية والتطور الإحيائي دراسة مقارنـة ص ٥٧ ط أولي ١٩٨٥م .

(٣) لقد كانت فكرة سبالانزاني الإيطالي ، معارضة تماماً لفكرة نيدهام الإنجليزى ، مع أنهما كانا متعـاصرين ، ولكنه لما أحكم عملتي التسخين والعزل التي قام بها نيدهام بقي المحلول مدة طويلة دون ظهور كائنات دقيقة به فتأكد له صدق نظرية الأصل الحيوي للإحياء ، والبطلان لنظرية التولد التلقائي التي قـال بهـا سـابقوه ــ الدكتور صابر السيد يسري ــ علم الأحياء ص ٩٥ ط دار المنشاه ١٩٦٧م .

(٤) لقد كان كاشفان يخلط بين التجربتين اللتين قام بهما كل من نيدهام وسبالانزاني ، ولكنه كان حريصاً على تحري الحق ، من غير أن يقفز إلى النتائج المسبقة ، ومن ثم فقد تأخر ظهور بعض النتائج بالنسبه له ، ولكنـها كانت لصالح الأصل الحيوي للتطور ــ الدكتور حسام الدين محمد عبد التواب ــ النظريات العلمية والتطـور الإحيائي دراسة مقارنة ص ٦١

أيضا حاملة خلط أوكسيجين ، ونيتروجين مع نقيع الغـش[١] ، وأخـيرا ظـهر الفرنسي باستير pastear بتجاربه القارورية فحسم المسألة حيث جـاءت فـي صالح نظرية الأصل الحيوي للأحـياء ، وإبطـال نظرية الأصل الجمادي ، أو التولد الذاتي التلقائي[٢].

غير أنه لما كان التطوريون يعتمدون عليها في تفسير نشأة الكائنات الحية ، والقفز بها فوق نصوص الدين،والتعاليم الإلهية ، فإن المناسب هو عرضها بمـا هي عليه عندهم ، ثم مناقشتها طبقا للمنهج الذي قررت السير فيه .

أ ـ عرض الفكرة :

يذهب التطوريون إلى القول بأن تطور المادة من حال الموت إلـى حـال الحياة،في مراحلها الأولي ، بمعنى تحول المادة الجامدة غير الحية إلى مادة حيـة في شكل أولي أو كائنات ذات حياة تحولا ذاتيا من تلقاء نفسها ، دون حاجة إلـى تدخل قوى خارجية من الطبيعة الجامدة تولد بعض الكائنات عن بعضها توليـدا تلقائيا مباشرا ، حيث تعمد إلى تكوين منسوج خلوي من الكتل الصغيرة للمـادة الجيلاتينية ، التي تشبه الغراء ، الموجودة تحت يدها[٣] ، ثم تملأ هـذه الكتـل

---

(١) كانت تجارب برشيه متنوعة إبرزها خلط أوكسجين ونيتروجين واستعمالهما كهواء صناعي ثم خلط ذلك مـع نقيـع القش لتلافي استعمال الهواء المحتمل تلوثه بالجراثيم ، ومع ذلك ظهرت الميكروبات فيه بعد أيام ، وحـتى لا يتعجـل في اصدار نتائج سارع إلى اعادة التجربة ، بإستعمال ماء صناعي ناتج عن حرق الهيدروجين في الهواء وخلطـه مـع القـش فحصل على نفس النتيجة ، مما أدى إلى زيادة اعتقاده في نظرية التطور التلقائي،أو التولد الذاتي ـ الدكتور صابر السـيد يسري ـ علم الأحياء ص ٩٩ .

(٢) كانت مهمة باستير تقوم على إجراء تجاربه،من خلال قارورة صممت خصيصا لذلك الغرض ، بحيث لا تسمح هـذه القارورة بدخول الجراثيم إلى المحلول بعد تعقيمه بالتسخين ، فبقى مدة طويلة ، دون أن يتلوث ، وتأكد باسـتير بذلـك صحة نظرية الأصل الحيوي للأحياء،كما وضع نهاية للجدل الذي أثير بالنسبة لنظرية التولد الذاتي التلقائي ـ دكتـورة / هدى محمد زكريا ، والدكتور حسن صبري ـ البيولوجيا والتطور ص ٩٧

(٣) ومعنى هذا أن التطوريين يأخذون بالجانب القائم على نظرية التولد التلقائي لتفسير نشأة الحياة ، ولا يعتقدون بقيـام ذلك التفسير على نظرية الأصل الحيوي ، وبالتالي فهم يأخذون من المعرفة الجانب الذي يريدون لا ما تفرضه طبيعـة البحث العلمي ، وذلك ما يكشف عن تحيزهم وعدم موضوعيتهم

الخلوية الصغيرة في الأحوال الموافقة بالسوائل مصدرها الأصلي هـو البيئـات المختلفة [١]، المحيطة بذات الكائن ، ولا شئ غيرها .

وبناء عليه فإن الطبيعة اللازمة للمادة كذاتية من ذاتياتها ، تصـدر عنـها حركة ذاتية من داخليها ، وهي في ذات الأمر تخلق وتبدع وتنوع ، كما تطـور وتصطفي وتبيد ، وكل ذلك يتم داخلها عن طريق التولـد الذاتـي ، والتلاقـي العشوائي والمصادفة العمياء[٢]التي تعتمد عليها مبـادئ أو أفكـار، الاصطفـاء النوعي ، والانتخاب الطبيعي .

وبهذا التوازن النسبي،القائم بين المقادير الثابتة في عناصر المادة ، يتم تولد الكائنات بعضها من بعض ، دون اعتبار للزمان أو المكان ، بل إن ذلك كله يتـم في أي وقت من الأوقات ، وتحت أي ظرف من الظروف ، وينشـأ مـن هـذه التولدات المتوالية في المادة ، كل من الحيوان والإنسان ، طبقاً لقواعد التطـور والارتقاء التي تفرضها القوانين الطبيعية ، من غير احتياج لتدخل قوى غيبيـة ، إذ لا شئ يقوم بهذا الدور سوى الأنظمة الإحيائية نفسها .

وفكرة التولد الذاتي يعلي التطوريين شأنها،حتى قالوا أن التولد الذاتي عمـاد العملية الإحيائية التطورية ، بل كلها ترد إلى ذات الفكرة ، كما يقولون أن كافـة الكائنات الحية ــ ومنها الإنسان نفسه ــ ترد إلى فكرة التقويم الذاتـي ، وهـي حقيقة ثابتة في علم الأحياء ما في ذلك أدنى شك[٣].

---

(١)أدموند هوسرل ــ الخلية والحياة ص ٥٧ ترجمة نور الدين محمد عبد العاطي ص أول ١٩٨٨م .

(٢) هناك مركبات متقاربة في المنطوق مختلفة في الإطلاق والمدلول من أمثال التولد الذاتي ، والتلاقي العشوائي والمصادفة العمياء ، والانتخاب الطبيعي ، والاصطفاء النوعي وغير ذلك مما يتمسك به التطوريون . .

(٣)أرمولد ــ و ــ سينوت ــ الخلية والروح ص ٩ ترجمة خالد زكريا مؤسسة فرانكلين ١٩٦٣م .

وهم بهذا إنما يعملون على تغليب جانب نظري[١] على جانب عملي[٢]، مع أن الأولى وهي القول بالتولد الذاتي مرجوحة علمياً ، بينما الثانية وهي الأصل الحيوي للكائنات الحية ، راجحة ومقبولة علميا أيضاً .

كما يقرر التطوريون أن تفسير نشأة الأحياء على الأرض ، لابد لها من التقويم الذاتي ، باعتبار أن الحياة في ملامحها الأولى،بدأت بانفصال خلية واحدة حية من المادة الصماء ، فكانت هذه الخلية الحية أول كائن حي ظهر في الوجود وبناء عليه،فإن الجماد نفسه — الذي انفصلت منه الخلية الحية — لابد أن يكون هو الآخر مقومة حيوية كاملة في داخلها، وإن كانت جمادية في طبيعتها [٣].

والعقل السليم لا يسلم بغير ذلك ، ما لم يُجنح إلى الغيبيات والاعتماد على المفاهيم والكائنات الباطنية[٤]أو ما كان من هذا القبيل .

ثم يقولون أنه بتجميع أجزاء المادة بعد حركتها ، ومن خلالها أيضاً تكونت عناصر المادة[٥]، وبتجمع بعضها وامتزاجه ، على نسب مخصوصة تكونت المعادن ، والأجسام الحيوية من المادة الصماء الجامدة[٦]، ثم نتج عن ذلك تكون مادة زلالية مركبة من عدة عناصر بين الجامد والسائل ، لها قوة الاغتذاء

---

(١) وهو القول بالتولد الذاتي التلقائي ، لأن بطلان ذلك واضح بطبيعته .

(٢) وأعني به القول بالأصل الحيوي للكائنات الحية .

(٢) وهذه مغالطة كبرى يصعب قبولها أو تصديق ما فيها ، إذ كيف تكون جمادية في طبيعتها وفي ذات الوقت تمثل فيها المنظومة الحيوية الكاملة ألا يعد ذلك من التناقضات والأعمال المرفوضة التي لايمكن الجمع بينها .

(٤)الأستاذ / إسماعيل مظهر — تطور الكائنات الحية ص ١٥ .

(٥) لكن ما هو مصدر هذه الحركة ، وهل هذا المصدر معروف أم غير معروف ، فإن كان غير معروف فقد أحالوا إلى القوى الغيبية،والكائنات الغير مرئية وهم ينكرونها ، وإن كان معروفاً فلماذا لا يطلقون عليه اسماً من الأسماء يعرف بها وتدل عليه .

(٦) والسؤال الآن كيف نتجت الكائنات الحية من المادة الصماء الجامدة ، إنها ما تزال من أكثر المشكلات صعوبة في وجه التطوريين ، وقد عجزوا عن إيجاد حل لهذه المشكلة .

والانقسام والتوالد ، ويطلق عليها اسم البروتوبلازما[١]، وبانقسامها تكونت الخليات الحية ، التي تتركب منها الأجسام العضوية ، ثم تطورت هذه الخليات الحية ، فصارت أبسط النباتات والحيوانات .

ولا يخفي التطوريون عشقهم للتولد الذاتي،الذي يعتبرونه في الحقيقة مظهر تفاعل مجموعة من العناصر الخلوية ، وامتزاجها الكيماوي ، ويقولون بأنه الذي عنه تنشأ الحياة في أبسط صورها، كما تنشأ كل الكائنات الحية ، وبناء عليه فكل ذي حياة هي روحه ، وكل ذي روح هي حياته ، فالروح والحياة شئ واحد .

* **النواميس الأربعة :**

لكن ما هي القاعدة التي قام عليها التطور الحيوي في التولد الذاتي ؟ والجواب : ما يذهب إليه التطوريون من أن الكائنات الحية الأولى أخذت في التوالد ثم التكاثر،في مبادئها الأولي،وصورها المتدنية ، حيث ظهرت الحيوانات البدائية الاسفنجية ، والنباتات البسيطة أولا ، ثم أخذت في النمو والاطراد[٢] ، طبقاً لنواميس أربعة هي :

الأول ــ تباين الأفراد :

ومعناه أن أفراد أي نوع من الكائنات الحية ، يقع بينهم تباين كبير ، في الكثير من الصفات والمكونات ، سوآء من ناحية الذكورة أو الأنوثة،أم من ناحية الجينات الوراثية ، أم من ناحية التكامل الوظيفي الصبغي ، على ناحية الصفات السائدة والمتنحية إلى غير ذلك من التباينات العديدة[٣] .

---

(١)البروتوبلازم هي المواد الحية في الخلية،ومنها النواة الخلوية الإنسانية التي يتراوح قطرها من ٢ـــ٣ميكرون راجع لتوماس التوني ـــ الخلية الحية وموادها الأربعة ص ٢٧ ترجمة هناء صابر ١٩٨٥ م .

(٢) توماس التوني ـــ الخلية الحية وموادها الأولية ص ٢٨ .

(٣)الدكتور / فوزي اسكندر مينا ـــ علم الكائنات الحية ص ٤٧ ط أولى ١٩٨٥م

وهذا التباين بين الأفراد يمثل حقيقة ثابتة ، كما يمثل اتجاها علمياً ، ومن ثم فكل هذه التباينات تؤكد وقوع التولد الذاتي ، وتدعم القول بأن التطور الإحيائي حقيقة واقعة .

الثاني — انتقال التباينات :

ومعناه أن كل نوع من أنواع التباينات،في فرع أي نوع،تنتقل من الأصول الفردية،على سبيل توارث الصفات ،ثم إنها أثناء عملية الانتقال تستطيع الالتحام بتباينات أخرى سائدة ، أو الابتعاد عن تباينات متنحية وبناء عليه ظهرت الفوارق المتباينة بين الأقوياء ، والضعفاء[1] ، كما كان للبيئة دخل كبير فيها ، فإذا أمكن حسبانها من العوامل المؤثرة في التباين ، ظهر من بين الأنواع ، الأفراد الذين لديهم استعداد لتحمل الكوارث الخارجية ، كما ظهر أيضاً الذين ليس لديهم استعداد لتحملها ، طبقاً لقاعدة طبيعة الظروف البيئية .

الثالث — تنازع البقاء :

ومعناه أن أفراد النوع الواحد يحدث بينهم صراع قوي عنيف،أثناء الانتقال من مرحلة التولد الذاتي،إلى التطور ثم الارتقاء ، فالأقوى عند التباين،يظل قوياً ثم يزداد قوة ، وبالتالي يبقي ، أما الضعيف المتنحي فإنه لن يحتمل المقاومة للظروف البيئية[2] ، كما لن يتمكن من مواصلة الطريق الحيوي بحيث يرقي ، وإنما سيهلك قبل بلوغ الغاية ، أو على الأقل سيضمر ، ثم يختفي طبقاً لقاعدة الاستعمال والإهمال .

الرابع — الانتخاب الطبيعي :

ومعناه أن أفراد أي نوع من الأنواع ، قد وقع بينهم التباين ثم الانتقال

---

(١)توماس أنتوني — الخلية الحية وموادها الأولية ص ٣١ .

(٢) ومعنى هذا أن الحياة تقوم على نواميس طبيعية لا علاقة بالله تعالى في شيء أبداً ، وهذا إلحاد بالله وكفر بآياته .

الوراثي ، ماداموا تنازعوا للبقاء، وأن الأقوى الأصلح هو الــذي بقــي ، فــإن الطبيعة ذاتها تساعد هذا الأرقى،وتمده بعوامل تحفظه في مسيرته الحيويــة[١] ، كما تعمل على تحسين موقفه وفوق ذلك فإنها تنحي الأضعف من طريقها ، إذ لا قيمة لعاجز حتي يبقي ، ولا مكان لكائن ضعيف في أحضان الطبيعة الجبارة[٢].

وبناء عليه فإنهم يقولون : ان عملية التولد الذاتــي بــدأت بطيئــة جــداً ، فاستغرقت ملايين السنين ، كما ابتدأت بصور أشباه الخلايا ، ثــم أخــذت فــي النشوء ، والعزف على أوتاره الضعيفة ، حتى بانت بواكير التطور ، فظــهرت الحيوانات ذات أنصاف الخلايا،ثم ظهرت الحيوانات ذات الخلايا الأحادية ، ثــم الحيوانات ذات الخلية ، وأخيراً انتقلت هذه الكائنات الخلوية إلى الترقي ، فكــان الحيوان اللافقاري ، ثم الفقاري والثديي وغير الثديي[٣] ، وكان من جملة ذلــك الإنسان الذي يمثل قمة الأعمال التطورية[٤] التي قامت في الأصل على التولــد الذاتي .

إذن فكرة التولد الذاتي هي ذاتها فكرة مبدأ الانفصال ، القائمــة علــى أن المقدمة الأولي التي استجابت لمبدأ الانفصال الكلي لم تكن صامتة ، وإنما كــانت فيها انبعاثات داخلية ذاتية ، فلما ألمع إليها مبــدأ الانفصــال ســارعت إليــه ، واستجابت ذاتياً لنداءاته ، وقد ساعدها على تلك الاستجابة السريعة ، جملة مــن الظروف التي نشأت عن مجموعة مراحل أو سلسلة درجات تطورية، هي أيضــا من ظواهر طبيعة المبدأ الكلي[٥] .

---

(١)توماس هيوار ــ علم الكائنات الحية ص ٥٩ ترجمة الدكتور فوزي صبحي ١٩٨٦م .

(٢) الدكتور / مصطفي محمد صبحي المراكبي ــ التطور والمنظومة الإحيائية ص ١٨١ طبعة أولي ١٩٧١م.

(٣) الدكتور / فوزي اسكندر مينا ــ علم الكائنات الحية ص ٥١ .

(٤)توماس التوني ــ الخلية الحية ومواردها الأولية ص ٤١ .

(٥)توماس هيوار ــ علم الكائنات الحية ص ٧١ ، ٧٢ .

بدليل أن هذه المقومة ــ الخلية الجمادية ــ حين انفصلت عن الأصل الجمادي ، نشوءاً تطورت ، حتي صار بعضها نباتا ، وبعضها حيوانا ذا خلية واحدة ، ثم تجمعت هذه الخلايا النباتية فصارت نباتا متعدد الخلايا ، وكذلك تجمعت الخلايا الحيوانية ، فصارت حيواناً متعدد الخلايا[١] ، وبالتالي صارت المنظومة الإحيائية تقوم على عمليتين انفصاليتين مرتبطين بالتطور .

الأولي : عملية انفصال الخلية الأولي ــ المقومة ــ من الجماد .

الثانية : عملية تجمع الخلايا المتماثلة حتى تكون منها نوع محدد .

وقد نتج عن هاتين العمليتين نشوء ، وظهور كل صور النبات والحيوان ، لكن ذلك استغرق مرور بضعة ملايين من السنين[٢]بناء على مفهوم النشوء والتطور والارتقاء ، والمراحل التي مرت بها كل واحدة من هذه المفاهيم ثلاثية الأبعاد ــ النشوء ــ التطور ــ الارتقاء .

ب ــ مناقشة الفكرة :

من البدهي القول بأن فكرة التولد الذاتي ، أو التولد التلقائي ــ التي ذهب إليها التطوريون ــ كان لها كبير الأثر في إبراز الأفكار التطورية من المجال النظري المجرد إلى مجال التعامل ، بدل أن كانت مجرد أفهام ، أو أشباه ملاحظات تجري في رؤس أصحابها ، ومن الواضح أنهم بذلوا في سبيل تلك الغاية جهوداً كبيرة[٣]، كما حاولوا الاستفادة بكل ما فاهت به مبادئ التاريخ الطبيعي ، بجانب طبقات الأرض ، والحفريات بل والآثار والتشريح أيضاً .

---

(١)الدكتور / مصطفي محمد صبحي المراكبي ــ التطور والمنظومة الإحيائية ص ١٨٢ .

(٢)ادموند – و – سينوت ــ الخلية والروح ص ١٧

(٣) وقد تنوعت جهودهم بين فكرية ولغوية وتاريخية ، كما تنوعت إلى أفكار إحيائية ، ثم قفزوا فوق الأسس الثابتة والأصول القائمة ، وانطلقوا في علميات التزوير المقصودة إلى أبعد مدى ، من مبدأ أن الغاية تبرر الوسيلة .

لكن هذه الفكرة أقضت مضجع العديد من المفكرين ، وأقلقت جمهرة من علماء الفكر ورجال الدين[١]، كما أرغمت أصحاب القدرات العقلية إلى النزول لميدان هذا النوع من التفكير على سبيل القسر والإرغام ، حتى أن بعض الأنصار تحولوا معها إلى خصوم[٢]،أما خصومها فقد ازدادوا عدداً وعنفاً وشراسة ، أما لماذا ؟

فالجواب: أنها أفرغت العنصر الإيماني من قلب صاحبه ، وجعلت الغريزة الدينية تتحرك في صدور أصحابها بعنف وشدة ، إذ ليس أقسى على المرء المؤمن من التعرض لعقيدته الدينية التي هي أهم خصوصيات العلاقة الرابطة بين الإنسان وربه .

من ثم فإن مناقشة هذه الفكرة تقوم على وجوه عديدة ، من أبرزها :

أ ـ من الناحية الإحيائي :

يقرر الإحيائيون أن هذا المبدأ التطوري ـ التولد التلقائي ـ مرفوض إحيائيا ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

١ ـ أن الفكرة مجرد فرض جدلي،غير قائم على أصول صحيحة أو أدلة علمية كما أن أنها في حد ذاتها تخالف روح البحث العلمي ، ونتائج الأبحاث الإحيائية التي ثبتت صحتها على شكل علمي[٣] .

---

(١)لأنها تلغي من حساباتها وجود الله تعالى ، وقدرته وعلمه وإرادته ، كما تحول المادة الجامدة الصماء إلي مادة حية فاعلة مريدة قادرة ، وفي ذلك قلب للأمرين معاً .

(٢) بدليل أن هيا تروم ،كان يقول لو لم أكن قد عرفت التطور فإني الآن أكثر شوقاً لمعرفته ، ثم تراجع بعد ذلك فقال تمنيت لو أني لم أعرف التطور الذي لا يفرق بيني وبين الخنزير الذي أربيه في المزرعة ، ثم أجري عليه التجارب ، أو أقوم بذبحه . هيا تروم ـ التطور الحقيقة والخيال ص ٥٧ ترجمة ادوار فهيم ط دار منير ١٩٦٧

(٣) انطوان كيث ـ التطور الداروني من منظور تطوري ص ٧٣ ترجمة فواز محمد نوري ط دار كركوك ١٩٧٥م قدم به الدكتور سعيد نوري التكريتي .

٢ ــ أن تصميم صفة من الصفات عن طريق الطفرة التلقائية ، في سلالة من السلالات لا يمكن أن يستغرق أقل من مليون جيل من الأجيال المتتابعة ، ومهما سلمنا بأن أحقاباً جيولوجية قد انقضت ، فمن الصعب جداً أن نتصور كيفية نشأة حيوان حديث نسبياً كالحصان مثلاً ، واعتبار أنه نشأ من سلفه الذي كان عدد الأصابع في قدمه خمساً بالنسبة إلى الفترة التي مضت ، من العصر الأبوسيني الحديث حتى الآن[1]،وإذا كان ذلك مستحيلاً في العصر الحديث، فهل يمكن قبوله أو التصديق بوقوعه في عصور سلفت .

٣ ــ أن العلم المعملي نفسه ــ في جانبه التطبيقي ــ قد عجز عن تقديم إجابة محددة على السؤال القائم حتى الآن ، وهو كيف تستطيع الخلية الأولي الجامدة أن تنفصل وحدها عن الخلية الأم ، ماهو السر الذي جعل هذه الخلية وحدها تنفلت من الرباط المحكم الذي أمسك الجميع ، ولماذا تحولت هذه المنفصلة الجامدة إلى حية يمكنها أن تنوع نفسها فيما بعد[2].ألا يعتبر ذلك من الأدلة على بطلان هذه الفكرة من أصلها ؟!

٤ ــ سريان عملية التمايز في الخلية الأولي ذاتها عن الخلايا الأخرى الناتجة كلها من نفس الخلية ، وليس في أية خلية منها خاصية التمايز، أو الإدراك حتى تقوم بهذا الدور من ذاتها ، بل أن الإحيائيين لما ضاقوا بهذه الجزئية ذرعاً ، وعجزوا عن تقديم تفسير لها ، أطلقوا ــ عليها في الدراسات الإحيائية ــ اسم مشكلة انفصال الخلايا وتنوعها[3]،كنوع من الهرب والاعتراف بالعجز عن مواجهة المشاكل والاعتراضات التي ترد على ذات الفكرة .

٥ ــ عجز القائلين بها عن تقديم أي دليل علمي أو عقلي يؤيد أفكارهم ، لأنهم

---

(١)باتو ــ التحليل الرياضي لنظرية التطور ص ٢٣٩ ترجمة فوزي خالد .

(٢)الدكتور سعيد محمد الحفار ــ البيولوجيا ومصير الإنسان ص ٣٤ سلسلة عالم المعرفة .

(٣)كريس موريسون ــ العلم يدعو الإيمان ص ١٧٥ .

لا يملكونه ، كما لم تسعفهم الجهود التي بذلوها،في تقديم أي دليل علمي مقبول ، وأن كل ما صنعوه هو التمسك بالفروض المتدنية ، والتكهن الذي لا يصلح في القضايا العلمية ، بل أنهم فرضوا أنفسهم على نتائج البحث العلمي ، من غير أن يكون هناك مبرر مقبول يجد له دعماً من الواقع العملي أو العلمي.

٦ ــ وجود مشكلة انفصال الخلايا وتنوعها، حيث تقوم هذه المشكلة على جزئين الأول عملية انفصال المادة الحية من اللاحية، الثاني الانقسامات الخلوية التي تصاحبها عملية تخليق وتنويع في الخلايا ذاتها،أي أنه بينما يحتوي الجسم على بلايين الخلايا[١].

تحتوي كل منها على نفس المجموعة من الجينات[٢] ،·لأن كل خلية تختلف عن الأخريات اختلافاً كبيراً من حيث الشكل والوظيفة ، وطريقة الأداء لها .

٧ ــ تأكيد علماء الأحياء استحالة وجود المادة الحية من المادة الميتة،عن طريق التولد الذاتي ، أو التلقائي ، لأن نظرية الأصل الحيوي للكائنات الحية تقرر في حسم بالغ،أن الحي لابد أن يتولد من حي ، أو يشتق منه ، أو يقوم عليه ، وإنما لابد من قوة خالقة تغير الأوضاع .

٨ ــ أن خلية الشعر تختلف عن خلية الكبد،في الفرد الواحد من أفراد النوع كالحال مع الإنسان ، وهذا اللغز لا يفهمه أحد حتى الآن ، وكذلك الطرق التي تتحول بها كل خلية لاستمداد صفاتها المستحقة لها أثناء النمو[٣]وهو نفسه الذي يفسر لنا عدم قبول فكرة التولد الذاتي ، في تفسير نشأة الكائنات من الناحية

---

(١) فجسم الإنسان الطبيعي مثلاً يحتوي على ٣٠ تريليون خلية جسدية ، كما يحتوي على كميات غير معروفة من الخلايا التناسلية ، وفوق ذلك فإن الخلايا العصبية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمخ ، مما يؤكد أن عملية التطور بناء على فكرة التولد الذاتي ، تكون مجرد فكرة خيالية ، أو صورة من صور أحلام النائمين .

(٢)الدكتور / محمد رمضان العتر ــ علم الوراثة والهندسة الوراثية ص ٨٧ ط أولى ١٩٨٧م .

(٣)الدكتور سعيد محمد الحفار ــ البيولوجيا ومصير الإنسان ص ٣٥

الإحيائية،لأنها تفتقد أهم العناصر الإحيائية ، وهي قدرتها على الحركة الإرادية وقيامها على الأصل الحيوي ، لا علي الأصل الجمادي .

٩ ـ أن البروتوبلازم PROTOPLASM وهي المادة الزلالية الحية التي تتكون منها خلية الأجسام النباتية والحيوانية قادرة على الحركة ، كما تستمد نشاطها من الشمس ، وهي بالفعل كفء لاستخدامها ضوء الشمس في عزل ثاني أوكسيد الكربون من الهواء ، مرغمة الذرات على الانفصال ، قابضة على الهيدروجين من الماء ، ومنتجة لهيدرونات الكربون ، إلا أنها تعد غذاءها بنفسها حيث تحصل عليه من أحد المركبات الكيماوية العنيدة للغاية ، ولولا هذه المركبات ، ما نمت الخلية ذاتها[١]، وهذا يؤكد عجز الخلية الحية عن اكتسابها مقدمات الحياة بدون عناصر خارجية مرجحة ، وبالتالي يهدم فكرة التولد الذاتي من أساسها ، ويقلبها على رأسها من الناحية الإحيائية .

وبناء عليه فإن العلماء الإحيائيين مجبرون على القول بأن الإنسان قد خطو على هذه الأرض بوصفه طفلاً لمنبع الحياة الكوني ، لا باعتباره منحدراً من حيوان أحسن منه ـ سيداً بين الحيوانات كلها ، فالإنسان صاحب تكوين مادي معقد التركيب للغاية ، كما أنه صاحب عقل أعد عن قصد ليتلقي لمحة من القدرة الإلهية التي تعرف باسم الروح[٢]وهي في ذات الوقت نفحة إلهية[٣]، ومنحة ربانية ، ومن الأدلة القائمة على وجود رب البرية ، بل أن العلماء في معاملهم لم يتمكنوا من تخليق أدني جزئ خلية حية ، من مادة جامدة ، كما عجزوا عن

---

(١)الدكتور محمد مصطفي الفولي ـ بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية ص ١٤٥ .

(٢)كريس موريسون ـ العلم يدعو للإيمان ص ٩٧ ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي .

(٣)قال تعالي :" فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ " سورة الحجر الآية ٢٩ وقال تعالى:" ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " .

تكوين أبسط جزء في نواة أى جزئ ، وإنما كل ما صنعوا هو تجميـــع أجــزاء خلوية حية متجانسة فيها حياة سابقة .

١٠ ـ القاعدة البيولوجية قاضية بأن التكاثر في الكائنات الحية ـ علـــى كافـــة المستويات ـ يبدأ من تضاعف الجزئيات حتي الأفراد، ولكي يتضاعف الكـــائن الحي حتى ينتج أفرادا مثله ، لابد أن تتضاعف قبل ذلك كل الجزئيات الموجـودة بالخلية ، وأهمها جزئيات DNA المعروفة بالأحماض الأمينية ، الموجودة علـــى شكل صبغيات CHROMOSOMES بنواة كل خلية ، لأن هـــذه الصبغيـــات هـــي المسئولة عن نقل الصفات الوراثية من خلية لأخرى ، ومن جيل إلى آخر[١].

كما لابد أن تتضاعف الصبغيات الخلوية،ومحتوى السيتوبلازم ، وذلك وفق آليات معينة تعرف بالانقسام الخلوي الذي ترتكز عليه جميع صـــور التكـــاثر[٢] الجنسي وذلك كله لا يوجد في التولد التلقـــائي ، أو التولـــد الذاتـــي ، لأن هـــذه

---

(١) انطوني توهان ـ علم الأحياء والهندسة الوراثية ص ٧٣ ، ٧٤ ترجمة زاهد الحلبي ط دار الفكر بـــيروت ١٩٨١م .

(٢)والانقسام الخلوي قسمان : الأول الميتوزي mitosis وهو الذي يتم في خلايا الأحياء لتحقيق تضـــاعف الخلايا الجسمية ، مثلما يحدث في تكاثر الأحياء وحيدة في الخلية ، أو في نمو الأحياء متعددة الخلايا ، وتكـــون الخلايا الناتجة من هذا التكاثر مماثلة لبعضها في الصبغيات المزدوجة diploid كما تماثل الخلايا التي نتجت منها في التركيب والوظيفة وهو يتم في مرحلتين أو طورين هما رحلة الانقسام الميتوزي النووى ثم الخلوى ، وقبـــل دخول الخلية مرحلة الانقسام فإنها تمر بطور بيني أو تحضيري interphase فيتـــم مـــن خلالـــه تضـــاعف الكروموسومات ، وتجهيز العضيات المختلفة التي تمكن من الدخول في خطوات الانقسام على التوالي وأطـــواره أربعة ١ ـ التمهيدي prophase ٢ ـ الاستوائي metaphase، ٣ ـ الانفصالي anaphase وأخـــيرا ٤ ـ النهائي telophase.

الثاني : الانقسام الميوزي Meiosisويسمي الانقسام المنصف ، كما يسمى الاختزالي لأنه يكون في المناســـل كالمتوك أو الخصي والمبايض في الأحياء لأنتاج الأمشاج الجنسية أحادية الصبغات haploidولابد فيـــه مـــن مضاعفة الصبغيات haploidوهو نوعان ميوزي أول وفيه أربعة أطوار التمهيدي ، ثم الاستوائي ، فالإنفصالي وأخيراً الطور النهائي ، أما النوع الثاني فهو الميوزي الثاني وهو كالانقسام الميتوزي العادي حيـــث تتكـــاثف الصبغيات ويختفي غشاء النواة والنوية ويتكون المغزل ، وفي الطور الاستوائي تترتب الصبغيات على خط واحد

العمليات تحتاج سلوكيات بعينها،يقوم بها الكائن في شكل من الأشكال التي هـداه الله تعالى إليها ، وييسر له أسباب القيام بها ، فإذا انعدمت الأسباب لم يتمكن ذلك الكائن من مباشرة مهامه ، أو أدواء واجباته على نحو صحيح مقبول ، أو على نحو سليم هادف .

من ثم يمكن القول بأن تطور الكائنات العضوية على ما يقول به الداروينيون غير مقبول من الناحية الإحيائية ، بل يمكن الحكم على هذه الأقوال بأنها خالية المعني الحقيقي ـ على لغة الوضعية المنطقية ـ إذ ما قيمة الإدلاء ببيانات عن تطور الكائنات الحية في العلوم البيولوجية ، ثم يعجز أصحاب هذه البيانات عن إقامة دليل على صدقها أو صحتها ، بدليل أنه لم يتم التجريب عليها ، ولا على شئ منها . كما أن الحمض النووي DNA الذى يحمل المعلومات الوراثية ، أو هو ذات المادة الوراثية [١] ليس واحداً في كل الكائنات الحية ، حيث ثبت أن الحمض النووي DNAهو المادة الوراثية في الكائنات الحية اللافقرية ، وبخاصة الفيروسات الشاذة ، فلو كان التولد الذاتي أو التلقائي هو الأصل في نشأة الحياة، أو هو القاعدة التي قام عليها التطور العضوي ، لكان من المناسب أحيائياً أن تكون الأشكال متشابهة في سلالاتها وجزئياتها الحمضية النووية على أقل تقدير.

= يسمى خط استواء الخلية، وفي الطور الانفصالي تنفصل الكروماتيدات الشقيقة ويتحرك كل منها كصبغي مستقل نحو أحد قطبي الخلية بفعل شد خيوط الغزل ، أما في الطور النهائي فيظهر غشاء نووى حول كل مجموعة من الصبغيات الناتجة عن الانقسام ، وبذلك يتكون أربعة أنوية فردية الصبغيات ، يتبعها انقسام الستيوبلازم لتنتج أربع خلايا بنوية بكل منها ن من الصبغيات ، ثم تبدأ عملية تحولها إلى الأمشاج الذكرية أو الأنثوية ـ راجع تفاصيل ذلك كله في ـ علم الأحياء والهندسة الوراثية ص ٧٩/٧٦ .

(١) كانت الأبحاث الأولية قائمة في أن البروتينات هي التي تحمل المادة أو المعلومات الوراثية ، وما البروتينات إلا مجموعة من الجزئيات المتنوعة حيث يدخل في تركيبها عشرون حمضاً أمينياً مختلفاً ، وأن هذه الأحماض تتجمع بطرق متباينة لتعطي عدداً لا حصر له من المركبات البروتينية المختلفة ، ثم ثبت أن هذا الاعتقاد على خطأ، ولذا تم الاستغناء عنه ، وصار البديل المقبول هو الحمض النووي ona وأنه الذي يحمل المادة الوراثية.

ثم ان البلازما التناسلية في الإنسان يمكنها ـ من الناحية الإحيائية ـ إنتاج بلازما تناسلية وأخرى جسدية ، ولا يمكن أن يحدث عكس ذلك ، أما الحيوان فيمكن للبلازما الجسدية إنتاج بلازما تناسلية ، وجسدية أيضاً ، فلو كان التولد الذاتي هو القاعدة الصحيحة للتطور في الكائنات الحيوية لاطردت البلازما النوعية ـ التناسلية أو الجسدية ـ في الجميع وليس في أفراد نوع بذاته .

إنه أمكن تطويع المادة الوراثية DNA في بعض الكائنات الحيوية كالحال مع البكتريا المسببة لأمراض الالتهاب الرئوي ، حين أمكن لجريفث GRIFFITH تحويل إحدى سلالات بكتريا الالتهاب الرئوي،إلى سلالة أخرى مختلفة وراثياً ، وقد تأكد من ذلك عن طريق التجربة على الفئران ، حتي استنتج أن بعض المادة الوراثية الخاصة بالبكتريا المميتة قد دخلت بطريقة ما إلى داخل البكتريا غير المميتة ، وحولتها إلى بكتريا مميتة ، وأطلق على هذه الظاهرة اسم التحول البكتيري ، فلو كانت نشأة الحياة عن طريق التولد الذاتي ، ما أمكن التعامل مع المكونات الأساسية للكائن الحي والتعديل فيها بالشكل الذي يأمل الباحث وقوعه.

كما أن تباين الصفات الوراثية ، هو ذاته تباين الأفراد ، ومع ذلك فإن قصة التباين تؤدي إلى أن القول بعدم وقوف الإحيائيين مع داروين وأنصاره ، وثبت أن مسألة خلق الكون واستخراج الكائنات الحية ـ عن طريق التولد الذاتي أمر غير صحيح ، ولا معقول أيضاً .

وكل ما يقال بشأنها أن الذين يرفعون مبادئها ، ويعملون على إزكاء شأنها يرون القول بالتولد الذاتي وسيلة منطقية لتفسير مظاهر الخلق ، وليست ملاحظة أو حقيقة واقعية ممكن التجريب عليها ، أو الاستشهاد بما جاءت به الأبحاث في الميدان العلمي[1]، مما يجعل المسألة في جملتها مجرد أفكار متسرعة طرحت

---

(١)الأستاذ / وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ص ٤٥ الطبعة الرابعة ـ المختار الإسلامي .

نفسها حيناً من الزمان على عقول القائلين بها ، ثم بان فشلها في تحقيق أهدافها إحيائياً[١] ومن ثم لم تصلح للقول بها على الجهة الإحيائية .

ومن الأدلة على ذلك أيضاً أن المخ ما هو إلا معمل كيمائي حيوى في غاية التعقيد،ومادته الدافئة اللينة التي تشبه العجينة،إنما هي خلاصة تغيرات مستمرة ، لا تنقطع حتى أثناء النوم ،وهو الذي ينسج مادة حياة الإنسان،أفكاره وانفعالاته ، ذكرياته وافعاله ، آماله ومخاوفه التي تكون أساس وجوده[٢].

ولاشك أن الخلية العصبية هي أساس المخ ، وهي أيضا الحاملة للفكر والشعور والوجدان ــ حيث يوجد الإنسان في الحياة ، وبه عدد معين من هذه الخلايا العصبية ، وتعيش معه طالما عاش ــ لايمكن استبدالها إذا ما استهلكت ، ولا يمكن إصلاحها إذا تلفت ، لذا لا يملك الإنسان ما هو أغلي أو أثمن من هذه الخلايا CELLS العصبية ، بالنسبة لحياته البدنية والعقلية والانفعالية[٣] .

وبالتالي فإن فكرة التولد الذاتي غير قائمة على أية ناحية ، كما أن المخ يتلف متى تعرض لحدوث تغيرات بيوكيميائية ، ولا يتولد من نفسه ذاتياً ، ولو كان يتولد ذاتيا لأمكن له القيام بدور الإصلاح للتلفيات التي تحدث فيه ذاته، متى تلفت [٤]، ولذا قالوا أن العقل ما هو إلا حصيلة العمليات البيوكيميائية التى تحدث في المخ ، ولا يوجد عقل الإنسان في فراغ ، بل يتعلق وجوده بكيميائية المخ، وتقترن جميع انفعالاتنا ومشاعرنا ووجداناتنا بهذه الكيميائية ، إذ لا يمكن أن

---

(١)لمزيد من التفاصيل يراجع الإسلام ونظرية داروين ، والإسلام يتحدى ، الدين في مواجهة العلم ، العلم يدعو للإيمان ، الله يتجلي في عصر العلم ، في مواجهة الإلحاد المعاصر بجانب المصادر التي ذكرت بهامش صفحات هذا الكتاب .

(٢) فهل يمكن أن يتم صناعة هذا المخ عن طريق التولد الذاتي ، أو التولد التلقائي ، إن ذلك لا يكون إلا عن طريق الخلق الإلهي الحكيم لله رب العالمين .

(٣)الدكتور / محمد محمود عبد القادر ــ بيولوجية الإيمان ص ٩٤ ط دار الشروق .

(٤)أ ــ هربرت تاسيو ــ كيميائية المخ ص ١٥٧ ترجمة الأستاذ خالد محمد فاضل .

نفكر أو يصيبنا انفعال بدون حدوث تغير كيميائي[١].

فلو كان التولد الذاتي هو الفكرة المقبولة ، لأصلح المخ خلاياه التي تصاب بشئ من الضمور ، أو تتعرض لكثير من التلف ، وذلك مما يشهد الواقع المعاش ببطلانه ، وتؤكد الأبحاث الإحيائية استحالة وقوعه ، ومن ثم ثبت استحالة نسبة الخلق إلى التولد الذاتي ، وإثبات أن الخلق كله يرجع لله وحده.

كما أن التطوريين لم يقطعوا برأي علمي أو تفسير محدد،كما لم يتفقوا على مفهوم معين لمعنى التولد الذاتي . ثم أن الكرية — على بساطتها — ذات بناء وتركيب يمتنع معه صدورها من الجماد مباشرة مهما كانت الدعاوي والمزاعم، وإلا كان الأمر ضربا من العشوائية المطلقة،والتخبط الفكري ، بل أن ظهور الحياة من الجماد — في نظر العلم — أمر غير مألوف لدى العقل العلمي الصحيح ، وهي ليست أقل بعداً عند العقل ، من ظهور الأحياء العليا من الجماد رأسا[٢] .

والتطوريون يعترفون بعجزهم الشديد عن إمكانية تقديم تفسير علمي مقبول حول نشأة الكون ، وأصل الإنسان ، كما يقررون أن المسألة أعلى من امكانيات العقل الإنساني نفسه، وذلك في حد ذاته مما يهدم الفكرة على رأس القائلين بها ، وبخاصة أنهم قد اعترفوا بكونها أعلى من إمكانيات العقل وملكاته .

من ثم تأكد القول بأن الأفكار التطورية حول قدم المادة وأزليتها ، أو التولد الذاتي ، إنما هي افتراضات وتخمينات سخيفة ، وتقديرات مضحكة فارغة ، لايمكن إثباتها بالطرق العلمية ، المعملية أو الحسية ، ولهذا لا يمكن لعاقل أن يلتفت إليها ، أو يعيرها أدنى اهتمام[٣] ، مادام عاقلاً ، فإذا ألغى عقله ، فماذا

---

(١)الدكتور محمد محمود عبد القادر — بيولوجية الإيمان ص ٩٤ .

(٢)الإستاذ الشيخ / نديم الجسر — قصة الإيمان بين الدين والعلم والفلسفة ص ١٨٩ الطبعة الأولي .

(٣)الأستاذ / محمد أحمد باشميل — الإسلام ونظرية داروين ص ٣٣ .

يبقى له من ميزان ، أو قيمة في مجال العلوم التطبيقية سوى الفرض الكـــاذب ، والزعم الخاطئ[١]، ومثله لا تقوم عليه حقائق علمية .

ب ـ من الناحية التجريبية :

قضايا العلم في المجال التجريبي تقرر بدهياتها ، أن ما يتعلق الأمر فيـــه بالتجربة ، فإن الحكم عليه يكون من خلال التجربة التي يتم تطبيقها فيـــه عـــدة مرات ، بحيث تأتي النتائج التي ثبت صدقها، هي ذاتها التي تم التجريب عليها ، وإعادتها للتأكيد المتواصل بأن هذه النتيجة هي ذاتها التي سبق الوقوف عليها[٢] وبناء عليه فإن التولد الذاتي فرض لم يمكن التثبيت منه ، أو التأكيد عليه ، مـــن خلال التجربة ، وهذا الأمر وحده كافياً لهدم فكرة التولد الذاتي من أساسها ، أمـــا لماذا ؟ فلما يلي :

١ ـ إنها خالفت قواعد المنهج الذي رسمه التجريبيون أنفسهم ، واعتبروه أهـــم القواعد التي يسيرون عليها ، إذ كيف يظنون إمكانية تولد الخلية الحيـــة ـ فـــي أدنى مظاهرها أو صورها ـ من المادة الجامدة ، ولم يحدث ذلك في المعـــامل التجريبية ولو مرة واحدة ، أن جاءت نتائج الأبحاث بتخليق مادة ، أو جزئ مادة حية من مادة ميتة[٣]، وبالتالي فعملية التأكيد عليها لم تقع أبداً .

٢ ـ ان التجارب التي تم إجراؤها ـ في مجال الأبحاث البيولوجية ـ لم تتمكـــن من تحويل الخشب إلى ذهب وهما من ذات المادة الجمادية ، كمـــا لـــم تحـــول

---

(١)وهو الذي يلجأ إليه الملاحدة في كل زمان ومكان ، وتحت أي ظرف من الظروف فهذا الفعل القبيح عدمّهم وبضاعتهم في نفس الوقت .

(٢) أندريه هو لماخ ـ المنهج التجريبي قواعده ونتائجه ص١٧ ترجمة محمد السيد زعرب ط دار الفكر بيروت ١٩٨١م .

(٣) هربرت تاسيو ـ كيميائية المخ ص ١٦١وهذا وحده يكفي لابطال فكرة التولد الذاتي ، بل هـــو إقـــرار علمي صحيح بأن تبدل الكائنات من الجمادية إلى الحيوانية لا يمكن أن يكون ذاتياً ، وإنما إذا تم فلابد له مـــن إله قادر حكيم ، له كل صفات الجلال والجمال والكمال والإكرام .

الذهب أو البرونز إلى كائن حي في أدنى مراتبه ، بل ان التجارب العلمية في الهندسة البيوكيميائية لم تصنع سوى إنسان آلي ـ ريبوت ـ وهو خال تماماً من المظاهر الحيوية ، لكنه معد إعداداً دقيقاً للقيام بأعمال كائنات حية على سبيل الذاكرة الألكترونية ، ودون أن تكون فيه مظاهر حيوية ، وإنما هو يعبر عن مظاهر ميكانيكية[1]، ومن ثم يفتقد أهم الجوانب الحيوية ومنها الإحساس والنمو بجانب الاغتذاء .

بل اعترف التجريبون في الأبحاث البيوكيميائية بعجزهم تماماً عن تخليق هذا الإنسان الآلي ، أو دفعه للمجال الحيوي ، بحيث تقع عليه أعمال البحث الإحيائي ، فيقول إدوارد هاتو لقد استطعنا خلق امرأة عن طريق الهندسة البيوكيميائية تستطيع أن تفعل كل شئ،لكنها لا تنزف دماء،ولا تحمل في رحمها أطفالاً[2].

وهذا اعتراف صريح بأن الريبوت ، أو الإنسان الآلي ـ سواء أكان على صورة الرجل أو المرأة ، أو غير ذلك ، ما هو إلا صورة من المادة الجمادية التي تقوم بأعمال ميكانيكية من خلال قائد موجه ، كالسيارة والطائرة ، لكن في صورة أكثر دقة ، أو مظهر أكثر مرونة بالنسبة لغيره .

٣ ـ اعترف التجريبيون بأن تفسير نشأة الكون، ما يزال لغز الألغاز العلمية في المجال التجريبي بالنسبة للعقل الإنساني ، بل وعلى كافة المستويات البحثية ، لأن ذلك يحتاج تعاون الجغرافيا التاريخية والاجتماعية والتجريبية ، ومناهج الجميع مختلفة ، وغاياتها متباينة ، كما أن النتائج التي جاءت حولها في أعلى درجاتها ما هي إلا فروض غير قابلة لإجراء شئ من التجربة العلمية عليها ،

---

(١)روبرت ماكدونالد ـ الهندسة الوراثية ص ١٤٧ ترجمة الدكتورة صفاء محمد راضي ١٩٨٧م .

(٢) إدوارد هاتو ـ الاستنساخ العلمي والمشكلات الحيوية ص ٨٣ ترجمة ياسر السيد رزق نشره فرانكلين بالاشتراك ـ لبنان ١٩٩٩م .

ومن ثم فلا تخرج عن كونها مسائل احتمالية قامت على الفرضية المستمرة ، والتسليم الجدلي بها دون مراجعة لأصول قائمة[١].

٤ ـ استحالة التجريب العلمي عليها ، بدليل أن الأميبا التي هي مخلوق ميكروسكوبي حي على درجة كبيرة من التطور ، وهو مكون من ملايين لا حصر لها من الذرات في تنظيم مرتب ، ولا يمكن التجريب عليه ، والتأكد من كونه قد تولد ذاتيا[٢]، إذ معنى ذلك الإطاحة بما هو قائم حقيقي بغية البحث عن المجهول ، والسعي خلف الأوهام ، ولا يمكن القول بأن هذا الكائن الأميبي قد جاء من طريق غير معروف ، وإنما لابد من الاعتراف بقوة قاهرة هي التي أوجدته.

ومن المعلوم أن الأميبيات ما هي إلا مخلوقات حية ، ذوات خلية واحدة ، قد لا يزيد قطرها على جزء من مائة جزء من البوصة ، وأنها توجد في جميع مياه العالم ، وأنها تشعر بالجوع الشديد ، وتبحث عن غذائها في قصد وعمد[٣]، ولا تسير على العشوائية ، أو تجنح لغير ذلك مما يدل أن هذه الكائنات الدقيقة لا يمكن أن تقوم على أصول جمادية من ذاتها ، وهو في حد ذاته ينزع من دائرة التفكير قبول فكرة التولد الذاتي ، بل حتى مجرد التسليم الجدلي بوجودها فضلا عن كونها صالحة للتعامل معها ، واعتبارها تحوز أدنى قبول في المجال التجريبي.

مما سبق اتضح أن التطوريين الاحيائيين يفرضون أفكارهم على الجوانب العلمية دون أن تكون بينها أدنى علاقة ، وهو ما اعترف به هنري برجسون ، حيث قال من المؤكد أن الفلسفة التطورية متى أرادت تفسير الحياة فإنها لا تتردد

---

(١)أ ـ كريس موريسون ـ العلم يدعو للإيمان ص ٩٩ .

(٢)الدكتور محمد مصطفى القولي ـ بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية ص ١٣٢ .

(٣)كريس موريسون ـ العلم يدعو للإيمان ص ١٠١ .

في أن تطبق عليها أساليب التفسير التي تصادف نجاحاً فيمـــا يتصـــل بالمـــادة الجامدة[١]كما لا تتردد في محاولة تطبيق أية أبحاث علي أي جانب بحثي ، المهم أن يكون ذلك مؤيدا للفكرة التي نادى بها التطوريون الإحيائيون .

وفي تقديري : أن الجوانب التجريبية لا تقدم دعماً علمياً تجريبيـــاً لفكـــرة التطور الإحيائي العضوي ، بقدر ما تقدم من أدلة على هدمها ، بناء على القـــول بالتولد الذاتي ، كما ان أصحابها أفلسوا علميـــاً ، وأفلســـوا أخلاقيـــا ، فراحـــوا يتسولون ظواهر داعمه لاتجاهاتهم المنحرفة ، أو مؤيدة لاعتقاداتهم الفاسدة .

وفوق ذلك فإن القول بالتولد الذاتي أو التلقائي قد تم رفضه إحيائياً وتجريبيـــاً أيضاً ، كما أنه يلغي من حساباته فكرة التصديق بوجود قوى غيبية لها تأثير قائم خلف الميدان التجريبي ، وذلك يعتبر اعترافا كاملاً بعجز الداروينية عن إيجـــاد أو تقديم حلول كافية للمسالة التي يفترض قيامها عليها .

ليس من السهل إلغاء القواعد العلمية الصحيحة فـــي مجـــال التجربـــة ، أو عرضها للمغامرة ، أو المضاربة في أسهم البورصـــة الفكريـــة التـــي لا تجـــد لأرصدتها غطاءات بنكية آمنة ، أو تعويمها نقدياً ، ومن ثم تفقد قيمتها الاســـمية بسرعة ، بغية إرضاء نزعة تطورية إحيائية مجانبة للصواب .

ج ـ من الناحية العقلية :

العقل نعمة من أنعم الله تعالى ، وهو نور فطري خلق الله العبد مزوداً بـــه ، يدرك العلوم الضرورية والعلوم النظرية[٢]وهذا العقل الفطري الذي لم يلوث[٣]

---

(١)هنري برجسون ـ التطور الخالق ص ٦ ترجمة الدكتور محمد محمود قاسم ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب

(٢) الشيخ محمد عبد العظيم التهامي ـ العقل في القرآن والسنة ص ١٧ ط الدار القومية ١٣٤٣هـ وراجع حاشية الملوي على متن السلم ص ٧ ط المطابع الأزهري.

(٣) لأن العقل الفطري أحكامه صحيحة وهي داخلة في مجال البدهيات ، فالكل أكبر من أي جزء من أجزائـه بدهية عند العقل الفطري الذي له اعتباره العلمي ، وهذا العقل يستدل به على وجود الله تعالي من باب أولي .

قر في وجدانه ، أن كل معلول لابد له من علة يصدر عنها ، بحيث تكون هي السبب الرئيسي له ،أو السبب المشترك مع غيره في إيجاد ذلك المعلول ، وتسمي الأسباب المشتركة أو العلل المتكاملة [١].

كما قر في العقل الفطري أيضاً أن كل مسبب له سبب ، وذلك مما تشهد به الفطر السليمة ، وتعلنه العقول الصحيحة ، ومازال قائمة في الأفهام أصوله ، حتى قال العلماء أن كل علة لابد لها من معلول ، مسألة فطرية بدهية[٢]بجانب كونها استدلالية أيضاً ،لأنها يمكن القيام فيها على الجوانب الاستدلالية المختلفة ، بل ومن كل ناحية .

وقرر العلامة الجرجاني أن كل علة لابد لها من معلول هو مما تشهد العقول بفطريتها ، وأنها مركوزة في ذهن الحيوان والأطفال ، فضلاً عن العاقلين من بني الإنسان[٣]، بدليل أنك إذا أطلقت صوتاً ، ثم أخبرت طفلاً أن هذا الصوت قد صدر من غير فاعل ، أو من غير مصوت لن يصدقك أبداً ، ولو رفعت العصا علي حيوان فإنه يقفز خوفا من الضرب الذي يعقب رفع العصا ، باعتبارها علة يصدر عنها الأثر،وهو الألم الناتج عن الضرب ، وذلك مما تشهد به الفطر ، ومن ثم فلا نزاع حوله ، وإنما الجميع متفق على وقوعه.

وهذا العقل الفطري يرفض فكرة التولد الذاتي ، ويتمسك بضرورة إحالة الأسباب كلها إلى سبب واحد هو الله تعالي ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

١ ـ أن فكرة التولد الذاتي تحمل مغالطة فكرية ، إذ المادة الجامدة التي تولدت منها مادة حية ، كانت المادة الأصلية فاقدة الحياة ، فكيف تعطيها الثانية ،

---

(١) وهذا العقل الفطري لا يختلف فيه ساكن العراء عن ساكن ناطحات السحاب ، ولا ساكن القصور عن ساكن القبور مادامت فيهم الحياة قائمة .

(٢)الإمام عضد الدين الإيجي ـ المواقف ص ٣١٧ مكتبة المتنبي .

(٣)العلامة السيد الشريف الجرجاني ـ شرح المواقف ـ الموقف الخامس ص ٧٥ تحقيق الدكتور احمد المهدي

والمعروف أن فاقد الشيء لا يعطيه[١] ، وبعبارة أخرى أن تولد الخلية الحية من المادة الجامدة أمر مخالف لبدهيات العقول ، ولا يسمح به إلا في باب المعجزات التي تقع بفعل الله تعالى ، وفيها الإتقان والأحكام .

٢ ـ أن فكرة التولد الذاتي أو التلقائي فيها خرق لقدرات العقل،بدليل أنها لم تقع أمام العقل ولو مرة واحدة ـ بعيداً عن المعجزة ـ حتى يصدق بوجودها ـ أو يعتقد وقوعها ، أو حتى لا يقع له الحسم على إنكارها ، ومادامت لم تنل من أحكام العقل قبولا ، فإنها تكون مرفوضة على الناحية العقلية .

٣ ـ أن القول بها في تفسير نشأة الكائنات الحيوية،يفضي إلى القول بأن الطبيعة فاطلة عاقلة ، ولو كانت كذلك ما تم العدوان المتواصل عليها ، بل كانت قادرة على رفع الاعتداءات المتوالية المتجهة إليها ، ومن ثم فإن القول بها مردود على الناحية العقلية الفطرية .

٤ ـ أن الفكرة فيها نفي الفعل الإلهي ، مع القصدية في المفعول نفسه ـ المادة الحية التي نشأت من المادة الجامدة ـ فتحول الأمر إلى النقيض ، ومعناه إحالة الفعل الإلهي إلى التعطيل وهو الإله القادر القوي القاهر الذي لا يعجزه شئ في الأرض ولا في السماء ، وتحويل المفعول العاجز إلى فاعل قادر ، وقلب الحقائق محال[٢] ، فثبت أن القول بالتولد الذاتي محال على الناحية العقلية .

٥ ـ أن العقل السليم يقر بضرورة وجود الله تعالي ، وأنه الخالق وحده ، من غير أسباب تباشر ، أو مواد تقع الاستعانة بها ، بل هو تعالى الغني المستغني سبحانه وتعالى عما يشركون . ومن ثم فإن أحكام العقل السليم ترفض القول بفكرة التولد الذاتي ، وفوق ذلك العقل الصحيح الخالي عن الغي والضلال ، يرجع الأسباب كلها إلى الله تعالى ، فالخالق العظيم واحد هو رب العالمين ،

---

(١)تلك القاعدة تجري في الناس مجرى البدهيات ، ومن ثم فالتصديق بها حقيقة أما إنكارها فمشكلة كبيرة .

(٢) لأن حقائق الأشياء ثابتة ، وبالتالي فقلبها عدوان عليها من كل ناحية .

القائل:" هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ "(١). وقال تعالى:" ومِن كُلِّ شيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لعَلَّكُمْ تذكَّرُون"(٢)

د ــ من الناحية الشرعية :

الشرع الإلهي فيه العصمة والنجاة ، لأن الآمر به هو الله ، والحافظ له هو النقل المنزل ــ القرآن الكريم والسنة النبويةَ الصحيحة المطهرة ــ ومن ثم فإن الشرع الإلهي الذي جاء به دين الإسلام هو وحده المعصوم ، كما أنه الذي سلم وحده من التحريف ، ولم تصل إليه يد التزييف ، وسيظل محفوظاً بإذن الله تعالى إلى يوم الدين ، لأن المولى الكريم الذي أنزله ، وهو الذي شهد له بذلك ، قال تعالى :" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون "(٣).

كما أن هذا الشرع الإلهي فيه الشفاء ، والرحمة والعلاج من كل داء لأهل الإيمان بالله رب العالمين ، لأنهم الذين يهتدون بهديه ، ويستظلون بظله وعدله ، أما أهل الكفران ، فلن يقع لهم إلا الضلال والخسران قال تعالى :"ونـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا"(٤) .

ولما كانت النقول التي بأيدى أتباع اليهودية الدينية والسياسة(٥) غير مقبولة

---

(١) سورة لقمان الآية ١١ .

(٢) سورة الداريات الآية ٤٩ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩ .

(٤) سورة الإسراء الآية ٨٣ .

(٥) اليهودية الدينية هى الشريعة الإلهية التي جاء بها نبي الله الكليم موسى بن عمران لهداية بني إسرائيل وحدهم ، وكانت هذه الشريعة تحملها التوراة لقوله تعالى:" إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" سورة المائدة الآية ٤٤ ، وبجانب التوراة الألواح والصحف ، فلما انقضى أمره بينهم تحولوا إلى اليهودية السياسية التي قامت على العهد القديم ، والتلمود ثم البروتوكولات وهي غير التعاليم الإلهية تماما

من الناحية الشرعية [1]، كما أنها تفتقد الأسس الصحيحة ، وكذلك الحال في النصوص التي بأيدي دعاة المسيحية لأنها منقطعة السند ، مضطربة المتن ، غير مقبولة المعاني ، مفصولة عن أصول الدعوات الإلهية ، التي أرسل بها أنبياءه السابقين لهداية البشر ، فإنها جميعا لا ثقة فيها ، ولا أمان لها ، ومن ثم فلا توجد نصوص مقبولة سوى النقل المنزل في القرآن الكريم والسنة المطهرة.

من المؤكد أن النصوص الشرعية الإسلامية لا تمنع التطور الإحيائي على الناحية الشرعية ، وهي استناد الأشياء كلها إلى الله تعالى[2]، ولكنها ترفض التولد الذاتي القائم على مفهوم التلقائية ، وعدم الاحتياج إلى الخالق العظيم ، لأن الله تعالى هو الذي قال :" إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين "[3]، وقال تعالى :" ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل"[4]، بل إن الخلق الإلهي شامل الوجود والعدم معا ، لقوله تعالى :

" تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور " [5] .

---

(١) لأن سمات النقول الشرعية لا تنطبق على ما بأيدي أتباع اليهودية والمسيحية أو غيرهما كالبوذية والزرادشتية والكلتية بل والآكادية والسومرية ، فإنها جميعا حملتها نصوص لكنها زائفة وليست شرعية أيضا ، ويمكن مراجعة كتابنا وميض النصرانية بين غيوم المسيحية ص ٣١٥ ، وكتابنا بين المسيحية والإسلام في العقيدة والأحكام ص ١٣٩ ،وكتابنا: كشف الأفنان بين الملل والنحل والأديان .

(٢) وهذا الاستناد يمثل عقيدة المسلم بالله رب العالمين وعليه أهل السنة والجماعة ونحن نتمسك به .

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٤

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٢

(٥)سورة الملك الآيتان ١ ، ٢

فالموت مقدر والحياة مقدرة ، ومن ثم فكل منهما مخلوق لله رب العالمين ، وكل ما هو داخل في نطاق ماسوى الله تعالى فإنه يكون مخلوقاً على سبيل الوجود ، أو قائما في ناحية الإمكان بالنسبة للعدم ، ومرده في كل أحواله إلى الله تعالي ، قال جل شأنه : "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ" (١)، وقال تعالى :" اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ "(٢)

من ثم فإن الله وحده هو الخالق لكافة الكائنات ، وهو المنشئ لها من العدم وهو الحافظ لوجودها ، وهو إذا شاء جعل العلاقة بين هذه الموجودات تنحل وتتلاشى، قال تعالى:" يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"(٣)، فالحياة سر من أسرار الله ، ونفخة من أمره جل علاه ، جاءت إلى المادة الجامدة ، بطريقة لا يعلمها إلا الله،كالحال مع أبي البشر آدم عليه السلام ، حيث كان طينة منجدلة لاحس فيها ولا حركة ، ثم نفخ الله فيه من روحه ، فصار بشراً سوياً ، حياً سميعاً بصيراً عاقلاً ، قال تعالى:" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ "(٤).

ولا يمكن للإلحاد أياً كانت توجهاته أن يلغي هذه العقيدة الإيمانية في القلوب أو يقلل من تأثيراتها على النفوس ، بل أن النصوص الشرعية دفعت العقل الإنساني لالتماس الحقيقة القائمة في ذاته هو ، فقال تعالى :" وفي أنفسكم أفلا

---

(١) سورة القمر الآية ٤٩

(٢) سورة الرعد الآية ٨

(٣) سورة فاطر الآية ١ .

(٤) سورة الحجر الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

أفلا تبصرون"(1).وقال تعالى :" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب "(2)، قوله تعالي:" فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر " (3).

وما دامت هذه الكائنات كلها قد خلقها الله أولا ، دون تدخل لأحد فيها ، فإنه جل علاه القادر سبحانه وتعالى على إعادته مرة أخرى ، ومرات كثيرة دون احتياج لأحد أيضا .

وقوله تعالى :" أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في ما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون "(4).

وحال النشأة الأولي معروف ، وقائم على أن الله تعالى هو الخالق لنا من العدم ،وما الطين والماء إلا مظهر لذلك الخلق الإلهي ،وأمر التبديل كأمر الخلق والإعادة ، كل ذلك راجع إلى الله تعالي .

وقوله تعالى :" وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى فبأي آلاء ربك تتمارى "(5).

وهذا دليل على أن الخلق المباشر المستمر هو صنع الله تعالى الذي أتقن كل شيء(6)، وأن تلك المراحل ليست من قبيل التطور الذاتي ، أو الانتخاب

---

(1) سورة الذاريات الآية ٢١

(2) سورة آل عمران الآية ١٩٠ .

(3)سورة الطارق الآيات ٥ — ٨ .

(4)سورة الواقعة الآيات ٥٨ — ٦٢ .

(5)سورة النجم الآيات ٤٥ — ٥٥ .

(6)الدكتور/ محمود قاسم — نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توماس الأكويني ص ٢٠١ .

الطبيعي ، أو التولد الذاتي ، وإنما هي مراحل تنظيمية في تصوير الخلق وكيفيته ، بالنسبة لنا نحن العقلاء ، حتى نستوعبه عقولنا .

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي تثبت الخلق والإنشاء والتدبير والأحكام لله رب العالمين ، وأنه وحده الخالق الرازق القادر السميع البصير إلى آخر صفات الجلال والكمال والإكرام ، " فتبارك الله أحسن الخالقين "[١].

ومن الآيات الجامعة في هذا المجال قوله تعالى :" والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون "[٢].

وذلك كله ينتهي إلى إثبات أن فكرة التولد الذاتي لا وجود لها إلا في أذهان الحالمين ، وأن شئت قلت في جدل الغافلين ، لأنها تقوم على إلغاء الإيمان بالله رب العالمين ، وإحالة الخلق كله إلى المخلوق نفسه ، ولا يقول بهذه الأفكار عاقل سلم له فكره.

هـ ـ من الناحية المعرفية :

ركز الطبيعيون في القول بالتطور العضوي على الجانب الخلوي الجسدي فقد ، فلما وجدوا أن الروح غير داخلة النظام الذي قالوا به ، حاولوا إضافتها للمادة أيضا، لكن الكائن الحي له معارف ، فمن أين تأتيه تلك المعارف العقلية ، وليس في الجسم جانب عقلي عندهم .

---

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

(٢) سورة فاطر الآيتان ١١ ، ١٢ .

إن التطور الإحيائي فكرة ميكانيكية يقوم بها العقل في محاولة فاشلة مع غرضه تفسير نشأة الكون ، والتطورات التي صاحبته ، لكن العقل نفسه ليس مظهرا فرعيا للحياة ، وإنما هو أكبر من ذلك بكثير ، أنه يتقدم بتصوراته ، ويعود للخلق بإمكانياته مما يجعلنا نقرر استحالة انفصال نظرية المعرفة الإنسانية عن نظرية الحياة ، ولو اجتمعنا فسوف تستعيضان عن نظرية التطور الخاصة،التي هي مجرد تصورات كاذبة[1]ونحن نرفض فكرةالتولد الذاتي لذلك.

إذن الطبيعة لم تخلق نفسها ، والحياة منتظمة على وتيرة واحدة في بذل جهدها لإحياء المادة ، وهي لا تعرف فرحا ولا حزنا ، ولا تميز بين أحدا أبدا ، ومع هذا فالحياة هي الأساس ، وهي الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها فهم المادة ، وليس العكس،فمن أين يأتي التولد الذاتي ، وهو خاص بالأجساد ، والحياة ليست صورة أو مظهرا جسديا ، وإنما هو سر من أسرار الله .

ثم أن الحياة هي المصدر الوحيد للوعي والشعور ، وهي وحدها التي تجعلنا ندرك صنع الله فيبهرنا جمال ذلك الصنع الإلهي ، وإن كانت أعيننا لا تزال فوقها غشاوة ، تجعلنا نعجز في بعض الأحيان عن التعرف عليها .

كما أن مفهوم الحياة ، وهو الجانب الغيبي الذي ينظم الجانب المادي وغيره ، ليست إلا أداة تخدم مقاصد الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، وعلى هذا فالحياة باقية كمشيئته تعالى[2]، وبذلك ننتهي إلى هدم فكرة التولد الذاتي ، كما انتهينا من نسف ما قبلها ، وأعني به القول بقدم المادة وأزليتها .

لكن ما هي علاقة ما سبق بكل من تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي ، بل وما هو دور التنازع من أجل البقاء ، والانتخاب الطبيعي في الأفكار التطورية ، وما هو دورنا في مناقشتها وموقفنا منها ، ذلك ما سوف أتناوله في الفصل

---

(١)برى برجسون ـــ التطور الخالق ص ٨ ـــ ٩ ، وفيهما ردود كثيرة على التطور الإحيائي من ناحية المعرفة

(٢)أ . كريسي موريسون ـــ العلم يدعو للإيمان ص ٩٠

الثاني من هذا الباب إن شاء الله تعالى ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليـــه أنيب .



الفصل الثاني

تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي

يعتبر التنازع من أجل البقاء أحد الركائز الأساسية في الأفكار التطورية على الناحية الإحيائية ، كما يمثل نفس الأهمية مبدأ الانتخاب الطبيعي ، بحيث يمكن القول بأن كل واحد منهما له دور هام في الأفكار التطورية الإحيائية ، مما يجعلني أخص كل واحد منهما بحث مستقل عرضاً ومناقشة على النحو التالي :

أولا : تنازع البقاء :

يعتبر ناموس تنازع البقاء(١) واحدا من المبادئ التي قامت الأفكار التطورية عليها ، لأن البعض يعتبره استنتاجا أمكن لداروين الوقوف عليه ، من مبدأين فطريين ،على حسب تعبيره(٢) هما ميل جميع الكائنات الحية للتكاثر(٣) والثاني ثبات عدد الأنواع .

ولكن القراءة المتأنية للأفكار التطوريه ، يطلع الباحث على أن داروين لم يكن مستنتجاً لهذا المبدأ ، بقدر ما كان موظفا جيداً للأفكار التي وصلت إليه،من غيره (٤)، ذلك أن جورج هيبان تحدث عن المتوالية الهندسية ، وانتهى إلى أن الأعداد في الكائنات الحية تتزايد على شكل متوالية هندسية(٥)بمعنى أن الزيادة فيها تقع على التضاعف في الأصل ، وليس في الزيادة البسيطة عليه .

ثم جاء روبرت مالتوس ونظر إلى ما تركه هيبان ، ثم أضاف إليه المتوالية الحسابية(٦)ليضبط الواقع الفعلي ، أو النمط العملي ، فانتهي إلى أن الأحياء

---

(١) يعرف تنازع البقاء بأنه سعي كل كائن حي في الحصول على حقه الكامل في الحياة ، ولما كانت الأعداء كثيرة ومتطلبات الحياة قليلة ، فإن الكائنات الحية تتنازع هذه المتطلبات، في سبيل بقاء كل نوع أو كل فرد منها . ويعتقد داروين أن تنازع البقاء يكون على أشد ما يكون بين أفراد النوع الواحد .

(٢) الدكتورة / وفاء عبد العظيم جميل . التطورات البيولوجية في الحيوان والإنسان ص ١٣٥ .

(٣) سواء أكان التكاثر جنسيا نشأ من فردين فما فوق ، أم كان لا جنسيا ناشئا من فرد واحد .

(٤) وهذا مما يقرره الواقع العلمي ، إذ أن داروين لم يكن منتجا لهذه الاستدلالات ، وإنما كان مستنتجا لهذا الاستنتاج وغيره من مبدأين .

(٥)المتوالية الهندسية تعرف بأنها الزيادة التي تبدأ من الضعف فما فوق ، منسوبا للحد الذي قبله باعتبار الزيادة أو النقصان ، وهي نوعان : أ - متوالية هندسية بالزيادة ب - متوالية هندسية بالنقصان .

(٦) وهي التي تعرف بأنها الزيادة أو التناقص بمعدل ثابت ولا صلة له بالحد الذي قبله مثاله ١ + ٢ = ٣ + ١ = ٤+١=٥ وهكذا فالزيادة فيها قليلة جدا ، وهي نوعان : أ - متوالية حسابية بالزيادة ب - متوالية حسابية بالنقصان .

يتضاعفون على نمط المتوالية الهندسية ، أما ما يتعلق بالغذاء والدواء ومضاعفة الإنتاج ، فإنما يتزايدون من خلال المتوالية الحسابية،وبالتالي انتهى إلى ضـرورة إيجاد صيغة توفيق بين عدد الأحياء والغذاء ، وإلا فإن التنازع سـيكون قويـا وحاسما[١] .

فلما جاء داروين ، اطلع على ما تركه السابقون ، وأعتبره حقائق قائمـة ، او مبادئ ثابتة في الطبيعة والكائنات الحية ، وكانت غايته مـن ذلـك ، إيجـاد أرضية مشتركة تجمع بين المتواليتين في نسق رياضي ، تتحقـق بـه مصـالح الكائنات الحية على وجه العموم ، لكنه تسرع في ابتسار النتائج، كما أسرع إلى إصدار العديد من الأحكام التي لا تجد لها أرصدة علمية مقبولة ، وبالتالي فلابـد من التزام المنهج الذي سرت عليه حتى تتضح الأفكار بالعرض والمناقشة .

أ ــ عرض الفكرة :

دعاة التطور العضوي ــ الإحيائي ــ يزعمون أن الكائنات الحية تتنـازع في سبيل البقاء ، بمعنى أن حياة كل فرد تتوقف على حياة فرد آخـر ، وحتـى يحافظ كل نوع ، بل وأفراد كل نوع على حياته وأنساله ، فلابد له من التنـازع مع الغير ، بحيث يبقي أحدهما ، ويفني الآخر ، نظراً لعدم اسـتيعاب أسـباب الحياة لهما معاً، وضيق متطلبات الحياة عن الوفاء باحتياجاتهما في وقت واحد ، مهما تعددت ألوانها ، وكثرت مصادرها[٢].

ثم ان مفهوم التنازع للبقاء ليس محصوراً في الكفاح العضلي الذي تكـون الغلبة فيه للقوي من فردين متنازعين فقط ، بل هو جملة لغايات أخرى كثيرا مـا تكون غامضة ، ضئيلة القيمة ، ولكنها تظهر الحاصل عليها فوق الآخر[٣]بحيـث

(١) والتنازع هنا إنما هو تنازع متطلبات واحتياجات ، وليس تنازع عضلات وتطاحن جيوش وقوات .
(٢) والغريب أن هذه الأفكار السوداوية قد ألحقت بالفكر الإنساني الضرر الكبير ، وبخاصة الفلسفة الوجودية لدى كل من سارتر ومن معه .
(٣) سلامة موسى - نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٨٣ .

ينتصر عليه ويغلبه ،وينتهي الأمر به إلى إهلاكه تماماً ، وهنا تظهر قيمتها الحقيقية ، لأنها كفايات يقوم التنازع فيها طلباً للبقاء(١) .

ونظراً لوجود الكائنات الحية،وتكاثرها العددي ـ حسب المتواليات الهندسية ـ ونقص الاحتياجات الضرورية ، من الغذاء والكساء عن الوفاء بمتطلبات هذه الملايين الكثيرة ، من الإنسان والحيوان والنبات ، فإن الصراع بينها على الحصول إلى المتطلبات الضرورية يكون صراعاً حتمياً بين أفراد النوع الواحد وبين كل نوع والآخر ، إنه صراع من أجل البقاء(٢) .

ومن المفيد القول بأن التنافس على الاحتياجات الضرورية ، إنما هو تنافس قادت إليه الجوانح الداخلية ، بجانب البيئية التى تمثل أهم الأخطار الحقيقية ، أو الأعداء الذين يتربصون بالحياة وأشكالها المختلفة ، بل وفي مظاهرها المتباينة(٣) إذن المشكلة لها طرفان يتمثلان في :

أ ـ إنتاج أفراد كائنات حية متزايدة،في تضاعفات كثيرة مطردة تقدر بالملايين، ولو قدر لكل هذه الأعداد أن تعيش ، لضاقت الأرض بها ، ولكن الواقع يؤكد أن عدد أفراد النوع الواحد يظل ثابتاً ، تقريباً لفترة طويلة .

ب ـ إنتاج كميات غذائية متضائلة لا تفي باحتياجات الأحياء،في الغذاء والمأوى وبالتالي فلابد من وقوع التنافس ـ بين هذه الأحياء ـ الذي يعتبر صورة من صور الكفاح المستمر في سبيل أو من أجل البقاء .

موقف داروين من تنازع البقاء :

أجل ألمح أرازموس داروين إلى تنازع البقاء وذلك أثناء حديثه عن توارث الصفات المكتسبة ، لكنه جعله في صورة تنازع منافع وعضلات ، وليس تنازع

---

(١) كأن هذه الكائنات صارت في أفهام هؤلاء عاقلة ، وبالتالي تحرص على الحياة وتسعى إليها ، وهذا وهم باطل ، وضلال كاذب .

(٢) الدكتور / السيد محمد حسنين أبو ربة ـ المشكلات التطورية ص ١٥٧

(٣) أنطوان كريسبي ـ التطور والحقائق العلمية ص ٤٩ ترجمة رمزي اسكندر ط دار الجيل بيروت ١٩٨٧م ـ

مفاهيم واحتياجات[١] ، كما أن جوليان هكسلي هو الآخر قد المح إليه في صورة قوية أثناء حديثه عن الانتخاب الطبيعي[٢] ، ونفس الحال مع لامرك في فكره توارث الصفات المكتسبة،على الناحية التي جاء منها فهم أرازموس داروين

غير أن ملاحظات روبرت مالتوس القس الإنجليزي في عالم النبات أو عالم الحيوان ، قد ساعدت داروين في إعادة صياغة فكرته بشكل أفضل ، ومن خلال مجموعة مبادئ وقف عليها أقامه أو استنتجه ، حيث اعتقد مالتوس أن الكائنات الحية كلما وجدت غذاء يلبي احتياجاتها الضرورية ، فإنها تتزايد أعدادها من خلال شكل متوالية هندسية ، ولما نقص الغذاء أخذت أعداد الكائنات الحية في التناقص،وأرجع ذلك إلى ما أسماه التنازع ، أو الصراع من أجل البقاء[٣].

ولما كان هذا الصراع يتنوع باعتبارات كثيرة ، وغايات متعددة ، فقد جمع كل اتجاه منها وأطلق عليه وصفاً بعينه ، فإذا كان التنازع بين الأحياء مع بعضها سماه التنازع الفاعلي ، على أساس أن كلا منها يقصده ويسعى إليه ، فهو تنازع مشترك من الطرفين[٤] ، ومن ثمَّ فالفاعلية فيه من الطرفين أيضاً

أما إذا كان التنازع بين الأحياء ، وقوى الطبيعة الصامتة من الجفاف والتصحر ، والمطر، والرعد ، فقد أطلق عليه اسم التنازع المفعولي ، على أساس أن الأحياء هى التي يقع عليها التنازع من الطبيعة[٥]لا أنها التي تقوم به

فلما وقف دارون على نتاج مالتوس أعجب به ، وحاول إيجاد طريق له فيه أو تفصيل يقع على جزئياته بحيث ينتهي فيما بعد بنسبته إليه ، فانتهى إلى أن هذا القانون تحكمه حقيقتان :

---

(١)الدكتور/ زكريا محمد عبد العظيم - التطوريون الأوائل ص ١٦١ ط ثانية ١٩٩١م .
(٢) وقد عرضت طرفا من ذلك أثناء الحديث عن أبرز المقعدين للفكرة
(٣) جاكوب برونوفسكي - التطور الاجتماعي ص ١٤١ ترجمة امل ذكري ١٩٨١م .
(٤) الاستاذ/ فايز فرح رمسيس . الاحيائيون في الميزان ص ٣٧ ط دار القلم ١٩٧٥م
(٥) إلياس رمزي انطوان - التطور العلمي ص ٧٩

الأولي : أن الكائن الحي يتكاثر بشكل كبير ، ومن خلال نسب هندسية ، سواء في النبات أو الحيوان أو الإنسان ، ثم طبق هذه الفكرة على الإنسان ، فذكر أن الإنسان الذي يتكاثر ببطء نسبي ، يتضاعف عدده كل خمسة وعشرين عاماً[١] ، وهي نفس الفكرة التي ذكرها مالتوس ، حين قرر أن سكان أمريكا من البشر قد تضاعفوا في خمسة وعشرين عاماً عدة مرات ، ومن ثم أبدى قلقه من المستقبل متى حدث تناقص في الغذاء[٢].

لقد كان مالتوس ملاحظ نباتي ورجلا إحصائيا ، وهو يعلم أن حبة الفول الواحدة تنتج حبات كثيرة ، وكذلك القمح ولكنه على يقين من أن الآباء دائماً أقل من أبنائهم في العدد ، وأن الأبناء يتضاعفون إلى حد الكثرة ، سواء أكان هذا التكاثر جنسيا يقع بين فردين فأكثر ، أم كان لا جنسياً يقع على كائن أو فرد واحد من المنظومة الإحيائية ، ولكن داروين اعتبر ذلك قاعدة عامة،وحقيقة ثابتة لم يسمح فيها بالاستثناء ، حيث يقول : أنه لا يوجد استثناء للقاعدة ، التي تقرر أن جميع أنواع النبات والحيوان تتناسل وتزداد عدداً ، بمعدل كاف ، لأن يغطي نسل زوجين اثنين وحسب[٣] – من أي نوع منها – سطح الأرض كله في وقت قصير جداً ، ما لم ينشأ من العوامل ما يؤدى إلى فناء الجانب الأكبر منها[٤]ولما لم يسمح بدخول الاستثناء إلى شئ من هذه الفكرة ، فقد دفع أى باحث جديد إلى اعتبارها حقيقة ثابتة ، أو عقيدة قائمة في الفهم الدارويني ، كما أنها في ذات الوقت تمثل صبغة قوية ، ومبدأ عنى به داروين ومن جاء بعده .

---

(١) هذه الفكرة غير صحيحة لأنها لم تضع في الاعتبار عمليات الحروب والكوارث الأخرى .
(٢) جراهام كانون - نظرات في تطور الكائنات الحية ص ٥٣ . أنتوني هارد - التطور الحديث ص ٧١ ترجمة هناء صقر
(٣) ربما كانت الصورة الماثلة في ذهنه هي سيدنا آدم صلى الله عليه وسلم وزوجه أمنا حواء ، إذ هما معاً اللذان امتلأ العالم الأرضي بأنسالهما ، ولم يضع مالتوس او داروين صورة لكائن آخر في ذهنه أثناء الحديث عن هذه الحقيقة
(٤) الاستاذ فاير فرح رمسيس الاحيائيون في الميزان ص ٧١ وللدكتور محمود عبد الحكيم عثمان - الفكر المادي الحديث ص ٣ وللدكتور احمد عبده الجمل في المذاهب المعاصرة ص ١٦٧

الثانية : أنه بالرغم من هذا التكاثر المتزايد في سرعة مذهلة ، إلا أن عدد أفراد كل نوع يكاد أن يكونْ ثابتاً،في ذات النوع من حيث التكاثر على المتوالية الهندسية[١]، بمعنى أن أفراد الإنسان يتضاعفون بسرعة ، وأفراد الحيوان كذلك، وكل نوع منها لأفراده احتياجات ضرورية ، وما لم يعد يوجد قانون آخر يؤدى إلى حل هذه المشكلة ، فلابد من التناحر بين الأحياء في كل نوع على موارد الغذاء والمأوى ، وهو تنازع أو صراع من جل البقاء ، لا طلباً للغلبة وإبراز الانتصار والتميز .

لقد تصور دارون أن التنازع بين الكائنات الحية حتمي ، لأن الآباء قلة في العدد ، بينما الأبناء والأحفاد كثيرة،وكلها ترد البقاء والحصول على احتياجاتها من الغذاء والمأوى وموارد هذا الغذاء قليلة لا تكفي مهما كانت متنوعة، ومن ثم فإن الرغبة في الحياة ستدفع الجميع للتسابق نحو الموارد بغية الظفر بها ، وحينئذ يأتي الصراع ، ويقع التدافع ، وهو ما يطلق عليه اسم التنازع من أجل البقاء.

لقد كانت ملاحظات داروين غاية في السطحية ، كما كانت أصدق تعبير عن عقلية صاحبها الساذجة والطفولية معاً ، بل دلت على أنه لم يكن مؤمناً أبداً وإنما كان ملحداً عميق الإلحاد ،لأن الله تعالى هو الذي خلق هذه الكائنات كلها ، ومن ثم فهو الرازق لها جميعاً ، قال تعالى :" وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ "[٢].

والمعنى ما من شئ يدب على وجه الأرض،أياً كان نوعه،ومهما قل حجمه أو كثر عدده ، إلا تكفل الله تعالى به ، ورزقه ، تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما أن الله تعالى هو الخالق فهو أيضاً الرازق ، ويمهد لها مستقرها الذي تأوى إليه

---

(١) هذا ما يعرف باسم التكاثر العددي والثبات النوعي ، فالكثرة قائمة في ذات النوع وليست في فرع آخر حتى تكون الجهتان - الكثرة والثبات -منفكين ، وإنما هما في النوع الواحد ، وذلك يؤدي إلى التنازع الحتمي.
(٢) سورة هود الآية ٦ .

أو تعيش فيه ، وكذلك المستودع الذى تموت فيه وتدفن به ، وكل الأرزاق والأقدار والأعمار وما يستلزم ذلك ، أو يستتبعه مسطر في اللوح المحفوظ ، في كتاب عند الله عز وجل(١).

ونقل صاحب البحر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : المستقر والمستودع يجمعان الأمور كلها ، فمستقرها هو الذي تأوى إليه من الأرض ، ومستودعها هو الموضع الذي تموت فيه وتدفن(٢).

وفي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها وتستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب(٣)،وهو الذي نعتقده نحن المسلمين، ونلقي الله عليه

غير أن داروين لم يمكن مؤمنا ، كما لم يكن لديه إستعداد لتقبل القضايا الإيمانية ، وإنما كانت لديه رغبات شخصية في أن يكون فوق الرؤس مهما كانت المبررات ،وهذا ما دفع به إلى إعلان الإيمان بالطبيعة وإلغاء الاعتقاد فيما وراء الطبيعة .

صور تنازع البقاء :

تتنوع صور التنازع من أجل البقاء باعتبارات مختلفة ، بمعنى أن التنازع بين الأحياء في المفهوم التطوري ، ليس صورة واحدة مطبوعة ، أو قائمة في الجميع على نسق واحد(٤)، وإنما يتنوع هذا التنازع ، وتتعدد صورة طبقا للظروف والعوامل التي يتم التنازع حولها ، أو يجئ مفهوم التنازع فيها ، أو تضطر الفرد للاتجاه نحوها ، أو الالتجاء إليها ، ومن ثم فإن مجملها يجئ في الصور والملامح الآتية .

---

(١) وهذا المعنى مما يمكن فهمه من سياق الآية الكريمة ، والآيات القرآنية المتعلقة بالخلق والرزق والأجل .
(٢) العلامة أبو حيان - البحر المحيط ج ٥ ص ٢٠٤ .
(٣) العلامة الشيخ محمد أبو الأنوار الحبيبي - من هدي السنة المباركة ص ٧٣ ط الدار الدمشقية ١٣٣٥هـ.
(٤) وهذا يؤكد أن فكرة يتنازع البقاء مجرد توقع غلب على أصحابه ، وليس حقيقة واقعية .

الأولي : تنازع أفراد النوع الواحد :

وذلك كتنازع أفراد المنظومة الفقارية كلها،أو الثديية جميعاً،أو أفراد نوع من أنواعها، كتنازع أفراد الجنس البشري في قطرة ماء، أو لقمة عيش، أو الحياة في ارض بعينها ، أو تكوين الملكية الفردية ، أو الاستقلال الذاتي ، والمحافظة على الكينونة الفردية(١)، متى كانت الممتلكات الشخصية لفرد ما غير كافية للوفاء بمتطلباته، بينما الفرد الآخر تطغي ممتلكاته على متطلباته،أو تكفيه وحده.

وفي سبيل البقاء سيحاول الفرد الأول الحصول على متطلباته الذاتية ، ومن المؤكد أنها تتعارض مع متطلبات الفرد الآخر،أو تنقص من الوفاء بضروراته ، وحينئذ يقع التنازع بينهما حتما ، وكذلك الحال في كل أفراد النوع الواحد ، ومن ثم يتحول ذلك التنازع إلى كل الأنواع بشكل تلقائي .

الثانية : تنازع الفرد مع الظروف الطبيعية :

مثال ذلك ما يجرى من تنازع الفرد الطبيعي،مع الظروف البيئية الطارئة، أو البيئية المحيطة به ، والعوامل التي تفرض نفسها عليه،أو تجئ رغماً عنه(٢) كالحال مع الكوارث الطبيعية ، ومنها الجفاف الطويل ، والمطر المدمر ، والزلازل والبراكين بجانب النيازك والشهب ، والحرارة والرطوبة والقحط ، والأوبئة الفتاكة .

وقد تكون هذه الكوارث الطبيعية في شكل أمطار مغرقة ، واعصارات قاسية ، تلك التي تهدد حياته ، بما يسفر عن ذلك من نتائج(٣)، والإنسان في ذلك كله يحاول تفاديها أو السيطرة عليها ، وحينئذ يقع التنازع بينهما على أشده ، بل يكون الإنسان هو الأكثر مرونة والأكثر قدرة على تخطي العقبات التي تعوقه ، ويعمل هو على تجاوزها ، لكنه صورة من صور التنازع من أجل البقاء .

---

(١) إلياس رمزي قطوان ـ التطور العلمي ص ٤٥ ط دار منير ١٩٤٧م .
(٢) الأستاذ / محمد على الطنطاوي ـ دراسات في الكائنات الحية ص ٧٣ ١٩٦٥م .
(٣)جاكوب برونوفكس ـ التطور الاجتماعي ص ١٥٧ ترجمة أمل ذكري ١٩٨١م

الثالثة : تنازع الفرد مع الحيوان الأعجم :

وهو الذي يقع بين الإنسان ، وحيوان من الحيوانات المفترسة ، أو حديثة الاستئناس أو ما في حكمها،وذلك مثل تنازع الإنسان مع الأسد أو النمرأو الذئب وغيرها من الحيوانات المفترسة التي تبحث عن غذائها ، وما تحفظ به حياتها ، في سبيل البقاء ، وهي في بحثها عنه تقوم به في شئ من التلقائية ، والعفوية وربما العشوائية أو القصدية،طبقاً لإمكانياتها المتاحة لها .

لكنها أثناء ذلك قد لا تجد في طريقها سوى الإنسان نفسه (١)، وحتما ستحاول إشباع غريزتها حتى لو كان على حسابه ، وتعمل على بقاء ذاتها بواسطته ، وسوف لا يخضع الفرد إلى ذلك التهديد ، كما لن يوافق على ذات العدوان ، وإنما سيحاول الدفاع عن نفسه ، والمقاتلة في سبيل البقاء أيضاً ؛ ومن ثم سيقع الصراع بين الطرفين لا محالة ، وهو معنى تنازع البقاء .

بمعنى أن كل فرد منهما يطمع في البقاء ، ويحافظ عليه ، لكن بقاؤه قد يكون على حساب غيره ، أو فوق أكتافه ، ونفس الأمر بالنسبة للآخر ، وكل منهما يسعى لمصالحه(٢)ويعمل على تنازع البقاء ، حتى لو أدى ذلك إلى التنازع العقلي أو العضلي أو الاحتياجات الضرورية .

الرابعة : تنازع الحيوانين الأعجمين :

يذهب التطوريون إلى أن التنازع يكون من أجل البقاء بين فردين أو أكثر من بني البشر ، في أقل صورة ، أو بين فرد بشري وآخر حيواني ، فإنه كذلك قد يكون بين حيوانين من نوعية واحدة ، يتنازعان رغبة بعينها ، وكل منهما يحاول الوصول إليها،وتحقيقها محافظة على حياته هو(٣)،رغبة في الإبقاء على ذاته هو أولا وأخيراً.

---

(١) الياس رمزي أنطوان - التطور العلمي ص ٨١ .
(٢) ألفرد باتو - التحليل الرياضي لنظرية التطور ص ١٤٧
(٣) جاكوب برونوفسكي - التطور الإجتماعي ص ١٥٨ .

كالحال مع صراع الأسود الجائعة مع الغزلان أو النعام أو الحملان ، حيث تنهض الأسود للبحث عن غذائها لإشباع رغبتها ، فتتربص للنعام عند موارد الماء أو الكلأ ، حتى إذا اقتربت منها لإشباع احتياجاتها الضرورية من شربة ماء ، أو غذاء تسد به رمقها ، فإن الأسود تهجم عليها ، وتحاول أن تنالها أو تلتقطها حتى تتغذى عليها[١] رغبة في المحافظة على ذات النوع من الحيوان المفترس أيضاً .

لكن الغزالة أو النعامة أو الحمل الصغير، ستحاول كل منها الهرب حتى لا تقع بين أنياب الحيوان المفترس ، كما أنها تحتاج إلى الضروريات التي لابد منها كالماء والعشب ، وبالتالي ستقع بين أعداء خارجية متمثلين في الحيوانات المفترسة ، وأعداء داخلين متمثلين في الجوع والعطش ، وهذا يدعو إلى الكر والفر ، الإقبال والأدبار[٢] وهو مفهوم تنازع البقاء أيضاً .

لكن هذا التنازع نفسه قد يؤدي إلى إفناء أيهما للآخر ، ولاشك أن الذي يقع عليه الإفناء هو الضعيف ، لأنه سيظل في ضعف متواصل حتى ينقرض ، بينما القوي سيظل آخذا في التنامي والتفوق ، من ثم سيكبر ويزداد قوة ويبقى لأنه الأصلح أو الأقوى في سلم الكائنات الحية .

الخامسة : تنازع الحيوان مع النبات :

من المعلوم أن كل كائن حي يسعى للمحافظة على ذاته ، وأن ذلك قد يتم بطريقة عقلية تأملية ، وقد يكون من خلال أنظمة آلية أو عن طريق تلبية احتياجات ضرورية ، يستوي في ذلك أمر الإنسان والحيوان على اختلاف النوعيات فيهما من العامل والجاهل بالنسبة إلى الإنسان ، والأليف والمفترس في الحيوان[٣] .

---

(١) الأستاذ / فايز فرح رمسيس - الاحيائيون في الميزان ص ٤٣ ط دار القلم ١٩٧٥م .
(٢) الفرد باتو - التحليل الرياضي لنظرية التطور ص ١٤٨ - ١٤٩ .
(٣) جورج جوهار - الطريق إلى العلم ص ١٢٥ ترجمة فؤاد علي ١٩٨٣م .

بيد أنه قد أثبتت الدراسات الحديثة في عالم النبات أن النبات هـــو الآخـر يسعى إلى المحافظة على ذاته أيضاً ، حين يحاول الحصـــول علـــى احتياجاتـــه الضرورية ، من الغذاء المختزن في باطن الأرض ،وكذلك مـــا يتعلـــق بثـــاني أكسيد الكربون الذي يمتصه النبات[١] بجانب ما يتعلق بالأنظمة الإحيائية القائمـــة في الاحتياجات الضرورية للنبات على أختلاف طبائعه ومنافعه وألوانه .

لكن الإنسان والحيوان قد يجد كل منهما غذاءه في النبات،فيسعى إليه محافظة على نوعه ، لأن النبات يحفظ للجسم حيويته ،ويمده بالطاقة اللازمة التي تصون خلاياه ، ومن ثم يقع التنازع على البقاء بين النبات ، والكائنات الحية،التي تـرى حياتها مرتبطة به ، والنبات سيحاول الدفاع عن نفسه من خلال العناصر التـــي تقوم بذلك الدور، أمام هجمات أفواه الآخرين.

حينئذ ستتخذ أنواع النبات حيلاً كثيرة من باب الدفاع ، وأهم مظـــاهر هـــذه الحيل بروز أشواك بين أغصانها والألحية[٢]حتى تدافع بها عن نفسها ، أو تعلـــو قامتها كثيرا مع عدم الضخامة بحيث لا يتمكن حيوان مـــن تســـلقها ، وربمـــا أخرجت ثماراً مرة المذاق بحيث تقتل من يطعمها أو يحاول تذوقها ، وبالجملـــة يمكن القول بأنها ستبذل جهدها في الدفاع عن نفسها ، كما ستحاول الغلبة علـــى أعدائها[٣]وحينئذ يقع التنازع بين النباتات وأعدائها أيضاً .

ومن الملاحظ أن هذه الصورة من التنازع يبدو قيامها على أساس أن حيـــاة كل من هذه الكائنات الحية متوقفة على الأخرى ، أو مرتبطة بها مـــن الناحيـــة الضرورية[٤]ومن ثم فلا مناص من ذلك التنازع في سبيل البقاء ، وحتمـــا تقـــع

---

(١) الدكتور محمد زكي عبد ربه - تطور الكائنات الحية الدوافع والأسباب ص ٤٣ ط دار الفجر الجديد ١٩٨٧م .

(٢) الألحية جمع مفرده لحاء وهو قشر كل شئ ويضرب به المثل فيقال : لا تدخل بين العصا ولحائها ، والمعنى لا تدخل فيما لا يعنيك ، كما يطلق على الطبقة الظاهرة من بعض الأعضاء كظاهر الكلية والدماغ - راجع مهمات التعاريف باب اللام ص ٤٩٧.

(٣) هذا التصوير يوحي للقارئ بأن النبات يفعل بقصد ما يتعلق بالتغذية والامتداد والارتفاع ، مع أن هؤلاء لا يمكنهم التأكد من ذلك عن أي طريق سوى الظن، أو التوقع والخيال ، وهي أمور لاتبنى عليها القضايا العلمية ابداً

(٤)الدكتور محمد زكي عبد ربه - تطور الكائنات الحية الدوافع والأسباب ص ٤٦ ، ٤٧ .

الغلبة لواحد منها على نحو من الأنحاء ، ولكن المنهزم هو الآخر سيحاول إعادة الكرة فتلك طبيعة الحياة ، أما من يتغلب على الدوام فهو الذي ينحي الآخر من طريقه ، بحيث يضعف ويتلاشى حتى لا يكون له أي شئ من الوجود،أما القوي فإنه يظل قوياً ، وهو معنى بقاء الأصلح القائم على التنازع .

دور المواد الخام في تنازع البقاء :

يقوم تنازع البقاء — لدى القائلين به — على مواد خام — أو مواد ثابتة أصلية ، أو استنتاجات نظرية أمكن تحويرها على الناحية التي يستدل منها على عملية التطور الإحيائية ، وهي :

١ — أن نسل الأحياء كثير جداً ، ولا يمكن أن تستوعبه بحار العالم ويابسه ، لأن العالم محدود ، والنسل غير محدود ، وذلك مما تقتضي به المشاهدة والضرورة ، فالتنازع بينها قائم في صوره المتعددة ، ومظاهره المتكاثرة ، من خلال أسبابه الداعية إليه ، وهو ما يعرف بالتكاثر النوعي .

٢ — أن كل فرد من النظرية الإحيائية يختلف عن الآخر في النوع ، أو في المقدمات الذاتية كالذكورة والأنوثة وغيرها كثير ، وهذا الاختلاف إما أن يقع في مزاحمة مع غيره في سبيل البقاء ، وذلك من شأنه أن يؤدي إلى التزاحم ثم الفناء ، أو أن ذلك التزاحم ينفع الكائن ويؤدي إلى بقائه[1]وهو ما يعرف بالاختلاف المؤدي إلى تنازع البقاء.

٣ — أن المميزات الصغيرة بين الأفراد الناجحة في الحياة ، تتراكم على مر السنين وكر الدهور ، ومن ثم يرثها الأبناء عن الآباء ، ثم يرثها الأحفاد عن آبائهم ، وهكذا[2]، فإذا مضى مليون عام مثلاً صار الفرد الأخير كثير الاختلاف

---

(١)جورج جوهار - الطريق إلى العلم ص ١٧٨ .
(٢)الدكتور محمد زكي عبد ربه - تطور الكائنات الحية - الدوافع والأسباب ص ٥٣ .

جداً عن الجد الأول(١)، حتى يصير كل منهما نوعاً قائماً برأسه ، مع أن الأصول بينهما مشتركة ، والغايات لدى كل منهما واحدة(٢)، وهو ما يعرف باسم الانتخاب الطبيعي .

وعلى هذا فإن التنازع من أجل البقاء ، سمة قائمة في كافة الكائنات الحية ، العاقلة وغير العاقلة ، ولأن الكائنات الحية في تنازع مستمر ، والبقاء في هذا التنازع مع الغلبة إنما يكون للأكمل والأقوى في المتنازعين ، أما الأضعف فإنه يختفي من مسرح الأحداث ، ويتلاشى تماماً لعدم قدرته على الفوز بالحياة ، كما أنه يكون غير صالح لها(٣)، ولو كان صالحاً لها لأمكنه التغلب عند المنازعة ، والانتصار في أول لقاء يحتاج الحسم .

بيد أن هذا المفهوم صار لدى التطوريين قائماً في الإنسان والحيوان والنبات ، بل والكونيات والجمادات ، كما ذهبوا إلى أنه سمة الكون كله ، ومظهر الحياة وحده ولا شئ غيره ، وزعموا أيضاً أن ذلك المفهوم الخاص تدركه كافة الكائنات الحية ، وتنكر به المشاهدات الحسية ، والتجارب العلمية ، والأحوال القائمة ، وهي أفكار بعيدة جداً عن القبول ، من النواحي المختلفة ، ومن ثم سأعرض لمناقشتها .

ب – مناقشة الفكرة :

لاشك أن فكرة تنازع البقاء بين الكائنات الحية من الناحية التطورية ، قد قامت من حيث المفهوم ، على فرضية وجود رغبات داخل هذه الكائنات تدفعها إلى ممارسة سلوكيات تحكم فيها الغرائز التي تعطي البعض وتحرم البعض الآخر ، أو بعض المفاهيم التي تحكم تصرفات القائلين بفكرة التنازع من أجل

---

(١)هذا مجرد احتمال ساذج لأنه لا يصدر مثل ذلك اللون من الأحكام إلا من عاش هذه الفترات الزمانية الطويلة ولاحظ حدوث هذه التدورات من خلال الفترات الزمنية المتباعدة ، ولما لم يكن شئ من ذلك قد حدث فإن الأمر على أن مدعيها كذاب .

(٢)الأستاذ / سلامة موسى - نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٨٤.

(٣)الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ٤٣ ، ٤٤ .

البقاء ، على أقل تقدير ، وهو ما يؤدى إلى بطلانها ، بجانب أن فيها من الجدل الكثير .

إذ المفروض فيمن يلجأ للتنازع من أجل البقاء أن يتوفر له العقل والدواعي ، حتى يميز بين رغباته وشهواته ، بين آماله وأحلامه وطموحاته[1]، بين غرائزه ودوافعه ، إذ ليس كل تنازع من نوع ما ، يكون لإثبات نوع من التفوق في ملكة عقلية[2]، أو تقدم في ميادين التقنية العلمية ، أو صلابة القوى العضلية ، وذلك كله مفتقد في النبات والحيوان على أقل تقدير ، كما هو مفتقد في الكائنات الجمادية أيضاً ، ولذا فإني سأعمد إلى مناقشة الفكرة من خلال النقاط التالية :

الأول ـ الناحية الإحيائية ـ البيولوجية :

زعم التطوريون وجود تنازع من أجل البقاء بين الكائنات الحية من الناحية الإحيائية ، لكنهم يعجزون عن تقديم أو تفسير أو وجود أى مظهر من مظاهر التنازع الحيوي على وجه مقبول إحيائياً ، بجانب عجزهم عن أبراز صورة من الصور التي يجئ عليها ذلك التنازع من الناحية البيولوجية أيضاً ، ومن المعلوم أن كل سبب بيولوجي ينشأ عنه مسبب من نوع ما ، توجد بينهما علاقة بيولوجية أيضاً[3] .

فهل التنازع من أجل البقاء الذي يزعمونه أتي من جزئيات المادة الحية ، أم من غيرها ، إن ذلك لا توجد له صورة بيولوجية إطلاقا ، والأدلة على ذلك متعددة منها :

١ ـ أن علم الأعصاب يقرر امتداد الحزمات العصبية في جسم الكائن الحي ، وكلها مرتبطة بالمخ ، ومع هذا تتجه بعضها إلى تغذية الشعر ، وبعضها إلى

---

(١) وهذه الفرضية قائمة في كثير من الوجوه لكنها غير مقبولة على أية ناحية علمية .
(٢) الياس أنطوان ـ التطور العلمي ص ٧١ ، والأستاذ نعمان فضل ـ الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٤٢ ط دار العلم ١٩٤٣م .
(٣) الدكتورة / وفاء عبد العظيم نصر الله ـ التطورات البيولوجية في الحيوان والإنسان ص ١٣٩ ط أولى دار الفكر بيروت ١٩٨٧م .

أطراف القدم ، وبعضها إلى باقي أجزاء الجسم ، في منظومة رائعة ، اخذة في التعاون والتكامل[١] دالة على وحدانية الخالق العظيم وعلمه وقدرته بجانب وجوده تعالى وحكمته ، ولا ينكر ذلك إلا من لا علم له بهذه القواعد العلمية .

من ثم فإن علم الأعصاب شاهد على بطلان تنازع البقاء ، إذ لم يقل التاريخ الحيوى التشريحي أن بعض الحزم العصبية تنازع الأخرى ، أو أنها تعمل على وئدها ، أو تحاول التخفيف من أحمالها وأعبائها ، ومن ثم فقد جاء الحديث الشريف ضارباً المثل بهذا التكامل في قوله صلى الله عليه وسلم : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[٢].

٢ — أن القول بالتنازع من أجل البقاء مجرد فكرة تدور في أذهان أصحابها ، ولا تلمس أرض الواقع الحيوي ، كما لا علاقة لها بها ، أما البيولوجيا فإنها خواص خلوية ، حيوية[٣]، وبالتالي فأصول البيولوجيا والتنازع من أجل البقاء مختلفان تماماً ، إنهما يتنازعان معاً ، ولا يمكن اعتبارهما شيئاً واحداً أبداً ، ومن ثم فدعوى التطوريين لا تنهض لهم ، بل على العكس ، إنها تهدم الأفكار التي قاموا عليها.

كما لا يمكن اعتبارها من قبيل الأفكار الخالصة التي تدور في الذهن فقط ، كما لا يمكن النظر إليهما معاً على أنهما من البيولوجيا والتي تقبل الاحتكام إلى التجربة وتدعمها اتجاهات الملاحظة ، أو يمكن التعامل معها من ناحية النظام الحلوي نفسه[٤]، لأنهما بهذا المعنى ضدان .

٣ — أن تنازع البقاء يعتبر في حد ذاته من قبيل المعاني والمفاهيم الذهنية الكلية

---

(١) الدكتور عبد العظيم السيد رمضان - التطور الإحيائي تاريخه ومدارسه ص ١٩٧ ط ثانية ١٩٨٥م .
(٢) الشيخ محمد على الفيومى - من أنوار السنة ص ١٣٥ ط دار نعمان ١٣٣٩هـ .
(٣) الدكتورة/ وفاء عبد العظيم نصر الله - التطورات البيولوجية في الحيوان والإنسان ص ١٣٩ .
(٤) الدكتور عبد العظيم السيد رمضان - التطور البيولوجي تاريخه ومدارسه ص ٢٠٧

وعلى قول المناطقة ، فإنه يعتبر من التصورات المفردة[١]، وهي مباحث لغوية من حيث الحروف وتركيباتها ، ومنطقية من حيث الدلالات والمفاهيم[٢]، وذلك كله مما لا علاقة به بالبيولوجيا ، أو علم الأحياء ، فإدخال المفاهيم اللغوية أو المنطقية إلى دائرة البيولوجيا عمل مرفوض إحيائيا .

٤ ــ أن علم الأحياء يقاتل في سبيل الحصول على معلومات حيوية ، قد تكون لها بعض العلائق بالمادة وخواصها ، في جانب من الجوانب ، ومحاولة تطوير بعض هذه المظاهر أو تحويرها بغرض الوصول إلى نتائج أكثر تقدماً وأمناً، وتطوراً أيضاً ، والتنازع من أجل البقاء ، وليس صورة إحيائية ، كما أنها فكرة ليست مادية ، وبالتالي فلا علاقة لها بعلم الأحياء ، وحينئذ يمكن القول بأنها غير مقبولة من الناحية البيولوجية أيضاً .

بل فيعلم الأحياء اعتراف صريح بعجزهم بيولوجياً ، عن تقديم إجابات كافية ، على الأسئلة التي ترد بهذا الخصوص ، مما ينقض فكرتهم من أصلها ، ويهدم دعائمها من أساسها ، ويسقطها فوق رؤوس أصحابها ، لا لعجزهم عن دفع تلك الأسئلة فقط ، وإنما باعتبار أن قضاياهم غير مقبولة ، لا في المقدمات ولا في النتائج .

٥ ــ أن التنازع من أجل البقاء الخلوي ، قد يحاول أصحابه تفسير رغبات المادة وحدها ، دون اعتبار للقدرات العقلية ، والطاقات الشعورية ، بل والاتجاهات الغريزية[٣]وهما نظريتان ــ نظرية نشأة العقل والعواطف ، ونظرية نشأة الأجسام المادية ــ قد يبدو بينهما نوع من التقارب على الناحية الدراسية ، ولكن التباعد بينهما يكون كبيرا في الحقيقة .

---

(١) راجع المعاني المفردة وعلاقتها بالألفاظ في كتب المنطق ، كالقطب على الشمسية ، والمرشد السليم في المنطق الحديث والقديم ، وكتابنا الغزاليات في منطق التصورات .
(٢) يمكن مراجعة باب الدلالة في المؤلفات المنطقية ، وكم تمنيت أن يقوم باحث بدراسة الدلالة بين المتكلمين والمحدثين والأصوليين ، فهو موضوع أظنه يحتاج باحثاً يسبر أغواره . ويجتهد في بلوغ الغاية
(٣)الدكتور هنري توماس ـ التطور الخلوي ص ٤٩ ترجمة الدكتور صبري الطويل ١٩٨٧م .

ولاشك أن المادية والعقلية ربما تكونتا - في تفاصيلهما - عن طريق التكيف المتبادل ، وأنهما قد نجمتا من صورة للوجود أكثر اتساعا وسموا ، وهو المصدر الذي ينبغي أن نحدده لكل من العقل والمادة ، حتى نرى كيف خرجتا منه[٢]، بل وعلى أية ناحية جاء ذلك الخروج .

٦ - أن وجود فواصل دقيقة بين المادة البيولوجية،والقدرات العقلية ، والعواطف الإنسانية ، والغرائز والطاقات الشعورية ، يؤدي إلى رفض القول بوجود رغبة التنازع من أجل البقاء في الخلية البيولوجية ونموها داخلها ، لأن الخلية البيولوجية حينئذ تكون فاقدة الطاقات الكامنة الداعية للتنازع ، بجانب فقدانها الشعور والعقل،والنزعات الداخلية التي تمدها بأسباب التنازع،أو تقود إليها،وهذا مما لا ينكره إلا من لا علم له بالبيولوجيا ، فثبت انهدام فكرة تنازع البقاء من الناحية الإحيائية التي يجادل بها التطوريون .

الثانية - الناحية العقلية :

١ - كانت رغبة التطوريين من هذا الناموس - تنازع البقاء - إثبات أنه يحفظ التوازن بين الأحياء ، لكن لم يحدد أصحاب الفكرة المرحلة التي يتم فيها التنازع بين الكائنات الحية بغرض البقاء ، هل يكون ذلك في مرحلة النشوء ، أم في مرحلة التطور،أم في مرحلة الارتقاء،أم أنه يتم بعيداً عن هذه المراحل كلها.

إن هذا الجانب لم تتعرض له الفكرة ، وما يزال البحث عن إجابات لهذه الأسئلة قائماً يجري في أعماق الأفكار ، ويسقط في مجاهل الألغاز ، وهذا في حد ذاته يكفي لإلغاء الاعتقاد في فكرة التنازع من أساسها[٣]ويحكم بأنها قامت على التخمين ، والفرضيات التي لا أساس لها من الصحة ، كما لا علاقة لها بالواقع العلمي ، ولا المعارف الإنسانية المقبولة .

---

(٢)هنري برجسون - التطور الخالق ص ٢٧٢ .

(٣)الدكتورة / مني محمد خيري - التطور البيولوجي ص ٩٧ ط أولي ١٩٨٧م .

٢ ــ أن التنازع من أجل البقاء في أدنى صورة ، يلزمه وجود قدرات عقلية ، وإمكانيات نفسية ، وإرادة حرة ، أو غريزة متمكنة ، بجانب تركيبات فسيولوجية وسيكولوجية أيضاً ، لكن لا يعرف أحد بالضبط متى توجد ، ولا أين توجد ، بل ولا متى وجدت في الكائن الحي الغير عاقل ، وهل ذلك التنازع يقع في كل الكائنات الحية وبقدر سواء ، أم في الإنسان على وجه الخصوص ؟

إذ أن أصحاب الفكر التطوري الإحيائي يزعمون أن النوع الإنساني في بدأ وجوده من خلال حيوان بسيط جداً ، كالبوليب ثم أخذ في التنامي والتطور ، حتى صار حيواناً ذا خلية ، ثم ارتقى إلى ما هو أعلى من ذلك[١]، فصار كالأميبا حيواناً من خلية أحادية التركيب ، وهذا لا مكان فيه للغرائز ولا العواطف ، كما لا مجال فيه بالنسبة للقدرات العقلية في أى جانب من جوانبها .

٣ ــ يزعم التطوريون أن هذا الكائن الذي صار خلية أحادية التركيب ، قد قفز فوق مدارج التطور والارتقاء حتى صارت أولى مراحله الإنسانية إنساناً أول ، أشبه بالحيوان لا يعقل ولا يدرك ، كما لا يتكلم ولا يعبر ، ثم تطور مرة أخرى وأرتقى شيئاً فشيئاً حتى صار إلى ما هو عليه الآن من كمال [٢]، فهل يتم ذلك من غير عقل منظم يقوم به ، وقدرات إبداعية متكاملة تسعى لتحقيقه؟

وهذه المراحل الأولي لا يوجد فيها شئ من التنازع أصلاً ، فمن أين جاءت الفكرة ، بل من أين دخلت إلى الكائنات الحية[٣]مع أنه لا وجود لها في كل

---

(١)الدكتور / عبد الباسط عبد النبي الأحمد ـ نظرات في الداروينية ص ٥٧ ط أولى ١٩٥٧م .

(٢)الأستاذ/ محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ص ٨٥ .

(٣)والملاحظ أن لامارك قد ألمح إلى قواعد كل من : ١ ـ التولد الذاتي ٢ ـ التحول والصيرورة ٣ـ التباين ٤ ـ قاعدة الحتمية ، وفيها كلها نوع من التقارب الشديد البالغ حد التشابه ، ويميل البعض إلى نسبة كل من التحول والتباين إلى داروين ـ راجع الرد على الدهريين ص ٣٤ وما بعدها ويعزى إلى داروين أنه وضع النواميس الأربعة : ١ ـ تنازع البقاء ٢ ـ الانتخاب الطبيعي ٣ ـ المطابقة ٤ ـ الوراثة ، وراجع لداروين أصل الأنواع ص ٧٥ وما بعدها ، ومن المرجح أن هذه النواميس أو القواعد ليست وليدة عقلية واحدة ، أو تدل على خط فكرى بعينه ، بل الأقرب إلى الصواب القول بأنها أفكار غير متكاملة ، وغير ناضجة أيضاً ، كما أن الفرضية التى تعتمد عليها ، إنما هي فرضية تخمينية قامت على جملة من المشاهدات الشخصية في أنواع أو أشخاص أو اعتبارات لا علاقة بها بشئ من الواقع العلمي أو الحقيقي

المراحل التي مرت ، كما لم تظهر صورة متدنية يمكن أن تلتمس منها الفكـرة ، ومن ثم فإن العقل الصحيح يحكم بأنها مجرد توهمات لا أساس لها من الصحة ، على الناحية العلمية والعقلية أيضا .

٤ ـ أن التنازع بالمفهوم العام ، معناه توفر العديد من الدواعي التي تجري في أعراف أصحابها يلتمس منها سبل النجاة ، وذلك يستلزم وجود رغبات داخلية يقع فيها التنازع موقع الحس والحركة ، وقدرات عقلية تقود إليه ، أو تحاول فرض نفسها عليه ، أو محاولة التخلص منه ، وذلك كله غير متوفر في الخلية : ALCELL التي هي مجرد أمشاج خلوية ، خالية تماما من أية صورة للقصدية والغائية في حد ذاتها[١] .

بل هى خالية تماما من أوجه التفكير العقلي ، فمن أين تأتيها القصدية أو الغائية حتى تلجأ للتنازع ، إن العقل لا يصدق ذلك ، بل ومن أين لهم ذلك حتى يقال أنها حرصت على البقاء ؟

٥ ـ إن الخلية البيولوجية ما هي إلا مادة عضوية ، أما العقل فهو نور روحاني به تدرك العلوم الضرورية والعلوم النظرية[٢]وبالتالي فالعقل غير عضوى مع أن التنازع لا يكون إلا من خلال إدارته هو لذات المعركة ، لأن التنازع في مفهومه يأتي كمظهر من المظاهر العقلية أو الغريزية ،وليس عن طريق لخلية .

لأن العقل هو الذي يعرف رغباته فينزع إليها ،ويعرف مخاوفه فينصرف عنها ، ويبتعد حتى عن كل التي تقربه منه ، وليس ذلك من شأن الخلية البيولوجية التي هي مادة عضوية مخالفة تماماً للعقل[٣]وهذا في حد ذاته كاف لإلغاء فكرة تنازع البقاء على الناحية التي يزعمها دعاة التطور الإحيائي .

---

(١) الدكتور / محمد مصطفى الفولي ــ بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية ص ٢٩٧ .

(٢) العلامة الباجورى ــ حاشية الباجورى على شرح السلم ص ٧ .

(٣) هنرى برجسون ــ التطور الخالق ص ١٧٢

٦ – أن الأعاصير والزلازل والبراكين وغيرها من العوامل الطبيعية التي تقع على الكائنات الحية فتدمرها تماماً ، دون أن تكون هذه العوامل قاصدة إفناء هؤلاء ، أو أنها تعمل على التقليل من أخطار التكاثر السكاني[١] فالحرائق التي تدمر الكائنات الحية ، ونفايات المصانع ، والمخلفات الحيوانية والإنسانية التي تحذف هذه الكائنات من أشكال الحياة ليس بينها تنازع ، وإنما هي تجري بأقدار الله تعالى[٢]، فثبت أن التنازع من أجل البقاء مرفوض من تلك الناحية .

الثالثة – الناحية الواقعية :

الواقع المشاهد ليس في صالح التطوريين،بل هو على العكس من ذلك ، إنه يهدم أفكارهم من كل ناحية ، ولا يقيم لها وزنا ، والأدلة على ذلك كثيرة تفوق الحصر أبرزها :

١ – أن العدوان الذي يمارسه الإنسان على بعض الحيوانات لما فيها من منافع[٣]، أو التسلط الذي يقوم به نحوها ، إنما يتم لأغراض بعيدة كل البعد عن تنازع البقاء ، حيث يكون ذلك من باب التسلية ، وإضاعة الوقت[٤]، وقد يكون لما فيها من بعض المنافع التى علمها[٥]، وقد يكون لما فيها من أوجه الجمال والزينة ، وعلى ذلك فإن هذا العدوان عليها ليس لأجل البقاء حتى يحسب عليه . وكذلك الحال مع الحيوان الذى يفتك بالأضعف منه لا طلباً لإشباع غريزة ،

---

(١) فالقصدية والغائية لا مكان لها بالنسبة لهذه الكائنات بدليل أن هذه الأفكار لا تعرف شيئاً عن ما تفعل ، حق ينسب إليها القول بالفعل أو القصد إليه

(٢) قال الله تعالى :" اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ" سورة الرعد الآية ٨ .

(٣)كالذي يحدث مع الفيل طمعًا في أسنانه التي تستخرج منها منافع كثيرة،والطاووس الذي يؤخذ ريشه للزينة ، والغزال الذي تؤخذ سرته لما فيها من طيب ومسك ، وقديماً قال الأعرابي المادح :

فإن تفق الأنام وأنت منهم   فإن المسك بعض دم الغزال

(٤) ويمارس هذا النوع بعض المترفين في البلاد العربية التى ظهرت بها ثروات الذهب الأسود . أو الذين هم من سلالة الدم الأزرق فإنهم يمارسون هذه الأفعال العدوانية للتسلية وليس لشيء آخر

(٥) كالفرو والجلود التي تكون على أجسام بعض الحيوانات ومنها الصوف في الغنم والوبر في الإبل وغيرها

وإنما لإظهار قدرة تميزه ومهارته العالية[1]وبخاصة إذا كانا من نوعية واحدة ، كالكلب والقط والفأر ، أو كالطاووس والزرافة والدجاجة ، فإن بعضها يهلك البعض الآخر دون حسبان شئ حتي يطلق عليه اسم تنازع البقاء من عدمه .

بل المفروض على لغة التطوريين،أن يقاوم كل من الحيوان المفترس والأليف العدوان الذي يمارسه الإنسان عليها ، فما باله أجبرها جميعاً على الاستسلام له ، حيث يقع بين يدي صائده ، ولا يأكل الشباك حتى يفلت ، كما لم نسمع حكاية واحدة قام فيها الحيوان بهذا الدور القصدى[2]، كل ما يصدر عنه مجرد حركات غضوبة لحبسه وتقييد حركته ، ولكنه لا يقاوم في سبيل البقاء ، وإنما طلباً للحرية والانطلاق .

٢ — افترض التطوريين أن النبات هو الآخر يتنازع من أجل البقاء ، وبالتالي تحول النبات عندهم إلى قوة غلابة ، وإرادة ناجزة ، وقصدية مشمولة بالعنف والممارسة ، مع أننا لم نشاهد شجرة تقذف بأغصانها في وجه قاطعيها [3]، بل على العكس تسقط النخلة ثمارها عن طيب خاطر ، كما تفعل أشجار الفاكهة أغلبها دون أن يقوم بشئ منها الإنسان ، فأين ذلك التنازع ؟

٣ — افترض التطوريون أن تنازع البقاء عبارة عن نتيجة لكثرة الأنسال وقلة الأرزاق ، ولكن الواقع شاهد على عكس ذلك، بدليل أن استراليا مثلاً فيها اتساع

---

(١) كالحال مع بعض الحيوانات التي تلجأ لقتل حيوانات أخرى ، لا لأنها تنازعها في البقاء ، وإنما لإظهار أنها أقوى منها وأكثر تأثيرا .

(٢) بل الدلائل على أن البعير متى سقط عنه راكبه أو حاديه،فإنه يلتفت إليه حتى ينهضه من سقطته ، وكم سمعنا من أهل البداوة عن إنقاذات تمت للإنسان على أفواه الأبعرة ، كما أن الاحصاءات العامة دلت على أن بعض الكلاب قد ساهمت في إنقاذ أصحابها من الغرق ، ودافعت عنهم من اعتداءات الآخرين ، كما لم يمنع حيوان من ذوات الثدي لبنه عن طالبيه فدل الأمر على أن فكرة التطوريين أو ناموسهم لا أساس له من الواقع .

(٣) لو فعلت ذلك لكان خرقاً للعادة ، ولا يكون خرق العادة على الناحية الشرعية إلا معجزة لنبي،أو كرامة لولي ، أو فراسة لتقي ، أو إرهاصا يمهد لظهور نبي ، أو معونة لعبد صالح ، أو مغوثة لمؤمن ربقي ، راجع خوارق العادات في كتابنا الإيمان بالغيب وأثره على الفكر الإسلامي أثناء الحديث عن السمعيات .

المساحات الزراعية ، وكثرة الأرزاق إلى الحد الذي يزيد على الرفاهية بكثير[١] ومع هذا يقع اصطياد الإنسان للحيوان من باب الترف والتسلية .

بل أن حيوان الأرنب وما أشبهه من الفقاريات الثديية ، يقوم الإستراليون باصطياده أو تربيته ثم ذبحه وإحراقه[٢]، فلو كان التنازع من أجل البقاء ، ما تمت ربيته ، ولكان من الواجب الاحتفاظ بالأموال التي تنفق في تربيته ، وتوجيهها إلى جهات أو منافع أخرى ، والواقع يكذب الداروينية .

٤ — افترض دارون أن التنازع على البقاء يكون في أعلى درجاته متى كان بين أفراد النوع الواحد ، ثم بين الأنواع الأقرب ، وكلما بعد بعضها عن بعض ، قلت صورته ودرجته حتى يبلغ التلاشي ، ولكن الواقع غير ذلك ويشهد لغير صالحه ، بدليل أن الحيوانات الثديية ذات الفصيلة الكلبية — الأسد ، الغزالة ، الكلب ، الحصان ، البقرة ، وأمثال ذلك إنما هي صور متعددة لنوع واحد .

ولا يأكل الأسد إلا اللحوم ، وهي تتوفر في الحيوانات ذات النوع الواحد ، والقتال بينها ليس على أشده ، وإلا تحولت الغابات والصحارى إلى بحر من الدماء التي لا تجف[٣]، بل ولكثرت الحيوانات المفترسة جداً ، وانقرضت الأليفة بسرعة جداً ، وهذا لم يحدث ، بدليل أن الغابة ما تزال فيها الأنواع المختلفة[٤].

---

(١) ذكرت الإحصائيات العالمية أن مساحة الأرض الصالحة للزراعة تزيد على أعداد البشر بشكل كبير جداً ، مما حدا بأستراليا أن تفتح باب الهجرة إليها مع التخفيف في الشروط إلى أبعد مدى - راجع للدكتور محسن سرحان مستقبل الغذاء في العالم ص ١٧١ ط أولي دار مراد ١٩٩٧م .

(٢) وهذا حرام مخالف لشريعة الإسلام لأن للحيوان حرمة ، ولا يجوز التعامل معه إلا في حدود ما شرع الله تعالى ، فإحراقه تدمير للبيئة ، وتعذيب للحيوان ، وإهدار لمال يمكن توظيفه في أوجه الخير .

(٣) الدكتورة ناهد المحمدي جبران - دارون الفكرة والواقع ص ٤٥ ط أولي دار ابن عليوشه بتونس ١٩٨٧م .

(٤) وهذا من دلائل وجود الله تعالى ووحدانيته وعلمه تعالى وحكمته ، إذ لو كانت عمليات الخلق قائمة على العشوائية أو الصورية أو الانتخاب الطبيعي لما أمكن تحقيق هذا التعادل في كافة الكائنات ، بل لوقع الفناء على بعضها من عدوان الأقوياء على الضعفاء ، ولمات الأقوياء أيضا في المستقبل حيث لن يجدوا ما يعيشون عليه .

كما ان الحوادث التي تقع بين الطبيعة والأحياء ، أو بين الأحياء بعضهم البعض ، لا تفرق بين الأنواع القريبة أو البعيدة ، بدليل أن السيول الجارفة تأتي على بيت النحل الجبلي ، كما تأتي على نافقاء اليربوع ، ووجار الذئب ، وأرحي النعامة ، وكناس الوحش وعرين الأسد[1] على قدر سواء .

وقد تعجب الدكتور الأصفهاني من هذه الفكرة المنقوصة،حيث ذكر أن ألسنة الشهب تهلك الأنواع المتقاربة والمتباعدة على قدر سواء ، كما أن الإنسان يقصع القمل[2]، ويحرق البق[3]ويقتل البعوض[4]لأنها تمنعه لذيذ سباته ، كما يقتل الأسد ، والحيوان وحيد القرن ، حذرا من براثينه أو قرنه ...

فأين ذلك من قول الداروينيين بأن التنازع يبلغ معظمه بين الأنواع الأقرب بعضها من بعض ، لاشتراكها بالنسبة للمتنازع فيه ، بل ما هو المتنازع فيه بهذا المعنى من التنازع حتى يشتركا فيه،وهل يبقى موقع لقوله كلما بعد بعضها عن بعض ضعف حتى يفقد[5] وفي تقديري أن داروين كان جامع أحطاب فكرية أقرب شبها بالعصف المأكول ، وكان الأولي له حرقها بعيداً عن ميدان الفكر الصحيح ، حتى لا يلتاث بدخانها .

٥ ـ افترض التطوريون أن التنازع ليس قوة عضلية ، وإنما هو تنازع في الاحتياجات ، لكن الشاهد العلمي يؤكد خذلانهم للفكرة ذاتها،لأن مفهوم الأقوى لم

---

(١)الدكتور محمد رضا الأصفهاني ـ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٤٥ .

(٢) القملة حشرة تتولد على البدن عند دفعه العفونة إلى الخارج وجمعها قمل ، أما القمّل فهي دويبة من جنس القردان إلا أنها أصغر منها تركب البعير عند الهزال ، ومنها ما هو أكبر قليلاً يقع في الزرع فيأكل السنبلة وهي غضة قبل أن تخرج ، وهي غير الجراد ، راجع قطر المحيط باب القاف ص ٧٤٧ ، المنجد في اللغة والأدب والأعلام ج٤ ص ١٩٥ ، القاموس المحيط باب اللام فصل القاف .

(٣) البقة حشرة من رتبة نصفية الأجنحة ، أجزاء فمها ثاقبة ماصة ، على شكل خرطوم ، ومنه ضروب ، ويمكن للبقة أن تمتص جزءا من دم من وقعت عليه ، فإذا تكاثرت على جسم إنسان أصابته بالأنيميا ، وأجزاؤها مرنة ، ولا تهلك إلا بقصعها حيث تتحطم أجزاؤها أو حرقها حتى لا تبقي قوة فيها راجع محيط المحيط ص ٩٧ مجمع مهمات التعاريف ص ١٢٦ وأساس البلاغة باب الباء ص ١٢٣ .

(٤) البعوض جنس من الحشرات المضرة الناقلة للأمراض من ذوات الجناحين ، كما أنها ماصة للدماء ومشوهة للوجه وهي الناموس المعجم الوجيز باب الباء ص ٥٦ .

(٥)الدكتور محمد رضا الأصفهاني ـ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٢٦ .

يتحدد عندهم ، هل هو الأقوى في الاحتياجات ، وهي مسألة نسبية ، فقد يكون الصغير كالرضيع مثلاً ، أقوى احتياجاً إلى اللبن[١]، وإلا هلك ، في الوقت الذي يكون الكبير قادراً على احتمال الجوع والعطش ، مع الصبر على سائر الاحتياجات من باب التحمل[٢].

وقد يكون الكبير هو الأقوى في الاحتياجات،نظراً لمرضه أو حاجة ألمت به ، فدفعته إلى ذل الاحتياج والسؤال ، بحيث صار هو الأقوى في طلب الاحتياجات وأكثر إلحافا في هذا الطلب[٣]، وذلك أيضاً مما يجئ في مفهوم الأقوى ، وقد يفوز في طلبه ولا يقع تنازع أبداً .

وربما كان مفهوم الأقوى في العضلات ، والقوى الجسمية مع البراعة في الحيلة ، ولكن هذا المفهوم متهاو أيضاً ، بدليل أننا شاهدنا بعضاً من لاعبي الكرة يسقطون في ميدانها وهم الأقدر على الجري ، وعدائين يسقطون في مسارات العدو وهم الأقوى فيه[٤]بل سباحين غرقوا في ماء قليل،وهم المستعدون لخوض البحر[٥].

بل كم تناقلت الأنباء السيارة أخبار أقوياء سقطوا في ميدان الإدمان حتى الهلاك ، وأقوياء وقعوا في شباك المنون ، وما فعل بهم ذلك إلا شعور الواحد منهم بقوته ، بل كم من ضعيف اعتصم بقوة مولاه ، وتجنب مواطن الهلاك والشبه حسب طاقته ، فيسر الله له الأسباب ، ووقاه الذل والهلاك .

---

(١)لأن معدة الصغير لا تحتفظ بطعام يكفي لوقت طويل ، كما أن اللبن سريع الهضم ، ومن ثم فالصغير متى شعر بالجوع بكي بشدة حتى إذا رضع نام واسترخى ، أو لعب مسروراً ، وفي الأمثال العامية إذا شبعوا غنوا ، وإذا جاعوا بكوا وزنوا .

(٢) بل قد يكون هذا التحمل طبيعة درب نفسه عليها ، وقد يكون من باب إظهار القوة ورباطة الجاش .

(٣) لأن المريض إنما هو واحد من أصحاب الأعذار الذين لا يتحملون متاعب الحياة ، ولا القدرة على مقارعة الآخرين ، ومن ثم جعلتهم الشريعة الإسلامية الغراء من أصحاب الرخص المشروعة .

(٤) وقد نقلت شاشات التليفزيون وقنوات الأخبار هذه الأحداث مما لا حاجة إلى إعادة ذكرها .

(٥)وفي الأمثال : كم من سباح ماهر مات في حوض بغرقة ، وكم من أكول مات في شرقة .

بل إن جرأة الصقر وحدة بصره دفعت بالآخرين لاصطياده ، حتى صار طليق الشباك[١] بدل أن كان طليق الجناح ، ثم أن الواقع المعاش شاهد على أن الحيوانات التي تألف البشر ، ويألفهم الناس كالداجن والحمام والحيوانات الأهلية يعتني الناس بها في المطعم والمشرب والرعاية ، في الوقت الذي تعيش فيه الحيوانات القوية المفترسة مطاردة ، تموت جوعاً ، أو تهلك عطشاً ، إما لاحتياجها الكلأ والماء[٢] ، وإما لاحتياجها الأمان الذي أفقدتها إياه المطاردة المستمرة من بني الإنسان .

الرابعة ــ الناحية السيكولوجية :

١ــ أكدت الدراسات السيكولوجية أن النفس الإنسانية لها رغبات متعددة قد تحاول تحقيقها من خلال اندفاعات متوازنة أو غير متوازنة ، ومن ثم فمن المحتمل وجود نوع من التنازع الداخلي في قوى النفس بين الفعل والترك ، أو بين القبول والرفض[٣] وهذا التنازع يشعر به صاحبه ، متى كان الفعل قائماً في جانب الحكم عليه بالقبول أو الرفض على الجانب الشرعي .

فالصراع هنا إنما هو تنازع داخلي بين قوى الخير وقوى الشر ، بين نوازع النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة[٤] وليس تنازعاً بين كائنات مختلفة الرغبات أو متباينة الاتجاهات ، أو متباعدة الأنواع ، والأصول العامة التي تجمع بينها .

---

(١) وفي الشعر العربي : كأن القلب ليلة قيل يغذي بليلي العامرية أو يراح
قطاة عزها شرك فباتت تعالجه وقد علق الجناح

(٢) الدكتور محمد رضا الأصفهاني ـ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٢٧ بتصرف يسير .

(٣) الدكتورة وفاء صبرى الخياط ـ دراسات في سيكولوجية الفرد ص ١٥٧ ط سعيد رأفت ١٩٨١م .

(٤) والنفس الإنسانية قد جاءت في القرآن الكريم من هذه الناحية على ثلاثة صور : الأولى : النفس الأمارة بالسوء الداعية إلى فعل الشر ، المندفعة بصاحبها إلى ما فيه الهلاك ، قال تعالى :" وما ابرئ نفسي ان النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ان ربي غفور رحيم " سورة يوسف الآية ٥٣ . الثانية : النفس اللوامة التي تؤنب صاحبها على فعل الشر ، وتحاول إرجاعه إلى طريق الخير قال تعالي :" لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ" سورة القيامة الآيات ١ ـ ٤ ، الثالثة : النفس المطمئنة وهي التي اطمأنت لمنزلتها عند ربها ، قال تعالى :" يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي " سورة الفجر الآيات ٢٧ ـ ٣٠ .

٢ — أن التنازع لا يكون بين الخلايا الحيوية أيا كان نوعها ، لأنها تفتقد الدوافع القوية ، والعوامل المؤدية إليه ، بل أن الخلية الحيوانية لا تملك أية مقومات ذاتية أو إمكانيات تدفع لإفراز العناصر المؤدية إلى التنازع ، فيكفي يفترض وجوده فيها ، وهي غير قابلة له ، كما أنه ليس من طبيعتها .

٣ — أن الصورة العامة للخلية الحيوية ، تؤكد على فقدانها المقومة ،التي تكشف عن طبيعة النزاع ، فضلا أن تكون وسيلة لإفرازه[١]، فكيف يزعم التطوريون وقوعه فيها وهي غير قابلة له ، كما أنها غير قابلة لشئ مثله .

٤ — تقرر القاعدة السلوكية أن فاقد الشئ لا يعطيه[٢]، ولما كانت الخلية البيولوجية الإحيائية غير قابلة لوجود أي شكل أو صورة من صور التنازع فيها كما لا توجد بداخلها رغبة في تنازع البقاء ، فإن ما يقول به التطوريون يصير مجرد خيال ، لا ظل له من الحقيقة ، كما لا اعتبار لشئ آخر يمكنه حمله عليه.

الخامسة — الناحية الشرعية :

لاشك أن التنازع في شكله العام ، إنما يعبر عن طلب المنفعة والحرص عليها،أو دفع المضرة والابتعاد عنها ، وبخاصة متى تحكمت في النفوس الضعيفة رغباتها ، وسيطرت عليها نزعاتها، أو تمكنت منها شهواتها ، وبالتالي فهي تفرض أطماعها على حقوق الآخرين[٣]،كما تحاول اغتصاب ما لدى الغير دون وجه حق.

وطبيعة النفس الميالة للأفعال العدوانية ، هو الاندفاع إليها ، بغض النظر عن حجم المشكلات التي تقبع خلف هذه الرغبات ، فإذا تعارضت تلك الرغبات

---

(١)فردريك هولمز ـ المادة والذاكرة NATINE-AT-ME-MIRE\P231 وترجمة الدكتورة وفاء رشدى ص ٢٣٧ ط دار الجيل الجديدة .

(٢) تجري هذه القاعدة في العديد من العلوم والمعارف، بل صارت مثلا يضرب كمن يطلب منه فعل شئ وهو عاجز عن الأقل منه .

(٣)ومن ثم فقد كانت التعاليم الإلهية قاضية بالحق بين الناس ، والحكم به على الوجه المشروع ، وبالتالي تنتهي المشكلات القائمة على رغبات النفس الإنسانية .

المندفعة مع حقوق الآخرين أو رغباتهم ، فإن التنازع يستحكم ، والتدافع يمتد ، وعملية الفصل بين الحق والباطل سيقع فيها الاختلاط والتداخل ، بل من الممكن أن تضيع معالم الصواب والخطأ بين طلاب كل منهما(١)،وهو تنازع في الحقوق والواجبات ، وليس تنازعا في الطاقات والإمكانيات ، وإنما تستخدم هذه وتلك كوسائل لانتزاع الحقوق ، أو التخلي عن الواجبات .

وقد حرم الإسلام هذه وتلك ، كما نبه إلى أن التنازع في الأمور كلها يجب أن يكون مرده إلى الله تعالى في كتابه ، وإلى رسوله حال حياته ، ثم إلى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة،بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم قال تعالى " يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا "(٢).

ثم نبهت النصوص الشرعية إلى أن الغلبة الظالمة، في الدنيا ليست منجية صاحبها في الآخرة ، فعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يختصم إلى الرجلان منكم ، فيكون أحدهما ألحن بحجته من أخيه ، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقضي له بقطعة من النار(٣).

كما أن النصوص الإسلامية، قد حذرت من القفز فوق حقوق الآخرين ، أو التنازع عليها ، واعتبرت ذلك الفعل هو المظهر الأساسي للظلم ، وفرض الشارع الحكيم عقوبات متعددة ، وتعزيرات متوازية حتى تقتلع النفوس المريضة عن الظلم والرغبة فيه ، ويرتدع الظالمون ، بل وترد الحقوق إلى أصحابها ، ففي الحديث القدسي يقول رب العزة جل شأنه : " يا عبادي إني

---

(١) وكلما كانت النفوس ضعيفة ، غير قادرة على كبح جماح شهواتها فإنها تسقط بسرعة .
(٢) سورة النساء الآية ٥٩ .
(٣)العلامة الشيخ / عبد العظيم محمود الدحلان - من أنوار السنة ص ١١٧ ط مكة المكرمة ١٣٢٩هـ .

حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا"[١].

بل ان الكثير من النصوص الشرعية قد أكدت كذلك على عدم التهاون مع مغتصبي حقوق الآخرين ، حتى لو كان جزءا يسيراً من أرض ، أو مال ، ففي الحديث الشريف : من أخذ شبراً من أرض بغير حق طوقه الله به سبع أرضين في نار جهنم يوم القيامة[٢].

ويرى الأستاذ باشميل أن التنازع بين الأفراد ، قد يكون سنة من سنن الله الكونية في خلقه ، فكل المخلوقات في صراع مستمر من أجل البقاء ، وصراعهم هذا واختلافهم وتنافسهم هو الذي يحفظ الله به العالم ، ولولا اختلاف الناس وتصارعهم لخربت الدنيا[٣]، وهي وجهة نظر له حاول التأكيد عليها ، ولست معه في هذا ، وإلا كان معناه أن الشرور التي تجري في الكون إنما تقع ماموراً بها من جهة الله تعالى ، مادامت سنة من سننه الكونية ، ويصير الإنسان مجبراً على سائر أموره ، وهو ما يتنافى مع العدل الإلهي .

كما أن سنة الله تعالى في خلقه اقتضت أن يدافع الناس عن حقوقهم،في مواجهة الظالمين مهما كانوا عتاة جبارين ، ولو اقتصر الأمر على العصاة وحدهم لخربت الأرض ، وانهدمت الأنظمة الكونية التي جعلها الله تعالى في الكون كله قال تعالى :" وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ"[٤].

وقال تعالى : " الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا

---

(١)الشيخ محمد النووي - الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية ص ١٣٧ ط الحلبي ١٣٣٥هـ وراجع النفحات السلفية بشرح الأحاديث القدسية ص ١٢٥ ط الدار التوفيقية ١٩٨٧م.

(٢)العلامة الفشني شرح الفشني على الأربعين النووية ص ١٧٥ ط صبيح ١٣٦٥هـ .

(٣)الأستاذ محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٦ .

(٤) سورة البقرة الآيتان ٢٥١ ، ٢٥٢

اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ببعض"[١]، والمعنى أن الله تعالى ينصر من عباده الذين يتمسكون بحقوقهم ، ويدافعون عن عقيدتهم، وأوطانهم التي اخرجوا منها ظلماً ، وعدوانا بغير سبب لذلك ، وما كان لهم من ذنب أو جناية ، إلا أنهم يقولون ربنا الله الواحد الأحد الذي لا نشرك به شيئاً ، ولولا ما شرعه الله من الجهاد ، وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الإيمان ، وانهدمت الأديان ، وتعطلت الشعائر والشرائع ، ولكن الله تعالى ينصر أهل الإيمان على غيرهم ، متى أخذوا بالأسباب ، ثم اخلصوا الأمر لخالق الأسباب ، هو الله جل علاه[٢].

قال صاحب البحر ، لولا أن الله تعالى فرض الجهاد،لهدمت معابد الرهبان وصوامع النصارى ، ومساجد المسلمين،التى يعبد فيها الله تعالى بكرة وأصيلا[٣] إذن التدافع بين الناس ليس لبقاء النوع ، أو التنازع من أجل الحياة ، وإنما هو تدافع حتى يرتدع الظالمون وترد الحقوق لأصحابها المظلومين .

وقال الشيخ الصابونى : لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين للكافرين ، لاستولي المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم ، فهدموا موضع عبادتهم ، ولم يتركوا للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون أهل الأديان ، وإنما خص المساجد بهذا الوصف — يذكر فيها اسم الله كثيراً — تعظيماً وتشريفاً ، كما أنها أماكن العبادة الصحيحة الحقة[٤] .

ثم يقول الأستاذ باشميل أن قيام الدول وانهيارها، وصعود الأسر وهبوطها، وانتصار قوم وانهزام آخرين ، وانتقال الأموال والأملاك من يد إلى يد ،ما هو

---

(١) سورة الحج الآية ٤٠ .
(٢)الشيخ محمد عبد العاطي البطش ـ نظرات في سورة الحج ص ٨٧ ط الديار العثمانية ١٣١٩هـ.
(٣)الشيخ أبو حيان التوحيدي . البحر المحيط ج ٦ ص ٣٧٧ .
(٤)الشيخ محمد على الصابوني . صفوة التفاسير ج ٩ ص ٢٩٢

إلا نتيجة لهذا الناموس الذي لا يستطيع أحد إنكاره ، ثم يستشهد بقول حكيم

حب السـيادة في النفـوس أحل ناموس التنـازع

لولا الدماء الحمر ما اخـضرت بأهليها المرابع [١]

ولست أوافقه الرأي لأمرين :

الأول : أن التنازع الذي قامت عليه الممالك وانهدمت ، وانتصر به قوم وهـزم أخرون ، إنما هو صورة للسلوك الذي يمارسه من فيهم خاصيـة القيـام بـهذه الأدوار ، والقدرة على إنفاذها من خلال الملكات والإمكانيـات ، أمـا الخلايـا الإحيائية فإنها تفتقد هذه القصدية ، بجانب القدرة والسلوك .

الثانى : أن التنازع الذي قصده ينصب على مفهوم التنازع في بنى الإنسان طبقا لسلوكياته التي تصدر عن بعض أفراده[٢]، وهو غير التنازع الذي يتمسـك بـه التطوريون ، أو يزعمون قيامه في الخلية الإحيائية،الخالية من العقل والمشـاعر، والعواطف ، كما أنها خالية من القصدية والرغبة في أي أمر تقوم به ، إنما هـي تسير طبقاً لتوجيهات إلهية، فتبارك الله أحسن الخالقين[٣]،والفرق بين الاتجـاهين كبير لمن تأمله قال تعالى :" لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" [٤].

وفي تقديري :أن تنازع البقاء إن صح القـول بـه علـى سـبيل بعـض المشاهدات الجزئية،أو ظهرت له صورة خافتة في بعض السلوكيات الإضافيـة[٥] فإنه لا يمكن القول به بين الكائنات الحية على الناحية الشـرعية ، لأن الأرزاق كالأعمار كلها بيد الله جل علاه ، كما أن الموت والحياة من أقـدار الله ، قـال

---

(١)الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٦ .

(٢) وهذا مما تحكم به المشاهدة ، ويشهد له الواقع المعاش في دنيا الناس .

(٣) وذلك من سنن الله الكونية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

(٤) سورة ق الآية ٣٧

(٥) هذه الصورة الشاذة لا تعبر عن حقيقة واقعية، بقدر ما تعبر عن سلوكيات عدوانية ،ومظاهر غير طبيعيـة ، ولا يمكن حسبانها من الناحية الصحيحة أو قبولها على الناحية الشرعية . بل القاعدة قاضية بأن الشاذ لا يقاس عليه

تعالى :" تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ "[١].

كما قد ذهب أهل الإسلام من علماء العقيدة والمفسرين ،إلى أن الموت نوع من العدم ، ولما كان مخلوقاً ، فإنه مقدر في العدم ، طبقا لقاعدة أن الأعدام كلها مقدرة في الأزل ، ولما كانت الأعدام كلها مقدرة ، والموت أحدها،فقد دل الأمر على أنها مخلوقة لله تعالى ، والأعمار تجري بأمر الله تعالى كالأرزاق تماماً بتمام، ولا يقول بغير ذلك إلا من لم يقف على ما ذكره أهل الإسلام في هذا الخصوص.

ثم إن المؤمن دائماً يكون على قناعة تامة ، بأن الأعمار والأرزاق كلها بيد الله جل شأنه وهو عليها جميعاً قدير ، وأنها بيده وحده ، لا بيد أحد سواه ، قال تعالى :" وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ"[٢]، وسواء أكان الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ ، أم كتاب آخر يعلمه الله،فإن العبد المؤمن بالله رب العالمين ، يكون دائماً على يقين من أن رزقه بيد مولاه ، ومن ثم سيسعى إليه ، لكن لا يحاول الحصول عليه من يد غيره .

وقد دلت السنة النبوية المطهرة ، على أن العمر والرزق يسيران طريقاً واحداً ، وينطلقان في اتجاه واحد ، ففي الحديث الشريف ، أن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها وتستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب[٣].

وبالتالي فإن تنازع البشر في طلب البقاء،أو الحصول على أرزاق أو حقوق

---

(١) سورة الملك الآيتان ١ ، ٢ .
(٢) سورة هود الآية ٦ .
(٣) الشيخ محمد نور الدين عبد العظيم شربية - الآجال والأرزاق في القرآن والسنة ص ١٥٧ ط أولى الدار الميمنية ١٣١٩هـ .

الآخرين ، إنما هو تجاوز للحدود الشرعية ، وخروج على ما شرعه الله تعالى ، ولذا كان من رحمة الله بعباده أن أرسل الرسل ، وجعل من واجباتهم تعريف الناس بالخالق العظيم جل علاه ، وطرق تعبيدهم له سبحانه وتعالى ، وكيفية الالتزام بالأحكام الشرعية ، والتسامي بالقيم النبيلة ، والابتعاد عن رغبات النفس الجامحة ، الخارجة على المألوف ، وتهذيبها طبقاً للشرع الإلهي ، الذي فيه العصمة من الزلل ، والنجاة من المهالك .

وعلماء الإسلام قد عنوا بهذا الجانب في العديد من دراساتهم العلمية ، التي جعلوها خاصة بالأخلاق الإسلامية ، كما حاولوا جعل هذه الدراسات قائمة في تطبيقاتها العملية ، بل أن بعضهم جعل الأبحاث المتعلقة بهذا الجانب معنونة بتهذيب النفس مثلاً[١] ، وبيان السلوك الحسن من القبيح ، والشاذ من السوي ، وإرجاع القبيح والشاذ إلى الطرق التي يكون بها حسناً وسوياً حسب الاتجاه الذي شرعه الله تعالى .

والذي تطمئن إليه النفس أن ناموس تنازع البقاء على الناحية التي ذكرها التطوريون غير مقبول أبداً ، والأدلة ــ غير ما سلف ــ على ذلك كثيرة ، منها:

أ ــ أن ما يحدث في الطبيعة مرده إلى سنن الله الكونية ، وما جرى به القضاء الإلهي ، والقدر المرتبط به ، فليس فناء الأحياء ، أو بقاء الأقوياء نتاجاً من تنازع البقاء ، وإنما تعددت الأسباب المؤدية إليه كالزلازل والبراكين ومن ثم فليس ذلك نتاج التنازع بين الكائنات الحية .

ب ــ أن قانون البقاء أو ناموسه منخرق بالعديد من الشواهد التي تمثل الغالبية العظمى ، وشأن القانون أو الناموس أن يكون عاماً لا ينخرق ، وإذا حدث الاستثناء فإنما يكون في حدود ضيقة[٢] ، فما بال حوادث الطائرات والسيارات

---

(١) فعل ذلك أئمة كثيرون منهم الإمام الغزالي في إحياء علوم الدين ، ومنهم الإمام ابن مسكويه في كتابه الأخلاق وتطهير الأعراق .

(٢) والمعروف أن العلوم التطبيقية تقوم على قواعد عامة ، وليس على حالات استثنائية .

وسفن الفضاء وسفن البحار ، وكلها لم تنقطع حيث تهلك فيها جماعات من الأحياء ، لا علاقة لها بتنازع البقاء أبداً .

ج — أن التنازع من أجل البقاء يؤدي إلى ندرة الشئ لا إلى فنائه ، بدليل أنه لو فرض ضرورة تغذية حيوان على آخر ، فإنه يؤدي إلى ندرة الاثنين معاً، لأن المأكول ستقل أعداده،نظراً لكونه طعاماً للآخر[١]،والآكل هو الآخر ستقل أعداده نظراً لندرة المأكول الذي يعيش عليه،مع أن الكائنات الحية في ازدياد متواصل.

د — أن قاعدة التوازن الحيوي تناقض التنازع من أجل البقاء ، فالحيوان الذي قد يقع عليه عبئ نظافة البيئة كالخنزير ، يتزايد في مواطن كثيرة ، ولو فقد لحدث اختلال حيوي ، وكذلك الحيوانات التي تفرز ما يتغذى عليه الآخرون ، لو هلكت لهلك المتغذي عليها أيضاً[٢] إذ على أي شئ سيعيش .

هـ — أن الناموس أو القانون ينطبق على كل الكائنات التي هي موضوعة بنسب متساوية ، وتنازع البقاء لا يمثل سوى حالات فردية ، ومن ثم فلا يمكن اعتباره قانوناً ولا ناموساً ، لأن الاستثناء مهما تزايدت درجته،فإنها لا تخرج به عن طبيعة الوصف الثابت له ، وليس من شأنه إيجاد النشوء فضلاً عن التطور والارتقاء .

و — لم يتمكن أصحاب تنازع البقاء من تقديم تفسير مقبول للإختفاء الفجائي ، الذى وقع للزواحف الكبيرة الضخمة في العصر الكريتاسي ، بعد أن انتشرت وتمادت في العصر الحواريسي ، بل لم يكن هناك من ينازعها في سبيل البقاء ، ولو كان هناك منازع لها فأين هو ، بل ما اسمه ، أو صفته ، من ثم فإن الأفكار التطورية تعجز عن تقديم أدنى تفسير لبعض الصفات التي كان عليها ذلك المنازع .

---

(١) مع أن ذلك لم يحدث ، بدليل أنه ما من كائن حي خلقه الله تعالى ، إلا وهو ممتد في فروعه .
(٢) وهذا مخالف لسنن الله الكونية ، ومن ثم فالمحافظة عليه صورة من صور العناية الإلهية .

ز ــ أن التنازع من أجل البقاء ، إنما يعبر عن فلسفة سوداوية ،امتلأت جنباتـــها بالأفكار العدوانية ، ونمت بين أرجائها نباتات فاسدة، من الأفكـــــار الإنســـانية البعيدة عن الشرع الإلهي ، ومثلها يجب التعامل معه بحذر شــــديد ، والتركـــيز على ما فيه من سلبيات ، حتى يعرف الناس ما بها من عـــورات ، وحينئـذ لا ينخدعون بها ،أو ينحازون إليها معرضين عن ذكر الله تعالى.

قال جل شأنه:" وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَـا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِـــن بِآيَــاتِ رَبِّــهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى "(١)

ثانياً : الانتخاب الطبيعي : NATURAL SELECTION

قامت فكرة الانتخاب الطبيعي NATURAL SÉLECTION على أن أفــراد الأحياء الأصلح للبقاء، والأقدر على التكيف مع الظروف البيئية، هي التى تنجـح في الحصول على مقومات بقائها(٢) ، من الغذاء اللازم ، وتأمين أفراد النـــوع ، ورعاية النشئ حتى تنضج ، وتصير قادرة على التكاثر ، ومن ثـــم فــإن هــذا الانتخاب الطبيعي ، يعني تمايز الأفراد ذوي الصفات المناسبة للنجاح في الحيــاة وكلما تراكمت هذه الصفات الموروثة ، أدى ذلك إلى تكيف أصحابها مع الحيـــاة بغض النظر عن نوعية البيئة .

من المناسب القول بأن فكرة الانتخاب الطبيعي كانت ضميمة فكرة التجانس الحيوي ، وتوريث الصفات المكتسبة ، التي قال بهما ارازموس داروين ، ولكــن جوليان هكسلي أخذ المبادئ الأولي للفكرة ثم طورها ، أو بعابرة أخرى تسلمها من فكر أرازموس أفكارا صغيرة ضعيفة ، ثم عمل على إمدادها بالدعــم اللازم

---

(١)سورة طه الآيات ١٢٤ ـ ١٢٧ .

(٢) ب ـ هـ ـ جوهار ـ الطريق إلى العلم ص ١٥١ ترجمة خالد عبد البديع .

المتواصل ، حتى انفصلت من فكرتي التجانس الحيوى ، وتوريث الصفات ، وصارت فكرة برأسها ، لها ملامح محددة .

غير أن القس توماس مالتوس[١] بينما كان ينسخ في مكتبة الدير بعض المؤلفات الصغيرة عن التشريح والتاريخ الطبيعي ، وقع على بعض المعلومات التي أغرته بإعادة النظر فيما تركه السابقون بخصوص هذا الناموس،فعدل فيه ، ثم أضاف إليه ،إذ كان مفهومه لدى كل من أرازموس وغيره أنه عبارة عن عملية عدوانية مقننة تمارسها الطبيعة ، ضد الكائنات الحية ، ومن ثم أطلق عليها اسم الطبيعة ذات الظفر والمخلب ، أو ذات الناب والمخلب[٢].

غير أن لامارك قد وقف على ذات الفكرة ، فانشغل عنها أول الأمر باستنتاجاته الأربعة[٣]ثم ما لبث أن سارع إلى الفكرة من جديد حيث يعيد النظر فيها،وبخاصة أنه قد تصور وجود عوامل طبيعية مؤثرة في ذات الكائن ، كما هي مؤثرة في تكوينه وطبيعته ، كالظروف البيئية الطبيعية[٤]، والظروف البيئية الحية[٥] .

فلما ظهر كل من داروين ووالاس ، أعطيا هذه الفكرة المزيد من الدعم الذي تم عن طريق تقديم تعريفات عديدة لها ، والإفصاح عن تحويرات جديدة ، بناء على الاختلاف وتنازع البقاء ، فأنتهيا إلى أن الانتخاب الطبيعي هو التغير الذي يحدث في الأنواع بانقراض الأفراد الضعيفة ، التي لا تستطيع أن تواجه

---

(١) هو توماس أندرية مالتوس ١٧٠٥/١٨٥٠ وهو غير توماس روبرت مالتوس القس الإنجليزي عالم الاقتصاد الذي زود داروين ووالاس بالكلام عن السكان .
(٢)جوزيف لويزانسكي ـ الوراثة ونشأة الأنواع ص ١٣٥ ترجمة صبحي اسكندر ط دار الجيل بيروت ١٩٧٧م
(٣) هي ـ الاستعمال والإهمال ، ثم امتداد العضو لمناسبة استعماله ، ثم تناسب الامتداد مع مقدار الاستعمال ، ثم أخيرا توارث الصفات المكتسبة .
(٤) الظروف البيئية الطبيعية كل ما لا دخل للإنسان في توجيهه ، أو القدرة على إبعاده تماما ، كالحرارة والضوء بجانب توافر الماء ، ثم غلبة الموانع .
(٥) الظروف البيئية الحية هي العلاقات المتبادلة بين الكائنات الحية الأخرى التي تجمعها بيئة واحدة ، لأن هذه الكائنات المختلفة تقع لها تباينات عديدة وتداخلات كثيرة ، وربما وقعت بعض الأمثلة المتعارضة بين رغبات الكائنات الحية ، وهنا يقع الصراع لا محالة .

الظروف البيئية الطبيعية والإحيائية معا ، ومتى إنقرض الحيوان الضعيف فلا يمكن أن تورث الصفات التي كانت له[1]،إذ هي الأخرى قد انقرضت بانقراضه.

في نفس الوقت فإن هؤلاء الأفراد ، الذين كانوا مزودين بصفات ملائمة لظروف البيئة ، تساعدهم تلك الصفات على البقاء والازدهار ، كما تورث لنسلها[2]ومن خلال مواصلة عملية الانتخاب الطبيعي ، تنشأ أنواع جديدة مختلفة تماما عن أصلها بالنسبة لكل الأنواع القديمة ، لكن الجديدة تمتاز عن القديمة بالقدرة على التكيف ، وملاءمة الظروف البيئية .

لقد زعم الملاحدة أن عملية خلق الكائن الحي،لا تتم عن الله تعالى،الذي له قدرة خالقة ، وإرادة عاملة ناجزة ، وعلم واسع محيط شامل ، وهو الإله العظيم جل علاه[3]وإنما قامت على جملة من العناصر المادية الخالصة ، التي تقرر من تلقاء نفسها تغليب العنصر الذي يبقى على غيره ، وفي سبيل التنازع يغلب ويستمر ، رغبة في البقاء الحيوي ، دون حاجة لتدخل قوة أخرى ، أو الاعتقاد بوجود أية قوة وراء قوى الطبيعة ذاتها .

بل امتد بهم الزعم إلى أن كل كائن حي يقوم بهذا الدور ، يستوي في ذلك الإنسان والحيوان والنبات ، بناء على القول بفكرة قدم المادة وأزليتها ، ومبدأ التولد الذاتي ، أو التلقائي[4] ، حيث تتوالى العناصر المتولدة حاملة سبل الدفاع عن نفسها ، طيلة رحلة الحياة المستمرة دون توقف .

وحيث أن هذه الأفكار الشاذة قد رتبوا عليها القول بالانتخاب الطبيعي، أو الاصطفاء النوعي،وهي التي برزت خطورتها على الدين والقيم والأخلاق ، كما

---

(١)أندريه توما هوك - نظرية التطور في الكائنات الحية ص ١٣٥ ترجمة نصر الدين الفواز ط بغداد ١٩٨٣م .

(٢) توارث الصفات المكتسبة قال بها أرازموس داروين ، وقال بها لامارك ، كما ذهب إليها أصحاب الداروينية الحديثة التي عرفت باسم النظرية التركيبية الحديثة ، بل اعتبر الكثيرون أن توارث الصفات من أهم العوامل الداخلية التي ساعدت على ظهور أفكار التطور العضوي الدارويني .

(٣) وردت مادة خ ل ق - في القرآن الكريم حوالي مائتي وخمس وأربعين مرة - راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١ ، ٢٤٥ .

(٤) سبقت مناقشة هذه الأفكار على نواح متعددة ، وقد بان فسادها جميعا .

كان لها العديد من الأخطار المتوالية ، على العلم البيولوجي نفسه ، فلابد من عرضها ومناقشتها أيضا ، لأن الفيصل في كل مسألة هو النظر الصحيح إليها .

كما أن النظر الصحيح هو قانون الاستدلال في الأمور ، وقاضي الصدق ، وبرهان الشريعة ، وترجمان الإيمان ، وحجة الأنبياء ، ومحجة الأولياء ، والسيف القاطع على الأعداء ، وهو رأس السعادة في الدين ، كما أنه أساس التدبير ،وصحة الاعتقاد،وخلاصة التوحيد في ناحية النظر السليم ، كما أن أساس الكفر والشرك يكون في جانب التقليد(١)، وسوف ألتزم المنهج الذي سرت عليه.

أ ـ عرض الفكرة :

ذهب الإحيائيون إلى أن الأصلح للبقاء من الكائنات الحية ، هي الأقدر على التكيف مع الظروف البيئية ،وهي ذاتها التي تتمكن بنجاح من الحصول على غذائها السليم ، والمأوى الآمن ، بحيث تتمكن من تنشئة صغارها ، تربية سليمة صحيحة حتى تنضج وتتمكن من التكاثر ، وبالتالي فالانتخاب الطبيعي معناه انتقاء أفراد ذوي صفات خاصة ، تناسبهم في تحقيق النجاح ، الذي يريدون من الناحية الحيوية ، وذلك تقود إليه وسائل البيئة الطبيعية،والبيئة الإحيائية أيضا(٢)

ومعنى هذا أن الانتخاب الطبيعي ، عملية دائمة تقوم بها الطبيعة ذاتها مع الكائن الحي ، فهي التي تنشئ وتنتقي ، وكما أن أصل الحياة في بدايته قد نشأ عن المادة العمياء القديمة الأزلية ، بطريق التولد الذاتي أو التحول والصيرورة من خلال المصادفة البحتة تحت إشراف الطبيعة ذاتها ، فإن عملية الاصطفاء النوعي ، أو الانتخاب الطبيعي هي الأخرى تتم من خلال الطبيعة ذاتها(٣) ، دون حاجة إلى إشراف سلطة عليا غيبية مهما كان لهذه السلطة ، أو القوة من

---

(١) الدكتور سيد أحمد رمضان المسير ـ الزام القرآن للماديين والمليين ص ١٥ ، ١٦ وقد عزا نقله إلى العلامة القاسمي عن العلامة جمال الدين الخوارزمي .
(٢)انطوني توماس ـ التطور الحيوي ص ١٣٧ ترجمة هناء خضر ١٩٨٧م .
(٣)الدكتور / محمد مرسي حسن ـ الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ص ٤٩ ط أولي ١٩٨١م .

صفات العلم والقدرة والإرادة ، أو لها تمايز وانفصال عن العالم المادي الحيوي ، أما لماذا ؟ فلما يلي :

١ — أن بداية النشوء قد تمت عن طريق التولد الذاتي ، الذي حصل في المادة العمياء، من خلال اجتماع عناصر مادية مخصوصة،حسب أوزان مخصوصة ، وكان ذلك وحده كفيلا بخلق أو إيجاد كافة الأنواع الحيوية[١]، بل كان كافيا لخلق إنسان ، سواء أتم هذا الاجتماع والتوازن عن طريق المصادفة ، أو العشوائية الخالصة، أم تم من خلال قصد سباق ، في حدود المادة نفسها ، طبقا للظروف الملائمة لها ذاتها[٢]من غير احتياج لتدخل قوة خلفها .

٢ — أن اجتماع العناصر المخصوصة مع النسب الكمية ، على كيفية بعينها ، قد تم عن طريق المصادفة العمياء ، الخالية تماما من أي وجهة للقصدية ، أو الغائية ، ومن خلال ذلك تم ظهور الحياة الأولي في الخلية الحية على وجه الأرض ، حيث كانت الخلية الحية الأولي ، وهي في ذات الوقت المعبر عن الفارق الكبير بين المادة العمياء الثابتة — الأم — وبين المادة الحية المتحركة وهي الخلية [٣] ، أو التي تمثلها الخلية ذاتها .

ثم إن هذه الخلية الحية الأولي — التي نتجت عن المادة الخام الميتة — قد منحت نفسها قدرا كبيرا من المرونة المستمرة ، والحركة الدائمة ، حتى سارت في طريق النشوء ، ثم علت درجات السلم التطوري ، وظلت تقفز فوق درجاته حتى بلغت الارتقاء[٤]، وظلت كذلك حتى وصلت الحال التي هي عليه الآن .

٣ — أن الخلية الأولي،قد انقسمت إلى فصائل،كل فصيلة منها اتجهت إلى الكائن

---

(١) أ - ب - برونسكي - الكائن الحي والتطور البيولوجي ص ١٩٩ .
(٢)تشارلز داروين - أصل الأنواع ص ١١٣ ترجمة الأستاذ اسماعيل مظهر .
(٣)الأستاذ / سلامة موسى نظرية التطور وأصل الأنواع ص ١٤٥ ولست أدري إلى الآن كيف تصوروا نشوء خلية ٢حية من خلايا جامدة دون أن يرجعوا ذلك إلى قدرة الله تعالى وإرادته ، وعلمه وحكمته ، إن البدهيات العقلية ترفض تصوراتهم الساذجة ، وتؤكد أنهم عاشوا أسارى أفكار وظنون لا علاقة لها بالعلم الإحيائي ابدا .
(٤)أ - ب برونسكي - الكائن الحي والتطور البيولوجي ص ٢١٠ .

الحي المخصوص ، وراحت تعطيه بسخاء، بل وبنفس القدرة السابقة ، ومن ثم فهي تمنح نوعها الحياة المستمرة ، عن طريق استمرار التولد الذاتي ، في ظل مراقبة الطبيعة وحدها ، باعتبار أنها التي لازمت كل كائن ، وأشرفت بنفسها على وجوده ، ومراحل تطويره ، منذ ظهرت الحياة لأول مرة ، على ظهر هذا الكون الذي نعيش فيه[١]، وما تزال تؤدي نفس الدور دون توقف .

كما أن ناموس الانتخاب الطبيعي،إنما يعبر عن طريقة تثبيت التغايرات في صفات العضويات ، مهما كانت تافهة ، مادامت ذات فائدة ما للأحياء ، ولما كان تنازع البقاء بين الأفراد في كل نوع ، وفي كل الأفراد من خلال صفات غير متشابهة تماما[٢]، وبالتالي فبعض هذه الاختلافات تكون مفيدة في الصراع ، بينما يكون البعض الآخر غير ملائم .

٤ ـــ نظرا لهذا التباين في الصفات،ستبقى على قيد الحياة نسبة أعلى من الأفراد الذين توجد بهم اختلافات ملائمة ، ويقع بينهم التكاثر والبقاء أيضا ، أما الأفراد الذين توجد بينهم اختلافات غير ملائمة ، فإنهم يموتون ، ولا يقع بينهم تكاثر ، وبناء عليه فإن الأفراد الذين بينهم تلاءم ، هم الذين يبقى نوعهم ، ويكون فيهم التأثير الانتقائي ، والاصطفاء النوعي[٣].

بمعنى أن الأفراد اللائقين للبقاء سوف يقع فيهم أيضا انتخاب طبيعي ، فمن كان حاملا لصفات غير لائقة ـــ ولكنها مختفية ـــ سوف يهلك ، ومن كان حاملا لصفات لائقة فإنه يظل محتفظا بحقه في الحياة ويبقى ، كما يعتبر هو الأصلح للبقاء[٤]، وهكذا يقع الحال في الذرية والأنسال ، حيث تستمر عملية الانتخاب

---

(١) الأستاذ / وحيد الدين خان ـ الدين في مواجهة العلم ص ١٤٧ .
(٢) وهذا في حد ذاته يفضي إلى القول بأن هذه الصفات غير المتشابهة إنما صنعها الله تعالى ، ولم تخلقها الطبيعة ، كما لم يقم بها الانتخاب الطبيعي أبدا .
(٣)الدكتور / محمود صالح السعدني ـ البناء الخلوي وعلاقته بالتطور ص ٣٧ طبعة أولى ١٩٩٥م .
(٤)وبالتالي فمرد الكائنات الحية في وجودها أو عدمها إنما هو الطبيعة التي تفعل فعلها ، وليس الله عز وجل . وهذا كفر بالله ، ولقد جعل للكافرين النار قال تعالى " وعلى الكافرين النار " صدق الله العظيم .

الطبيعي سارية مدى الحياة ، تنحي غير اللائقين ، وتتمسك باللائقين ، ومن ثم تستمر أيضا رحلة الكائن الحي .

أما إذا تم التمسك بالأفراد الذين ليست لهم لياقة ،أو ظروف ملائمة ، فإنه يعتبر تمسكا باطلا ، لأنه ضار من الناحية الإحيائية ، ومن ثم فلا يستطيع التنازع ولا البقاء[١]، بل إذا وقع التمسك به ، فإن النتيجة تكون قائمة في هلاك الأنواع كلها بهلاك أفرادها .

٥ ــ أن الانتخاب الطبيعي ما هو إلا صيغة تعمل على إبقاء الصفات النافعة للأفراد والأنواع ، وإبادة صفات الأفراد والأنواع الضارة ، التي لا تستطيع إخراج ذرية صحيحة ، ولا نسل متكامل ، وبناء عليه ، فهذه العملية ــ من استبقاء النافع المفيد ، وترك الضار غير المفيد ــ تجعل للفرد المنتقي امتيازا خاصا على الأفراد الآخرين ، الذين لم يتم انتقاؤهم[٢].

وهذا في حد ذاته يجعل لذات الفرد الغلبة على الآخرين عند التنازع ، والامتياز المتوارث في الأنسال والذراري ، فما يمضي وقت طويل إلا وتصير هذه الأفراد المتمايزة أكثر امتيازا ، بل تظل تتدرج فيه وترقي حتى تبلغ القمة ، ولا مانع من استغراق تلك العملية أزمانا طويلة ، وأجيالا متعاقبة تبلغ المئات والآلاف[٣].

٦ ــ أن عملية الانتخاب الصناعي[٤]قد تمت بالفعل ، والمشاهدات العملية قضت بها ، وهو نوع من العمليات التي قام بها الإنسان نفسه ،لأحداث أو تعديل بعض

---

(١) الدكتور / محمود صالح السعدني ـ البناء الخلوي وعلاقته بالتطور ص ٤١ .
(٢) وهذا الامتياز الخاص يزعمون أن الطبيعة هي التي فرضته ودعت إليه ، ولا يزعمون أن هذا الاصطفاء النوعي مرده إلى إمكانيات خلقها الله في بعض الكائنات لحكمة يعلمها الله .
(٣) وهذا من شأنه إبطال العملية الإحيائية كلها ، لأن العلم التجريبي الفيصل فيه ـ بناء على قولهم ـ التجربة العملية ، وهل عاش أحد مئات أو آلاف السنين حتى يعرف ما الذي حدث في الكائنات من تطورات ؟ !
(٤)عملية يقوم بها الإنسان في العديد من الأنماط الحياتية ، كما أمكنه القيام بها في عالمي النبات والحيوان عن طريق التهجين ، أو الاستنساخ ، وقد حققت هذه العمليات بعض ألوان من النجاح في الكثير من المجالات ، لكن يجب ملاحظة أن حلالها حلال وحرامها حرام .

الصفات في الكائنات الحية — وبخاصة عالم النبات والحيوان — عن طريق التهجين السلالي ، أو التهجين الوراثي ، وصارت عمليات الانتخاب الصناعي واقعا لا يمكن إنكاره ، ومادام الأمر كذلك فإن عملية الانتخاب الطبيعي ، تكون هي الأخرى واقعا عمليا(١) ، وأمر لا يمكن إنكاره .

لكن كيف يتم الانتخاب الطبيعي ، أو ما هي الوسائل التي تؤدي إليه ، أو تعين على إتمامه بالنسبة للتطوريين مادامت الطبيعة هي الفيصل في المسألة ، دون إحالة إلى الخالق العظيم الله رب العالمين ؟ والجواب أن هناك مجموعتين من الوسائل هما :

أ — الوسائل البيئية الطبيعية :

وهي التي تتمثل في كل مظاهر البيئة الطبيعية من حرارة ورطوبة ، وضوء وظلمة ، وتوافر الماء أو نقصانه ونقائه أو كدورته ، وكذلك توافر عناصر الغذاء أو عدم توافرها(٢) ، فإن ذلك كله يؤدي إلى سرعة إنجاز عملية الانتخاب الطبيعي ، بحيث تتم خلال فترة وجيزة ، بدل أن تستمر مدة طويلة قد تصل إلى مئات أو ملايين السنين .

بدليل أن الذين يقطنون الأماكن الحرارية العالية ، تكتسي بشرتهم اللون الأسمر ، بينما الذين يقيمون في المناطق الباردة،تكتسي بشرتهم اللون الأبيض ، أو الأحمر ، أو القوقازي(٣) ، كما أنه إذا تم نقل كائن حي من بيئة ذات مواصفات بعينها ، إلى بيئة أخرى، وأمكن احداث نوع من المواءمة بين الأنسان والبيئة ، فإنه يكتسب الصفات الجديدة من اللون والمهنة ، وغيرها(٤) ، فثبت أن الانتخاب الطبيعي في الكائنات الحية عملية واقعية .

---

(١) لاشك أن هذه المقايسة على غير بابها ، للفرق بين الانتخابين باعتبار الموضوع والغاية بجانب الوسائل .
(٢)أندريه دوفري ـ التطور الأحياني المذاهب والنظريات ص ١٥٣ ترجمة ناهد الحيوان .
(٣)الدكتور / صبري محمد رزق ـ علم السلالات البشرية ص ١٤٧ ط ثانية ١٩٨١م .
(٤)أندريه دوفري ـ التطور الأحياني المذاهب والنظريات ص ١٥٥ .

ب ــ الوسائل البيئية الإحيائية :

ثم إن الوسائل البيئية الإحيائية من كائنات حية ، تعيش داخل البيئة ، كالأسماك والحيوان والنبات ، فإنها أيضا تساعد على إتمام عملية الانتخاب الطبيعي ، سواء أتم التعامل مع هذه الوسائل من حيث هي ، أم تم التعامل معها في نمط عيشي[١] ، حيث ثبت أن الذين يتغذون على الأسماك يتميزون بذكاء أعلى ممن يعيشون على النبات ، كما ثبت أن الذين يعيشون على النبات لا يصابون بأمراض القلب ، ولا الأوعية الدموية ، فضلا عن تيبس الفقرات ، على العكس من الذين يعيشون على لحوم الحيوانات[٢].

وبناء عليه فإن البيئة الإحيائية لها دخل كبير في إتمام عملية الانتخاب الطبيعي ، فضلا عن تحقيق أعلى قدر من النجاح بشأنها .

٧ ــ إن التطور الخلوي والأنواع الناشئة عنه تقابله صعوبات كثيرة ، وأن هذه الأنواع تقع في عملية اختبارات متوالية ، تحتاج إلى قدرات ممتازة على اختراقها، وكل الكائنات الحية تحاول عبورها، مما يجعل هذا التنازع في البقاء ، والقدرة على الاختراق[٣] للصعوبات التي تواجه الخلايا ، في مراحل سيرها المتواصل حقيقة واقعة ، ومن ثم فالانتخاب الطبيعي أمر واقع على الحقيقة ، ولابد من قبوله والتمسك به .

٨ ــ إن نظرية داروين في أصل الأنواع ، تقوم على قانون الانتخاب الطبيعي القائل بأن الحياة نشأت بمحض الاتفاق ، والخلية الحية أو الأميبيا ما هي إلا صورة متطورة من المادة البحتة الغير عضوية ، ثم تطورت تلك الخلية البسيطة إلى أخرى معقدة ، ثم ظهرت المملكة النباتية والحيوانية ، ثم ظهرت بعدها الزواحف بأنواعها ، وما لبثت أن انقرضت الزواحف ، وقام على أنقاضها

---

(١) الدكتور / صبري محمد رزق ـ علم السلالات البشرية ص ١٤٩ ، ١٥٠ .
(٢) أرنولد توماس ـ التغذية والصحة العامة ص ١٥٧ ترجمة زاهد رشدى ط بيروت ١٩٦٧م .
(٣) أدموند ـ و ـ سينوت ـ الخلية والروح ص ٢٩٧ .

الثدييات ، ومن بينها الإنسان الذي تطور عن القردة العليا ، والفرق بين الإنسان والحيوان في زعمهم فرق كمي ، وليس كيفياً[١].

ومرجع القول بالانتخاب الطبيعي من وجهة نظري ، إنما يمتد إلى القائلين بتفسير نشأة الحياة الأولى ، حيث ظهر على متنها فرق ثلاث :

الأولى : فرقة أهل الإيمان وهم الذين يعتمدون على النصوص الشرعية ، ويعلنون فكرة الخلق المستمر ، وهم لا نزاع معهم ، لأنهم يجعلون الخلق مرهونا بإرادة الخالق العظيم جل علاه ، قائماً تحت رحمته وقدرته ، محفوظا بعلمه تعالى المحيط الشامل[٢] .

الثانية : فرقة أصحاب الخلية الأحادية الحية : وهم الذين يزعمون أن الحياة بدأت بقصة الخلية الأحادية الأولي ، وهي كرية بسيطة ذات خلية واحدة ، ثم حدث فيها التطور الطبيعي ، والارتقاء الذاتي ، مع الاصطفاء النوعي ، ثم نمت فيها عناصر التنازع للبقاء ، نمواً طبيعياً ، مع الاستمرار في تلك الأطوار ، ويعتبر لامارك وداروين بجانب الإحيائيين الآخرين[٣]الذين تبنوا هذه الأفكار ، وسعوا إلى التأكيد عليها،والنزاع معهم في إحالة هذه الأمور إلى قوى الطبيعة .

الثالثة : فرقة الكتل الزلالية الحية : وهم الذين يزعمون أن الحياة بدأت من كتل زلالية حية صغيرة جداً ، اقل من الخلية ، وابسط في التركيب من البوليب ، وتعرف باسم MONERE ، ومعناها الوحدة البسيطة جداً ، وأن الحياة قد تولدت من تلك الكتل الزلالية ،عن طريق التولد الذاتي فيها ، ويعتبر أرنست هيكل من

---

(١) الدكتور محمد عبد الستار نصار وآخرون ـ في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص ٨ ط دار الطباعة المحمدية ١٩٧٩م ثم انتهى إلى القول بأن التطور مجرد فرض يعوزه التحقيق العلمي ، وكل ما التمسوه من أدلة لا يرقى به إلى مستوى الحقيقة العلمية المقررة .

(٢) وهذه الفرقة تدعمها الأدلة الشرعية والاجتهادات الفقهية بجانب قيامها على النصوص الموثقة الصحيحة وأعني بها النقل المنزل .

(٣)وهو اتجاه داروين الذين بنى فكرته على قواعده الأربعة أو نواميسه الأربعة : الأولي : تنازع البقاء ، الثانية: ناموس الانتخاب الطبيعي ، الثالثة : ناموس المطابقة ، الرابعة : ناموس الوراثة ـ داروين أصل الأنواع ص ٣٥ ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر ط ٢ ١٩٣٨م .

أشهر القائلين بها[١].

وبالتالي فإن فكرة الانتخاب الطبيعي تقوم عندهم على أمرين :

الأولي : افتراض وجود تنازع وصراع بين الكائنات الحية ،طبقاً لقاعدة البقـاء ، وأن هذا التنازع والصراع يظل مستمراً ، وفي النهاية يكون البقاء دائماً للأقـوى والأقدر على فض حلبة الصراع لصالحه ، وهو الذي سيستمر ، ويتطور ويرقى أيضاً ، أما الأضعف فسوف يزداد ضعفاً ، أو بعداً عن ميدان الصـــراع حتـــى يتلاشى تماماً ، لعدم صلاحيته في الاستمرار مع رحلـــة الحيـــاة[٢]، وهـــو ذات الانتخاب الطبيعي ، أو الذي يسمى رئاسة الغالب في الصراع الذى متى ابتـدأ فإنه لا يتوقف[٣].

الثاني : أن الطبيعة وحدها هي التي تقوم بذلك الانتخاب الطبيعـــي ، ولا دخـل لشئ غيبي أو غيره في ذلك الصراع الذي يجري داخل مكونات الطبيعة ذاتها ، من انتصار بعضها على البعض الآخر،أو غلبته له[٤]أو هزيمة أحدهما وانتصـار الثاني ، فالمسألة اقرب ما يكون إلى النزاع الداخلي بين الكائنات في أنواعـــها ، وبين الأنواع في أفرادها ، وبين الأفراد في خلاياها .

وما دامت الطبيعة هى التي تقوم بعملية الانتخاب الطبيعي ، وهـــي التـي تنتقي الأصلح للبقاء على سبيل الفعل المطرد ، فإن هذا الفعل سيكون تلقائيـــاً ، ميكانيكياً بحيث يبقى الأقوى ويندثر الأضعف ، بل أنه ينقرض طبيعياً ، ويصـير إلى زوال حتماً[٥]، مهما امتد به العمر ، ومهما طال بقاؤه على سطح الحياة .

وداروين يقدم مثالاً يفسر به عملية الانتخاب الطبيعي مؤداه ،أننا إذا فرضنا

---

(١)أ . ب جورج جامون ـ نشوء الكون ص ١٧٨ ترجمة إسماعيل مظهر ط أولى ١٩٢٧م .
(٢)تشارلز داروين ـ أصل الأنواع ص ١٤٣ .
(٣)هذه التسمية ـ رئاسة الغالب في الصراع ـ اقترحها من عندي كعنوان مناسب لهذه الفكرة .
(٤)جورج جامون ـ نشوء الكون ص ١١٤ .
(٥) الدكتور عبد المعطي محمد بيومي ، والدكتور احمد عبد الحميد الشاعر ـ الإسلام والتيارات المعاصرة ص ١١٨ ط الثانية ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

وجود سرب من الأبقار الوحشية تسير في غابة ، وهذه الأبقار تسعى في اتجاه واحد نحو طلب المرعى الذي تبحث عنه[١] وتجد في الوصول إليه ، ومتى حزمت كل منها أمرها في إشباع حاجتها الضرورية ، فإذا بلغت المرعى الذي تبحث عنه أشبعت حاجاتها بسرعة[٢].

ثم يفترض داروين أن الأبقار الوحشية ، إذا رأت المرعى الذي تطلبه،فإنها تتزاحم عليه في عنف شديد ، وحينئذ فالأبقار الأقوى هي التي سوف تفوز بأطايب ما في المرعى،حيث تقبل عليه وتنال منه،وبالتالي فإنها تزداد قوة على قوتها ، وصحة على صحتها .

أما الأبقار الأضعف،فإنها تزداد ضعفا على ضعف ، ونحولا على نحول ، لأنها تجبر على تناول أقل الطعام ، نظرا لضعفها عن المغالبة[٣]، وعدم قدرتها على المصارعة والمنازعة ، مع العجز عن المقاومة،وعدم القدرة على التقدم في الصراع حول المرعى ، سواء في الوصول إليه ، أو التقدم لاقتناص أطايبه .

وإدامة هذا النوع من العمل بين الأبقار ، لا شك أنه يجعل القوي يزداد قوة واكتمالا ، حتى يطور نفسه ، ويرقى إلى أن يبلغ المنتهى في الترقي ، أما الأضعف فيزداد ضعفا ، ويتدهور لكثرة الغذاء في الأول ، وندرته في الثاني .

ثم يتخيل داروين أن هذا السرب من الأبقار الوحشية ، إذا انتقل من أرض المرعى التي هو عليها[٤] إلى أرض المرعى الجديدة ، ذات الطرق الوعرة ،

---

(١)لاحظ أيها القارئ العزيز أن داروين يقدم فرضا ولا يقدم دليلا عمليا، كما أنه يتصور أن الأبقار الوحشية تتجه نحو المرعى كلها في اتجاه واحد ، وكأنها هي الأخرى تسير في عمل ميكانيكي آلي ، افقدها رغباتها الخاصة ، وقدرتها الطبيعية أليست هذه الافتراضات مجرد أكاذيب وأوهام ؟ !

(٢)الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ٤٧ .

(٣)تشالز داروين - أصل الأنواع ص ١٤٤ .

(٤)هي ذات أرض المرعى التي وقع عليها الصراع ، وتم فيها التنازع ، ومن ثم فإن أفكار داروين لا تخرج عن كونها ملاحظات راعي أبقار وحشية وذلك شأنه العجز عن تقديم وجهات نظر يمكن اعتبارها صورة من صور التقدم العلمي ، فضلا عن احتسابها نظرية يمكن أن يعول عليها عند تفسير كيفية نشأة الحياة على الأرض .

والمسالك المضطربة ، بجانب الحرارة الشديدة ، وندرة الوسائل التي تعيق عن استكمال الطريق ، فإنه قد يهلك .

من ثم فإن الأبقار التي كانت قوية في أرض المرعي الأول،هي التي سوف تقوى علي السير في الطريق المعوج ، كما ستنجح في قطعه بسرعة ، بل أنها ستجتاز كل الصعاب ، حتى تصل أرض المرعى الجديدة ، دون أن تسقط في الطريق ، أو ينال منها المجهود ، أو يثنيها طول الطريق وحجم المعاناة[١].

أما الأبقار التى كانت ضعيفة في أرض المرعي الأول ، فإنها لن تتمكن من الوصول إلى أرض المرعي الجديدة إلا بصعوبة بالغة ، وفي نفس الوقت فإنها لن تتمكن من اجتياز أية عقبة في الطريق تقابلها ، وإنما ستتساقط قبل بلوغ الغاية ، بناء على أن ذلك أمر طبيعي[٢].

ونتيجة التنازع في طريق البقاء ، سوف يهلك غير الأصلح[٣]الذي اعتبره البعض من أكثر النواميس التطورية تأثيرا ، وأوسعها انتشارا ، بينما اعتبره البعض بمثابة الرأس ، التي تجري خلفها باقي النواميس .

ب ــ مناقشة الفكرة :

من المناسب القول بأن فكرة الانتخاب الطبيعي لدى التطوريين ، إنما تمثل صورة من الترف الفكري ، وتعبر عن انفلات أخلاقي ، بل هي تعبير عن إيمان عميق بضرورة الغوص في المجهول ، حتى تبلغ هذه الأعمال في الناس ذيوع الشهرة ، وانتشار الذكر ، وتكاثر الأثر . وذلك يذكر بما قاله اربختون من قبل،أن نزعات العلم الحديث قد رفعتنا ــ على ما اعتقد ــ إلى ذروة تشرف

---

(١)فهي بهذا الفهم تسرح وترعى ، وتتقدم ، بناء على قدرات جسدية ، وقوى جسمانية لا علاقة لها بشئ خارج هذا النطاق ، وهذا مما يهدم الفكرة من أصلها ، لأن الطبيعة التي ساهمت مع الفريق الأول من الأبقار حتى صار قويا كان يجب عليها أن تبذل نفس المساهمة مع الفريق الآخر حتى يظل قويا أيضا .

(٢)تشارلز داروين ـ أصل الأنواع ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٣)المراد بغير الأصلح هنا هو الذي عجز عن مواصلة الرحلة في طريق المرعى الجديد ، كما لم يتمكن من الانفصال إليه بسرعة .

منها على ذلك اللجج الواسع ، لجج الفلسفة ، أما إذا جازفت بأن أنغمر فيه،فليس معنى ذلك عن إيمان بقدراتي على السباحة ، بل ابتغاء أن أظهركم هو عميـــق ذلك الماء[١].

وذلك الشعور النفسي هو الذي يضغط دائماً وبشكل مستمر ، على أصحـــاب الوضعية والطبيعة والعلمانية ، بل ودعاة الإلحاد في كل مكان وزمان ، فـــهم لا يعنيهم الحق ، كما لا ترضيهم المحاولات الجادة في الوصول إليه ، وإنما هدفهم الأول إبراز الملكات المنحرفة ، والقفـــز فـــوق الثوابـــت القائمـــة ، ومحاولـــة الخـــروج من دائرة الإيمان بالله رب العالمين ، إلى دوائـــــر الكفـــر والإلحـــاد والطغيان ، وما ذلكمنهم بغريب ، أو على سلوكياتهم ببعيد[٢].

من ثم فإني سأناقش هذه الفكرة أيا كان اسمها عندهم ـ الانتخاب الطبيعـــي ، أو الاصطفاء النوعي ، أو التفوق الذاتي الخلوي من الجوانب التالية :

الأول ـ الجانب الإحيائي :

تقوم فكرة الانتخاب الطبيعي عند التطوريين على أن الخلية الحية العضويـــة فيها قوة ذاتية تقوم بأعمال الاصطفاء النوعي ، لكـــن الســـؤال الآن مـــن أيـــن حصلت هذه القوة الذاتية في الخلية رغم أن المادة ساكنة ، والطبيعـــة جـــامدة ، فوجود القوة الذاتية في الخلية ، معناه وجود الحركة وفيه تناقض واضح ، بيـــن الأصل وهو المادة الصماء ، والذي نتج عنه وهو الخلية الحية .

وهو اعتراف بأن الفكرة غير قائمة على أســـس مقبولـــة مـــن الجـــانب الفيزيائي ، وإنما هي مجرد خيال[٣]، أو افتراض قائم علـــى الخيـــال ، وتحكـــم

---

(١) أرثر اديغتون CAMDRIDGE THE NATURE OF THE PHYSICAL WORLD UNIVERSITY PRESS 1929 P 27

(٢) والغريب المؤسف له أن بعضا من أبناء الشرق في بلاد الإسلام ، يحاولون تقليد هؤلاء الغربيين ، الذين يفتقدون الأسس الصحيحة والأصول العامة ، كما لا يعترفون بوجود الله رب العالمين ، ولا يؤمنون بما شرع الله ومع ذلك فهؤلاء المقلدة يرددون أقوالهم ويتتبعون آثار خطاهم .

(٣)الأستاذ / جمال الدين الأفغاني ـ الرد على الدهريين ص ٢٧ .

يسعى إليه الوهم ، ولا مجال فيه للحقائق العلمية ، وبالتالي فالفكرة غير صحيحة من الناحية الإحيائية ، وذلك لما يلي :

١ ـ ما يقرره الإحيائيون أنفسهم ، من أن الانتخاب الطبيعي لا وجود له في الجوانب العلمية ، فلم تفرز التجربة صورة من الصور التي عبرت عنها النظرية التطورية ، أو جاءت في الاصطفاء النوعي ، إذ أن كل الكائنات الموضوعة للدراسة في هذا الجانب سواء ، كما أن النتائج البحثية في المجال الحيوي لم تكشف عن منطقة ما في أي كائن حي ، أو مرحلة من مراحل حياته يمكن إطلاق اسم الانتخاب الطبيعي عليها[١]، إنها جميعا سواء في المقدمات ، سواء في النتائج أيضا .

كما أن القول بالانتخاب الطبيعي لا يبين الأسباب التي وجدت بها للأحياء هذه الأعضاء الكاملة التامة ، كثيرة العدد ، دقيقة الصنع ، المختلفة نوعا وشكلا ومقدارا ، وإنما يبين فقط العلة في بقائها ، وعدم تلاشيها واضمحلالها بعد وجودها ، وفي بقاء من اختص من بين الأحياء بها ، ويحيل كل ذلك على الصدفة والاتفاق[٢] ، وإلى نواميس التباينات بين الأفراد ، والصدفة مرفوضة علميا وفكريا ، ودينيا من باب أولي ، كما أن نواميس التباين مجهولة لداروين نفسه ، فكيف يبني قرارا على شئ مجهول[٣]، وهذا في حد ذاته يهدم فكرة الانتخاب الطبيعي.

٢ ـ أن عملية الاصطفاء النوعي ذاتها ، تحتاج عقلا مفكرا مميزا ، يقوم بهذا

---

(١) الجريد ادرمان ـ مناهج البحث في العلوم الطبيعية ص ١٧٧ ترجمة زكي صقر ـ مطبعة دار الفجر الجديد عام ١٩٨٥م .

(٢) الصواب المصادفة وليس الصدفة ، لأن الصدفة واحدة الصدف ، وهو نوع من الأحجار الكريمة ، ومنه المحارة ، وغشاء الدر ـ قطر المحيط باب الصاد ، أما المصادفة فهي المقابلة على غير موعد ـ المعجم الوجيز باب الصاد ص ٣٦٢ كما أن الفعل صادف رباعي ولابد أن تقع فيه المشاركة ، فصادف على وزن فاعل ، قاتل وصادف وعارك والمصدر منه إما فعال أو مفاعلة ، فنقول قتال أو مقاتلة ، وبالتالي فالمصادفة هي الاسم الأصح من الناحية اللغوية .

(٣)الدكتور احمد عبده حموده الجمل ـ في المذاهب المعاصرة ص ٢٣٧ .

الدور في أفراد النوع نفسه ، بحيث يختار الخلايا القوية حتى تبقى ، ويترك الخلايا الضعيفة لأنها تفنى ، وذلك العقل المميز ليس موجودا في ذات الطبيعة الخلوية ، كما أنه ليس جزءا من الخلية ذاتها[١]، وإلا كان الحكم على الخلية الحيوية ، هو نفس الحكم على المميز لها.

فثبت بهذا أن فكرة الانتخاب الطبيعي عند القائمين بها غير مقبولة ، كما أنها ليست قائمة على أسس صحيحة ، أو قواعد علمية ، لأنها تدعي وجود حالة ذاتية في الخلية لها خاصية الاصطفاء ، من غير معرفة مصدر هذه الحالة[٢] ، كما أنهم قد أعلنوا جهلهم بها ، وكذلك جهلهم بمصدرها ، وهو ما ينتهي إلى إبطال فكرة التولد الذاتي ، والانتخاب الطبيعي معا .

٣ ــ زعم التطوريون أن عملية الانتخاب الطبيعي ، تفرز الكائن القوي بحيث يستبقى ، كما تفرز الكائن الضعيف الذي يقع عليه التلاشي ، وبعبارة أخرى ماله فائدة ومنفعة يبقي ، وما لا فائدة فيه ينعدم ويتلاشى ، لكن الذى لا ينفع ولا يضر وهو الحالة الثالثة[٣]،أو الذي من الممكن أن ينفع في المستقبل،ما مصيره ؟ هل يبقي ولا فائدة فيه الآن ، مع امكانية الاستفادة منه في المستقبل [٤]، أم يهمل ويتلاشى مع أن الفائدة منعقدة عليه في المستقبل[٥]والتطوريون مضطرون لقبول وجوده ، والاعتراف به أيضاً .

أضف إلى ما سبق أن الذي لا ينفع ولا يضر ، لا يهتم به الانتخاب الطبيعي، وإنما سيكون وجوده وعدمه سواء ، وغير النافع كذلك لا يبقى ، لأن بقاء الضار

---

(١)هنري برجسون - التطور الخالق ص ٤٣ .

(٢) وهذا الاعتراف الصريح يؤدي إلى القول بأن التطوريين لم يكونوا على هدى فيما ذهبوا إليه ، كما لم تكن لديهم القدرة في التراجع عنه مع الاعتذار .

(٣) وتسمى الصورة الثالثة من الناحية العقلية ، ولابد من فرضها على الجانب العقلي ، فما موقفهم منها .

(٤)الدكتور / محمد مرسي حسن - الاتجاهات الفلسفية المعاصرة ص ٥٧ .

(٥)والتطوريون يلزمهم الاعتراف بأن ما فيه مصلحة في المستقبل يبقى ، وبالتالي فوجوده الآن ضرر كبير، لكن وجوده في المستقبل له فائدة كبرى ، فهل يترك الآن ويقضي عليه مع أنه لا فائدة فيه الآن ، أم يبقى لأنه مفيد بالنسبة للمستقبل .

يترتب عليه ، إما ملاشاة الفرد ، أو ملاشاة الصفة[١].

ويترتب على ذلك أن تكون أجزاء كثيرة من الحيوان بعيدة تماماً عن تنازع البقاء ، مع أنها باقية فيه ، ومن بين هذه الأجزاء ما يتوقف عليه أصل الحياة ، كالقلب والمعدة ، والكبد والأمعاء[٢]وبعضها ما هو لمنافع أخرى غير التنازع على البقاء ، كالأسنان التي تسهل المضغ ثم الأكل،كما تعين على التكلم،واخواج مقاطع الحروف في صورة أفضل ، وغدد اللعاب الذي يرطب الفم ، ويسهل حركة اللسان ، وينبه أعصاب التذوق ، ويحول الطعام إلى كتلة سهلة البلع،حتى تكون سهلة الهضم أيضاً[٣].

٤ — أن عملية بناء الكائن الحي من الناحية الإحيائية العلمية ، تقوم على أجزاء حيوية ، فإذا فرض وجود تنازع بينها ، بحيث يؤدى إلى الانتخاب الطبيعي ، ومن ثم يفرز بقاء الأصلح ، فمعنى ذلك قيام سعار من الحروب ، بين هذه الأعضاء في الجسم الواحد ، إذ سيعمل كل جزء منها على التقدم والغلبة ، كما سيحاول كل جزء الانتصار على الآخرين .

وهذا كله غير موجود في الجسم الإنساني أو الحيواني ، فلم يحصل أن طغى الكبد على المرارة [٤]، ولا طغت الأذنان على الأنف ، ولا العينان على الفم ، مع أنها جميعاً مرتبطة بحزمة عصبية واحدة[٥]، بل ولا حدث بينها تنازع على البقاء ، أو تصارع بحيث يظهر الأقوى .

---

(١)الدكتور احمد عبد حموده الجمل ـ في المذاهب المعاصرة ص ٥٣٧ .

(٢)حيث أن فقدان القلب أو الكبد يؤدى إلى الوفاء ، وغالبا ما يقع الموت بعد فقد الكبد القدرة على القيام بوظائفه الحيوية حيث يصاب بغيبوبة كبدية ، أو فشل كبدي فتقع الوفاة .

(٣)الدكتور أحمد عبده حموده الجمل ـ في المذاهب المعاصرة ص ٢٣٨ .

(٤) هذا بالنسبة للظروف الصحية الطبيعية ، أما في الظروف الأخري فقد يختلف الحال لكنها تكون عمليات مرضية وليست طبيعية .

(٥)أتجريد ادرمان ـ مناهج البحث في العلوم الطبيعية ص ١٧٩ .

كما أن آلات التناسل في الذكر والأنثى،التي يتعلق بها بقاء الأنواع،لا بقــاء الأفراد،ما تزال كما هي،في أشكالها وأحجامها،وطبيعة عمل كل منها ، فلماذا لــم يقع بينها التنازع حتى يفرز الأقوى والأصلح[١]بل لماذا لم يقع فيها تسابق حيوي بحيث تتلاشى المناسل في الذكر والأنثى[٢]ولا شك أن بقاءها على ما هي عليــه منذ خلقها الله تعالى،دليل على بطلان التنازع،وهدم الانتخاب الطبيعي .

يقول الدكتور ثرويد : أن بقاء المناسل في الكائنات الحيـــة ذات الـــتركيب البيولوجي المتنوع ، يؤكد ثبات الأنواع ، وعدم وقوع أي نوع من الانتخـــاب أو التطور عليها ،ولسنا نتوقع أن يتحول الخروف إلى نعجة ، ولا الذئب إلى لبـؤة ، ومهما قيل في التعديلات التي تمت بين أفراد قلائل من النوعين ، فإنها حـــالات كانت في الأصل أنثى ضامرة ، أو ذكورة كاذبة أو العكس[٣].

٥ – يزعم التطوريون أن روح الحياة قد دبت في الخلية الأولى التـــي تكونــت منها كل الكائنات الحية ، ثم أن هذه الخلية الأولى ، تكاثرت بحكم طبيعتها ومـــا فيها من خواص ذاتية ، فصارت نباتات دنيئة ، أو حيوانات دنيئة ، ثـــم تولتـــها النواميس الطبيعية [٤] قرونا،فلبثت تتنازع، حتى لم يبق منها إلا الأصلـــح ، ثـــم تغيرت عليهـــا البيئة فأكسبتها صفات جديدة ، تورثها ذرياتها وهلم جرا ، حتـــى تتكون من هذه الجرثومة جميع المخلوقات[٥]،عن طريق التولد الذاتي والانتخـــاب النوعي ، والسؤال الآن : من أين للطبيعة الجامدة الغير عاقلة ،أن تتكاثر ذاتياً ، أو أن تنتخب بعض الأصناف ، وتفضلها على بعض ، أو تحنـــو على بعـــض

---

(١) الدكتور جوهان ثرويد - معالم الثبات في الكائنات الحية ص ١٩٥ ترجمة هناء الأحمدي ط دار الفكر للطباعة والنشر ببيروت ١٩٧٩م .

(٢) لو وقع هذا في الذكر والأنثى لتلاشى النوع خلال فترة وجيزة من الزمان ، إذ معناه انقطاع النسل الحيوي كله لأن الذكر يعطي البلازما التناسلية ، والمرأة تعطي البلازما الجسدية ، ولابد منهما معا حتـى يتكون عندهما خلايا تحمل نوعي البلازما في الجسم الواحد ، أو الفرد الواحد من ذات النوع .

(٣) الدكتور جوهان ثرويد - معالم الثبات في الكائنات الحية ص ١٩٧ .

(٤) هي النواميس التى قال بها داروين وأتباعه ، أو من جاوزوا معه على خلفية هذه الأفكار الإلحادية .

(٥) السلطان صالح بن غالب القميطـي - الآيـات البينـات على وجود خـالق الكائنـات ص ٥٧ نقـلا عن الإسلام ونظرية داروين ص ٤٦.

الكائنات وتهجر البعض الآخر ، وهي في حد ذاتها فاقدة الملكة ، التي تقوم بـهذا الدور من التمايز بين المتماثلات . وفوق ذلك فإن علماء الأحياء أنفسهم يقررون أن الارتقاء في سلسلة التطورات الإحيائية ، عن طريق الانتخــاب الطبيعــي لا يصدق على الإنسان ، ولابد من القول بخلقه رأسا[١].

لأن القول بالخلق المباشر،عندنا نحن المسلمين،ينتهي بصاحبه إلى الإيمـــان بوجود الله تعالى ووحدانيته ، بجانب علمه تعالى وقدرته وإرادته ، والتطوريـون يرفضون ذلك رفضا مطلقا ، وهم لا يستحيون من إعلان ذلك ، مــهما كـانت الظروف ، أنهم يجاهرون بالإلحاد المكشوف الفاجر العنيف ، لكنه هـذه المـرة إلحاد باسم العلم ، والعلم منه براء .

يقول أرثركيث[٢]أن أمر التطور والارتقاء غير ثابت على الناحية العلميـة ، بل ولا يمكن إثباته، ونحن نؤمن بهذه النظرية التطورية ، لأن البديل الوحيد لـها هو الإيمان بفكرة الخلق المباشر،وهو أمر لا يمكن حتى التفكير فيه[٣]فضلا عـن قبوله أو الإذعان له وهو نوع من المكابرة ، والجدل السوفسطائي،الذي يدل على إفلاس أصحابه ، وعدم قدرتهم على إصدار أحكام لها أرصدة علمية مقبولـــة ، على جهة العلم الإحيائي الذي تذرعوا به ، أو ينسبون أنفسهم إليه .

يقول الأستاذ العقاد ــ رحمه الله ــ إن مذهب التطور والارتقاء ، لا يـزال عرضة لكثير من الشكوك والتصحيحات ، بل عرضة لسنة التطور والارتقــاء التي تنتقل به،من تفسير إلى تفسير ، ومن حال إلى حال ، وحتما سينتهي الأمــر معه كما أبتدأ[٤] من عودة إلى القول بأن الخلق كله، واقع تحت قدرة الله تعـالى ، وقائم بعلمه وقدرته .

---

(١)رويزانسكي - الوراثة ونشأة الأنواع ص ٢٣٥ .
(٢)أحد التطوريين الذين كانت لهم اتجاهات إحيائية متباينة أغلبها تم في حدود التـاريخ الطبيعي عاش مـا بين أعوام ١٨٦٦- ١٩٥٥ م .
(٣)الأستاذ وحيد الدين خان - الدين في مواجهة العلم ص ٣٨ ط دار الاعتصام .
(٤)الأستاذ / عباس محمود العقاد - الفلسفة القرآنية ص ١٢

٦ ـ أن فكرة الانتخاب الطبيعي ،أو الاصطفاء النوعي،ما تزال فكرة معروضة على بساط البحث،كما أنها ما تزال مبدأ غير مستقر لدى علماء الأحياء أنفسهم ، بدليل أن دوفري نفسه[١] قد أثبت خطأ أصول اللاماركية والداروينية ، ورفض نواميسهم الأربعة الشهيرة ـ كما يسمونها ـ التي بنوا عليها نظرية التطور والارتقاء حيث يقول :

أن التجارب العلمية الحية ، أثبتت بطلان نظرية التطور كلها ، وأكدت وجود مشاهدات تجريبية،انتهت إلي ما أسماه بالظهور الفجائي ، لأنواع نباتية جديدة ، ظهرت طفرة ، بدون مرورها على صور تدريجية متنزله من أسلافها الأولية[٢]ولئن كانت الطفرة أحد الوسائل التي هدم بها دوفري ، فكرة الانتخاب الطبيعي ، فإن الذي يعنينا ، هو أنها فكرة ساقطة إحيائيا .

لكن ليس دوفري وحده ، الذي أبطل القول بفكرة الانتخاب الطبيعي، بوجه خاص ، على الجانب الإحيائي ، والأفكار الداروينية بوجه عام[٣] ، بل شاركه الرأي العلمي كثيرون، ممن لهم اهتمامات بعلم الأحياء ، والعلوم الفيزيائية والإحيائية والطبيعية كذلك .

يقول جوستاف جولبيه : أن التحولات الفجائية أو الطفرة هي القاعدة الثابتة في عالم الحيوانات والنباتات ، فإذا درس الإنسان جميع التاريخ الطبيعي بدقة رأى نظرية التحول بالطفرة في كل مكان[٤]بحيث تنسف أفكار التطور البيولوجي الداروينية كلها ، وتأتي عليها من أصولها ، وتقلبها على رأسها .

---

(١) أندرية دوفري أحد علماء الأحياء الإنجليز الذين ذاع صيتهم في المجال الإحيائي ، ولكنه رفض الأفكار التي أقام عليها التطوريون آراءهم وانتهى إلى أن نشأة الكائنات لا يصلح معه إلا القول بالخلق المستمر وهو الذي قال به علماء أهل الإسلام .
(٢) أندرية دوفري - التطور الإحيائي المذاهب والنظريات ص ١٥٧ ترجمة ناهد الحيوان ط دار النصر بغداد ١٩٨٧م .
(٣) يمكن الرجوع لخصوم الأفكار التطورية الداروينية فهم كثرة ومن جهات كثيرة أيضا .
(٤)الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ٥١ .

ويعترف هكسلي أحد أتباع المذهب اللا أدري[١]بأن فكرة الانتخاب الطبيعي غير ممكنة القبول ، كما أنها غير صالحة للبرهنة عليها ، فيقول أنه بموجب ما لنا من البيانات ، لم نبرهن قط أن نوعا من النباتات أو الحيوانات نشأ بالانتخاب الطبيعي ، أو عن طريق الانتخاب الصناعي[٣]لأن أي فكر من هذا القبيل يفتقر الأسس الصحيحة ، والقواعد السليمة .

كما لا تدعمه أدلة ممكن قبولها ، أو الاعتماد عليها بطريق يقيني ، أو التثبت من هذه الأفكار عن طريق الملاحظة والتجربة ، التي هي عماد العلوم التجريبية ، ومن ثم فلا يمكن قبول فكرة الانتخاب الطبيعي ، كوسيلة تفسر بها كيفية نشأة الكائنات الحية ، من جانب علماء الطبيعة أنفسهم .

الثاني ـ الجانب التطبيقي :

إذا افترضنا جدلا امكانية التسليم ، بالأفكار التطورية الإحيائية ، فإن هذا الفرض لابد أن يكون قابلا للتجريب عليه، أو إدخاله مجال التطبيق عدة مرات ، بحيث تؤدى النتائج كلها إلى حقيقة علمية ، تقوم على قانون علمي ، أو تكون هي الممهدة له ، وذلك يحتاج تجربة عملية ، ومؤاخاة للتجربة ذاتها،التي توضع موضع البحث العلمي التجريبي ، وهو ما لم يحدث بالنسبة لفكرة الانتخاب الطبيعي حتى الآن .

والسؤال الآن،هل أمكن تطبيق نظرية الانتخاب الطبيعي على كان حي في شكل البرغوث مثلا ، وظل التعامل معه على أشده ، حتى بلغ شيئا متقدما فصار فيلا مثلا ، وهل تمحور الفيل الضخم، وتحور بالانتخاب الطبيعي، فصار فيلا صغيرة ، أو عمارة كبيرة ، مهما تقدمت الأيام وتطاول الزمان(٣) أو وقع

(١) مذهب غريب نشأ لدى السوفسطائيين قديما ، ثم ظهر في الغرب مع بداية عصر النهضة ، واستمر إلى الوقت الراهن ، وهو يقوم على فكرة أنكار كل ما هو موجود ، وكان هكسلي من أتباع المذهب التطوري اللاأدري وكان له فيه جهود عديدة .

(٢)الأستاذ / محمد أحمد باشميل ـ الإسلام ونظرية داروين ص ٥٤ .

(٣) لو أن ذلك قد حدث لسارع التطوريون إلى أعلانه ، وبذل المزيد من المجهود حوله ، ولكنه لم يحدث .

تتابع للدهور ، وكر الأزمان وتحوير الكور .

بل هل انقلب الفيل برغوثا ، أو تحولت الأشجار أبقـــاراً ، أو أفيـــالاً ، أو حيوانات زاحفة ، أو طائرة ، وهل يمكن أن يتـــم تطبيـــق ذلـــك علـــى أفكـــار التطوريين ، الذين لا هم لهم إلا الإعلان عنـــها ، ثـــم يســـتخدمها العلمـــانيون والإلحاديون بغرض خداع الناس ، وصدهم عن دين الله ، أم سيظل ذلك أمـــراً مستحيلاً ، وغير قابل لشي من التطبيق عليه(١).

ثم كيف يقع الانتخاب الجنسي بين الكائنات ، التي لا يتوقف تلقيحها علـــى أصولها كالحشرات والطيور من أمثال النباتات ، وكيف تميز الحشرات والطيور ما هو جميل ، وما هو أجمل ، والعجماوات قليلة الإدراك ، لما في المصنوعـــات من الجمال(٢) ، وهل يقول بذلك عاقل ، أو يمكنه إقامة دليل تطبيقي عليه(٣).

ثم هب أن هذه الحيوانات الملحقة ،كانت عذرية الهوى والغرام ، وفي نفـــس الوقت هائمة بالجمال ، طافحة بالفتنة الخلابة ، لكنها لا تريد مغازلة ذكورهـــا ، فتعرض نفسها عليها ، وتستثير مكامن الطاقة فيها ، وإنما تطلب رزقها المقسوم لها ، بعفة ودلال ، وفي ثقة واقتدار ، فمن أين يأتي الانتخاب الطبيعـــي(٤) إذن ، وليس هناك مجال آخر للتطبيق عليه ، أو يمكن النظر فيـــه ، بصـــورة تحـــوز القبول ، فضلاً عن أن تجعله مقبولاً .

يقول الدكتور يحيى هاشم : لا يزال البرهان ثابتاً ومتوافراً بكثرة ســـاحقة ، على أن وراء الأبعاد المعروفة للزمان والمكان ، عالماً آخر له ظواهره الخاصة به ، وهو عالم متفاعل طول الوقت بالعالم الطبيعي المعروف ، ويؤدي وظائفه بأفعال تبلغ حد البساطة(٥) ، وهو العالم الغيبي الذي نعـــترف به ونؤمـــن ،وهـــم

---

(١) الأستاذ الشيخ جمال الدين الأفغاني - الرد على الدهريين ص ٣٧ .
(٢) الشيخ / محمد رضا النقي - نقد فلسفة داروين ص ٣٠٥ .
(٣) لاشك أن ذلك يمثل صعوبة بالغة تصل حد الرفض العلمي ، وإلا فأين هي التجارب التي تم تطبيقها عليه .
(٤) الشيخ / محمد رضا النقي - نقد فلسفة داروين ص ٣١١ .
(٤) الدكتور يحيى هاشم حسن فرغلي - في مواجهة الإلحاد المعاصر ص ١٧٦ ط مجمع البحوث ١٩٨٠١م.

ينكرونه ، رغم فاعليته التي يدركونها في أنفسهم،والكائنات المحيطة بهم من كل ناحية .

بل لا يمكن التعرف على العالم الغيبي إلا عن طريق الدين الإسلامي نفسه ، الذي هو وحي الله رب العالمين ، وبه يثبت وجود الله تعالى ، كما ثبت أن هذا الدين من عند الله،ولابد من إرجاع الأمور كلها إلى الله،فهو وحده الخالق العظيم

ثم أن فكرة الاستبقاء للأصلح ، أو الاعتماد على الانتخاب الطبيعي ، ما هي إلا مظهر من المظاهر التي تكشف عن حقيقة الحقائق،وهي وجود الله[١] ، لكن بشرط أن يتم توظيف هذه الأفكار على الناحية الشرعية ، بعد تفريغها من مضامينها الإلحادية .

إذن لابد للقائلين بالانتخاب الطبيعي من الإعلان عن كل من :

أ ــ إفلاس الفكرة إحيائياً ، وموتها بل وتلاشيها،لأنها لم تعد صالحة لشيء أبدا.

ب ــ الإحالة إلى القوة القاهرة القادرة ، وهي قدرة الله رب العالمين .

ج ــ وجود الأفعال في الكون ، من خلال القصد والعلم والغاية ، أو الهدف .

د ــ قيام فكرة السببية العادية بين الكائنات ، المتمثلة في الأفعال الإلهية ، المعبر عنها بالسنن الكونية .

وفي تقديرى : أن دعاة الأفكار التطورية الإلحادية ، أقرب شبهاً بفرسان الاسطوانات ، وأعني بهم مقدمي البرامج الإذاعية ، والتليفزيونية ، والقنوات الفضائية ،التي تشتمل على مجموعة من التسجيلات الموسيقية،مع تعليقات عليها لا تتصل بالمحتوى الذي تبثه المقطوعة المذاعة[٢]، ومن ثم فغالباً ما يكونون في واد بأجسادهم بينما أفكارهم في واد آخر ، وما يعلنونه في واد ثالث ، ابعد ما يكون عن الآخرين تماماً ، ولشدة ما بينها من تباعد .

---

(١) وفي نفس الوقت فإن الانتخاب الطبيعي يمكن توظيفه من الناحية الشرعية لكن على معنى مغاير.

(٢)هربرت شيللر ـ المتلاعبون بالعقول ص ٣٣ ، ٣٤ ترجمة عبد السلام رضوان .

لكن يجمع هؤلاء وأولئك رغبة شديدة في التلاعب بالعقول ، والتحدث عن غير المألوف ، والارتباط المستمر بالعبث واللامعقول ، ومثلهم في دنيا الناس همل ، وأفكارهم متهافتة ، فلا رأي لهم يقبل ، ولا فكر يطبق ، ولا هم على منهج صحيح يسيرون

الثالث – جانب علم المخلوقات الآلي[١] .

وهو علم ظهر من الناحية التنظيمية ، في أواخر القرن العشرين ، على أنه منهج علمي،يسترشد به في مجالات استخدامات الطاقة والحركة ، وتحويل المادة الكثيفة إلى بسائط متعددة ، وبالتالي فهذا العلم يهدم فكرة الانتخاب الطبيعي خصه . كما يهدم فكرة التطور الإحيائي عامة ، كما يجى على اصوله من ناحية ، أما لماذا ؟ فلأنه لا يعتبر قواعد لامارك ولا نواميس داروين ذات قبول. كما أنها ليس فيها مظهر من مظاهر الانتخاب الطبيعي أو غيره ، مما يتغنى به الطبيعيون[٢]، بل على العكس أنه يسارع إلى هدم هذه الأفكار السطحية ، وينعتها باللاعقلانية ، كما يصفها بعدم قبولها التطبيق العملي عليها .

وبلغة العلم الذي يزعمون وقوفهم معه نسألهم: ما رأيكم في طبيعة الاستنتاج المعملي الذي أطلق عليه أصحابه اسم:الكائن البشري الآلي Cgborgs من أي تطور ، وما الذي تم فيه من انتخاب،وما هي النواميس التي حكمت خطواته،حتى صار على ما يبث الأعلام نفسه عنه[٣].

بل أن بعض هذه المستحدثات العلمية ، صارت تدرس تحت اسم علم المخلوقات الآلية ، ويعنون به الأناسي ذوي الأعضاء الاصطناعية المتعددة،حتى استطاع ذلك العلم – بتوفيق الله – أن يصنع كائنات تدار بالكمبيوتر شديدة

---

(١) هو علم يقوم على استخدام التكنولوجيا عالية المستوى . شديدة التعقيد في نطاق الهندسة الوراثية . البروفيسور ماهار . الثورة البيولوجية في القرن العشرين ص ٢١٤ ترجمة حنا فتحي ١٩٨١م .

(٢) هربرت شيللر . المتلاعبون بالعقول ص ٣٥ توماس هيرر . علم المخلوقات الآلي ص ٧٣ ٧٤ ترجمة فؤاد ساشد ط دار الجيل بيروت ١٩٨٥م

(٣) جع علم المخلوقات الآلي ففيه حديث طويل

الشبه بالإنسان الحي ، وتستطيع هـــذه الكائنـــات الآليـــة أن تحـــرك أذرعـــها وسيقانها،وأن تعيش وتبتسم أو تبكي ، وأن تتظاهر بالخجل والخوف والمـــرح ، وغير ذلك من المشاعر لكنها لا تنزف دما[١].

إذن علم المخلوقات الآلية يرفض فكرة التطور الإحيائية ، كما لا يقبل مبـدأ الانتخاب الطبيعي ، وفي نفس الوقت فإنه يوجِّه العديد من الاتـــهامات للفكـــرة وقواعدها ، التي يزعم أصحابها نسبتها للعلم التجريبي ، أو التطور الإحيـائي[٢]، وكذلك تفعل الهندسة الوراثية[٣].

ومثل تلك الأفكار الهشة ، يحكم عليها بأنه مجرد فروض تخمينية،غير قابلة للتطبيق العلمي ، ولا التأكيد المعملي ، وأنها مجرد توقعات فقط ، ومثلها لا يقبل في ميدان،يكون الفيصل فيه للبحث العلمي المتمكن ، والتجريب الدائم المستمر .

وإذا كانت مسألة الانتخاب الطبيعي التي تغنى بها الطبيعيون،قد فشلت تماماً في تفسير نشأة الكون ، والتعرف على الأصول الأولى لـــــه ، وإرجـــاع كافـــة مظاهر الخلق في الإيجاد والإعدام إلى الله تعالى .

فإن القرآن الكريم قد أثبت فشلها المتكرر من قبل ، وفي نفس الوقت أحـــال الأمر كله لله تعالى بدءاً ونهاية ، في أسلوب فياض ، وحوار دافئ أخاذ،وإعجاز علمي وبياني ، يأخذ بالعقل السليم إلى حيث يوقفه على الطريق المستقيم ، متـــى حاول الاهتداء إلى الحق المشروع من قبل الله ، والدين القويم الذي جاء به خـاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ .

---

(١)الدكتور سعيد محمد الحفار ـ البيولوجيا ومصير الإنسان ص ١٦٦ .

(٢)راجع ـ ب ـ هـ ـ جوهار ـ الطريق إلى العلم ص ١٥٧ ـ ترجمة خالد عبد البديع ط بيروت ١٩٨٢م.

(٣) والهندسة الوراثية هي الاسم الدارج لواحد من التطبيقات العملية للبيولوجيا الجزئية ، وهي فرع من علم الحياة وهي تفترض أن الحياة هي النتيجة النهائية لخصائص المواد التي تكونها ، والحياة في نظرها كذلك ماكينة جزئية ـ راجع ويليام بينز ـ الهندسة الوراثية للجميع ص ١٧ ـ ترجمة دكتور أحمد مستجير ـ الهيئة المصرية١٩٩٦ م .

قال تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ"[1] .

فالناس وهم العقلاء في سلم الكائنات الحية ، لم يخلقوا أنفسهم بالابتداء ولا التطوير ، ولا غيرهما ، كما لم يخلقوا غيرهم مهما كان ذلك المخلوق ، وهو حكم عام ، وسيظل قائماً في لغة حاسمة ، كأنها تعبر عن التحدى الإلهي .

وهذا التحدي الإلهي سيبقي قائماً إلى يوم القيامة ، ولن يستطيع علماء الدنيا بأسرها ، ولو اجتمعوا عليها أن يخلقوا ذبابة واحدة [2]، مهما كانت شأنها من الصغر أو الحقارة ، ومهما كانت من ذوات الخلايا الواحدة أو الخلايا المركبة .

أجل وصل الإنسان إلى عتبات العالم الأعلى من الأرض، وصل إلى سطح القمر، وقد يصل إلى غير سطح القمر ، من الكواكب المخلوقة لله تعالي ، ولكنه نوع من استعمال الملكة التي خلقها الله في عقل الإنسان نفسه ، والأسباب التي وضعها الله تعالي في الأرض ، وسخرها أيضاً لذلك الإنسان[3] ، وبدون الملكة التي هي العقل المخلوقة لله ، وبدون الأسباب التي خلقها الله ،لا يتم شئ من ذلك أبداً ، ومن ثم فهي كلها راجعة إليه وحده تعالي .

يقول شيخنا الشعراوي : وصل الإنسان إلى القمر ، وقد يصل إلى المريخ، وقد يتجاوز ذلك،ولكنه سيظل عاجزا عن خلق ذبابة،مهما كشف الله له من العلم ولن يعطيه القدرة على خلق ذبابة ، وهذا إعجاز من الله تعالى ، لأنه وحده الذي خلق كل شئ ، والعلم كاشف لقدرات الله في الأرض ، ولكنه ليس موجدا لها[4].

---

(١) سورة الحج الآية ٧٣

(٢) الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي - الأدلة المادية على وجود الله ص ١٧ - الهيئة العامة للمطابع الأميرية ١٤١١هـ ١٩٩٠م .

(٣)الدكتور / عبد الغني عوض الراجحي - الشمس والقمر ص ٤٥ .

(٤)الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي - الأدلة المادية على وجود الله ص ١٧

وإذا كان الإنسان وهو المخلوق الراقي بقدراته العقلية ، وملكاته الاستنتاجية وإمكانياته العلمية ، قد عجز عن أن يخلق ولو مجرد ذبابة ، فهل تستطيع نفس الذبابة ، وهي الأضعف من الإنسان — أن تطور نفسها ذاتيا ، أو تختار من بين أجزائها ما تجعله يرقي فوق غيره ، أو يهبط تحت غيره ، إن ذلك قول من لا يعقل ، وترديد من لا يفقه أو يفهم ، ولسنا نقبل قول دعاة التطور العضوي، ولا مزاعم أصحاب الانتخاب الطبيعي أبداً .

الرابع — جانب الاستدلال المنطقي :

الاستدلال المنطقي يقر بتلك الحقيقة ، ويعترف بها ، وهي نسبة الخلق كله للخالق ، وهو الله تعالى ، فضلاً عن أنه يؤكد عليها ، ويدعمها بالشكل الذي يهدم القول بالتطور الإحيائي ، ويدعم فكرة ضرورة إرجاع الأمر لله ، بحيث يكون القول بالاعتماد على الطبيعة في الخلق ، والإيجاد،أو استمرار نظام الحيلة — فضلاً عن التلاحقات التي تتم فيها(١)— ضرباً من الخروج على المألوف في الاستدلال المنطقي .

يقول الكسيس كيرل : أن العلم الحديث لا يدعي،أو لا يستطيع أن يدعي،أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة والمشاهدة المباشرة، فالحقيقة أن الماء سائل ، ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة ، ولكن الواقع أن كل جزئ من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين ، وذرة من الأكسجين ، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية ، ولو أتينا بأقوى ميكروسكوب في العالم،غير أنها ثبتت لدى العلماء ، لإيمانهم بالاستدلال المنطقي(٢) الذي يقود إلى التسليم بوجودها .

---

(١) ذلك شأن الاستدلال المنطقي ، فإنه يؤدي إلى نفس النتائج العلمية ، باعتباره المعبر عن لغة المنطق الحديث

(٢)الأستاذ / وحيد الدين خان ـ الإسلام يتحدى ص ٤٢ .

وقد حاول الطبيعيون[١]، من دعاة هذه الأفكار التطورية ، اللجوء إلى تقسيم فكرة التطور الإحيائية هذه إلى جزأين حتى يسهل الدفاع عنها :

الأولي : نظرية الارتقاء : وهي عندهم يقينية ، لا تقبل الشك أو الجدل ، بل هي حقيقة ثابتة ، وهي التي يعنون بها ويدافعون عنها ، ويحاول إقامة الأدلة حولـها، لكنهم يفشلون في دفع الانتقادات الموجهة إليها .

الثانية : سبب الارتقاء : وهم يرون أنه ما زال مجهولاً، وبناء عليه فإن نظريـة التطور والارتقاء لا تزال نظرية مجهولة الدليل،وهي النقطة الخطيرة في نظريـة التطور،وهي التي تهدمها على سبيل الاستدلال المنطقي[٢]وليست مؤيدة لها أبـدا، وبالتالي فالنظرية تحتاج دليلاً جديداً لإثباتها،بدل الذي أنهدم ،وهم لا يملكونه[٣].

وإذا كان علماء الطبيعة،قد رفضوا نظرية الضوء التي قدمها نيوتن ، لأنـها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء،فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحديـن ، لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة، وهو نفس الاتجاه الذي سار فيه أصحـاب الاستدلال المنطقي[٤]، من غير منازعة ، بناء على أن ما لم تقم عليـــه الأدلـة الصحيحة في اثباته ، أو يفشل أصحابه في تقديم أدلة عليه ، فإنه يكون مرفوضا منطقياً .

ثم أن تفسير الدين الإلهي لنشأة الطبيعة هو عين الحق،حتي أن هذا التفسـير الديني لم يتغير ، ولن يتغير على مر الدهر، لأنه كلام الله تعالى ، على حيـن أن كل نظرية صاغها الإنسان منذ قرن أو أكثر أو أقل،قد رفضت أو أصبحـت ــ على الأقل ــ موضع شك الآن ، أما صدق الدين الإلهي فإنه يتجلى بعـــد كـل

---

(١) لا نقصد علماء البحث في الطبيعـة ، وإنمـا نقصد أصحـاب فلسفة التطـور التـي يحـاول أصحابـها تفسير نشأة الكون على أساس من العلوم الفيزيقية ذاتها والفرق بينهما كبير .

(٢)الأستاذ / وحيد الدين خان - الدين في مواجهة العلم ص ٣٩ .

(٣) وإذا فقدت الفكرة دليلها صارت عارية يمكن رفضها بسهولة ، بل ان رفضها سيكون هو الغالب .

(٤)راجع كتابنا - اتجاهات المنطق الحديث ص ١٤٧

خطوة يخطوها ، في الملاحظة حتى ليصبح كل كشف علمي جديد،هو نفسه نوع علمي جديد ، للتصديق بحقائق الدين [١] .

وطبقاً للاستدلال المنطقي تكون النتيجة الصحيحة : التي انتهي إليها العلماء وفي كافة أبحاثهم هي أن العلم البشري قاصر ، وإنه ناقص ، وأنه بعيد كل البعد عن أن يلفظ كلمته النهائية في أي موضع كان ، وأن الذين يغترون بمعلوماتهم التي عرفوها ، هم قوم بعيدون كل البعد عن موقف العلماء[٢]، ومثلهم لا يلتف إليهم ، ولا يؤخذ بما انتهى إليه أمرهم .

في نفس الوقت فإن الاستدلال المنطقي،القائم على الاستنباط العقلي، يعترف بضرورة إحالة الخلق كله إلى الله تعالى ، وإلا كان الأمر مخالفاً للعقل نفسه ، وهو ما يعتبر إنكار للبدهيات[٣] ، في مقابل التسليم بالمظنونات ، أو الجدليات المزعومة ، وهو اتجاه ساقط[٤] ، وطريق غير مقبول ، سواء أكان ذلك في خلق الكون كله ، أو جزء من أجزائه ، أو المحافظة عليه .

يقول الأستاذ وحيد الدين خان : لو كان للكون أن يخلق نفسه – فرضاً – لكان متمتعاً بأوصاف الخالق ، وفي هذه الحالة سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الله ، وهكذا انتهي إلى التسليم بوجود الإله نفسه ، ولكن إلهنا هذا سوف يكون عجيباً ، أنه سيكون إلهاً غيبياً ، وماديا في آن واحد ، أنني افضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي ، وهو ليس بجزء من هذا الكون ، بل حاكمه ، ومديره ومدبره ، بدلاً من أن أتبنى مثل هذه الخزعبلات[٥] ، التي لا تغني أصحابها ، ولا تساهم في دعم أرصدتهم التي يعتمدون عليها .

---

(١)الأستاذ / وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى ص ٤٧ .
(٢)الدكتور أحمد طلعت الغنام - أضواء على نظرية النشوء والتطور والارتقاء ص ١٦٨ .
(٣) لأن دعوى خلق الطبيعة لنفسها يدحضه اعتبارها خالقا ومخلوقا في نفس الوقت ، وهو النتيجة المنطقية اللازمة للمسألة .
(٤) التمسك باليقينات أمر عقلي واستدلال منطقي ، أما الاعتماد على المظنونات فبعيد كل البعد عن مجال القبول
(٥)الأستاذ / وحيد الدين خان - الإسلام يتحدى ص ٧١ .

ورفضنا الأفكار التطوريه الإحيائية،التي نادى بها أصحابه ، وحاولوا من خلالها إصدار أحكام باسم العلم ، في تفسير نشأة الكون ليست صفقـــة تجـــري عليـــها أنظمة المضارية ، ولكننا نرفضها من منزع ديني خالـــص لله رب العالمـــين ، وإيمان راسخ ، وعقيدة صحيحة في الله تعالى ، وقدرته وإرادته وعلمه ، وسائر صفاته تعالى[١]

كما أن القائلين بنظرية التطور العضوي هذه ، لم يكونوا يعلمون شيئاً عـــن وحدات الوراثة والجينات في الماضي ، وقد وقفوا في مكانهم حيث يبدأ التطـــور حقاً ، أعني عند الخليه ، وتلك الكيان الذي يحتوي الجينات ويحملها[٢]، وحتمـــاً سينتهي الأمر ، كله إلى أن الله تعالى وحده هو الخالق ، وذلـــك علـــى طريـــق الاستدلال المنطقي أيضا .

وكان على أصحاب التطور العضوي مراجعة مواقفهم من هذه الموضوعات التي تعرضوا لها بالبحث والدراسة ، فيكتفون بمحاولة معرفة العلائـــق القائمـــة بينهما مثلا ، أو الروابط التي تقوم فيها وكان هذا يكفي ، أما حين اتجهوا إلـــى تفسيرها بعيدا عن الاستدلال المنطقي ، والنقل المنزل خسروا ، وفي المتاهـــات سقطوا وغابوا .

علماً بأن هذا الانتحاب الطبيعي عندهم ، خال من القصد والنظام ، ولهذا لا يستطيع أن يفسر لنا العلل والأسباب التي تكمن وراءه ، وإنما يفسر لنـــا آثـــاره ونتائجه فحسب[٣]، ومثله لا يكفي لإقامة مبدأ علمي ، أو فكر يبنى عليه .

ويقرر البروفيسور هريرA harris أن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعـــي على نشأة الكون ، يفسر عملية بقاء الأصلح على ناحية علمية ، لكنه لا يســـتطيع

(١) وهو اعتقادنا نحن المسلمين وسنظل عليه إلى أن نلقى الله تعالى رب العالمين .
(٢)أ . كريس موريسون . العلم يدعو للإيمان ص ١٤٩ .
(٣)دكتور / عبد المعطي محمد بيومي ، دكتور/ أحمد الشاعر - الإسلام والتيارات المعاصرة ص ١١٨

أن يفسر حدوث هذا الأصلح[١] ولا الكيفية التي تم عليـــها ، الـذي لـو أمكـن الوصول إليه عن طريق الدين الإسلامي فقط،لكانت النتائج طيبة جداً،في مجـال الاستدلال على وجود الخالق العظيم،وسائر صفاته ، وتفسير نشأة الكون أيضاً.

والذي أقف عنده هو : أن الاستدلال المنطقي يعترف بوجــود الله تعـالى كضرورة حتمية ، كما يعترف بأن الله تعالى،هو الذي خلق الأكوان كلها ، وهـو سبحانه وتعالى الذي يوجد أو يعدم ، منها ما يشاء ، دون التفات لمسألة التـلازم السببي ، أو العلية المتلازمة ، أو الحتمية العقلية ، لأن تلك المفـاهيم لا يجـوز إطلاقها على الله تعالى ، كما لا يصح وصفه تعالى بها ، وهو نفس الاســتدلال المنطقي ، القابل للتطبيق في مجال تلك الدراسات .

الخامس ــ الجانب الشرعي الإسلامي :

اقصد هنا بالجانب الشرعي الإسلامي أمرين :

الأول : النقل المنزل : وهو القرآن الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة المطـهرة ، فهو الوحيد المعصوم من الخطأ،أو التحريف والتبديل، وذلك بحفظ الله تعالى له.

قال تعالى :" إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون " [٢]، وقد جاءت الآيـات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، مبينة ضرورة إرجاع الأمر في كل شئ إلـى الله تعالي وحده . وما يجري في ذلك الكون الذي نعرفه أو لا نعرفه ، وكذلك الحال مع السنة النبوية المطهرة[٣]، فهي شقيقة القـرآن الكريـم ، توضـح مبهمـة ، وتفصل مجمله ، وتطلق مقيدة ، أو العكـس ، وهمـا معـاً مصـدر التشـريع الإسلامي ، قال صلى الله عليه وسلم :" تركت فيكم ما إن تمسـكتم بـهما لـن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي"[٤] .

---

(١) Revolt agamst Reasan, A.Lunn, P 133 نقلاً عن الإسلام يتحدى ص ٣١ .
(٢) سورة الحجر الآية ٩ .
(٣) وقد اهتم ببيان ذلك الجانب علماء العقيدة الإسلامية ، وعلوم القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وقدمت فيه رسائل جامعية عديدة من أبناء الأزهر الشريف ، وداخل كلياته المباركة .
(٤) راجع شرح الفشني على الأربعين النووية ص ١٤٥ .

الثاني : بيان الحكم الشرعي في المسألة : التي عرضناها عند القائلين بها ، وذلك يحتاج إلى بيان موقف مفكري المسلمين،في تفهم الآيات القرآنية والأحاديث النبوية[١]، والرد علي القول بالتطور الإحيائي ، العضوي أو البيولوجي،أو غيرهما مما يدعى أنهما تملك في أمر نفسها أو غيرها شيئاً .

من ثم فإن القول بالانتخاب الطبيعي ، أو الاصطفاء النوعي ، يخالف النقل المنزل ، لأن الانتخاب الطبيعي ، إحالة الخلق على ذاتية الخلق أنفسهم ، وليس إحالة أمر الخلق إلى الخالق العظيم جل علاه ، وقد بينا فساده على النواحي التي سلفت ، وأكدنا أن أمر الخلق كله راجع إلى الله تعالي .

قال تعالي :" ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" [٢].

على أن قضية الخلق في أصلها محسومة لله سبحانه وتعالي ،لأنه هو وحده الذي خلق قال أنه خلق ولم يأت أحد أو يجرؤ أحد على أن يدعي أنه الخالق ، وإذا كان من يفعل شيئاً،فإنه يحرص على الإعلان عما فعل ، حتى لا يوجد شئ صغير أخترعه البشر في الدنيا ، إلا وحرص صاحبه على الإعلان عن نفسه ، فإن قضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى[٣].

ثم إن الله وحده سبحانه وتعالى الذي قال أنه خلق ، وذلك مما لا جدال فيه حتى أن الكفار لم يستطيعوا، أن يجادلوا في هذه القضية[٤]، ولو جادلوا لنقل إلينا أو نقل عنهم ، ولم تصح نسبته إليهم .

---

(١) راجع كتابنا ـ قضايا حبيسة في الفلسفة الحديثة ص ٧٩ ، فهناك فروق كثيرة بين النقل الإسلامي والفكر الإسلامي ، وأن النقل المنزل معصوم ، أما الفكر الذي يخدمه فحلاله حلال ، وحرامه حرام ، وتجري فيه الأحكام الشرعية الخمسة .

(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) الأدلة المادية على وجود الله تعالي ص ١٣ .

(٤)الأدلة المادية على وجود الله ص ١٣ .

قال تعالي :" وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ "(١) ، وهو إقرار بإحالة أمر الخلق كله إلى الله تعالى ، والعوالم العلوية والسفلية في أجزائها والكليات الشاملة لها .

وقال تعالي :" وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ "(٢)، وذلك يؤكد أن أمر الخلق كله يرجع إلى الله وحده ، وقد أعترف به الكفار قديماً ، والملاحدة ينكرونه حديثا ، وليس لديهم دليل واحد مقبول على مزاعمهم الفاسدة .

فثبت أن القول بالانتخاب الطبيعي غير مقبول،على الناحية الشرعية أيضا ، وذلك مما يجعل هذه الأفكار ، واجبة الهجران والنكران .

ومن الملاحظ أن مسألة الخلق والتقدير، والعناية والتدبير كلها من أفعال الله وصفاته(٣) ، وبالتالي فإن ما يجري في هذا الكون الرحب الفسيح إنما هو ، أفعال الله تعالى ، طبقاً لما دون في قضائه ، ويجري به قدره ، ويحيط به علمه، وتخصه عن غيره إرادته ، وتقوم قدرته تعالى بإيجاده،أو إعدامه حسب ما جرى به العلم الإلهي الأزلي .

ولذا فقد وردت مادة خ ل ق في القرآن الكريم حوالي خمس وأربعين ومائتي مرة ، وكلها دالة على أن الخالق واحد هو الله رب العالمين(٤)، ومن المعروف أن سيدنا آدم عليه السلام هو أبو البشر ، وأول موجود على ظهر البسيطة ، وأول نبي نزل عليه الوحي ، وكان خلقه من تراب ... ثم تحول التراب بعد صب الماء عليه بأمر الله تعالى إلى طين ، فصار هذا الطين حمأ مسنوناً ، ثم

---

(١) سورة العنكبوت الآية ٦١.
(٢) سورة العنكبوت الآية ٦٣ .
(٣) يقسم العلماء صفات الله تعالى باعتبار الذات والفعل إلى قسمين : الأول : صفات الذات ، وهي التي لا يقع فيها الاشتراك اللفظي بين الله تعالى والمخلوقين ، كالمحي والخالق ، والمبدئ والمعيد ، أما الثاني : صفات الأفعال ، وهي التي يقع فيها الاشتراك اللفظي فقط مع وجود الفارق الكبير بين ما يخص الله تعالى ، وما يخص المخلوقين من حيث المعنى - حاشية الجرجاني على مطالع الأنوار ص ٧ - المطبعة الأميرية .
(٤)الأستاذ / محمد فؤاد عبد الباقي - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٢٤١/٢٤٥ ط الغزالي بدمشق

جف هذا الحمأ المسنون ، فصار صلصالاً ، ثم سوى الله جل جلاله صورة آدم عليه السلام من هذا الفخار ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان إنساناً أصلاً لأبنائه الموجودين عموما ، إلى أن تنتهي الدنيا ومن عليها(١)، وهذا الفهم هو الذي تعترف به المباحث الأحيائية ذات الصبغة العلمية ، حيث تقرر أن البلازما التناسلية يتسلمها من آدم بنوه إلى يوم القيامة ، طبقاً لما هو قائم في علم الله تعلى الأزلي ، ويجري في الكون كله ، قال تعالى :" ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ "(٢)

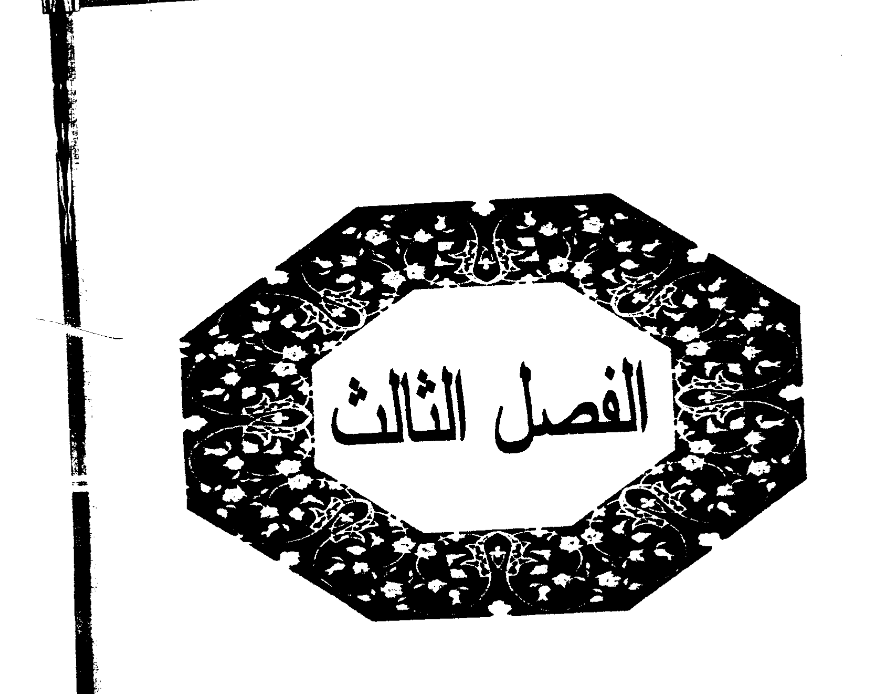
ولا يمكن أن تكون تلك المراحل في خلق الإنسان، قد تمت وحدها عن طريق التطور الاحيائي او الانتخاب الطبيعي،أو الاصطناع النوعي، بدليل أن الزوجين المبصريين ، قد ينجبان مكفوف البصر ، وقد يحدث العكس فينجب الزوجان المكفوفان أولاداً مبصرين ، فأين دور الانتخاب الطبيعي في هاتين الحالتين ، ومشاهد الحياة فيها الكثير من ذلك، ما يصعب حصره على وجه اليقين،مما يهدم الأفكار الشاذة ، ويلغي من دائرة القبول الأبحاث المنحرفة ، ويجعل الإيمان بالله تعالى،و التصديق بأنه وحده الخالق،وهي الحقيقة الثابتة،والأكيدة في نفس الوقت.

قال تعالى :" وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ" (٣).

وذلك مما لا ينكره عاقل،ومن اعتقد في غيره خاب مسعاه، وضاع منه هداه، وعاش كافراً بالله ، وهو الحكم الذي ينطبق على الداروينية وأمثالهم ، ممن يجعلون الطبيعة خالقاً ، والمادة إلهاً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

---

(١) الدكتور / سيد أحمد رمضان المسير - إلزام القرآن للماديين والمليين ص ١٧ ، ١٨ - ط ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م دار الطباعة المحمدية بالقاهرة .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٠٢ .
(٣) سورة المومنون الآيات ١٢ - ١٤ .



بقاء الأصلح والوراثة

تعتبر قاعدة الأصلح من القواعد الهامة بالنسبة للتطوريين ، ذلك لأنها تمثل قيمة كبيرة ، كما تعتبر فكرة الوراثة هى الأخرى ذات شأن هام فى البناء التطورى الإحيائى ، حتى أطلقوا على كل واحدة منها اسم القانون أو الناموس، ومن ثم سأعرض كل واحدة منها على ناحية مستقلة .

أولاً : بقاء الأصلح :

يعتبر بقاء الأصلح من الاستنتاجات التى قامت عليها الأفكار الإحيائية [١] باعتبار أن داروين وضع جملة من المبادئ العامة [٢] أمكنه استخلاص استنتاجين بلورا ، الفكرة فى ذهن داروين ، وهذان الاستنتاجان هما : تنازع البقاء ، الذى تم استيلاده من مبدأى ميل الكائنات الحية للتكاثر والاختلاف [٣] ثم استنتج من المبدأ الثانى - الاختلاف - والاستنتاج الأول - تنازع البقاء [٤] : الانتخاب الطبيعى [٥] ، ثم استنتج من الانتخاب الطبيعى بقاء الأصلح [٦] الذى مهدت له العلمانية والمذاهب الانحلالية من قبل .

وإذا كانت العلمانية هى مجرد حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة ، وإلى الاهتمام بالحياة الدنيا وحدها [٧] فإن أفكار التطور

---

[١] قامت الجوانب الإحيائية فى الكائنات العضوية على جملة من الأفكار لبعض الدارسين قصرها على أربعة،أو بعضهم أزاد عليها حتى تجاوزت العشرة ، ولكل اتجاه قادة إلى ذلك التعدد .

[٢] مبادئ النظرية عند داروين هى أ- ميل جميع الكائنات الحية للتكاثر ، ب- ثبات عدد الأنواع ، ج- الاختلاف والتباين .

[٣] وهما المبدآن الأول والثالث ، طبقاً لما أورده الدارسون عن داروين بهذا الخصوص .

[٤] إذن تنازع البقاء استنتاج أول تم التقاطه من المبدأين الأول والثالث .

[٥] وبالتالى فالانتخاب الطبيعى لا يمثل مبدأ ، وإنما يمثل استنتاجاً وسطاً بين الأول ، وهو تنازع البقاء ، والثالث الذى هو بقاء الأصلح ، أو هو المرحلة التى تجمع بينهما .

[٦] هو الاستنتاج الأخير بالنسبة لجملة الأفكار التى قال بها داروين .

[٧] الدكتور محمد صبحى الطويل - العلمانية النشأة والتطور ص ١٧ ط أول سنة ١٩٧٥ .

الإحيائية العضوية هى الأخرى صرخة فى نفس الوادي ، لكن بقصد صرف الناس على الاعتقاد فى الله تعالى ، وأنبيائه وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، وفى نفس الوقت تقوى لديهم الاعتقاد فى الطبيعة وحدها ، مع وصفها بصفات الخلق العظيم من الأزلية والأبدية وغيرها ، مما يجعل كليهما - العلمانيين والتطور الداروينية - تهدف إلى القضاء على عقيدة الألوهية فى النفوس [٢] وهو الهدف الثابت والأكيد لديهم .

بيد أن التطوريين الإحيائيين مارسوا ألعاب الحواة ، وأسمار البهلوانات، وكافة حركات الأراجوزات ولاعبي السيرك ، فى الأقفاص الماركسية ، حتى صارت هذه وتلك هى التى تقودهم من أزمتهم ، وتستولى عليهم من أعماقهم ولا تفتر عن الضرب على أوتارهم الواهنة ، وتهميش دور الفطرة من ذات النفوس ، ومحاولة إلغاء النزعة الدينية من المشاعر الرقيقة . أو إبعادهم عن دائرة الاعتماد عليها .

ولذا فهم مصرون على تقديم ما يرونه داعماً لأفكارهم ، واضعين إياه تحت اسم القوانين والنواميس مرة ، أو القواعد تارة أخرى ، رغم أن ما انتهوا إليه ما هو إلى شئ من خيال المخمورين ، أو أحلام وهلاوس بل وكوابيس النائمين المفزوعين الذين يتصورون أشياء أو يتخيلونها ، وهى لا وجود لها فى الواقع ، ولا حماية لها من الدعم العقلى ، كما أنها تخالف الأسس العلمية ، كما تمثل عدوانا على الشريعة الإسلامية ، ومع هذا كله فهم يحاولون إعطاءها صفة الحقيقة الموجودة [١] وفى هذا قلب للحقائق ، والتدليس على الناس ، وارتكاب الحماقات باسم البحث العلمي ، وما هو إلا رجع صدى للهوس الفكري الذي

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه ص ١٧ والكلمة مأخوذة من كلمة Secularism وراجع ENCYS. BRITANICA. V. IX. P. 19 .

(٢) الأستاذ / محمد أحمد باشميل الإسلام ونظرية داروين ص ٣٣

الذى غلب عليهم من كل ناحية .

بيد أننى ما دمت قد عرضت بعض المبادئ الأصلية أو الثانويـــة التـــى تقوم عليها الفكرة الإحيائية العضوية عن الداروينيين ، وناقشتها طبقاً لما ســـلف ذكره ، فإن المنهج الذى سرت عليه ، يقتضى عرض هذه الجزئية أيضاً ، كمـــا هى عندهم ، ثم مناقشتها على الجوانب الممكنة،وهو ما سأفعله بإذن الله تعالى .

أ ــ عرض الفكرة :

يذهب التطوريون إلى القول بأن الأحياء تتنازع فيما بينها من أجل البقـــاء، وأن هذا التنازع يتولد عنه بقاء الأصلح [١] أما كيف يكون ذلـــك فـــالجواب أن الكائنات الحية حين كانت فى مرحلة الحياة الأولى ، حدث بينها نوع من التنـــازع من أجل الغذاء والمأوى بغية الحياة ، وأن هذا التزاحم على موارد الغذاء قد أدى إلى وجود ثلاثة أنواع من الكائنات الحية :

الأول : نوع سعى لموارد الغذاء ، ولكنه هلك قبل الوصول إليها بفـــترة طويلة ، فهذا النوع لم يعد له وجود [٢] بين سائر الكائنات الحيـــة التـــى فيـــها رغبة التنازع .

الثانى : نوع سعى لموارد الغذاء ، لكنه وصل إليها منهكاً ، ضعيفـــاً ، فعجز عن الحصول على متطلباته الضرورية ، واحتياجاته الأساسية فى شـــكل

---

[١] ويعزى إلى هربرت سبنسر القول بمبدأى التنازع للبقاء ، وبقاء الأصلح ، وأنه الذى صاغ هذيـن المبدأين فى العبارات المعروفة ، وكان ذلك قبل ظهور كتاب داروين أصل الأنواع بسبعة أعوام ، انظر لهنرى توماس أعلام الفلاسفة وكيف نفهمهم ص ٣٠٣ ترجمة مترى أمين ط دار النهضـة العربية ١٩٦٤ كما يعزى إلى لامارك القول بالانتخاب الطبيعى ، وأنه الذى تولد عنـــه البقـاء للاصلح ، انظر الدكتور محمد السيد شعبان ضاحى – الأفكار التطورية الأصـــول والنتـــائج ص ٢٣٧ ط أو ١٩٦٧ ، ويعزى إلى جوليان القول بأنه الذى صاغ فكرتى تنازع البقـــاء ، وبقـــاء الأصلح ، راجع لتوماس إدوارد الفلسفة الحديثة ص ١٩٥ ترجمة وفاء صبرى ولكل وجهته .

[٢] توماس إدوارد – الفلسفة الحديثة ص ١٩٧ ترجمة وفاء صبرى ط دار الجيل ١٩٨٧ .

متكامل ، وإنما حصل على النذر اليسير فقط [١] الذى سد به رمقه ، ولـــم يـــرد على ذلك ، ومن شأنه أن تكون قوته بقدر ما حصل من غذاء .

ولما كانت كمية الغذاء التى يحصل عليها طفيفة ، فإن هذا النوع سـيظل ضعيفا ، لكنه يبقى على قيد الحياة فترة ما من الزمان ، فإذا عجز عن الحصـول على ضروريات الحياة هلك فى أفراده ، وفى نوعه أيضاً .

الثالث : نوع سعى لموارد الغذاء والمأوى بقوة ، وذلك مـــن شـــأنه أن يزداد قوة وصلابة ، ومن ثم فهو الأقدر على مواجهة الظـــروف ، والأصلـــح للبقاء فى عالم الكائنات الحية [٢] ، أما غيره فلا عبرة بوجوده ، إذ ما قيمة مـــن يعجز عن الوصول إلى مصادر حياته وبقائها .

بناء عليه فإن الأقوياء هم الذين سيواصلون الرحلـــة فـــى أشـــخاصهم وأنسالهم ، حيث تزداد قوتهم قوة ، وأجسامهم صلابة ، وأنسالهم انتشارا ، أمـــا الضعفاء فإنهم يسقطون فى أثناء المسير ، وسيواصلون حياتـــهم ضعفـــا علـــى ضعف حتى يصلوا مرحلة الأضعـــف ، وبعدهـــا يحصـــل الانقـــراض لـــهذا النوع تماما [٣] .

إذن الأقوى هو الذى يكون أصلح للبقاء ، كما أن الطبيعة ستظل تنتخـــب الأقوى والأكمل فتبقيه وتحافظ عليه ، باعتباره الأصلح للبقاء على شاطئ الحيـــاة والأنسب للخلود ، أما الأضعف فتأخذ فى ابتلاعه وتلاشـــيه ، لأنـــه لا يصلـــح للبقاء، كما لا يقوم عليه الارتقاء [٤] باعتبار أن الأصلـــح يقـــوم علـــى أكتافـــه

---

(١) الدكتور / محمد السيد شعبان ضاحى – الأفكار التطورية الأصول والنتائج ص ٢٣٩ .

(٢) توماس إدوارد - الفلسفة الحديثة ص ١٩٩ ترجمة وفاء صبرى

(٣) الدكتور وليم ويصا - التطور العلمى ص ٢٣١ ط أول سنة ١٩٨٧ .

(٤) بروتا أ. ب باك توافق الكائن الحى مع البيئة ص ٢٢١ ترجمة هناء أبو نكـــرى ط ثانية دار الجيل ببيروت ١٩٨٥ .

الارتقاء الذى يمثل المرحلة الأخيرة من مراحل تفسيرهم لكيفية نشـأة الكائنـات الحية ، أو تخلق الخلية الحية الأولى من المادة الصماء .

حيث يعتقدون أن التنازع يظل قائماً لا ينقطع ، باعتبار أن الرغبة فـي البقاء هى التى تظل دافعة الكائن الحى لذلك التنـازع ، وتقـوده حتمـاً إليـه ، والأقوى ينتصر ، والأضعف يتلاشى ، بل لن يبقى إلا الأكمل والأقـوى مـن الأنواع،التى تتصارع على البقاء ، ولا علاقة لشيء آخر بهذا الصراع والتنـازع للبقاء ، بحيث يكون خرجاً عن نطاق الطبيعة ذاتها ، وإنما هـو تنـازع ذاتـي تفرضه ظروف التولد الذاتى ، والتطور الإحيائى نفسه [1] .

بيد أن فكرة بقاء الأصلح قد ظهرت فى العلوم الكيمائية كأحد مراحـل البحث العلمى ، مع ملاحظة أن غلبة العنصر الكيميائى على غيره ، هى التـي تجعله صالحاً وقوياً ، بينما ضعفه يؤدى به إلى الانحلال والتلاشى ، بدل التنميـة المستمرة التى يمكن القيام بها داخل معمل التجربة نفسه [2] ثم أن الفكرة ذاتـها - بقاء الأصلح - تر فى الأفكار المادية الجدلية والعلمانية ، مما يوحى للقارئ بأنها ليست وليدة الأفكار التطورية الإحيائية ، أو أنها من بنات أفكارها ، وذلك مـن شأنه دفع الباحث إلى مواصلة السير فى ذات الطريق ، بغرض التعـرف علـى الحقيقة ، ثم الموازنة بين المضامين والأسس التى قامت عليها .

كما لا يعدم الباحث وجود إشارات عن فكرة الصلاح والأصلح التى ترد فى بعض طرائق الفكر الإسلامى ، بالنسبة للأفعال الإلهية ، وقد تحـدث عنـها المعتزلة باسـتفاضـة ، حتى أنهـم جعـلوها أحـد الأعمدة الهامة فى الفكـر

---

(١) تشارلز داروين أصل الأنواع ص ٩٣ ترجمة الأستاذ إسماعيل مظهر .

(٢) أنطون بللى جرلم : الفيزياء والفلسفة ١٧٥ ترجمة الدكتور / نادر السيد رشوان ١٩٧٧ .

الاعتزالي[١] ولا شك أنها تختلف تماماً عن الأخرى التى قال بها التطوريون حتى وإن وقع الاتفاق بينهم فى المنطوق،إذ العبرة بالمفاهيم الثابتة والمعانى المحددة

من المؤكد أن فكرة بقاء الأصلح العضوية كـــانت نتيجـــة ملاحظـــات ومشاهدات فى عالم الحيوانات الأليفة،بحيث يمكن ضبطها على ناحية صحيحة ، بل ومن المؤكد أيضاً ، أن الذين قالوا بها فى المجال الحيوى كانوا يعملون فـــى ذات القطاع، وأن ملاحظاتهم الشخصية قد حاولوا تطبيقها على كل من الإنسان والحيوان ، بل والحشرات مع اعترافهم بأنه لم يتـــم التطبيـــق العملـــى علـــى شـــئ منها .

لكن فكرة بقاء الأصلح العضوية هذه اعتبرها البعض وليـــدة الانتخـــاب الطبيعى ، وبناء عليه قالوا أن الكائنات الحية فى صراعها تستبقى الأقوى ،علـــى أساس أنه فى ذات الوقت الأصلح ، كما أن الأصلح فى الكائنات الحية للبقاء هـــو الذى يتمكن من السيطرة على أنظمة الحياة ، ويقـــاوم ضغـــوط البيئـــة ، بـــل ويستطيع السيطرة على العوامل الخارجية التى تعوق غيره عن التطور [٢].

يذكر أندرية دوهان أن فكرة بقاء الأصلح ، قد تمت صياغتها من خـــلال ملاحظات شخصية على حيوانات أليفه كان قد تم انتخابها بشكل صناعى، ولكنها لا تفسر شيئاً من العوامل التى قام على أساسها هذه التمايز العضلى ، أو بـــرز من خلالها الأصلح ، كعامل قوى فعال [٣] ، كما أن هذا الأصلح يمثل انتصـــارا

---

[١] بل إن قاعدة الصلاح والأصلح فرضت نفسها على الفكر الاعتزالي بشكل كبير ، ثم تســـللت إلـــى بعض الإفهام الأخرى ، وأن اختلفت طرائق التعبير اللغوية ، أو الأنماط الفكريـــة ولمزيـــد مـــن التفاصيل راجع الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ، وكذلك المغنى له أيضاً .

[٢] الدكتور / محسن السيد رزق – الفلسفة الحديثـــة فـــى مـــيزان النقـــد ص ٧٢ ط أولـــى سنة ١٩٨٧

[٣] أندريه دوهان – التطور الإحيائى مسائلة ومشكلاته ص ١٩٧ ، ترجمة صبحـــى الســـيد فاضل سنة ١٩٥٧ ط أولى دار الفكر بيروت سنة ١٩٨٥

أو مظهرا لانتصار عضلى ، غير خاضع لمعايير علمية ، بقدر ما هو معبر عن اتجاهات كامنة فى صدر القائلين بها [١] .

ويقول دوهان أيضاً ، أن فكرة الأصلح الإحيائية تمثل الناتج للانتخاب الطبيعى ، لكنها فى ذات الوقت ليست انتخاباً طبيعياً بقدر ما هى توجيه العمليات الإحيائية نحو غاية ، غير التى كان عليها الفكر الإنسانى فى هذا الجانب قديماً [٢] وهذا فى حد ذاته يكفى لتعديل بعض النتائج ، أو إعادة النظر فيما سبق الوقوف عليه .

بيد أنى لا أغرب بعيداً أو أسافر مع الخيال ، إذا قلت بأن فكرة الأصلح لا تمثل قاعدة أو ناموساً ، كما لا يمكن اعتبارها مبدأ هاماً فى الأفكار الإحيائية ومع هذا فإنها قد تركت أثراً قد يكون قوياً بعض الشىء ، أو ضعيفاً يمكن غلبته والسيطرة عليه ، لكن لما كانت الفكرة تلقى على الطبيعة بمهمة تدبير الخلق والتصرف فى أمورهم ، والاستغناء عن الخالق ، فمن الضرورى مناقشتها ، وبيان ما فيها من ثغرات ، وما تحمله من آفات ، وما فضحته من عورات .

ب ـ مناقشة الفكرة :

أستطيع سلفاً استعارة مقولة إيريك فروم ، أن حياتنا تجتاحها الفوضى الروحية ، جنون لا يشبه الجنون الهستيرى الذى وجد فى العصر الوسيط ، بل جنون شبيه بانفصام الشخصية ، حيث ينعدم فيه الاتصال بالواقع الباطنى وينشق فيه الفكر عن الوجدان ، إن هؤلاء لناس - التطوريين - بالذات يعدون أنفسهم حمقى ، أو أسوأ من ذلك ، إذا ترددوا فى بيع سلعة يعلمون سلفاً أن

---

[١] الدكتور / محسن السيد رزق - الفلسفة الحديثة فى ميزان النقد ص ٧٤ ط أولى سنة ١٩٨٧ .

[٢] أندريه دوهان - التطور الإحيائى مسائلة ومشكلاته ص ١٩٩ .

المستهلك لا يقدر ثمنها [١]

كما أن كتابات هؤلاء التطوريين بالمعنى الذى يجب أن نناقشه ، تجعل المرء يصعب عليه أن يتنفس بعمق ، أو يفكر بجدية ، ونحن نحتاج إلى هواء نقى يساعدنا على استنشاق الأفكار التى تجرى فى وجداناتنا على ناحية مقبولة وهو الذى نفتقده فى كتابات التطوريين على وُجه العموم [٢] وهى فى ذات الوقت المعبرة عن أفكارهم ، الحاملة لكل آرائهم

يقول هنترميد : ونحن حين نحاول معالجة المواقف الصادرة عنهم تتبحنا سدنة السائد ، وكهنة الوراء صارخة - لن يغنى عنكم العلم شيئا ، فالعلم تقريرى يصف ما هو كائن ، والقيمة معيارية ترسم ما ينبغى أن يكون والانتقال مما هو كائن ، إلى ما ينبغى أن يكون ، انتقال غير مشروع ، بل هو مغالطة المذهب الطبيعى العتيدة [٣] .

وهى لا تتوقف عن الاسترسال ، كما أن ألاعيبه لا تنتهى عند حد معين، لكننا نقول أن فكرة بقاء الأصلح التطورية لا تقدم جديدا ، كما لا تحقق نجاحاً يحسب فى أرضية الواقع ، بل على العكس من ذلك أنها تهدم الأسس القائمة ، وتقفز فوق القواعد الثابتة ، ومن ثم فإنى سأحاول مناقشتها على

---

[١] أريك فروم ARIC FROME - الدين والتحليل النفسى ص ٩ ترجمة فؤاد كامل مكتبة غريب سنة ١٩٩٧ .

[٢] جون لويس - مدخل إلى الفلسفة ص ٨٧ ترجمة أنور عبد الملك ط الدار المصرية سنة ١٩٥٧ .

[٣] هنترميد - الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ص ١٩٥ ترجمة الدكتور / فؤاد زكريا ط دار نهضة مصر سنة ١٩٧٥ .

الجوانب التالية

الأول : القواعد الإحيائية :

من المؤكد أن القول بفكرة بقاء الأصلح التطورية تنتهى إلى هدم قـاعدة الترتيب الطبيعى الإحيائية ، حيث يذهب الجيولوجيون إلى القـول بـأن تـدرج وجود الحيوانات والنباتات التى نعثر على بقاياها مستحجرة فى بـاطن الأرض، ليدل واضح الدلالة على أنها لم تخلق طفرة ، خلال عصر محدود من العصـور، وإنما نشأت متسلسلة بعضها عن بعض ، متعاقبة فى الوجود والأزمان أيضاً [١].

مما يؤكد بطلان فكرة كل من التولد الذاتى،والانتخاب الطبيعى،بل وينتهى إلـى القول بأن فكرة بقاء الأصلح لا وجود لها بالنسبة للواقع العلمى، وأن تصـورات التطوريين بالنسبة لها غير قائمة على أصول صحيحة أو قواعد مقبـولة.

ومن ثم فإن قاعدة بقاء الأصلح التى يتمسك بها الإحيائيون تخالف تمـام المخالفة قول الإحيائيين أنفسهم بأن هذه الكائنات الحية قد نشأت من خلال سلسـة متواصلة من بعضها [٢] بل إن فكرة بقاء الأصلح لا يوجـد لـها مكـان لـدى الإحيائيين الذين نعتد بهم ، وإلا فأين المكان الذى ظهرت فيه قاعدة بقاء الأصلح بالنسبة لسلسلة الموجودات المتعاقبة فى العالم الإحيائى [٣] .

كما أن القول بقاعدة الترتيب الطبيعى الإحيائية لا يواجه أدنـى مشـكلة فى الوقت الذى تعجز فكرة بقاء الأصلح عن دفع المشـكلات التـى تعترضـها على وجه الإجمال أو على جهة التفضيل أن هذا فى حد ذاته يكفى لإثبات أنـها فكرة باطلة .

---

(١) الأستاذ / إسماعيل مظهر ، ملقى السبيل ص ٢٦١ .

(٢) توماس إدوارد - الفلسفة الحديثة ص ٢٠١ ، وهذا اعتراف إحيائى بفسـاد فكـرة بقـاء الأصلح الإحيائية ، ومعنى ذلك عدم وقوف أفكارهم على أرضية سليمة أو قواعد مقبولة .

(٣) الدكتور / محمد السيد شعبان ضاحى - الأفكار التطورية الأصول والنتائج ص ٢٤١ .

الثانى : القواعد العقلية :

القول بفكرة بقاء الأصلح على الجانب الإحيائى التطورى ، يتحتم معه الاعتراف بضرورة وجود قدرات عقلية ، فى ذات الكائن الحى تقوم له بدور الانتقاء واختيار الأمثل ، حيث يقع الأصلح ، وهم ينفون وجود ذات القدرات الإبداعية ما لم تكن على جانب محسوس ، وهى ذات المشكلة التى كلما حالوا إنكارها ، أجبروا على الاعتراف بوجودها [١] ، بحيث ينتهى الأمر معهم إلى ضرورة الإعلان عن وجود الله تعالى ، الخالق القادر الذى له كمال القدرة وشمول العلم ، وأنه وحده بيده الخلق والأمر ، وأن جريان الأسباب والمسببات لا بد أن ينتهى إلى إحالة الأمور جميعها لله تعالى ، وهم ينكرونه ، ولا سند لهم على ذلك الأفكار سوى المكابرة بدليل أن العقل السليم والوجدان النقى ، والفطرة الصحيحة المستقيمة تشهد كلها بوجود الله تعالى وتوحيده ، بجانب ما له تعالى من صفات الجلال والكمال والإكرام .

وإذا كنت قد فرغت من عرض القاعدة العامة التى ذهب إليها أصحاب التطور الإحيائى ، أو الحيوى كما يسمونها ، وناقشنا كل جزئية منها على النحو الذى سلف ، وقد بان فسادها جميعاً ، وعدم صلاحيتها للاستعمال ، فضلاً عن الاعتقاد فيها أو التصديق بها ، فإن المؤسف له ، هو أن نجد فى بلدنا الإسلامى بلد الأزهر الشريف جمعية تسمى " جمعية الطب النفسى التطورى "[١] .

---

(١)الاعتراف بوجود ما ليس بمحسوس هو المشكلة الكبرى بالنسبة لكل الماديين على اختلاف أنماطهم الفكرية ، واتجاهاتهم العقلية .

(٢)مقرها : مستشفى دار المقطم للصحة النفسية بالقاهرة ١٧ ش ١٩ مدينة المقطم ، ولها مجلة عنوانها : الإنسان والتطور ، وقد نشأت هذه الجمعية فى ١٩٧٩/١/٢٤ وسجلت برقم ٢٥٤٦ تحت ذات الاسم ، وذلك لغلبة الفكر العلمى على نشاطها ، من مدخل الطب النفسى ،ومن أهدافها المعلنة بشكل رسمى إثارة التفكير ، وممارسة العمل بكل أشكاله ، على طريق التطور الحتمى للإنسان المصرى .

ومن ثم الإنسان فى كل مكان،وهى تكمل نشاط جمعيات أكبر وأعرق مثل الجمعية المصرية للطب النفسي=

مهمة تلك الجمعية تنحصر في الإعلان المستمر عن مفـــهوم التطـــور الإحيائى ، ـــ الذي ثبت فساده ـــ عن طريق الطب النفسى ، ومحاربـــة الديـــن والفضيلة ، ثم مهاجمة الرموز الدينية بالإشارة الواضحة ، والعبارة الصريحـــة ، أو عن طريق الغمز واللمز ، وفى جرأة لا يوصف بـــها إلا مرضـــى الطـــب النفسى أنفسهم .

تقول المجلة : الأسرى فى الأقفاص الطائرة ، والصليب الأبيض علـــى ظهور الأحياء جميعاً ، ثم هم اليهود فى مقابل البشر ، وليس إسرائيل فى مقـــابل العرب ، يرحم الله هتلر الغبى ، وأطال عمر مولانا الخمينى ونفعنا به [١] حيث يفتى أن هذه الحرب فرض كفاية ، إذا قامت بها مصر سقطت عن العـــرب، وإذا قام بها الفلسطينيون سقط الفرض عن العرب .

ثم تقول : إذا كانت مغامرة السلام قد جعلت الأمور أكثر تعرياً ، فـــهى لم تنقذ أحداً من جريمة الخصاء وجريمة الكلام ، فإذا كنا لا ننسى ولا نحارب ، فلتنفجر الحياة فرض عين على كل صنف بشر ، أو منقـــرض بفضـــل اليـــهود والموت داخلنا وخارجنا .[٢] .

وقد رأيت أن أعرض لك بعض نشاط تلك الجمعية ، لتعـــرف إلـــى أى مدى يقع بعض الناس ضحايا التصديق بأفكار لم تثبت صحتها ، وفـــى المقـــابل ينكرون النصوص الدينية الصحيحة ، التى هى من عنـــد الله ســـبحانه وتعـــالى

- والجمعية المصرية للدراسات النفسية ، راجع العدد الأول ص ٢،١ من مجلة الإنسان والتطـــور ، والعـــدد الثالث يوليو ١٩٨٢ فى الافتتاحية .

[١] لا شك أن هذا الغمز واللمز ليس مقصود به الإمام الخمينى وحده ، وإنما هو اتجاه يتنـــاول كل مفكر مسلم ما دام خارج نطاق جمعية الطب النفسى .

[٢] مجلة الإنسان والتطور ص ٧ السنة الثالثة يوليو ١٩٨٢ - إصدار جمعية الطب النفســـى التطورى بالقاهرة .

منزلة ، وعلى لسان رسوله الأمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مبلغة ، ومع أتباعه قائمة[١] ، وفي المخلصين من أمته ثابتة ومؤكدة .

بيد أن الأكثر غرابة هو تبني مثل تلك الجمعية النفسية ، الأفكار المعادية للدين مهما كانت رؤوس أصحابها ، ومهما كانت نوعية الأرض التي نمت فيها تلك الأفكار ، دون التفات لما سوف يترتب على القول بها من مهاجمة الدين والإلحاد باسم العلم ، والانعزال عن رب العالمين،والاحتماء بالشيطان الرجيم .

فمثلاً ينادون بالداروينية واعتبارها عقيدة ، ثم يطالبون بالوضعية ويعتبرونها العلم الصحيح ، ثم يطالبون بالوجودية ويعتبرونها ديانة ، حيث يقولون عنها : إنها أحد التيارات التي تحاول أن تخرج من الإطارات الضيقة، والتقليدية التي تمثلها ، فتنطلق إلى آفاق أرحب ، تتناسب مع الأبعاد الحقيقية للنفس الإنسانية [٢] .

ثم تقول : والاتجاه الوجودي يضفي طابعاً حراً إرادياً على القصدية [٣] فالقصدية هي دائماً نابعة من موقف ، وهي مرتبطة بالضرورة بالمبدأ المنظم لحياة الشخص ، أو ما يسمى بأيديولوجيته ، أو خرافته الشخصية His Personal Myth وهو شئ يختاره الشخص بحرية ، ويلتزم به ويلوّن رؤيته ومواقفه[٤].

---

[١] وفي الحديث الشريف يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم

[٢] مجلة الإنسان والتطور ص ٨ وما بعدها العدد الثالث .

[٣] لست أدري أي وجودية يقصدون ؟ أهي وجودية سارتر ومن معه وتسمى الوجودية الملحدة ، أم وجودية غيره ممن يطلقون عليها اسم الوجودية المؤمنة ، مع أنها جميعاً في الإلحاد غارقة .

[٤] مجلة الإنسان والتطور ص ١١

ونحن نرى أن هذه السلوكيات تمثل مظهراً من مظاهر إرتضاع الثقافة الإلحادية التى لم يكتشفها من ارتضوها ، رغم دعاواهم العريضة ، أنهم من أهل العلم وأصحاب التقدم ، وفى نفس الوقت فإنا نرفضها شرعاً ولا نقبلها ، ولسنا فى مجال مناقشتها هى الأخرى فى هذه الورقات التى جعلناها خاصة بمناقشة التطور الإحيائى [١].

ولا شك أن رحلة التطور الحيوى لم تنقطع ، بل إن أخطارها على العقيدة والدين والأخلاق والإنسانية ما تزال مستمرة ، وإن لم يتنبه لها أولى الأمر ، فسوف تقع الكوارث لا محالة ، ولن تردها المفردات اللفظية ، وإنما لا بد من مقاومتها بشكل عملى مدروس ، وسوف أنقل لك بعض ما تناقلته الصحف القومية السيارة فى بلدنا الإسلامى الكبير .

تحت عنوان : الاستنساخ أكبر خطر يهدد الحب والجنس [٢] كتبت صحيفة الجمهورية تقول :الحاجة إلى الجنس تتناقص ،إلى أدنى مستوى ممكن ، مع عبورنا بوابة الألفية الثالثة ،وتقول الرؤيا العلمية أن الطيور تمارس الجنس ، والنمل لا يغفل عنه ، ولكن البشر لا يجدون أنفسهم ، ولم تعد هناك حاجة إلى هذا العناء إلا من أجل المتعة فقط ، حيث أنه مع حلول عام ٢٠٢٥ سيبدو الجنس أقل ضرورة مما هو عليه الحال الآن ، وسيكون الطلب عليه من أجل الترويح، لا من أجل التكاثر ، فكثير من البشر وخاصة الأثرياء والطموحين والعابثين سيقبلون على استخدام أنابيب الاختبار ، لا لأنهم غير أكفاء ، أو لانعدام وجود شريك فى الحياة ، من أجل استنساخ أنفسهم [٣] ومن ثم فلا

---

[١] لأنا قد جعلنا عنوان تلك الدارسة هو التطور الإحيائى بين الدين والفلسفة ، وقد أتناول غيرها فى أبحاث مستقلة ، أن أمد الله فى العمر ، ومكن فى الصحة ، ويسر فى الأسباب.

[٢] جريدة الجمهورية الثلاثاء ١٩٩٩/١١/٩ ص ١٧ عمود ٦ ، ٧ .

[٣] راجع الدكتور / على صبرى الاستنساخ العلمى ص ٩٥

يحتاجون إلى ذرية تأتى عن طريق الحمل والإنجاب

ثم يقولون المثير فى المسألة هو أن الكثير من المخلوقات تتكاثر بالفعل بدون ممارسة جنس مثل السحالى [١] ، وحشرات المنة ، والإنسان بالطبع مع الاستنساخ ، ومنذ ميلاد لويز براون ، وهى أول طفلة أنابيب عام ١٩٧٨ صارت مئات الألوف من البشر يضعون نطفهم فى المعامل ، وأداروا ظهورهم للسرير ، وإذا صار استنساخ البشر حقيقة ، على ضوء استنساخ النعجة دوللى[٢] يصبح الشك قاب قوسين أو أدنى ، فى انتشار الاستنساخ مع حلول عام ٢٠٢٥.

وحتى العلاقة بين الأجهزة الجنسية والتكاثر ، سوف تتحطم ، وعند ذلك ستكون قادراً على أن تأخذ قطعاً من جسدك ، وتزرع إنساناً جديداً ، كما لو كنت شجرة صفصاف ، وإذا صار من المحتمل مراقبة الجنين الخاضع للهندسة الوراثية من أجل التحسين ، عند ذلك سيصبح التخصيب والاستنساخ ، هو القاعدة وليس الاستثناء ، لكن بين القادرين على دفع النفقات[٣] وتحمل التكاليف.

وهكذا تشير الهندسة الوراثية ، إلى أننا قد نطلق الجنس إلى غير رجعة كوسيلة للتكاثر ، وكما جاءت حبوب منع الحمل فى الستينات لتثير العواصف والزوابع ، حتى تحرر المرأة ، وتدفعها إلى ألوان المتعة الجنسية من غير خوف حمل ، فإنها فى نفس الوقت أظهرت للمجتمع العالمى تسامحاً كبيراً بالنسبة لكافة أشكال الشذوذ الجنسى ، كطريقة للاستمتاع وليست للتكاثر [٤] .

---

(١) وهو ما يعرف باسم التكاثر اللاجنسى ، ويقوم فى أغلب الأحيان داخل إطار التوالد البكرى .

(٢) وقد شاعت أمورها ، والقائلون بالاستنساخ العلمى ما زالوا مختلفين حولها ، بعضهم يدعى أنها ما تزال حية ، وبعضهم يؤكد أنها ماتت .

(٣) راجع للدكتورة / وصفية رشدى ، نساء بلا متاعب حمل ص ١٣٧ وما بعدها .

(٤) بتيانو - الاستمتاع الجنسى بين المحاذير ص ١٧٥ ترجمة سناء فوزى

وهذه التغيرات هى استمرارية لاتجاه علمى بدء من فترة طويلة ويذكر دكتور/ ريتشارد درانجهام [١] أن معظم الثدييات تفقد الاهتمام بـــالجنس خـــارج فترة تزاوج محددة ، فأنثى الشمبانزى مثلاً تستقطب ذكرها بواســطة علامـــات تظهر فى موسم التزاوج ، وبعد ذلك لا تحاول أن تجعل الذكر يقترب منـــها ، أو أن تغريه بأية وسائل [٢] ... ولكن الإنسان انشغل كثيراً بالاحتمـــالات الجنســية منذ نشأته ، ونشترك فى هذا مع قليل من الأنواع مثل الحوت ، وقرود البونوبـــو وبعض الطيور ، وإذا كان الجنس أمراً ذا تشــــويق بالنســبة للبعـــض ، إلا أن الغالبية ــ كما هو متوقع ــ سوف تتخلى عن ممارســــته مـــن أجـــل التكـــاثر وتقصره على مجرد الرغبة والاستمتاع الجنسى .

وقد يكون الدافع إلى التكاثر بدون جنس ، فى المستقبل ، هو طلب كثـــير من الرجال والنساء للحصول على أطفال خالية من الأمراض الوراثيـــة ، وذات أطوال معينة ، أو ملامح جميلة ، أو صفات محددة ، وهذا يقربنا ممـــا تفعلـــه بعض الممثلات الشهيرات فى هوليود ، واللاتى يتمنين ممارسة الأمومة بـــدون حمل ، أو رضاعة ــ بدون جنس فعلى ــ ويقمن بتبنى بعـــض الأطفـــال ذات الصفات المطلوبة ، وكما يدعين فإنهن يحتفظن بجمالهن ، بدون مشاق الحمـــل ، والتغيرات التى تصاحبه ، إنها أمومة مصطنعة .

وبالنسبة لهؤلاء ومن شابههن فإن الاستنساخ ــ وهو تربية جنيـــن فـــى رحم بديل ــ يمثل إغراء لا يمكن مقاومته ، فهن يرفض الـــزواج والإنجـــاب وفى نفس الوقت يعشقن الجنس ،كما يفضلن التبنى ومع وجود الأحوال الكثـــيرة فإنهن يطلبن الاستنساخ ، ومن حسن الطالع أن الاستنساخ والأطفال التفصيـــل ،

---

[١] هو أ.د / ريتشارد رانجهام ، أستاذ علم الإنسان فى جامعة هارفارد الذى ظل يشغل هـــذا المنصب سنوات طويلة .

[٢] الأستاذ / وصفى رضوان - التاريخ الطبيعى ص ١٢٧ .

ليست إلا أوهاماً فى بداية الطريق ، مع مـــا يصاحبــها مــن أخطـــار ومــع الحكومات لها [١] .

والعجيب فى الأمر ـــ كما يقول التقرير ـــ أن الاستنســـاخ تلجـأ إليــه السحالي ، وحشرة المنة ويحدث أيضاً فى الفراولة ، وجميعها لا تحتاج لجــهود وعبقرية الذكر ، وحتى إذا تمت عملية البرهنة على أن الجنس لم يعد ضروريــا فلن يمثل هذا ضياعاً للجهد البشرى،إلا أن هذا سيجعل الكون ضئيلاً مظلماً[٢].

ثم يقول ...وبفضل الجنس تتألق الطبيعة ،ويضيع كل ما هو جميــل ، ولن توجد الزهور ، ولن تغنى الطيور ، وإذا لم توجد النساء ، فإن كل أحـــوال العالم لن يكون لها معنى ، وتصبح الحضارة البشرية متلهفة للعودة إلى العصــو الحجرى ، إذا لم يوجد جنس على سطح البسيطة [٣]وهذا غاية في الاندفاع .

وقد نقلت لك بعض أخطار التطور الحيوى العضوى فى المقال،المنشـور بالصحف القومية،واكتفيت بالنقل دون تعليق عليه، لأن ما فيه طافح بالأخطــاء ، وعليه الملاحظات التى لو حاولت مناقشتها ، ربما استغرقت كتاباً مستقلاً .

ومن العجب أيضاً أن يتبنى بعض المناطقة فى القرن العشـــرين فكـــرة التطور الحيوى العضوية ، ويذكرون أنها أحدثت تأثيراً فـــى تصنيــف العلــوم فيقول ، لما كان لنظرية التطور أثر كبير فى تغيير وجهة نظر العلماء فى نشأة الأنواع الطبيعية ، كان لا بد لهم من أن يغيروا - تبعاً لذلك - وجـــهة نظــرهم

---

[١] والغريب أن الحكومات الأوروبية تعمل على إذاعتها ، وترصد الأموال الكثيرة لاســتمرار الأبحاث فيها ، والعمل على تطويرها ، وكأن هذه العمليــات القائمـــة علـــى الاستنســـاخ حقيقة واقعية .

[٢] هذا مجرد احتمال قائم على افتراض استغناء البشر عن الزواج الشرعى ، وهو أمر غــير قائم ، إن شاء الله تعالى ، لأن ما قدره الله تعالى سيكون ، وما شـــرعه ســيبقى حقيقـــة قائمة ثابتة .

[٣] جريدة الجمهورية ١٩٩٩/١١/٩ الصفحة السابعة عشرة عمود ٧

فى التصنيف العلمى ، والغاية منه [١] .

وكأنها صارت واقعاً علمياً حتى تكون حقيقة منطقية ، ولسنا نوافق على هذا الاتجاه ، لما سوف نذكره فى حينه ، إن شاء الله تعالى ، بدليل أن العقل السليم والوجدان النقى ، والفطرة الصحيحة المستقيمة ، تشهد بوجود الله تعالى وتوحيده ، بجانب ما له تعالى من صفات الجلال والكمال .

وفكرة بقاء الأصلح التطورية هي من ذات الأفكار والقواعد التي ثبت بطلان القول بها على الناحية العقلية.

إن هذا وفكرة بقاء الأصلح التطورية هى من ذات الأفكار والقواعد التى تثبت بطلان القول بها على الناحية العقلية .

الثالث : الجانب الشرعى :

إذا كانت فكرة البقاء الأصلح تقوم على قوانين إحيائية ، فإنه مع التسليم الجدلى بأنها قوانين حتمية إلا أن ذلك لا يلغى الإرادة الإلهية ، وإنما يزيدها وجوداً وتأكيداً ، إلا عند أُلئك الذين يتصورون الألوهية تصوراً بشرياً خالصاً وفى نفس الوقت فإن الذين ينكرون الخالق جل علاه بناء على نظرية التطور إنما يتصورون أن الخالق ليس فى إمكانه أن يوجد مخلوقاته بترتيب ونظام ينفذ فى زمن طويل [٢] .

بل إن فكرة بقاء الأصلح ، بالمفهوم التطورى – على فرض قبوله – تؤكد على قدرة الله تعالى وتدبيره ، لأن الكائنات فى سعيها نحو مواطن الكلأ والمرعى إنما يتم ذلك بكل ما فيها من همة ، وما لديها من طاقة ونشاط ، لكن قدر الله فى كتابة الأزلى ، أن هذه تهلك قبل الوصول إلى غايتها ، أو تصل

---

(١) الدكتور / أبو العلا عفيفى ، المنطق التوجيهى ص ٤٨ مطبعة لجنة التأليف ص ١٩٥١ .

(٢) لاندرو ديكسون وايت – بين الدين والعلم ص ١٧١ ترجمة الأستاذ / إسماعيل مظهر سنة ١٩٢٩ .

ضعيفة فتسقط ، بينما غيرها تستمر فى سعيها ، طبقا لما قضاه الله فى علمه الأزلى ، وجاء القدر ينفذه على ما هو ثابت فى القضاء ، ففى الحديث الشريف "كتب الله المقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة"(١) وقال الإمام النووى قال العلماء " المراد تحديد وقت الكتابة فى اللوح المحفوظ وغيره " فإن ذلك أزلى لا أول له (٢) أما حقيقة ذات الزمان المقدر فيجب التفويض إلى علم الله تعالى .

كما أن فكرة بقاء الأصلح العضوية - إذا قبلت على ناحية شرعية - فإنها لن تخرج عن مضمون المكتوب الأزلى ، على أساس أن هذه الكائنات الحية مخلوقة لله ، وفى الحديث الشريف " كلٌ ميسر لما خلق له " (٣) بمعنى أنها لا تتناحر على سبيل التقاتل ، وإنما تتناحر فى سبيل الوصول إلى أهدافها ، فهى تسعى بكل طاقتها ، لكن من غير عدوان على بعضها ، وإلا كانت الجرائم مشروعة وهذا ما لم يقبل به أحد من العقلاء أبداً .

ثم إننا فى حياتنا العامة نطلب للأعمال القيادية الأكفأ والأصلح ، لا كرهاً فى الأقل كفاءة ، وإنما حرصاً على أن تنفذ الأعمال بطريقة سليمة متكافئة أيضاً (٤) وكم من رئيس ورع تقى ، ليست لدية القدرة على القيادة الجماعية

---

(١) صحيح الإمام مسلم بشرح النووى المجلد ٦ جـ ١٦ ص ٢٠٣ باب حجاج آدم وموسى صلى الله عليه وسلم ط دار الريان .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى المجلد السادس جـ ١٦ هامش ص ٢٠٣ .

(٣) والمقصود من إيراد هذا الحديث هنا ، إثبات أن كل الكائنات العاقلة وغيرها والمطلقة وغيرها إنما تسير فى نظام دقيق ، وفق خطى ثابتة ، فى نطاق الأمور المقدرة لها من قبل الله تعالى .

(٤) وهذا من الشواهد المعاشة التى تجرى فى أعراف العقلاء من الناس ، ويسعون إليها ما دامت نفوسهم صحيحة ، وصدورهم سليمة

فكانت النتيجة عدم إنجاز المهام الملقاة على عاتقة ، وفشله فى حفظ أمن البـــلاد وسلامتها [١] ومثله لا تكون قيادته مطلوبة ولا قيمة لورعة ما دام غــير قــادر على الدفاع عن الحرمات وإرجاع الضالين إلى طريق الهدى والرشاد .

وكم من رئيس فى شئ من الورع والتقوى ، لكن لديه تميز فى القيــادة والقدرة على إدارة الأمور بشكل جاد حكيم ، استطاع إنجاز المهام الملقاة عليــه وحافظ على أمن البلاد وسلامتها ، واستطاع أن يرد شهوات الطامعين فيها .

بل إن البعض ممن تولوا القيادة الجماعية فى الأمة الإسلامية ، جمعــو بين الورع الشديد والتقوى فى أعلى صورها ، بجــانب القــدرة علــى القيــادة الجماعية ، فاستطاع بفضل الله تحقيق ما أمره الله تعالى به ، من أمــن الفــرد والمجتمع ، ورد كيد الطامعين ، ونشر دعوى الله بين الناس أجمعين ، كالحــال مع الفاروق عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- الذى كانت درته بمثابة القــانون الفاصل والقاعدة الآمرة ، وكانت خلافته خيراً كثيراً على الإسلام والمسلمين .

بيد أنى أقرر عن طيب خاطر - بأن فكرة بقاء الأصلح فى الكائنــات الحيــة ، على الناحية التى قال بها التطوريون ليست مقبولة عندى من الجانب الشــرعى ، أما لماذا ؟ فلما يأتى :

١- أنها أحالت الأسباب فى الحياة والموت ، البقاء والفناء إلى قوى الطبيعة ذاتها ولم تحلها إلى الله تعالى ، مع أنه - سبحانه وتعالى - الخالق العظيم وهو وحده الذى بيده الخلق والأمر ، والموت والحياة ، كل شئ قائم عنده جــل شــأنه فى " فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ".[٢]

٢- أنها بنيت على العلية فى الأسباب، بجانب الضرورة والحتمية ، فلم تفسح

---

[١] ومثله يجب أن يتأخر عن مواقع القيادة ولا يقترب منها لأن فى قيادته الكثير من الضعــف والأكثر من العجز .

(٢) سورة طه الآية ٥٢ .

مجالا لقدرة الله الكاملة، كما لم تمد الطريق أمـــام الأفعـــال الإلهيـــة، فتحولـــت الكائنات الحية إلى صور من الميكانيكية أو الآلية[١] حيث تسعى الكائنات للـــهلاك أو البقاء طبقا لنواميس تخيلتها عقول أصحابها، لم تستند إلى علـــم الله تعـــالى ، القائل "عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْـــأَرْضِ وَلَـــا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ "[٢].

٣- أنها متناقصة مع نفسها فى قواعدها ونواميسها ، حيث تصورت الكائنـــــات الحية مجبرة على هذا التنازع، المؤدى للهلاك، أو بقاء الأصلح، ثم فى ســـرعة غير منطقية ولامعقولة، تصورت أن هذا السعى إنما تقوم به، من خـــلال إرادة كاملة بحثا عن قوتها [٣] .

ومن ثم فرقت الكائن الحى بين الجبر المطلق، والاختيـــار المطلـــق ، فلـــم يعرف هل هو مجبر أم مختار كما ساوت بين ما هو مكلف ، وما ليـــس مكلفـــا ومن ثم جعلت غير المكلف من البهائم والكائنات ذى الخلية الأحادية ، فى مرتبة متساوية تماما مع المكلف ذى العقل الراشد [٤] وهذا خروج على الشرع اللـــــه

---

[١] وهذا يكشف عن طبيعة العقلية التى سعت للأفكار التطورية ، وأنها عقلية مادية ، لا ترتبط بشـــىء من الواقع العقلى أو الإلهامى ، فضلاً عن انفصالها التام وخروجها على الدين القيم ، وهذا التمرد مـــن معالم الحضارة الأوروبية الحديثة ، لأنها لم توفق إلى الصواب ، ولم يعرف أصحابها كيفية الوصـــول إلى طريق الحق ، وحتى بعد معرفتهم بهذه الأسباب ، فإنهم قد تجاهلوها تماماً .

[٢] سورة سبأ الآية ٣ .

[٣] وهذا التناقض يؤدى إلى القول بأن أصحاب الأفكار التطورية الإحيائية ، لم يكونوا على وفاق مـــع المبادئ التى أعلنوها ، أنهم أقرب الأشباه بالأعمى الذى قادته أطماعه إلى التـــنزه وحـــده فـــى أرض منزرعة بالنخيل الناشئة ، أو آبار كثيرة بجانب الطريق ، وغير معبدة ، وحتما ستسقط بـــه عصـــاه ، كما ستزل به قدماه ، يلقى هلاكه بم قدمت يداه .

[٤] وهذه التسوية ليس لها ما يبررها ، بل أنها تعطى للقارئ انطباعا متزايدا بأن الداعين لهذه الأفكار ، ارتضوا أن يكونوا متساوين مع العجماوات، وكأن العجماوات هى الأصلح للبقاء

والحكمة الإلهية أما لماذا ، فلأن الله تعالى لا يكلف العباد إلا ما يطيقون ، وقال تعالى " لا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ "(١) والحيوان الأعجم ليس مطالباً إلا بما فى طاقته من سعى لما فيه بقاؤه ، وفى حدود ما تتحقق به المصالح العامة .

٤- إن فكرة بقاء الأصلح ـ فى الفكر الدراوينى ـ قامت على أساس أن الطبيعة هى التى تختار الأقوياء فتزيدهم قوة ، أما الضعفاء فإنها تزيدهم ضعفاً وهذا فى حد ذاته يجعل الطبيعة عندهم بديلاً عن الله تعالى ، ومن ثم فهم عبدوها ، واعتقدوا فى تأليهها ، والله تعالى قد توعدهم وغيرهم بالعذاب الأليم قال تعالى " إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ "(٢)

٥ - إن هذه الفكرة حولت الناس من الأمن إلى الفزع ، كما انطلقت بهم من الطمأنينة إلى القلق والخوف ، بل إنها لعبت على أوتار البعض فراح يتحدث عن الأنا والآخر ، واعتبر الموقف الحياتى لا يتسع إلا لفرد واحد ، فإما أن أكون أنا أو يكون هو، ومن ثم باتت المشاكل بين الناس على أشدها ،واستعرت الخلافات إلى أبعد مدى ، حتى صار الواحد غير آمن على نفسه،وهو معنى الفساد فى الأرض ، والله سبحانه وتعالى قد حذر من ذلك كله فقال جل شأنه "وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ " صدق الله العظيم (٣) .

وقد ميز الله تعالى أهل الإيمان الصحيح به ، وجعلهم فى أعلى مكانة عنده

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٦ .

(٢) سورة الأنبياء الآيات ٩٨ / ١٠٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٥٦ .

قال تعالى إنما يخشى اللّه مِنْ عِبادِهِ الْعُلماء إنّ اللّه عزيزٌ غفورٌ " [١] ،امـــا الفجار فإنهم فى غضب الله إلى يوم الدين ، ومن يمالئ الكفار ويعتقد اعتقاداتـــهم فهو واحد منهم قال تعالى : " ومَا خَلَقْنَا السَّمَاء والْأَرْض ومَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذلـــكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن النَّارِ أَمْ نَجْعَــلُ الَّذِيــنَ آمَنُــوا وعَمِلُــوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ كِتَابٌ أَنزَلْنَـــاهُ إِلَيْــكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ " صدق الله العظيم [٢] .

ثانياً : فكرة الوراثة :[٣]

يعتبر ناموس توارث الصفات أو توارث السلالات من أكـــثر المســـائل التى يعول عليها التطوريون فى تفسيرهم لكيفية نشأة الكائنات الحية ، والمتتبـــع تاريخ الفكرة يراها قديمة داخل أروقة الفكر الإنسانى [٤] ، علـــى معنـــى مـــن المعانى ، حيث جاءت فى الأمثال والحكم [٥] ، كما جاءت فى الأعــراف التـــى

---

[١] سورة فاطر الآية (٢٨) .

[٢] سورة ص الآيات (٢٧ / ٢٩) . .

[٣] تعتبر أحد العناصر الرئيسية فى نظرية دراون التى تقوم على أ - الإنتاج المتزايد ، ب - التباين والاختلاف ، ج - الوراثة .

[٤] حيث ظهرت الآثار الدالة عليها فى حضارة المصريين القدماء ، واليونان ، وسكان بـــلاد الرافدين ، وكان لها فى أعرافهم وجود فعلى .

[٥] ومن أمثالهم الشهيرة " من شابه أباه فما ظلم " لأنه يرث عن أبيه أبرز الملامح والنعوت ، وفى الأمثال أيضاً " إذا لم يكن من أمه وأبيه فمن أين يأتوا به " ، وهو من الأمثال العامـــة المعروفة ، راجع الأستاذ / محمود باشا عبد العظيم الخليلى - الأمثال العاميـــة ص ١٣٥ المطبعة المصرية ١٣١٩ هـ .

تتعلق بفراسة قاصى الأثر [١] فى نفس الوقت عرفها القافة [٢] وأصحاب الفراسة الرياضية والطبية أيضاً .

لكنها فى المفهوم الإحيائى الدارويني العضوى ، قد جاءت فى خاطرات أرازموس [٣] التى أمكن التعرف عليها أو اصطيادها من قراءاته لأفكار زاموس ، ثم ألمح إليها فى عجالة جوليان هكسلى ، لكنه جعلها مطوية فى ثنايا الانتخاب الطبيعى وأطلق عليها اسم الترتيبات السلالية ، ثم وقف لامارك عندها ، وبعد فترة وجيزة أتمها ثم أكد عليها ، ونفس الصنيع مع داروين وغيره .

ومن ثم فالوارثة عندهم مبدأ هام ، أو قاعدة تطورية ، وبناء عليه سأحاول عرضها ، ثم مناقشتها وبيان دورها فى دعم الأفكار الداروينية ، لأنهم يركزون على أن هذه التباينات فى الكائنات عرضية ، والأصل هو المادة الخام القديمة التى نشأت عنها الكائنات الحية ، ويتوارثونها من غير احتياج لقوة أخرى .

---

(١) حيث كانت من مهامهم الكثيرة معرفة الاتجاه الذى ساروا فيه ومن الذى سار عليه ، بجانب نوعية الزمن الذى ساروا ، ولذا فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق واختفيا عن العيون بأمر الله تعالى فى غار ثور ، كان سيدنا عامر بن فهيرة راعى الغنم المسلم يأتى بأغنامه حتى لا تظهر على الرمال آثار أقدام الحبيب المصطفى وصديقه ، راجع للدكتور / محمود محمد زيادة - العرب وظهور الإسلام جـ ١ ص ١٩٨ .

(٢) وقد كانت هذه الوسيلة ذات تأثير فعال ، فلما حاول المنافقون والمرجفون الوقوع فى نسب سيدنا أسامه بن زيد بن حارثه وجاء القافة من خلف الستار ، ونظروا إلى عقبى سيدنا زيد وسيدنا أسامه من غير معرفة بهما ، حكموا بأن الأسمر ابن للأبيض عن طريق بعض الصفات المكتسبة ، راجع للعلامة الشيخ / محمد عبد العظيم النكلاوى ، فضل الصحابة ص ٢٩٧ ط الدار العامرية سنة ١٣٣١ هـ .

(٣) وكان أرازموس قد أعلن أن الصفات تورث ، ولكنه قال بتوريث الصفات المكتسبة فقط ، فلما قدم نماذج لم تكن موافقة للنتائج التى انتهى إليها ، ومن ثم وقع التعديل فيها .

أ- عرض الفكرة :

يعتقد التطوريون الإحيائيون أن الوراثة هي العامل الرئيسى الفعال فى تنظيم الحياة داخل الأنواع المختلفة ، وداخل أفراد كل نوع على حدة ، من غير احتياج لشيء خلف المظاهر المرئية ، أو الحالات القائمة فى أشكالها الطبيعية[١] حيث تتولى الوراثة نقل صفات الفرد إلى نسله وكل الأفراد والأقوياء تنتقل صفاتهم القوية إلى أنسالهم عن طريق الوراثة ومن ثم فإن هذا الناموس يعتبر من الأهمية - عندهم - بمكان أما لماذا ؟ أو كيف يتم ذلك ؟ فالجواب عندهم ما يلى :

١- أن الطبيعة فى انتخابها للأصلح حتى يبقى قد اختارت تزويد الأفراد بميل داخلى إلى التباين أو التغاير عن الأصول التى قامت عليها ، وهذا التغاير أدى إلى إحداث تغيرات جوهرية فى الأنواع ، كما أدى إلى استحداث أنواع جديدة لم تكن لها مظاهر واضحة من قبل [٢] وبالتالى فالذى أقام أعمدة التغاير بين الأنواع والأفراد هو الميل الداخلى الذى جعلته الطبيعة داخل كل كائن حى على حدة .

٢- أن هذا التباين الظاهرى فى الأنواع والأفراد ، يصحبه تباين فى العرضيات التى تحدث داخل الأبناء ، بواسطة اختلاف الأحوال والأوساط الاجتماعية والمعيشية والبيئية أيضاً ، وهذا يؤدى حتماً إلى إيجاد نوع من التباين فى الأنسال [٣] ، على أساس أن عملية الاصطفاء النوعى تدفع بالأقوى للأمام والاستمرار ، بينما تدفع بالأضعف إلى الخلف والتقهقر ثم التلاشى .

---

[١] الدكتور / محمد السيد حشمت - التطور الإحيائى ومشكلة الوراثة ص ١٥٧ ط أولى سنة ١٩٨١ .

[٢] فكأن الطبيعة هى التى تفعل هذا أو ذاك ، ولا عبرة لشئ آخر خلف تأليههم الطبيعة .

[٣] الدكتور / محمد السيد حشمت - التطور الإحيائى ومشكلة الوراثة ص ١٥٨ .

٣- أن الصفات المميزة للأفراد ، تنتقل من الآباء إلى الأبناء والأحفاد بناء على قاعدة انتقال الوراثة ، من الأصلاب إلى الأرحام عن طريق البلازما التناسلية ، لكنها حين تقوم بعملية النقل لا تضع فى حسبانها انتقاء النوع [١] وهنا مكمن الخطر ، أنها تنقل كل شئ دون تمييز ، تنقل الصفات المميزة النافعة، كما تنقل الصفات الضارة القاتلة [٢] ، تنقل الأنواع الصحيحة ، كما تنقل الأنواع المرضية على قدر سواء ، أنها تعمل على نقل الخريطة الجينية بشكل كامل .

٤- ما دامت هذه العملية تنقل الصفات من الآباء للأبناء والأحفاد ، فإنها تورثهم كافة الصفات والمقومات الجسدية ، ومن ثم ينشأ جيل من الأبناء مختلف عن أصوله الأولى بعض الشيء نتيجة للتمايز ، ومتوافق معه فى بعض الملامح، نتيجة للتوارث السلالى [٣] وكل من الجانبين – الاختلاف والتوارث – يأخذ فى الابتعاد عن الأصل الأول قليلاً قليلاً ، فى النهاية تظهر جملة اختلافات جوهرية، بدل أن كانت عرضية .

٥- إن مبدأ هذه الاختلافات هو الآخر عرضي ، لكنه يأخذ فى التنامى المتواصل على كل من الجانبين ، حتى إذا استحالت الاختلافات العرضية إلى اختلافات جوهرية ، توهم الرائى لها ، أنها اختلافات نوعية من أصل النشأة وليست عارضة باعتبار الأصل [٤] .

---

(١) وما دامت لا تملك هذا التصرف أو الفعل الانتقائى ، فلماذا يعول عليها التطوريون ؟

(٢) الدكتور / رفعت شريف – علم الوراثة ص ١٨٧ ، وهذا فى حد ذاته كاف لإبطال فكرة الانتخاب الطبيعى من أساسها ، بل وفكرة الوراثة أيضاً .

(٣) الدكتورة / تهانى محمود العتر – نظرية التطور العلمى ص ٥٧ ط ثانية ١٩٨٠ .

(٤) إذن الخطأ واضح من حيث المصدر الذى قام فيه أو هو الرائى لا المرئى مما يؤكد اعتراف التطوريين بأن أفكارهم ما هى إلا وجهات نظر خاصة فقط .

ثم إن هذه الاختلافات التى تبدأ بسيطة فى مبدئها ، إنما تخضع لتوالى الحقب عليها ، وكلما مرت عليها حقبة من الزمان ازدادت الصفات العرضية تأصلا فى الكائن الحى ، ونمت فيه أكثر من ذى قبل ، حتى تؤدى فى النهاية إلى مباينة الأصل الذى نشأ منه تمام المباينة [١] ، فإذا تم الوقوف عليهما معا أمكن القول بأنهما نوعان مستقلان ، مع أنهما فى الأصل نوع واحد [٢] باعتبار الأساس الذى بنيا عليه .

ويقرر الأستاذ باشميل أن التطوريين يعولون على نظرة الرائى إلى المسألة المعروضة فى الوراثة ، لا على حقيقة الكائن الحى ، بمعنى أن هذا الاختلاف الذى أخذ فى التباعد لم يكن وليد يوم وليلة ، بحيث يحدث وقوعه نوعا من الخلل أو الاضطراب الذى يمكن مراقبته ، ومن ثم فإن الرائى لهما - الأصل وفروعه - يضنهما من نوعين مستقلين ، بينما هما معا من أصل واحد [٣] .

٦- إن الحمار والحصان من نوع واحد فى أصله - على مذهب داروين ومن معه [٤] ، وإنما اختلف الحمار عن الحصان هذا الاختلاف الذى نراه تبعا لمقتضيات الوسط الذى عاش فيه كل منهما [٥] ، حيث عانى الحمار من ألوان

---

[١] تباين الأصل مع فرعه ، يجزم بأن فكرة الوراثة خيالية ، فما توجد وراثة ويقع التماثل من كل الوجوه ، أو لا وراثة ويكون التباين هو القاعدة .

[٢] الدكتور / رفعت شريف - علم الكائنات الوراثة فى الحية ص ١٨٩ .

[٣] الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ٤٥ .

[٤] نحن المسلمين لا نوافق على ذلك أبدا ، لأن الله تعالى قال ، " ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون " ، فالزوجية قائمة فى ذكر الحمار وأنثاه ، وذكر الحصان وأنثاه ، كل منهما ما تزال خصائصه ثابتة ، فللحمار نهيق وللفرس صهيل .

[٥] فهم أقاموا البيئة والطبيعة مقام الخالق العظيم ، وجعلوها تتحكم فى الكائنات فترفع هذا وتخفض الثانى ، وهو الكفر بعينه ، والله تعالى سوف يحاسبهم على إلحادهم فى الله وآياته

الجهد الشديدة التى بلى بها [١] ، وظل على ذلك الحال طيلة الملايين من السنين ، فصار كما نراه من ضآلة الحجم ، وصغر الجسم ، وقلة التفكير والاندفاع إلى الخطأ .

كما أن إمكانية وجود تغير ميكانيكى للحركات والمظاهر الخارجية فى كائن عضوى ذى خلية واحدة ، أو تفسير الحركات الخارجية لخلية أميبا واحدة على الأقل ، إنما هو تفسير يعرض صورة الوراثة ، ويكشف عن كون الكائنات الحية كلها قد جاءت من أصل واحد ، هو المادة الخام القديمة الأزلية .

بدليل أننا لو أخذنا صورة متكاملة عن تنقلات الأميبا فى نقطة ماء بتردد ذرة من الهباء ، فى غرفة فتحت أبوابها ونوافذها ، بحيث يؤدى ذلك إلى وجود تيارات هوائية ، وتمتص كتلتها دائما بعض المواد القابلة للذوبان ، والتى يحتوى عليها الماء المحيط بها ، وتطرح فيه ماد أخرى فهذا التبادل شبيه بما يحدث من تبادل قائم بين وعاءين بحاجز ذى مسام ، يؤدى على نشأة دوامة تتغير دون انقطاع ، حول هذا الكائن العضوى الصغير [٢] .

بناء على ما سلف اتضح أن هيولى الخلية Cytoplasme التى هى مادتها الأصلية ، قد وقعت فى دائرة التقسيم غير المباشر للخلية ، وتقليد قائم فى تطور للأمام ، وليس فى تدهور للخلف ، طبقا لقاعدة الوراثة ذاتها [٣] ، فكل ما يقع فى الكون من عمليات إحيائية ، إنما هو أمر طبيعى تفرضه الطبيعة ذاتها من غير احتياج لتدخل شئ آخر تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

---

(١) راجع الأستاذ / محمد فريد وجدى ، دائرة معارف القرن العشرين جـ ٤ ، ص ٣٠ ، وما بعدها – نقلا عن الإسلام ونظرية داروين ص ٤٥ .

(٢) Berthold. Studicn. Ueber protoplasm amechanic. Leipig p 1-2 1986

(٣) أ . ب . وتسون – F.B. WILSON – التطور الجينى ص ١٣٥ – ترجمة وفاء صالح .

٧- أن قاعدة الوراثة فى الكائنات الحية ، هى التى تستبقى الصفات الأصلية الدائمة ، وهى أيضا التى تنحى الصفات العرضية ، التى تتلاشى بمرور الزمن ، فى أفراد النوع ذاته ، ولو على سبيل الكمون والاختفاء المؤقت ثم تتلاشى مطلقا ، بحيث لا يبقى لها أثر ظاهر .

لكن هذه الأجزاء التى اختفت ، يمكن أن تأخذ فى التنامى من جديد مرة أخرى ، بحيث يكون هناك فاصل ظاهرى بين أفراد النوع الواحد ، حتى ظنه الرائى فاصلاً جديدا فى أصل الخلقة وهو ليس كذلك ، لأنها جميعاً من نوع واحد ، وأصل واحد هو الخلية الحية الأولى ، التى انفصلت عن المادة الصماء فى أولى مراحل النشوء [1] ، ثم توالى عليها التطور الدائم ، حتى بلغت ذروتها فى الارتقاء المستمر ، الذى لم ينفصل عنها فى لحظة من اللحظات ، أو وقت من الأوقات باعتبار أن كافة المراحل التطورية يقع لها التوالى ، والانفصال بينها غير حقيقى كما أنه غير واضح الملامح ، بحيث يمكن النظر إليها على أنها ذات خواص محددة .

بناء على ما سلف يذهب التطوريون إلى القول بأن الكائنات التى يقع عليها الأنماط الإحيائية ، ليس لديها استعداد لرفض شئ منها ، وإنما الطبيعة أو البيئة هى التى تقوم بذلك كله [2] ولا يقوم بها شئ آخر خارج نطاق الطبيعة أو البيئة التى تعمل فى الكائنات عملها على سبيل الوراثة وقواعدها الثابتة .

يقول أحد الباحثين : لا شك أن النظريات الحديثة التى يدعى أصحابها قدرتها فى تقديم تفسير نشأة الكون ، والسيطرة عليها بصورة تخالف ما جاء فى الكتب السماوية ، تعجز هذه النظريات ، والأفكار التى حولها ، عن تقديم تفسير

---

(١) Darwin. The origin . of . Speciesp. 243 1956

(٢) على أساس أن العوامل الداخلية للنظرية الإحيائية هى ١- التوارث ، ٢- الاختلاف ، ٣- التكاثر ، ٤- التكوين ، أما العوامل الخارجية ، فهى تتمثل فى جميع الظروف البيئية.

صحيح لجميع الحقائق ، أنها تزج بنفسها فى ظلمات اللبس والغموض ، وإننـــى شخصياً أومن بوجود الله ، وأعتقد فى سيطرته على هذا الكون [١] .

٨- قاعدة الوراثة تحكم بأن الاختلافات المكتسبة بين أفراد النوع الواحد إنما تنتقل إلى الذرية من الآباء والأجداد ، طبقاً لما يشاهد فى عملية الانتخـــاب الصناعى التى يمارسها الإنسان بنفسه ، من خلال تربيته لنوع من الســلالات [٢] التى تقع تحت سمعه وبصره ، كما نفعل نحن بالحيوان المستأنس ، أو الوحشــى الذى أمكن ترويضه حتى صار على النحو الذى نعرفه به الآن ، ونطبــق هــذا الانتخاب الصناعى على الكثـير مـن الحيـوان فـى حياتنـا العاديــة ، بـل ومشاهداتنا اليومية .

وقد غالى التطوريون فى تفهم قانون الوراثة ، حيث يقررون أن الكــائن يرث الصفات الجسدية ، ويرث كذلك الأدبية والنفسية المهارية ، وإنها تــوارث فى بعض الآباء ، أو حلقات فى وسط السلسلة الحيوية ، فإنها ما تلبث أن تظــهر من جديد فى الأحفاد على الأقل [٣] .

---

[١] مجموعة العلماء الأمريكان فى بحوث مختلفة - الله يتجلى فــى عصــر العلــم ص ١١٠ إشراف / جون كلوفر مونسما ، ترجمة الدكتور / الدمرداش عبد المجيد سرحان ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٨ .

[٢] الدكتور / عبد المعطى محمد بيومى ، الدكتور / أحمد عبد الحميــد الشــاعر - الإســلام والتيارات المعاصرة ص ١١٩ .

[٣] ويطلقون عليه اسم رجعه الوراثة أو الدور الوراثى ، وغايتهم منه ، أنه متى اختفت صفــة أو بعض صفات فى كائن حى كانت موجودة فى الأعلى منه مباشرة ،.فــلا مــانع مــن ظهورها بشكل قوى ومتكامل فيما بعد ، إن لم تكن فى الأبناء ففى الأحفاد ، ولا مــانع أن يكون ذلك من ناحية الأب أو الأم ، ولذا قالوا بتوريث الصفات العرضية والمرضية بشكل أكبر من توريث الصفات الصحيحة ، وهم بهذا يتنــاقضون مــع أنفســهم ، لأن قــانون أو ناموس الإنجاب الطبيعى المفروض فيه أن ينحى الصفات العرضية الضعيفــة ن فمــا باله أرغم على قبولها هنا حتى ظهرت فى الأحفاد !!!

ويذهب سلامه موسى إلى أن العامل الأساسى فى قانون الوراثة ، إنمـــا هو الانتخاب الجنسى الذى يبيد الضعيف ، ويبقى القوى ، الذى استطاع هزيمـــة خصومة من الذكور ، ويستأثر بالإناث ، فلا تلك إلا من بذرته هو ، نسلاً يخرج على غراره ، حاصلاً على قوته وميزاته [١] فيورث ذلك لأنســـاله مـــن بعـــده ويظل الأمر على ذلك الحال مستمراً لا ينقطع ، بحيث لا يوجد شئ غيره فـــى المسالة المطروحة .

ونحن لا نوافقهم على شئ مما ذهبوا إليه ، ما دام أمرهم قد تعلق بـــأن الطبيعة هى التى تقوم بذلك وحدها ، ولا حاجة إلى قوة الله القادر الخالق العظيـم سبحانه وتعالى ، أنهم قد وقعوا فى الأخطاء المتعددة ، التى جاءت على الفكـــرة الإحيائية من كل جوانبها ، بحيث يصعب على المرء تنحيه فكرة أو جزئية لـــم يقع عليها الطعن .

ب- مناقشة الفكرة :

سارع البعض من أهل الإسلام إلى إعلان أن فكرة الوراثة الإحيائية فيها مخالفة شرعية ، أو أنها ليست من بنات أفكار التطوريين ، لأنها ناموس معترف به فى كل عرف ودين ، وليس جديداً ، أو بدعاً من القول أتى به داروين ، أو الذين يناصرونه الرأى [٢] ولست معهم فى هذا الإعلان السريع ، لأنه لا توجـــد ديانة إلهية واحدة قالت بالوراثة القائمة على الطبيعة ، وإنما الكـــل فـــى الديـــن الإلهى سواء ، ينسب ذلك الفعل إلى الله ســـبحانه وتعـــالى لا إلـــى الطبيعـــة ، وبالتالى فداروين ومن معه أتوا بدعاً من القول .

---

(١) الأستاذ / سلامه موسى - نظرية التطور وأصل الإنسان ص ٧٦ .

(٢) يقول الشيخ / حسين الجسر أن إرث الفروع لصفات الأصول أمر مشاهد ، لا ينكره أتباع محمد صلى الله عليه وسلم - الشيخ حسين الجسر الرسالة الحميدية ص ٢٥١ ، ويقول الأستاذ محمد أحمد باشميل أن الوراثة ناموس معترف به فى كل عرف ودين ، وليس جديداً أو بدعاً من القول أتى به داروين - الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٧ .

والدليل على أن هذا الحكم قد جاء متسرعاً فيه الكثير من الحماس غير المنضبط ما قاله الأستاذ باشميل نفسه ، حيث جاءت عبارته هكذا : أن ناموس الوراثة من أشد النواميس الداروينية الأربعة استعصاء على الملحدين ، - في الوصول إلى أغراضهم - حيث لا يوجد لهم فيه أى مستمسك ، أو شبهه بها يشغبون ، لأنه ناموس معترف به فى كل عرف ودين [١] ، وليس جديداً ، أو بدعاً من القول أتى به داروين .

ثم يقول ليس فى الناس ، على اختلاف أديانهم [٢] من ينكر على من يقول مثلاً أن فلاناً قد ورث هذه الخلق عن أبيه ، أو ورث هذا الطول أو القصر عن جده ، أو أمه مثلاً ، ولهذا فإنه لا مجال للملحدين فى ميدان قانون الوراثة الذى هو أحد القواعد الأربع ، التى قامت عليها نظرية داروين [٣] ولكنى سأناقش هذه الفكرة من الجوانب الآتية :-

الأول : الجانب الإحيائى :-

١- يقرر الإحيائيون من أتباع الداروينية وغيرهم ، أن توارث الصفات المكتسبة ليس مطرداً ، بدليل ظهور كائنات حية أحادية الخلية عن طريق الطفرة الفجائية ، لا علاقة لها بالأصل الذى كانت عليه ، أنها تصير كالسفينة

---

(١) لا شك أن هذا التعميم لم يقم عليه دليل واحد يتعلق بوراثة الكائن الحى صفات والديه أو أحدهما كاملة ، وإلا فما هو صانع بالتكاثر اللاجنسى ، بل ماذا هو صانع بالأبناء الذين لا توجد لهم أشباه بأحد الوالدين من قريب أو بعيد ، بناء على الطفرة الفجائية وغير ذلك كثير .

(٢) لا يوجد إلا دين واحد هو دين الله رب العالمين ، وهو المقبول عند الله وهو الإسلام ، وهو الذى له قيمة ويعتمد عليه ، أما الأديان الكاذبة الكافرة فلا صرفه لها ، ولا اعتداد بها ، ولا قيمة لشىء فيها .

(٣) الأستاذ / محمد أحمد باشميل - الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٧ .

الوحيدة فى محيط لا نهاية له ، ومع ذلك تظل آخذة فى إخراج سفن من جعبتها انقطعت علاقتها بالأصل تماماً [١] .

٢- ويذهب برجسون إلى القول بأنه يخطئ المرء لو نظر إلى الإنسانية فى صورتها التى نراها عليها ، بل لا نستطيع القول بأنها نهاية للتطور كله ذلك لأن التطور قد حدث على طول عدة خطوط متباعدة ، وإذا كان النوع الإنسانى يوجد فى الطرف الأقصى لأحد هذه الخطوط ، فإن أنواعاً أخرى سارت فى طرق أخرى حتى نهايتها ، وإن كان سيرها فيها قد تم بشكل مختلف عن ذلك تماماً ، والإنسانية هى السبب فى وجود التطور [٢] ، وليس العكس .

٣- أن هناك حقيقة مدهشة إلى أبعد مدى ، وهى تلقى بعض الضوء على لغز هذا الخلق من جديد ، وهى أن الخلايا الحيوية فى المراحل الأولى من تطورها ، إذا تفرقت صار لكل منها القدرة على خلق حيوان كامل ، ومن ثم فإنه إذا انقسمت الخلية إلى قسمين ، وتفرق هذان القسمان ، تطور بينهما فردان لا محالة [٣] ، ولم يتطور عنهما شكل واحد يحمل صفاتهما الجسدية أو النفسية .

٤- بل يقرر علم الإحياء أن الوراثة فى النباتات تحملها أنوية الخلايا وفى الحيوان والإنسان يحملها جزئ الحمض النووى DNA وقد أمكن بناء جزئيات DNA حسب الطلب ، بدليل أن خورانا KHORANA تمكن من إنتاج جين صناعى ، وأدخله إلى داخل خلية بكتيرية ، وكان ذلك عام ١٩٧٩ [٤] ، أما الآن فى مطالع القرن الحادى والعشرين فقد ظهرت الأنظمة المعملية محتفظة

---

[١] واطسون هيلاف - الكائنات الحية بين الحتمية والاستثناء ص ٢١٥ ترجمة / رضا فوزى ط أولى سنة ١٩٨٧ .

[٢] هنرى برجسون - التطور الخالق ص ١٣٨ / ٢٣٧ ترجمة الدكتور / محمد محمود قاسم، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤ .

[٣] كريس موريسون - العلم يدعو للإيمان ص ١٢٦ .

[٤] الدكتور / رفعت شريف - علم الوراثة فى الكائنات الحية ص ١٩٩ .

بنظم جينية يمكن برمجتها لإنتاج شريط قصير من DNA يحتوى على تتابع النيوكليوتيدان الذى نرغب فيه [١] بل صار ذلك من معالم التكنولوجيا الجديدة للهندسة الوراثية Cenetic Engineering التى تتعامل مع المادة الوراثية لصالح البشر . وفوق ذلك فإن الداروينية تهدم فكرة التوازن الحيوى ، لأن الداروينية تفترض قيام الوراثة على انتقال الصفات وتربط التنازع بالبقاء ، ثم تعجز عن تقديم تفسير معقول للتوازن الحيوى الذى يقوم على أن كل الكائنات مهما كانت ضعيفة فإنها تعمل على التكاثر والعودة للوضع الطبيعى الذى كان لها .

٥- إن قوانين ماندل MANDEL [٢] الوراثية قدمت صوراً لنسب

---

[١] وبالتالى صار بالإمكان تشفير هذا الحمض النووى DNA واستخدامه حسب الطلب فى تجارب تخليق البروتين ، لأنه عن طريق تغيير الشفرة لاستبدال حمض أمينى بآخر ، يستطيع علماء الكيمياء الحيوية دراسة تأثير الأحماض الأمينية على وظيفة البروتين ككل، وإمكانية إدخال بعض التعديلات أو التهجينات على جزئى الحمض النووى عند رفع درجة جزئى DNA إلى ١٠٠ درجة مئوية حيث تتكسر الروابط الهيدروجينية التى تربط القواعد المتزاوجة فى شريطى اللوب المزدوج ، راجع / لواطسون هيالف - الكائنات الحية بين الحتمية والاستثناء ص ٢٢١ ترجمة / رضا فوزى .

[٢] هو جريجورى مندل G. MANDEL كان راهباً نمساوى الأصل وكان مقيماً بالدير الذى يخدم فيه ، كما كانت من واجبات كل راهب فى تلك العصور القيام بنسخ بعض المؤلفات، فوقع هو على مؤلف صغير فى الكائنات الحية ، يقال أنه لواحد من المسلمين الذين كانت لهم اهتمامات بهذا الجانب العلمى ، وبالتالى أمكنه زراعة جزء من الأراضى التى بجوار الدير ، وقام بإجراء بعض التجارب العلمية على ما قرأ فى التاريخ الطبيعى ، وكان ذلك على نبات البازلاء ثم قيد نتائج تلك التجار فى أوراق صغيرة ، وكان ذلك عام ١٨٨٦ ، وظلت مهملة مغمورة حتى عام ١٩٠٠ وحينما أمكن فحص محتويات مكتبة الدير تم العثور على النتائج التى سجلها ماندل ، فأسرع رجال اللاهوت إلى إعلانها باسمه حتى يكون له السبق فى اكتشافها ، رغم أنه لم يكن سوى مطبق علمى لنتائج ما قرأ ومن ثم اعتبروه مؤسس علم الوارثة التجريبى

متفاوتة افتراضية وليست نتائج حقيقية ، وهى نسب تختلف اختلافاً واسعاً فيمـــا بينها ، ولا يمكن أن تكون الوراثة قائمة على هذا الاختلاف الواسع فى النســـب كما لا تستطيع تقديم حلول مقبولة لنوعى الظهور الفجائى للصفات ، أو الاختفـاء الفجائى للزاحف الكبيرة فمثلاً : قانون انعزال الصفات الوراثية يقرر : أنـــه إذا اختلف فردان نقيان فى زوج من الصفات المتقابلة ، فإنهما ينتجان بعد تزاوجهما جيلاً به صفة أحد الأبوين فقط ، وهى السائدة [١] ، ثم تورث الصفتان معاً فـــى الجيل الثانى بنسبة ٣ : ١ ، وهذا معناه أن الفرضية فى الصفات ليست قطعيـــة وإنما افتراضية ثلاثية [٢] ، وهذا من شأنه أن يجعل فكرة التـــوارث الداروينيـــة غير قائمة على أصول صحيحة من الناحية الإحيائية ، وهذا فى حد ذاته كـــاف لهدمها بالكلية .

كما أن قانون التوزيع المستقل للعوامل البيئية والوراثية يقـــرر أنـــه إذا تزاوج فردان نقيان مختلفان فى زوجين أو أكثر من الصفات المتقابلـــة ، فـــإن صفتى كل زوج منهما تورث مستقلة عن الأخرى [٣] ، وتظهر فى الجيـــل الأول كلها سائدة ، ثم تتوزع على الجيل الثانى بنســـبة ٩ : ٣ : ٣ : ١ أى بنســـبة ٣ سائدة إلى ١ متنحية لكل صفة منها [٤] ، وهذا يؤدى إلى إثبات أن هذه الأفكـــار

---

(١) هذا احتمال وارد وليس حقيقة واقعة ، بدليل أنه بعد التزاوج قد يحدث استمرار الصفـــات على سبيل التساوى فلا تقع غلبة واحد على الآخر ، وحينئذ يؤجل هذا المظهر إلى الجيـــل الثالث والرابع للدكتـــور / حلمـــى خضـــر - علـــم الوراثـــة فـــى المفـــاهيم الحديثـــة ص ١١٧ المنطبعة نور الهدى سنة ١٩٩٩ .

(٢) بمعنى أن نسبة الاحتمالات ليست متناسبة فتضييق المسافة ، إنما معناه أنها واسعة جـــداً والاحتمال بهذا الشكل يسقط اعتبار ذلك قانوناً علمياً .

(٣) الدكتور / رزق محمد فضل الله – تعليقات على القوانين الوراثية ص ١٦٣ .

(٤) ولا شك أن هذه النسبة فى النتيجة هى ذات النسبة فى القـــانون الأول بالنســـبة للســـائدة والمتنحية . وبالتالى فالأول هو ذاته الثانى فى النتيجة

فرضية احتمالية [١] ، ومن ثم فأمر الوراثة بالنسبة لهم هو الآخر مجرد افتراض قائم لا حقيقة واقعة .

كما أن تحوير النسب المندلية ، والتعديل فيها طبقاً للآليات الوراثية الجديدة ، والتأثر على الصفات السائدة ، وتحولها إلى متنحية من خلال التدخل المباشر فى عمل الجينات الوراثية ، قد أنتج ثلاثة أوجه للعلاقة بين الصفات الوراثية ، باعتبار السادة والتنحى ، فإما تغليب السائدة فقط [٢] ، أو تغليب المتنحية فقط [٣] ، أو إمضاء الأمر بينهما بالتوازى [٤] .

بناء على ما سبق اتضح أو الوراثة بالمفهوم الذى قال به التطوريون الإحيائيون لا معنى له إحيائياً ، وإنما يحمل على التوجيه الإلهى ، والفعل القائم فى سائر الكائنات ، من خلال آيات الله الكونية ، وأن ما يقع على سبيل التوارث ليس حتمياً تفرضه الطبيعة ، وإنما أمر قضاءه وقدره الله ، وفى سننه أجراه .

الثانى : الجانب العقلى :-

ومعناه أنه لو كانت الوراثة - على ما يقول به التطوريون - قانوناً علمياً لأطرد على الدوام ، فى كافة الكائنات الحية ، ولما أمكن إحداث أى نوع من أنواع الانتخاب الصناعى لأنها سيكون مقضياً عليها بالفشل ، بل ولأغلق البحث العلمى فى هذا الميدان تماماً ، ولكن العقل يحكم بأن قوانين الوراثة غير مطردة ، بل أنها تتخلف فى حالات كثيرة [٥] ، بحيث تسمح للعقل الصحيح حتى

---

[١] الدكتور / رزق محمد فضل - تعليقات على القوانين الوراثية ص ١٦٥ .

[٢] وهذا معناه أن الصفات المتنحية تكون منعدمة ، نظراً لارتباط العوامل البيئية بها .

[٣] وهذا معناه انعدام الصفات السائدة بالعوامل المميتة التى تحول بين الارتباط والعبور وتنمى السيادة المنعدمة .

[٤] حيث يشترك زوج الجينات فى إظهار صفة وراثية وسطية بين صفتى الأبوين .

[٥] الدكتور / عبد العظيم السيد رشوان - الدكتور / محمد حسن طلبه - قوانين الوراثة والعلوم السيكولوجية ص ١٧١ ط ثانية ١٩٨٧ .

يعلن بكل ما لديه من قوة أن هذا الكون إنما يجرى بإرادة الله سبحانه وتعالى لا بالانتخاب الطبيعى ، ولا بالطبيعية أو المصادفة .

بل العقل الصحيح حاكم بأن الكائنات متخالفة فـــى أســمائها وأشــكالها وطبائعها ، كما هى متخالفة فى اللون والطول والصفات الجسدية ، بل والنفســية والقدرات العقلية ، ولذا عرفت هذه الجوانب باسم الفروق الفردية ، فلــو كــانت الوراثة قائمة على الدوام ، لصار أبناء أبيضى البشرة كالأبوين تماماً ، فما بالنــا نجد فيها من الأورق [١] ويسمى نزعة العرق .

ولو كانت فكرة الوراثة هى القاعدة ، لرأينا أبناء طويلى القامة كالآبـــاء فما بالنا نرى فيهم القزمية منتشرة ، وكذلك الحال مع أبناء قصيرى القامة حيـث نجد بينهم أبناء طوال القامة ، فإن عزوا ذلك إلى الطفرة أو البيئـــة ، قلنـــا إذن الوراثة ليست لها قوانين ثابتة حتمية ، بدليل أنها غير مطردة ، كما أنها فى ذات الوقت غير فاعلة بذاتها ، وإنما الفاعل هو الله .

يقول الدكتور الأصفهانى : إنك لا ترى خمسة يشـــبهون آبـــاءهم ، إلا ورأيت خمسين لا يشابهونهم ، ولا ترى عشرة يقاربون أبويـــهم فـــى الطـــول والقصر ، أو الهزال والسمن ، أو الدمامة والجمال ، أو غير ذلك ، إلا ورأيـــت مائة يخالفونها فيها ، ولعل الخلف فى الصفات والعادات أبين ، وعـــدم اطـــراد الوراثة فيها أظهر [٢] .

كما أن العقل الصحيح قد انتهى فى نتائجه المعملية إلى تفســير تشـــابه التوأمين ، على أساس أن كل خلية حيوية منذ البداية ، يمكـــن أن تكـــون فـــرداً مستقلاً كاملاً بالتفصيل ، وعلى كل الأجزاء ، ومن ثم فليس هناك أدنى شك فـــى

---

(١) وفى الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم " تخيروا لنطفكم فـــإن العـــرق دســـاس " وقوله صلى الله عليه وسلم " لعله نزعة عرق " .

(٢) الدكتور / محمد رضا الأصفهانى - نقد فلسفة داروين جـ ١ ص ١٣٥

أنك أنت هو أنت ، فى كل خلية ، ونسيج من الخلايا والأنسجة التى تجرى فيها الوراثة أو تحتكم إليها [١] .

ثم أن غالبية التغيرات البادية فى الكائنات الحية إنما هى تغيرات جسمية وليست تناسلية ، ومن ثم فلا تكون وراثية لما هو معروف علمياً من أن الحمض النووى DNA هو المسئول عن انتقال الصفات الوراثية [٢] .

ثم نأتى إلى نقطة هامة ، وهى إذا كانت الأمور بالوراثة ، فلما انحصرت فى الصفات ، ولم تطرد حتى تشمل طبيعة النوع ، أليس ذلك أولى وفى نفس الوقت فإن هذا الاطراد هو القاضى على فكرة الوراثة [٣] ، وبعبارة أخرى لماذا لم ينجب الرجال رجالاً ، وحينئذ ينقطع النسل عند نهاية أول جيل فإن قالوا أن الحيوانات المنوية فى الرجل تكو X ، Y ، أما فى المرأة فإنها تكون X فقط ، وبالتالى فإن الأبناء يحملون صفات آبائهم فقط ، باعتبار أن الحيوان المنوى يكون من الرجل ، وهو الذى يتحمل عبء إنتاج الأنسال وتحديد النوع ذكراً أو أنثى ، فالسؤال الآن أين دور الوراثة من الأم ؟ ما دام الرجل وحده هو المسئول عن نوعية الذرية ؟ إن العلم الإحيائى مهما بذل من محاولات ، أو عمل على تقديم إجابات ، فإن مشكلاته تزداد ، وعجزه يزداد وضوحاً .

أما الحق جل علاه فقد حسم الموقف فى أجلى بيان ، وأقصر عبارة وأدق صورة ، فقال عز شأنه "لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاء يَـهَبُ

---

[١] كريسى موريسون - العلم يدعو للإيمان ص ١٢٧ .

[٢] راجع ذلك فى الفصل الرابع من الباب الثانى أثناء الحديث عن دلالات الوراثة ومناقشتنا لها .

[٣] الدكتور / فوزى حسن طلبه - القوانين العلمية ص ١٣٥ ط أولى سنة ١٩٥٧ .

لِمَنْ يَشَاء إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاء الذُّكُور أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانا وإِنَاثًا ويجْعَلُ من يَشاء عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ " صدق الله العظيم . [١]

الثالث : القصور فى التعميم :-

إن القول بالوراثة فى الكائنات الحية على وجه من الوجوه أو من خلال بعض المظاهر أو الملاحظات التى تمت فى العوالم الإحيائية ، إنما هو نوع من القصور الشديد فى المعرفة ، حيث لم تتم الملاحظات فى كل العوالم الإحيائية على وجه الحصر الدقيق ، كالنبات والحيوان [٢] .

ومن ثم فإن القول بتوارث الصفات الأصلية ، وتنحية العرضية ، أو استبقاء الصفات القوية ، واستبعاد الضعيفة ، بناء على القول بفكرة الانتخاب الطبيعى [٣] ، أو طبقاً للمشاهدات القائمة فى عمليات الانتخاب الصناعى [٤] إنما هو اتجاه غير صحيح ، ولا يمكن الأخذ به عندما يراد تفسير ظواهر الكون، فضلاً عن محاولة تقديم صورة لكيفية النشأة الأولى ، والمراحل التى تمت فيها ، لأن ذلك أعلى من قدرات العقل ، وفوق إمكانياته كلها ، ومهما

---

[١] سورة الشورى الآيتان (٤٩ / ٥٠) .

[٢] الأستاذ / نعمان محمد فضل - الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٩٧ ط دار المهند بغداد سنة ١٩٥٧ ، وكذلك للدكتور / محمد عبد الحميد الأسعد - المشكلات التطورية ص ٣٧ .

[٣] وقد سبق القول بأنها فكرة ساقطة ، على النواحى المختلفة ، وأنها أعجز من أن تتصرف فى الكون ، إنما تسعى كل الكائنات فى حدود ما خلقها الله تعالى عليه .

[٤] لا يمكن الاحتكام إلى عملية الانتخاب الطبيعى أو الصناعى فى تفسير نشأة الكون ، لأن الأولى بأن فسادها من جوانب عديدة ، كما أن الثانية لا تمثل سوى نوع من التأليف والتوفيق بين نوعين أو أكثر من الكائنات أو الخلايا على نحو معين ، من خلال توفيق الله تعالى .

تضافرت الجهود حول هذه المسألة ، فإنها جميعاً عاجزة عن الوصول إلى حكم يكون مقبولاً فيها .

كما أن كل المحاولات التى تمت بهذا الشأن لم تزد على كونها تفسيراً مهلهلاً لجزء من جسم غير معلوم ، حيوانى أو إنسانى ، أما فى النبات فإن عملية الانتخاب الصناعى التى يقوم بها الإنسان نفسه ، قد قضت على جوانب الوراثة كلها ، بدليل أن العقل الصحيح صار قادراً على إنشاء حكم ما فى المسألة ، وبخاصة بعد أن عايش التجارب التى تمت فى عالم النباتات داخل الأنواع المختلفة [١] الطبية وغير الطبية .

وهذه المحاولات القاصرة لم تتجاوز بعض أنواع النبات ، وعليها الكثير من الاعتراضات ، فما بالهم يحاولون تعميمها فى الحيوان والإنسان ، مع أن المحاولة السالفة لم تقع على أى منهما ، ولا شك أن ذلك من أخطاء العقل الإنسانى ، التى يقع فيها بناء على اتباع الهوى ، وهى من أوهامه التى تؤدى به إلى هلاك نفسه بيده ، بل هى من مآسى ظنونه [٢] .

ثم أن القول بالوراثة فى الصفات يعنى وراثة المقومات الجسمية النفسية ، البدنية ، العقلية ، القلبية والوجدانية ، والسؤال الآن هل يرث الواحد منا عقل والديه ، أو عقل أحدهما ؟! بل هل يرث ثقافة أى منهما ، أو معارفه الشخصية ؟ وهل يرث التراكمات الذهنية أيضاً ؟ إن ذلك لا يقول به عاقل .

بدليل أننا قد نرى آباء عباقرة ، ويأتى من بينهم الأبناء الخاملون ، أو

---

(١) وهذا الحكم قائم فى مفهومه العام ، بدليل أنه إلى الآن لم يتمكن باحث من إثبات عكس ذلك ، وإنما الكل يؤكد على أن عملية الخلق لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا .

(٢) كريس موريسون – العلم يدعو للإيمان ص ١٢٨ .

يقع لبعضهم شئ من فقدان الذاكرة [١] ، فضلاً عن أن يكون لذلك البعض قــدر كبير من البلاهة العقلية .

وقد نرى عباقرة ولدوا لآباء متوسطى القدرات العقلية ، أو لا نصيب لهم فيها ، فكم رأينا بلهاء ينجبون عباقرة ، وكم رأينا غير أسوياء ينجبون أبناء غاية فى الدقة والانضباط بجانب الذكاء ، وما ذلك إلا لأنها من أرزاق الله سبحانه وتعالى ، وهى من نعمه التى لا تورث ، قال تعالى: " أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا ورفعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْض دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ " [٢]

يقول برنان : نعلم عن طريق الاختبار الشخصى ، أن الإنسان يحس ويفكر ، وأن فكره يؤثر على حد ما ، على عمله ويوجهه ، وهذه المعرفة الواعية للعالم ، ولذواتنا ولأعمالنا ولفكرنا ، إنما هى خاصة بنا ، أما المراقب لنا فلا يدرك شيئاً منها [٣] ، لأن هذه العملية ليست متعلقة بذاته هو ، وإن كانت تجرى أمامه ، لكنها فى غيره على سبيل القطع ، ومن ثم فإن القصور فى التعميم يؤدى إلى بطلان الفكر الإحيائى من ناحية قوانين الوراثة .

الرابع : ظهور التباين والعجز :-

من المؤكد أن الحيوان يملك وسائل حسية [٤]، والإنسان يملك أيضاً

---

[١] والواقع المعاش بمظاهره وتجاربه من أكثر الأمور وضوحاً ، بحيث لا يكون بالإمكان إنكار شئ من ذلك ، وإلا كان مكابرة ظاهرة وقسوة لا حدود لها .

[٢] سورة الزخرف - الآية ٣٢ .

[٣] الدكتور / محمد سعيد الحفار - البيولوجيا ومصير الإنسان ص ٥٠ .

[٤] وهى السمع والبصر ، والشم والذوق ، والحس أو اللمس ، وهذا هو القاعدة ، أما الاستثناءات فهى فى النوعين سواء

وسائل حسية [١] ، وقد خلق الله فى أفراد كل نوع ذات الوسائل ولكنها فى الحيوان غيرها فى الإنسان سواء أكان ذلك فى الإمكانيات أو القدرات [٢] التى أنعم الله بها على كل نوع ، وجعلها فى أفراده [٣] ، مما يوضح التباين داخل أفراد كل نوع ، والعجز فى أفراد النوع الثانى .

يقول كريسى موريسون : أن كل كفاية يملكها الحيوان ولا نملكها نحن ، إنما هى تحد متواصل لذكائنا ، ونحن لا نزال ناقصى العلم ، حتى نستطيع الإجابة على ذلك التحدى ، إننا إلى الآن لا نقدر أن نفهم الغريزة على حقيقتها رغم أنها قائمة فينا ، وتجرى معنا ، ونستجيب غالباً لنزعاتها ، فكيف نزعم أنها تورث ، مع أننا الذين نعجز عن فهمهما [٤] ، ومع ذلك يدعى توريثها .

لقد ظهرت تباينات عديدة ، بين الأبناء وآبائهم فى القدرات الذهنية وفى الثقافات والمعارف ، بل والتقدم العلمى أيضاً ، ومن ثم فلا يمكن القول بأنها

---

[١] فالإنسان له حواس خمس ظاهرة ، ويشترك مع كل أفراد الإنسانية فيها ، بل مع كل أفراد الحيوانات ذات الفقاريات ، والثدييات ، أيضاً وأن اختلفت درجات القوة والضعف .

[٢] بدليل أن حاسة الشم فى نوعية من الكلاب أقوى ، ومن ثم فإنها يمكن أن يستفاد منها عن طريق التدريب والتعرف على أماكن المجرمين ، وكشف المتفجرات وغيرها من أنواع المخدرات ، والتعرف على مواقع ارتكاب جرائم بعينها ، وكذلك حاسة السمع حيث تستخدم الكلاب المدربة فى استخراج الأحياء من تحت الأنقاض عند وقوع الزلازل ، مما يعنى وجود تفاوت قد يكون كبيراً فى هذه الإمكانيات والقدرات ، وكل ذلك من خلق الله تعالى وأنعمه التى لا تحصى .

[٣] ففى عالم الحيوان المأكول تلد أنثى الأرنب ، فى كل دورة ما يزيد على ما تلده أنثى الإنسان فى عمرها كله مرات مضاعفة ، حيث ثبت أن بعض أنثى الأرنب تلد فى الدورة السنوية ست مرات بواقع ٨ : ١٠ فى المرة الواحدة ، ومعنى ذلك أنها يمكن أن تلد ما بين ٢٠٠ : ٢٦٠ أرنب فى العام الواحد ، أنظر الدكتور / محمد السيد الربيع - هذا خلق الله فى الحيوان ص ١٩٥ ط أولى ١٩٨٧ .

[٤] كريس موريسون - العلم يدعو للإيمان ص ١٢٨ .

تورث ، إنها تباينات لم تضعها فينا قوة مجهولة ، وتمايزات لم تقم فينا عن طريق العشوائية وإنما تم ذلك كله بإرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته ، بجانب علمه تعالى وحكمته ، ومن ثم فلا بد من إرجاع ذلك كله إلى الله تعالى وحده .

بيد أني ذاهب أيضاً إلى أن الثقافة ، والمعارف العقلية ، بل والعواطف والمشاعر المتقاربة أو المتباعدة ، حالات الفرح والغضب ، وغير ذلك مما يجئ على الجانب النفسى ، أو العقلى الوجدانى والروحى لا تورث كلها ، كما لا يورث شئ منها مما يؤكد بطلان أقوال زعماء الفكر التطورى العضوى ، ويهدم قاعدة الوراثة من الناحية الإحيائية فى أشكالها المختلفة .

والدليل على ذلك ، أننا نرى من أهلنا الريفيين الذين لم يقرأ الواحد منهم أو يكتب ، قدرات عقلية راقية تظهر آثارها فى معارفهم وعلومهم وثقافاتهم ومع أن آباءهم لم يكونوا على نفس المستوى من حصافة الرأى ، وسلامة المنطق ، وقوة الحجة .

فى نفس الوقت نجد فى بعض أبنائهم والبنات اختلافات فى المهارات وتمايزات فى القدرات الفردية ، يدفع بهم إلى القفز فوق أعلى الجوانب ، ونيل أكثر الجوائز العلمية فى المجالات المختلفة [١] ، الشواهد الحياتية المعاشة من الأمور القائمة ،وليس من السهل إنكارها ، بل لا يسع أى عاقل إلا إعلان التسليم بها .

كما لا أغرب عن الحقيقة ، إذا قلت لو كانت الوراثة ضربة لازب لما اختلفنا عن آبائنا وأمهاتنا ، وما تمايزنا عنهم فى شئ ، بل كنا صورة منهم بحيث يظل النابة متميزاً ، والخامل عاجزاً ، والغنى متسلطاً ، والفقير متهالكاً والقوى جباراً باطشاً ، والضعيف من الحياة وأنماطها قانطاً .

---

(١)ومن ينكر ذلك يصعب عليه تقديم نماذج تؤيد مزاعمه ، أو تقف لصالح ما دعا إليه .

لكها رحمات الله جل علاه جعلت هذه العوارض متبادلة ، تبدل الحـرارة والبرودة ، وفى سرعة تبدل الليل والنهار كما تجرى جريان الشمس والقمر قـال الله تعالى :" لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِـي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ " [١]

إننا لا ندرك من الكون الذى نعيش فيه إلا شيئاً يسيراً جداً ، رغم أننـا نعيش القرن العشرين ، ومطالع الحادى والعشرين ، فماذا كانت معارف أسـلافنا ما أظن أن المعارف تورث ، إذ لو كانت تورث لما زالت معارفنا عن معـارف من سلف قيد أنملة ، بل على العكس ، كان يجب أن تتنـاقص طبقـاً لقوانيـن الطبيعة الحرارية والحركية . [٢]

يقول مريسون : نحن إذا فى الفضاء الذى لا يفتأ ممتداً أمامنـا ، وفـى الزمن الذى لا بداية له ، ولا نهاية فى مفهومنا [٣] وفى الطاقة المقيدة المحبوسـة فى الذرة ، وفى الكون الذى لا حد له بعوالمه التى لا تحصى ، ونجومه التـى لا تعد ، وفى الاهتزازات التى نسميها بـالضوء والحـرارة والكـهرباء ، وفـى المغناطيسية والنشاط المستمر للنجوم ، والجاذبية ، وسيطرة القوانين الطبيعيـة على العالم الذى ندرك بعض أطرافه،إذا فكرنا فى ذلك كله أدركنا أننا لا نعـرف فى الحق عن هذا العلم إلا القليل [٤]،بل والقليل جداً الذى لا يقارن بشئ أبداً .

---

(١) سورة يس الآية (٤٠) .

(٢) المعروف أن الطاقة الحرارية يمكن تحويلها بالكامل إلى طاقة حركية، لكن لا يمكن تحويل الطاقة الحركية كاملة إلى طاقة حرارية،لأنها تستنزف جزء منها أثناء عملية التحويل .

(٣) الزمان الفلكى له بداية ونهاية ، وكذلك الزمان المقدر فـى علـم الله تعـالى ، والزمـان البيولوجى ، فالذى لا بداية له ، ولا نهاية له هو الله جل وعلا ، قال تعالى " هـو الأول والآخر والظاهر والباطن وهى بكل شئ عليم " صورة الحديد الآية (٣) .

(٤) كريس موريسون – العلم يدعو للإيمان ص ١٢٨ .

فإلى أى حد يجب أن يتقدم الإنسان ، حتى يدرك تماماً وجـــود الخـــالق العظيم الأعلى ، ويحاول أن يرتفع إلى أعلى ما يستطيع بلوغه من الفـــهم ، دون أن يحاول تفسير حكمة الله سبحانه وتعالى ومقاصده أو الصفات العظمى التـــى هى له تعالى [١] ولا يمكن إهمال ذلك الجانب ، بل إن معرفته الأكيـــدة تجعـــل الإنسان قادراً على إعلان أن هذا الكون بناء الله سبحانه وتعالى وحده ، وأن مـــا يجرى فيه ، إنما هو من أسراره عز وجل ، ومن معالم عظمته وتوحيده وقدرته وبالتالى لا مجال لقانون الوراثة الإحيائى .

الخامس : الجانب النفسى :-

وهذا الجانب سوف يكون داروين نفسه ، هو الميدان التطبيقى بالنسبة له لأنه من التباين فى المدونات عن وصف داروين ذاته ، أنه كان صـــاحب أنـــف غير مقبول ، حتى أن قائد سفينة البيجل [٢] لم يعجبه شكل أنف داروين ورفـــض إركابه السفينة ومشاركتهم الرحلة ، تم تدخل خال داروين وتوسطه فى الأمـــر ، حتى أمكنه إقناع قائد السفينة بقبول داروين عليها - رغـــم شـــكل أنفـــه الغـــير طبيعى- ورحل داروين معها [٣]وظل حتى أتم الرحلة ، والسؤال الآن هو :

من أين ورث داروين هذه الأنف الغريبة ؟! ، بل من أين جاءتـــه هـــذه الصفة التى شانته فى نظر قبطان تلك السفينة ، ولم تكن فى أحد أجداده ؟! فضلاً عن أحد والديه [٤] ، ولكنها جاءته وحده ، لتكون علامـــة على اندفاعـــه

---

[١] الدكتور / نور الدين محمد سلطان - الكون المخلوق ص ١٨٩ .

[٢] وهى السفينة التى قامت برحلة الإبحار إلى شاطئ جنوب أمريكا ، حيث عمـــل داروين على هذه السفينة فى ذات الرحلة بوظيفة مؤرخ طبيعى وجامع بيانات بدون أجر ، راجـــع الفصل الرابع من الباب الأول من هذا الجزء أثناء الحديث عن أبرز المعقدين لهذه الفكرة.

[٣] جاكوب برونوفسكى - التطور الحضارى للإنسان ص ١٧٢

[٤] الأستاذ / نعمان محمد فضل - الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٤٧

الأحمق ، بحيث ترده إلى الحق رغما عنه ، وإن لم يعلنه .

وإذا كان الأصل الذى قامت عليه فكرة الوراثـــة ، والقــول بــالتطور الإحيائى الطبيعى قد انهار ، فإن القائم على أنقاض أى منهما يكون هو الآخر قد انهار ، ولا يمكن القول بأن الوراثة مقبولة ، وهى فـــى الأصـــل قائمـــة علـــى الانتخاب الطبيعى ، والانتخاب الطبيعى قائم هو الآخر على التطـــور الإحيـــائى والتطور الإحيائى قد انهار على كل النواحى ، ومن ثم فكل ما أقيم ناحيتـــه قـــد انهار أيضا ، ومن كل ناحية .

ثم إن الكائنات كلها لا تقوم على غير غاية أو هدف ، وإلا كان وجودهـا عبثا ، ولو كان وجودها عبثا لانهدم الكون كله بما فيه على ما فيـــه [1] ، ولـــو كانت الكائنات الحية تعتمد على الوراثة ، أو ن الوراثة هى التـــى تجـــرى فـــى الكائنات وحدها ، دون ما قصد أو غاية أو من غير دعم وتوجيه مـــن الخـــالق العظيم ، الذى له القدرة الكاملة ، والإرادة التامة العاملة ، وسائر الصفات ، لمـــا صح شئ منها أبدا ، لأن العشوائية أو العفوية لا يقام عليها بناء محكم متماســـك وإنما يدل ذلك البناء المحكم والعناية التامة والخلق المستمر على أن الخالق لـــها جميعا واحد ، هو الله رب العالمين .

السادس : الجانب الشرعى :-

دلت النصوص الشرعية على أن الناس جميعا ينسلون من نفس واحـــدة وأن هذه النفس الواحدة قد خلق الله منها - بقدرته - زوجها ، وأنه تعالى جعـــل باقى أفراد ذلك النوع ينسلون بعضهم من بعض ذكورا كانوا أم إناثـــا ، رجـــالا ونساءا ، وأن هذا التناسل فى النوع ، هو الذى يمكن حسبانه صورة سلالية طبقا للنصوص الشرعية .

---

[1] وهذا كله منفى أن خلق الكون هو الله اللطيف الخبير ، وهو العليم بما صنع تعالى الله على قول الجاحدين علوا كبيرا .

قال تعال :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" صدق الله العظيم (١) .

ثم إن فكرة الوراثة الإحيائية تركز على أن المادة قديمة أزلية ، وأنها التى تفعل بالكائنات ما تشاء ، وأن هذه التباينات عرضية ، وما دام الأصل واحداً ، فإن الجميع يعود إليه ، ولا يبتعد عنه ، وهى فكرة هزيلة ساقطة ، لأن الكون كله مخلوق الله تعالى والمادة حادثة ، ودليل حدوثها أمران :

الأمر الأول : أنها مخلوقة فتكون ممكنة ، وليست قديمة ولا أزلية ، ومن ثم فهى ليست أبدية أيضاً وبناء عليه تكون حادثة والمحدث لها هو الله تعالى كما أنها ممكنة والممكنات على أربعة أقسام :-

القسم الأول : ممكن موجود بعد عدم كالسماوات والأراضين ، فإنها وجدت بعد أن لم تكن ، ومن ثم فهى ممكنة ، بحيث يقع عليها كل من الوجود والعدم بقدر سواء (٢) ، ولا يمكن حسبانها قديمة أبداً ، وإنما هى حادثة .

القسم الثانى : ممكن معدوم بعد وجود ، كالذى انقضى من عوالم يعلمها الله تعالى(٣)، فإنها كانت موجودة ، ثم عدمت فصارت معدومة لقوله تعالى: " إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا "(٤)

القسم الثالث : ممكن سيوجد في المستقبل كالقيامة فإنها ممكنة لكنها لم تقع الآن ، وإنما دلت النصوص الشرعية على أنها وقعة إن شاء الله تعالى لا محالة وفى الحديث الشريف " بعثت أنا والساعة كهاتين "

---

(١) سورة النساء الآية (١) .

(٢) الشيخ / محمد نووى الشافعى – نور الظلام شرح – منظومة عقيدة العوام ص ١٠ .

(٣) وقد أخبر عن ذلك فى الكتاب الحكيم والسنة النبوية المطهرة .

(٤) سورة النساء الآية ١٣٣ .

القسم الرابع : ممكن علم الله تعالى أنه لن يوجد ككفر الأنبياء [١] ، فإن الله عصمهم من ذلك .

ولما كانت المادة بكل أشكالها وأنواعها وتحولاتها مخلوقة فإنها واقعة فى نطاق الممكن ، وبالتالى فلا يمكن القول بأنها أبدية ، ولا أزلية ، وهذا وحده كاف لإبطال المذهب الإحيائى كله ، وللإتيان عليه من كل ناحية ، لأن المادة الجامدة الصماء لا يأتى منا إلا مثلها ، فلو وقعت الأمور بالوراثة ، لزم إبطال القول بالمادة الجامد كأصل للكائنات الحية .

الأمر الثانى : أنها قابلة للعدم فتكون ممكنة ، وليست قديمة ولا أزلية ، ومن ثم فلا تصلح أن تكون أبدية أيضاً ، لأن العدم أقسام أربعة كأقسام الممكنات فى العدد ، وهو الذى مال إليه الشيخ الشرقاوى [٢] .

---

[١] الشيخ / محمد نووى الشافعى - نور الظلام - شرح منظومة عقيدة العوام ص ١٠ الطبعة الثانية حلبى ١٣٥٥ق / ١٩٣٦ .

[٢] هو شيخ الإسلام / عبد الله الشرقاوى ، وله العديد من الحواشى والشروح فى المنطق وعلم الكلام ، وهو من محافظة الشرقية بجمهورية مصر العربية ، وفى هذه المحافظة كثيرون ولى كل منهم مشيخة الأزهر منهم الشيخ الشرقاوي ، والشيخ / حسن العطار ، والشيخ / حسن الطويل ، والشيخ / محمد الأحمدى الظواهري ، الشيخ الدكتور / عبد الحليم محمود ، وكان الشيخ الشرقاوى قد أوقف ماله لطلاب رواق الشراقوة ، وفرش رواق الشراقوة - راجع الأزهر تاريخه وتطوره ص ١٨١ طبعة أولى وزارة الأوقاف ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م ، وكان قد ولى مشيخة الأزهر من ١٢٠٨ : ١٢٢٧ هـ - ١٧٩٣ : ١٨١٢م ، وهى قرابة تسعة عشر عاماً - راجع ص ٣٢٧ من ذات المصدر ، وراجع الأزهر فى ألف عام للدكتور / أحمد محمد عوف ، ص ١١٦ : ١١٩ الكتاب الثانى عشر ط مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠ وراجع للشيخ / محمود أبو العيون - الجامع الأزهر ص ٢٧ .

القسم الأول : عدم المخلوقات الأزلي ، ولا تتعلق بـــه القـــدرة والإرادة إيجاد اتفاقا ، لأنه ليس ممكنا [(١)] بل واجب العدم ، وهذا الوجوب العدمي صــــادر عن الله تعالى ، وتتعلق به قدرة الله في العدم لا في الوجود .

القسم الثاني : عدم المخلوقات فيما لا يزال ، قبل وجودنا ، فإن القـــدرة والإرادة تتعلقان به [(٢)] ، بمعنى أنه في قبضتهما إن شـــاءتا أبقتـــاه وإن شـــاءتا أزالتاه وجعلتا الوجود مكانه .

القسم الثالث : **عدمها بعد وجودها ، فالقدرة والإرادة تتعلقان به .**

القسم الرابع : عدم الممكنات التي على الله أنها لا توجد ، كإيمان أبـــي جهل فإنهما تتعلقان به بالنظر إلى ذاته ، واستحالة وقوعه المفضية لكون عدمـــه واجبا ، إنما هي عارضة ، والعارض لا ينافي الإمكان الذاتي ، وقيل لا تتعلقـــان به نظرا إلى استحالة وقوعه [(٣)] ولما كانت المادة من القســـم الثـــالث بالنسـبة للعدمات فإنها تفنى ، ومن ثم لا تكون أزلية ولا أبدية ، كما لا يصح أن تكـــون هي الأصل الذي قام عليه التوارث في الكائنات الحية لأنها مادة جامدة صمـــاء ، والكائنات الحية فيها نوع من الحياة تتمثل في النمو والاغتذاء ، ونوع زائد علـــى الحياة ، وأعني به الحس والحركة ، وهما من طبيعة الـــروح التـــي خلقـــها الله تعالى ، في كل ذي روح .

ثم أن الله تعالى اقتضت حكمته ، أن يجعل الأنواع تتسل مـــن بعضـــها وتأتي منها أفرادها ، فالبشر من آدم عليه السلام وحواء رضي الله تعالـــى عنها ومن ثم فإن الله تعالى قد خلق الإنســـان على هذا النحـــو ، مما جاء به الحكـــم

---

(١) الشيخ / محمد نووي الشافعي – نور الظلام شرح منظومة عقيدة العوام ص ١٠.

(٢) وهذا النوع من التعلق لا يستلزم شيئا آخر وراء ذلك وهو الذي عليه المحققون من أهل الإسلام .

(٣) الشيخ / محمد نووي الشافعي – نور الظلام ص ١٠.

الإلهي ، قال تعالى. " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم "(١) صدق الله العظيم.

كما بين جل شأنه ، أن هذا الإنسان يتميز على غيره من أنواع المخلوقات الأخرى ، بما كرمه الله به ، وأنعم به عليه ، قال تعالى: " أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ولِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ " صدق الله العظيم " (٢) وقال تعالى: " إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا " صدق الله العظيم .(٣) في نفس الوقت فإن الله تعالى خلق الحيوان ، بأنواعه المختلفة ، من مواد تناسب طبيعة كل واحد منهم ، طبقا لما جرى به قضاء الله تعالى في الأزل ، قال تعالى: " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٤)

ومن ثم فكل نوع من أنواع الحيوانات - مهما كانت أشكالها - قد كانت بدايته الذكر والأنثى المتمثل في مفهوم الزوجين الوارد في قوله تعالى :" وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ "(٥) لكن كل نوع منها له خواصه وطبيعته ولا يمكن أن تتحول الدابة الزاحفة ،إلى دابة ماشية على رجلين أبدا ، وإلا اختل النظام الذي صنعه الله تعالى ، ولا يقول باختلال النظام الإلهي أو بانعدامه إلا من فقدوا عقولهم وضمائرهم .

لأن كل ما في الكون موضوع في ذات الصنعة من قبل الله تعالى ، قال جل شأنه: " هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي

---

(١) سورة التين الآية ٤

(٢) سورة البلد الآيات ٨/١٠ .

(٣) سورة الإنسان الآيتان ٢/٣ .

(٤) سورة النور الآية ٤٥ .

(٥) سورة الذاريات الآية ٤٩ .

ضلال مبين "[١] ،وقال تعالى مبينا الإحكام مع الإتقان في الصنع الإلهي وحده "صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون " [٢].

ولذا فإن ناموس الوراثة الذي يلجأ إلى الاحتماء به التطوريون ، لا يكون مقبولا على مفاهيم ، وإنما يمكن النظر فيه بمفاهيم الإسلام ، التي هي ذاتها النصوص الإسلامية في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، وقد ذكر أن الله تعالى خص بني آدم – من بين الكائنات الأخرى – بخواص تميزهم عن غيرهم قال تعالى: " ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا " [٣] .

وفي تقديرى : أن قاعدة الوراثة الإحيائية لا تقبل على علاتها ، وإنما يجب التزام القائمين عليها ، بإحالة الأمور كلها إلى الله تعالى وحده ، في الخلق والرزق والنشأة والترقي ، والرجوع بكل ذلك إلى قدرة الله تعالى ، الذى خلق فسوى وقدر فهدى ، فهو وحده الخالق للكل ، والقادر على الكل ، وهو وحده الذي يبدأ الخلق على ما يشاء ، ويكيفه وفق ما يشاء ، ويذهب به وقتما يشاء ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو على كل شئ قدير .

كما أن نزعة العرق الواردة في الحديث الشريف ، ليست دليلا علي قانون الوراثة الإحيائي العضوي ، وإنما هي إلماحة إلى ضرورة إعمال النقل المنزل والاعتماد عليه وحده ، ففي الحديث الشريف :" تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" .

---

[١] سورة لقمان الآية ١١ .

[٢] سورة النمل الآية ٨٨ .

[٣] سورة الإسراء الآية ٧٠ .

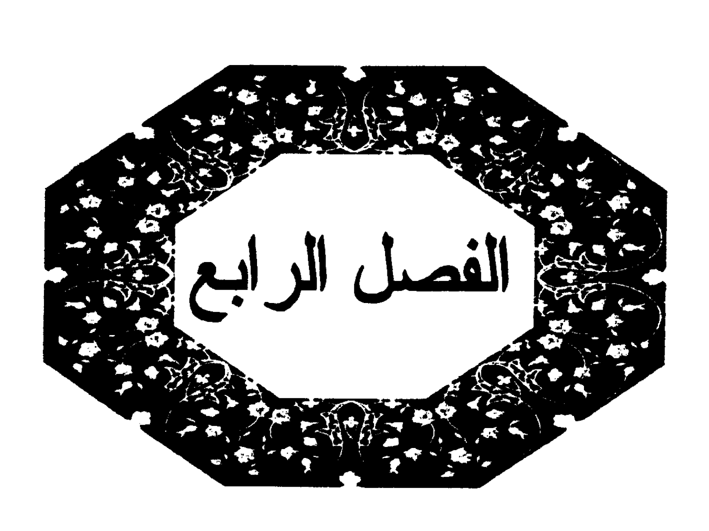
وقد فهم الكثيرون من شراح الحديث أن دساسة العرق هذا[١]، إنما هي انسلال بعض الصفات الضعيفة من ذات النوع ، لا من نوع آخر ، وبإرادة الله تعالى وقدرته لا بالانتخاب الطبيعي على ما يقول به الأحيائيون .

كما أني قد تعرضت لبيان موقف القرآن الكريم من قوانين الوراثة ، وذلك أثناء عرضي لأدلة القائلين بالتطور الإحيائي ، ومناقشتها ، وجاء هذا وذاك في الفصل الرابع من الباب الثاني من هذا الجزء[٢]، فلا أعيد القول فيه حتى لا تقع الإطالة ، فما هو ناموس المطابقة والتحول ، ذلك ما سوف يأتي في الفصل الرابع من هذا الباب إن شاء الله تعالى ، وعليه وحده قصد السبيل .

---

(١) وذهب الشيخ / محمد نور الدين البنداري إلى أنه قد ورد في الأثر أن أمه وضعت لزوجها وليداً ، ليس في شئ من سفات أبيه ، ولا من صفات أمه — على الناحية الجسدية — فهب زوج المرأة في وجهها محاولاً اتهامها بإدخال عنصر جديد إلى ذات الأسرة ، غير قائم في صحيح الأنسال ، وهو رمي لها بالزنا ، ورفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً : هل عندك من إبل ، فقال الرجل نعم يارسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل : هل فيها من أورق يعني مخالف لما في صفات أمه وأبيه من لون ، فقال الرجل نعم يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم من أين جاء هذا ، فقال الرجل يارسول الله لعله نزعة عرق ، فقال صلى الله عليه وسلم للرجل ، وهذا الوليد لعله نزعة عرق . فرضي الرجل وذهب إلى بيته راضياً مسروراً ، ومعه زوجه ، لما أدركه من إجابة كافية خرجت من فم الرحمة المهداه ، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قال له ربه :" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " من أنوار السنة ومقام النبوة ص ٧٥ ط المليجية بالقاهرة ١٩٢٣م .

(٢) حيث ذكرت القواعد أو الوحدات الأربعة في الوراثة ، وموقف القرآن الكريم منها وهي : أ — وحدة النسب ب — وحدة المصاهرة ج — وحدة التكوين د — وحدة التكامل



الفصل الرابع

المطابقة والتباين أو التحول

عرضت فيما سبق لجملة من الأفكار التي زعم التطوريون أنها تصلح لإقامة أنظمة إحيائية عليها ، وفي ذات الوقت تمكنهم من مهاجمة القواعد الصحيحة ، وهدم الأسس السليمة بل وإزالتها ، ولكن بقيت مسألتان من أبرز المسائل التي يزعم الإحيائيون أنها تحقق جملة أغراضهم ، وهاتان المسألتان هما المطابقة والتباين والتحول وسأعرض لكل منهما على النحو التالي :-

أولا : فكرة المطابقة :(١)

ما من شك في أن الإحيائيين التطوريين قد بذلوا جهودا كبيرة ،في ترميم أفكارهم ، ودفع ماء الحياة إليها من جديد ، وكلما بذلوا مجهودا ، وأقاموا حوله بناء ، جاءت الأسئلة متكاثرة نحوه ،من حوله ، والاعتراضات المتوالية عليه ، ثم توالت النقودات" ، قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالْسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ".(٢)

يستوي في ذلك الحكم ، الأفكار التي نادى بها الماديون قديما ، والعلمانيون ، والوضعيون المنطقيون ، وأهل الإلحاد في كل زمان ومكان ، إذ العبرة بطبيعة الفكرة ، لا بمن يدعون إليها ، وحيث قد عرضت للعديد من الأفكار التي ترددت في عبارات التطوريين ، وناقشتها على النحو الذي سلف ، فمن الضروري القول بأن نفس المنهج الذي سبق استخدامه ، هو نفسه الذي سأحاول السير طبقا له .

---

(١) المطابقة هي ذاتها قانون الاستعمال والإهمال، وهو أحد القوانين الأربعة التي قال بها لامارك ، وبالتالي فهذه الفكرة تنسب إليه ، أما الزيادة عليها فمن إضافات التطوريين بعده .

(٢) سورة النحل الآيتان ٢٦/٢٧

أ- عرض الفكرة :

يــرى الكثــيرون أن قاعدة المطابقة الإحيائية ، من أقوى الأفكار التي يعتمد عليها الإحيائيون ، في الوصول إلى أغراضهم ، والتأكيد عليها [١]، وبنفس القدر من الحماس عنها يدافعون ، والمطابقة هنا معناها : قدرة الكائن الحي على الــتوافق مع البيئة التي يعيش فيها ، أو التي يتم نقله إليها ، بل عليه أن يتطابق مــع الواقع الذي يعيش فيه ، مهما كانت الظروف ، و من ثم فإن الفكرة تجيء فيما يلي :-

١- أن البيئة التي يعيش فيها الكائن الحي ، ونوع الغذاء الذي يتناوله ، والظــروف النفســية والاجتماعية ، بل والاقتصادية التي تحيط به ، لها جميعاً تأثير كبير في تكيف الجهاز العضوي لذلك الكائن [٢] ، لما هو معروف من أن الكائــن الحــي ، يحاول باستمرار التنازع من أجل البقاء ، ومن ثم فإنه يسعى لإيجــاد نوع الملاءمة بينه وبين البيئة التي أجبر على الوجود فيها ، وفي نفس الوقت ، فإنه لا يستطيع الخروج منها [٣]، لأن ذلك غير مسموح به ، بناء على قاعدة الحتمية والتلازم الطبيعي .

٢ - إن لنوع الغذاء الذي يعيش عليه ، وطرق الوصول إلى هذا الغذاء

---

(١) الدكــتورة – وفــاء عــبد العظيم – التطورات البيولوجية في الحيوان ص ١٥٧ ط أولى ١٩٥٨ .

(٢) الدكــتور / محسن محمد السعيد – الكائن الحي والبيئة ص ٦٥ ط ثانية دار مروان سنة ١٩٨٧ والتطوريون يجعلون البيئة هي التي تقود الإنسان إلى ذلك التغيير ، ولست أدري كيف سمحوا لأنفسهم وهم العقلاء أن تقودهم البيئة ، وهي جملة من المكونات الجامدة الصماء .

(٣) الدكــتور / ولــيم ويصــا – التطور العلمي ص ١٧٥ ترجمة يسري أنور ط دال الجبل بيروت ١٩٥١ .

دخــلا كبيرا في إحداث الاختلافات بين الأنواع التي يفترق فيها الجنس كله [١] باعتبار أن الكائن الحي لديه خاصية التعامل مع الظروف المحيطة به ، والتكيف العضــوي معهــا ، في حدود البيئة ذاتها ، والتي ارتضى العيش فيها ، ونوع الغذاء الذي يتناوله داخلها ، فالبيئة والغذاء لهما دخل كبير في ضرورة مطابقة الكائن مع الظروف المحيطة به [٢] ، بل إنه إذا لم يتمكن من الحصول على ذات الغــذاء ، الــذي يلبي احتياجاته الضرورية ، فإنه يقاتل في سبيله ، كما يتنازع بغرض الوصول إليه .

٣- أن العلاقــة القائمة بين الكائن والبيئة والغذاء إنما هي علاقة ثلاثية الأبعــاد ، ولابــد أن تقابلهــا علاقة ثلاثية الأبعاد أيضا ، هي علاقة العضو ، وطــريقة تركيــبه ، والوظائف التي يقوم بها داخل ذات البيئة [٣] ، وفي نفس الظــروف ، فــإن الكائن الحي ، متى أجبر على أداء نوع معين من الأعمال ، داخــل البيئة التي يعيش فيها ، فإنه يتقنها ، طبقا لرغبته في التكيف العضوي ، مع البيئة التي أجبر على العيش بداخلها .[٤]

٤- أن قانون الاستعمال والإهمال ، يلعب دورا بارزا في هذه المطابقة بمعنى أن الأطراف التي يستخدمها الكائن الحي في أثناء وجوده ، وعمله داخل

---

[١] الأستاذ محمد أحمد باشميل – الإسلام ونظرية داروين ص ٤٤.

[٢] الدكتورة / هدى محمد السيد عبد الظاهر – دور البيئة في تنمية الفرد والجماعة ص ١٧٧ طبعة أولى ١٩٩٥ .

[٣] إذن هنا ثلاثة قواسم تقوم بينها علاقتان،أو ستة جزئيات ، تقوم بينها ثلاث علائق هكذا:

الكائن الحي	البيئة	الغذاء
العضو الكائن	طريقة تركيبه	الوظائف التي يقوم بها

[٤] أ.ب. هانزر – التطور البيولوجي في علم الأحياء ص ١٣٧ ترجمة صابر أشرف .

بيـــئة بعينها تعمل كثيرا ، تقوي تلك الأعضاء ، وربما امتدت وظهرت أشكالها أكثر من ذي قبل ، أما الأعضاء التي لا تستعمل فإنها تهمل ، ومن ثم تضمر ، وتظل آخذة في الضمور حتى التلاشي والاختفاء [١] ، بحيث تصير مجرد ذكرى أو أثر .

وكان لامارك قد ذكر مثالا لذلك ، وهو عنق الزرافة ، حيث تصور أنه كـــان فـــي الماضي البعيد حيوان يشبه الزرافة ، وكانت البيئة تدفعه لأن يأكل أوراق الأشـــجار العالية [٢] لذلك كان ذلك الحيوان يلجأ إلى مد رقبته بأقصى ما يســـتطيع ، ليصل إلى الأوراق التي تشبعه ، ونتيجة لذلك استطال عنق الزرافة بقـــدر يســـير ، ثم ورثت ذلك لذريتها من بعدها ، وكل جيل يمد العنق قليلا ، وأخيرا زاد طولها،حتى برزت الزرافة الحـــالية المتطورة عن الأصل القديم.[٣]

في نفس الوقت فإن هذه التطورات القائمة في ذات الأطراف المستخدمة إنما هي ، في الأصل ، ناشئة عن ضرورة مطابقة الكائن الحي للبيئة التي يعيش

---

[١] الدكتورة / تهاني محمود العتر – نظرية التصور الحيوي ص ٧٢/٧١ .

[٢] لاحـــظ أن المســـألة قائمـــة على الخيال ، لأن لامارك قد تصور هذا الحيوان الذي يشبه الزرافة ولم يقف على حقيقة ذلك الحيوان الذي تصوره ، كما لم يفسر أو يجيب على السؤال التالي ، وهو لماذا فكر ذلك الحيوان في الأكل من أوراق الشجر العالية ، ولم يأكل مما تحت قدمـــيه ، ولماذا كان هذا صنيع ذلك الحيوان دون سواه ، أليس ذلك مدعاة للقول بأنها مجرد خيالات .

[٣] لســـت أدري هل الذي فكر في الأكل من الأشجار العالية ، هو الأنثى أم الذكر ، أم هما معـــا ، أم أن لامارك تخيل حيوانا واحدا نشأ منه الذكر والأنثى ، وقد أ ثبت فايزمان الألماني عـــام ١٨٨٧ أن هـــذه الفكـــرة اللاماركية خاطئة ، حيث قام بقطع ذيول الفئران عند ولادتها لتسعة عشر جيلا ، ومع هذا فقد كانت الأجيال تولد بأذيال ، ومن ثم بان أن الانتقال الوراثي يكون بالخلايا التناسلية وليس بالجسدية

فـيها ، وهـو حيـن يفعل ذلك ، إنما يقصد العيش بسلام ، لأنه إذا لم يقم بتلك المحاولة ، فسوف يضطر للهجرة ، والخروج من هذه البيئة مرغما .[١]

٥- أن الكائـن الحـي ، متى أجبر على الخروج ،أو الانتقال من البيئة التي كان يعيش فيها ، إلى بيئة أخرى ، تختلف عن البيئة الأولى ، فإنه يلجأ مرة أخرى للتأقلم ، والتكيف ، إذ ليس من المعقول أن يغامر بحياته ، أو يعيش على الـدوام طريدا ، ومهددا بالقضاء عليه وذريته ، بل سيعمل على إصلاح أموره بالشـكل الذي يؤدي به إلى مطابقة البيئة الجديدة ، والتعايش معها في هدوء ، طبقا لقانون التنازع من أجل البقاء .[٢]

ولمـا كانت البيئة الجديدة لها ظروف خاصة وطبيعة معينة ، في الغذاء والحـرارة أو الـرطوبة ، فإن الكائن الحي سوف يلجأ من جديد إلى استعمال الأعضـاء الخاصـة بـه المناسبة للبيئة الجديدة ، والتي كانت مهملة في البيئة الأولى،بحيث تكون مستعملة في البيئة الجديدة ، لأنها صارت متناسبة معها.[٣] طبقا لقانون التكيف مع البيئة .

بمعنى أن الكائن الحي ، تكون أجزاؤه بمثابة قطع الغيار في المخزن ، متى فكر صاحب المخزن في استعمال بعضها قام به ، بدليل أن الأطراف التي

---

[١] أ.ب طومسون – تطور الكائن الحي مع البيئة ص ١٩٧ ترجمة أنور ملاك ط دار الغنم سنة ١٩٥٧ .

[٢]هذه الأفكار تجمع بين جمنة من المتناقضات ، لأنها تجعل البيئة قادرة على ممارسة ألوان القهـر للكائن الحي ، كما تجعل الكائن الحي هو الآخر في صراع مع البيئة ، كل منهما يريد غلبة الآخر وإخضاعه إليه ، وهي نفس الأفكار السوداوية التي تحدثت عنها الوجودية وغيرها

[٣] لسـت أدري أين هي الأعضاء التي كانت مهملة ، لقد اعتبرها لامارك متلاشية ومختفية فكم تأخذ من أجيال ، حتى تعيد تنظيم نفسها ،وصياغة أجزائها من جديد ، ألم تكن المدة كافية لإفناء النوع كله ، قبل أن يحدث فيه التكيف مع البيئة .

كانت لها استعمالات في البيئة التقليدية السابقة ، سوف تحصل على أجازه عمل لأنها بذلت كل طاقتها ، أما الأطراف التي كان لها إهمال دائم ، فسوف تبدأ في العمل الذي يتناسب مع البيئة الجديدة [١] ، دون منازعة في شيء من ذلك

وهكذا يظل الأمر قائما مع أطراف وأعضاء كل كائن حي ، متى دخل بيـــئة حـــاول التأقلم معها ، فاستعمل الأطراف التي تناسبها ، ومتى خرج عنها أهمـــل تلك الأعضاء ، واستعمل الأخرى [٢] ، مع ملاحظة أن التي تهمل تظل كامنة ، ولديها استعداد للعمل من جديد ، وبأقصى طاقة ممكنة ، ويا لها من بيئة قوية جبارة ، تستطيع ترويض الكائن الحي وتوجيهه ، إلى ما تريد ، وياله من كائن ضعيف مطواع ينزل على رغباتها بأقصى ما يمكن ، دون أن يتنازع معها أو يصارعها ، أو يحاول إثبات أنه الأقدر على قهرها وتطويعها .

يقـــول الأســـتاذ باشميل : أن الكائن الحي إذا أجبر على العيش في بيئة مخـــتلفة ، عن البيئة التي كان يعيش فيها ، فإن بعض أجزائه تبطل أو تتطور ، أو يـــزيد عددها لكي يتمكن من مواصلة العيش في البيئة الجديدة ، التي لا يحتاج العيش فيها إلى بعض هذه الأعضاء ، أو يحتاج إلى مزيد منها أو تطويرها ، أو إيجاد أعضاء جديدة بديلة[٣] يمكنها أن تحعل المطابقة بينه ، والبيئة الجيدة أمرا قائمـــــا .

إذن فكرة المطابقة لدى التطوريين تقوم على عدة أمور :-

الأول : ضـــرورة تكيف الكائن الحي مع البيئة التي يعيش فيها أيا كانت طبيعتها ، بما يستلزمه ذلك التكيف، من استعمال بعض الأعضاء حتى تزيد أو

---

[١] الدكتور/ وليم ويصا – التطور العلمي ص١٧٧ ط دار رؤف بعلبك لبنان ١٩٤٣

[٢] الدكتورة/ وفاء عبد العظيم – التطورات البيولوجية في الحيوان ص ١٥٩

[٣] الأستاذ/ محمد أحمد باشميل – الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٠ .

تـــتطور(١) ، كنوع من الحيلة التي يقوم بها الكائن الحي ، في التكيف مع البيئة والظروف المستجدة ، طبقا لمفهوم قاعدة البقاء ، وتوافقا مع قاعدة المطابقة.

الثانـــي : ضـــرورة اســتعمال الكائن الحي للعضو الذي يفيد ، وإهمال العضـــو الذي لا ينفع ، بحيث يبلغ حد الضمور والتلاشي ، لأنه لا قيمة له في تلـــك الحـــال ، بالنســـبة للكائن الحي نفسه ، ونظرا لوجود خاصية التميز فيه والرغبة العارمة للتأقلم مع البيئة ، فإنه سيعمل بالأعضاء التي يحتاجها فقط ،بل وينمـــيها ويـــزيد فـــيها ، كما يعمل على صيانتها ، ويهمل الأخرى التي تعتبر مستهلكة وتم الاستغناء عنها (٢) ، لأنه يراها تمثل عبئا عليه .

الثالث : أن المشاهدات القائمة في التاريخ الطبيعي ، دالة كلها على أن الطفـــل الـــذي يولد في الحضر ، وينمو بين الجدران المغلقة ، فإن قوة إبصاره تكـــون ضعيفة ، بل تظل كذلك ، حتى تقترب من حد التلاشي ، أما الطفل الذي يولـــد ويـــنمو داخـــل الصحراء ، فإنه يكون حاد البصر ، قوي الذاكرة ، شديد التركيز ، كما توجد لديه حوافز الغلبة والانتصار(٣) ، بل والاستعداد المتواصل للقتال ، طبقا للبيئة التي أقام فيها .

كمـــا أن الحفـــريات والآثار الجيولوجية التي تم اكتشافها ،قد دلت هي الأخـــرى علـــى أن بعض الحيوانات السابقة ،كانت لها أطراف قوية وطويلة ، ومـــتعددة ، أيضـــا ، بينما هو في الواقع المعاش ، أو الصور الحالية ، قصيرة

---

(١) بروتافسكي – توافق الكائن الحي مع البيئة ص ١٩٧ ترجمة خالد الحسن – طبعة بيروت ١٩٧٤ .

(٢) الأستاذة / سلوى حسان – تطورات في الكائن الحي للتوافق مع البيئة ص ٢١٧.

(٣)الدكتورة/ صفوت نص الله رشيد – البداوة والمدنية وعلاقتهما بالحضارة ص ١٧٣ ط دار خيرت .

الأطـــراف ، قليلة في أعدادها ، ضعيفه في تركيبها ، بل إنها ظهرت في صور أقرب إلى الضمور ، منه إلى البيان والظهور [١].

الـــرابع : أن هذه العمليات المتكاملة التي يقوم بها الكائن الحي ، داخل البيـــئات المختلفة ، إنما تتم بطريقة ميكانيكية آلية [٢] ، لا دخل فيها لقوى غيبية أو قوى غير مرئية ، وإنما هي اجتهادات متبادلة بين الكائن الحي وأطرافه، في رحلـــة حياته الخاصة ، رغبة منه في البقاء وحرصا عليه ، ولمزيد من أحداث تكـــيف مـــتكامل مـــع البيئة [٣] ، لأن ذلك هو عمله الوحيد ، وفرصته الأولى والأخيرة ، في هذه الحياة .

ويذكـــر الأســـتاذ باشـــميل مثالا من التي يذكرونها بالنسبة للاستعمال الإهمـــال الجـــبري في البيئات المختلفة . وأن الأعضاء المهملة تمثلها العيون الأثـــرية غـــير المبصـــرة ، التي يقولون أنهم عثروا عليها لحيوانات في بعض الكهـــوف المظلمة التي لا سبيل للنور فيها ، أو تحت طبقات الأرض ، وفسروا

---

[١] بروتافسكي – توافق الكائن الحي مع البيئة ص ١٩٩ ، والملاحظ أن هذه الصور والآثار الجيولوجـــية تم التعامل معها أثناء الحديث عن أدلة التطور ، وتبين أنها صور مزيفة كاذبه ، كمـــا تبيـــن أنها لا تؤيد الأفكار التي يقولون بها ، بل على العكس من ذلك تهدم كل الأفكار التطورية ، وتأتي عليها من كل ناحية

[٢] وفـــي تقديري أن هذه المشاهدات والأقوال ، التي قد تجيء معها غير موثقة أبدا ، لا في الماضـــي ولا فـــي الوقـــت الحاضر ، أما بالنسبة للماضي فلأنهم لم يعايشوه ، حتى يكونوا شـــهداء عليه ، أو تكون شهادتهم مقبولة فيه ، ومن ثم فحكمهم ساقط ، وغير قائم على أسانيد مقبولة ، كما أنها في الحاضر لم تقم على الاستقراء العلمي التام ، أو الناقص الذي تعتمد عليه الأبحاث العليمة ، وبالتالي فلا تخرج عن كونها افتراضات خيالية ، لا تقوم على أسس واقعية كما لا تدعها حقائق ثابتة .

[٣] الدكتورة / وفاء عبد العظيم – التطورات البيولوجية في الحيوان ص ١٥٣/١٥٤

ذلــك بأنه سبب فقد هذه العيون الجامدة ، حاسة الإبصار [١] ، بمعنى أنها كانت موجودة، لكنها لما لم تعمل ، فقد أهملت وانطفأت .

وأن أنــواع هــذه الحيوانات – صاحبة العيون الأثرية غير المبصرة – كانت تعيش في بيئة مشرقة غير مظلمة بالنسبة للماضي ، مما جعل هذه العيون المبصـــرة من ضروريات حياتها ، ولكنها لما أجبرت على العيش في الكهوف المظلمـــة ، أو تحت طبقات الأرض آمادا طويلة ، ومن ثم فقدت هذه الحيوانات حاسة الإبصار التي كانت لها بالتدريج ، فضمر العضوان اللذان كان يبصر بهما وهما العينان ، لعدم حاجة الإبصار إليهما ، في تلك البيئة المظلمة .[٢]

وطــبقا لمـــا سلف فقد بقيت هاتان العينان ، في ذلك النوع من الحيوان مجـــرد صـــورة أثرية فقط ، ثم أورثهما هو الآخر أنساله من بعده داخل، هذه الكهــوف المظلمة ، ثم أخذ ضمور هذه العيون الأثرية، مع الأنسال في الازدياد المتواصـــل جـــيلا بعـــد جيل ، حتى تلاشت هذه العيون كليا ، وبالتدريج لعدم الحاجـــة إليها ، بل صار هذا النوع من الحـــــيوان يولد ويعيش ثم يموت ، في بيـــئة لا يحـــتاج فيها إلى حاسة الإبصار أبدا [٣] ، وبالتالي فإبقاؤه عليها لم يعد ضرورة بيئية .

ما سلامة موسى فيؤكد نفس الفكرة ، ويقرر أن حيوان القطيس – وهو

---

[١] مـــن المؤكـــد أن هذه الأفكار لم يقم عليها دليل علمي واحد لأن ، الآثار لا توضح ما إذا كانت هذه العيون مظلمة في الماضي أم لا ، صحيحة أم فاسدة .

(٢) فـــي تقديـــري أن التطوريين أعلنوا إفلاسهم أكثر من مرة ، وأنهم أعلنوا إلحادهم السافر المكشـــوف على التوالي ، لأن الله تعالى لا يخلق خلقا إلا بما يتناسب معه وذلك هو ذلك هو اللطيف الخبير ، أما هم فأوهامهم تفرض عليهم الزيف والضلال بجانب الظنون والأوهام .

(٣)الأستاذ / محمد أحمد باشميل – الإسلام ونظرية داروين ص ١٠٠/١٠١ .

أكـــبر حـــيوان في العالم – يعيش في الماء البارد قريبا من القطب الشمالي [١]، وهـــو حـــيوان لبون يرضع أطفاله ، ودمه دافئ مثل دمائنا ، وأن هذا الحيوان المائي كان يعيش يوما على اليابسة ، ثم نزل إلى الماء ، فانقلبت يداه زعانف ، ولكن لا تزال أصابعه الخمس ظاهرة ، في كل زعنفة من زعنفتيه .

وكمـــا فقد قدرة أصابعه على الأعمال حتى التصقت ببعضها، فقد شعره الذي كان مناسبا له في اليابس ، حيث لم يعد مناسبا له في البيئة المائية الجديدة وبالتالي فلما حاول التأقلم مع البيئة المائية الجديدة زال عنه شعره ، وكسى نفسه بطـــبقة كثـــيفة من الدهون تبلغ آلاف الأرطال ، وهو لم يبلغ هذه الحالة إلا بعد نزاع طويل ، انقرض فيه كل قطيس لم يكن جلده مبطنا ، بمثل هذه الطبقة من الدهن[٢]التي تحمي جسمه ، وتمكن له في التوافق السريع مع البيئة الجديدة.

الخـــامس : إن كـــل مـــا فـــي الكون إنما وجد بحكم الضرورة العقلية والحتمـــية مـــع السببية ، وأن ما فيه من روائع التباينات بين الكائنات ، وبدائع الخلق في الموجودات ، إنما جاء نتيجة الأعمال التطورية الطبيعية الآلية ، ولا دخـــل فـــي شيء منها للعناية أو الإرادة أو القصد الإلهي ، فليس هناك – من وجهة نظرهم – مكان للعناية الإلهية ، أو الرعاية الربانية التي ترعـــى هـــــذا الكون [٣]، وتحفظ وجوده ونظامه ، وتبقي علاقاته الغائبة .

---

(١) لا شـــك أن ســـلامه موسى لم يقف على هذه المشاهدات بنفسه وإلا لكان قد وصف هذا الحـــيوان وصفا دقيقا ، من حيث الطول والعرض والملامح بل الأنظمة الحياتية ، لكنه قام بـــنقل هـــذه الأفكار وحكايتها لا للتسلية ، و إنما أراد إيهام القارئ بأنها حقيقة واقعة ، و أمر مؤكد ، وما أظنه كان على صواب في شيء من ذلك .

(٢) الأستاذ / سلامة موسى – نظرية التطور واصل الإنسان ص ١٣١ .

(٣) الأستاذ / محمد احمد باشميل – الإسلام ونظرية داروين ص ١٠١ .

لكــن أصحاب التطور الإحيائي يسترسلون في بذل الكثير من التأكيدات علـــى ذات الفكرة ، وأنها قامت في الكائنات الحية العاقلة ، وغير العاقلة ذوات الأطراف العاملة ، ودوات المخالب والناب ، لأن هذه المسائل عندهم من الأمور المهمة، ويجنح بهم الخيال إلى الحديث عن الحيوان الدي لا ناب له أو لا مخلب ويعللون ذلك بعدم حاجته إليهما في البيئة الجديدة التي يعيش في الآن ، بدعوى أن الحيوان كان له في الماضي ناب [١].

كما كان له مخلب قوي يؤدي به مهامه الحياتية داخل البيئة التي ظهر فيها [٢] فلما أجبر على العيش في بيئة لا تتطلب هذين – الناب والمخلب – فقد اختفــيا منه تماما ، ولم يعد لأي منهما وجود ، فلما انتقل هذا الحيوان إلى بيئة أخرى ، تتطلب هذين العضوين ، فإنهما قد نبتا فيه من جديد ليتمكن من العيش بسلام مع هذه البيئة ، وينجو من الهلاك المحيط به المتربص من حوله ، والذي تبدو صوره في الظروف البيئية الضاغطة عليه .

وعلى كل فمتى وجد الحيوان ، ذو الناب أو المخلب في بيئة تحتاجها ، فإنه يتطابق معها بحيث يظهران فيه ، ويعملان بقوة وكفاءة ، أما إذا أجبر على الحــياة في بيئة لا تحــتاجهما ، فإنهما يبطلان بالتدريج ، ويتلاشى وجودهما بالكلية .

مـــا مَرَّ كان مجملا لفكرة المطابقة ، التي قام بها الإحيائيون ، وزعموا أن الكائن الحي يقوم بها ليطابق البيئة التي يجبر على العيش فيها ، أو يقيم بها ، ولا دخــل لأمر آخر بعيد عن نطاق الطبيعة ،التي ما تزال في غربلة دائمة لا

---

(١) والحــيوانات ذات الناب متعددة ، واغلبها من الفصيلة الكلبية ، أو الرباعية كالأسد والذئب والثعلب والكلب ، وما كان من هذا القبيل ويتغذى على اللحوم .

(٢) الدكــتور / وليم ويصا – التطور العلمي ص ١٧٩ ، ١.- ب هانزر – التطور البيولوجي في علم الأحياء ص ١٣٧ ، الدكتورة / تهاني محمود العتر – نظرية التطور العلمي ص ٧٥

تنقطع ، فما ناسب الوسط الجديد أبقته ، وما لم يناسب أبادته [١] وأنها تفعل ذلك على الدوام،وقد يستغرق فعلها أزمانا متطاولة،كما يستغرق أجيالا متعاقبة ، وأن هذه العمليات تتم في الطبـــيعة ذاتها ، من غير اعتبار لشيء خلفها ، وأنها تقوم به على وجه الإجـــــمال والتفصـــيل ، من غير احتياج لشيء وراء ذلك.[٢]

ولا شك أن فكرة المطابقة في الفكر الإحيائي قد أمكنني عرضها بالقدر الذي وفقني الله سبحانه وتعالى.إليه ، وبالشكل الذي حملته السطور السالفة على سبيل العرض الذي جاء في الأغلب الأعم محتويا الكثير من التفصيل الذي لابد مـــنه، علـــى رأي القائلين به ، ولكن تبقى نقطة هامة وهي موقفنا أو مناقشتنا للفكـــرة ، حـــتى يستوي الأمران – أمر العرض وأمر المناقشة – أمام ناظري القـــارئ الكـــريم . بحيث إذا صدر عنه حكم كانت مقدماته متوافقة على نتائجه وهو ما سأفعله إن شاء الله تعالى .

ب_ مناقشة الفكرة :

مـــا مـــن شـــك في أنه قد ثبت لدى القارئ الكريم ، اعتقاد التطوريين الإحيائييـــن بضرورة مطابقة الكائن الحي ، للبيئة التي يعيش فيها ، مع مطالبة الأعضاء والأطراف التي تخدم ذات الكائن بتطوير نفسها ، حتى تتلاءم مع ذات البيئة ، بحيث تعمل في حدود تلك الوظائف ، وهي لذلك تنمو وتستمر ، بل إنها تمتد مع الأيام ، أما غيرها فتهمل وتضمر وتتلاشى ، بناء على قاعدة الاستعمال والإهمال ، ولكن ذلك يحتاج – مناقشة الفكرة من النواحي الآتية :-

الأولى : الناحية الإحيائية :

١- ترتكز فكرة المطابقة على مفهوم التكيف البيئي ، وهو ما يعرف

---

(١) راجع للأستاذ / سلامة موسى – نظرية التطور وأصل الإنسان ص ١٣٤/١٣١ وللدكتورة/ تهاني العتر – نظرية التطور العلمي ص ٧٣ .

(٢) ا – ب – طومسون – تطور الكائن الحي مع البيئة ص ٣٣١ .

باسم الملاءمة ، لكن هذا التكيف البيئي ، الذي يقولون به - ليس أمرا إحيائيا ولا هو من قبيل المباحث الإحيائية البيولوجية ، وإنما هو أمر متعلق بالجوانب السلوكية من حياة الكائن الحي [١]، باعتبار أن كل كائن حي يتبع البيئة التي نشأ فيها اجتماعيا [٢]، ومن ثم فإن الفكرة ساقطة إحيائيا ، كما أن انحيازهم ناحية البيولوجيا ليس في صالحهم أبدا ، بل هو يعاندهم على طول الخط من الناحية الإحيائية أيضاً ، أما كيف ذلك ؟

فالجواب أن المطابقة الإحيائية ، تستلزم تجربة عملية ، يتم تكرارها للتأكد منها ، وما لم يتم عليها شيء من ذلك ، فإنها تعتبر ساقطة ، أو غير قابلة للتعامل فيها ، كما أن الإحيائيين أنفسهم يقررون تهافت فكرة المطابقة، لافتقادها الأسس الأولى الإحيائية ، بمعنى أنها تعتمد على المشاهدات والآثار ، أو أعمال الحفريات والجيولوجيا ، وليس ذلك منهج علماء الإحياء .

٢- ثم إن التطوريين يقولون أن الجنين في الرحم يبدأ خلية واحدة ، ثم تأخذ في الانقسام والزيادة على نحو ما تفعل الخمائر ، ثم يتخذ هذا الجسم هيئة الحلقة ، ثم يتخذ خياشيم كالسمك ، ثم تظهر الأيدي والأرجل ، ويكون له ذنب طويل ، ثم يضمر الذنب ويزول ، ثم ينبت له شعر يجعل جلد الجنين كجلد البهائم ، ثم يزول هو الآخر أيضا [٣]. فأين المطابقة أو الملاءمة على الناحية الإحيائية . ما دام ذلك كله يتم داخل الجنين ، في أي مكان وأي زمان ، وليس هناك مظهرا واحدا يؤكد ما زعموه .

بل كل ذلك يأتي على طريق إثبات المعاندة لذات الفكرة ، التي يقولون بها ، أو يحاولون الاعتماد عليها ، وهذا كاف لإسقاطها وبيان فسادها .

---

(١) الدكتور /علي عبد العظيم سلطان – البيولوجيا التاريخ والمشكلات ص ١٥٧ .

(٢) الدكتورة/ تهاني العتر – نظرية التطور العلمي .

(٣) الأستاذ / سلامة موسى – نظرية التطور أصل الأنواع ص ٦٧

٣- أن دلائـــل المطابقة عند الإحيائيين ، لا تخرج عن كونها مجموعة مـــن الصور ، أو المشاهدات التي وقعت في علم الآثار والحفريات ، وليس في علـــم الإحياء الذي يعتمدون عليه ، ولا يمكن اعتبار هذه المشاهدات بمثابة أدلة يعـــتمد عليها في علم بعيد تماما عنها ، سواء في موضوعاته ومسائله ، أم في المناهج التي يقيموها [١] ، أو النتائج التي زعموا أنهم وصلوا إليها .

٤-فـــي نفـــس الوقت فإن عمدت أدلتهم على فكرتهم حول المطابقة هو التكـــيف البيئي ، وهو جانب اجتماعي فقط ، وليس من الصواب الاعتماد على الجوانـــب الاجتماعـــية في تأكيد نتائج إحيائية ، فضلا عن تقريرها ، أو تناول مسائلها [٢] ، للفرق الهائل بين الموضوعات والمسائل ، والمناهج والغايات ، ثم إن التجارب التي قام بها كل من كاسل وفيلبس Castle Philipis عام ١٩٠٩ أثبتـــت أن المطابقة لا تكون عن طريق الخلايا الجسدية ، وإنما تتم عن طريق الخلايا التناسلية .

وقد برهنا على ذلك عمليا حيث أزالا مبيضي أنثى خنزير غيني بيضاء اللـــون – نقـــية – عمرها خمسة أشهر ، وزرعا بدلا منه مبيضي أنثى أخرى ســـوداء اللـــون نقية ، لها نفس العمر [٣] ، وتلا ذلك تلقيحها بذكر أبيض نقي . فكـــان الجيل الناتج أسود اللون ،وعندما لقحت أنثى سوداء من ذكر أبيض اللون كان الجيل الناتج يحتوي على أفراد سوداء ، وأخرى بيضاء [٤] ، مما يؤكد أن

---

(١) الاستاذ / نعمان فضل – الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٥٩/٦٠ .

(٢) أ. ب طومسون – تطور الكائن الحي مع البيئة ص ٣٣٢ .

(٣) ولا شك أن حيوانات التجارب تكون معدة لذات الغرض ، ومن ثم فلم تكن هناك مشكلات إحيائية تتعلق بهذا الجانب أو ذاك.

(٤)أندريه توماس هوكست / التطور الإحيائي والنتائج العملية ص ١٩٧ط أولى سنة ١٩٧٥

الصفات تنتقل عن طريق الخلايا التناسلية ، وليس عن طريق الخلايا الجسدية ، ومن ثم فلا عبرة للمطابقة بين الكائن والبيئة .

يقـول والـتون : لقد كنا في الماضي نعتقد إمكانية تخليق البيئة لكائن متكامل ، وكان هذا الاعتقاد ينمو لدى الإحيائيين القدماء نظرا لاعتبارات علمية ، كما كنا في نفس الاعتقاد بأن البيئة تستطيع إخضاع الكائن الحي لما تريد ، بل بالغـنا حين ظننا أننا أبناء البيئة ، لا غلب فيها تعديلا ، إننا نرث عنها ما تجود به علينا ، أو تطبعنا به ، ثم بان لنا خطأ ذلك كله عن طريق التجارب العملية ، **وإني أملك قدرا من الشجاعة وأعن التنازل عن أخطائي كلها** . (١)

٥- إن فكرة المطابقة الإحيائية لا تمثل سوى وجهة نظر ، لم تقم عليها أدلـة صـحيحة ، كما أنها لا تعبر عن وجهة نظر علمية أو إحيائية ، بقدر ما تحمل من التعبير عن اتجاهات فوضوية أحيانا ، وشاذة في أحيان أخرى ، وليس من الصواب القول بأنها مقبولة على أية جهة إحيائية ، بل على العكس من ذلك أنها ساقطة من حسبان العمليات الإحيائية المقبولة .

الثانية : الناحية المنطقية : (٢)

يقـرر المنطق السليم أن عملية المطابقة هذه ، تحتاج مجهودات عقلية كبيرة ، وقدرات ذهنية تجعل صاحبا ، يحاول تجاوز الأزمات التي تصادفه ، أو تخطـي العقبات التي تحول بينه ، وما يريد الوصول إليه ، في سبيل البقاء (٣)،

---

(١)تومـاس والتون – التطوريون ومشكلاته العلمية ص ١٤٩ ترجمة الدكتورة / هدى بدران سنة ١٩٧٩ .

(٢)أقصـد بها القوانين التي تحكم عمليات التفكير الإنساني ، بحيث تكشف عن مظاهر الخطأ فـتعالجها ، وترشد إلى مواطن الصواب فيتم التزامها ، والقيام عليها فضلا عن التمسك بها ، باعتبار أن المنطق آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ في التفكير .

(٣)الدكتورة / تهاني محمود العتر –نظرية التطور العلمي ص ٧٧.

وفي نفس الوقت لابد أن يقع له من الإمكانيات ما تتحقق معه تلك الأهداف التي يسعى إليها ، ويبحث عنها .

والإحيائيون لم يذكروا محاولة واحدة ، يفسرون بها كيف تم بناء أو نشأة ذلك الجانب العقلي ، والقدرات الذهنية ، وما إذا كان موجودا هذا الجانب في طبيعة الكائن الحي- سواء كان عاقلا أم غير عاقل- أو غير موجود فيه(١)، والمعروف أن غير العاقل لا يقدم معرفة عقلية ، كما لا يمكنه القيام بها ، أو يكشف عن قدرات ذهنية تعينه عليها ، فثبت أن قاعدة المطابقة غير مقبولة على الناحية المنطقية العقلية .

ثم أن المنطق العقلي السليم ، يميل إلى تقرير حقيقة هامة ، وهي السلامة من التناقض(٢) لكن فكرة مطابقة الكائن مع البيئة ، لا تخرج عن احتمالات أربعة عقلية ، كلها باطلة :

الاحتمال الأول : أن يكون كل من البيئة ، والكائن الحي عاقلا فيعمل على التوافق مع الثاني ، مهما كانت الظروف ، وهذا باطل ، لأن كلا منهما لا عقل له .(٣)

الاحتمال الثاني : أن يكون كل منهما غير عاقل ، وهذا يؤدي إلى القول بأن كلا منهما عند الانفصال أو الاجتماع لا يمكنه إحداث أي نوع من التوافق مع غيره (٤)، فالمطابقة من هذه الناحية تكون باطلة

---

(١)الأستاذ/ نعمان فضل – الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٦٢ .

(٢) سواء أكان التناقض في المفردات والمعاني ، أم كان في الجمل والمباني اللغوية والكلامية أم في النتائج المترتبة بالنسبة لكل منها .

(٣) والتطوريون لا يعترفون بان الطبيعة عاقلة ، كما لا يقولون بشيء من ذلك .

(٤)لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وبناء عليه فما لا عقل له ليس من الصواب انتظار نتائج عقلية تصدر عنه.

الاحــتمال الثالــث : أن تكون كل الكائنات عاقلة ، أما البيئة فإنها تكون غــير عاقلـــة ، وخضوع العاقل ، وهو الكائنات الحية لغير العاقل ، إنما يمثل خروجا على القدرات العقلية ، والأحكام العرفية أيضاً .

الاحتمال الرابع : أن تكون البيئة عاقلة ،والكائنات غير عاقلة ، وقد ثبت بالبرهان أن البيئة ، من الحرارة والبرودة والرطوبة ، كائنات غير عاقلة، وقلب الحقائق محال .[1] فثبت أن المطابقة على هذا المعنى أيضا أمر محال .

ليس هذا وحده بل يعلن أن العقل الصحيح ، والفطرة النقية ، والمنطق المقــبول ، يقـــرر بـــأن الحركة التي تصدر عن متحرك غير عاقل ، لا تكون منـــتظمة علـــى الـــدوام ، والكائنات الحية ، بل والجمادية والنباتية مطردة فيها أوصـــافها علـــى الدوام ، فثبت أنها مستندة في ذلك كله إلى الله تعالى ، لا إلى أنفسها ، وهذا وحده كاف لإبطال فكرة المطابقة ، بين الكائن الحي ،والبيئة التي يعيش فيها .

الثالثة : الناحية الواقعية:

قـــاعدة الوراثة تكشف عن سمات بعينها ، تنتقل في الكائن الحي ، طبقاً للأصـــول العامـــة التي أنسل منها ، وفي قاعدة المطابقة يتخلى الإحيائيون عن فكرة الوراثة تماما ، لتحتل بدلا منها قاعدة المطابقة المكان الذي كان للوراثة ، وهـــذا فـــي حد ذاته يمثل شهادة وثائقية واقعية على بطلان القواعد التي يزعم التطوريون قيام أمورهم عليها . وهي تمثل لونا من التناقض ، والتضارب بين القاعدتين أو الناموسين اللذين يحتكم الإحيائيون إليها .

مـــن الممكـــن القـــول بـــان هناك فرصة للتوفيق بين قاعدتي المطابقة والوراثة ، ولكن هذا التوفيق لن يخرج عن الحدود النظرية على أوسع تقدير ،

---

(١)بل إن الذي يعمل على قلب الحقائق يكون خارجا عن نطاق أصحاب العقل السليم .

بل ستكون إحداهما مرفوضة حتما ، متى قبلت الأولى ، وحيث أنهما متماثلتان . فإن الحكم بالرفض لأي منهما ، ينسحب على الأخرى بطريق الأولى ، ومن ثم اعتبر أن ما يجري على أي منهما ، من حيث الفساد يجري على الأخرى ، فكل من القاعدتين فاسدة من كل ناحية أما كيف ؟

فـــلأن قـــاعدة الوراثـــة تقضـــي بأن مخلوقا ما ، نطفيا قد تمثلت فيه الـــبروتوبلازم [١] ، على ناحية من النواحي بقى حيا ، وبعد أن ضاعف تكوينه الداخلـــي ، قـــد انقســـم فصار اثنين ، ثم انقسم الاثنان فصارا أربعة ، ثم انقسم الأربعـــة فصاروا ثمانية ، وهكذا إلى غير حد ، كما تفعل الخلايا الجسدية ، في كل كائن حي [٢] سواء أكان ذلك على سبيل الانـــفراد والاستـــــقلال ، أم على سبيل التلاقي والاجتماع .

فكل خلية حيوانية أو نباتية إنما تحتوي في نفسها ، وفي تقسيمها الباكر القـــدرة على إنتاج فرد كامل [٣] والخلايا نفسها باقية ، لكن إذا وقع لها حادث ،

---

(١) الـــبروتوبلازم عـــبارة عن المواد الحية في الخلية ، والخلية هي الوحدة الأولية في بنيان الجسم ، ومن ثم فهي أصغر كتلة حية تستطيع الحياة منفردة ، ولها القدرة على توليد مثيل لها وهـــي تشبه الذرة بالنسبة للمادة ، كما يمكن تعريف الخلية بأنها كتلة صغيرة من المادة الحية يحـــيط بها غشاء ، بلازمي ، في وسطها نواة – راجع للدكتورة / حكمت عبد الكريم فرحات – تشـــريح جســـم الإنسان ص ٩ ط دار الشروق للنشر والتوزيع – عمان الأردن ط الثانية ١٩٩٢ وراجع الدكتور أحمد زكي في سبيل موسوعة علمية ص ٦٠ ط دار الشروق الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـــ / ١٩٨٧م .

(٢) كرسي موريسون – العلم يدعو للإيمان ص ١٠٠، وراجع للأستاذ / نعمان فضلالإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص٦٥/٦٦ .

(٣) وهذا الاحتمال غير صحيح بل ولا مسلم ، ، لأنه لم تثبت صحته ، كما لم يقبله أهل العلم . لأن الغلبة أيا كان نوعها إنما تكون عاجزة عن تدبير أي شيء فيها وإنما الخالق المدبر هو الله رب العالمين .

أو صادفها تغير في الظروف التي لا قبل لها من ناحية المقاومة - مع أنها ذاتها الخلايا البسيطة في جميع المخلوقات من حيوانات ، ونباتات في الوقت الحاضر فإنهـا تكـون طبق الأصل من أسلافها [1]، التي كانت أصولا لها ، فأين توجد المطابقة بعد ذلك ، بل وأين دور المطابقة في هذا الجانب .

وبناء عليه فإن قاعدة المطابقة الإحيائية تخالف الاتجاه العام الذي قامت علـيه قاعدة الوراثة [2]، ولا يمكن أن تكون كل من القاعدتين صحيحة وخاطئة فـي نفس الوقت ، وإنما لا بد أن تكون واحدة منهما هي الغير صحيحة ، بينما تكـون الأخـرى صـحيحة فرضا ، أو أن تكون كل منهما خاطئة ، وفي كل الحـالات فإن هذا التعارض بينهما يؤدي إلى إسقاطهما معا، وذلك يجعلنا نهمل الأخذ بأي منهما ، وعدم الاعتراف بكل منهما على وجه علمي .

مـن ثـم يمكن القول بأن الأفكار التطورية الإحيائية الأشخاص الذين يعتمدون عليها في تفسير نشأة الكون ، وإنتاج الخلية الحية من المادة الصماء ، إنمـا تحتاج كلها إلى نوع آخر من التطور ، يعيد الأمور في عقولهم الغامضة إلـى القواعد الثابتة ، بدل الوقوف بها عند شاطئ الأفكار المتهاوية ، والأنماط الفكـرية التـي عرفت الاعوجاج ،ولم تتقدم خطوة واحدة نحو الاستقامة ، " بل يمكن القول بأن التطوريين قد أقاموا أبنيتهم "عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ حكيم ".[3]

---

(1) كريس موريسون – العلم يدعو لإيمان ١٠٠/١٠١.

(٢)على أساس أن المادة هي الأصل الذي قامت بين الكائنات وإليه ترجع دون احتياج لشيء آخر من قوة قادرة ، أو فاعل حكيم .

(٣)سورة التوبة الآيتان ١٠٩/١١٠

وفـــي تقديري: أن هذا التضارب القائم في القواعد التطورية الإحيائية ، مــا هو إلا علامة على أن القوم كانت في عقولهم أفكار مسبقة عن هذا التطور الخيالـــي ، لكنها لم تبلغ الجرأة في الإعلان عنها سلفاً ، كما أنها لا تبلغ درجة اليقيــن العلمـــي ، لكـــنهم لما رأوا أن ذلك يرفع رايتهم في وجه الكنيسة التي تطـــاردهم بأفكارها ، قرروا السير فيه باسم العلم ، وما كان ذلك ،إلا نوعا من الرغـــبة الملحـــة ، في مقاومة سلـــطان رجال اللاهوت ، حتى يرد اعتـــبارهم ،فـــي مواجهـــة محاكم التفتيش التي كانت سيـــوفها قائمة فيهم تنال من رقابهم وقتما تشاء .[١]

بـــل أن عمانويل كانت CANT هو الآخر قد كرر نفس الأفكار ، كما فعـــل داروين وأشياعه ، لكنه قال بالتطور الذي ينحصر في الأجناس الحيوانية وحدهـــا ، حيـــث قرر أن الإنسان منحدر من أصل حيواني ، وأن هناك أوجه تشابه عديدة بين الإنسان وبعض الحيوانات كالقردة العليا [٢] وإن هذا التشابه لا يمكـــن إنكـــارد أو إغفالـــه ، فكانت آراؤه نفس الآراء ، كما كانت دوافعه نفس الدوافع .أجل اعتبر كانت CANT نفسه زعيم التنويريين في أوروبا، إبان تلك الفترة [٣] كما ألف كتابه الأجناس البشرية ، حيث ألقاه في شكل محاضرات على طـــلاب الجامعة ، وكان غرضه من ذلك إعلان الأفكار التي نادى بها هو بغية النـــيل من الكنيسة ورجالها عن طريق العلم الطـــبيعي [٤] لا عن طريق الدين

---

[١] راجع كتابنا : قضايا حثيثة في الفلسفة الحديثة ص ٣٧ وما بعدها الطبعة الرابعة ١٩٩٨ .

[٢] عمانويل كانت CANT– الأجناس البشرية ص ١٧ . ترجمة يوسف منير ١٩٢١ .

[٣] راجع للدكتورة / نازلي إسماعيل – كانت والميتافيزيقيا النقدية ففي المقدمة كلام طويل واضح بهذا الشأن .

[٤] ومـــن ثـــم يمكن اعتبار عمانويل كانت – هو الآخر ، مشاركا لداروين في فكرة التطور العضـــوي التي عرفت باسم النشوء والارتقاء ، أو فكرة الانتخاب الطبيعي التي أحدثت دويا هائلا في اوروبا هزت معه القيم والأخلاق ، وأنزلت الدين اللاهوتي في النفوس منزلة الدرس

الذي تحتكر الكنيسة وحدها حق الحديث فيه ، وقــصره على رجالــها وحدهم بــل إنها فرضت على عقول الآخرين ضرورة قبول ذلك ، بغــض النظر عن كونه موافــقا للنتائج ، أم غير موافق لها .

الرابعة : الناحية الشرعية :

شرع الله رب العالمين نصوصا وتعاليم فيها الكفاية والوقاية ، لأن هذا الشرع من عند الله جاء ، ولتعاليمه تعالى حمل ، وهو في ذات الوقت الذي يقوم بالتطبيق على أوسع نطاق ، وما من أمة استمسك أفرادها بشرع الله ، إلا أنجاهم الله تعالى من كل مكروه ، وأبعد عنهم كل سوء ، وجعل الخير بينهم حيث كانوا ومــا من أمة تنازل أفرادها عن شرع الله ، إلا أوشك الله أن يعمهم بعذاب من عنده ، وفتنة تجعل الحليم فيها حيراناً .

وعن الصادق المعصوم ، سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال " أنــه ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قيل وما المخرج منها يا رسول الله، قال صلى الله عليه وسلم ، كتاب الله تعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله [١]

والقول بالمطابقة أو الملاءمة ، على النحو الذي قال به الإحيائيون يجعل الكائــن الحي المخلوق ، هو المسئول عن عملية التوافق مع البيئة ، التي لو فاز بها تحققت أهدافه ، وإذا لم يتمكن من الفوز فقد تساقــطت عنه أهدافه ، كما يتساقط عن الشجر الورق في الخريف ، وصار الفشــل قرينه ، إن لم يكن

= والبحــث ، بحيــث لــم يعد له مكان في صدور أصحابه ، راجع كتابنا خواطر حثيثة في الفلسفة الحديثة ص ٢٨٦ وما بعدها .

(١)الشيخ / محمد محمود عبد العظيم – الأصول الفقهية والأحاديث النبوية ص ١٩٥ المطبعة المليجية بالقاهرة سنة ١٣١٥هـ .

هو العلامة الدالة عليه .

وبالتالـــي فـــلا مكان عنـــدهم للقول بوجـــــود قوة غيبية تقوم بهذا الدور وغيره ، أو توجه إليه ، ونحن المسلـــمين لا نرتضي ذلك أبدا ، كما لا نقبل هذا الخيال الجامح ، لأنه يحمل بين جنباته الكفر الطافح - أما لماذا ؟ فلما يلي :

١- جـــاءت النصـــوص الإســـلامية في القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة الصحيحة ، بإثبات استناد الكائنات كلها إلى الله تعالى ابتداء وانتهاء ، فكـــل شيء منه تعالى ، وراجع إليه جل شأنه ، مع بيان أن الأسباب والمسببات وارتباطها ببعضها ، إنما هو أمر عادي ، يمكن تخلفه [١]، متى أراد الله تعالى ذلك ، حتى يفتح الباب لخوارق العادات [٢] التي تجري بإرادة الله تعالى وقدرته في مجال إعلان نبوة النبي [٣] ، وتصديق المبلغ عن الله تعالى ، وبيان مقام أهل

---

(١)وبهـــذا لا يمكن تصديق القائلين بان علاقة الأسباب بالمسببات علاقة حتمية ، لأن فكرة العلية والحتمية العقلية الضرورية لا يمكن أن تفرض على أحكام برب البرية .

(٢)خوارق العادات تسعة على وجه الإجمال هي ١- المعجزة ٢- الكرامة ٣- الفراسة ٤ - الإرهاص ٥ - المغوثة ٦- المعونة ٧- السحر ٨- الإهانة ٩- الاستدراج ، راجع تفاصـــيل ذلـــك في كتابنا : الإيمان الغيب وأثره على الفكر الإسلامي ، الطبعة الرابعة أثناء الحديث عن علاقة الغيب بالسمعيات .

(٣)وذلك كالمعجزات والإرهاص فإن الإرهاص تأسيس لدعوى النّبوة ، أما المعجزة فإعلان صيح عن صدق ذلك النبي في دعواه وخالف في بعض ذلك الإمام ابن تيمية راجع الجواب الصحيح لمن بدل دين المسح ج ٤ ط المدني .

الصـــلاح ومنزلـــتهم عـــند الله رب العالميـــن [١] ، كما قد تحي مع أهل الفساد استدراجا لهم ، وفضحا لأحوالهم[٢].

مـــن ذلك قوله تعالى : " وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِـــرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ "[٣] " صدق الله العظيم .

فالله وحده الذي يخرج الحي من الميت بقدرته ، وعلمه تعالي وإرادته ، وهـــو جـــل جلاله الذي يخرج الميت من الحي متى أراد ، وكيف أراد ، وهو ســـبحانه وتعالى الذي يحي الأرض الموات بفضله ، وكرمه وجوده وعدله مع واسع فيضه ورحمته ، ويخرج الإنسان والحيوان من التراب ، ويشكل صورته متمـــيزة عن غيره من أنواع الكائنات الأخرى ، في أي موقع كان ، وأي زمان إذ لا عبرة عنده بالزمان والمكان ، وإنما هو فوق ذلك كله لأنه الخالق له .

قـــال تعـــالى : " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ " [٤]، ثم جعل أنساله تجـــري فـــي أبـــنائه وأحفـــاده كما تجئ في ذريته من بعده ،" ثم إذا أنتم بشر تنتشـــرون " ، وهو سبحانه الذي أفاض على الكائنات كلها من جوده وكرمه ،

---

[١] كالحال مع الكرامة ، والمعونة ، والمغوثة ، فإنها جميعا تكون مع أهل الصلاح لرب العالمين وكل منها له تعريف ومفاهيم ، وأقسام وتنوعات ، وقد أفاض في الحديث عنها أهل الإسلام ، وامتلأت بها المصادر الكلامية والتفسيرية بل والحديثة والتصوفية أيضا .

[٢] كالحال مع الإهانة والاستدراج فإن كلا منهما فيه استنزال من قدر صاحبه ، وإثبات خذلانه ، إلا أن الإهانة تكون مع مدعي النبوة الكاذب أما ا لاستدراج فإنه يكون مع مدعي الألوهية الكافر .

[٣] سورة الروم الآيات ٢٠/٢٢ .

[٤] سورة التين الآية ٤ .

فسبح الملكوت بعظمته ، ونادت الكائنات كلها بوحدانيته ، قال تعالى:" تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا " .[١]

ثم إنه سبحانه وتعالى هو صانع كل مصنوع وصنعته ، كما يخرج المتناقضات من بعضها ، الحي من الميت ، والميت من الحي ، فإنه يجعل بعضها تسعى خلف البعض الآخر ، " يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل " ، وكل ذلك بفضله تعالى وعظمته ، "لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون " .

كما أنه تعالى يجعل المتناقضات تتلاقى ، فيتحقق ببعضها من الغايات العظمى ، والأهداف الأسمى بجانب الخير الكبير[٢]، قال تعالى : وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"[٣].

والكثير من الآيات القرآنية ،والأحاديث النبوية دالة على ذلك ، كما جاءت كلها توضح استناد الكائنات جميعا إلى الله تعالى ، وحده في وجودها

---

[١] سورة الإسراء الآية ٤٤.

[٢] قال تعالى:" الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" يس الآيات ٨٣/٧٩ .

[٣]سورة الروم الآيات ٢٧/٢٣ .

وعدمه ، في مطابقتها أو عدم مطابقتها ، أنه سبحانه وتعالى صاحب الحول والطول ، صاحب القوة والبأس ، صاحب الإرادة المخصصة ، والقدرة النافذة لا راد لقضائة ، ولا ناقض لقدره ، وهو سريع الحساب ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

٢- إن عملية المطابقة على الناحية الداروينية ، تستلزم الاعتراف بمبدأ خطير للغاية ، وهو عقلانية الطبيعة التي تتجلى في وحدتها وتناسقها وانسجام أشيائها بعضها مع بعض [١] ، وهذا في حد ذاته ، قد أتى عليه النقل المنزل من ناحية ، حيث ذكر أن الأرض تمد قال تعالى: " وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ " .[٢]

كما أن السماء فيها التبدل المتواصل ، والامتداد مع السعة ، قال تعالى : وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [٣] ، وكذلك الحال في كل الكائنات ، من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، مما يدل على أن الكون كله مسخر بأمر الله تعالى ، فلو كانت الطبيعة عاقلة ، كما زعموا لما أمكن تطويعها بحيث ترى الأرض هامدة ميتة بالمشاهدة ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وانتفحت بالنبات ، دلالة على أن لها خالقا ، قادرا مريدا عالما ، له من صفات الجلال والكمال والجمال والإكرام أعلاها .

---

(١) الدكتور / محمد سعيد رمضان البوطي – نقض أوهام المادية الجدلية ص ١٩٨ ط دار الفكر سورية .

(٢) سورة ق الآيتان ٧/٨ وقال تعالى : والأرض بعد ذلك دحاها سورة النازعات الآية ٣٠ .

(٣)سورة الذاريات الآية ٤٧ ، ٤٨ .

٣- إن القول بالمطابقة الإحيائية مخالف لظواهر المشاهدة [١] كما تهدمه الوقائع السليمة الثابتة ، لقوله تعالى: " وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدةً ولا يزَالُونَ مُخْتَلِفِين " [٢] وقال تعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء ماء فأخرجنا بِهِ ثمرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُها ومِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوانُها وغرابيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ". [٣]

مما سبق اتضح أن فكرة المطابقة التي قال بها الإحيائيون لا تقوم على دلـيل ، وإنمـا هي خيال غير قابل للتطبيق العملي في أية ناحية أو جانب من الجوانب .

ثانيا : التباين [٤] والتحول :

تعتـبر فكرة التباين أو التحول الإحيائية من أبرز الأفكار التي صاحبت ظهور النظرية التركيبة الحديثة Modern Synthetic Theory والتي يطلق

---

[١] بدليل أن الإنسان الأول الذي عاش على أورق الأشجار ، ومهمة صيد الأسماك لم يطل ذراعـه ولا طالـت قامته ، كما أن الذي عاش في الفحم والمناجم لم يقصر أحد أطرافه عن الآخـر ، وكذلك الحال في الحيوانات ، فلم يقل أحد أن الحمل الوديع تحول سبعا أو ذئبا ، أو أن الذئـب صار أسدا ، ولم يقل أحد أن البعير صار زرافة ، أو أن الزرافة تحولت إلى بعير أبدا أنها من أصل الخلقة على ما هي عليه فتبارك الله أحسن الخالقين

[٢] سورة هود الآية١١٨

[٣] سورة فاطر الآيتان ٢٧/٢٨.

(٤)التبايـن نوعان الأول في الأنواع ويسمى التباين العام ، الثاني في الأفراد ويسمى التباين الخاص

علـيها البعض اسم الداروينية الحديثة [١] ، ومن المؤكد أن فكرة التباين أو الـتحول معـناها وجود صفات مشتركة ، وأخرى مستقلة ، بين كافة أفراد النوع الواحد ، لكن ما به يتمايزون أكثر مما فيه يتشاركون ، كما أن هذا التباين كـان ذا أثـر كبـير في ظهور الأفكار التطورية الإحيائية ، ومن ثم فقد لزم الحديث عن هذه الفكرة الفكرة – التباين والتحول – من جوانبها المختلفة .

أ ـ عرض الفكرة :

يرى التطوريون الإحيائيون أن الكائنات الحية أنواع ، وكل نوع منها له أفـراده الخاصـة بـه ، لكـن هذه الأنواع والأفراد يحكمها ناموس ثابت من النواميس العامة الإحيائية أطلقوا عليه اسم ناموس التباين والتحول .[٢]

ومعـناه أن الصـفات المشتركة في الكائنات الحية ، ليست في الجميع علـى قدر سواء ، بمعنى أنه توجد بين الكائنات الحية قوائم مشتركة ، إلا أن هـذه القاسـم المشتركة ، فيها طبيعة السعي نحو التغير أو الميل إليه ، وتظل عملـية المـيل إلى التغير ، آخذة في هذا الطريق حتى يتم التحول ، في بعض الصـفات [٣] ،ثم لا يلبث ذلك التحول البسيط ، أن يكون تباينا كبيرا ، وتحولا واضحا ، ومن ثم فهم يعرضون هذه الفكرة ، من خلال ما يلي :-

---

(١) تقوم الداروينية الحديثة على كل من ١- الطفرة ٢- الاختلاف ٣- التوارث ٤- التباين بين الأفراد ٥- العزلة ٦ - النوع ، ولها عوامل داخلية من أبرزها ١- الوارث ٢ - التكاثر ٣- التكوين ولها عوامل خارجية من أبرزها ١- البيئة الطبيعية ٢- البيئة الصناعية ٣- الظروف المعيشية .

(٢) الدكتور / عبد العظيم السيد فرج – النواميس التطورية ص ٨٧ وراجع للدكتور / حسن محمد رزق – الفلسفة الحديثة ص ١٤١ .

(٣) إذن التطوريون يرون أن عملية التحول هذه لا تقوم على القصد والغاية ، وإنما تقوم على العشوائية وهذا زعم خاطئ .

١ - إن الكائـــنات الحية جميعا تشترك في حواص بعينها ، منها ما يكون عامـــا في كل الأنواع ، ومنها ما يكون موضوعه أفراد النوع ذاته [١] ، وهذا يـــؤدي إلـــى وجـــود قاعدة عامة ،مما يجعل الحكم بأنها جميعا متشابهة أمرا مقبولا.

٢ــ إن هذا التشابه بين الأنواع ، أو بين أفراد النوع الواحد، ليس على معنى المطابقة التامة ، أو التشابه الحقيقي من كل الوجوه [٢] بدليل أن توأمين أو أكثر ، متى فحصت أحوال كل منهما ، تبين أن هناك فروق ضئيلة جدا ، لكنها موجودة ، في شكل من الأشكال أو صورة من الصور .

بمعنى أن هذه الاختلافات بين الأنواع او الأفراد أو الفروق الضئيله. التي انحرفــت عن الأصل ،قد تكون خاصية من الخواص ، أو صفة من الصفات ، أو عرض من الأعراض القارة أو الغير قارة ، كاللون أو الشكل ، من الأبيض أو الأســمر، أو غير ذلك ، أو من الشكل كطول الوجه ، أو الأطراف [٣]، كما قــد تكــون هــذه الاختــلافات في القوة والضعف ، في ضخامة الاعضاء أو نحافتها .

٣- إن كـــل كائن حي لابد أن يعقب كائنا حيا متفقا معه ، اتفاقا يكاد أن يكـــون تاما من جميع الجهات ، لأن قوانين الوراثة تستلزم ألا يعقب الحي إلا مـــثله ، وهـــي قوانين عقلية حتمية ، لا يمكن أن تتخلف أبدا ، وإلا ظهر نسل يحمـــل هذه الاختلافات أيضا [٤] ، بمعنى أن كل كائن حي يعقب شبيها له، في كل الصفات الأصلية الجوهرية ، وبينهما تمام المشابهة .

---

[١] - أ - ب طومسون - تطور الكائن الحي مع البيئة ص ٢٣٧

[٢] البرت توماس هيلد - التطور والقوى المنظمة له ص ١٧٧

[٣] هده الفروق قائمة ولا يمكن إنكارها بحال من الأحوال.

[٤] الدكتورة / وفاء عبد العظيم - التطورات البيولوجية في الحيوان ص ١٦٩.

ثـــم إن الاختلاف قد يكون جزئيا غير محسوس أول الأمر ، ثم ما يلبث هــذا الاخـــتلاف الجزئي القليل أن يتحول إلى اختلاف أكبر منه ، ويظل ذلك التحول آخذا في التنامي حتى يبلغ مداه ، ومن ثم فالتباين يعقبه التحول ، وكل منهما يكمل الآخر بطريقة من الطرق ، أو صورة من الصور .

٤- إن إحــداث تبايــنات بين النباتات أمر ثابت بالمشاهدة ، حيث يقوم الإنسان بعملية التهجين الوراثي [١] ، وبالتالي يحدث نوعا من التباين ، بطريقة ملحوظـــة في آثارها وما يتعلق بها ، وإنكار هذا الفعل في النباتات، يمثل نوعا من المكابرة .

وكذلك الحال بالنسبة للحيوانات ، حيث استطاع الإنسان إحداث أنواع من التعديلات والتباينات في حيوانات التجارب ، من خلال منظومة دقيقة ، تقوم في أصلها على التعامل مع السلالات ، من خلال التجارب العملية ، وهو ما عرف باسم الانتخاب الصناعي .

٥- إن العلمـــاء الإحيائيين ، استطاعوا استخدام الانتخاب الصناعي مع الحيوانات المستأنسة ، وبصفة خاصة حيوانات التجارب مثل الفئران والأرانب وغـــيرها ، فظهـــرت تـــنوعات كثيرة ، وتباينات متعددة نتج عنها الكثير من الســـلالات التـــي يمكن نسبة إنتاجها إلى الإنسان نفسه ، وأمكن له تفسير هذه الاخـــتلافات أو التبايـــنات ، على أنها اختلافات متوارثة [٢] ، وأنها بسيطة جدا وفـــوق ذلك يمكن اعتبارها مظاهر لمواد أولية ، أو النظر إليها على أنها مواد أولية لعمليات التطور في الطبيعة ذاتها .

---

[١] وقد يتم ذلك كله عن طريق تدخل الإنسان وهو ما يعرف بالانتخاب الصناعي الذي يقوم به الإنسان نفسه .

[٢] الأستاذ/ نعمان فضل – الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص٨١.

٦–أن هذا التباين الناشئ عن الانتخاب الصناعي - في الحيوان والنبات يمكن إحداث مثله في عالم الإنسان ، أذ لا توجد فروق أساسية بين جمله الكائنات الإحيائية،وإنما هي فروق اعتبارية يمكن التغلب عليها والتعديل فيها[١]، على اساس أن كل نسبة مئوية قابلة للتعديل في جزئياتها ، بدليل ان هذا التغاير واضح فـي النبات ، كما هو ظاهر فى أفراد الحيوان والإنسان أيضا ، حتى صار حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها .

٧- إن هذا التباين قد يكسب بعض الأفراد ، داخل في النوع الواحد ميزة ذاتية على غيرها من ذات النوع ، وهذا في حد ذاته يجعل الغلبة لبعض الأفراد على غيرهم في معركة التنازع من أجل لبقاء[٢] ، بل إن هذا التباين يقف حائلا في وجه الظروف الطبيعية [٣] ، ما دام افرد ذاته قد منحته الطبيعة نفسها جملة مـن الصفات القوية ، التي تجعله على وفاق مع الطبيعة ، بجانب القدرة على تطويـع تلـك الظـروف لصالحه ، حيث لا يبقى في الصراع الا الأقدر على مواجهة الظروف البيئية .

وما دامت التمايزات بين الأفراد فى النوع الواحد قائمة على هذه التباينات التـي تحسـم الصراع ، لصالح من وحدت عنده ، فإنها تنفع من ظهرت عليه لأنهـا ستسـمح له بمـزيد مـن الحركة السريعة بجانب القوة ، والقدرة على

---

(١) الفرق بين الفروق الفردية والفروق الاعتيادية كبير جدا ، لأنه يجئ من جهات متعددة .

(٢) الدكتور / محمد السيد يونس – الفلسفة الحديثة والقوانين العلمية ص ١٢٧ ط دار المههند ١٩٨٧

(٣) كأن الطبيعة هي التي تعطي وتمنع ، أو تعلي وترفع ، ولا مجال لشيء اخر وهذا هو الكفر بالله رب العالمين .

الانطـــلاق الســـريع [١]، يســـتوي في ذلك أن يكون هذا التمايز في أصل ذي المخلب أو الناب ،أو من أصحاب القدرات الأخرى ، والملكات المتنامية .

٨- إن هذه الامتيازات الناجمة عن الاختلافات ، تمنح من وقعت له حدة في الأنياب ، وقوة في المخالب ، كما تمنحه قدرة على اكتساب صفات جسدية تساعده على التفوق والغلبة [٢] ، كما تقدم له عوامل البقاء ، بل إنها تجعل الفرد – أيـــا كان نوعه – أطول عمرا ، وأفضل صحة ، وأقدر على كسب المنافسة لصـــالحه عـــند التنازع مع الآخرين ، وبخاصة تلك التي تدور من أجل كسب رفيقات الجنس ، من ذات النوع .

حيث قد ثبت أن هذه المحاولة يقوم بها الحيوان ، في صورة من الصور بـــل تظهـــر أكـــثر في الفصيلة الكلبية يستوي في ذلك الحصان ، والحمار ، والأرنب والفأر ،فكل من ذكورها تعمل جاهدة على كسب رفيقاتها من الإناث ، تلبـــية لاحتـــياجات غريزية ، غايتها العمل على بقاء النوع [٣] الذي يتمثل في الأبناء والأحفاد لأفراد كل نوع . .

وحيث يستمر الصراع بينها قائما ، بغية الحصول على شيء من ذلك فإن الفرد الذي يعجز عن الوقوف على تباينات ملائمة ، يقع في إعاقات مستمرة ، وبالتالي قد يموت دون أن يبلغ غايته ، وقد يلتهمه الآخرون ، وربما صار في صـــراع حتى تنتهي حياته [٤] دون أن يحقق أي لون من الفوز ، أو يحرز أي

---

[١] الأستاذ / نعمان فضل – الإحيائيون ومشكلاتهم الشخصية ص ٩٩ ..

[٢] الدكتور / محمد السيد يونس – الفلسفة الحديثة والقوانين العلمية ص ١٣٠ .

[٣] الدكتور / محسن محمد السعيد – الكائن الحي والبيئة ص ٧٨/٧٧ .

[٤] لا شك أن هذه التصورات تعتمد على خيالات أصحابها ، ولكن لم يقع على شيء منها التجريب .

تقدم ، وما ذلك إلا لأنه لم يحصل على تباينات كافية ، واختلافات أو تحولات تقف لصالحه .

٩- إن اختلال التوازن الحيوي الوراثي المتواصل ، يؤدي إلى الانحراف الوراثـــي أيضا . لكن التباينات المنضبطة تؤدي إلى التحولات المقبولة ، التي تســير في اتجاه صحيح ، وهذا التباين يقدم للأفراد في كل نوع ، القدرة على التكـــيف التام مع الظروف البيئية المختلفة [١] ، وذلك من شأنه المساعدة على إحراز النجاح في الحياة، مهما تغيرت الظروف والبيئات ، إذ الاحتمال بوجود أفـــرادا قادرين على الحياة في الظروف المختلفة ،يعتبر ناتجا عن التباين [٢] ، وبالتالي فإن التباين في الكائنات الحية ، هو الذي يقوم عليه التغير والتحول .

ويعـــتقد الـــتطوريون الإحيائـــيون أن التباين نوعان ، تباين عام في كل الأنواع ، وتباين في أفراد كل نوع ، ولكن هذه الأنواع كلها تتقابل مع بعضها ، مـــتى نظر إليها من زاوية أنها الأساس الذي يقوم عليه التحول ، بجانب قدرة الفرد أو الكائن الحي على المغالبة ، ورغبة في الانتصار .

بـــل إنهم اعتقدوا أن ميل الكائنات الحية إلى التباين أمر ذاتي فيها ، يقوم علـــيه الـــتحول مـــن الأصول إلى الفروع ، وأن لذلك دخلا كبيرا في عمليات الـــتطور التي تتم ابتداء على أفراد النوع الواحد [٣] ، وذلك من شأنه أن يؤدي إلى استحداث أنواع جديدة من الكائنات ، التي ليست لها صور قائمة .

ومن ثم ذهبوا إلى أن التباينات إنما هي أنواع لم تنضج بعد ، ثم تنهض علـــى هذه ، الأنواع المستحدثة تباينات أكثر وضوحا ، ثم تتقدم وتتطور حتى

---

[١] الدكتورة / هدى السيد عبد العظيم – الفلسفة الحديثة وأعلامها ص١٧٥ ط ثانية .

[٢] الدكتور / محسن محمد السعيد – الكائن الحي والبيئة ص ٨٥ .

[٣] الدكتورة / هدى السيد عبد العظيم – الفلسفة الحديثة وأعلامها ص ١٧٩ .

تبلغ الغاية في الوضوح والثبات ، بما لا يدع مجالا للشك فيها ، أو الاعتراض عليها .

ثم انتهوا إلى أن ذلك تم كله بطريقة آلية ميكانيكية ،تقوم به الطبيعة ذاتها مـن غير احتياج لشيء خارج الطبيعة ، أيا كانت صورته أو مظهره ، فالحياة هكـذا وجـدت ، وهكذا تستمر [1] ، ولا شيء بعد ذلك يمكن حسبانه عليه، أو التعامل معه بعيدا عنها .

ب – مناقشة الفكرة :

لا شك أن مسألة التباين أو التحول بين الأفراد والأنواع ليست محل جدل من حيث هي ، بدليل انه لا يوجد فردان من نوع واحد ، متشابهان تمام التشابه إذ أن فكرة الذكر والأنثى أ، الذكورة والأنوثة من حيث هي أوصاف ذات عامل هـام فـي بيان الفرق [2] ، كما أن العوارض المختلفة من الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وقيام ذلك على النسبية ، يحكم بوجود تباينات كثيرة بين أفراد النوع الواحد .

كما أن مسألة انتشار الأعراض من الطول والعرض ، واللون وطبعة الدم بجانـب القـدرات العقلـية والنفسية ، الآمال والأحلام ، ثم الحركة والانتقال والكـون أو الكمـون ، بجانب المرحلة العمرية والذهنية ، كل هذه الأعراض تمـثل جانبا هأما من جوانب التفرقة بين أفراد النوع ، وتعبر عن تباين واضح بين الجميع .

أضف إلى ما سبق أن فكرة العدد ، تجزم هي الأخرى بأن كل جزء من أفـراد أي نوع ، لا يمكن أن يكون هو الآخر ، لأن كل فرد من أفراد أي نو ع

---

(١) الأستاذ / نعمان فضل – التطوريون ومشكلاته الشخصية ص ١٧٩ .

(٢) واللغة المنطوق بها شاهدة على أن الذكر ليس هو الأنثى أو هذا مما لا يمكن إنكاره .

يمثل وحدة حسابية مستقلة[١]،أو يمثل الواحد العددى في أكمل صورة،إذ لا يمكن حسبان فرد برقم ، وحسبان الثاني بآخر ، إلا بإضافة المكان أو الزمـــان لكـــن التباين والتحول في الداروينية لها خطورتها على العقيدة والدين والعلم والشـريعة ثم الأخلاق ، ومن ثم سأعمل على مناقشتها من خلال الجوانب الآتية:

الجانب الأول : الدليل الإحيائي:

١ ــ يقرر الأحيائيون أن التباين في الكائنات مسألة بدهيـــة ، ثابتـة بالبرهـــان العلمي، فالكائنات الحية النباتية مثلا ، تباين الكائنات الحية الحيوانية ، والإنسانية تباين كلا منهما مباينة كاملة ، وإلا قلنا إنها جميعاً شئ واحد[٢] وهذا يدل دلالـــة أكيدة على أن النظام الذي يعمل في هذه الكائنات ، إنما هو نظام يسير في أحكام تام ، ودقة متناهية ، فوق كل الإمكانيات العقلية[٣]، ومن شأنه الاستناد إلـــى الله تعالى في كل شئ لا إلى الطبيعة العمياء .

٢ ــ أن المنظومة الحيوية تمثل خصائص نوعية واعية ، في كل أفراد النـــوع الواحد ، فلا تنتج بذرة البرسيم قمحاً ، ولا بذرة الذرة قصباً ، ولا بذرة الحنظل شهداً،وإنما كل بذرة تماثل أصولها في جانب من الجوانب ، وتخالف غيرها تمام المخالفة،بحيث يكون الحكم قائماً على استحالة أن تقـــع بينـــها وأصلـــها تمـــام المشابهة[٤] .

---

(١) وهذا الفهم يجرى في أنواع الكموم المنفصلة والمتصلة على السواء .

(٢) الدكتور محمود حسن صبرى ــ هذا خلق الله ص ١٧٧ ط أولي دار الصحوة العلمية ١٩٦٧ وراجـــع للأستاذ / على فكرى ــ القرآن ينبوع المعارف والعلوم ص ٣٧٤ ، وللدكتور / زكي محمد فاضل ــ تطـــور الكائنات الحية ص ١٦٥ .

(٣) وهذه الدقة والنظام إنما تقوم في سنن الله الكونية ، وليس من السهل أن يقوم هذا الإحكام البديع علـــى العشوائية أو المصادفة ، وإلا اختل النظام وسقطت جملة الموجودات .

(٤) وهذا جانب مهم جداً ، فأفراع الإنسانية يشتركون في أصل واحد ، ومع ذلك يتباينون في العـــدد مـــن الوجوه .

بل إن أنثي الأرنب مثلاً لا تلد جرواً ، ولا تلد أنثى البقر فرساً ، أو أنثى الأسد حملاً ، كما أن عملية النزو بين هذه الأنواع غير واقعة في شئ منها على سبيل الانتظام،أو الاطراد،فضلاً عن أن تكون على وجه الكمال والتمام،لاختلاف الأجهزة التناسلية في كل منها، لكن مرد ذلك لا يمكن أن يكون للطبيعة العمياء الجاهلة ، أو البيئة ذاتها،لأنها أعجز من أن تفعل ذلك أو شيئاً قريباً منه ، وإنما تقوم به قوى لها المقدرة عليه[1]، وهي قوة الله عز وجل .

يقول فلوت : لست اعتقد قدرة الطبيعة ، على أحداث تباينات دقيقة ، في الكائنات ، ولكني أقول بكل قناعة أن الذي نظم ذلك كله ، ويقوم به على وجه دقيق هو قوة غير واقعة في نطاق الطبيعة ، ومن ثم فلا يمكن دراستها من هذا الجانب الطبيعي ، أو التعرف عليها من خلال النظر الدقيق في عمل هذه القوة[2]

ويقرر الدكتور الجمل : أن غاية هذا الناموس،بيان أمرين بديهيين ، يتعلقان بما ذكر ، من أن الحي لا يعقب حياً مختلفاً عنه تماماً ، ولا شبيهاً به تماماً ،ففي هذا القانون لا يتأتي أن تلد الفرس كلباً ، ولا الفيل أرنباً ، وهذا أمر بدهي ، ولا يتأتي كذلك أن تلد الفرس فرساً شبيهاً بها تمام المشابهة ،إلى الحد الذي لا يتمكن صاحبها من إدراك الفرق بينه وبينها،وهذا أيضاً بدهي، أي أنهما أمران مدركان بالمشاهدة للعالم ، والعامي على حد سواء[3].

أما لماذا ؟ فلأن حقائق الأشياء ثابتة على النحو الذي خلقها الله تعالي فيه ، باعتبار المناسل،طبقاً لقاعدتي الأصلاب والأرحام ، إذ مادام الأمر متعلقاً بالنتاج

---

(١) الوت توماس هيلد — التطور والقوى المنظمة له ص ١٩٥ ترجمة ناصر عبد الكريم العرقسوس ط رضا الحلبي — دمشق ١٩٥٧ م.

(٢) الدكتور فرانك توماس فلوت — التطور والأطراد ص ٧١ ترجمة فؤاد زكي طبعة دار الفكر بيروت ١٩٨٣م .

(٣) الدكتور / أحمد عبده حوده الجمل — في المذاهب المعاصرة ص ٢٣٣

وهو لا يكون إلا من سببين فأكثر بالنسبة للتكاثر الجنسي[١]، فإن سنة الله في خلقه اقتضت وجود المشابهة مع التباين ، بين ناتج أفراد أى نوع بالنسبة للأصول التي قام عليها .

فلا المشابهة التامة على وجه المطابقة في الوراثة هي القائمة ، ولا التباين من كل ناحية هو المقصود ، وإنما هناك موازنة قائمة على أسس صحيحة ، تعبر عن قدرة الله تعالى ، وكامل علمه وإرادته[٢]، ومن ثم فلا يوجد فردان متشابهان تمام التشابه ، حتى لو كانا توأمين من نوع واحد .

٣ — أن الانقسام الميوزي للكائنات الحية التي يقع فيها التكاثر الجنسي ، يعتبر هو المصدر المتجدد للتغير الوراثي ، خلال ما يتم أثناء العبور من تبادل لبعض أجزاء الصبغيات المتزوجة ، وهذا معناه عدم وقوع التشابه التام من كل ناحية ، وإنما معناه وجود نوع من التباين والتحول في الجينات[٣]، وبالتالي يتم توزيع هذه الصبغيات المتزاوجه ، على الخلايا الناتجة .

وهذا التوزيع المشيجي الناتج عن التكاثر الجنسي ، يؤدي إلى أحداث تغيرات مستمرة،في صفات الأجيال المتوالية،بحيث يحقق ذلك نوعاً من الملاءمة

---

(١) وكذلك الحال في التكاثر اللاجنسي ASEXUAL REPRODUCTION الذي هو عبارة عن انفصال جزء من الجسم ، سواء أكان خلية جرثومية واحدة ، أو جملة خلايا ، أو أنسجة وغيرها،بحيث يتحول إلى فرد جديد يشبه الأصول التي انفصلت عنه تماماً ، وتستمر صفات الأجيال الناتجة بهذه الطريقة ، حتى وان تغيرت البيئة حولها ، فإذا حدث تغير في تلك البيئة تعرض معظم النسل الناتج للهلاك ما لم تكن اباؤهـا قد تأقلمت على ذلك التغير ، وهذا التكاثر شائع في عالم النبات ، ولكنه يقتصر على بعض الأنواع البدائية في عالم الحيوان ، إذن التكاثر لا ينتج صوراً متشابهة تمام التشابه ، ولا مختلفة تمام الاختلاف .

(٢) وعلى هذا الجانب جاءت آيات القرآن الكريم ، وسنة النبي الخاتم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم — بل كل العقلاء على هذه الناحية تجئ تأكيداتهم ، وأهل الإيمان بالله رب العالمين هم أهل النجاة .

(٣) البرت توماس هيلد — التطور والقوى المنظمة له ص ١٩٧ ، الدكتور فرانك توباس فلوت — التطور والاطراد ص ٧٥، ٧٦ .

بين الكائن الحي والبيئة التي يعيش فيها ، ويمهد لتطوير الحياة،والانطلاق نحو المستقبل[١].

٤ ــ أن هذه العمليات التخليقية لا تخلو من القصدية والغائية ، إذ لو خلت منهما لما أمكن لها أن تتفاعل مع بعضها بشكل متواصل ، لأن ما يقوم على الفرضية أو العشوائية لا يطرد ، ولا يمكن النظر إلى الكائنات الإحيائية ، والتباينات القائمة فيها،دون اعتبار لعامل هام ، وهو الغاية والقصدية ، التي تحكم النظام الحيوي على وجه دقيق.[٢]

بناء على ما سلف فإن الله هو الذي يحدث ذلك كله ، وليس ذلك من صنع الطبيعة ، كما أن هذا لا يكون ناتج الأفراد أنفسهم ، وإلا اختارت الظبية أن تلد أسدا يدافع عنها ، واختارت الغزالة سبعا يحمي مخدعها ، واختارت الكائنات الحية كلها ما يحقق لها الأمن ، ويدفع عنها العدوان ، لأن ذلك ابسط المتطلبات الحياتية ، وأوجب معالم حب البقاء .

الجانب الثاني : الدليل العقلي :

العقل السليم ، والفطرة النقية ، تقبلان على ما فيه الخير والمصلحة ، وفي نفس الوقت فإن ما تجئ معه النتائج الإيجابية تزداد النفس إقبالا عليه ، وانطلاقا نحوه ، وفكرة تباين الكائنات وتحولاتها مما تقبل عليه النفس من ناحية الدراسة لأنه يكشف حقيقة هامة ، وهي إنها مع اختلافاتها الكثيرة ترجع جميعها إلى

---

(١) مثال ذلك الإنسان فإن به قرابة ثلاثة مليار خلية جسدية ، لكنه يقوم في أصله على خلية تناسلية عمادها ٢٣ من الصبغيات قادمة من الأب ، ثم تلتحم هذه مع ٢٣ قادمة من الأم فتكون خلية جسمية قوامها ٢٣ زوجاً من الكروموسومات ، فإذا أراد الله إتمام الخلق أمكن لهذا الكون الصغير إنتاج أكثر من من ٨ ملايين من الأمشاج المختلفة في المحتوى الوراثي بناء على توزيع تلك الصبغيات على الأمشاع الناتجة ، بالاضافة إلى الاتحادات الجديدة الناتجة عن عملية العبور الصبغي .

(٢) الدكتور / محمود حسن صبري ــ هذا خلق الله ص ١٩٨ .

الله تعالى ، وليس إلى شئ آخر ، وبناء عليه يمكن القول بما يلي:

١ ــ أن التطوريين لم يتمكنوا حتى الآن ، من تقديم تفسير مقبول لعلة التشابه بين الكائنات الحيوية ، ولا كذلك سبب التباين ، وهذا في حد ذاته يكشف عن طبيعة العقلية التي حاولت اقتحام ميدان كهذا ، دون أن تكون لديها استعدادات للبرهنة على انتهاء التباينات عند منطقة بعينها[١]،أو وقوفها بمرمى هدف معين.

والسؤال العقلي الآن: ما هو طريق البرهنة ــ لدى التطوريين ــ على أن التباينات لا تقف عند حد معين ؟ أو لها حد تقف عنده، وراء الأنواع التي يشتق بعضها عن بعض ، لأن حكم الوجدان والبداهة حاصل في التغيرات العارضة الطفيفة[٢]، وأنه ربما اشتدت تلك العوارض ، أو ضعفت،إذا انتقلت إلى الأعقاب بالوراثة ، ومرت عليها أزمنة طويلة ، فيكون آخر أعقاب الرجل الأبيض أشد بياضاً، بكثير من أجداده الأول، أو يكون أقصر من جده الأول أو أطول[٣].

ومعنى هذا أن العقل يحكم بعجز التطورين عن تقديم تفسيرات لوجود العوارض المتباينة ، وهي التي تمثل جانباً ضئيلاً ، أو جزءاً يسيراً من الفكرة المتنازع فيها يقول بلوت : أن العقل الصحيح لا يمكنه تقبل فكرة التباين والتحول،دون أن تثور في وجهه مشكلات عديدة ، وسوف لا يجد إجابة مقنعة ، أو تفسيراً يمكن الاعتماد عليه ، بحيث يكون بعيداً عن النقودات الكثيرة[٣]التي تجئ على الفكرة فتنقضها من أصولها .

ويقول هيرار : أن الطبيعة قد نظمت عقولنا على أن تستوعب الكثير من

(١) وهذا يكفي لإثبات أن القول بالتطور الأحيائي ليس صحيحاً بالنسبة لأولئك الذين قالوا به أيضاً

(٢) الدكتور / محمود حسن صبري ــ هذا خلق الله ص ١٩٩ .

(٣)الدكتور محمد رضا الأصفهاني ــ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٣٤ .

(٤) الدكتور جورج هايلد بلوت ــ الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٨٧ ترجمة الدكتور محمد فاضل ط أولى ١٩٨٧م .

المشكلات وأن تجد لها حلولاً لكنها في أغلب الأحيان عاجزة عن تقديم تفسيرات ، أو تبريرات لحدوث هذه الأشياء التي نراها في الكون ، ماثلة أمام الأعيان ، وإني لعلى يقين من أن أغلب الأفكار قابلة للتعديل ، كما أن جزءا كبيراً منها غير قابل للبرهنة عليه[١] لعدم خضوعه لها ، أو عدم قيامه على أنماط فكرية غير منهجية ، أو اعتمد على النتائج المبتسرة التي تكون غالباً غير صحيحة برهانيا[٢].

٢ – أن التباينات الكثيرة تعقبها التحولات ، وهي كما تكون في العرضيات فإنها تكون أيضاً في الذاتيات ، بل هي في الذاتيات أكثر مرونة ، وأقدر على تلبية الاحتياجات [٣] ، لكن ما هو السبب في قيامها ؟ وهل يمكن تقديم تفسير مقبول لهذا التباين الذى يعقبه التحول ؟ وإن كان فأين هو ؟ ولماذا جاء على هذه الصورة[٤] ، ولم يجئ على صور أخرى ، تلك ما لا نجد اجابه عليه .

٣ – العقل يحكم بأنه ما دامت الكائنات الحية متماثلة ، فمن الضروري أيضاً أن تكون التباينات متماثلة ، من حيث القوة والضعف ، ومن حيث الطول والقصر ، وباعتبار الفترة الزمانية أيضاً [٥]، لأن حكم القاعدة العقلية في المتماثلات لا يختلف ، ولما كان الاختلاف هو البادي في كل ألوان التباين ، فمن الضروري

---

(١) الدكتور محمد حسن صبرى – التطور وأثره على الأخلاق ص ٩٥ طبعة أولى ١٩٨١م .

(٢) الدكتور جورد هايلد بلوت – الفلسفة الحديثة والمعاصرة ص ١٨٩ .

(٣) الدكتور فرانك توباس فلوت – التطور والاطراد ص ٨٥ وراجع للدكتور زكي محمد فاضل تطور الكائنات الحية ص ١٦٧ .

(٤) هذه الأسئلة يفترضها العقل ، وبخاصة أن المعالجة هذه المرة تأتي من الناحية العقلية ، وكلما أمعن المرء النظر في الكائنات،ثم وقف على ما يقول به الاحيائيون وجد تفاوتاً كبيراً ، واختلافاً لا يمكن جمع أطرافه .

(٥) إذ أن هذه الجوانب تتلاحق فيما بينها ، كما أنها في ذات الوقت تكشف عمق العلاقة عن الصورة التي تمت فيها هذه التباينات وتحققت من خلالها التحولات ، ومن ثم تصير الأمور في التطور الإحيائي بحاجة إلى المراجعة من التطوريين أنفسهم ، فإما أن يثبتوا صدق هذه النتائج وهذا غير ممكن ، أو يعلنوا تكذيبها وتخليهم عنها ، وهم ليسوا قادرين على القيام به ، بل لا يملكون الشجاعة الأدبية التي تفرض عليهم ذلك

القول بأن العقل يقرر ضرورة إرجاع التباينات والتحولات إلى قدرة الله تعـالي، لا إلى طبيعة الكائنات الحية ذاتها ، ولا إلـى الانتخـاب الطبيعـي[١]لأن فعـل الطبيعة العمياء لا يختلف أبداً في شئ من الأشياء، بل ولا في الوجود أو العدم.

٤ – أن حدوث هذه التباينات في الكائنات الحية ، من خلال مفهوم الاحيـائيين آلي ميكانيكي ، وهذا لا مكان فيه للإمكانيات والقدرات العقلية والنفسية ، من ثـم يلزم أن تكون التباينات جميعها متساوية النسبة في كل الكائنات الحية ، بغـض النظر عن أنواعها ، وطبيعة أفرادها ، وذلك مما يشهد الواقع بتكذيبه ، والعقـل ببطلانه[٢] .

بدليل أن التباينات في النبات تتم بشكل سريع ، وبتدخل بسيط مـن خـلال عمليات الانتخاب الصناعي،أو التهجين السلالي،أو الوراثي، لكنها فـي الحيـوان بطيئة جداً تصل حد الندرة ، وفي الإنسان تقع في حدود الاستحالة ، وهذا ممـا يؤكد أن وجود أي نوع من التباين في الكائنات،إنما يرجع إلى الله تعالى في كـل بداية ونهاية ، كما يرجع إليه تعالى في المده والنوع والتحول قال تعالى:" ذَلِكُـمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ" [٣] .

يقول الدكتور الأصفهاني : أما التباينات أو الصفات الجوهرية ، فهذا مما لا دليل عليه،اللهم إلا إذا تأتى لهم بيان عدم الفرق بين الصفات العارضة الجوهرية بحسب المعنى ، أو تمكنوا من إقامة الدليل على أن التباينات تسري في الأمـور

---

(١) حيث قد بان فساد فكرة الانتخاب الطبيعي ، كما بان صحة الاعتقاد بأن ذلك يتم طبقاً للاختيار الإلهـي وحده ، وأنه من سنن الله الكونية أيضاً .

(٢) وأحكام العقل الصحيحة لا ترد متى وصلت إلى درجة البرهـان ، إذ كـانت في نطـاق الضروريـات والبدهيات ، لأن انكار البدهيات مرفوض ، والمجادل فيها لا يستمع إليه ما لم تكن غايته طلـب الحـق ، أو الوصول إليه ،وحينئذ يمكن تعريفه بها .

(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٢.

الجوهرية ، حينئذ يتم لهم إمكان تأليف الأنواع من التباينات الواضحة الثابتة[٢].

مما سبق اتضح ان العقل الصحيح لا ينفي وقوع تباينات بين الأنواع في جملتها أو بينها من خلال أفرادها،سواء أكان ذلك في الصفات العرضية ، أم في الصفات الجوهرية،لكن أن تكون هذه التباينات لحكمة يعلمها الله تعالى ، فذلك أمر لا مجال لإنكاره ، أو المجادلة فيه ، لأن هذا الأمر مما يمثل جوهر عقيدتنا نحن المسلمين .

بل أن وداروين نفسه يعترف بأن الحيوان يكتسب الفطنة والحذر مما يعرض له من تجربة ، ويتحمل من ألم ، وأن له ذاكرة وذوقاً فنياً ، وغريزة تعاطف ، فلا يجوز نفي العقل عنه[٣]، وبالتالي فكل تباين قائم في حكمة إلهية .

أما أن تكون هذه التباينات المنبثة في أفراد الكون قائمة على العشوائية ، أو نتاج المصادفة العمياء ، أو الانتخاب الطبيعي ، وما كان من هذا القبيل ، فذلك أمر لا مجال لقبوله ، ولا أظن واحداً من أهل الإسلام يرضى به، فضلاً عن أن يردده أو يسعى خلفه ، إنما الذي يفعل ذلك هم أعداء دين الله ، الذين ينفقون الوقت في العبث ، أو يضيعونه في طلب المحال .

الجانب الثالث : الدليل الشرعي :

إن هذا التباين والتحول بين الأنواع والأفراد،إنما تجري به سنن الله الكونية وأنه يظهر في الكائنات كلها ، ويقع فيه التمايز أيضاً ، فليس التباين بين الكائنات ، طبعة واحدة أو صورة محددة يجري في النباتات والحيوانات والبشر

---

(١)الدكتور محمد رضا الأصفهاني ـــ نقد فلسفة داروين ج ١ ص ١٣٤ .

(٢) الدكتور محمود عبد الحكيم عثمان ـــ الفكر المادي الحديث ص ١٢٥ ، ثم ان البكتريا التي هي عبارة عن كائنات مجهرية عالية من النوى أصغر حجماً من الأميبا وأبسط يجرى فيها تباين فيما بينها ، وتسعى لهذا التباين من خلال منظومة غائية هادفة ، وكذلك جملة الفيروسات الكبدية والأخرى التي تتباين في الأسماء المطلقة عليها ، ألا يؤكد ذلك كله على أن هذه التباينات مقصودة ، وأن هذه القصدية مرهونة بقوة إلهية هي التي تديرها وتدبرها، وهي قدرة الله رب العالمين .

بقدر سواء ، وإنما يكثر في النبات ، ويقل عنه في الحيوان ، لكنه في الإنسان أقل الأنواع الثلاثة ، وذلك كله لحكم ومصالح أفضت الشريعة الإسلامية ببيان بعضها[١]، وأخفت البعض الآخر ابتلاء للمكلفين ..

وفوق ذلك فلما كان هذا التباين مرجعه إلى الله تعالى ، فإنه محدد بالنسبة لطبيعته ، بحيث لا يخرج عن طور إلى طور ، ولا عن نوع إلى نوع ، إذ لو خرج من النبات إلى الحيوان ، لوقع الاختلاط ولم يقع التمايز ، ولو وقع بين الإنسان والحيوان لضاعت الأصول[٢] ، وتلاشت القواعد المتباينة ، بل أنه لا يقع بين أفراد النوع الواحد ، بدليل أنه لم يحدث أن تباين الرجل وتحول أنثى ، أو تباينت المرأة فتحولت إلى رجل ، ومن ثم فهو تمايز محدد في طبيعته كما هو محدد في مقداره وكميته .

١ ـ المباينة في الخلق العام ـ تباين الأنواع :

دلت آيات القرآن الكريم على أن التباين يقع في مختلف الأنواع وفي أفرادها أيضاً ، وهي كلها قد خلقها الله تعالى ، وتظهر صوره في الأرض والسماء ،وما بين الأرض والسماء من شموس وأقمار ، ونجوم وأفلاك ، ورياح وسحب ، وحرارة ورطوبة ، وبحار وأنهار ، وهضاب وتضاريس وجبال ، وإنسان ونبات وحيوان وكلها متباينة في أصولها ، متحولة في أنواعها[٣] ، قال تعالى :" أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ "[٤] .

---

(١) قال تعالى : " وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" سورة الروم الآية ٢٢ .

(٢) هذا على حسب ما تتمكن منه معارفنا ، ولما جاء به أمر الله تعالى في خلقه .

(٣)ولا يستطيع عاقل إنكار ذلك ، لأن الحس شاهد به، والعقل معترف بوقوعه والواقع المعاش من الأدلة عليه

(٤) سورة الأعراف الآية ١٨٥ ، وقد تأكد ذات المعنى في قوله تعالى : إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ" سورة آل عمران الآية ١٩٠

وقد تأكد ذات المعنى في آيات كثيرة منها قوله تعالى :" إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ"[1].

فليست الأرض كالسماء ، وليس الليل هو النهار ، كما أن الفلك التي تجري في البحر تباين البحر ذاته من كل ناحية ، بل أن البحار غير الأنهار، فالبحار ماؤها ملح أجاج ، بينما الأنهار ماؤها عذب فرات سائغ شرابه ، وفوق ذلك فالناس نوع آخر مباين لما ذكر من أنواع .

ثم تأتي صور من التباين المتعدد ، وهو ماثل في ما أنزل الله من السماء ، وفوق ذلك يأتي في ما أحي من الأرض،وهو أنواع النباتات المختلفة ، والدواب التي ثبت التباين في أنواعها ، من المستأنس إلى المفترس ، ومن الزاحف إلى الماشي والطائر ، وحركة الرياح والسحاب ، كل ذلك فيه تباينات وتحولات ، دلت على وجود الله تعالى ووجدانيته ، وعظمته وقدرته.

٢ ـ التباين في الأفراد :

دلت آيات القرآن الكريم ، على أن التباين في افراد كل نوع حقيقة ثابتة ، ومتي نظر المرء العاقل إلى آيات الله الكونية أدرك ذلك بسهولة ويسر ، دون كبير عناء أو تكلف ، ومن الأدلة على ذلك ما يلي :

---

(١) سورة البقرة الآية ١٦٤

أ — في الكائنات العلوية :

المعروف أن الله تعالى خلق كائنات علوية ، منها ما نعلمه بإعلام الله تعالى لنا ، ومنها مازال غيبا عن عقولنا ، وقد أخفاه الله تعالى رحمة بنا ، من ذلك العرش(١)، والكرسي(٢)، والقلم (٣)، واللوح المحفوظ (٤)، والملائكة (٥)، وسدرة المنتهى (٦)، وجنة المأوى (٧)، فإنها جميعاً كائنات علوية خلقها الله تعالى وأخبرنا بها ، وأطلق على كل منها اسماً من عنده جل شأنه ، وأخبرنا بها على سبيل التباين بينها ، وإلا ما كان للتسمية أية امتياز .

بل أن السماء جاءت في القرآن الكريم تحمل نفس التباينات بين أفرادها وأنواعها من ذلك قوله تعالى : "أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا "(٨) ، ولما كان لفظ السماء في الآية الكريمة اسم جنس ، يشمل عددا من السماوات ، ذكر الله تعالى الأعداد القائمة فيها للتباين بين أنواعها ، قال تعالى:" هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ "(٩).

---

(١) من ذلك قوله تعالى :"وهو رب العرش العظيم " سورة التوبة الآية ١٢٩ ، وقوله تعالى :" فسبحان الله رب العرش عما يصفون " سورة الأنبياء الآية ٢٢ ، كما أن مادة الكلمة ع ر ش — وردت في القرآن الكريم حوالي ثلاثين مرة — راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم باب العين ص ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) قال تعالى:"وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم "سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٣) قال تعالى :" ن والقلم وما يسطرون " سورة القلم الآية ١ .

(٤) قال تعالى :" بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ " سورة البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢

(٥) وردت الكلمة معرفة ومنكرة وجمعاً حوالي ثمان وستين مرة — راجع المعجم المفهرس ص ٦٧٥ ، ٦٧٦ .

(٦) قال تعالى :" ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى " سورة النجم الآية ١٤ .

(٧) قال تعالى : "عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى " سورة النجم الآية ١٥

(٨) سورة النازعات الآية ٢٧ .

(٩) سورة البقرة الآية ٢٩ وقد جاءت الكلمة جمعاً في القرآن الكريم حوالي ١٩٠ مرة — راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٤ /٣٦٦ .

ولا يعقل أن تكون السماوات كلها نسخة واحدة ، صورة واحدة من بعضها، وإلا ما كان لذكر العدد امتياز، كما أنه تعالى خص احداهما بوصف الدنيا مـــن ذلك قوله تعالى :" إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَـــيْطَانٍ مَّارِدٍ "(١)

ولا شك أن التحديد في ذات العدد ، والتخصيص بالوصف أو الإضافة،إنمــا يدل دلالة قاطعة على وجود التباين في أفراد الأنواع،بالنسبة للكائنات العلويـــة ، وكلها مخلوقة لله بقدرته،واقعة تحت علمه تعالى ، نافذة بقدرته مرعية بحكمته ، قال تعالى:" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ "(٢)

ب ـــ في الكائنات الأرضية :

خلق الله الكائنات الأرضية متعددة في أنواعها، فمنها النبات ومنها الجمـاد ، والإنسان والحيوان ، وهي في مجموعها أنواع متكاثرة فى أفرادها ، ابتداء مـــن الأرض التي يقع عليها ذلك كله ، فالأرضون سبعٌ ، وليست كل أرض هـــي ذات الأخرى ، وإلا ما كانت هناك ميزة لذكر العدد ، قال تعالى :" اللَّهُ الَّـــذِي خَلَـــقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَـــى كُـــلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا " (٣)

فالأرض فيها تضاريس وجبال وهضاب ، وفيها سهول ووديـــان ، وفيـــها أرض صفراء ، وأخرى سوداء ، وفيها أرض ســبخة وأرض طيبـــة وأرض لا تمسك ماء ولا ينبت فيها ثمر ، ولكل منها فوائد ، وفي كل واحدة منها منافع ، من ثم فالتباين قائم فيها ، والتحول معتبر بالنسبة لها ، لكن مرد ذلك إلـــى الله تعالى لا إلى ذاتها ، وهو الذى نعتقده ، ونؤمن به ، ونعول عليه ، لأنه كثير في القرآن الكريم بحيث يكفي أبحاثاً كثيرةً حتى نفي به .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢)سورة الملك الآية ١٤ .   (٣) سورة الطلاق الآية ١٢ .

ج – في الكائنات المائية :

خلق الله تعالى الماء أنواعاً ، وجعل كل نوع منها ، يتمايز على الأنواع الأخرى ، ويتباين عنها،رحمة منه جل علاه ، ولطفاً بعباده،فمن أنواع الماء :

- ماء النطف :

وهذا الماء مصفي داخل الجسم المنتج له ، ويتم بعملية مزدوجة يقوم بها العقل والغريزة ، أو الغريزة والشهوة ، ورغم أنه مكد لصاحبه ، مجهد له ، إلا أنه يكون سعيداً ببذله ، قال تعالى مخاطباً الإنسان :" فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ " (١) .

وماء النطف هذا يكون في الإنسان ، ويكون في الأنواع المختلفة من الحيوان ، ومع هذا يتباين في كميته ومادته ، والصبغيات التي تكون فيه ، بل أنه يتباين في الفقاريات والثدييات ، ويتباين كذلك في أفراد النوع الواحد ، بدليل أنه في بنى الإنسان ليس واحدا في كميته ، كما أنه ليس واحداً فيما يحمله من حيوانات مجهرية ، لأنه في الرجل يكون ٢٣ كروموسوما صبغيا X Y بينما هو في الأنثى XX ولا يمكن أن يكون ذلك إلا من اللطيف الخبير ، وكل نوع منها ينسب إلى أصله ، ما دامت تقع بينهم المصاهرة ، قال تعالي في الإنسان: "وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا"(٢).

- ماء البحار والمحيطات :

وهو الماء الملح الأجاج،الذي لا تستطيع الكائنات الحية الضارة بالبيئة أن تتأقلم معه،أو تعيش على الدوام فيه ، وهذا يمثل ٧١% من قيمة الماء في العالم غير أن هذا الماء الملح يتمايز عن الأخر العذب،إلى حد التباين في الخصائص والوظائف والمنافع .

---

(١) سورة الطارق الآيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة الفرقان الآية ٥٤

وقد ذكر الله تعالى ذلك التباين في نوع الماء فقال جل شأنه :" وَهُوَ الَّذِي مرج الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا وهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا [١].

● ماء الأنهار[٢] والعيون والآبار :

وهو الماء العذب الذي يستفيد منه الزرع والضرع ، والحيوان والإنسان ونسبة هذا الماء فى العالم ٢ % من جملة الماء ، ومعنى ذلك أن نسبة الماء المالح ٩٨% ، وهنا يأتي السؤال لماذا كانت الكمية الكبيرة هى الماء المالح وليست الماء العذب ، والجواب أن الماء العذب يفسد بسرعة لخواص فيه ، كما أنه يكون بيئة صالحة لمعيشة الكائنات الحية التي تفسده ، بوجودها الدائم فيه ، وفضلاتها التي تخرج بداخله[٣]، ولو كان الماء كله عذباً لفسد خلال فترة وجيزة وماتت الكائنات الحية التي تعيش عليه .

أما الماء المالح فإن الله تعالى يجعل الشمس عمودية عليه فيحدث التبخر في الصيف والشتاء ، وهو ما يعرف بالمناطق الاستوائية أو المدارية ، وهذا البخر عبارة عن ناتج عمليات التسخين في الماء المالح ، حيث يصعد الرزاز العذب إلى طبقات الجو العليا ، أما الملح فإنه يترسب في الأعماق[٤]، ثم يأتي الريح فيحمل هذا البخر إلى حيث يريد الله تعالى ، فينزل مطراً عذباً تروي به

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥٣ ، ٥٤ وقال تعالى :" وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" سورة فاطر الآية ١٢ .

(٢) وردت مادة الكلمة في القرآن الكريم ن هـ ر حوالي ١١٠ مرة راجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٧٢١/٧١١ .

(٣)الدكتور عبد اللطيف السيد رزق ـ الماء سر الحياة ص ٥٧ ط دار الفجر الجديد بيروت ١٩٧١م.

(٤)الدكتور فوزي أحمد البطش ـ من أسرار الله في الكون ص ٨١ ط ثانية دار توفيق ١٩٨٤م .

الكائنات الحية من إنسان وزرع وحيوان ، قال تعالى : " وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا "[١].

وقال تعالى :" وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاء مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاء يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ "[٢].

وهذا التباين في أنواع الماء ، إنما يحمل التباين أيضاً في بعض الصور التركيبية حيث يكثر فيها الرصاص والمواد الأخرى التي تقع بها الأكسدة في الجسم مما يلحق الأضرار المتعددة بالذين يستعملونها ، كمياه الصرف والنقع والبرك [٣]ولا شك أن هذا التباين راجع لحكم يعلمها الله تعالى .

كما أن الكائنات التي تعيش في الماء هي الأخرى متباينة في أصولها وأنواعها وأفرادها ، فمنها الأسماك بأنواعها المختلفة ، وأحجامها المتباينة ، وطبائعها التي لا يمكن أن تكون من ذاتها ، وإنما لابد أن يكون الصانع لها هو الله العليم الحكيم .

وهناك الأحجار الكريمة ، كالأصداف واللآلئ وفيروز الشطآن [٤]، بجانب المرجان وغيرها مما يعتبر أحد الأسرار المائية ، وقد أشار إلى ذلك العديد من آيات كتاب الله المجيد ،وما يجري في الكائنات المائية يجرى مثله وأكثر منه في عالم النباتات والكائنات التى من هذا النوع .

---

(١) سورة النبأ الآيات ١٤ / ١٧ .

(٢) سورة النور الآيتان ٤٢ ، ٤٣ .

(٣)الدكتور / محمد السيد عبد الفتاح ـ من أسرار الله في الماء ص ٧١ ط ثانية ١٩٨٧م.

(٤) نوع من الأحجار الكريمة يتميز بصلابته وارتفاع اسعاره بجانب الحاجة المتواصلة في طلبه ، راجع قطر المحيط باب الفاء ، ومحيط المحيط ، والمعجم الوجيز

قال تعالى :" وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (١) .

٣ – التباينات في بني الإنسان والحيوان :

لا شك أن البشر جميعاً قد خلقهم الله تعالى ، من شخص واحد،هو آدم عليه السلام ، وأم واحدة هي حواء رضي الله تعالى عنها وعنها ، وكانت لهما صفاتهما المميزة لكل منهما منفردة ، وتجمعهما خصائص مشتركة، أمكن لهما أن يتعايشا معاً بها(٢)،لكن في الناس الآن الأبيض والأسود ، والزنجي ، ومنهم الأصفر القوقازى ، كما أن في الناس القصير النحيف ، والبدين الطويل ، وفيهم ذوي الصفات السائدة ومنهم ذوي الصفات المتنحية، وكذلك اختلافهم في الأسماء والآباء والأمهات إلى غير ذلك من التباينات الجسدية .

في نفس الوقت فهم يتباينون في العواطف والانفعالات ، كما يتمايزون بالفروق الفردية ، والقدرات العقلية ، وبناء عليه فليسوا جميعاً في هذه المسائل على قدر سواء أبداً ، بل في الناس الخامل الذهن والبليد ، والذكي الفطن اللماح وبينهم الجامح الجحود ، والقانع الراضي ، الألف المألوف ، فمن أين جاءت هذه التباينات التي لا يمكن جحدها ، أو إنكار الفوارق بينها .

يقول الشيخ الجسر إن الله تعالى قد جعل التباينات في المخلوقات ، بين الفروع والأصول لأجل التمايز ، إذ لو كانت الأنواع كلها على صورة واحدة

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩ .وقال تعالى :" وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" سورة الأنعام الآية ١٤١ .

(٢)الشيخ حسن محمد أبو طويلة – آدم وحواء خصائص مشتركة ص ٥٧ ط أولى دار الرباط

في كل فرع ، لحصل اشتباه بينها جميعا ، ونشأ عن ذلك اختلال في نظام العـــالم لا تدرى نهايته ، فلولا هذا الناموس لكان الرجل لا يعلم ابنه ولا زوجـــــه ، ولا كانــا هما أيضا يعلمانه ، وفي ذلك من فساد المعاملات ، وضيـــاع الحقــوق والواجبات مالا يخفي(١).

كما أن النصوص الشرعية ، قد دلت على أن هذا التباين،يبدأ مما يقـــع في الأرحام خلقاً لله تعالى ، قال عز شأنه :"هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَـــامِ كَيْـــفَ يَشَاء لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (٢)ومادام هذا التصوير يتم في الأرحام ، فـــإن ذوي الأنساب والمصاهرة ، يقع بينهم التباين، حتى يتمايز كل منهم عن الآخر ، وذلك تقدير العزيز العليم .

وقد نبه القرآن الكريم إلى ذات الحقيقة في قوله تعالى :" وَلاَ يَحِلُّ لَـــهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَـقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُواْ إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَـــالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكُيمٌ"(٣).

فما خلق الله في أرحامهن،مباين من حيث هو في دور النشأة،الأم الحــامل ، لأنها مكتملة البناء الجسدي والعقلي،والعاطفي والنفسي ، أما البلازما التناسـلية ، أو ما أستلمته الأم من الأب،فلا يخرج عن كونه حيوانا صغيرا مجهرياً ، مكونـا من ثلاثة وعشرين كروموسوما،التي هي الصبغيات الجينية ، ولأنها مختزلة فـلا تمثل الكائن الحي في أكمل صورة ، وإنما تمثله في انقسام اختزالي إلى النصـف ومن ثم فالأم أكمل مما في رحمها ، ومتباينة لها من هذه الناحية .

---

(١) الشيخ حسين الجسر – الرسالة الحميدية للمحافظة على العقائد الإسلامية ص ٢٥٢ ط الحلـبي الثالثة ١٣٧٥هـ–١٩٥٥م .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦

(٣) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

ثم يقع بأذن الله تعالى التحام بين الحيوان المنوي،الذي تسلمته ذات الأم من الأب ، والبويضة التي يفرزها مبيض الأم ، فتكون النطفة المكتملة ، التي تباين المرحلة الأولي،التي يمثلها الحيوان المنوي منفرداً ، ثم تكون علقة ، ثم يقع لها التباين بفضل الله تعالى حتى تكون مضغة ، فعظاماً يكسى بإذن الله اللحم ، وفي النهاية يكون خلقاً آخر ، مباينا للمراحل السابقة تمام المباينة ، دليل ذلك قوله تعالى :" ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين"(١).

وقوله تعالى :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا "(٢). مع أن المبثوث الناتج عن كل من الذكر منفرداً ، والأنثي منفردة ، ما هو إلا ماء ، فيه حيوانات مهجرية صغيرة جداً(٣). وإنما قال جل شأنه ذلك ــ والله أعلم ــ باعتبار المباينة ، والتحول الذي سيكون عليه ذلك الماء في المستقبل ــ رجالاً كثيراً ونساء ــ وذلك كله من خلق الله تعالى وإحكامه ، وقائم في تدبيره جل شأنه .

ثم إن هذه التباينات في أفراد النوع الواحد ، لا تنحصر عدداً ، سواء أكان ذلك في الألوان أو الأشكال ، أم في الملامح الجسمية ، أم في تركيبات أجزاء الجسم ذاته ، أم في مكونات المادة الأصلية ، باعتبار اختلاف الهيموجلوبين وصفائح الدم وفصائله ، كما يتباينون في الصفات السائدة ، والأخرى المتنحية ، وهذا التباين لم يسلم منه الحيوان ولا الإنسان ، بحيث لا يمكن أن يقال أن أحد أفراد النوع هو الثاني تماماً ولا أن أحدهما مباين للثاني ــ من ذات النوع ــ

---

(١) سورة المؤمنون الآية١٤

(٢) سورة النساء الآية ١ .

(٣) قال تعالى :" فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ " سورة الطارق الآيات ٥ ــ ٧ .

تماماً ، إنما تقع بينهما المشابهة من جانب ، والمباينة من جانب آخر ، وذلك من تقدير العزيز الحكيم .

قال تعالى :" وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ" (١)، فهذا من الدلائل على وجود الله تعالى وآياته المنبثة في الكون علوية وسفلية ، ظاهره الذي نشاهده .

وما لم نشاهده ، فلو كانت الكائنات كلها طبيعة واحدة ، أو صورة ثابتة ، لما دل ذلك على صانع حكيم ، ومن ثم يعتبر وجود التباينات القائمة في الكون ، بمثابة الدلائل الواضحات على خالق الأرض والسماوات،وهو الله رب العالمين.

قال صاحب البحر المحيط ، ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته ، وعظيم صنعته ، خلق السماوات في ارتفاعها،واتساع مساحتها ، وخلق الأرض في كثافتها ، وانخفاضها وتغير طبيعتها ، واختلاف اللغات من عربية وعجمية وتركية ورومية ، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر ، حتى لا يشتبه شخص بشخص ، ولا إنسان بإنسان ، مع أنهم جميعاً ماضيهم والحاضر بل والمستقبل من ذرية آدم ، إن في ذلك لدلائل واضحات ، وعلامات بينات، لذوي العقول الصحيحة ، والفطر السليمة(٢).

وبالتالي فلا يمكن حسبان هذه التباينات،على أنها من صنع الطبيعة ، أو أن هذه الكائنات تقوم بها وحدها ، وإنما مرد ذلك إلى الله تعالى ، كما أنها من الدلائل على أنه جل شأنه الفعال ، الكبير المتعال .

قال العلامة البروسوي: ومن آياته خلق السماوات والأرض على عظمتها وكثافتها، وكثرة أجزائها بلا مادة ، فهو أظهر قدرة على إعادة ما كان حياً ، قبل

---

(١)سورة الروم الآية ٢٢ .

(٢)العلامة أبو حيان التوحيدي — البحر المحيط ج ٧ ص ١٦٨ .

ذلك ، فهذه من الآيات الكونية ، التي بثها الله تعالى في الآفاق[١]

ثم أشار جل شأنه إلى شئ من الآيات الأنفسية فقال تعالى :" واختلاف ألسنتكم " وهو اللغات من العربية والفارسية ، والهندية والتركية وغيرها ، بأن جعل لكل لغة جماعة يتخاطبون بها ويتفاهمون[٢]،ففيه دلالة على اختلاف إشارات اللغات، وتبادل النغمات،لأن لكل لسان نغمة ، يميزها السمع ، كما أنه له صورة يميزها البصر ، فلا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية من كل وجه[٣].

واختلاف ألوانكم بالبياض والسواد ، والحمرة ، وأنواع الألوان من اختلاف الصور التي تختص كل إنسان بهيئة غير هيئة صاحبه ، مع كثرة عددهم ، وذلك تنبيه على سعة قدرته ، كما أن اختلاف الألوان فيه إشارة إلى تخطيطات الأعضاء وهيئاتها وحلاها [٤]، ألا ترى أن التوأمين مع توافق موادهما وأسبابها والأمور الملاقية لهما في التخليق ، يختلفان في شئ من ذلك لا محالة ، وإن كانا في غاية التشابه[٥].

إن داخل هذه المخلوقات المتباينة،دلائل عظيمة في نفسها ، وبراهين كثيرة في عددها للمتصفين بالعلم ، لأنهم الذين خصوا بالنظر والاستدلال، دون الجهال المشغولين بحطام الدنيا وزخارفها ، فلما كان الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره إنما يكون بالعلم[٦]، ختم الله تعالى الآية بقوله جل شأنه :" لآيات للعالمين " .

---

(١)الشيخ إسماعيل حقي البروسوي ـــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ٣ ص ١٨٢

(٢) الشيخ محمد عبد العظيم الدهشان تفسير سورة الروم ص ٧٥ ط دار المهندس ١٩٤٣م

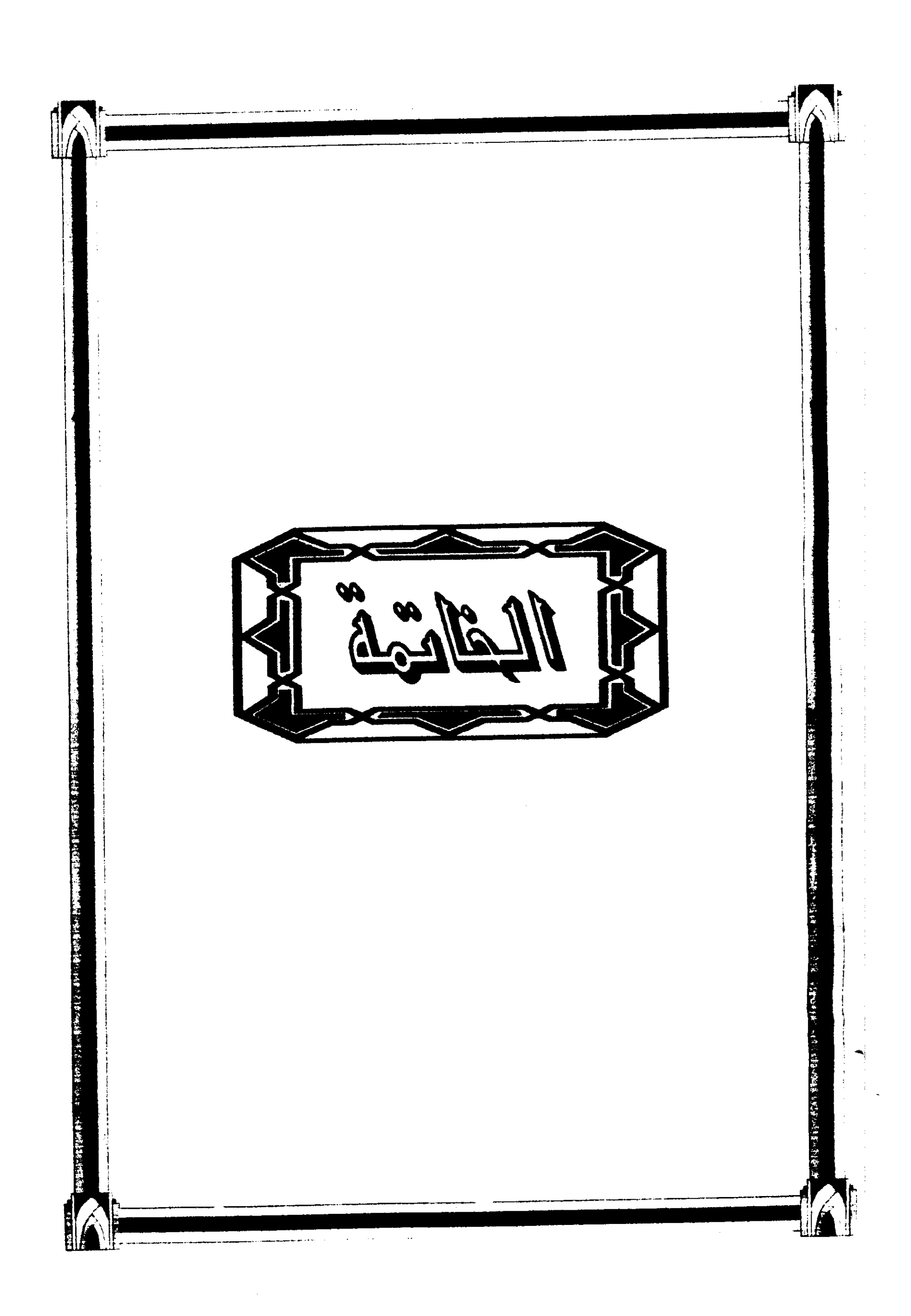
(٣)الشيخ / إسماعيل حقي البروسوي ـــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ٣ ص ١٨٢

(٤)الأستاذ / عبد العظيم محمد البسيوني ـــ التطور في الميزان الإسلامي ص ١١٥ ط دار التقدم ١٩٨١م

(٥)أنظر للشيخ محمد عبد العظيم الدهشان ـــ تفسير سورة الروم ص ٧٦

(٦)الشيخ إسماعيل حقي البروسوي ـــ تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ج ٣ ص ١٨٢

وفي تقديري . ان مسألة تباين الأنواع والأفراد على الناحيـــــة الشـــرعية، يمكن قبولها في سهولة ويسر ، لكنها في الأفكار التطورية العصوية ، لا يمكـــن قبولها على أية ناحية ، بل الأولي إهمالها وعدم الالتفات إليها، لمخالفتها المعقول والمنقول ..كما أنها لا يمكن تطبيقها على أية ناحية علمية، ومـــالا يقبـــل مـــن الناحية الشرعية والعقلية ، فإن الإهمال وعدم الالتفات إليه يكـــون هـــو الأمـــر الطبيعي بالنسبة له ، وعلى الله قصد السبيل .


الخاتمة

من الثابت المؤكد في أفهام كل العقلاء ، أن ماله بداية تقع له حتماً النهاية ، سواء أكان ما بين البداية والنهاية قصيراً جداً ، أم طويلاً بعض الشيء ، ولذا اصطلح أهل العلم على أن المبادي تسمى مقدمات أو مبادئ ، والنهايات تسمى الخواتيم ، أو النهايات ، وما بينهما فيسمى المقاطع والأوساط ، أما لماذا ؟

فلأن المقدمات أو المبادئ إنما هي تعريف بالمصطلحات التي ستدور في موضوع البحث ، ولذا اعتبرت المقدمات من هذه الناحية تلخيصاً لأهم أبواب وفصول الكتاب[1] ، أما الخواتيم فقد نظر إليها على أنها تلخيص لأهم النتائج التي انتهى إلى الأمر في هذا البحث ذاته .

لكن الأوساط إنما تعني بموضوع البحث وتناول جزئياته ، ومعالجة مسائله ومتابعة الأفكار الواردة فيه ، متابعة ميدانية دقيقة تجري كماء البحر في سهولة ويسر ، لكنها دائماً تكون من ناحية المنبع أعلا عنها من ناحية المصب ، مهما تشعبت الموضوعات، وتعددت المسائل المطروحة ، وكثرت المشكلات المنظور إليها . وجريا على هذه التنظيمات ، التي صارت أقرب الأمور إلى القضايا التنظيمية ، فإني سأعمد إلى تقديم ما أمكنني الوقوف عليه في هذا الجزء[2] من نتائج ، أراها تحتاج التسجيل وهي تجئ في جانبين :

الأول : نتائج عامة أبرزها ما يلي :

١ — أن الهجمات التي يقوم بها شياطين الإنس على العقيدة الإلهية ، والقيم والأخلاق الشرعية ، ليست حديثة ، وإنما هي قديمة قدم إبليس نفسه ، ومعنى

---

(١) ولذا فإن المقدمة لابد أن تكون تلخيصاً لأهم مباحث الموضوع المبحوث .

(٢) كان بودي أن أجعل هذا الجزء ممثلاً للكتاب كله ، بحيث يشتمل على كل جزئية تتعلق بالتطور الأحيائي لكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه ، ولذا بعد أن انتهيت من الباب الثالث وجدت الكتاب قد كثرت صفحاته عن المعتاد ، وبقيت جوانب كثيرة تحتاج الدراسة سواء في الأفكار المتعلقة بالداروينية الحديثة ، أو النظرية التركيبية الحديثة ، بجانب موقف المؤيدين والمعارضين قديماً وحديثاً وهم كثيرون ولذا سأجعل هذه الجزئيات البحثية موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

هذا أنها مصاحبة للخليقة منذ خلق أول كائن عاقل مكلف على وجــــه الأرض ، وهو آدم عليه السلام .

ولن تنقطع هذه الهجمات الإلحادية المتواصلة حتى تقوم الساعة ، لأن ذلـك من قضاء الله تعالى وقدره [١]، حيث يسر للإنسان طريقي الخير والشر ، قـــال تعالى : "إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"[٢] ومن سلك طريق الشـــيطان غوى ، وانحط إلى الدرك الأسفل من النار وما نجا .

وأن هذه الهجمات الشيطانية ، قد وقى الله منها أهل العرفـــان بـــه ، عـــن طريق المرسلين ، الذين جاؤا هداية لأقوامهم ، حيث يعرفونهم بالإلــــه الخـــالق الواحد العظيم ، وما له من صفات الجلال والكمال والإكرام ، وطرائق العبـــادة التي ترضيه جل جلاله ، وكيفية الاستقامة على المنهاج الذي شرعه إليه ، فمـــن اتبع المرسلين أنجاه رب العالمين من أغواء الشياطين ، قال تعالي :" إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً "[٣] وقال تعالى :" إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ"[٤].

٢ ــ إن أصحاب العقول الفاسدة دائماً يعملون على استخدام الألفاظ المشـــتركة ، والتلاعب بها من خلال استخدامها في غير المعهود أو الاســـتعمال الطبيعـــي، وغايتهم من ذلك التلبيس على الناس،حتى لا يميزوا بين الصواب والخطـــأ ، ولا يدركوا الفرق بين ما هو من توجيه الرحمن ، وما هـــو مـــن صنيـــع الـــهوى والشيطان .

---

(١) ما تزال مسألة القضاء والقدر من أكثر المسائل العقدية جدلا ، وأوسعها انتشارا ، ويبدو أنهـــا ستظل كذلك لحكمة يعلمها الله جل علاه .

(٢) سورة الإنسان الآية ٣

(٣) سورة الإسراء الآية ٦٥

(٤) سورة الحجر الآية ٤٢ .

فإذا أمكنهم القيام بهذا الدور على الوجه الذي يريدون ، فإنهم يتفننون في القيام به ، ويعملون على الإجادة فيه ، حتى يتحول الناس عن التوجه نحو الخالق إلى التوجه نحو المعبود ، ومن عبادة الله الواحد ، إلى عبادة الطبيعة العمياء ، والجامدة الصماء، وهؤلاء ماضيهم سيئ ، وفعلهم قبيح، قال تعالى:"وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ"[(١)].

٣ - إن أهل الإسلام عصمهم الله بكتابه وسنة رسوله[(٢)] ، ومن ثم فهم لا يبتغون بغيرهما بديلاً ، ففي الهدى الحكيم كل ما يتعلق بمصالح الدنيا ، وطرائق الفوز برضوان الله في الآخرة ، ولذا فهم لا ينعطفون على ناتج الفكر الإنساني ، إلا في حدود التوجيه الرباني ، إنهم لا يعتقدون في الأفكار الإنسانية ولا أصحابها ، إنما اعتقادهم في الله وحده ، وعبادتهم تتجه إليه جل علاه ، فهو الواحد القهار .

ومن ثم فقد رفعت راية الإسلام خفاقة في أغلب ربوع العالم ، يوم كان أهل الإسلام على هديه يسيرون ، قبل أن يلتفتوا لزخارف الدنيا وأنعمها الزائلة، قبل أن يلعب الشيطان قريباً من ديارهم ،يوم أن كانوا جميعاً جندا لله مخلصين ، قائدهم سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، ومنهاجهم القرآن الكريم كلام الله رب العالمين ، وقانونهم الاهتداء بالكتاب والسنة .

كما أنهم لما كانوا على هذه الحال ، فقد فتح الله عليهم العلوم والمعارف ، فكانوا للنهضة والحضارة أعلاماً ، وما من جانب من الجوانب إلا كانوا فيه الرايات الخفاقة ، والهداة الأعلام ، والشجعان أصحاب النهي والإقدام ، فأفادت

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٤٢ .

(٢)دليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :" تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله تعالى وسنتي"

الدنيا منهم ، وأجبرت على الاعتراف بحضارتهم التي غزت الديار[١] ، وكاشفت الأنوار ، فكانت هي بصيص النور في الشرق والغرب على السواء ، بل كـــانت عصورها هي النور والعلم والمعرفة والإقدام .

٤ ــ إن عصور الظلام في أوربا ــ العصور الوسطى ــ تركت آثـــارا سـيئة على المجتمع الأوربي ــ أفرادا وأرضا ، وكائنات ــ ولم تكن معالمها محـــددة في جانب من الجوانب ، وإنما كانت شاملة لكافة أنماط الحياة ، مما جعل النــاس في أوربا ينفرون من كل ما له علاقة بالدين الكنسي ، كما ينفـــرون مــن ذات التعاليم والطقوس ، والقائمين عليها في وقت واحد .

ونظرا لذلك فقد بات الناس في صراع داخلي عنيـــف ، وضغـط فكـري مخيف ، نتج عنه القفز فوق العقيدة والقيـــم والأخـــلاق ، وصـــارت الهمجيـة والفوضوية ، بل والعبثية هي السائدة في هؤلاء الناس ، وراح كل منهم يختـــار لنفسه الطريق الذي يدفعه إليه هواه ،مع أنه سيجد في نهايته رداه ، وقـــد ألفـــوا هذه الطرق المعوجة ، وارتضوا الخوض في طينها وأوحالها ، التـــي غطتـــهم حتى الأنوف ، بل لم يعد من الممكن أن يرى المرء علامة مضيئة على الطريق حتى لو كانت خافتة .

٥ ــ أن هذه الجوانب السيئة قد نتج عنها العديد من المسلاخات الفكرية، بجـانب الاتجاهات العبثية الفوضوية ، فظهرت الأديان الوضعية[٢] التي اختلفـــت فـــي أسمائها وأشخاصها وأفكارها ، كما اختلفت في نتائجها وأهدافـــها ، وتبعثـــرت غاياتها بين قيم محطمة وأخرى تجري فيها الافكـــار الســـوداء ، وتعبر عنـــها

---

(١) المنصفون من المستشرقين اعترفوا بذلك وسجلوه في مؤلفاقم مؤكدة على أن الحضارة الإسلامية هي أصل الحضارة الغربية بل كل الحضارات الزاهية حتى اليوم .

(٢) أرى هذه التسمية منطبقة على كل الديانات التي يقوم بإنشائها أفراد أو متبني القيام بدعمها مجتمع مـــن المجتمعات وهي كافرة كلها

النفوس المريضة ، والعقول المغيبة عن الحق .

فنتج عن ذلك كله العديد من المذاهب والتيارات المادية كالوضعية بأنواعها ، والعلمانية ، والداروينية ، والماركسية ،كما ظهرت المذاهب التي تزعم لنفسها العقلانية والمثالية ، والمذاهب العملية كالبراجماتية وكلها مذاهب منحلة ، وتيارات هدامة ، تركت آثارها السلبية على مظاهر الحياة المختلفة .

٦ — أن الداروينية كانت أحد النماذج العوجاء في الفكر الإنساني ، لأنها نادت بتأليه الطبيعة ونسيت خالقها ، وذهبت إلى تعبيد الناس للمنافع ، وأبعدتهم عن عبادة الخالق لها ، ومن ثم فقد ألقت بالناس في المهالك ، ودفعت بهم إلى غضب رب العالمين . ذلك كان ابرز نتائج الإجمالية،التي يمكن اقتباسها من بين فقوات وسطور هذا الجزء من الكتاب .

الثاني : نتائج خاصة :

هناك نتائج خاصة تتعلق بعنوان هذا الجزء ، والموضوعات التي تمت دراستها ، أو معالجتها من خلاله ، وأبرز هذه النتائج الفرعية ما يلي :

أولا : أن التطور سمة الحياة ، ومن سنن الله الكونية ، وقد جاءت به لغة العرب كما ظهرت مادته — ط ، و ، ر — في القرآن الكريم ، وتبنى المفكرون المسلمون ما جاء به النقل المنزل ، مع إسناد الأمور كلها إلى الله تعالى وحده ، وإرجاعها لقدرته وعلمه وإرادته ، وهو الذي نلقى لله عليه ، نحن المسلمين .

ثانيا : أن للتطور أنواعا باعتبارات مختلفة ، وكلها مقبولة على الناحية الشرعية والواقعية ، يستوى في ذلك التطور اللغوي أو الاجتماعي ، كما يتساوي فيها تطور الآلة والعادة ، بجانب المعرفي والحضاري ، أما التطور التاريخي المادي أو الإحيائي العضوي على الناحية التى قال بها أصحابه،وهو استناد الأسباب إلى بعضها ، بناء على الحتمية والسببية العقلية ، من غير احتياج إلى الله فذلك ما نرفضه نحن المسلمين على كل ناحية .

ثالثاً : أن التعريف بالفكر الإحيائي يكشف عن التداخلات التي أدت إلى فساد الوجه الذي كان من الممكن اعتباره مقبولا ، حتى تحولت به إلى ناحية قبيحة جداً ، فصار غير مقبول ، كما يكشف عن الاعتقادات الفاسدة،لأولئك الذين تبنوا أفكارا غير صحيحة ، أو أقاموها على مظنونات غير سليمة أبدا ، ابتداء من اليونان حتى يومنا هذا،بدليل أن الذين وضعوا بذورها الأولي ـ في الماضي ـ قد سقطوا من سجلات التاريخ ، والذين قفزوا على كتفها أبان عصر النهضة الحديثة في أوربا ، تبين أنهم مجرد جملة من الملفقين ، أو مجموعة من اللصوص المحترفين ، إذ كان كل منهم ينسب لنفسه الفضل فيها،مع أنه في كل مازعم أو ادعى غير فاضل ، يستوى في ذلك أرازموس داروين الجد ، حتى أورلسلي، ومن سيأتي ، أوعلى نفس الخطوات يسير .

رابعاً : أن هناك دوافع نفسية ، وأخرى اجتماعية ، وثالثة تمثلت في بعض مظاهر حيوية ، قادت هؤلاء الأغرار إلى تبني فاسد الآراء والأفكار ، وبقيت فقط مشكلة التسمية لهذه الأفكار الفاسدة ، فمنهم من أطلق عليها اسم الوضعية ، ومنهم من سماها الداروينية ، وغير هؤلاء وأولئك أطلق من التسميات ما شاء ومن ثم فقد تعددت الموضوعات التي تناولوها أيضاً ، لكنها تتلاقي عند غاية واحدة ، هي تأليه المخلوقات المادية ، والكفران بالله رب البرية .

خامسا : أن فكرة التطور الإحيائي العضوي ابتداء من النشوء وإنتهاء بالارتقاء ـ على النحو الذي جاءت به النصوص الشرعية ـ من وجود السببية العادية ، مع استناد الأمور كلها إلى الله تعالى في الخلق المبدئي ، والتطور المستمر عمل مشروع،تشهد به الفطر السليمة ، والعقول الصحيحة، أما أن ترجع إلى الفوضي وعدم القصدية ، أو تستند في وجودها إلى غير الله تعالي ، فهذا أمر مرفوض من جانبنا نحن المسلمين ، ومن جانب أصحاب العقول الصحيحة أيضاً .

سادساً : أن الأدلة التي اعتمد عليها القائلون بالتطور الإحيائي،ما هي إلا شبهات أو اتجاهات فكرية ، تفتقد الأصول العلمية الصحيحة ، كما لا يمكـــن التعويـــل عليها ، لأنها في الغالب الأعم قائمة على الفرضية والاحتمال ، ولا مكان فيـــها للحقيقة أو اليقين العلمي ، ومن المعلوم أنه كلمـــا كـــانت القضايـــا المطروحـــة احتمالية ، فإنها لا تكون أدلة أبدا ، لأن الدليل اليقيني بمثابة البرهان ، لا يمكـــن الطعن عليه ، حتى وإن جاز تأويل النتائج المترتبة عليه .

ثم إن كل فكرة من الأفكار التي أقاموا عليها مفاهيمهم التطورية ، تعارضـــها فكرة أخري مثيلاتها ، كما تعاندها أفكار قريبة من ذات المنطقـــة أو الميـــدان ، وبناء عليه فلا تكون الأفكار التطورية العضوية صحيحة ولا خالصـــة ، وإنمـــا هي أفكار منقوصة أو ناقصة ، ومثلها لا يمكن الاعتداد به ، فضلاً أن تكـــون أمرا يستدل به أو يعتمد عليه .

سابعاً : أنني أثناء عرضي لهذه الأفكار التطورية ، وجدت العديد مـــن وجـــوه العجز في بناء كل فكرة ، كما لمست مناحي هذا العجز والقصور في جزئياتها ، ومن ثم فلا يمكن القول بأنها أفكار قامت على أسس مقبولة ، أو أن القائلين بـــها أمكنهم اصطيادها ، أو استنتاجها من مقدمات صحيحـــة أبـــداً ، إذ لـــو كـــانت مقدماتها سليمةً ، ما وقع فيها الجدل بين مؤيد لها،متردد في تأييده ، أو مؤيد لـــها مؤكد على تأييده من الناحية النظرية ، دون أن يقدم لها أي دعـــم علمـــي ، أو منكر لها ، هادم لكل جزئياتها بأدلة علمية صحيحة .

وفوق ذلك فما من فكرة جاءت على متنها ، إلا وهي منفصلة عن الأخرى ، والمعروف أن حلقات التطور على الناحية الشرعية لا تنفصل إلا فـــي المفـــهوم فقط ، بمعنى أن الفواصل بين النطفة والعلقة والمضغة ، إنمـــا هـــي فواصـــل اعتبارية ، إذ ليس من الممكن أن تقف النطفة فترة عند نهايـــة الانتطـــاف ، أو تفعل ذلك العلقة أو المضغة ، بل إن الخلق الآخر المغاير لمـــا فـــي الأرحـــام ،

يجري مراحل زمانية غير منفصلة عن بعضها انفصالا حقيقياً ، وإنما هو انفصال اعتباري ، إذ ليس بإمكان أحد من الخلائق إيقاف عجلة الزمن ولو برهة – مهما كانت صغيرة – حتى يقال أن الفواصل الحقيقية لها وجود في شئ من ذلك .

ثامناً :أن هذه الأفكار الهدامة قصد بها بلوغ غايات محددة ، من أبرزها القفز فوق القيم الثابتة والأخلاق السليمة بجانب الأعراف الصحيحة ، والأصول العامة ، ومثل ذلك يكون عملاً عبثياً يركن إلى الفوضوية، ويتسم بالنزعات الانحلالية ، بل إنه يعتبر أحد الآثار الهامة التي أدت إلى ما نحن فيه من حال سئ يتردد بين قيم محطمة ، وأشباح تلوح في الأفق .

بجانب أنها مهدت للحركات الإنحلالية حتى تطل برأسها من جديد ، وفي قوة شديدة ، تحت ستار الحاجة إلى البحث العلمي ، ومن ثم ظهر المزيد من المذاهب الإلحادية ، كالوضعية ، والبراجماتيه ، والماركسية ، والمذاهب المادية التي تعلن عنها القنوات الفضائية ، وشبكات المعلومات بأنواعها المختلفة .

تاسعاً : أن استرخاء بعض المفكرين المسلمين في مواجهة هذه الأفكار ليس لصالحهم ، لأن العقيدة الإسلامية هي الوحيدة العامة والخالدة ، الباقية بإبقاء الله لها إلى يوم الدين ، ومن ثم فهي وحدها المستهدفة الآن ، وبشكل رسمي مكشوف ، وقد أوجب الله علي أهل الإسلام القيام بدور التبليغ والبيان ، بجانب تقرير الوجوه ، ودفع الشبه ، ورفع راية الحق إلى يوم القيامة ، فمن تخلى عن ذلك الواجب ، أثم في الدنيا مادام قادراً على القيام به ، بل هو من الفروض الكفائية بالنسبة للجميع ، ومن الفروض العينية بالنسبة لمن أقدره الله عليه .

وبعـــــــــد ،،،

عزيزى القارئ الكريم :

فها أنذا طرحت على مائدة أفكارك،ما يسر الله تعالي لي القيام به ، وأعانني على إتمامه،بالشكل الذى تراه ماثلاً بين يديك ، وإني لعلى يقين من أنه لن يكـون معصوماً ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء ، ومن عصمهم الله تعالى من خلقه، لأمر يعلمه هو ، ومن ثم فإني اعتقد أنه لن يخلو من انتقادات ، لأن ذلك طبيعــة البحث العلمي ، ما دام صاحبه قد قام به .

في نفس الوقت ففي ظل الأزمات المتكررة داخل الأنماط الحياتية ، واندفاع الناس لتلبية احتياجات الظروف المعيشية الضرورية ـ رغبة منهم ، أو قســـرا عليهم ، وإجبارا لهم ـ فإن المساحة الزمانية لم تعد كافية لمطالعة كتاب والحكم عليه ، في شئ من الصبر والأناة ، وبالتالي صار القارئ للكتاب يطلـــب مـــن سطوره صفحاته بل وكلماته ، أن تقوم له بدور الغانية اللعوب ، حتـــى تســتأثر بقلبه ، ثم تفرض نفسها على عقله ، وتدفعه إلى اقتطاع جزء من وقته ، لإشـباع رغبته العقلية ، ومتعته الذهنية .

حتماً لن يخلو هذا الكتاب ـ في بعض فصوله ـ من القيام بهذا الـــدور ، لكن قد لا يقع هذا أمام عيني كل القارئين بنفس السرعة والكفاءة ، أو في وقـــت واحد ، لأن اختلاف الأفكار والعقول أمر مقرر في الأفهام والأذهان ، وهو مـــن الدلائل على وجود الرحيم الرحمن ، وقامت عليه مذاهب كثيرة بحثاً ومناقشـــة تحت تسميات عديدة ، منها الفروق الفردية ، أو القدرات العقلية .

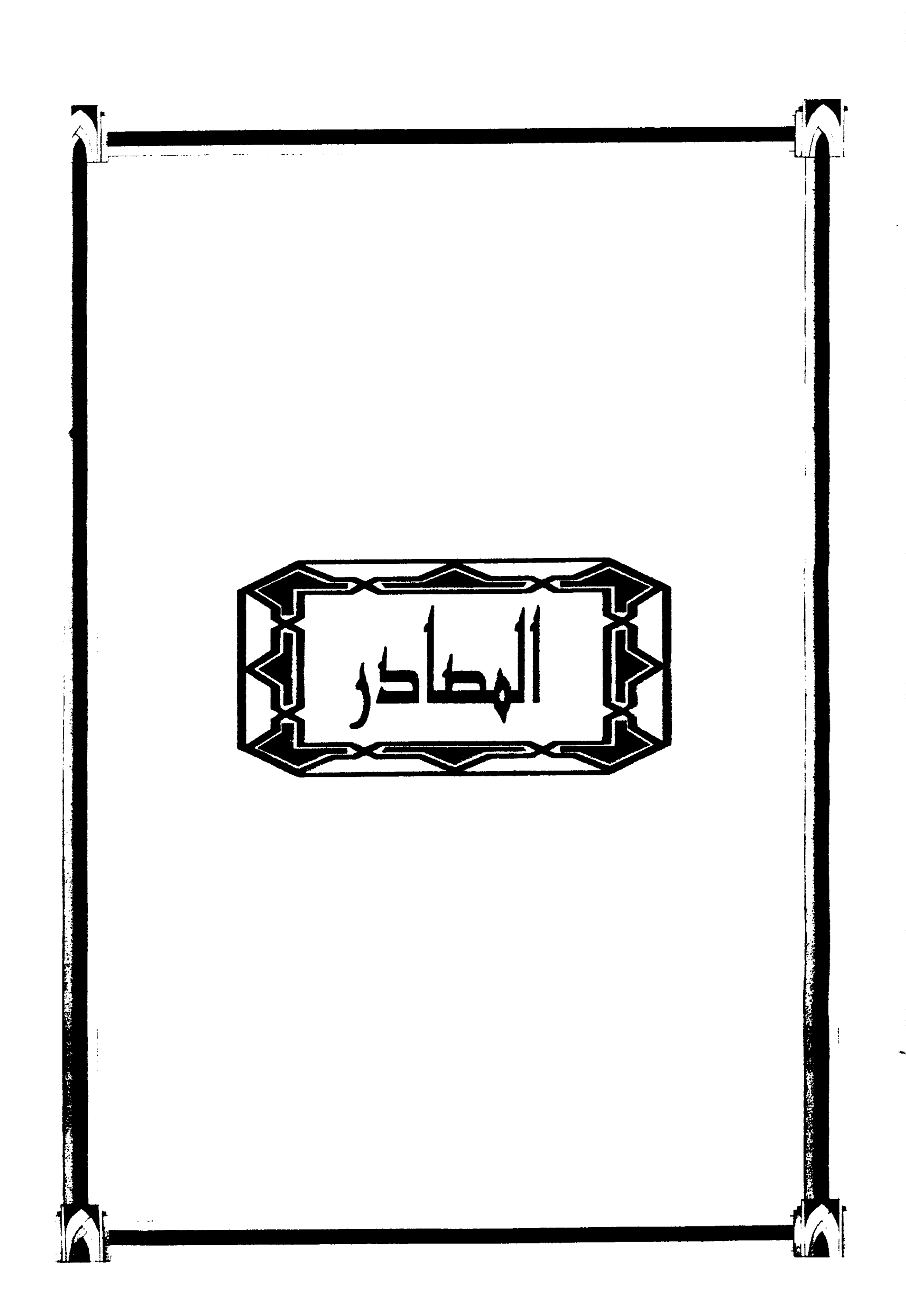
ولعلك عزيزي القارئ الكريم قد طفت معي ذات الرحلة، ورأيتنـــي ألاطـــم الأمواج العالية ، مع أن قاربي ضعيف المجداف والملاح ، ورأيتني كذلك أتـتبع الأفكار في مصادرها ، وأحاول استنطاق عقول أصحابها أثناء العــــرض لكـــل فكرة منها ، ولعلك قد رأيت حجم المعاناة التي لاقيتها أيضاً،أثناء المناقشة لـــها ،

إذ ليس كل فكرة تعرض تقبل ، وإنما للعرض طريقة ، وللمناقشة طرائق ، وقد بذلت في كليهما قدر طاقتي ، وما سجلت هذه المفردات إلا لتكون على علم بما بذلت ، أما الأجر فمن الله تعالى .

بيد أنك قدر رأيت بعقلك اللماح ، وفكرك الثاقب ما رأيت ، وأدركت أن الرحلة انتهت عند شواطئ الجزء الأول ، وأن المراسي التي وفقنا الله إليها صارت قوية ، فهل أطمع في مصاحبتي لاستكمال باقي الرحلة أو بعضها أثناء السباحة في محيط الجزء الثاني من هذا الكتاب ، أم تقنع بما وقفت عليه ، ونقفل راجعاً إلى مخدعك الآمن ، مفضلاً الهدوء ، والراحة على تقلبات الترحال ، ومشاق الأسفار،ومخبئات المفاجئات،هذا لك أو ذاك،مارس حقك بإرادتك الحرة.

أما أنا فسأظل ملاحاً يقود قاربه الضعيف ، حيث يقترب به من الموجات الفكرية المندفعة ، بغية العمل على كسر حدتها ، وترميم الجسور التي تهدمت بسببها ، وسندي هو الله وحده ، وعدتي هو كتاب الله وسنة رسوله ، وغايتي أن أكون عبداً خالصاً لله رب العالمين مردداً قول الله تعالى :" ان أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب " .




المصادر

أهم المصادر

هناك ملاحظات أود الإشارة إليها وهي:

الأولى: أن البحث والباحث مدينان لكل من ساهم بفكرة، أو ساعد على استيضاح موقف، أو أمكن الرجوع إليه في تفصيل شيء جاء مجملا، أو فك إبهام ما كان مغلقا.

الثانية: أن العمل العلمي لابد له من مصادر موثقة يقوم عليها، واتجاهات فكرية ينهض لبيانها، ثم إثبات الموقف منها، وذلك يحتاج دعم المصادر العلمية.

الثالثة: أن هذه المصادر أمكن ترتيبها طبقا للطريقة العلمية الحديثة، من ذكر القرآن الكريم وعلومه أولا، ثم السنة المطهرة الصحيحة وعلومها ثانيا، ثم المصادر العربية والتراجم ثالثا، وأخيرا المصادر العامة، مرتبة حسب حروف الهجاء، مع تقديم أسم الشهرة للمؤلف أولا، بعد تجريده من حرف أل إن وجد فيه، ثم اللقب، وأخيرا الاسم و سنة الوفاة إن وجدت، ثم اسم المصدر والمطبعة أو الناشر، وسنة الطبع، متى كان ذلك ممكنا.

أولا: القرآن الكريم وعلومه

١) القرآن الكريم.

٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم-للإمام/ أبي السعود.

٣) البحر المحيط-وبهامشه النهر الماد-للعلامة/ أبى حيان التوحيدي.

٤) التسهيل في علوم التنزيل -العلامة/ ابن جزى الكلبي.

٥) تفسير التحرير والتنوير- العلامة الأستاذ الأكبر/ الطاهر ابن عاشور- ط الحلبي ١٣٨٤هـ.

٦) تفسير جزء عم -الأستاذ الإمام /محمد عبده -ط صبيح ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

٧) تفسير سورة آل عمران-الشيخ/ محمد عبد العظيم بهنسي - ط أولى ١٩٥٧م.

٨) تفسير سورة النحل - الشيخ/ محمد على عبد الواحد الحسيني - ط المشهد الحسيني.

٩) تفسير سورة النحل - الشيخ/ محمود السيد التهامي - ط الدار العصرية.

١٠) تنوير الأذهان من تفسير روح البيان -الإمام/ البروسوي -ط الصابوني ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

١١) الجامع لأحكام القران - الإمام/ القرطبي.

١٢) جامع البيان في تأويل آي القران- الإمام/ الطبري.

١٣) حاشية الصاوي على الجلالين -الشيخ/ أحمد الصاوي -ط الحلبي.

١٤) الدر المنثور في التفسير بالمأثور -الإمام /جلال الدين السيوطي.

١٥) روح المعاني -الإمام/ محمود شهاب الدين الألوسي.

١٦) زاد المسير في علم التفسير-الشيخ/ ابن الجوزي.

١٧) صفوة التفاسير - الشيخ/ محمد على الصابوني.

١٨) الضياء في تفسير سورة الإسراء-الشيخ/محمد على أبو العلا-المطبعة المحمدية بالديار اليمنية ١٣١٩هـ.

١٩) في ظلال القرآن -الأستاذ/ سيد قطب.

٢٠) الكشاف عن حقائق التأويل-الإمام/ الزمخشري- ط دار الريان.

٢١) لباب التأويل في معاني التنزيل -الإمام/ الخازن.

٢٢) مدارك التنزيل وحقائق التأويل-الإمام /النسفي.

٢٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم-الأستاذ/ محمد فؤاد عبد الباقي.

٢٤) مفاتيح الغيب -الإمام/ الفخر الرازي- ط دار الغد العربي.

٢٥) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق الأستاذ/ محمد سيد كيلاني-ط دار المعرفة-بيروت.

٢٦) مصحف الشروق المفسر الميسر.

٢٧) نظرات في سورة الأنبياء-الشيخ/ محمد ذكى عبد الصبور-ط أولى -دار مراد١٩٤٣م.

ثانيا:السنة النبوية المطهرة وعلومها.

٢٨) الإصابة في تمييز الصحابة- العلامة/ ابن حجر العسقلاني.

٢٩) الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية- ط الحلبي ١٣٣٥هـ.

٣٠) الجامع الصغير- الإمام/ السيوطي.

٣١) جامع الأصول في أحاديث الرسول.

٣٢) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول –الشيخ/حفني ناصف.
٣٣) سنن البيهقى–للإمام/ البيهقى.
٣٤) سنن الإمام الترمذي –الإمام/ الترمذي.
٣٥) سنن أبى داود–للإمام/ الحافظ أبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى.
٣٦) شرح مسند أبى حنيفة –الإمام/ القاري.
٣٧) شرح السنة –الإمام/ البغوى.
٣٨) شرح الفشنى على الأربعين النووية–العلامة/ الفشنى –ط صبيح١٣٦٥هـ.
٣٩) صحيح مسلم–للإمام/ مسلم النيسابورى.
٤٠) صحيح مسلم بشرح النووي –ط دار الريان.
٤١) فتح البارى بشرح صحيح البخاري –الإمام/ ابن حجر العسقلانى.
٤٢) في هدى البشير النذير –العلامة/ محمد بن إبراهيم المنذرى –الدار الإحسانية بمكة المكرمة–ط ١٣٢٥
٤٣) كنز العمال –العلامة/ علاء الدين المتقى الهندي – مؤسسة الرسالة –دمشق ١٩٩٣م.
٤٤) مجمع الفرائد ومنبع الفوائد –الحافظ نور الدين الهيثمى تحرير العراقي وابن حجر.
٤٥) مسند الإمام أحمد
٤٦) مصنف عبد الرازق.
٤٧) من أنوار السنة –العلامة الشيخ/ عبد العظيم محمود دحلان– ط مكة المكرمة ١٣٩٥هـ.
٤٨) من هدى السنة–للشيخ/ عبد الراضي حسن القليوبي–المطبعة العامرية ١٣١٢ هـ.
٤٩) النهاية في غريب الحديث والأثر–الإمام/ بن الأثير.
٥٠) من أنوار السنة المباركة–للشيخ/ محمد منصور رضوان–ط صبيح بالقاهرة.

ثالثاً:المعاجم العربية والموسوعات والدوريات والرسائل العلمية

٥١) جهود الشيخ حسين الجسر الكلامية في الإلهيات –الأستاذ/ فتحي عبد الرحمن الحوفى رسالة ماجستير بأصول الدين طنطا٢٠٠٠م
٥٢) دائرة معارف الشباب –الدكتورة/ فاطمة محجوب.
٥٣) القاموس المحيط–العلامة /مجد الدين الفيروزابادي.

٥٤) قطر المحيط –المعلم /لويس المعلوف.

٥٥) الكتاب المقدس.

٥٦) لسان العرب –العلامة/ ابن منظور–ط دار المعارف.

٥٧) مختار الصحاح –العلامة /أبو بكر الرازي.

٥٨) المعجم العلمي المصور–نشرة الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

٥٩) المعجم الوجيز –ط وزارة التربية والتعليم ١٩٩٢م.

٦٠) الموسوعة العربية الميسرة –الدكتور /محمد شفيق غربال.

٦١) اساس البلاغة –العلامة/ الزمخشرى.

٦٢) مهمات التعاريف–العلامة/ المناوى.

رابعا:المصادر العامة.

حرف الألف

الأفغاني– الأستاذ الشيخ/ جمال الدين

٦٣)الرد على الدهريين–ط دار الكرنك.

الأصفهانى–الشيخ/ أبو الثناء شمس الدين محمود.

٦٤)مطالع الأنظار على طوالع الأنوار للبيضاوي وبالهامش حاشية الجرجاني.

اهاف– توبي.

٦٥)فجر العلم الحديث– ترجمة الدكتور/ أحمد محمود صبحي.

ابن الدباغ–الشيخ/ عبد الرحمن محمد الأنصاري

٦٦)مشارق القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب–تحقيق ريتر–ط دار صادر بيروت.

الأصفهانى الدكتور/ محمد رضا

٦٧)نقد فلسفة دارون(الجزء الأول).

الإسناوى– الشيخ/ على عبد العظيم

٦٨)دين الله لا دين الشيطان–ط دار الجهاد الإسلامي– دمشق ١٣٣٥ه

استيس–وولتر

٦٩)تاريخ الفلسفة الوجودية–ترجمة هناء معوض –ط دار الفكر –بيروت ١٩٨٣م.

ابن سينا – الشيخ الرئيس/

٧٠)الإشارات والتنبيهات–تحقيق الدكتور/ سليمان رضا– ط دار المعارف.

٧١)تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات– ط دار العرب للبستاني –بيروت.

أبو العينين – الدكتور/ حسن سيد أحمد.

٧٢) كوكب الأرض وظواهره التضاريسية الكبرى–ط مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٤م

ادموند– جورج

٧٣)الارتقاء قمة التطور–ترجمة فؤاد عليان–ط دار الفكر –بيروت١٩٧١م.

أدرمان – جورج

٧٤)البيئة والتطور الحضاري– ترجمة نهال صبحي ١٩٨٣م

اوسبورت –الدكتور/.

٧٥)الماركسية والتحليل النفسي_ ترجمة الدكتورة/ سعاد الشرقاوى– ط أولى دار المعارف.

انجريد –توماس.

٧٦)مشكلات تطورية –ترجمة هناء الراغب–ط دار النفائس.

انطونى –ماكدونالد

٧٧) المصير المشترك – ترجمة صفوت راشد– ط دار الفؤاد١٩٨٧م.

الأشوح –الشيخ/ محمد نصر الدين.

٧٨) العرب وحضارتهم القديمة– ط أولى الدار المصرية ١٣٠٥هـ

انجرمان –توماس

٧٩)الحضارات القديمة – ترجمة هناء رشدي –ط دار الجيل بيروت ١٩٦٥م.

الأشقر – الدكتور/ محمد عثمان

٨٠)جنون البشر –ط دار القدس الشريف ١٩٩٩م

أنطوان– الأستاذ/ إلياس

٨١)تطور الأحياء–المطبعة العصرية ١٩٢٧م.

أبو عزيز — الدكتور/ عبد الفتاح محمد

٨٢)التطور في المفهوم الأسلامى—ط بغداد ١٩٦٩م.

أبودقيقة— الأستاذ الشيخ/ محمود

٨٣) القول السديد في علم التوحيد—تحقيق الدكتور/ عوض الله جاد حجازي—ط مجمع البحوث الإسلامية ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

إمام — الدكتور/إمام عبد الفتاح

٨٤)المدخل إلى علم الفلسفة —ط القاهرة.

ابن رشد —الشيخ الفيلسوف/

٨٥)تهافت التهافت —تحقيق الدكتور/ سليمان دينا—ط دار المعارف.

أبو حطب— الدكتور/فؤاد

٨٦)القدرات العقلية—مكتبة الأنجلو ط٦ ١٩٩٦م.

ابادير— تونى

٨٧)الأحياء إكسير الحياة—ترجمة وفاء صبري— ط ثانية١٩٦٧م.

ابن القيم —العلامة الشيخ/

٨٨)مدارج السالكين ج—ط دار التراث.٢

أبو الحسن —الدكتور/ فوزي محمود

٨٩)التطور ضرورة الحياة— ط دار التوفيق ١٩٨٣م

حرف الباء

باشميل —الأستاذ/ محمد أحمد

٩٠)الإسلام ونظرية دارون—ط الثالثة ١٩٨٤م

بلوت —الأستاذ /شمس الدين أق

٩١)دارون ونظرية التطور—ترجمة الأستاذ/ أورخان محمد على—ط دار الصفوة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

بورت— رابو

٩٢)مبادىء الفلسفة— ترجمة الأستاذ/ أحمد أمين —ط بيروت ١٩٦٩م

بينز –وليام.

٩٣)الهندسة الوراثية للجميع_ترجمة الدكتور/ أحمد مستجير –الهيئة المصرية ١٩٩٦م.

براديس –باتورب

٩٤) تكنولوجيا الانتقال في المكان –ترجمة أمل مرسى ١٩٨٤م

بنتيامين – ا.ب

٩٥)تطورات في تقنية معاصرة– ترجمة عادل محمد– ط اولى١٩٥١م.

برونسكي – ا.ج

٩٦) التطور التاريخي – ترجمة صبحي نقولا –بيروت ١٩٦٢.

بينز –وليم

٩٧)حضارة المصريين القدماء –ترجمة على فتح الله –ط بيروت ١٩٦٥م.

باتل –جوزيف

٩٨) الشرق القديم معارفه وأساطيره –ترجمة محمد فؤاد –ط بيروت ١٩٧١م.

بل– أنطوان

٩٩) تلاقى الحضارات –ترجمة الدكتور/ حسن الصغير – ط٣ دار المعتصم بغداد ١٩٦٥م.

١٠٠) الآثار الشرقية واليهودية – ترجمة نجاة السيد – ط دار الغد بيروت ١٩٧٥م.

بريل–كارديتز

١٠١)هؤلاء درسوا الإنسان– ترجمة الدكتور/ أمين الشريف– ط دار اليقظة العربية –بيروت ١٩٦٤م.

بيومي– الدكتور /عبد المعطى محمد و الدكتور/ أحمد الشاعر

١٠٢) الإسلام والتيارات المعاصرة – ط دار الطباعة المحمدية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

بيومي –الدكتور/ عبد المعطى محمد بيومي

١٠٣) نظرية التطور بين داروين والمفكرين الإسلاميين –حولية كلية أصول الدين بالقاهرة العدد السادس لسنة ١٤٠٥هـ/١٩٨٩م.

برستيد –جيمس هنرى

١٠٤)فجر الضمير –ترجمة الدكتور/ حسن سليم حسن – الهيئة العامة المصرية للكتاب

بنتيوم ـتوهاف

١٠٥)النشوء والارتقاء ـترجمة محسن محمد.

البدرشيني ـالأستاذ/ نور الدين محمد

١٠٦)التطور وقوانينه ـ ط دار الفؤاد ١٩٢١ه

بروتو- إميل

١٠٧) العلم والدين ـترجمة هناء عبد المعطى ـط ثانية١٩٨٧م.

برونوفسكي ـ جاكوب

١٠٨) التطور الحضاري للإنسان ـارتقاء الإنسان ـترجمة الدكتور/ أحمد مستجير ـسلسلة الألف الكتاب الثاني العدد ٣٦

بنتيام ـأ.ب

١٠٩)الإنسان والحضارة ـترجمة فؤاد حسين ـط دار الفجر بيروت ١٩٦١

برونسكي ـأ.ب

١١٠)الكائن الحي والتطور البيولوجي ـترجمة الأستاذ/ أنيس عبد الملك منصور ـط دار الجهل ـ بيروت ١٩٨٥م

البغدادي- العلامة/ أبو البركات هبة الله بن ملكا.

١١١) المعتبر في الحكمة ـ ط حيدر أباد ١٣٥٧ه/١٩٣٨م

البقصمي ـ الدكتورة/ ناهد

١١٢) الهندسة الوراثية ـ سلسلة عالم المعرفة ـبالكويت

بوتورايس ـأ.ب

١١٣)زعماء المذهب الطبيعي ـترجمة عزة واصف ـط دار مهنا ١٩٧٠م

باستير ـجان

١١٤)اتجاهات الفلاسفة في الغرب ـترجمة الأستاذ/ فرج ذكى ـط عالم الكتاب ١٩٦٣

بروفسكي ـ أ.ب

١١٥)التطور العلمي ومراحله ـ ترجمة عبد العظيم راشد ـ ط أولى ١٩٨٧م.

منسقيون - أ.ب

١١٦) الأنا الذاتي والآخر - ترجمة لويس عزمي - ط دار القلم.

البوطي- الدكتور/ محمد سعيد رمضان

١١٧) نقض أوهام المادية الجدلية الديالكتيكية - ط دار الفكر سورية.

بدوي- الدكتور/ محمد جلال

١١٨) محاكم التفتيش في منظور التيارات الناهضة للدين - ط ثالثة ١٩٦٤م.

البدوي -الدكتور /عبدالعظيم محمد

١١٩)الطواغيت الآلهة البشرية - مطبعة الفجر الجديد بدمشق ١٩٨٧م .

براوين -توماس

١٢٠)العصور الجيولوجية القديمة- ترجمة الدكتور/ محمد سند- ط أولى بيروت١٩٧١م.

ألبرت - هنري

١٢١)الجيولوجيا القديمة -ترجمة حنان متولي- ١٩٥٧م وطبعة أخرى .

بينز -وليم جورج

١٢٢)علم طبقات الأرض -ترجمة وفاء العتر -ط أولى دار القلم بدمشق .

باول - ريتشارد

١٢٣) التطور والفسيولوجيا - ترجمة رشاد فوزي -ط دار الجيل بيروت ١٩٨٤م.

بروليه- لويس دي

١٢٤)الفيزياء والميكروفزياء -ترجمة رمسيس شحاتة - الهيئة العامة للثقافة سلسلة الألف كتاب ١٩٩٧م.

البكري- العلامة/ أبو الحسن

١٢٥)الدرة المكللة في فتح مكة المبجلة-ط المطبعة العامرية الشرقية ١٣٠٠هـ.

بدوي - الدكتور/ عبد الرحمن

١٢٦)خريف الفكر-ط دار النهضة (وراجع له ربيع الفكر أيضا فكل منهما يخدم الآخر).

حرف التاء

توماسكى — روبرت

١٢٧)قياسات الزمن المتطورة — ترجمة هدى العبد الله —ط الكويت ١٩٧١م.

تاتيهوم— أ.ب

١٢٨)حضارة ما قبل التاريخ — ترجمة حنان وصفى— ط بيروت ١٩٧١م .

تايام — جوتفريد

١٢٩) الشرق القديم — ترجمة زهدي فضل —ط الرباط ١٩٦١م.

تاتيهوم —لويس

١٣٠) الحضارة الشرقية والتطور الحضاري — ترجمة وفاء زهدي ١٩٦٧م.

توكاريف - أ.سيرغى

١٣١)الأديان في تاريخ شعوب العالم — ترجمة أحمد فاضل— ط الأهالي دمشق ١٩٩٨م.

١٣٢) التطور الحديث —ترجمة عبد الملاك صبرى—ط دار المعتصم ١٩٩٩م.

توفيق —الدكتور/ صبري حسن

١٣٣) النظريات الفلسفية قديما وحديثا— ط دار الفجر الجديد ١٩٥٧م، ط دار الفكر بيروت ١٩٨٥م.

التونى — الدكتور/ محمد عبد العظيم

١٣٤) البيولوجيا والإنسان — ط ثالثة دار الهدى ١٩٩٧م.

تفاحة — الدكتور/ محمد عبد العظيم

١٣٥) مقدمة في علم الكائنات الحية —ط أولى ١٩٨٦م.

توماس— فردريك

١٣٦)التطور الأحيائى —ترجمة زاهد شكري —ط ثالثة دار الفجر الجديد ١٩٩٧م.

توماس —هنرى

١٣٧)زعماء التطور الإحيائى من لامارك الى والاس — ترجمة أمل صبحي—ط١٩٨٣م.

توفسكى— روبرت

١٣٨) قياسات الزمن المتطور— ترجمة شوقي صبحي — ط دار الفجر الجديد١٩٨٧م.

توفيق — الدكتور/ فوزي محمد

١٣٩)التطور ونظرياته القديمة والحديثة-ط دار الفؤاد ١٩٦٧م.

حرف الثاء

الثروي - الشيخ/ عبد العظيم حسن

١٤٠)تاريخ العرب في الإسلام -ط دار الطباعة الفنية ١٩٤٥م.

الثروي- الشيخ/ محمد منصور

١٤١) العقيدة الإسلامية -ط أولى ١٣٦٥هـ.

ثروت - الدكتور/ حسن محمد

١٤٢) الأديرة -نشأتها وأهدافها - الطبعة الأولى.

ثونالتس -الفريد

١٤٣)علم الوراثة -ترجمة محسن السيد رزق - ط أولى ١٩٨١هـ.

ثابت - الدكتور/ فرج السيد حسن

١٤٤)التطور بين الأنصار والخصوم -ط ثانية ١٩٧٧ م.

ثابت- الدكتور/ محمد السيد

١٤٥) فلاسفة الغرب -ط ثانية ١٩٩٧م.

ثورك- أ.ب

١٤٦)الديانات القديمة -ترجمة لطفي السيد فخري ١٩٥٣م.

ثروت - الدكتور/ فوزي محمد

١٤٧) العرب والتراث الحضاري -ط الثانية الدار القومية ١٩٧٢م.

ثروت - الدكتور/ عبد العظيم حسن

١٤٨)آسيا في التاريخ القديم -ط الثالثة دار الجيل بيروت ١٩٦١م.

حرف الجيم

الجمل- الدكتور/ أحمد عبده حمردة

١٤٩) في المذاهب المعاصرة -ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة ١٤١١هـ/١٩٩١م.

١٥٠) نظرات في الفلسفة الحديثة-ط دار الطباعة المحمدية بالقاهرة١٩٩١م.

جرام – بللي

١٥١)أثر الحضارة الشرقية في اليونانية –ترجمة رزق فوزي ١٩٦٧م.

الجرجاني –العلامة/ عبد القاهر

١٥٢)دلائل الأعجاز مع مقدمة ضافية تحقيق الدكتور /محمد عبد المنعم خفاجي مطبعة الخانجى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

جودت– الأستاذ/ نور الدين محمد

١٥٣)الإنسان البدائي والحضارة–ط أولى الدار العامرية ١٩٥١م.

جيد – أندريه

١٥٤) فلاسفة الغرب الطبيعيون – ج١ ترجمة الدكتور/ فايز الصباغ – ط دار الجيل لبنان ١٩٦١م.

جابر –الدكتور /هاشم السيد

١٥٥)ارنست هيكل وفلسفته – ط الثانية بالمغرب ١٩٦٥م.

جابر – الدكتور/ حسن محمد

١٥٦) الخطر الأسرائيلى –ط الثالثة ١٩٦٥م.

جرجس– القس/ اسكندر رزق

١٥٧) صحة الكتاب المقدس –ط دار الكرنك ١٩٦٧م.

الجرجانى –العلامة /السيد الشريف

١٥٨) حاشية الجرجاني على مطالع الأنظار على طوالع الأنوار.

جينز –جيمس

١٥٩)الفيزياء والفلسفة – ترجمة جعفر رجب –ط دار المعارف ١٩٨١م.

جرهار –الفريد

١٦٠) التطور الأحيائى – ترجمة الأستاذ/ يسرى عبد الباقي –ط بغداد١٩٦٣م.

حرف الحاء

حسن–الأستاذ /عباس

١٦١)اللغة و النحو بين القديم والحديث ط دار المعارف١٩٩٦م.

حسن-الأستاذ/ عبد الباقي محمد

١٦٢)النبوة ضرورة اجتماعية ط الدار العامرة ١٩٢١م.

حجازي-الدكتور/ عوض الله جاد و الدكتور محمد السيد نعيم

١٦٣)تاريخ الفلسفة اليونانية.

الحلبي- الدكتور/ فوزي محمد طه

١٦٤)نظرات في التطور ومدارسه-ط دار بسام سوريا ١٩٧٥م.

الحديدي- الدكتور/ حسام أحمد

١٦٥)قواعد التطور ونواميسه — ط ثالثة ١٩٩٥م.

الحفار- الدكتور/ سعيد محمد

١٦٦)البيولوجيا ومصير الإنسان -ط عالم المعرفة بالكويت العدد٨٢.

حسين — الإمام الأكبر الشيخ/ محمد الخضر

١٦٧)نور اليقين في سيرة سيد المرسلين.

حسن- الدكتور/ ماجد محمد

١٦٨)الطب عند العرب -ط أولى دار القاسم- دمشق ١٩٨٧م.

الحسيني — الدكتور/ الشرباصي

١٦٩)خلاصة في أدب البحث والمناظرة- ط الحلبي١٩٦٤م.

حكمت الله -الشيخ/ على محمد

١٧٠) العقائد الوثنية -ط الدار الإسلامية ١٩٣٢م.

حرف الخاء

الخطيب-الأستاذ/ محمود عبد الكريم

١٧١) التطور ودعاته-ط دار الفجر الجديد- أولى ١٩٥٧م.

الخشاب — الدكتور/ مصطفى

١٧٢) علم الاجتماع ومدارسه — الكتاب الثاني المدخل إلى علم الاجتماع — مكتبة الأنجلو.

خان — الأستاذ/ وحيد الدين

١٧٣)الدين في مواجهة العلم —ط دار التراث، ط دار الاعتصام.

الخشت — الأستاذ/ محمد عثمان

١٧٤) وليس الذكر كالأنثى — مكتبة القرآن بالقاهرة ١٩٨٥م.

خان- الدكتور/ فيصل محمد

١٧٥) تطور الكائنات أسطورة — ط أولى دار النهر بيروت ١٩٩٩م.

خضر — الدكتور /فوزي محمد

١٧٦) أوربا الكنيسة والسياسة ط ثانية ١٩٩٧م.

خميس — الدكتور/ سليمان سليمان

١٧٧)محاضرات في العقيدة —مطبعة عطايا.

خليل — الدكتور/ عبد العظيم محمد

١٧٨) الحضارة المصرية القديمة —ط٣ ١٩٥٧م.

حرف الدال

دوكنز - ريتشارد

١٧٩)الجديد في الانتخاب الطبيعي —ترجمة مراد فضل ١٩٨٨م.

دوماس —فرانسوا

١٨٠) آلهة مصر القديمة —ترجمة ذكى موسى —سلسة الألف كتاب الهيئة المصرية ١٩٦٨م.

دراز- الدكتور/ محمد عبد الله

١٨١)الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان — مطبعة السعادة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

الدر دير- العلامة/ أبو البركات السيد أحمد

١٨٢) شرح القطب على رسالته في علم البيان مع حاشية العلامة الأنبابى —ط فرج الكردي بمصر ١٣٧٥هـ.

ديكسون —الدكتور/ جون

١٨٣)العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث —ترجمة شعبة الترجمة باليونسكو عالم المعرفة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

دوتش- ادوارد

١٨٤)التطور عملياته ونتائجه – ترجمة حنان رزق.

دوشهان- الدكتور/ يوهان

١٨٥) الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد – ترجمة الدكتور/ عيسى على عيسى الهيئة المصرية العامة ١٩٨٨م.

دوهان – جون

١٨٦)اليهود واعتقاداتهم –ترجمة الدكتور/ حسن ذكي.

الدكر –الدكتور/ صبحي محمد.

١٨٧)الفلسفة الماركسية والدين –ط٢ ١٩٦٧م.

دستوفسكي –بانيئر

١٨٨) التطوريون الأوائل –ترجمة رشدي النجار ط١ ١٩٩٥م.

دارون –تشارلز روبرت

١٨٩)أصل الأنواع –ترجمة الأستاذ/ إسماعيل مظهر–ط٢ دار العصور ١٩٢٨م.

١٩٠) أصل الأنواع – ترجمة خاطر مرسى –المطبعة العصرية بيروت.

الدبشه–الأستاذ/ عبد الحميد سيف الدين

١٩١)التطور والتطوريون –ط الدار المصرية ١٩٨٧م.

الدكر – الدكتور/ خيري السيد

١٩٢) المجتمع وعوامل تطوره – مكتبة سعيد رأفت ١٩٩٣م.

دويكس– أنتوني

١٩٣) الجهاز العصبي في الكائنات الحية –ترجمة عبد العظيم حسن، هدى نبوي ط١ ١٩٨٥م.

الديب–الدكتور/ حسن رمزي

١٩٤)علم الأجنة من منظور حديث–نشرة المكتب الدولي ١٩٨٧م.

ديورانت –ول

١٩٥) قصة الحضارة — المجلد الأول — الكتاب الثاني —الشرق الأدنى —ترجمة الأستاذ /محمد بدران.

حرف الذال

ذكى — الدكتور/ توفيق محمد

١٩٦) أصحاب التطور العضوي —ط سعيد رأفت ١٩٧٨م.

ذكى - الدكتور /صفوت محمد

١٩٧)علم التشريح المقارن ونظرياته العلمية الحديثة —ط١ دار الغد الجديد ١٩٩٧م.

الذهبي — شيخ الإسلام /محمد بن أحمد بن عثمان

١٩٨)تاريخ الإسلام ومشاهير الأعلام ج٢— السيرة النبوية —تحقيق حسام المقدس.

حرف الراء

راشد— الدكتور/ التهامي محمود

١٩٩) الهندسة الوراثية والبيوكميائية—ط الدار العصرية ١٩٨٧م.

رضوان — الدكتور/ منصور عبد الباقي

٢٠٠)النحو واللغة — ط دار الرضوان١٣١٦هـ.

روبرت—أ.ب

٢٠١)أعلام الداروينية — ترجمة أمل صبري —ط دار القلم بيروت١٩٧٥م.

رزق — الدكتور /صفوت السيد

٢٠٢) الفكر اليوناني وما وراء الطبيعة—ط أولى ١٩٧٦م.

رضوان— الدكتور/ سعيد عبد العظيم

٢٠٣)أوربا والعصور الوسطي —ط ثانية ١٩٩٣م.

رمضان— الدكتور/ محمود، والدكتور/ ثروت العجمي

٢٠٤) التطور والدين ط٢ ١٩٧٧م.

رمضان —الدكتور/ عدلي محمد

٢٠٥) الفروق الفردية بين الباحثين — ط الدار الجامعية ١٩٧٥م

راسل –برتراند

٢٠٦)فلسفتي –ترجمة حنان فوزى ١٩٧٥م.

رزق– الدكتور/ فوزي محمد

٢٠٧)الحضارة الإنسانية ط الثالثة ١٩٥٣م.

رزق– القس صموئيل

٢٠٨)إيماني بالكتاب المقدس–ط مكتبة المحبة ١٩٤٥م.

روز –ستيفين وآخرون

٢٠٩) علم الأحياء والأيدولوجيا الطبيعة البشرية –ترجمة الدكتور/ حسن خالد ١٩٨١م.

حرف الزاي

زاهر –الدكتور/ رفقي

٢١٠)أوهام الماركسية –مطبعة زاهر– الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

٢١١) عصر القلق– دار التضامن — الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

زقزوق–الدكتور/ محمود حمدي

٢١٢)تمهيد للفلسفة ط٢ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

زكريا– الدكتور/ على محمد

٢١٣)أوربا في عصر النهضة –ط دار الكرنك ١٩٧٥م.

زيد–أ.ب توماس

٢١٤) عصر ما قبل التاريخ –ترجمة الأستاذ /نور الدين فضل– دار الفكر بيروت ١٩٨٧م.

زكريا –الدكتور/ فؤاد

٢١٥) التفكير العلمي –الهيئة المصرية العامة ١٩٩٤م.

زاهر –الدكتور /محمد السيد

٢١٦) التطور والتطوريون –ط أولى ١٩٧٥م.

زيدان –جورج

٢١٧) العالم من خلال السدم والمجرات —ترجمة هدى فوزي

زهدي — الدكتور /محمد السيد

٢١٨) التطور ومشكلاته—ط٢ دار الفجر الجديد ١٩٨٣ م.

زانسكي– رويا

٢١٩)الوراثة ونشأة الأنواع —ترجمة الدكتور/ رمزي اسكندر — ط٢ ١٩٧٩م.

زهران– الدكتور/ فوزي على عبد العظيم

٢٢٠) التطور والقوانين العلمية– ط أولى ١٩٨٧م.

زيادة– الدكتور/ محمود محمد

٢٢١) العرب وظهور الإسلام —السيرة النبوية —ط المطبعة المحمدية بالقاهرة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

زانلسكي —ف.س

٢٢٢)الزمن وقياسه —ترجمة المهندس إبراهيم شوشة —الهيئة المصرية العامة ١٩٨٨م.

حرف السين

سليمان– الدكتور/ شعبان عبد الحميد

٢٢٣)التطور المشكلات والحلول — ط الدار العصرية ١٩٨١م.

سلطان– الدكتورة/ وفاء محمد

٢٢٤) التطور البيولوجي ومدارسه —ط سعيد رأفت ١٩٨١م.

سورز —أ.ب

٢٢٥)تطور الكائنات الحية — ترجمة صالح مرسى ١٩٧٥م.

سبع — الأستاذ /توفيق محمد

٢٢٦)قيم حضارية في القرآن الكريم ج١ — عالم ما قبل القرآن —ط دار المنار بالقاهرة.

السيد– الدكتور/ رمزي محمد

٢٢٧)جنايات التطور على الدين والعلم — ط دار المختار ١٩٦١م.

سينوت–ادموند– و

٢٢٨) حياة الروح في ضوء العلم –ترجمة إسماعيل مظهر — الأنجلو المصرية ١٩٦٠م.
٢٢٩)الخلية والروح في ضوء العلم–ترجمة الأستاذ/ إسماعيل مظهر –بيروت ١٩٦٥م.
سبنسر –جوهار
٢٣٠)التطور المعكوس –ترجمة وفاء صادق سليمان –ط كركوك ١٩٥٧م.
سيد أحمد — الدكتور /عبد العظيم محمد
٢٣١) الكائنات الحية والإنسان –ط دار الأنوار بيروت ١٩٧٧م.
سليمان — الدكتور/ رجب بيومي
٢٣٢) علم التشريح المقارن –ط٢ ١٩٩٥م.
سلستى –جورج
٢٣٣) عباقرة العلم –ترجمة وليم مرقص ١٩٦٥م.
سليمان — الأستاذ/ زكى محمد
٢٣٤) الإنسان والحضارة المعاصرة –ط٢ دار مختار للطباعة والنشر ١٩٧١م.
سارتون –جورج
٢٣٥) تاريخ العلم — ترجمة مجموعة من العلماء –ط دار المعارف ١٩٩١م.
الساعاتي — الدكتورة/ سامية حسن
٢٣٦)الاختيار للزواج والتغيير الإجتماعى –مكتبة سعيد رأفت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
السيد– الدكتور/ محمد سعيد
٢٣٧) النفس الإنسانية في الفكر المعاصر ط١ ١٩٥٨م.
السجان –الدكتور/ توفيق عبد الخالق
٢٣٨)مميزات النحو العربي –ط دار الرضوان ١٩٦٧م.
السيوطى– الإمام /جلال الدين
٢٣٩) المزهر في علوم اللغة ج١ –ط دار التراث بالقاهرة.

حرف الشين

شيللر–ا–هربرت

٢٤٠)المتلاعبون بالعقول– ترجمة عبد السلام رضوان ط عالم المعرفة .

شاخت–الدكتور/ بورون

٢٤١)الزمان المتحرك– ترجمة أحمد عبد البديع ج١ الطبعة الثانية ببروت ١٩٧١م.

الشطي–الدكتور/ حسين محمد سليمان

٢٤٢)التطور وتاريخه– ط ثانية دار مراكش ١٩٨٧م.

شفيستر– ألبرت

٢٤٣)فلسفة الحضارة–ترجمة وتقديم الدكتور/ عبد الرحمن بدوى دار الأندلس ١٩٨٠م.

شعبان — الدكتور/ حسن محمد السيد

٢٤٤)التطور وقضاياه ط دار الفجر الجديد١٩٧٥م.

شفشق– الدكتور/ محمد عبد الرازق، ومنير عطا الله سليمان

٢٤٥)تاريخ التربيه —ط دار النهضة المصرية ١٩٦٨م.

شيللر —هربرت

٢٤٦)التطور الإحيائي — ترجمة وفاء صادق —ط دار الجيل —بيروت ١٩٦١م.

شعيب — الدكتور/ رضوان محمد

٢٤٧) التطور الزعماء و القضايا والمشكلات ط أولى ١٩٧١م.

الشبلنجى–الشيخ مؤمن

٢٤٨) نور الأبصار في مناقب آل بيت النبي المختار —ط المليجية بالقاهرة ١٣٢٣هـ.

شكري — الدكتورة/ علياء محمد

٢٤٩)عادات الطعام في الوطن العربي —ط أولى ١٩٨٢م.

شوقي —المهندس/ فاضل محمد

٢٥٠)التكنولوجيا ونظم المعلومات — المكتب الفني للطباعة والنشر ط١ ١٩٩٥م.

الشحات–الدكتور/على أحمد

٢٥١)نظرية التطور بين الدين والعلم–ط الخانجى بالقاهرة.

شعبان —الدكتور/ عبد الله عبد الدائم

٢٥٢)الثورة التكنولوجية – ط دار المعرفة –بيروت ١٩٩٧م.

حرف الصاد

صفوت –الشيخ/ على

٢٥٣)شرك الأمل لصيد شوارد المسائل في المعاني والبيان والبديع – المطبعة العامرية الشرقية ١١٣١١هـ.

صالح –مهندس/ عبد اللطيف محمود

٢٥٤) الإنترنت إعجاز علمي– ط الدار الجديدة ١٩٩٨م.

صابريني –الدكتور /محمد سعيد

٢٥٥)البيئة ومشكلاتها–ط عالم المعرفة ١٩٧٩م.

صابر– الدكتور/ أحمد محمد

٢٥٦) التطور واللاهوت دراسة حديثة –ط أولى دار الفكر الجديدة –بيروت ١٩٩٧م.

صالح– الدكتور /عبد العزيز محمد

٢٥٧)أوربا العصور الوسطي –ط١ ١٩٧٥م.

صفوت– الدكتور/ فوزي حسن

٢٥٨) علم الوراثة وعلاقته بهندسة الجينات –ط دار الأشقر بغداد١٩٨٦م.

حرف الضاد

الضبع – الدكتور/ محمد السيد

٢٥٩)دارون ونظريته الإحيائية –ط١٩٦١م.

ضبيع – صبري حسن

٢٦٠) التطور التاريخي وتفسيره للأحداث –ط سعيد رأفت ١٩٨١م.

الضبع – الدكتور/ منير محمد

٢٦١) علم التشريح المقارن –ط أولى ١٩٧٥م.

الضبع – الدكتور/ صابر محمد السيد

٢٦٢)الفلسفة اليونانية–ط٣ ١٩٦٣م.

حرف الطاء

الطبري — الإمام العلامة المؤرخ/

٢٦٣) تاريخ الأمم والملوك.

طلبة — الدكتور/ صلاح الدين مرسي

٢٦٤) النهضة الأوربية الحديثة — مطبعة هناء ١٩٩٥م.

طاهر— الدكتور/ حسن محمد

٢٦٥)التطور والعلم —ط١ دار قطن ١٩٨٨م.

طلعت — الدكتورة /هدى محمود

٢٦٦)البيولوجيا والإنسان —ط٢ دار الفواز بالعراق ١٩٧٣م.

الطويل— الدكتور/ ذكى محسن

٢٦٧) العصور الوسطي والنظام الطبقي في أوربا —ط٢ ١٩٩٧م.

طاحون—الدكتور/ عبد العظيم محمد

٢٦٨) الأزمنة الجيولوجية —ط١ مكتبة سعيد رأفت ١٩٧٩م.

الطماوى —الدكتور /عبد العظيم محمد

٢٦٩) البيولوجيا والمستقبل —ط الدار الجديدة ١٩٨١م.

الطناحى — الدكتور/ محمود محمد

٢٧٠)نبذه من تاريخ الطب العربي.

الطويل — الدكتور /فوزي محمد

٢٧١)فرويد والصهيونية —ط المؤسسة الحديثة ١٩٦١م.

الطويل— الشيخ/ عبد الحميد حسن

٢٧٢)حضارة بابل وأشور ط الدار البيضاء١٩٣٤م.

حرف العين

عبد المعطى — الدكتور/ محمود السيد

٢٧٣)نظرات في الفلسفة الحديثة ط أولى ١٩٩٥م.

عبد اللطيف – الأستاذ/ عبد العاطي محمود

٢٧٤) التطور العضوي ومشكلاته –ط دار الفجر الجديد١٩٤١م.

عزام– الدكتور/ محفوظ علي

٢٧٥) نظرية التطور عند مفكري الإسلام دراسة مقارنة –ط٢ دار الهداية ١٩٨٦ م.

عاشور – الدكتور/ محمد عبد القادر، والدكتور/ فؤاد محمد كمال

٢٧٦)محاضرات في علم النبات–ط أولى ١٩٨٧م.

عبد العاطي – الدكتور/ محمد

٢٧٧)السلوك الإنساني – المطبعة العلمية بيروت ١٩٥٣م.

عبد اللطيف– الأستاذ /نصر الدين محمد

٢٧٨) الزواج ضرورة اجتماعية –ط دار التوفيق ١٩٥٧م.

عبد– الأستاذ/ عبد الناصر محمود

٢٧٩)–البدائية في مظاهرها الأولى –ط دار نصار ١٩٦٣م.

عبد العظيم –مهندس/ أحمد محمد

٢٨٠)المعلوماتية الحديثة –مطبعة دار حسان ١٩٩٣م.

عبد العال– الأستاذ/ خالد محمد

٢٨١) الفرد والمجتمع دراسة وثائقية –ط دار وفاء ١٩٦١م.

عاشور – الدكتور /سعيد عبد الفتاح

٢٨٢)أوربا العصور الوسطي ج٢ – ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٦م.

عليوة – الدكتورة /هدى محمد

٢٨٣) أوربا قبل عصر النهضة –ط٢ ١٩٦٧م.

عمران –الدكتور/ عبد الحليم محمد

٢٨٤) التطور المشكلة والحلول –ط٢ دار الجيل بيروت١٩٦٧م.

عبد العليم –الدكتور/ أنور

٢٨٥)قصة التطور ط دار القلم بالقاهرة.

عبد العظيم– الدكتور/ نصر محمد

٢٨٦)البيولوجيا المتقدمة ط أولى١٩٧٥م.

العقاد–الأستاذ /عباس محمود

٢٨٧) الإنسان في القرآن.

عبد الظاهر –الدكتور/ حسن السيد

٢٨٨)الهندسة الوراثية وملامح المستقبل–ط أولى ١٩٧٧م.

العتر–الدكتور/ كمال محمد

٢٨٩)دراسات في علم الأحياء– ط ثالثة١٩٩٧.

عبد العظيم– الدكتور /حسن محمد

٢٩٠)الإنسان في القرآن ط أولى١٩٥٧م.

عثمان– الدكتور/ محمود عبد الحكيم

٢٩١)الفكر المادي الحديث.

عليوه–الدكتورة /هدى محمد

٢٩٢)أوربا قبل عصر النهضة –ط٢ ١٩٦٧م.

عبد الخالق–الدكتور/ أحمد

٢٩٣) الإسلام والفكر المنحرف — دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.

عبد الجليل — الدكتور/ ناصر

٢٩٤) الميتافيزيقا النقدية التأملية —ط دار عباد الرحمن — تونس ١٩٧٧م.

عبد الجليل — الدكتور /ليث، والدكتورة/ زينب إبراهيم الحبشي

٢٩٥)علم التطور —ط البصرة ١٩٨٥م.

العجمي — الدكتور/ أنور

٢٩٦) مقدمة في علم الوراثة والتطور —ط دار الهدى.

عبد المعطى — الأستاذ/ خالد محمد

٢٩٧)داروين وعقيدته الدينية —ط٢ ١٩٨٧م.

حرف الغين

الغاياتي – الأستاذة /منيرة على

٢٩٨) مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين – مكتبة وهبة ١٩٧٦م.

الغنام– الدكتور/ أحمد طلعت

٢٩٩)أضواء على نظرية النشوء والارتقاء.

الغرباوي –الدكتور/ زاهر عبد المعز

٣٠٠) التطور العام –ط دمشق ١٩٦١م.

غريب – الدكتور/ فوزي عبد العال

٣٠١) التطور ومدارسه –ط٢ دار الكرنك ١٩٧٥م.

غلاب – الدكتور/ محمد

٣٠٢) الفلسفة الإغريقية.

حرف الفاء

الفقى – الأستاذ/ محمد عبد القادر

٣٠٣)البيئة مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث – الهيئة المصرية ١٩٩٩م.

فاروق – الدكتورة/ أمال محمد

٣٠٤) علم النفس والتكيف الإجتماعي –ط٢ ١٩٦٢م.

فرانس – أنطونيو

٣٠٥) علم الخلايا و الهندسة الوراثية – ترجمة الدكتور/ فخري رزق –ط١ ١٩٩٧م.

فوزي – الدكتور/ خالد محمد

٣٠٦)زعماء التطور – ط دار المنتصر دمشق ١٩٧١م.

الفقى – الدكتورة/ علياء محمد

٣٠٧) ماندل وقوانين الوراثة –ط الثانية ١٩٧٩م.

فرانز –توماس

٣٠٨) التطور وتاريخه العام – ترجمة هدى مصباح –ط١٩٧١م.

فاضل - الدكتور/ خيري محمد

٣٠٩) التطور ومشكلاته - ط ٢ ١٩٨٧م.

فوزي - الدكتور/ خيري محمد

٣١٠) التطور الداروينى فلسفة غير مقبولة - ط دار الرشيد ١٩٨٧م.

الفولى - الدكتور/ محمد مصطفى

٣١١) بعض مظاهر التقدم في العلوم البيولوجية .

فلاوست- أ.ب

٣١٢) التطور التاريخي - ترجمة صبحي نقولا ط بيروت ١٩٩٢م.

فخري - الدكتورة /أمل محمد

٣١٣) الوراثة ونشأة الأنواع - ط ٢ دار الفؤاد ١٩٩٧م.

الفواز- الدكتور/ محسن محمد

٣١٤) العلمانية وعلاقتها بالماسونية - ط١ دار الجيل ١٩٧١م.

حرف القاف

قطب- الأستاذ/ محمد

٣١٥) مذاهب فكرية معاصرة - ط٨ دار الشروق ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

قمرة - الدكتور/ محمد عبد العظيم

٣١٦)الفلسفة الحديثة في ميزان النقد - ط ٢ ١٩٧٥م.

القادري - الدكتور /عزب محمد

٣١٧) علم الوراثة والسلوك الإنساني - ط ١ ١٩٧٧م.

القاسمي - العلامة الشيخ/ جمال الدين

٣١٨) دلائل التوحيد- ط دار التراث.

القرضاوى - الدكتور/ يوسف

٣١٩) الإسلام والعلمانية - ط١ ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

القويسنى - شيخ الإسلام الشيخ/ حسن درويش

٣٢٠) شرح القويسنى على متن السلم في المنطق.

حرف الكاف

كريم – الدكتور/ فوزي محمد

٣٢١) الفلسفة الصينية –ط١ ١٩٦٧م.

كراوثر –ج.ج

٣٢٢) قصة العلم – ترجمة الدكتورة/ يمنى طريف الخلفاوى و الدكتور/ بدوى عبد الفتاح ١٩٩٩م.

كرم- الأستاذ/ يوسف

٣٢٣) تاريخ الفلسفة الحديثة –ط٤.

كولر- جون

٣٢٤) الفكر الشرقي القديم –ترجمة كامل يوسف حسن –ط عالم المعرفة.

كيلفى، دانيال، ليرى هود

٣٢٥) الجينوم البشرى القضايا العلمية الاجتماعية –ترجمة أحمد مستجير.

كرسبي، انطونى دى، وكينيث فوج

٣٢٦)أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة – ترجمة الدكتور/ نصار عبد الله – الهيئة المصرية العامة ١٩٨٨م .

كولر- توماس

٣٢٧)مظاهر التطور الطبيعى- ترجمة نهال رشاد –ط الموصل ١٩٥٧م.

كير –توماس

٣٢٨)دراسات في التطور البيولوجى –ترجمة هاشم الناصورى ١٩٤١م

كولز – الدكتور/ سبنسر

٣٢٩) الطب النفسي قديما وحديثا – ترجمة وفاء صبري ١٩٨٧م.

٣٣٠) الأنفس الإنسانية –ترجمة الأستاذ/ فوزي محمود نصر–ط١ ١٩٦١م.

٣٣١)أعرف نفسك –ترجمة هدى فوزي ١٩٧٥م.

كانون – الدكتور/ جراهام

٣٣٢)نظرات في تطور الكائنات الحية – ترجمة الدكتور/ عبد الحافظ على – مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٩م.

كوفيه –جوسان

٣٣٣)الداروينية تحت البحث العلمي– ترجمة عبد العاطى خليل – دار التوفيق ١٩٦٢م.

كوفاك زون– فاكيلى

٣٣٤) المادية التاريخية – ترجمة أحمد داود –ط الجماهير –دمشق ١٩٧١م.

كيمنى– الدكتور/ جون

٣٣٥) الفيلسوف والعلم –ترجمة الدكتور/ أمين الشريف– المؤسسة الوطنية– بيروت .

حرف اللام

لاوست– جورج هنرى

٣٣٦)داروين والصور المشتركة –ترجمة الدكتور/ صابر محمد العقدة –ط بغداد ١٩٧١م.

لانت –سوروني

٣٣٧) كهنة مصر القديمة – ترجمة الدكتور /صلاح محمد فضل –ط دار الجيل بيروت ١٩٦١م.

لوكهايد – نورمان

٣٣٨) الثورة الفكرية في عصر النهضة تاريخ ومشكلات –ترجمة صفاء الطويل –ط دار بو عزيزة مراكش ١٩٨١م.

حرف الميم

مصباح– الدكتور/ عبد الهادي

٣٣٩) الاستنساخ بين العلم والدين –ط الهيئة المصرية ١٩٩٨م.

المنياوي – الشيخ/ سعد الدين بن حمزة

٣٤٠) الجواب الظريف عن السؤال في فن التصريف – المطبعة الجمالية ١٣٣٢هـ.

محمود –الدكتور/ زكى نجيب

٣٤١) الجبر الذاتي– ترجمة الدكتور/ إمام عبد الفتاح إمام –الهيئة المصرية١٩٧٣م.

مقري –بنيلوبى

٣٤٢)العبقرية وتاريخ الفكرة – ترجمة محمد عبد الواحد –عالم المعرفة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

مور – بوتو

٣٤٣) تمهيد في علم الاجتماع –ترجمة الدكتور/ محمد الجوهري وآخر –ط دار المعرفة ١٩٨١م.

ماكيفر– روبرت موريسون

٣٤٤)المجتمع – ترجمة الدكتور/ على أحمد عيسى –النهضة المصرية.

المصري –الدكتورة/ أميرة محمد

٣٤٥)الفرد والجماعة – ط ١ دار حسان ١٩٦١م.

المسير –الدكتور /سيد أحمد رمضان

٣٤٦) إلزام القرآن للماديين والملبين –ط أولى ١٣١٩هـ/١٩٧٩م.

موريسون –كيرسي

٣٤٧) العلم يدعو للإيمان– ترجمة الأستاذ/ محمود صالح الفلكي –ط دار النهضة الحديثة.

محمود –شيخ الإسلام الإمام الأكبر الدكتو/ر عبد الحليم

٣٤٨)الإسلام والشيوعية –ط دار التراث العربي ١٩٧٥م.

٣٤٩) موقف الإسلام من الفلسفة الحديثة – مقال مجلة الأزهر –عدد ربيع الأخر ١٣٨٩هـ/١٩٧٨م.

مرسي–الدكتور/ سيد عبد الحميد

٣٥٠) الفرد والمجتمع في الإسلام – مكتبة وهبة.

موسى– الأستاذ/ سلامة

٣٥١)نظرية التطور و أصل الإنسان – المطبعة العصرية بمصر.

مهد–هنتر

٣٥٢)الفلسفة أنواعها مشكلاتها –ترجمة فؤاد زكريا –ط٩ القاهرة١٩٧٥م.

مرسي – الدكتور/ صلاح الدين حسن

٣٥٣)الداروينية القديمة والحديثة –ط دار المهند بالموصل ١٩٦٥م.

مظهر– الأستاذ/ إسماعيل

٣٥٤)ملقى السبيل.

٣٥٥)تطور الكائنات الحية.

مصطفى — الدكتورة/ تهاني محمد

٣٥٦) الحضارة حركة مستمرة —ط٢ دار الطاهر بالمغرب ١٩٦١م.

مارتن— روبرت

٣٥٧) التطور والتطوريون —ترجمة السعيد حنفي— ط دار الوفاء١٩٧٥م.

مارتن —هولينج

٣٥٨) التراكيب الجيولوجية والتطور —ترجمة حنان رزق —ط دار الجيل بيروت١٩٨٥م.

مايلد — توماس

٣٥٩) علم الوراثة من منظور كميائى —ترجمة حنان راشد —ط مؤسسة فرانكلين ١٩٦٨م.

المالكي —الشيخ/ حمزة محمد على

٣٦٠)أيام العرب في الجاهلية —المطبعة التقدمية ١٣١٥هـ.

حرف النون

نصر الدين—الشيخ/ محمد

٣٦١)الصرف العربي —ط دار حكمت بتركيا ١٣٠٨هـ.

نصر الله — الدكتور/ توفيق محمود

٣٦٢)تطورات المجتمع الإنساني —ط١ ١٩٦٣م.

نجم— الدكتور /خيري أحمد

٣٦٣)أرنست هيكل وفلسفته —ط دار القلم بيروت.

النشار— الدكتور /على سامي

٣٦٤) مناهج البحث عند مفكري المسلمين —ط٤ دار المعارف.

النمرسى — الدكتور/ على عبد المعطى

٣٦٥) مشكلات حيوية —ط٢ ١٩٦٥م.

حرف الهاء

هايد —بارتلمى

٣٦٦)التطور العلمي سمة الحياة –ترجمة هناء حبشي –ط دار الموصل ١٩٤٣م.

هيلر –توماس

٣٦٧)علم الكائنات الحية–ترجمة فوزي أبو خليل –ط دار الجيل بيروت ١٩٧٢م.

هملبوث – أ.ب

٣٦٨)الطفولة المبكرة– ترجمة فوزي مصباح –ط الدار العصرية ١٩٥٣م.

هيرز –توماس

٣٦٩)البيولوجيا في المنظومة التاريخية –ترجمة حنان فخري ١٩٧٣م.

هيد –توماس رامس

٣٧٠)تطور الكائنات الحية –ترجمة الدكتورة/ وفاء صالح. و الدكتور/ حسن فخري –ط٣ ١٩٨٧م

هيدر –فردريك

٣٧١)التطور التاريخي للكائنات الحية –ترجمة فؤاد عدنان –ط دار الجيل بيروت ١٩٧١م.

هايلدر –انتونى

٣٧٢) الجينوم ومراحله – ترجمة الدكتور/ على هاشم قريع –ط١ ١٩٨٧م.

هيكل–أرنست

٣٧٣)مذكرات هيكل– ترجمة خالد ناصر –ط دار المعرفة بيروت.

هربر – أنتونى توماس

٣٧٤)البيئة والتطور قواسم مشتركة –ترجمة الدكتورة/ حنان عزت –ط دار التوفيق ١٩٨٧م.

هولز– توماس

٣٧٥) الفسيولوجيا والتطور الحيوي –ترجمة صفاء فضل الله –ط دار الحرية.

١٩٨٥م

هيدر –فرانك توماس

٣٧٦) التطورات العلمية في مجال البيولوجيا –ترجمة الدكتور /صابر حسن شمس الدين –ط دار الفكر بيروت ١٩٩٣م.

هيج – توماس أندريه

٣٧٧)البيولوجيا والمجال النووي – ترجمة هناء صبري جمعة– منشأة الإسكندرية و ط دار الجيل– بيروت.

هورتن – جورج

٣٧٨)الأرض التي تحتنا –ترجمة رزق فضل الله –ط الدار العصرية بيروت ١٩٩٧م.

هولمان– أرنست

٣٧٩) الجيولوجيا بين الماضي والحاضر–ترجمة فؤاد ثابت – ط دار المعرفة بيروت١٩٨٤م.

هوسول –أمموند

٣٨٠) الخلية والحياة – ترجمة نور الدين محمد عبد العاطى –ط١ ١٩٨١م.

الهلالي – الدكتور /على الدين محمد إبراهيم

٣٨١) علم الأجنة دراسة مقارنة –مكتبة دار الفؤاد ١٩٨١م.

هوكس – فرانك

٣٨٢)علم التشريح والتطور–ترجمة حسن رمزي–ط دار الجيل ١٩٦١م.

هايلد –ارنولد

٣٨٣)الإنسان والحيوان خصائص مشتركة– ترجمة هناء محمد زكريا–دار الفجر الجديد ١٩٨٠م.

هولمز – الدكتور /فلاوت

٣٨٤)أمراض الدم والمشكلات المستحدثة – ترجمة الدكتورة /هناء فخري –ط دار الفكر ١٩٨٥م.

هيلد –توماس أندريه

٣٨٥)الإنسان كائن برأسه –ترجمه حنان مهنا ١٩٨٧م.

هايلد –انجرمان

٣٨٦)الإنسان والبيئة –ترجمة الدكتور/ عبد العزيز راشد –ط دار الجيل بيروت ١٩٧٧م.

حرف الواو

والاس –ألفريد راسل

٣٨٧)مذكراتي الشخصية –ترجمة صبري حافظ–نشر دار الجيل بيروت.

الوكيل– الدكتور/ حازم محمد

٣٨٨)علم الوراثة والسلالات —ط دار الفجر ١٩٧٦م.

وياخوت —سيركين

٣٨٩)أسس المادية الديالكتيكية التاريخية —ترجمة الأستاذ /محمد الجندي ١٩٦٧م.

ويلز.ه.ج.و

٣٩٠)موجز تاريخ العالم ج١ —ترجمة عبد العزيز توفيق صابر، مراجعه محمد مأمون.

حرف الياء

يورج —تشارلز هانط

٣٩١)علم الاجتماع والأنثرولوجيا —ترجمة الأستاذ /عبد العاطى نور الدين — مكتبة المعرفة ١٩٥١م.

يوسف —الأستاذ /عبده محمد

٣٩٢) المجتمع الإنساني في مراحله الأولى —ط دار الجيل ١٩٨٧م.

يونسكى—ب.ج

٣٩٣)الكائن الحي والتطور السلوكي —ترجمة وفاء صبحي.

يس— الدكتور/ فوزي محمد

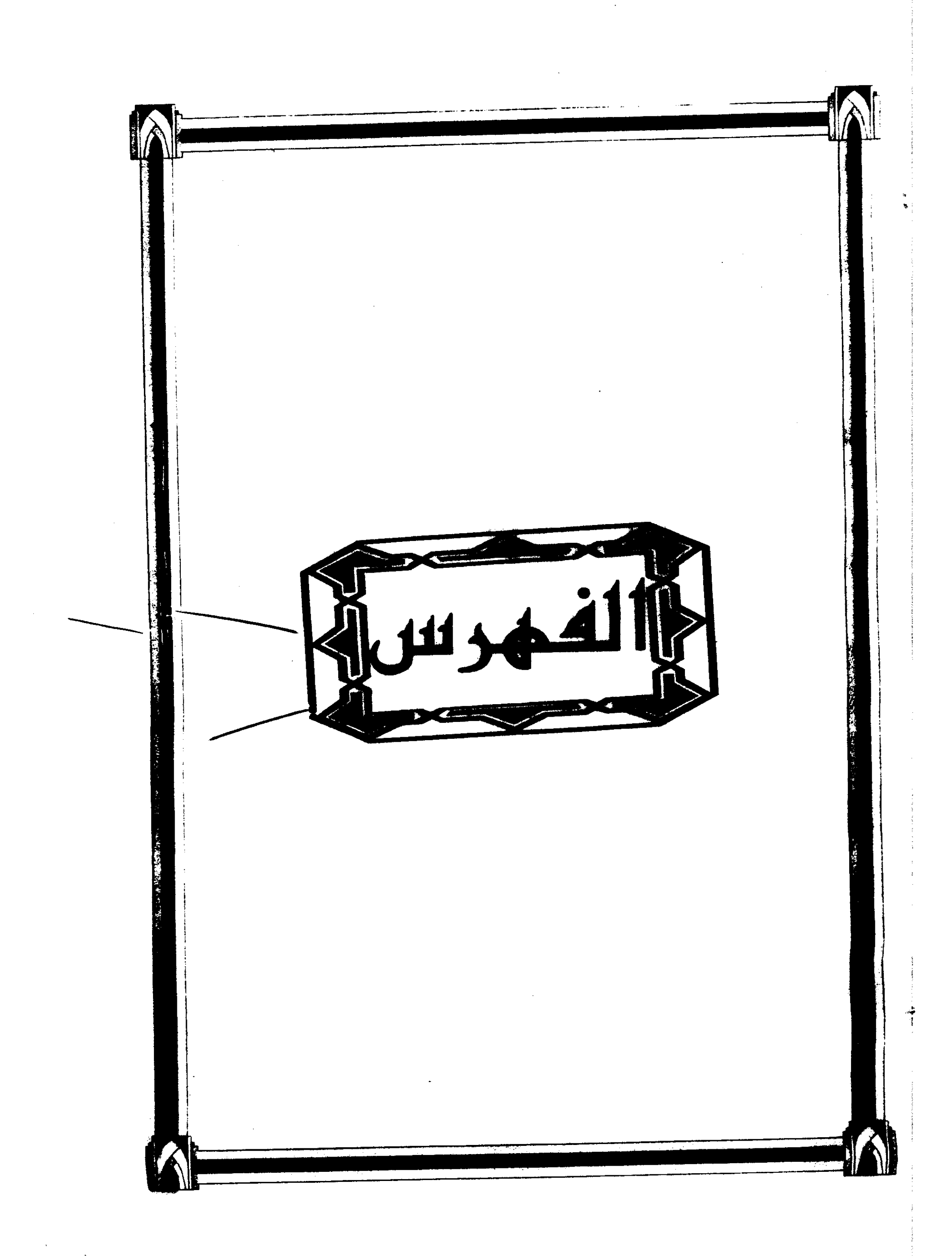
٣٩٤)علم الأحياء —ط١ ١٩٦١م.

يسرى— الدكتور/ فوزي محمد

٣٩٥)زعماء التطور بين الحقيقة والخيال— ط دار الجيل بيروت ١٩٦٧م.

ملاحظة:

هناك العديد من المصادر سقطت إما سهوا، أو من باب التخفيف عن جريدة المصادر، ويمكن للقارىء الفاضل مطالعتها بهوامش الصفحات.


الفهرس

مع أطيب التمنيات بالنجاح والتوفيق
محمد جمال حسنين - للكمبيوتر والتصوير
بالزقازيق حرفية

الدكتور

محمد حسينى موسى محمد الغزالى

التطور الإحيائي بين الدين والفلسفة

رقم الإيداع : ٨٥٠٨ /٢٠٠١

الترقيم الدولي : ــــــــــــــ

محمد كمال حسنين للكمبيوتر والتصوير والطباعة بالزقازيق شرقية